



أهل البحر

محمد جبريل



# أهل البحر

تأليف  
محمد جبريل



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢٥٩ ١

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٧.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

## المحتويات

١٥	ابتهاال المنسي
٢٣	الأبجر
٣٥	إبراهيم سيد أحمد
٤٧	ابن خطاب
٥٧	أبو الحسن الشاذلي
٦٩	أبو حلاوة
٨١	أبو العباس المرسي
١٠١	أحمد خليل
١٠٩	أحمد المسيري
١١٧	الإسكندر الأكبر
١٢٧	إسماعيل صبري
١٣٩	أنجلو سييرو
١٤٧	إنصاف
١٥٣	الأنفوشي
١٦٥	بدوي الحريري
١٧٣	البوصيري
١٨٣	جميل الخضراوي
١٨٩	جنديّة محفوظ الصاوي
١٩٧	جنّي البحر
٢٠١	جودة هلال

٢١١	حجازي أيوب
٢٢١	حسين بيكار
٢٢٩	حمامة العطار
٢٣٥	حمدي درويش
٢٤٣	حميدو شومة
٢٥٥	الخضر
٢٧١	خليفة كاسب
٢٧٩	خليل الفحام
٢٨٩	رافع عبيد
٢٩٧	رفقي زلابية
٣٠٩	سامي بهاء الدين
٣١٧	سعيد العدوي
٣٢٧	سلامة حجازي
٣٣٩	سيد حلال عليه
٣٤٥	سيد درويش
٣٥٥	سيسبان
٣٦٥	شحاتة عبد الكريم
٣٧٧	شوقي أبو سليمان
٣٨٥	صبيحة الداخني
٣٩٥	ضياء خير الله
٤٠٧	عبد الرحمن بن هرمز
٤١٥	عبد الستار
٤٢٣	عبد اللطيف النشار
٤٣٣	عبد الله أبو رواش
٤٤١	عبد الله النديم
٤٥٣	عفريت الخراية
٤٥٩	عروس البحر
٤٦٩	عصمت هانم محسن
٤٧٩	علي تمرار

## المحتويات

٤٩١	علية عشاوي
٤٩٥	عمران الخولي
٥٠٣	غريب أبو النجا
٥١١	فاروق الأول
٥٢١	فتنة السعداوي شبانة
٥٣١	قنبر عبد الودود
٥٣٧	كامل أبو السعادات
٥٤٣	كرم حامد
٥٥٥	المارد
٥٦١	ماهر الصاوي
٥٦٩	محمد كاظم ميلاني
٥٧٩	محمود بيرم التونسي
٥٨٩	محمود سعيد
٥٩٩	محمود فياض
٦٠٩	مكية الحريري
٦١٥	نجم أبو العيش
٦٢٣	نعمات
٦٣١	ياقوت العرش





إلى سلطان الإسكندرية  
المرسي أبو العباس



البحر ... البحر الذي يتجدد أبدًا

ألدوس هكسلي



هذا كتاب، أردتُ به أن أعرض للحياة في بحري؛ المنطقة ما بين سراي رأس التين وميدان المنشية، البشر والأماكن والتاريخ والوقائع والأحداث. بحري أصل الإسكندرية، التحام قرية الصيادين راقودة بجزيرة فاروس، شبه جزيرة في شبه جزيرة الإسكندرية. يُطلُّ من ناحية الشرق على المينا الشرقية، ومن الغرب على المينا الغربية، في الشمال يمتدُّ خليج الأنفوشي. يضم بين جنباته الأبواب الرئيسة للجمرك، والمحطة البحرية، ومعهد المسافرخانة الديني، ومرسى القوارب، وحلقة السمك، وقلعة قايتباي، ومعهد الأحياء المائية، وورش القزق، وسراي رأس التين، ومستشفى الملكة نازلي، ومقابر البطالمة، والحمام العمومي. يحتضن العشرات من الأضرحة والمقامات والمساجد والزوايا. أسماؤها بأسماء أولياء الله الصالحين وأقطاب الصوفية. عاش فيه شعراء وأدباء ومفكرون وفنانون وساسة. خرجت منه مظاهرات، دارت معارك بين الناس وقوات الإنجليز، وبين فتوات الحي وفتوات الأحياء المجاورة. مارس أبناؤه الحياةً بصورها الرتيبة والمغايرة. عرفوا الواقع والخيال والسحر، وبركات أولياء الله ومكاشفاتهم. ولأن تاريخ الإسكندرية يمتد في قلب العالم القديم، منذ راقودة وجزيرة فاروس، واتصالهما في زمن الإسكندر، بدايةً لإسكندرية زماننا الحالي، فقد اقتصرَت ترجمتي على الشخصيات التي عاشت في بحري منذ مطلع القرن العشرين، أو أن تأثيراتهم — مثل الأولياء وسكَّان العوالم الروحية — ظلت واضحةً في أبعاد الحياة. هذا ما قد يُطيقه شخص واحد، وإن فرض الاعتذارُ نفسه لشخصيات نسيتهَا، ووقائع لم أضع يدي عليها. ما شغلني أن أصنع من تجاور الشخصيات والوقائع لوحةً بانوراميةً لصورة الحياة في بحري، منذ بدايات القرن العشرين، حتى الآن.



## ابتهال المنسي

يخْمَنُ مَنْ يتأمل ملامحها أنها كانت جميلةً في صباها. الشعر الناعم الذي أجادت صبغَه بالحناء، العينان الصافيتا الزرقة، الأنف الدقيق، الشفتان الرقيقتان كورقتي وردة. حضرت على زوجها المعلم غانم أبو طالب أن يتخذ عشيقات. ومنعت النساء الجميلات من التردد على حلقة السمك، أو يضعنَ البرقع، لا يخلعنه إلا بعد أن يغادرنَ الحلقة. راعها عدمُ تردُّده على حجرتها. أدركت أن ميله اشتد إلى حب الغلمان. حرصت — من يومها — أن ترتدي — داخل البيت — زيَّ الرجال، ربما تُثيره بما يُعيده إليها. وارتدت — خارج البيت — عباءةً سوداء، تنسدل إلى قدميها. لمَّا ظلَّ أبو طالب على غيِّه، طردته من البيت، منعتَه من العودة إليه. صارحته بأنها لم تُعد تُطبق العيش معه بين أربعة جدران. أخفق إلحاح الأبناء، ووساطات الأهل والجيران، في التقريب بينها وبينه.

مات زوجها عقب مرض لم يُمهله طويلاً. أنكرت بلامح الغضب، وبالشتائم، أن تكون وفاته بسُمَّ حَرَّضت على دسِّه في طعامه. أخطأ فطردته من البيت، لكنَّ حبه في قلبها لا يتركه. حرصت على أن تصحب شحاتة الحانوتي — تخاف زيارة المقابر — لزيارة زوجها. يشتريان خوصًا وبلحًا وتوصي على أقراص «منين» من فرن حبيب. يقضيان اليوم في الحوش. تُوزع الصدقات على روح المتوفى، تهب القرءاء على تلاواتهم القرآن، تشكو لشحاتة همومها، ما خلفه الراحل من حمل ثقيل لا تقوى عليه. بشرها شحاتة بأن الرجل مات ليلة الجمعة، من رحل إلى ربِّه في ليلة الجمعة، أو نهار الجمعة، وقاه الله فتنةَ القبر.

حذَّرها من البكاء عند القبر. الميت — في حديث للرسول — يُعذَّب ببكاء الحي عليه، ويُعذَّب بالصياح والصُّوات.

قال إن الشيطان هو الذي يُزين لأهل الميت خمَسَ الوجوه، ولطم الخدود، ونشَرَ الشعور، وشقَّ الثياب. الروح — في الأيام الأربعين الأولى — تظل قريبةً من الجسد، تسمع ما يُقال فوق القبر. تتأثر بما تسمعه. تُرضيها الكلمات المفرحة، وتُحزنها المشكلات، تنعكس على رقادها، وما إذا كان مريحًا، أم تُعاني العذاب.

إذا كان الزوج قد مات على شهادة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فإنه لن يُعاني وحشةً في القبر، ولا في النشور، إنما ينفض رأسه التراب، ويقول: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن.

ما ذنب موتانا ليدفعوا ثمنَ حماقاتنا؟!

رَوَتْ أن الزوج زارها في المنام. سألته عن أحواله في العالم الآخر: هل يحيا في نعيم الآخرة؟ أو يُواجه عذابًا يُؤله؟

تحدَّث شحاتة عبد الكريم عن عبر الحياة الدنيا والآخرة، الموت وأشراط الساعة، والحشر والصراف والجنة والنار. الروح التي تُرد إلى جسد الإنسان بعد دفنه، فيسمع كلام الناس. حفنة التراب، يأخذها الميت من قبره، يرمي بها وهو يقول: ارجعوا إلى دياركم، أنساكم الله موتاكم. ينسون الميت، ينشغلون بالبيع والشراء، كأنهم لم يكونوا منه، ولم يكن منهم. المحسن يُتاب في قبره. أما المخطئ فيُفتن في القبر، يلحُّ في سؤاله، ويُهان، ويُعذَّب. الملك رومان، أول من يلقي الميت في القبر. الملكان منكر ونكير يبدوان في خلق جميل، يختلف عن خلق البشر والملائكة والطير والحيوان والزواحف والهوام، لكن خلقتهما لا تسرُّ الناظرين. هما تكرمة للمؤمن، يُثبته وينصره، وهتگا لستر المنافق في البرزخ من قبل أن يبعث، حتى يصلَّ عليه العذاب. يسأل الملكان، ويحاسبان. إذا قرأ الزائر فاتحة الكتاب والمعوذتين، وقل هو الله أحد، فإن ما قرأه يصلُّ إلى الملكين. هدايا الأحياء للموتى، الدعاء للميت أن يُوسخ الله قبره، ويملأه نورًا، ويجعل منزله أخضر، ويعرج بروحه إلى السماء. لأن زوجها عمل — في حياته — أعمالًا صالحة؛ فقد استعاد شحاتة أسئلة الملكين للرجل: مَنْ ربك؟ ما دينك؟ مَنْ نبيك؟ ما قبلك؟ يوفقه الله، ويُثبته بالقول: وَمَنْ وكلما علي؟ ومن أرسلكما إلي؟ يُدرك الملكان أنه من الأخيار. يفسحان له في قبره، ويملأته نورًا. يضربان عليه القبر كالقبة الهائلة، ويفتحان له بابًا إلى الجنة. يفرشان له من حريرها وريحانها، ويدخل عليه من نسيمها وروحها. يأتي عمله في صورة أحب الأشخاص إليه — أظن أنه



أنت يا ست ابتهاال — يُؤنسه، يُحدّثه، يملأ قلبه نورًا، يظل المرء في فرح وسعادة، حتى قيام الساعة.

اقتصرّت ابتهاال المنسي من المعلم بدوي الحريري ما أعانها على المشاركة في حلقة السمك. استأجرت ثلاثة بلانسات. تقف في الحلقة — منذ غبشة الفجر — لبيع محصولها. تقضي معظم يومها في دراسة الجدوى ومراجعة الحسابات؛ المصاريف والرواتب، وأرقام الربح والخسارة والفاقد، وغيرها مما لم يخطر في بالها. تُكثر من شرب القهوة المحوجة بالحبهان، تصنعها في كنكة على سبرتاية، تدعو إليها ضيوفها. تدفع بمبسم الشيشة من بين شفّتيها إلى أيديهم. تحرص على توزيع الأنصبة قبل أن تغادر المكان.

رفضت عرض الرئيس غريب أبو النجا أن يُدير عملها نيابةً عنها. قرن عرضهُ بوعد — دون مقابل — أن يكفّيها عناء الوقفة في الحلقة، والتعرّض لمضايقات الصيادين والفريشة والسريحة والدالين ومفتشي الصحة ومأموري الضرائب والبلطجية.

تحدّثت عن حق المرأة في التعامل مع الملكية، تبيع، وتشتري، وتتصدق، وتزكّي. قالت إن الإسلام أعطى المرأة حقّ الاتجار، والخروج من بيتها، لاكتساب العيش، بما لا يخالف شرع الله. لا قيد — حتى من الزوج — على تصرفاتها. شرع الله، من يرفضه فيذهب إلى الشيطان!

صار للحياة معانٍ لم تكن تعرفها، ولا فكّرت فيها من قبل. تغيّرت نظرُها إلى الأشياء. أدركت أن العالم خارج البيت ليس عاصفًا، وأنها تستطيع ركوب البحر دون أن تخشى أمواجه.

لم تُعدّ تُطيل النوم إلى ما بعد الضحى. تصحو من النجمة. تتوضأ، وتصلي، وتُغلق وراءها باب البيت الخالي، بعد أن تركه الأولاد الثلاثة والبنتان إلى بيوتهم. تخترق الشوارع الجانبية إلى حلقة السمك.

أهمّلت التحذيرات بأن الحلقة ليست العالم الذي تسهل الحياة فيه. هي عالم للرجال، يشيلون، ويحطون، ويشترون، ويبيعون، ويعانون التوقعات.

أظهر المعلم خلف زيدان استغرابه — وضيقة أحياناً — من مزاحمة ابتهاال المنسي لمُعلمي الحلقة في عمليات البيع والشراء. عمل المرأة الحقيقي داخل جدران بيتها، وليس داخل جدران الحلقة. الحلقة سوق للرجال. وقفة النساء خارجها، للشراء، أو لارتشاف دم الترسة. استعاد قول الرسول — نقلًا عن الشيخ إبراهيم سيد أحمد — ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾. على النساء إذن أن يلزمن البيوت.

أقامت علاقات مع معلّمين من أبي قير ورشيد وإدكو والبرلس. استوردت أنواعًا من السمك لم يسبق عرضها في الحلقة.

لم تجد حرجًا في الجلوس على مقهى الزردوني، تشرب الشاي، تدخل في مناقشات مع مفتش الصحة ومفتش التموين وأمور الضرائب، تعقد الصفقات، توقع العقود، تُهمل النظرات المتأملة والمتسائلة والمندهشة، ومطالب الإتاوات.

التقت ببيرم التونسي في ترده على الحلقة. يستعيد ذكريات ما قبل المنفى. المعتقدات والعادات والتقاليد والأفكار والأقوال والتصرفات والأحداث والإشارات.

استراحت إلى ملامحه الأوروبية: خصلة الشعر الأصفر المتهدلة على الجبهة، البشرة البيضاء المشربة بحمرة، العينين الزرقاوين. عدو الشمس في وصف الشيخ رافع عبيد.

عابت على بيرم ما نشرته له الصحف المصرية من أذجال. غاظتها المقارنات بين المرأة الفرنسية وبنت البلد في مصر.

قال بيرم:

وأقول لكم بالصراحة	اللي ف زماننا قليلة
عشرين سنة في السياحة	واشوف مناظر جميلة
ما شفت يا قلبي راحة	في دي السنين الطويلة
إلا اما شفت البراقع	واللبدة والجلابية

قالت ابتهاج: لا تراوغ. أنا بنت بلد، ومعلمة في الحلقة.

بدا عليه تأثر: لولا غلب السياسة ما تركت بحري!

أسلم نفسه لصمت، كأنه يتدبر ما ينوي قوله: بحري هو البحر، لكن ناسه فتافيت سكر ... تدوب في الماء فيصبح المذاق سائغًا.

وأودع صوته رقة: هذه هي الصلة بين بحري وناسه.

لاحظت أنه يُرسل نفسه على سجيبتها، لا يصطنع ولا يتكلف. ما يشغله يتحدث عنه، يبوح به، لا يختار الكلمات، وإنما يعبر عن المعنى بالكثير من الحركات والإشارات والإيماءات، ويحرص على تلوين صوته، وتنغيم كلماته، فتدل على المعنى الذي يقصده.

وهي تتلمس طريقها في ظلمة زقاق العماوي، ارتطمت بمن لم تتبينه. عرفت الرجل في الصوت الأَجش: لماذا لا تدفعين ما عليك؟

## ابتهاال المنسي

خَمَّنت أن الصوت لمحمدي الزنط مساعد حميدو شومة. يتردد على الحلقة، ويجلس على مقهى الزردوني، يعلو صوته بالنداءات والأسئلة والملاحظات.

قالت لتستوثق: محمدي؟

- وقفتك في الحلقة لها ثمن.

أدرکت أن وقفَتها في الحلقة، تبيع، وتشتري، وتعدّد الصفقات، تحددها هذه اللحظة. ترفض فتظل في وقفَتها داخل الحلقة، تقبل فتلزم البيت. في بالها، ما قالت له الست صبيحة - حين تكلمت عن اعتزامها النزول إلى السوق: تُعدِّين نفسك لأعمال الرجال، احرصي على أن تملكي من القوة والسيطرة ما للرجال! تأكدت من الملامح بسقوط ضوء خافت، كومضة على وجهه. حدست ارتباكك من ارتعاشة أصابعه تحاول مداراة عينيه.

حاولت أن تستعيد نفسها: لن أدفع مليماً!

وهو يدفعها في كتفها: صبري آخره مساء الغدا!

سعت - في الليلة نفسها - إلى حميدو شومة في مقهى رأس التين.

- هل عجزت عن تهديد الرجال ... فاتجه صبيانك إلى النساء؟!

لما تخرج أكبر أبنائها في كلية الحقوق، حدّثها عن المجموع الذي يُتيح له وظيفة معاون نيابة. وقفَتها في الحلقة عائق يصعب اجتيازه.

قالت لها الست صبيحة: هو ليس زوجك. ذكّريه أنه سيظل في حاجة إلى فلوسك!

رزق الحلقة - وحده - لا يكفي للعيش. معلم الحلقة يطلب ما قد لا يحتاجه سواه من الصيادين. الأتباع والأبهة والبيت المستقل والبنز والمنظرة وبذل الزكوات والصدقات.

نقلت ابتهاال ما رواه الشيخ إبراهيم سيد أحمد، نقلًا عن الإمام ابن تيمية، من عدم تحمّل المرأة أنواع المعاملات المالية والتجارية.

قالت الست صبيحة: إذا تطورت خبرتك فستصير شهادتك مساويةً لشهادة الرجل.

أضافت بلهجة حاسمة: هذا ما يشير به الفقهاء.

أفادت ابتهاال المنسي من حياتها العملية في التجارة.

اشترت بلانسات التأجير. أضافت إليها أسطول سيارات، ينقل الصيد إلى المدن، خارج الإسكندرية. اشترت أسهماً في بنك مصر، وفي شركات تجارية. ضاربت بالأسعار في البورصة. امتلكت شركة لأعمال المساحة وتقسيم الأراضي. رفض المحافظ أن تمدّ نشاطها

للمساحات المقطعة من البحر. أزمعت إنشاء مصنع لإنتاج الكرملة والبستلية والنعناع والعرقسوس وغيرها من حلوى مصانع نادلر بشارع الطرطوشي.  
أهملت عرضاً من حميدو شومة أن يشاركها في تهريب بضائع من الدائرة الجمركية. قالت إن ما يشغلها أن تفعل ما لا يُعرضها للمساءلة، ما لا يؤذيها.

لم يبدُ على الناس مفاجأة، لما أنبأ شحاتة عبد الكريم جلساءه في قهوة مخيمخ أنه قد يتخلّى عن مهنة الحانوتي. ربما تترك له الست ابتهاج — التي تزوجها — موضعها في حلقة السمك، وفي إدارة عملها. مثل هذه الوقفة شاقة على النساء.  
تحدّث عن الشرط الذي أثبتته في عقد زواجهما، أن يلتزم شحاتة حسنَ الصحبة والمعاشرة، وبالمعروف والخلق الرضي، ويتقي الله فيها، يُمسكها بمعروف، أو يُطلقها بإحسان. وتحدّثت عن شرط — بينها وبينه — بعدم ممانعته في زيارة زوجها الراحل، في الأوقات التي تُتاح لها.

أهملت الست ابتهاج — بتأثير كلمات شحاتة الموسمية — قولَ زوجها الراحل وهو على فراش الموت: إذا أردتِ أن تكوني زوجتي في الجنة، فلا تتزوجي من بعدي، المرأة لآخر أزواجها في الدنيا.

قال شحاتة: من يضمن الجنة؟

استطرد في لهجة ملونة: ما أعرفه أن المرحوم لم يفعل في دنياه ما يُعينه على ثواب الآخرة.

وقال شحاتة إن أحداً لا يموت بدلاً من أحد. إذا كان الزوج قد مات، فإن من حق الزوجة أن تواصل حياتها. تحزن، وتبكي، وتذكر، ثم تُسدل ستاراً على ما كان.  
لم يكلم مدحت — أكبر أبناء ابتهاج المنسي — شحاتة في زواجه من أمه، ولا حاول لقاءه.

حذرهما من أن تُطلق يدَ الرجل في أموالها. ما يدخل جوفه لن يلفظه.  
تابع — بعيني الاستياء — متابعتها لتصفية مكتب التصدير والاستيراد، المطل على ناصية شارع شريف باشا وميدان محمد علي.

— تعترلين النجاح للزوج من شحاتة؟

مصممت شفّتيها: ما له شحاتة؟ ... أليس رجلاً؟!

— أتحدّث عن الفرق بينك وبينه.

اتجهت إليه بملامح متقلصة: أي فرق؟ هو رجل وأنا امرأة وحيدة!

## ابتهال المنسي

– هل خلت الدنيا من رجل يليق بك؟

– القلب وما يريد!

زفر في استياء: سأصدق ما قيل إنه عمل لك سحرًا.

وشى صوتها بنبرة رافضة: ابتعدْ عنه إذن حتى لا يؤذيك بسحره!

أشاحت الست ابتهال بيدها لقول الفريش الحنفي عبد المعتمد إنها قبلت زواج الرجل

بتأثير عمل للمحبة والوفاق، دسّه في ماء النرجيلة.

تهامست روايات في المقهى أن شحاتة أنقذت الست ابتهال من عمل واحدة من عشيقات

زوجها، رُبط في قرموط، وقُذف به في البحر. تنتقم المرأة من ابتهال التي دسّت السم –

كما فطنت – في طعام الزوج الراحل.

حفظت المرأة لشحاتة الجميل، فزوّجته نفسها.

انظر: إبراهيم سيد أحمد، حميدو شومة، شحاتة عبد الكريم، صبيحة الداخني،

غريب أبو النجا. محمود بيرم التونسي.



## الأبجر

تعالّت خشخشةً من فوق الشجرة، على ناصية شارع سراي محسن باشا. بدا كأن شيئاً سقط على الأرض. لحظةً علا فيها التراب، ثم انتفض الشيء، وانطلق داخل الخرابة القريبة، دون أن يُتاح له مجرد رؤيته.

بلغته أحاديث الناس عن عفريت الخرابة. حدس أنه هو. مضى وراءه بشعور التحدي. تقافز بين الردم وقطع الحجارة وكومات الزباله. لم يجد حساً، كأن المخلوق — الذي صعد إلى الخرابة أمامه — قد تلاشى.

استعاد قول الحاج جودة هلال إنه شاهد البيت في اليوم التالي لسقوطه. أرواح القتلى حوّلت الخرابة إلى مأوى. العفريت تصور خرافة. ما عفريت إلا بني آدم. القرآن ذكّر الروح، وأنها من أمر الله.

لم يقرأ الأسطى مجاهد أبو الحمد عن معنى الأبجر في اللغة، وأنه العظيم البطن، أو حبل السفينة الضخم. لم يلجأ الأسطى أبو الحمد إلى أصدقائه المقرّبين — خليل الفحم، والشيخ خلف فرحات إمام جامع المسيري، وعبد الله أبو رواش، وغيرهم — لتبين معنى التسمية. تابع سيرة عنتره، في مقهى الزردوني، قبل أن يظهر الراديو. استهوته رفقة الأبجر لعنتره في معاركه، براعته في الكر والفر، «كأنه الليث القشعم، يُشبه لون الظلام، أو كأنه قطعة من الغمام، همته همّة يقظان، وخفته خفة غزلان، وصهيله جرس، وقوائمه كأنها حرس، وعيناه ياقوتتان، ويداه جناحان». شارك فارسه تحمّل المشاق إلى بلاد النوق، والعودة بمهر عبلة ألقاً من النوق العصافير. وقف ساكناً إلى جانب صاحبه. غرس عنتره رمحه في الأرض، واستند عليه، كما يفعل المحارب الذي يهب جواده فرصة التنفس، ثم وقف هو الآخر ساكناً، يُتيح لعبلة أن تصل إلى مضارب القبيلة، دون أن يلحقها الأذى.

وُلد الأبحر لأب نجار في ورش القزق، وأم ممرضة في مستشفى الملكة نازلي. صادفه التشاؤم في يوم ميلاده. وُلد في ١٣ أبريل. قيَّده أبوه في سجل المواليد بتاريخ اليوم التالي. إذا استاء من تصرّف له، صرخ بالقول: كان عليّ أن أعرف أنك وليد شوّم!  
ترك الدراسة في الثانية الابتدائية، وعَمِل صبيّاً في دكان الحاج جودة هلال. علّمه أسرار المهنة، ما يجب أن يعرفه.

لمّا صحبت فردوس — بائعة الليمون أول السبالة — ابنها، ليختنه جودة هلال، تصور الأبحر في نفسه القدرة على ختان الولد. مرات كثيرة رأى فيها الحاج يختن الأولاد، ويبدّل الغيار — في أيام تالية — حتى يُشفى الولد.

فعل ما يفعله الحاج تماماً. الموسيقى والقطن وصبغة اليود والبودرة والشاش، لكن الحشفة تدلّت — مغموسة في الدم — بلا سبب مفهوم.

ما كاد جودة هلال ينظر إلى الحشفة المتدلّية، حتى أشار بيده ناحية باب الدكان: لا تُعدّ إلى هنا!

عاشر الأبحر الفتوات والأحمدات وفاعلي الشر.

الخناقات جزءٌ من حياته اليومية. أشد ما يصيب أذاه الغلابة ممن لا يستطيعون مواجهته. لو لم يجد أحداً يُعاركه، تعارك مع نفسه. يُدلي أمامه وسادة. يوجّه إليها لكلماتٍ متواليةً حتى تتخاذل ذراعاها. يستريح لحظات، ثم يعود إلى ما كان يفعله. يخترع أوضاعاً أخرى. ربما أمسك بعضاً، يُحرّكها إلى الإمام وإلى الخلف، ثم يهوي بها على شخص يتخيله.

استهوته المغامرة في الميناء: سرقة الطرود، تهريب البضائع، استبدال العملة. تعدّدت الحكايات عن سطوه على معسكرات الإنجليز، وتسوّر قصر عصمت هانم محسن، ونُقّب وكالة درويش بشارع الميدان. حتى الشقة التي خصّصتها عليه عشماوي للكبكباشي حمدي درويش، أفرغها صبيانه — ذات ليلة — من كلّ ما بها.

لأنه وُلد في بحري، وأمضى فيه حياته، فهو يعرف الحي جيّداً، البحر والشاطئ والغزل المستلقّي فوق المراكب المقلوبة، والجاثمة على الرمال، والصارفات المترامية من الميناء الغربي، والشوارع، والميادين، والبيوت، والمساجد، والمآذن التي تبين عن تصاعدها في انحناءات الكورنيش، والأصرحة، والمقامات، والموالد، وحلقات الذكر، وأكشاك الختان، وخيام الصوفية، وسرادقات العوالم، وورش القزق، وحلقة السمك، وقلعة قايتباي، ونقطة الأنفوشي، ومتحف الأحياء المائية، والمقاهي، وملامح المارة والقعود، إن لم يكونوا طارئين على الحي.



ما فعله لم يكن للسرقة في ذاتها، وإنما للمغامرة والتحدي، واكتساب الصيت. مَنْ يرفض التهديد، فإن ساعديه يُجبرانه على الإذعان. كان يسعى وراء المغامرة، تعنيه في ذاتها. يُهمل ما قد تنطوي عليه من نتائج. يعتز بما يتردد عن نزوعه إلى الشر والأذى، وأنه دائم الشجار مع فتوات الأحياء الأخرى، ومع رجال السلطة.

نسب إلى نفسه فضلَ تعجيل الإنجليز بسحب قواتهم من الإسكندرية: لم يستطيعوا تحمّل الخسارة التي تسببت فيها سرقاتنا لمعسكراتهم! تقاضى مبلغاً لقاء نقل ثلاثة شبان إلى قبرص. أمضى يومين داخل المياه الإقليمية، فيما يُشبه الدائرة. ادعى — في اليوم الثالث — وجودَ عطل في البلانس، وعاد إلى الإسكندرية. طلب الشبان الثلاثة أن يردّ ما تقاضاه. شهز سكيناً في وجوههم، وأشار إلى البحر. فارق أخلاق الطبيعة.

تبرق عيناه بنشوة وهو يرقب السمكة الكبيرة تنتفض في المشنة، وتقفز. تحاول أن تلتقط أنفاسها. يأكل السمك نيئاً، لا يشويه ولا يقلبه. يكتفي ببصق الشوك من فمه. يتفاهل — عكس المألوف — إذا التقى — فترة الصباح — بالهانوتي شحاتة عبد الكريم. ارتكب جميع أفعال المعاصي. اشتدت الظلمة في نفسه من المخالفات وحب الدنيا. لم تكن تأخذه الشفقة على مَنْ يداهن، أو يتذلل، أو يتوسل. ماتت في نفسه صفات البشرية: أنا سمكة كبيرة تبتلع الأسماك الصغيرة دون مضغها!

ويشوّح بيده: فرصة الأسماك الصغيرة في العيش ضئيلة. ثم وهو يتحسس ساعده: يجب أن تكون كبيراً ... قوياً ... لتعيش! ينسب لنفسه فضلَ وضع عبد الرازق — مساعد ريا وسكينة — على طليبة الإعدام، وتقبيد يديه وساقيه، وإلباسه «الخية»، والوقوف داخل حجرة الإعدام حتى تدلّى الجسد مشنوقاً.

فرّ الضباط والجنود من أمام عبد الرازق الهائل الجثة. يُساق إلى الموت، فلا يخشاه. هو ميت من قبل أن يُعدم. استغاث البكباشي حمدي درويش بالأبجر، من انتظار زيارة على باب سجن الحضرة.

الشومُ والعصِيّ في أيدي الصبيان لصدّ الضربات الموجّهة إلى الأبحر، وإليهم. لا يُوجهون ضرباتٍ على أي نحو، لكنهم يكتفون بتلقّيها. لا يتحركون، حتى لا ينكشف الأبحر الذي أحاطوه بأجسادهم.

يكتفي بأن يُومئَ بذقنه إلى مَنْ يريد أذنيته، أو يلمس كتفه، أو صدره، بأصابعه، ويمضي. يُعرف صبيانه مَنْ يتجهون إليه بضرباتهم. لا تهدأ الضربات حتى يعلو صوت الأبحر: كفاية!

يمضي، ومن ورائه أعوانه.

قال لحميدو شومة: لماذا لا نتصارح؟

وضغط على الكلمات: لماذا لا يُصارح كلُّ منّا صاحبه؟

قال حميدو شومة: الإسكندرية فيها أحياء كثيرة ... لكلّ حيٍّ فتوّته.

همّه السؤال: أي الرجلين أجدر بلقب فتوة الإسكندرية؟

كان التنافس على المكانة سببَ كلِّ المعارك والخناقات في المدينة. يُدرك الأبحر أن عدم المصارحة مبعثه الخوف من أن يُثير صبيان الفتوات من المتاعب ما هم في غنى عنه: التلميز، وافتعال الخناقات، وأذية خلق الله.

عاب عليه أن صبيانه يقتصرون على السرقة والنشل والبلطجة وفرض الإتاوات، لا يشغلهم إلا الجريمة، دون قيد، ولا حساب لاعتبار ما.

ثم وهو ينقر بإصبعه على حافة الطاولة: سنظل ندور حول أنفسنا إنْ خشِيَ أحدنا مصارحةً صاحبه بما فيه.

تعددت معارك أتباعهما في ميادين بحري وشوارعه. حتى المقاهي تطايرت كراسيها، وأريققت فيها الدماء. تتسع المعارك إلى أطراف الحي. قد تمتد إلى الأحياء الأخرى. تختلط الصيحات والسيوف والشوم والسنج والخناجر والمطاوي وقبضات الحديد، وتطاير قطع الطوب والزلط والزجاجات الفارغة، وبتارات الدم والأشلاء والصرخات والأنين والنشيج والبكاء.

تفي المعركة بنذرهما حين تنتقل الكراسي من أرفصة المقاهي، والأقفاص والغلقان من مداخل البيوت والوكالات. تُوضع في منتصف الطريق إلى جانب عربات اليد وكومات الرمل. تُغلق النوافذ، وأبواب البيوت والدكاكين والزوايا والمقامات والأضرحة. ينسحب الجلوس والمارة إلى الشوارع والحارات الجانبية. تدور الهمسات وراء الجدران بتوقعات ما سيحدث.

قد تبدأ المعركة لشعور الفتوة بأنه يستطيع أن يفرض سيطرته على ما في حوزة فتوة الحي المجاور، من بيوت وشوارع وميادين وبشر وأعان وإتاوات. قد تقوم المعركة لإقدام الفتوة على التخلص من معاناة القهر. ربما قامت لإثبات القوة.

حين تنشب المعركة، تخلو الشوارع والميادين من المارة. تُغلق الدكاكين والمقاهي وأبواب البيوت. تُوارب ضلف النوافذ بما يُتيح الفرجة. حتى الشوارع الجانبية تخلو لتوقع انتقال المعركة إليها.

لم تكن المعارك تعني الناس، ولا يعينهم سيادة فتوة على الآخرين. تظل أعصابهم على توترها حتى تنتهي المعركة. يُهملون السؤال: مَنْ انتصر، وَمَنْ أدمت الضربات صيبانه، أو لاذوا بالفرار؟

هزَّ الأبجر كتفّيه — دلالة اللامبالاة — لقول الشيخ عبد الستار إن معارك الفتوات يدفع ثمنها الأبرياء. حتى دكان الحاج جودة هلال (لكل الفتوات صداقة معه) تحطّمت واجهته الزجاجية بضربة شومة، واستخدمت الكراسي على الرصيف في الضرب، حتى تكسرت.

نقل صبيان الأبجر إليه عن محرز القصراوي فتوة المتراس ما لم يكن يتصور أنه يقوله.

أوماً الأبجر لصيبانه.

فاجئوا القصراوي في خلاء الصحراء. أمسك أحدهم بذراعه. وضع راحته على فمه ليمنعه من الصراخ. جذب بقية الصبيان سرواله، فتعرت مؤخرته. حاول أن يتملص. حرّك رأسه، وذراعَيْه، ووسطه، وساقَيْه. لكن صبي الأبجر شل حركته تماماً. استكان حتى أنهى الفعل. دفعه بيده، ثم ركله بأخر قوته: في المرة الثانية لن تعيش كي تتذكر ما جرى لك!

عاب الشيخ عبد الستار على الأبجر أنه ليس لديه ما يؤمن به، ما يضع قوته في خدمة الدفاع عنه. يتعارك لمجرد إحداث الأذى، لإخضاع مَنْ حوله لسلطوته. لو أنه دافع عن شيء يراه صواباً، فسيكون صاحب رسالة.

وارتفع صوته: حتى الشيطان يدافع عمّا يؤمن به!

دل الأبجر خمسة من البحارة الأجانب على باب ستة. راقفهم حتى الباب الخارجي للدائرة الجمركية. دسَّ أحدهم في يده خمسة جنيهات. يحصل على المبلغ في شهرين أو ثلاثة.

اعتاد — من يومها — مرافقة البحارة الأجانب في شوارع الإسكندرية، يعطونه ولا يعطونه، يجد متعة في الرطانة بالإنجليزية والفرنسية، وبتعابير الأيدي وملامح الوجه إن تكلم البحارة بلغات أخرى.

تابع مجموعة من البحارة الإيطاليين بالقرب من سراي رأس التين. صَحِبهم إلى الشاطئ الخالي، على يسار البناية ذات الطوابق الثلاثة.

دفعوه في ظهره إلى وسط دائرة تشكَّلت من أجسادهم. ضاقت الدائرة حوله. حاول أن يردَّ الضربات، لكن ركبتيه خانتاه. سقط على الأرض. زحف ليفرَّ من توالي الضربات. تناوبوا ضربه بالصفعات واللكمات والركلات. علَّت أصواتهم بالصيحات المنغمة، غطَّى وجهه بيديه، ودار حول جسده. شعر كأن غمامة تقتحم عينيه. بدت المرئيات كأطياف، لا يدري أين هو، ولا ماذا يرى.

حاول أن يتماسك، ليدافع عن نفسه. لم يجد الفرصة حتى لالتقاط أنفاسه. ظل في سقوطه على الأرض، ملأ طعمُ التراب فمه. توالت الضربات بلا توقف. عجز عن الاستغاثة. فقد الإحساس بالألم، وتلاشت قدرته على الصراخ. حلَّ صمت مفاجئ، يعمقه توالي الضربات، وانعكاس تأثيرها في أنين مكتوم.

لم يتوقفوا إلا بعد أن شحب أنينه. ذوى إحساسه حتى التلاشي. تحوَّل إلى كومة من الدم والتراب، ملقاة على الأرض. أنفاسه حشرجة قاسية، ولا يستطيع الحركة. فتَّشوه في رقدته المتكومة. أخذوا ساعة يده، وحافظه نقوده، والخنجر المربوط في سلسلة إلى جانبه، وذهبوا.

مضى — بخطوات مهرولة، متعثرة — إلى البيت.

أسقط فكرة الذهاب إلى الحاج جودة هلال، أو إلى مستشفى رأس التين. يعاني آلام الكدمات والكسور والبقع الزرقاء والخدوش والندوب والسحجات والدم المتقيح والجروح. يعرفه الخجل — ولعله الخوف — من أن يراه أحد. أحزنه لحظة الضعف التي تملكته. لم يحاول المقاومة، ولا رد الضربات. كان عليه أن يدافع عن نفسه. كثرة الجنود أتاحت لهم أن يتغلبوا عليه.

لو أنه رفض الاستسلام، وقاوم، ربما لم يكن ما حدث جرى بالسهولة التي أحزنته، ربما نال من أحدهم بقبضته، أو رأسه، أو ركلة أسفل بطنه. يصرخ الجندي، فينشغل زملاؤه عن ضربهم له. استعاد التفصيلات الدقيقة. سد الفجوات، بدَّل، حوَّر، حذف، أضاف. بدأ التخاذل سبباً فيما يُعانيه. فقط لو أنه قاوم! لو أنه ...

أدرك أنه المسئول عما جرى له.

تمنى أن يتكرر لقاءه بهم.  
زاره سيدي أبو الحسن الشاذلي في منامه. يرتدي أبيض في أبيض، العمامة الهائلة،  
والعباءة الواسعة المسدلة على الكتفين، والشال الأبيض، والنعل الأبيض الشبيه بالخف  
المغربي.

حمل نبرته إشفاقاً وهو يستعيد ما حدث.

قال له الشاذلي: أصعب الأمور أن تتلقى صفة لا تستطيع ردها. وقال: أنت تمارس  
قوتك على أبناء حيك، وتظهر الضعف أمام الغرباء. وقال: إذا كان الأجنب قد هزموك  
بقوتهم، فذلك ما تفعله مع ناس بحري. وقال: تصرف مع الآخرين بالكيفية التي يهكم  
أن يتصرفوا بها معك. وقال: أن تكون محبباً محبوباً، أفضل من أن تكون كارهاً مكروهاً.  
قال الشاذلي: لو أنك انتصرت على حميدو شومة ... ماذا كنت تنوي فعله؟

– ما همّني إلا أن أنتصر عليه!

– خوض المعارك وسيلة وليس هدفاً!

وبخه الشاذلي لأنه لا يحضر جمعة، ولا جماعة، ولا مجلس علم. سأل، وأجاب الأبجر،  
أنكر عليه القطب الأعظم ما يفعل. أذية البحارة له نذير بما قد يواجهه في الأيام التالية.  
سحف الاعتزاز بالقوة الزائلة. شهقة فلا يجد المرء نفسه، ولا حياته. يدخل الجسد  
في العدم، وتواجه الروح حساب الملكين. شدد الشيخ على أن حساب «الأبجر» لن يكون  
سهلاً. حذره من أن العبد الذي أمر له الله بموضع في النار، يتمتع بصحة في بدنه، وسعة  
في رزقه، ورغد في عيشه، وأمن في سربه. حتى الموت يهون عليه، لا يشغله، يفرط مدة  
حياته، وينهمك في العصيان. يأتي يوم الحساب، وليس له من الحسنات ما يرجو به  
الجنة.

دعاه إلى التوبة، فيموت – إن حل الأجل – على حسن الخاتمة والتوبة والإحسان.  
عانى الأبجر من الخوف ما لا قبل له به، ولا تصوّر أنه يعانیه. كأن صخرة أكبر من  
صخرة الأنفوشي تحط على صدره.

أظهر الحزن – مداراة للخوف – على ما ارتكبه من الذنوب. لم يعد يجد حرجاً –  
لتذكرها – في أن يترك دمع الندم يسيل على خديه.

استتابه القطب الأعظم بالترهيب والتخويف. اتهمه بأنه كفر، واستكبار، وفُجر.  
نكّر بالوعد والوعيد. نصحه أن يبتعد عن دروب الفتن والغواية، يخشى الله، ويتقيه،  
ويؤدي فرائضه، ويبرأ من حقوق الناس، ويعطي كل ذي حق حقه.

أدرك الأبحر أنه قد ارتكب ما يُعد من الكبائر. النار مصيره، إلا إن مال — على الصراط — ناحية الجنة، بشفاعة رسول الله.

عرف أن بكاءه — إن خلا إلى نفسه — ناشئ عن الخوف. أسرف في المعصية، فهو لا بد أن يلقي جزاءه.

لأن قلبه، وصلح بذكر الله تعالى. ندم على ما سلف منه، وتحسّر على ما ضيّع من عمره، في ارتكاب الذنوب والمعاصي، وعدم القيام بالطاعات.

أنس لولي الله، يخصّه بنصائح تُفيد حياته. دفعه الشاذلي إلى التجارة بدلاً من أعمال الفتونة. تردّد على الدائرة الجمركية يستعين — بهيبته الباقية — في إنهاء عمليات للتصدير والاستيراد.

طمأنه الشاذلي أن رحمة الله لا تُرفع بارتكاب المعصية، ما دام ينزع عنها، ولا يُصر عليها.

توسل له القطب الأعظم عند الله، لكي يُبعده عن طريق المعصية. قذف الله بنور في قلب الأبحر، فهداه، وشمله برحمته.

نفض يديه من صبيانه وأصدقائه وجيرانه ومعارفه وجلساء المقهى. ركن إلى ملازمة الوحدة والعزلة والانفراد بالنفس والرياضة والخلوة والتعبّد، وتأمّل عبر الحياة. انغمس فيما يُشبه التصوف، وإن مارس حياته كما يمارسها بقية الناس. عاش واحدًا منهم، لا يتمايز، ولا يدين بالفتونة، ولا التعالي، أو حب الظهور. تسرّ وراء المظاهر الدنيوية.

عاش بجسده على الأرض، وإن طار بقلبه في السماء.

لم يُعد يظهر — بعيدًا عن الدائرة الجمركية — في الشوارع أو الأسواق. استوحش من الجلوس على المقاهي، أو أمام دكان الحاج جودة هلال، أو فوق زاوية الكورنيش المطلة على مرسى القوارب. يصليّ منفردًا في الجامع، وفي البيت. يكتفي بإلقاء السلام، أو هز الرأس محيياً.

انقطع — معظم يومه — لجامع المرسي أبي العباس. جعل الجامع كأنه بيته. يجلس في الصحن جانب المنبر، ينتظر الصلاة بعد الصلاة. لا يتجه نظرُه — ولو بعفوية — ناحية المقام. يطوف حوله النسوة، يلمسن الشباك الحديدية، يوقدن الشموع، يضعن النذور، يطلبن الشفاعة والنصرة والمدد. يلجأ إلى مكتبة الجامع القريبة من حجرة الإمام، يقرأ في التفسير والحديث والفقه والأخلاق، يتبحّر في علوم الدين. ربما سأل إمام الجامع عن معنى كلمة في آية، أو تفسير آية في سورة، أو شخصية إسلامية، أو حادثة مهمة في تاريخ الإسلام، أو خاطر شغل تفكيره في أثناء الصلاة. قد يندسّ وسط نصف الدائرة

قبالة دكة المبلِّغ، يُلقى من فوقها شيخُ الجامعِ دروسَه، يُفقهُ المصلين في أمور الدين، يُجيب عن أسئلتهم. صار قلب الأبجر متعلقاً بالجامع، لا يميل لمغادرته إلا لضرورة. اكتشف أن ما يبحث عنه، لن يجده في معارك فتوآت الأحياء. ليست الأمور على النحو الذي ينبغي أن تكون عليه. ثمة خطأ أو أخطاء، تحتاج إلى التأمل والمناقشة والفعل الذي يُزيلها. استغرق في التأمل، وفي محاولة الاقتراب من الله، والاعتماد على النعمة الإلهية. جاهد نفسه، وحرص على التخلي عن أهوائها. يخشى الشخص الآخر، الميال إلى العراك في داخله. أغفل ما كان يستيقظ في نفسه — أحياناً — من الميل إلى العراك. ينفر من شخص، تُثيره عبارة، يستفزُه تصرُّف. تختلج ملامحه، وتتكور قبضته، ويتهاياً لتوجيه الضربات. ثم يُغمض عينيه، ويضغط بأسنانه على شفته السفلى، ويسكت. عُني باستقامة الظاهر والباطن. أكثر من تلاوة آيات القرآن عن المعصية والحساب، ما أُعد للمتقين من ثواب، وللكافرين من مستقر في أعماق الجحيم. أقبل على المعارف والحكم. أخلص في قراءة آداب السلوك، وحقائق التصوف، وإدراك كُنْه المعاني. أسقط التدبير والاختيار، وأقبل على حلقات الذكر. ينتقل من جامع إلى آخر. كل حلقة في موعدها، من البدء إلى المنتهى.

مارس التواضع في العيش، وكرهية الترف والإسراف، والقناعة والرضا بما قسم الله. فرغ قلبه إلا لله تعالى. اضمحلت ذاته، وذهبت صفاته، وغاب عنه الكبر والغرور «اللهم اجعلني شكوراً، واجعلني في عيني صغيراً، وفي أعين الناس كبيراً». قد يشد الحال عليه، ينادي سيدي أبا الحسن الشاذلي، ويستغيث به. يُغيثه القطب الأعظم. يأتي إليه، يخلصه — بعون الله — من ضائقة، أو كربة، يدفع به إلى طريق السلامة. اشتد اتجاهه — بتوالي الأيام — إلى الزهد والتصوف والعزوف عن الدنيا. ألقى بنفسه تماماً بين يدي الله. يستحيي منه، ويتحرى رضاه في كل ما يقول ويفعل. إذا عاد إلى بيته من صلاة العشاء، أغلق عليه الباب، وأقبل على دلائل الخيرات والأوراد وأحزاب الشاذلية، يقرأ فيها حتى ينهكه التعب. خَلوته تقتصر على أوقات من الليل والنهار. بقية وقته ينزل الأسواق، يخالط الناس حياتهم ببدنه، يسأل ويجيب، يخوض الحوارات. يفارقهم بقلبه.

يرتد على الجامع، يعتزل وقتاً يطول أو يقصر. يؤدي ركعتي تحية الجامع. ينصرف إلى القراءة أو التأمل، تخلّص بالعزلة من الآفات والمعاصي التي تُزينها له مخالطة الناس بصورة دائمة. لن يخاطب المرء في نفسه الغيبة والنميمة والحسد وغيرها من الرذائل التي تُخرجه عن حدود الشرع. لا يأذن بما يشغله عن القيام بالطاعات، وأمر الحق سبحانه.

لم يكن يحمل ساعة في يده، ولا يضع ساعة في جيب الصديري، ولم يكن يسأل عن الوقت. يستطيع التعرف على الوقت من النظر إلى ارتفاع الشمس على جدران الجامع، أو انحسارها. إذا حل موعد الصلاة وهو في خلاء، أو في موضع منعزل عن الجماعة، أدن للصلاة، ثم أداها.

أهمل قراءة الصحف، والاستماع إلى الراديو، ومتابعة الأحداث — خارج بحري — على أي نحو.

هذه حياتنا، علينا أن نتقبّلها كما هي، لا نحاول تغييرها.

يخرج — في الأغلب — من الباب الجانبي، الصغير، المفضي إلى الموازيني. لا يلتقي بمن يدخلون ويخرجون من البابين المطّين على السيالة والمينا الشرقية. يأخذ الكلام مما يشغله، ويُفئده.

تمنى — وهو يُعد نفسه للحج — أن يموت في المدينة المنورة، حتى يشفع فيه الرسول، كما وعد بذلك أبناء أمته.

ذات يوم، وأكل الأبحر للصيد السعداوي شبانة أمر إبلاغ أهل بحري أنه يفتح باب بيته في المناسبات الدينية أمام أهل الحي. يستمعون إلى آيات القرآن، تُدار عليهم السندوتشات والفظائر وقطع الحلوى والشاي والقهوة.

قبل أن يحلّ رمضان بأربعة أيام، زاره البكباشي حمدي درويش مأمور قسم الجمرك.

توجّس الأبحر من زيارته. يجد فيه ما يذكّره بالنورس. يعجب به عن بعد. أسرابه المحلقة فوق الساحل، تكويناته، غلاته البيضاء. لكن النورس يظل مخلوقاً قاسياً، وشرساً، يلتهم كلّ ما يصادف منقاره.

طلب حمدي درويش — في نبرة معتذرة — أن يظل باب بيت الأبحر في رمضان مغلقاً كبقية أشهر العام. لا يُفتح إلا ليمارس أهل البيت حياتهم العادية، وليستقبل الأبحر خاصة الأصدقاء.

قال حمدي درويش في لهجته المعتذرة: أغنانا الملك عن احتفال رمضان لبليالي حديقة السراي.

واستطرد كالمذكّر: يضمن الغلابة وجبة إفطار في مآدب عبود باشا بشارع رأس التين. يُضاف إليها آخر الشهر كسوة العيد.



استبدل الأبجر بدعوة الناس، زيارات يومية من الصبيان والخدم إلى الذين حرمهم أمر الملك من التردد على بيته.

لم يُعدُّ قادرًا على استعادة حماسه القديم، واندفاعه في خوض المعارك، وربما افتعالها. تقاعد كفتوة حقيقي، اختار موعد تقاعده. يستروح نسائم من الماضي القريب، في تردده على قهوة مخيمخ. يستمع إلى سيرة عنتره، والسيرة الهلالية، والسيرة الظاهرية، وحكايات علي الزبيق، وغيرها مما يلح على شاعر الربابة في إعادته. يعيب على ماهر الصاوي أنه يقصر مواويله وأغنياته على الهجر والوصال ومناجاة الحبيب والهنك والرنك. يجد فيها ما لا يحضُّ على المتابعة.

لما مات آخر مَنْ كان على قيد الحياة من إخوته، أدرك أن المدة قد انقضت، وأجله حان.

بدا له الموت حقيقة عليه أن يتقبَّلها، ويُعدُّ نفسه لانتظارها. عليه أن يتأهب للرحيل، ولأسئلة ناكرٍ وكبيرٍ.

جعل الموتَ بين عينيه. يقنع من الدنيا باليسير. يسارع إلى الطاعات، ويغتتم الأوقات، يُزجئها بالتقوى والعمل الصالح.

لم تُرهقه فكرة الموت ولا أخافته. يعرف أن تَرَكَ الدنيا مهرُ الآخرة. وأن الموت لا يهاب الملوك، ولا تمنع منه القصور، ولا يقبل الرُّشا.

زاره أبو الحسن الشاذلي في نومه. قال: عشتَ على حساب الناس ما عشتَ من السنوات الماضية.

وفي نبرة باترة: هذا العمر، سينتهي قبل الصباح. أراد أن يطمئنَّ إلى فكرة التصالح. نحن نموت لأن هذه إرادة الله. داخلهُ حزنٌ لم يعرفه من قبل. غالبه ما لم يكن يتصوره، ولا أعدَّ له نفسه. تناوبته ظلمةٌ وسرايبٌ وأقبية وأنفاق، وخوف لا يستطيع دفعه. أضاء نور الشقة.

ظل ساهمًا طيلة الليل، لكن الحشرة أتنه قبل أن يؤذِّن للفجر. اختلج جسده، وبرقت عيناه، وحاول أن يدفع ما لم يره أحد، ومات. كل نفس ذاتقة الموت، وكلُّ يموت عند انتهاء أجله.

انظر: أبو الحسن الشاذلي، جودة هلال، حمدي درويش، حميدو شومة، خليل الفحام، عبد الستار، عبد الله أبو رواش، فاروق الأول.



## إبراهيم سيد أحمد

لم يكن إبراهيم سيد أحمد قد أعدَّ نفسه للخدمة في جامع المرسي. تردَّد على الجامع لأداء صلاة الجمعة، وما يستطيع لحاقه من الصلوات الخمس. جعله ركوبُ البحر بعيدًا عن الإسكندرية أيامًا بطولها. سافر على امتداد الشواطئ بين الإسكندرية ورشيد ودمياط وبورسعيد وطرابلس الغرب. اصطاد الأسماك بالجرافة، وبالطراحة، حلقة الغزل تضيق وتتسع، يحيط الفلين بدائرتها، يجذبها بمفرده، أو يجذبها الرجال معه، يطلعون بالرزق من ثمار البحر.

يتحدث بخبرة من اقتصرت حياته على اليابسة والبحر.

حرص على أن يسكن بجوار البحر، فلا يتنفس غير هوائه. يكتفي بالتنقل بين البيت والبلانس. يعبر الطريق ما بين الساحة الترابية بموازاة شارع قصر رأس التين وشاطئ الأنفوشي. يعرف اتجاه الرياح، وارتفاع الأمواج، وأماكن الدوامات، ومناطق الوفرة والجذب، ومواضع الخطر. يتجنب المواضع العميقة والصخرية. يتعرف عليها من صفاء الأمواج ودُكنتها. يتبيَّن عمق المنطقة في البحر من النظر إلى الموج. الأعماق الضحلة بيضاء، قليلة العمق خضراء، العميقة بلا قاع شديدة الزرقة. لا لون آخر في بحر الإسكندرية.

هل تعكس السماء تعدُّ الألوان، أو أن الألوان انعكاسٌ لما عليه ألوان السماء، من الزرقة الصافية، إلى الزرقة الداكنة الأقرب إلى البُني؟

يعتزُّ بأنه قد عمل في كل المواضع التي بها أسماك داخل مصر. من السلوم في أقصى الغرب، حتى العريش ورفح في أقصى الشرق، وبحيرة السد العالي في الجنوب، وسواحل البحر الأحمر بامتداد أكثر من ألفي كيلومتر من السويس حتى حلايب وشلاتين، وبحيرة قارون الواسعة، الممتدة في الصحراء الغربية. حتى النيل والبحيرات: مريوط،

إدكو، البرلس، المنزلة، البردويل، مارس الصيد فيها سنواتٍ من عمره. وتعددت رحلاته — في أعالي البحار — بسفن صيد حديثة.

البحر كلُّ شيء، البدء والمنتهى، الجو الطيب والنوة والحياة والموت والرزق والصرير واليأس والخوف والتحدي ولقمة العيش ومداومة التطلع إلى الأفق. ما يقضيه في البحر أضعاف ما يقضيه في البر. أيام البحر متواصلة، تقطعها، وتصلها، أيام البر. لقلتها فهو يذكر أحداثها وناسها.

يملك قدرًا هائلًا من أسرار البر والبحر. يعرف — بالاسم — النجوم التي تتحكم في العواصف والنوآت. يُجيد مخاطبة كلِّ منها بالأدعية والابتهالات التي تُحرّضها على الاستجابة لطلب الغوث.

كان الصيادون يلجئون إليه، قبل أن يركبوا البحر. يحدّد المكان الذي يقصدونه، والمدة التي يرحلون فيها، ويعودون قبل مواعيد النوآت.

أهمل ريس الصيادين يوسف رزقة تحذير إبراهيم سيد أحمد من ركوب البحر في أيام شتوية: إذا سافر البلانس غدًا، فلن يعود.

خرج البلانس إلى البحر.

ووجه في العودة — في اليوم التاسع — ريحًا عاصفة لم يُعدّ ركب البلانس أنفسهم لها. أمالت البلانس على جنبه، حتى غرق.

أنهله — في رحلته الأولى على البلانس الجديد «رحمة» — أن الريح كانت تُعاكسه في كل الاتجاهات التي حاول أن يمضي إليها. صنع تلاقي الرياح من حول البلانس ما يُشبه الدوامة.

كان البلانس في موضع يبعد — بمسافة — عن الأماكن التي يترصّد فيها المارد للسفن المارة. تأكّد من أن البلانس ليس مسكونًا. يسكنه راكبٌ غريق، أو قتيل في حادثة. يصبح طيفه جزءًا من حياة البلانس، يظهر في الأوقات التي يختارها.

حدس أن ما يحدث هو من فعل الأرواح الشريرة، أو من تدبير أصحاب البلانسات القديمة. لجئوا إلى الحانوتي شحاتة عبد الكريم. صنع ما لا يعرفه من وسائل السحر ليقضي على البلانس في أولى رحلاته عليه.

أعاد التيقن ما إذا كان ما يراه بشرًا، أم مخلوقًا غريبًا لم يسبق له رؤيته. كان المارد قد مضى عليه أيام قليلة في سكنه الجديد خارج البوغاز.

ألقى بنفسه في المياه.  
وضع كلَّ قُوَّته في ساعديه، يسبح في اتجاه الساحل.  
عاد إلى البر — يحيا على ذكريات ما جرى — يروي الحكايات عن معاناته مع النَوَّات  
والأمواج والمخلوق الغريب.

في مولد السلطان، اجتذبتَه حلقةٌ ذكرِ الطريقة الأحمديَّة الشاذليَّة. اندسَّ في داخلها،  
علا صوتهُ مرددًا ما علَّت به أصوات الذاكرين من الأوراد والأدعية والابتهالات. كرَّر الوقفة،  
وهزَّة الرأس، وتأوَّد الجسد، وترديد الأذكار، في الحلقة اليوميَّة — عقب صلاة العشاء —  
أمام جامع سيدي البوصيري.

اعتاد التردد على ميدان المساجد والجوامع المحيطة.  
يحرص على صلاة الجماعة. أكثرُ تردُّده على جامع أبي العباس. يؤدي الصلوات  
في أوقات العيش في بحري، يستند إلى عمود في الصحن الواسع، يتلو من المصحف آيات  
القرآن، ينظر — بعين مطمئنة — إلى قُصَّاد المقام من طالبي البرء والشفاعة والمدد، ينزل  
لطلب البركة من أضرحة السلطان وأبنائه أسفل مبنى الجامع، يتردد على مكتب الإمام —  
أيمن الباب الرئيس — يطلب النصيحة والموعظة.

أوكل إلى نفسه خدمةَ الجامع: يؤذن للفجر، يؤدي دورَ المبلِّغ في صلاة الجمعة، يرتَّب  
حجرة الإمام، يشارك في كنس صحن الجامع، وغسله، أنا أدفع مهر الحور العين بكنس  
تراب الجامع، يطمئن إلى سلامة الإضاءة والميكروفون، يُعيد فرش السجاد والحصير.  
رأى الشيخ إبراهيم سيد أحمد — ذات ليلة — سيدنا الخضر يجالس أولياء الله  
الصالحين، من المقيمين في بحري. يغادرون أضرحتهم في لقاءات أشبه بجلسات الديوان  
الذي ترأسه السيدة زينب كل خميس. أعضاء ديوان أم العواجز: سيدي إبراهيم الدسوقي،  
سيدي أحمد البدوي، سيدي محمد الشافعي، سيدي أحمد الرفاعي. ربما شارك بالحضور  
بعض آل البيت ممن لهم مقامات في مدن مصر.

جلساء سيدنا الخضر أقطاب الجوامع والمساجد والزوايا والأضرحة والمقامات في حي  
بحري. جلساتهم في رحاب أضرحة أبي العباس وابنيه وتلاميذه أسفل الجامع. القبة  
الغربية تعلق ضريح أبي العباس وولديه. القبة البحرية تعلق أضرحة ابن أبي شامة وابن  
الحاجب والفكهاني وابن اللبان والخزرجي. قد يستظلون بالليل في الجلوس تحت شجرة  
بحديقة سراي رأس التين. أكثر جلوسهم في الساحة الصغيرة المقابلة لضريح سيدي  
الأنفوشي. يتحدثون بأصوات خاشعة هامسة في أمور علوية.

أراد الشيخ إبراهيم تبينَ ما يقال.

التقطتُ أذناه كلمات: البحر، الصيد، الذكر، الأورد، الخلوة، الشفاعة، الجنة، الصراط. لم يدرِ كيف، ولا مَنْ نقله — في لمح البصر — من موقفه أعلى الباب المفضي إلى أضرحة السلطان وأبنائه أسفل الجامع.

رأى نفسه وحيدًا على رمال الأنفوشي. الناس — من حوله — يتحركون، ويقعدون، ويستحمون، ويعملون في ورش القزق، ويتكلمون. لا يبدو أنهم لاحظوا متى جاء، ولا الوسيلة التي لا يعرف هو نفسه كيف جاء بها.

عُنِيَ — من يومها — بالحياة الروحية. انشغل بالنفس، رياضتها، ومجاهدتها. آثر الانقطاع عن الناس، والتعبد لله سبحانه. استغنى بالحق عن جميع البشر. تقطعت الأسباب بينه وبين كلِّ مَنْ حوله.

مال إلى حضور مجالس العلم والوعظ، والتذكير بالموت والآخرة، والتبشير بالجنة، والتخويف من عذاب النار.

قرأ سيرَ الأولياء وأعمال المتصوفة وكتب التصوف. صدقت إرادته، وصفت همته، وجاهد النفس بالجوع والسهر، والصمت عن الكلام. يعرف أن الله يراقبه في جميع أحواله. رَوَّض نفسه على المكاشفة والرياضة والمشاهدة. أيقن من قدرة الله، ومشيتته، وعظمة سلطانه، وعظمة أسمائه وآياته.

تصاعد — في داخله — شعورٌ مبهم بأنه لم يُخلق للحياة التي يحيها، وأنه خُلِقَ لشيءٍ آخر لا يعرفه تمامًا. اعتصم بالصبر والتقوى والورع والمعرفة واليقين. استقام قلبه في حضرة الإيمان.

جاهد نفسه، فلا تهزمه مصادِرُ الغواية، أو تدفعه إلى التعلق بالدنيا. أحكم إغلاق قلبه، فلا يتلوث بمحبة الدنيا. نافذة القلب الوحيدة مفتوحة على محبة الحق تعالى. أسقط من اعتباره أوهامَ الحياة الدنيوية، إلى آفاق العيش الأبدي في رحاب العرش الإلهي. أخلص في العبادة، وتصفية الباطن، وخرج عن زخرف الأكوان. أكثر من الصلوات والصيام والذكر والدعاء والتساييح. كابد الهوى ووسوسة الشيطان. سجد — بالخشوع — على سجادة الامتثال لأوامر الحق ونواهيهِ. عُنِيَ بالحرث والبذر والإرواء في أرض العبادة. وبالتجليات الإلهية في نفسه، وفيما يرنو إليه.

حرص على أن يقتدي برسول الله، ويهتدي بهديه، ويستنَّ بسنته.

درس آيات القرآن جيداً. عرف أحكام الشريعة. قرأ في مذاهب المتقدمين. أحاط بطرق القياس ومراتب الأدلة، وبناسخ الآيات ومنسوخها، عامها وخاصها، وتفسير الجملات، والعلم بالصحيح من الأخبار والسقيم، وأسباب الجرح والتعديل، والإفادة من صفات الإثبات.

استكمل — في حضرة المرسي — تأهيله الروحي في دنيا الصوفية. رقي مدارج التصوف على جناحي المحبة، والإخلاص لله، حتى فني عن نفسه، وجميع ما حوله، وبقي بالحق تعالى. لم يعد ثمة ما يحجب نفسه عن رؤية النور الإلهي. يومض — في لحظة ما — كالإشراق الهائلة. يغمره النور في لحظة أو أقل، ومضة ما تلبث أن تختفي، لعلها تكون غير مسبوقة، بما يدفعها إلى التحرك في داخله، وتختفي بلا سبب محدد.

رفض أن يتردد على مجلس الست صبيحة.

قال: لن أتحمل سماع عورة.

استطرد في لهجة تأكيد: هذا هو صوت المرأة.

وسرت في صوته نبرة استياء: المصيبة أنها — كما علمت — تتحدث فيما ينبغي أن يقتصر على الرجال.

مميز الإسلام الرجل على المرأة بإباحة تعدد الزوجات للرجل دون أن يبيح للمرأة، وتمييز الرجل عن المرأة في الميراث، واعتبار شهادة الرجل مساوية لشهادة المرأتين، والسماح للزوج بضرب زوجته، ويزيد الرجل على المرأة بحق الطاعة.

شدّد على أن تترك الفتوى لأهلها. كلُّ ميسر لما خلُق له، وما جعل الله لامرئ من قلبين

في جوفه.

الرجال — حسب الشرع — قوامون على النساء. لا تتولّى النساء ما يجب أن يقتصر على الرجال. أمر الدعوة والفقهاء والتفسير شأن الرجال. حرام أن تتولاه ناقصات عقل ودين. من يرجع إلى الكتاب والسنة، من يزعم أنه يرجع إليهما، عليه أن يرجع إلى فتاوى العلماء المجتهدين. هؤلاء هم من يجب الاقتداء بهم.

استدل على رأيه بأن حلقات الذكر لا تضم في داخلها امرأة، وأن تقاليد مجالس الأندكار لا تبيح مشاركة النساء. من يخالف — ولو بالنية — يعترض على الله ورسوله، ويطعن في شريعة الإسلام. مثله يستتاب، وإلا اعتُبر مرتدّاً، ونال عقاب المرتدين.

لَزِمَ بَيْتَهُ فِي شَارِعِ الْفَرْمَانِي، لَا يَغَادِرُهُ إِلَّا لِأَدَاءِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فِي جَامِعِ الْمَرْسِيِّ، أَوْ لَطَلْبِ الْبَرَكَةِ مِنْ صَاحِبِ الْمَقَامِ. يُكْمَلُ — كُلَّ لَيْلَةٍ — حَزْبًا مِنَ الْقُرْآنِ. فِي الصَّبَاحِ، يَصَلِّي رَكَعَتَيْ الْوُضُوءِ، وَيَتَهَيَّأُ لِاسْتِقْبَالِ زُورَارِهِ.

كَانَ يَتْرَكَ الْقَاعَةَ — فِي الطَّابِقِ الْأَرْضِيِّ مِنْ بَيْتِهِ — لِأَهْلِ بَحْرِي، وَالْأَحْيَاءِ الْمَجَاوِرَةِ. تَكَثَّرَ الْمُعْجَبُونَ بِهِ، الْمَكْرُونُ لَهُ. وَمِنْ حَسَنِ اعْتِقَادِهِمْ فِيهِ، أَزْدَادَ أَتْبَاعَهُ وَمُرِيدُوهُ. اعْتَادَتِ السَّاحَةُ التَّرَابِيئَةُ أَمَامَ الْبَيْتِ تَنَاطُرَ الْعِشْرَاتِ — وَقُوفًا وَقَعُودًا — عَلَى أَمَلٍ خَلُوَ مَوْضِعَ بَيْنِ الْأَجْسَادِ الْمُتَلَاصِقَةِ فِي قَاعَةِ الدَّرْسِ. يَرْتَدِي الْعِمَّةُ الْبَيْضَاءُ الْكَبِيرَةَ، وَالْجَبَّةُ وَالْقَفْطَانُ وَالْكَاكُولَا، وَالْمَدَاسُ الْمَغْرِبِي. يَهَبُ إِنْصَاتَهُ لِمُرِيدِيهِ وَزُورَارِهِ. يَسْأَلُونَ عَنْ أُمُورٍ رُوحِيَّةٍ، يَتَلَقُونَ الْوَعْظَ وَالْإِرْشَادَ. يُضَمِّنُ أَحَادِيثَهُ أَقْوَالًا لِلشَّاذِلِيِّ وَأَبِي الْعَبَّاسِ وَيَاقُوتِ الْعَرْشِ وَالْبُوصَيْرِيِّ وَابْنِ عَطَاءِ اللَّهِ. يَلْجَأُ إِلَى الْكِنَايَةِ وَالتَّشْبِيهِ وَالِاسْتِعَارَةِ وَالْجِنَاسِ وَالتَّوْرِيَّةِ وَالْإِشَارَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الرُّوحِيَّةِ. يَسْتَعِينُ بِصِيغَةِ السُّؤَالِ، فَيُظَلُّ الْمُرِيدُونَ عَلَى انْتِبَاهِهِمْ.

قَصَرَ دَعْوَتَهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَحْلِيلِ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَحْرِيمِ مَا حَرَمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

تَعَدَّدَتِ مَسَاجِلَاتُهُ وَمَنَاطِرَاتُهُ، وَطَالَتْ، مَعَ أَهْلِ الصُّوفِيَّةِ مِمَّنْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى مَذَاهِبِ مُتَبَايِنَةٍ. أَعَادَهُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْعَمَلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَاجِبٌ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

أَثَابَهُ اللَّهُ سَعَةَ الصَّدْرِ، فَعَفَا عَنِ الَّذِينَ حَاوَلُوا الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِ، وَالِانْتِقَاصَ مِنْ قَدْرِهِ. انْضَمَّ إِلَى مُرِيدِيهِ رَجَالٌ مَهْمُونَ: الشَّيْخُ جَمِيلُ أَبُو نَارٍ إِمَامُ جَامِعِ أَبِي الْعَبَّاسِ، الْمُحَامِي سَامِيُ بَهَاءِ الدِّينِ، الْحَاجُّ جُودَةُ هَلَالُ، الْمُعَلِّمُ عِمْرَانُ الْخَوْلِيُّ، دَعْبَسُ النُّحَاسِ رَسِيمُ ذَكَرِ الْبُوصَيْرِيِّ، شَيْخُ الْحَارَةِ شُوقِي أَبُو سَلِيمَانَ. حَتَّى الْبِكْبَاشِيُّ حَمْدِي دُرُوشِ، تَرَدَّدَ عَلَى مَجْلِسِهِ فِي فِتْرَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ. أَخْلَى الشَّيْخُ أُذُنَهُ لِهَمْسَاتٍ خَصَّهَا بِهَا الْبِكْبَاشِيُّ، وَانْعَكَسَتْ عَلَى مَلَاحِحِهِ اهْتِمَامًا وَتَأْتُرًا.

امْتَلَأَتِ الْقَاعَةُ، وَالسَّاحَةُ أَمَامَ الْبَيْتِ بِسَائِرِ أَهْلِ بَحْرِي، وَالزُّورَارِ وَالْقَاصِدِينَ بِرَكَاتِهِ وَشِفَاعَتِهِ. قَدَمُوا مِنْ مَدَنِ الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ وَالصَّعِيدِ. رِيْمًا قَدِمَتْ أَعْدَادٌ مِنَ السُّودَانِ وَالْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ، يَسْعَوْنَ لِلِقَاءِ وَلِيِّ اللَّهِ، وَالِانْتِفَاعَ بِعِلْمِهِ.

لَمْ يَعْذِرْ يَقْصُرُ مَجْلِسِهِ عَلَى أَهْلِ الطَّرِيقَةِ الشَّاذِلِيَّةِ، وَلَا عَلَى الْعَابِدِينَ أَصْحَابِ الْمَرَاتِبِ الْكَامِلَةِ.



أذن بالجلوس في حضرته لمريدي الطرق الصوفية الأخرى، ولمن يبدءون خطوات الطريق الأول، والعاجزين عن الخوض في الأحوال الصوفية العالية، أو حتى العامة الذين ربما تغيب عنهم أحكام الصوفية في صورتها الصحيحة.

شكر الله على مريديه الذين تحابُّوا — معه — في الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطون بها، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. صنَّف مريديه بأنهم الفئة المؤمنة، والمسلمة، والناجية من النار، يُضيء حسنهم أهل الجنة، كما تُضيء الشمس لأهل الدنيا.

ذاع أمره، وكثر تلاميذه من الأتقياء، والعبَّاد، والزهاد، وأهل النظر، وأهل الوسائل. حتى أهل التخليط في الأقوال والأفعال، أُذِن لهم بالانتساب إليه. هم محاسبيُّه ومريدوه، وإن لم يُحسنوا التعبير عمَّا في نفوسهم.

أذِن للنساء، يجلسن خلف الحجب والأستار. يُنصتنَ إلى أحاديثه، يتابعنَّها، يسألنَ فيما غمض، أو ما يشوب صفو الحياة. شرط الحضور ألاَّ تشغل النساء بأحاديث جانبية، أو يظهرنَ الفرحة أو الحزن، أو تعلقنَ أصواتهن لأي سبب، فتصل إلى المريدين والأتباع في مجلس الشيخ.

لمَّا عرض عليه مريدوه أن يُنشئ طريقة، يضع قواعدها وأدابها، رفض أن يجاوز معنى محبة الله في ذاته بلا واسطة ولا منصب. أن يكون قطبًا، أو شيخَ طريقة، أو إمامًا يُقتدى به.

ابتعد بنفسه عن تحزبات الطرق الصوفية. وافق على أن يسلك كلُّ واحد من أتباعه السبيل الذي يناسبه، وإن شدد على أصحابه ومريديه ليجمعوا على محبته. لم يُعد يربط نفسه بأي مذهب، ولا أية طريقة. يقينه الديني مبعثه القرآن والسنة. يأخذ من المذاهب ما شاء، ويدع ما يشاء، كلُّها اجتهادات، وعليه أن يجتهد، كما اجتهد سواء من الأئمة.

عاب على بعض المتصوفة أن الشيخ هو الأصل عندهم، يُهملون ما يصح في السنة الشريفة.

قال إن سلف الأمة وعلماء الحديث، عُنوا بحفظ السنة النبوية، الرجال والإسناد، ضوابط علم الجرح والتعديل. الإسناد هو الذي حفظ السنة من الروايات الكاذبة، والأقوال المخترعة.

وجد في المذاهب الفقهية الأربعة، وفي مذهب الشيعة، ما يدعو إلى الأخذ منها. ووجد في كل الطرق ما يصلح للأخذ منه. هي دروب إلى اليقين الإلهي، تختلط، تتقاطع، تتشابك، لكنها تلتقي في الطريق الواحدة.

اعتمد على القراءات والعبّر والتأمل والاجتهادات التي يُشفق على نفسه ومريديه أن تُخطئ، ويأمل أن تُصيب. اعتبر الجدالات الفقهية واختلافات الطرق إنكارًا للدين.

وضع لمريديه آدابًا، نصحهم أن يلتزموا بها. أمرهم أن يكفوا عن أداء بعض الطقوس التي تقضي بها هذه الطريقة أو تلك. تقريب المسافة لا توسيعها هو المعنى الذي يجب أن ينشغلوا بتحقيقه، ما يناقض صحيح الدين، ما يهمل القرآن والسنة، والاعتراف بما أدّاه الخلفاء الأربعة وآل البيت والصحابة والأولياء والتابعون.

فرّق بين شريعة القرآن والسنة، وفقه العلماء والأقطاب. الشريعة لله، ولرسوله. الفقه لبشر مثلي ومثلك، يُخطئون ويصيبون.

لماذا لا نلجأ إلى ما نثق في صحته؟

وجد في الكتاب والسنة مصدرين حقيقيين لما تواضع عليه الزهاد والصوفية من قواعد الرياضة والمجاهدة والذوق والوجد والكشف والمشاهدة، ومحاولة الاتصال بالذات العلية.

قال: إن الأشياء كلها فيض وجود الله سبحانه. وقال: الشريعة هي القرآن والسنة، أما الفقه فبإمكاننا تخطئ قضاياها لأنه تفسير للشريعة، وهو من صنع البشر. وقال: إن الناس مأمورون بأن يلتفتوا حول من يدعو إلى الطريق الحقيقي لله. وقال إن أمرًا ما يشغل المسلمين لن يصلح آخره إلا بما صلح به أوله، وصلاح الأول لن يأتي إلا بإصلاح النفوس. وقال: مستحيل على العبد أن يمضي في طريق الحق وهو مكبل بزميم العادات والشهوات. وقال: ترفض الملائكة الوقوف على باب الرحاب الإلهي، إلا لمن تطهرت نفسه، وأخلص التوبة من هفواته. وقال: إذا انسقت وراء مغريات الدنيا، فاطلب لحظة التوبة قبل فوات الأوان.

لم يكن يستعيد كراماته، أو يتحدّى بها. قال إن العلماء بشر، معروضون لكل ما يتعرض له الإنسان من قصور. وقال إنه لا يبتغي بما يقوله أو يفعله وجاهة ولا مظهرية، ولا حتى رضا الناس، إنما هو تجرّد للخير العام.

وقال في لحظة اتصال بالملكوت: إذا أردتم نشر طريقتي فاذكروا بركاتي بحول الله. أحبه مريدوه.

جعلوه كالمحيط في سرّه وعمقه وخيراته. لا يسمع إلا آيات الله، ولا ينطق إلا بالثناء على الله، ولا يتحرك إلا في خدمته، ولا يجتهد في غير طاعته. يحرص أن يكون في غاية القرب من الله، فهو وليُّ له، يُعِينُهُ — بسابغ عطفه — على أن يخرج من الظلمات إلى النور ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. بالغوا في قدرته.

خَصُّوه بجماع الأسماء والصفات والأنوار والأخلاق. اختلقوا الأحداث والأفعال والكرامات، نشروها خارج بحري. تناقلتها المجالس في أحياء الإسكندرية، وفي العديد من مدن الدلتا والصعيد.

نسبوا إلى وليِّ الله من المعجزات والخوارق ما لم يحدث، ويصعب تصديقه. أعادوا إنكاره إلى تواضعه، أو ضعف ذاكرته. أصرُّوا على أن ما تكلموا عنه قد حدث. تحدّث المريدون عن ركوبه الغيوم، تنقله إلى أقصى الأماكن في لحظة أو أقل، دورانه حول الأرض في ومضة، أو لمحة بصر.

قالوا إن العصا التي يتوكأ عليها، ليست مثلَّ أيِّ عصا، لكنها فرع من شجرة في الجنة. صحا الشيخ — ذات صباح — فوجد العصا إلى جانبه. أسند راحته على قبضتها، وتحرك بها دون أن يبين على ملامحه تساؤل أو دهشة. رأى الملائكة — في منامه — يقطعون الفرع من الشجرة. عُنوا بتحويله حتى أخذ شكلَ عصا برأس مستدير، ووضعوا العصا إلى جانبه. مَنْ يُلامسه الشيخ بها يبرأ مما به من أمراض. قد يذهب المرض بمجرد النظر إلى موضع الإصابة.

روى المريدون أن وليَّ الله تنبأ بالأزمة الاقتصادية سنة ١٩٣٠م. قال لتجار شارع الميدان: ضعوا حساباً لأزمة قاسية تأتي بعد ثلاثة أعوام.

كان ذلك في عام ١٩٢٧م، عقب وفاة سعد زغلول. أسقط غالبية التجار تحذيرَ وليِّ الله. ثم استسلموا للندم حين اقتحمت الأزمة حياتهم.

تحدّثوا عن قدرته على وضع البركة في الطعام والشراب، وكشف النيات، وما تُخفيه الصدور، وتنبئته بالآتي، وعن سيره فوق موج البحر، وطيرانه في الهواء، ومخاطبته أولياء الله في أضرحتهم، ومخاطبة أسماك البحر، وطيور السماء، والحيوانات والزواحف والأشجار الساكنة.

أُصيب فهمي مهنا، لاعب فريق الطلبة — أثناء اللعب — بكسر في ساقه، صحبه أحمد خليل إلى وليِّ الله. مسح الشيخ بيده على موضع الكسر، فزال بإذن الله. عاد فهمي مهنا — في اليوم التالي — إلى لعب الكرة.

فَسَرُوا شُرُودَهُ — فِي جَلِيسَتِهِ مَعَ مَرِيدِيهِ — أَنَّهُ يَشَاهِدُ الْمَلَائِكَةَ، وَأَرْوَاحَ الْأَنْبِيَاءِ. يَتَابِعُ أَحَادِيثَهُمْ مَعَ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ، وَيَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ. يَتَلَقَّى عَنْهُمْ، وَيُعْطِيهِمْ مِنْ عِلْمِهِ. وَلَمَّا رَأَى فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ يَطِيرُ فَوْقَ قَبْرِ النَّبِيِّ بِالْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ، دَلَّ مَا رَأَاهُ عَلَى قُرْبِهِ مِنْ حَضْرَةِ الْمُصْطَفَى، وَكَمَالِ وَوَلَايَتِهِ، وَأَنَّهُ بَلَغَ مَرْتَبَةَ تَلَقِّي الْأَمْرِ: كُنْ، فَيَكُونُ.

رَأَاهُ مَرِيدُوهُ رُؤْيَا الْعَيْنِ وَهُوَ فِي حَالَاتٍ مِنَ التَّضَاوُلِ وَالتَّعَاظِمِ الْجَسَدِيِّ. يَتَضَاعَلُ جَسَدُهُ حَتَّى لَا يَكَادُ يَزِيدُ عَنِ الشَّرْبِ. يَتَعَاظِمُ، وَيَرْتَفِعُ فِي الْهَوَاءِ، يُزِيحُ مَنْ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَكَادُ يَنْفَرِدُ بِهِ الْمَكَانَ. يَعْلَمُ الْمَرِيدُونَ — فِي حَالِ التَّضَاوُلِ — أَنَّهُ يَخَاطِبُ الْقَوَى النُّورَانِيَّةَ، وَيَعْلَمُونَ — فِي حَالِ التَّعَاظِمِ — أَنَّهُ يُوَاجِهُ قَوَى شَرِيرَةً، تَرُدُّعُهَا مَظَاهِرُ الْقُوَّةِ. وَكَانَ إِذَا سَارَ فِي طَرِيقٍ مَظْلَمٍ، أَخْرَجَ سِوَاكِهِ مِنْ جَيْبِهِ، وَجَعَلَهُ شَمْعَةً، تُبَيِّنُ خَطَوَاتِهِ.

تَحَدَّثَ إِلَى مَرِيدِيهِ عَنِ الْحُورِ الْعَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، خُلِقَ أَسْفَلُهُنَّ مِنَ الْمَسْكِ، وَأَوْسَطُهُنَّ مِنَ الْعَنْبَرِ، وَأَعْلَاهُنَّ مِنَ الْكَافُورِ، وَشَعُورُهُنَّ وَحَوَاجِبُهُنَّ سِوَادٌ خُطٌّ مِنْ نُورٍ. يَتَحَدَّثَنَّ بِأَصْوَاتِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ. لَوْ بَصَقَتْ فِي الْبَحْرِ، فَسَيُصْبِحُ مَاءُ الْبَحْرِ كُلُّهُ عَذْبًا. حُورٌ عَيْنٌ خَالِدَاتُ الْبِكَارَةِ، كَلَّمَا عَاشَرَ الرَّجُلَ صَاحِبَتَهُ، عَادَتْ إِلَيْهَا الْبِكَارَةُ مَرَّةً ثَانِيَةً. هَكَذَا، إِلَى غَيْرِ نَهَائَةٍ. لِكُلِّ حُورِيَّةٍ أَلْفٌ وَصِيفَةٌ لِحَاجَتِهَا. يَفْرَغُ الرَّجُلُ — فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ — إِلَى مِائَةِ مَنَهْنٍ. يَنْتَقِلُ — عَقِبَ كُلِّ مَضَاجَعَةٍ — مِنْ سَرِيرٍ إِلَى آخَرَ. ذَكَوْرٌ لَا تَمَلُّ، وَفُرُوجٌ لَا تَحْفَى، وَشَهْوَاتٌ لَا تَنْقَطِعُ.

كَانَ فِي طَرِيقِهِ مِنْ بَحْرِيٍّ إِلَى نَاحِيَةِ الْمَكْسِ، يَصْحَبُهُ الْحَاجُّ جُودَةَ هَلَالٍ. إِذَا خَرَجَ إِلَى مَسَافَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ — قَلَّتْ أَوْ اتَّسَعَتْ — لَا يَحْمِلُ مَعَهُ نَقُودًا وَلَا زَادًا. يَكْتَفِي بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَإِلْقَاءِ نَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْ نِعَمَائِهِ وَرَحْمَتِهِ.

لَمَحَ فِي عَيْنَيْ جُودَةَ هَلَالٍ قَرِصَةً الْجُوعِ.  
 قَالَ: قَدْ نَجِدُ بَعْدَ تَسْعِينَ خَطْوَةً مَا يَسُدُّ جُوعَنَا.  
 عَدَّ جُودَةَ تَسْعِينَ خَطْوَةً، وَجَدَ بَعْدَهَا شَجَرَةً تَيْنَ، تَدَلَّتْ ثَمَارَهَا. التَّقَطَّ مِنْهَا الشَّيْخُ إِبْرَاهِيمَ ثَمْرَةً، وَأَكَلَ جُودَةَ هَلَالٍ حَتَّى شَبِعَ.

اتَّجِهْ بِمَلَامِحِ الْحَيْرَةِ إِلَى الشَّيْخِ إِبْرَاهِيمَ: هَلْ سَرْتَمَ يَا سَيِّدِي فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ مِنْ قَبْلِ؟

قَالَ الشَّيْخُ: بَلْ هِيَ أَوَّلُ سِيرِي كَمَا تَعْلَمُ.

— كَيْفَ عَرَفْتَ إِذْنًا بِأَمْرِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ؟

— أَنْبَأَنِي مَنْ أَصَدَّقَهُمْ.

أدرك جودة هلال أن وليَّ الله لا يترك الملكوت، وأن ملائكة الأجواء العلوية يحيطون به، لا يفارقونه.

لمح تشكُّكًا في ولايته، في عينيَّ الشيخ رافع عبيد. تأخر الشيخ في الإجابة عن سؤال، فهجست الوسائوس في صدر رافع عبيد.

فطنَ الشيخ إلى ما يُعانيه الرجل. قال: علمي من عند الله فلا ينسخه. أما أنت فما أسهل على عبيدٍ فقيرٍ مثلي أن ينسخ علمك، فانظر نفسك!  
أدرك رافع عبيد — في غمضة عين — أن كلَّ ما حصَّله من معارف وعلوم قد تطاير من نفسه كأوراق خريفية.

قال رافع عبيد: تسلَّلت إلى ذهني وسوسةُ شيطان، أستعيد بالله منها.  
ومال على يديَّ الولي وقدميه، يقبُّلها في تذللٍ: أتوسل إليك أن تُعيد إلى ذهني ما كان به من معارف!

لأن وليَّ الله كان يعرف أن الشيخ رافع لن يجلس أمام تلاميذ الكُتَّاب دون علم، فقد أعاد إلى الرجل — بالإشفاق — ما كان قد مسحه من صدره.  
وكان جماعة في مقهى الزردوني قد قصرُوا حديثهم على الانتقاص من قدر الشيخ إبراهيم سيد أحمد ومكانته، والإنكار عليه.  
انشق حائطُ المقهى عن وليَّ الله. واجهَ جلسةَ النميمة بقوله: إذا بال أحدُهم في البحر، هل يُقضى على طهارته؟

ورفع سبَّابته في وجوههم: هذا هو عائد كلماتكم.  
وعلا صوته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

عاد وليُّ الله من حيث أتى.  
لمَّا أظهر الشيخ عبد الستار — إمام جامع علي تمراز — خوفه من رؤيا جهنم في منام ولي الله، مال الوليُّ إلى المعنى المغاير، وهو الولاية الكبرى.  
قال إنه تألف — ومريديه — بالعشرة والصدقة، واجتمعوا على الطهارة والفضيلة، والسعي للفوز برضوان الله. وقال إنهم وضعوا مذهبًا يسعون — من خلاله — إلى تحقيق ما يريدون.

هو القطب. بلغ مرتبةً متفردة بين أولياء عصره. سمى مريديه نقباء، ونجباء، وبدلاء. درجاتهم متفاوتة، لكنهم أتباعه المخلصون.

طالب مريدوه الناس أن يجاوزوا الاعتقاد فيه، والإيمان بقدراته، إلى الإيمان بتميز قطبيته، وأنها تتحرك في مساحة من الكرامات لا نهاية لها. ذاعت شهرته، وكثر أتباعه ومريدوه. شكّلوا له حماية تكفيه للبوح بما يعد من الأسرار.

جعل الأتباع للطريقة أعلامها وشاراتها المميزة. ألفوا العديد من المؤلفات عن سيرة وليّ الله وخوارقه ومعجزاته. ذكروا أن الأجنة هتفت باسمه في بطون أمهاتها، وهتف المواليد بالاسم الغالي لحظة خروجهم إلى الحياة. قالوا إن أنفاسه تتصوع في مجلسه بأريج عبق، وقرأ الناس اسمه على أصداف البحر وأوراق الشجر. أطلق الكثير من أهل بحري اسمه على المواليد الجدد.

حين وجد بين أتباعه ومريديه اختلافًا فيما اتخذ فيه قرارًا — بينه وبين نفسه — تخلّى عمّا عودهم عليه من المشاورات والمناظرات، وتقديم كل مريد حججه وبراهينه سعيًا إلى الرأي الصواب. الشورى لازمة، لكن تبعات القرار تظل عليه وحده.

روى من أدوا صلاة الجمعة — ذلك اليوم الشتوي — في جامع المرسي أبي العباس، أن الشيخ إبراهيم سيد أحمد مضى — عقب أذان الخطبة الأول — إلى المنبر. سبق الإمام بخطوات قافزة. فردّ طولّه، مال بصدره إلى الوراء، استردّ أنفاسه. حمد الله، وأثنى عليه، ومجّده. تحدّث عن رحلته الطويلة مع صحيح الدين. أفاض في الكلام عن القائم بالحجة، لا تخلو منه الأرض إلى أوان الانتهاء. تناثرت في خطبته كلمات: البيعة، الشورى، الخلافة.

اتجه للمصلين بنظرة صارمة: لم تعد هناك طرق صوفية غير ما ندعو إليه. وربّت صدره براحتة: أنا قطب الأقطاب.

انظر: أبو العباس، أبو الحسن الشاذلي، البوصيري، الأنفوشي، جودة هلال، حمدي درويش، الخضر، رافع عبيد، سامي بهاء الدين، شحاتة عبد الكريم، صبيحة الداخني، عبد الستار، عمران الخولي، غريب أبو النجا، ياقوت العرش.

## ابن خطاب

تتفق المراجع على أن اسمه شفيح عبد الصبور. قَدِمَتْ أسرته من قرية تابعة لمركز إيتاي البارود. عَمِل أبوه في الدائرة الجمركية. تنقَّل بين الإسكندرية وقرية الأسرة. لَمَّا مات، دفنه شفيح في مقابر العامود. قَلَّتْ — من يومها — زيارته لقرية أبيه، حتى انعدمت تمامًا. ابن خطاب تسمية، أطلقها عليه الشيخ رافع عبيد معلّم الكُتّاب، لأنه نذر نفسه لزاوية خطاب، على ناصية شارع المسافرخانة.

استغرق وقته ما بين العمل والطاعات. يعمل فترة الصباح مخلّصًا للبضائع في الجمرک. يغادر باب واحد — عقب انتهاء العمل — إلى شارع صفر باشا، يميل — في تقاطعه مع المسافرخانة — إلى زاوية خطاب. يمضي إليها على الطريق المرصوف بأحجار البازلت الصغيرة، المستطيلة.

يقضي ما يحتاجه إلى ما بعد صلاة العشاء. يجلس ساعةً أو أقل على قهوة مخيم بميدان المساجد، ثم يعود إلى بيته في شارع ابن وكيع، على ناصية الطريق إلى الموازيني. يحرص على أن يزور مقام سيدي أبي العباس قبل طلوع فجر السبت. يكون السلطان — في هذه اللحظات — حاضرًا.

طالَت إقامته في الزاوية. يجلس في نصف الحلقة حول دكة المبلِّغ، يُنصت إلى الشيخ نعمان حبة إمام الزاوية في دروس المغرب، يفسّر آيات القرآن، والأحاديث النبوية، ويدرس الفقه. يتحدث بكلمات تُزهد في الدنيا، وتُرغّب في الآخرة.

يستمع ابن خطاب إلى درس الشيخ، ويسأل عما يغمض، ويقراء، ويتأمل. حاول أن يُخضع نفسه لطاعة الأوامر، واجتناب النواهي، والتحلي بأنواع الفضائل، والتخلي عما يُعد من الرذائل.

تلقى الكثير من العلم، وارتقى في سلوكه، وامتلاً قلبه بأنوار الطاعات. لامست قدماه الطريق.

وجد الشيخ نعمان أن ابن خطاب أصبح جديراً بأن يلعب دور المعلم لا دور المريد. أذن له بالإرشاد، ونصيحة الناس. أعطاه حقَّ جمع المريدين والأتباع، ووعظهم، والإشارة إلى الطريق التي يجب أن يسلكوها.

عرف الطريق إليه في الزاوية صيادون وموظفون وحرفيون وتجار، يقرأ لهم دروس الفقه، ويجمعهم على تلاوة القرآن والأذكار.

زادت أعداد المترددين على الزاوية. يقرءون آيات القرآن، ويذكرون الله، ويستمعون إلى أحاديث ابن خطاب.

حفظ لسانه من التكلم بكلام الدنيا. اقتصرت الأحاديث على الصلحاء، وما يكون من أمورهم، وفي كرامات الأولياء ومكاشفاتهم.

كان يفعل ذلك لأنه يستمتع به. يشعر بالنشوة حين يلجأ إليه من يطلب مشورته في أمر ما، أو يستفتيه فيما استعصى عليه فهمه من أمور الدين والدنيا. يسألونه فيجيب بعلمه، أو يعتذر بالقول أمام الأسرار والغوامض التي لا يستطيع كشفها: لا أدري.

قال لسائل بما لا تخفى دلالتة: لا تطلب من الأعمى أن يفرق بين الألوان!

لم يحاول أن يفعل ما أذن له به وليُّ الله، فيمنح العهود من الباطن. حرص على نقطة لا يبتعد عنها، تنتهي عندها قراءته واجتهاداته، وما يستطيع أن يُفيد به المترددين على مجلسه.

حبسه البكباشي حمدي درويش في نقطة الأنفوشي — بتهمة اختلاس — أربعاً وعشرين ساعة. أحاله إلى النيابة، فبرأته.

هزّه ما حدث.

تبدلت — من يومها — حياته. هبَّت ريحٌ طيبة دفعته إلى طريق السلامة. أزمع ترك الدنيا، والاشتغال بما يعود عليه بالنفع من العلم، والصدع بالحق، والعمل به.

مال إلى حب الخلوة، وإيثار العزلة، والانقطاع عن الناس. شغله اعتقادُ الصوفية، وتصديق كلامهم، وعلومهم، وأحوالهم. غلب عليه النسكُ والمجاهدة وسلوك الطريق. يحافظ على صلواته، يحقُّها بالنوافل.

إذا انشغل بالمطالعة، انصرف عن كلِّ ما عداها، لا يسأل عن طعام ولا شراب ولا أهل ولا مؤانسة. صار على معرفة بكلام أهل الحقائق، وأرباب الطرائق.



عرف عنه الناس التقوى، وحفظ الفرائض، ورفض المعاصي، ومجالسة الصالحين، ومداومة الصلاة والصوم والذكر وتلاوة القرآن، والأخذ بما يقضي به الله من فرائض ونوافل، وإهمال ما يُنافي تعاليم الكتاب والسنة، والوقوف على حدود الله من الأوامر والنواهي، ومعرفة ما يحل، وما لا يحل، وفعل الحلال، واجتناب الحرام، والإمسك عن الشبهات، وعدم الوقوع في المحظور، وخشية الله في كل أمورهِ، وقيام الليل، وصوم النهار، والتضرع عند السَّحر.

زاد زهدهُ في الدنيا، أعرض عن فتنها وزخرفها. زهد فيما يُقبل عليه الصيادون والبحارة والأقارب والجيران من مُتَع الحياة وزائلها. حرَّم على نفسه حتى ما أحله الله. أقبل على الله. توكَّل عليه، وخاف منه. دام تفكيره بينه وبين نفسه.

أغلق عليه بابَ بيته، لا يغادره إلا لأداء الصلاة في زاوية خطاب. قلَّ إقباله على الدنيا. كَثُرَ ذكرُه لله، والانقطاع إليه. أخذ نفسه بالانصراف عن دنيا البشر، وبالزهد والورع والعبادة. انفرد عن الناس في الخلوة التي صنعها لنفسه داخل الزاوية. شعر أن ما يعيشه هو حياته الحقيقية.

هذَّب نفسه بالرياضة والعبادة وأحوال الإرادة. استغرق جميع أوقاته في العبادة. يحصَّن نفسه بآيات القرآن والأدعية والأذكار وقراءة الأوراد. زال عن نفسه الغيم. صَفَت نفسه من الآفات. استغرق في بحار المكاشفة والرياضات والمجاهدات والأذواق والمواجيد. أشرقَ عليه نورُ الروح الإلهي مددًا من الفيوض النورانية.

قدَّر سيدي أبو العباس مجاهداته الروحية، وجهوده العلمية. عرف ما يُضمّره في نفسه عن طريق الكشف، الرغبة في السياحة، والمجاهدات الروحية، وتحصيل العلوم من الفقهاء والزهاد والمحدثين والمفسرين وأئمة الكلام، والفتح والكشف والمشاهدة. عهد إليه — في رؤيا منامية — بالخدمة في زاوية خطاب.

صرف همَّته، وبذل جهده، في خدمة الزاوية.

يطمئنُّ ابن خطاب إلى أن القوى القدريّة، العلوية، تبسط سيطرتها على حياتنا. انقطاع الواردات، وعدم دوام الأوراد. شحبت شمس الجذب من أقطاب الصوفية، حتى تلاشت تمامًا. لم يعد إلا مَنْ يعانون، الزهاد والعباد والصوفية وأهل الباطن، أصحاب الأذواق وأرباب الأحوال. «اللهم أعني بالعلم، وزيني بالحلم، وكرمني بالتقوى، وجملي بالعافية.»

ظل متقشِّفًا، متقلِّلاً من الدنيا، راضيًا باليسير منها. يقوم الليل، ويصوم النهار. يحافظ على صلواته، يحفُّها بالنوافل. يصلي الصبح بوضوء العشاء. يحرص — قبل أن

يخلو إلى ما بين يديه — على الصيام، وطهارة الباطن والظاهر. يجلس بعد طهارة كاملة، وأداء ركعتي صلاة. يستقبل القبلة في جلسته، وهو يقرأ القرآن.

قطع المنازل، وترقى في المقامات: التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، التوكل، الرضا. ذاق حلاوة المراحل الأربعة: الوجد، الغلبة، السكر، الشطح. عرف البقاء والفناء والقبض والبسط والجمع والفرق والصحو والغيبة والمحق والتجلي والتخلي والمشاهدة والمكاشفة والسر وسر السر.

أجمع الناس على اعتقاده.

وهبه الله بصيرة اليقين، ومعرفة الغيب، والتنبؤ بالمستقبل، واستشراق عواقب الأمور في الدنيا والآخرة. والإشراف على الأحوال كلها. عرف المعاني الحقيقية للحب والعشق والغرام والهيام والصبابة والوجد والشهاد والجوى. القباب المذهبة، أعمدة الذهب والفضة، الأرض المفروشة بالريحان، الأشجار المثقلة بالفاكهة التي لا يعرفها أهل الدنيا. تنويه الجنة كما تنوي أرواح المؤمنين، يتنعمون بنعيمها، يتنسمون من طيب رائحتها، يمشون، يقعدون، ينتقلون، يأوون إلى قناديل من نور تحت العرش الإلهي. يستلقي تحت شجرة الخلد، ظلها يمتد في الزمان أكثر من سبعين سنة. يُغمض عينيه على رؤى الجنان السبع: دار الجلال، دار السلام، جنة عدن، جنة المأوى، جنة الخلد، جنة الفردوس، جنة النعيم. فيها من النعيم والثواب والكرامات ما لا أذن سمعت، ولا عين رأت، ولا خطر على قلب بشر. لا ليل ولا نهار، ولا موت، ولا حزن ولا حقد ولا ضغينة ولا حسد، ولا مؤاخذه على أي نحو. الخضرة التي بلا آفاق، والأنهار، والنخل والشجر والفاكهة، والورود والرياحين والأزهار، والقصور ذات اللبانات الذهب، واللبنات الفضة، وشرفات الذهب، وبلاط المسك الأذفر، وحبصاء الدر والياقوت، والتراب الزعفران، والزرابي والأكواب والنمارق، وعبق البخور السماوي، والأنغام العلوية، وجماعات الملائكة، والحوار العين، والتساييح المتداخلة بالغمامات البيضاء، والأساور الثلاثة في الأيدي: من الذهب والفضة واللؤلؤ، والوجد، والنشوة، والتأمل، والانبساط.

قدمت المظاهرة من المعهد الديني.

اخترقت شارع صفر باشا من المسافرخانة. بدا كأنها تتجه إلى شارع رأس التين.

هل يقصدون السراي؟

لم يناقش حمدي درويش ما حدث، ولا ناقش الاحتمالات. أدرك أن السراي وجهة المتظاهرين. إذا كانت مظاهرات الأزهريين قد هتفت بحياة الملك فؤاد، فإن مظاهرات ما بعد الحرب العالمية الثانية تهتف بسقوط الملك فاروق.

أعطى حمدي درويش أمره. انطلق الرصاص في الهواء، وارتفعت الهراوات والخوذات. تراجع المتظاهرون أمام موجات العساكر. لاذوا بالأبواب المفتوحة، والشوارع الجانبية.

عاد الجنود بأعداد من الطلبة، من داخل الدكاكين والمقاهي والبيوت. ميّزهم بالزيّ الأزهرى.

دفعوا ابن خطاب — بزيّ الأزهرى — معهم إلى داخل عربات البوليس.

بقي بمفرده في قسم الجمر، بعد أن أُعيد الطلبة إلى المعهد.

فاجأه حمدي درويش بصفعة على قفاه، اندفست لها رقبته داخل جسده بتلقائية.

— لست طالباً في المعهد ... لماذا كنت في المظاهرة؟

— لم أكن فيها. أخذني العساكر من داخل زاوية خطاب.

رمقه بنظرة مدققة، كأنه يحاول قراءة ما يخفيه: كنت تؤذّن، أم تُقيم حلقة نكّر؟!

الحجرة، الزنزانة، ضيقة، بلا نوافذ، والباب أحكم إغلاقه، كأنه تحوّل إلى جزء من الجدار المصمت. الكؤّة الصغيرة. أعلى زاوية السقف. بحجم قبضة اليد، تأذن بدخول الهواء، وأصداء الطريق.

لم يعرف كيف يُواجه ما يحدث، ولا كيف يصل إلى هؤلاء الذين يتحركون خارج الزنزانة. لا يراهم ولا يرونه. إنما هي أصوات صاخبة، خافتة، متلاطمة، متشابكة، تترامى بما يُشبه الصدى. لم يحاول تبين مصدرها، وإن حاول أن يلتقط الكلمات التي تقولها.

انتألت على ذاكرته: بيوت، خرائب، أنفاق مضيئة ومظلمة، أطفال يلعبون البلي، كومات قمامة يغطيها الذباب، وجوه تطلّ من النوافذ، مناشر غسل، باعة وراء أقفاص، قطّان يتعاركان حول ما لا يتبيناه، تلويحة يد من خلف قضبان حديدية، خيمة متصوفة في حديرة أبي العباس، هوائيات، تطوحات الذاكرين، أعمدة صحن أبي العباس، مقام سيدي كظمان، طائرات ورقية تتصادم في الفراغ.

غاب ضوء الشمس، فلا يفرق بين الليل والنهار. يحدّق في الظلمة، فلا يرى شيئاً. اقتحمه شعورٌ بالوحدة والعزلة والوحشة، وأنه يهبط إلى أعماق الظلمة، دون أمل في النجاة.

تأقّ إلى الضوء والناس، والمؤانسة والبيع والشراء، والشوارع والبنائيات والمساجد، والموالد وخيام الصوفية وأكشاك الختان، وحلقة الذكر على رصيف البوصيري، وزحام شارع الميدان، ووقفة الفصال في حلقة السمك، وصلاة الجمعة في أبي العباس، ودروس المغرب في زاوية خطاب، وأشعة الشمس الساقطة من أعلى زاوية الأعرج. أفزعه التصور أن يظل محبوساً في الحجرة. لم يعد يتصور مرور الوقت إلى اليوم التالي. تحوّلت الجدران إلى أيدي تخنقه، تُطبق على جسده.

هل يقتله الرجل في هذه الحجرة، الزنزانة؟

قال أبوه: إن الوطن قد يكون بين أربعة جدران، لكن الجدران الأربعة، المصمتة، تُعطي معنىً مختلفاً. العزلة التي لا تطلبها النفس، والوحدة القاسية. يشعر بأن ترك المكان — في الموعد الذي يريده — ليس حقّه. قيمة الجدران والفضاء والخلاء، فيما تهبه من راحة وسكينة واطمئنان، وغياب التوقع الرديء. ما عدا ذلك، فهو السجن الذي قد تضمّه حديقة.

أدرك أنه يعوم في بحر بلا أعماق ولا ضفاف.

أصاخ السمع لما يُشبه الهمهمات، تتراعى من وراء الجدران والكؤّة الحديدية العلوية الضيقة.

ضرب الجدار الفاصل بقبضته. انعكس الصدى تحولت الهمهمات إلى صيحات ونداءات تصدر عن مئات الأفواه.

وقف تحت الكؤّة الصغيرة على أطراف قدميه. أدار يده حول فمه. رفع صوته — بالاستغاثة — إلى آخره. يعرف الناس في الخارج أنه مسجون داخل حجرة مغلقة.

لكن: مَنْ يستمع إلى صراخه؟ مَنْ يعرف بوجوده في هذه الزنزانة الضيقة؟

إذا حدث الموت، فلن يُتاح له رواية ما حدث، منذ دفعه الجنود في السيارة، حتى

أغلق حمدي درويش عليه هذه الحجرة.

تمنّى ألا يموتَ في صمت، اقتحمه التفكير في ضرورة الهرب. يرفض أن يكون الموتُ

هو المتاح الوحيد.

لم تُعد لديه رغبة ما، فيما عدا أن يظلّ حيّاً. لا ينتهي العمر في هذه الزنزانة.

لماذا يسبق القرين الإنسان في العالم؟

عرف أن القرين وُلد قبل يوم من خروجه إلى الحياة. يسبقه — بعد ذلك — إلى حيث يذهب. هل بالتخمين، أو أنه يتلقَى أوامر لا يعرف مصدرها؟

لا يذكر متى عرف — للمرة الأولى — تسمية القرين. لعلها كودية الزار سيسبان. قالت — وهي تُعينه على القيام: اسم الله على أختك!

سأل أمه: ماذا تقصد المرأة:

قالت: أختك هي قرينك ... إذا أرضيناها بالكلام فلن تُؤذيك.  
— هل يمكن أن تُفيدني.

— يقترب القرين من النفس — أحياناً — أكثر من الروح!

وهي تربت فحذه: المهم أن تُبعدَ عنك أذاها.

رفض الشيخ نعمان حبة إمام زاوية خطاب دعوة سيسبان وتفسير أمه. تشكَّك فيما نُسب إلى الرسول: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن.» القرين فكرة سخيفة لا معنى لها. الجن المذكور في القرآن، لكنه جنس آخر، كائن آخر ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾، ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾. الضرر والشر هما — في آيتي القرآن — المعنى المحدد للقرين. يصعب أن يلتحم بجسد الإنسان، يصبح جزءاً من حياته، يُؤذيه أو يمنع عنه الأذى.

حلَّت فكرة القرين في اللحظة التي خايله فيها الجنون: هل القرين معه الآن؟ في داخل جسده، أو بالقرب منه؟ هل تُشاركه الحياة في الزنزانة المغلقة؟ هل تُنقذه إن استغاث بها؟

هو يحتاج إلى القرين للسبب نفسه، لإغاثته من الخطر، لا تشغله الوسائل، ولا تأثيرات أفعال القرين على من يهددون حياته.

لم يُسخِّف الفكرة — كما فعل إمام الزاوية — ولا رفضها. اطمأن إليها، واستدعاها عندما خنقه الحصار، وبدا الأفق مليئاً بالتوقعات المخيفة.

يُسلم نفسه إلى الصمت السادر. يُصيخ السمع لتبئُّن صوت القرين.

يعرف أن قرينه، الجنية التي يخاويها، تُقاسمه الحياة أينما كان. حتى في الشوارع تُلازمه كظله. تستطيع أن تدخل من الباب، وتخرج منه. تخترق الجدران، لا شأن لها بأقفال ولا مزاليج ولا عيون راصدة. تفعل ما تُقيده الحركة عن فعله، ما لا يستطيع أن يفعله. لعلها تعيش في داخله، تُلاصق جلده ومشاعره، تُقاسمه الصحو والنوم.

أزعم أن يجعل القرين طوع إرادته. يأمر، فتمتثل القرين. لا تُخيفه، ولا تعترض، أو تحاول إثناؤه عمّا يطلبه.

علا صوتُهُ.

رددت الجدران صدى الصوت.

قال ما لم يتدبره، ولا تصوّر أنه يقوله. كان لا بد أن يفعل شيئاً لمجازة الحصار، التحذيرات والتهديدات والأوامر.

طال تطلّعه إلى الباب المغلق، وإن تَوَقَّع أن ينشَقَّ الجدار عمّا ينتظر قدومه. تطالعه القرين والأنيس وتفريج الكربة. تُجالسه، تُجيب عن أسئلته، تدلُّه على ما ينبغي فعله.

هذه القرين، متى تُنقذه؟

شاهد في السماء طاقةً من النور. أدرك أن الله — سبحانه — استجاب لشفاعَةِ سيدي

خطاب ومدّيه.

أطال التأمل.

لم يكن في ملامح الواقعة أمام الباب المغلق ما ينتمي إلى عوالم غريبة، أو مجهولة. قرأ عن الحور العين، ولم يقرأ عن القرين. السحنة تختلف عمّا رسمه في خياله للهور العين. تصور الجسد الأثري كطيف، البدن المضمخ بالزعفران والمسك والعنبر والكافور، ضوء الابتسامة الذي يُضيء الجنة. لو أن شعرة من رأسها سقطت على الأرض لأضاءت كلّ ما حولها إلى مسافات بلا آفاق.

أدرك — هذا ما حدّثه به قلبه — أنها هي القرين، الجنيّة التي يخاويها.

لم يُخفِ امتنانه ولا فرحته برؤية المرأة. لا بد أنها أتت لإغاثته، لإنقاذه مما يُعانيه. لم يُعدّ وحيداً.

قاسمته الأخت الجنيّة الحجرة. العزلة والوحدة والجلوس والتمدد والطعام والنوم والأفكار والمخاوف.

تروي القرين ما يعرفه. لا تُضيف ما يبعث على الفضول والمتابعة والأسئلة والدهشة، تُعيد ما عاشه، وإن مكّ النسيان جوانبَ منه.

تصوّر أنه إذا جاءت القرين، إذا قاسمته العيش في الحجرة، فسيفاتلان ما لا يقوى — بمفرده — على مقاومته. تنتصر له القرين، تنتصر لهما، تُشاركه العراك — بميلها إلى

الشر — حتى يريا النور.

قالت القرين: دعوتني للإقامة — مجسدة — معك.

قال: لا معنى للونس في زنانة مغلقة.

حوّلت عينيها بعيداً عنه: خلّص نفسك، فلم نتفق على ذلك.

تنامت في داخله قوة هائلة، لم يفتن إليها من قبل، ولا شعر بها. أدرك أن قوةً عُليا تسيطر على تصرفاته، لا يستطيع رفضها، ولا مقاومتها، ولا التغلب عليها، تدفعه لفعل ما تريده.

عمق إحساسه بما تصاعد في داخله من الرفض لما يحدث. هو الذي ينبغي أن يفعل، ويثور، وليس القرين التي اكتفت بالمؤانسة.

ليس ذلك ما تخيله. لم يتخيل أي شيء، لا مخلوقات سفلية ولا علوية. هو الذي ينبغي أن يواجه ويتحدى.

«اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، و عليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت، أنت الحي لا تموت، والجن والإنس يموتون. اللهم إني أسألك الصحة والعفة والإنابة وحسن الخلق والرضا بالقدر.»

ضغط بأخر قوته على الباب المغلق.

شعر أن جدران الغرفة تتبعد.

واصل الضغط حتى تهاوى الباب تحت قدميه. زال الباب والجدران والكوة الصغيرة في زاوية السقف. لم يعد إلا الفضاء من كل الجوانب.

تحرك بين الحجرات، لجأ إلى رأسه و صدره ويديه وقدميه، يدفع الجدران والأسوار، وكل ما يحيط به، حتى أنفاسه القوية كإعصار، أطلقها في كل ما هو قائم ليتداعى ويسقط. تحطمت النوافذ والشرفات والأبواب، تحطمت حتى الأشجار المحيطة بقسم الشرطة.

أخلى لنفسه منفذاً.

انظر: أبو العباس، حمدي درويش، رافع عبيد، سيسبان، فاروق الأول.





## أبو الحسن الشاذلي

هو القطب الغوث الفرد الجامع السيد أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي. تمتد الأسماء إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب.

وُلد في قرية «غمارة» القريبة من سبتة بالمغرب. عُرف بالشاذلي، نسبةً إلى قرية شاذلة بالمغرب، مع أنها لم تكن مسقط رأسه.

طلب العلم بالارتحال إلى مصادره في تونس ومصر والشام والعراق. التقى في عاصمة الرشيد أبا الفتح الواسطي، الشيخ الرفاعي الكبير. قال أبو الحسن: لما دخلت العراق، اجتمعتُ بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي، فما رأيت بالعراق مثله. وكان بالعراق شيوخٌ كثيرة، وكنت أطلب القطب. فقال لي الشيخ أبو الفتح: تطلب القطب بالعراق وهو في بلادك. ارجع إلى بلادك تجده. فرجعتُ إلى بلاد المغرب، إلى أن اجتمعتُ بأستاذي الشيخ الولي العارف الصديق القطب الغوث أبي عبد محمد عبد السلام بن مشيش، الشريف الحسني. فلما قدمتُ عليه، وهو ساكن مغارة برباطه في رأس الجبل، اغتسلتُ في عين أسفل الجبل، وخرجت من علمي وعملي، وطلعتُ إليه فقيرًا، وإذا به هابط عليّ. فلما رأني قال: مرحبًا بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار، وذكر لي نسبي إلى رسول الله ﷺ. ثم قال لي: يا علي، طلعت إلينا فقيرًا عن علمك وعملك، فأخذت منّا غنى الدنيا والآخرة... فأخذني منه الدهش، وأقمت عنده أيامًا، إلى أن فتح الله علي بصيرتي.

الشيخ عبد السلام بن مشيش أستاذ أبي الحسن الشاذلي — في تأكيدات أقطاب الشاذلية — مقامه بالمغرب كمقام سيدي الإمام الشافعي بمصر المحروسة.

سلك الشاذلي طريقَ ابن مشيش في جمعه بين الشريعة والحقيقة: «الزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثت، تطهرت من دنس حب الدنيا، وكلما ملتَ إلى الشهوة، أصلحت بالتوبة ما أفسدتَ بالهوى، وعليك بمحبة الله على التوقير والنزهة، وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقتَ أو تيقظت، شربت، حتى يكون سكرك وصحوك بالله، وحتى تغيب بجماله عن المحبة، وعن الشراب والشرب والكأس، بما يبدو لك من نور جماله، وقدس كمال جلاله.»

بعد أن تعلمَ على يد ابن مشيش، ووصل إلى مرتبة المشيخة، جلس فيها، وحمل الراية البيضاء، راية أولياء الله الصالحين.

قال ابن مشيش لتلميذه الشاذلي: يا علي، ارتحل إلى إفريقية، واسكن بلدًا بها تسمى شاذلة، فإن الله — عز وجل — يسميك الشاذلي، وبعد ذلك تنتقل إلى تونس، ويؤتى عليك بها من قبل السلطنة، وبعد ذلك تنتقل إلى أرض المشرق، بها ترث القطبية.  
قال أبو الحسن — بعد أن تهيأً للرحيل — لأستاذه ابن مشيش: أوصني.

قال الشيخ: يا علي، الله الله، والناس الناس، نزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التمايل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح، وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عندك، ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك. وقل: اللهم ارحمني من ذكرهم، ومن العوارض من قبلهم، ونجني من شرهم، وأغنني بخيرك عن خيرهم، وتولني بالخصوصية من بينهم، إنك على كل شيء قدير.

مضى أبو الحسن — بنصائح أستاذه — إلى تونس، ومنها إلى الإسكندرية. عرف أن بالمدينة وليَّ الله أبا الفتوح الواسطي. وقف الشاذلي بظاهر المدينة، واستأذن في دخولها.

قال أبو الفتوح: طاقية لا تسع رأسين!

ومات أبو الفتوح في الليلة نفسها.

أمضى أبو الحسن — بعد زيارته الإسكندرية للمرة الأولى — ما لفت انتباهه من معالمها: المنارة، عمود السواري، المسلات، القصور، المساجد، الكنائس، القلاع، الأسوار العالية، وما يتخللها من أبراج وحصون وأبواب. ظل في الإسكندرية وقتًا، ثم عاد إلى تونس.

التقى بأبي العباس المرسي، أهم مريديه وتلاميذه وخليفته بعد رحيله، ثم سار إلى مصر، يصحبه تلميذه أبو العباس المرسي، وشقيقه أبو عبد الله جمال الدين محمد، وأبو العزائم ماضي، ومحمد القرطبي، وغيرهم. نزلوا — وقت الغروب — عند عمود السواري.

سبقهم كتابٌ من قاضي تونس أبي القاسم بن البراء إلى والي الإسكندرية «إن الواصل إليكم شوّش علينا بلادنا، وكذلك يفعل في بلادكم.»

كان أبو الحسن قد ناقش ابنَ البراء في الشريعة، وخالفه في الرأي، فأضمر النّيل منه. اعتقل الوالي أبا الحسن وصحبَه، ثم أطلق سراحهم — بعد أيام — لتبين الحقيقة.

أقام أبو الحسن وصحبُه في بيت بالقرب من كوم الدكة. جعل جامع العطارين — أعوام إقامته — موضعًا لإلقاء دروسه في الوعظ والتفسير، عقد حلقات الذكر، لقاء طلبته ومريديه. تنقّل بين دمنهور والمنصورة ودمياط والقاهرة وبعض مدن الجنوب. ارتحاله في الإسكندرية ناحية البحر، يجتذبه الأفق، والتأمل، والمعاني الجميلة. إن ركب يمشي الفقراء والأغنياء حوله، وتُنشر الأعلام والبيارق على رأسه، وتُضرب الكاسات بين يديه، وتعلو الأصوات قائلة: مَنْ أراد القطب، فعليه بالشاذلي.

قدّم أبو الحسن (عام ١٢٤٨م) تلميذه أبا العباس خليفةً له في الطريقة. أذن له بإلقاء الدروس على تلاميذه، وتفقيهم في أمور دينهم.

لما اقتحم الصليبيون أرض مصر — في العام التالي — بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، شارك أبو الحسن المصريين جهادهم في معركة المنصورة، حيث أسر لويس التاسع. وهو يُعد نفسه للسفر إلى البيت الحرام — كعادته كل يوم — عن طريق الصعيد، قابله الخضر عليه السلام.

قال الخضر: يا أبا الحسن. أصحبك الله اللطف الجميل. وكان الله صاحبًا في المقام والرحيل.

أدرك أبو الحسن أنه اقترب من لقاء الله.

قال لنقيبته: اصطحب معك كفنًا ومكتل ماء وحنوطًا وفأسًا.

قال النقيب: لماذا؟

اكتفي الشاذلي بالقول: سوف نرى.

مضى الشاذلي إلى الحج في موعده المعتاد. فاجأه المرضُ في ميناء عيذاب على البحر الأحمر. عندما أحسّ القطب بدنو أجله، أوصى أصحابه بالطريقة التي ينبغي — بعد رحيله — أن يسيروا فيها.

لما أسلم الروح، صلّى عليه أصحابه، وواروه التراب في بلدة «حميثرة» بصحراء عيذاب، جنوب شرقي مصر. وواصلوا السير إلى مكة.

خلف أبو العباس المرسي أستاذَه الشاذلي في مشيخة الطريقة الشاذلية.

دُفن الشاذلي حيث تُوفي. عشرات الألوف يزورون ضريحه، وبخاصة في أيام مولده.  
جُدد بناء مسجد الشاذلي في حميثة، منذ أعوام قريبة.

وصفه ابن عطاء الله بأنه «قطب الزمان، والحامل في وقته لواء أهل العيان، حجة الصوفية، علم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، القطب الغوث الجامع أبو الحسن علي الشاذلي، رضي الله عنه.»

قال الشاذلي: كنت أنا وصاحب لي قد أويينا إلى مغارة، نطلب الوصول إلى الله، فكنّا نقول: غدًا يفتح لنا. فدخل علينا رجل له هيبه. قلت له: مَنْ أنت؟ قال: عبد الملك. علمنا أنه من أولياء الله. قلنا له: كيف حالك؟ قال: كيف حال مَنْ يقول: غدًا يفتح لي، بعد غد يفتح لي، فلا ولاية ولا فلاح. يا نفس لا تعبدين الله إلا الله. قال: فتفطّنا من أين دخل علينا، فتنّبنا واستغفرنا، ففتح لنا.

رأى أبو الحسن الشاذلي كأنه في المحل الأعلى. قال: إلهي، أي الأحوال أحب إليك؟ وأي الأقوال أصدق لديك؟ وأي الأعمال أدل على محبتي؟ وفّقني واهدني.  
قيل لأبي الحسن: أحب الأحوال إلى الله تعالى، الرضا بالمشاهدة، وأصدق الأقوال لديّ قول لا إله إلا الله على النظافة، وأول الأعمال على محبتي بغض الدنيا، واليأس من أهلها مع الموافقة.

قال أبو الحسن الشاذلي: إن للقطب خمس عشرة علامة: أن يُمدَّ بمدد العصمة، والرحمة، والخلافة، والنيابة، ومدد حملة الوشي العظيم، ويكشف له حقيقة الذات، وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة اللحم، والفصل بين الموجودين، وانفصال الأول عن الأول، وما انفصل عنه إلى منتهاه، وما يثبت فيه، وحكم ما قبل وما بعد، وحكم مَنْ لا قبل له ولا بعد، وعلم الإحاطة بكل علم ومعلوم، ما بدا من السر الأول إلى منتهاه، ثم يعود إليه.

قال الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد: ما رأيت أعرف بالله من أبي الحسن الشاذلي.

همس أبو الحسن الشاذلي — يومًا — بالسؤال: يا رب، لماذا سمّيتني الشاذلي ولستُ من شاذلة؟

تناهى صوتُ علوي، غاب مصدره، وإن أدركه الشاذلي: يا علي، ما سميتُك بالشاذلي. إنما أنت الشاذلي — بتشديد الذال المعجمة — أي المفرد لخدمتي ومحبتني.

يصف أبو العباس الطريقة الشاذلية، بأنها المداومة على ذكر الله، وترك الغيبة، وترك سوء الظن بعباد الله؛ فَمَنْ وَاظَبَ عَلَى ذَلِكَ، رَزَقَهُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. لم يُعَنَّ أَبُو الْحَسَنِ بِالْتَأْلِيفِ، وَلَا أَلَّفَ كُتُبًا. كان يقول: كُتِبِي أَصْحَابِي. وكان يقول: أَخَذْتُ مِيرَاثِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَكَّنْتُ مِنْ خَزَائِنِ الْأَسْمَاءِ؛ فَلَوْ أَنَّ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ يَكْتَبُونَ عَنِّي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَكُلُّوا وَمَلُّوا.

اقترب من الإمام الغزالي في الأخذ والتعبد بالكتاب والسنة في كل أحواله وأموره. وكان أصحابه كثيرين، حافظوا على تعاليمه ونصائحه، وحفظوا الأحزاب المنسوبة إليه: حزب البر، حزب البحر، حزب النصر.

فَسَّرَ أَقْرَبُ مَرِيدِهِ ارْتِدَاءَهُ لِلصَّوْفِ الرَّقِيقِ، بِأَنَّهُ وَصَلَ إِلَى مَقَامِ اللطَافَةِ. كان يلبس أغلى الثياب، ويحسن لباسه ومظهره، ويحب العطر الفواح، ويأكل الأطعمة الفاخرة في أواني الصيني، ولا ينتقل إلا راكبًا، ويأخذ زينته عند كل مسجد. لا يرى في اليقين الديني باعًا لإهمال الهندام والمظهر. يكره الثياب التي تشي بسر صاحبها: اعرف الله، وكن كيف شئت!

رَأَى فِي النُّوْمِ صَائِحًا يَهْتَفُ مِنْ جِو السَّمَاءِ: وَإِنَّمَا تُسَاقُ لِرِزْقِكَ، أَوْ لِأَجْلِكَ، أَوْ لِمَا يَقْضِي اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ، أَوْ بِكَ، أَوْ لَكَ، وَهِيَ خَمْسٌ لَا سَادِسَ لَهَا. فاتق الله أينما كنت، ولا تعدل بالتقوى شيئًا؛ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، فَالْحَقُّ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. أعوذ بالله من سوء القضاء، ومن جزع النفس عند ورود البلاء، ومن الفرح والحزن والهم والغم في الشدة والرخاء.

قال الشاذلي: كنت مريضًا بالقيروان، فرأيت النبي ﷺ. فقال لي: طهر ثيابك من الدنس تحفظ بمدد الله في كل نفس. قلت: وما ثيابي يا رسول الله؟ قال: إن الله كساك حلة المعرفة، ثم حلة المحبة، ثم حلة الإيمان، ثم حلة التوحيد، ثم حلة الإسلام؛ فمن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن أحب الله هان عليه كل شيء، ومن وحد الله لم يشرك به شيئًا، ومن آمن بالله أمن من كل شيء، ومن أسلم لله قل ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه قبل عذره. قال أبو الحسن: ففهمتُ من ذلك معنى قوله: ﴿وَتِيَابِكَ فَطَهَّرْ﴾. وقال الشاذلي: خرجت إلى البستان مع أصحاب لي بمدينة تونس. ثم عدت إلى المدينة، وكنا ركبانًا على

الحمير. لما وصلنا قريباً من المدينة — وكان طيناً — قالوا: يا سيدي، انزل هنا. قلت: ولم؟ قالوا: هذه هي المدينة، ونستحي أن ندخلها على الحمير. قال أبو الحسن: فثنيت رجلي، وأردت موافقتهم، فإذا النداء عليّ: إن الله لا يعذب على راحة أصحابها التواضع، ولكن يعذب على راحة أصحابها الكبر.

كان يتحدث في الزهو، وعليه أثواب جميلة، وبردة يمانية. الرفاهية والنعيم والعز حقوق المؤمنين، المتعبدين، المخلصين في التوجه إلى الله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

لماذا يحرم المرء نفسه من النعم التي أنعم بها الله عليه؟

محبة الله لا تمنع المرء من أن يأخذ حظّه من الدنيا، مثلما يأخذ حظه منها إلى الآخرة. لم يأخذ الرسول نفسه بقسوة لا مبرر لها. صلّى، وصام، وقام، ونام، وتزوج النساء، وجلس إلى الأصدقاء والجماعة، ونزل الأسواق.

تساءل فقير في المجلس — بينه وبين نفسه: كيف تكلم الشيخ في الزهد وعليه هذه الكسوة؟ أنا الزاهد في الدنيا.

اتجه إليه الشاذلي بنظرة فاهمة: يا هذا ... ثيابك هذه ثياب الرغبة في الدنيا، لأنها تنادي بلسان السعة والفقير، وثيابنا تنادي بلسان الغنى والتعفف. قام الفقير من مجلسه. قال: أنا والله المتكلم بهذا في سري يا سيدي، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه.

قال الشاذلي: فاحرص على أن تكتسي كسوة طيبة.

يقين أقطاب الصوفية — بقراءات واجتهادات وصدق إدراك — أن أبا الحسن الشاذلي مختار من اللوح المحفوظ. سَبَحَ في بحر الصفات الإلهية. غاص في الأعماق، حيث ما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. أُعْطِيَ سجلاً من الحضرة العلية، فيه — إلى مد البصر — أصحابه وأصحاب أصحابه، حتى يوم القيامة، عتقاً لهم من النار.

قال الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد: ما رأيت أعرف بالله من أبي الحسن الشاذلي.

بعد أن عرّف أبو العباس الشاذلي، كتب لأصحابه في تونس يقول: «فإني صحبتُ رأساً من رءوس الصديقين، وأخذتُ منه سرّاً لا يكون إلا لواحد بعد واحد، والشرح يطول، وبه أفتخر، وإليه أنسب رضي الله عنه، وهو أبو الحسن الشاذلي. وكان لا يصحبه أحد إلا فُتِحَ

له في يومين أو ثلاثة، فإن لم يجد شيئاً بعد ثلاثة أيام فهو كذاب، أو يكون صادقاً، لكنه أخطأ الطريق. دليhle من كتاب الله عز وجل ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾.

جلس — في داخل خيمة بالمنصورة — سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام. من حوله الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، والشيخ مجد الدين علي بن وهب، والشيخ مجد الدين الإخميمي، والشيخ أبو الحسن الشاذلي. كانت رسالة القشيري تُقرأ على الحضور. وكانوا يعلقون عليها بعبارات إعجاب وملاحظات، بينما ظل الشاذلي صامتاً.

قال الشيوخ لأبي الحسن: يا سيدنا ... نريد أن نسمع منك شيئاً.

قال الشاذلي: أنتم سادات الوقت وكبرائه، وقد تكلمتم.

قال المشايخ: لا بد أن نسمع منك شيئاً.

تكلم الشاذلي بالأسرار العجيبة والعلوم الغريبة.

قام الشيخ عز الدين عبد السلام. فارق موضعه إلى خارج الخيمة، وهو يقول: اسمعوا هذا الكلام القريب إلى الله تعالى.

صلى أبو العباس الصباح — ذات يوم — وراء الشاذلي. تلا أبو الحسن من آيات القرآن ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاتًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ \* أَوْ يَزُوجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاتًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾.

قال أبو العباس: وقع في نفسي شيء من ذلك المعنى. فلما سلّم الشيخ من الصلاة، التفت إليّ، وقال: يا أبا العباس، يهب لمن يشاء إناًة العبادات والمعاملات، ويهب لمن يشاء الذكور الأحوال وال مقامات، أو يزوجهم ذكراً وإناًة، يجمع ذلك فيمن يشاء من عباده، ويجعل من يشاء عقيماً بلا علم ولا عمل.

تعجبت من ذلك، فقال الشيخ: والله ما وقع في خاطر أحد شيء إلا وأطلعني الله عليه في تلك الصلاة أو غيرها.

قال أبو الحسن لبعض الأولياء: إنه لينزل عليّ المدد، فأرى سريانه في الحوت في الماء، والطير في الهواء.

قال الولي: أنت القطب إذن؟

قال الشاذلي: أنا عبد الله ... أنا عبد الله.

وقال أبو الحسن: لولا لجام الشريعة على لساني، لأخبرتكم بما يكون في غد، وبعد غد، إلى يوم القيامة.

قال الشيخ أبو الحسن الجزيري — من أصحاب الشاذلي: كنت — ليلة — عند الشيخ أبي الحسن، وكان يقرأ على كتاب «ختم الأولياء» للترمذي الحكيم، فرأيت رجلاً جالساً لم يكن بصحبتنا، ولم يكن مع الشيخ عند دخوله، فسألت أحد أصحابي عن هذا الرجل، فقال: ما نرى غير من دخلت معهم.

فسكت. وعلمت أنه لم يره. فلما انصرف الجمع، قلت للشيخ أبي الحسن: رأيت رجلاً لم يكن معنا، ولم يكن عند دخولنا.

قال: ذاك أبو العباس المرسي، يحضر كل ليلة من خط المقسم بالقاهرة، ليسمع الدرس عندنا بالإسكندرية، ثم يعود في ليلته إلى مكانه.

دخل أبو الحسن الشاذلي على ولي من أولياء الله بالقناطر، اسمه خليل. توضع عنده، ثم أخذ قوساً، فجرّها ثلاثاً.

قال الولي: يا سيدي، من هو الخليفة من بعدك؟

قال الشاذلي: من يأتيك إلى هنا، ويتوضأ نحو وضوئي هذا، ويجر هذا القوس ثلاثاً، فهو الخليفة بعدي.

وانصرف الشاذلي. وجاء من بعده أصحاب الشيخ خليل، فلم يفعلوا ما تحدّث عنه الشاذلي. ثم دخل أبو العباس، وتوضأ مثل وضوء الشاذلي. فلما أبصر القوس معلّقاً، قال للشيخ: ناولني هذا القوس.

وتناولها، وجرّها ثلاث مرات، ثم قال: يا خليل، جاءك وعدّ الشيخ!

قال أبو العباس: لما نزلت بتونس — وكنت أتيت من مرسية — وأنا إذ ذاك شاب، سمعت بذكر الشيخ أبي الحسن الشاذلي. فقال لي رجل: تمضي بنا إليه.

قلت: حتى أستخير الله!.



نمت تلك الليلة، فرأيت كأنني أصعد إلى رأس جبل. فلما علوت فوقه، رأيت هناك رجلاً، عليه بُرنس أخضر، وهو جالس، وعن يمينه رجل، وعن يساره رجل، فنظرت إليه، فقال: عثرت على خليفة الزمان!.  
فانتبهت.

فلما كان بعد صلاة الصبح، أتاني الرجل الذي دعاني إلى زيارة الشيخ، فسرت معه. فلما دخلنا عليه، رأيته بالصفة التي رأيته بها فوق الجبل. دهشت، فقال لي: عثرت على خليفة الزمان ... ما اسمك؟  
ذكرت له اسمي ونسبي، فقال لي: رفعت لي منذ عشر سنين!

فقد أبو الحسن بصره بعد أربع سنوات من وصوله مصر. رُوي أنه لقيَ بعض الأولياء في ساحة، فعرض عليه كلاماً في التوحيد. صاح الرجل لما قاله الشاذلي، وشهق شهقة الموت. تناهى إلى أبي الحسن صوتُ سماوي: يا علي ... لم فعلت؟ ... لتعاقبنَّ بذهاب بصرك!

ظل الشاذلي على يقينه الديني، وإخلاصه، وتبصير الناس بأمور دينهم.  
قال لتلميذه أبي العباس: يا أبا العباس، انعكس بصري على بصيرتي، فصرتُ كلي مبصراً، بالله الذي لا إله إلا هو، ما أترك في زماني أفضل من أصحابي، وأنت والله أفضلهم.  
واتجه إليه بالسؤال: ما عمرك يا أبا العباس؟  
قال أبو العباس: ثلاثون سنة.  
قال الشاذلي: بقيت عليك عشرة أعوام، وتَرث الصديقية من بعدي.

قال أبو الحسن: رأس النفس إرادتها، ويدها عملها، وعقلها ورجلها تدبيرها واختيارها. وقال الشاذلي: خمس من لم يكن منهن فيه شيء، فلا إيمان له: التسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى أمر الله، والتوكل على الله، والصبر عند الصدمة الأولى. وقال: إن من أعظم القربات عند الله مفارقة النفس بقطع إرادتها، وطلب الخلاص منها بترك ما تهوى لما يرجى من حياتها، وإن من أشقى الناس من يحب أن يعامله الناس بكل ما يريد، وهو لا يجد من نفسه بعض ما يريد، وطالب نفسك بإكرامك لهم، ولا تطالبهم بإكرامهم لك، لا تكلف إلا نفسك. وقال: إن أردت السلامة من الغرور، فأخلص العمل لله بشرط العلم، ولا ترص عن نفسك بشيء. وقال: لا يشم رائحة الولاية من لم يزه في الدنيا

وأهلها. وقال: للصوفي أربع صفات: التخلق بأخلاق الله، وحسن المجاورة لأوامر الله، وترك الانتصار للنفس حياءً من الله، وملازمة البساط بصدق الفناء مع الله. وقال: البصيرة كالبحر، أدنى شيء يقع فيه تعطل النظر، وإن لم ينته الأمر به إلى العمى. وقال: أثبت لي ما هو حق لي، أثبت لك ما هو حق لك، ثم آخذك عما هو حق لك، وأبقيك عما هو حق لي. وقال: المحبة سرٌّ في القلب من المحبوب، إذا ثبت قطعك عن كل مصحوب. وقال: أبواب الحق أربعة: التوحيد والمحبة والإيمان والرضا. وقال: بسط الكرامة أربعة: حبُّ يشغلك عن حبِّ غيره، ورضاً تصل به حبك بحبه، وزهد يُحققك بزهد رسوله، وتوكل يكشف لك عن حقيقة قدرته. وقال: كان لي صاحب، وكان كثيراً ما يأتيني بالتوحيد، فرأيتني في النوم أقول له: يا أبا عبد الله، إن أردت التي لا لوم فيها، فليكن الفرق في لسانك موجوداً، والجمع في سرِّك مشهوداً. وقال: حرام عليك أن تتصل بالمحبوب، ويبقى لك في العالمين مصحوب. وقال: أرحم الناس بالناس عبدٌ يرحم من لا يرحم نفسه. وقال: أحسن الناس منزلة، من بخل بالدينا على من لا يستحقها، فكيف بمن بخل بها على مستحقها؟ وقال: قد أيسرُ منفعة نفسي لنفسي، فكيف لا أياس من منفعة غيري لنفسي؟ ورجوت الله لغيري، فكيف لا أرجوه لنفسي؟ وقال: من انقطع عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن اختياره إلى اختيار الله، وعن نظره إلى نظر الله، وعن مصالحه إلى علم الله، للملازمة التسليم والرضا، والتفويض والتوكل على الله، فقد آتاه الله حسن الطلب، وعليه يترتب الذكر والفكر، وما وراء ذلك من الخصائص. وقال: إذا منعك مما تحب، وردك إلى ما يجب، فهي علامةٌ صحبته لك. وقال: العبودية هي امتثال الأمر، واجتناب النهي، ورفض الشهوات والمشينات على الشهود والعيان. وقال: كرامة الله في الرضا تلهيك عن المصائب إلى يوم اللقا. وقال: نمتُ ليلاً في سياحتي، فطافت السباع من حولي. سمعتُ لها طنيناً ومناجاةً ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. وقال: اجعل زادك التقوى في الدنيا. وقال: اتخذ التقوى وطناً، ولا يضرك مدحُ النفس ما لم تُصرَّ على الذنب، أو ترضَ بالعيب، وتسقط عنك الخشية. وقال: لا تُسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها، وتنحل أعضاءك لها، فترجع لمعانقتك لها بالهمة، وبالإرادة، والحركة. وقال: إن أردت ألا يصدأ لك قلب، ولا يلحقك همٌّ ولا كرب، ولا يبقى عليك ذنب، فأكثر من الباقيات الصالحات. وقال: من أحبَّ ألا يعصى الله تعالى في مملكته، فلا أحبَّ ألا تظهر مغفرته ورحمته. وقال: أكرم المؤمنين، وإن كانوا عصاةً فاسقين، وأقم عليهم الحدود، واهجرهم رحمةً بهم. لا تفرز عليهم، ولا تقنِّد بمن يتورع بما تناولته أيدي المؤمنين، ولا نتورع مما مسته أيدي الكافرين، وقد علم ما نال الحجر من مس أيدي المشركين، فاسودَّ لذلك.

جمع أبو الحسن أصحابه ليلة الرحيل. أوصاهم بحزب البحر. قال لهم: حَفِّظُوهُ أَبْنَاءَكُمْ فَإِنَّ فِيهِ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمِ.

ثم خلا بالمرسي أبي العباس، وأوصاه، واختصه بما خصه الله — سبحانه — به من البركات. وقال لأصحابه: إذا أنا متُّ فعليكم بأبي العباس المرسي، فإنه الخليفة من بعدي، وسيكون له مقام عظيم بينكم، وهو باب من أبواب الله تعالى.

قال أبو العباس: بات سيدي أبو الحسن، متوجّهاً إلى الله تعالى تلك الليلة، ذاكراً، متضرّعاً. وكان يردد: إلهي ... إلهي.

لما جاء وقت السحر، صمت. ظننا أنه نام. كلمناه فلم يتكلم، حركناه فلم يتحرك. عرفنا أنه مات. غسَلْتُهُ بنفسي، وصليت عليه مع تلاميذه، ودَفَّنَاهُ بحميثة.

قال ابن عطاء الله السكندري: «أخبرني بعض أصحابنا، قال: رأى إنسان من أهل العلم والخير، كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن ينزل من السماء، والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله، متأهب له. فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء، وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس، ثبت رجله في الأرض، وتهياً لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه، ودخل من رأسه حتى غاب فيه، واستيقظت.»

رُوي أن أبا الحسن، حين مات، إنما غاب في أبي العباس، تواصل فيه، تحقق له الامتداد.

قال أبو العباس: إن الله تعالى قد أعطاني لسان شيخ أبي الحسن الشاذلي. صار أبو العباس هو لسان الشيخ، وصار هو هو. وقال أولياء العصر: فني أبو العباس في أبي الحسن، ثم فني في الدعوة إلى الله بعد أبي الحسن، فلم يكن عنده فراغ للحديث عن نفسه.

لم يولد أبو الحسن الشاذلي في الإسكندرية، ولم يدفن فيها، لكنه أحب المدينة، فهو يحرص — بكرامات لا أفاق لها — على أن يزورها في أوقات متقاربة. يسير في الشوارع والأسواق، يقف على شاطئ البحر، يزور المقامات والأضرحة، يطمئن على أحوال مرديه وأتباع طريقته. يستطيب الجلوس إلى تلاميذه في الساحة الترابية الخالية أمام ضريح سيدي الأنفوشي، بساطهم الزهد، والعبادة، وحب الله، وحب عباده. يتساءلون الوقائع، يناقشون الإلهيات، وخلق العالم، وأمور الغيب، وحقيقة الوحي، وعصمة الأنبياء، وفرق المكانة

## أهل البحر

بينهم وبين الأولياء، وأحوال الدين والدنيا، وغياب مصالح الناس. يتأملون ما تنطوي عليه الحياة من عِبَر. يستعيدون سير الأنبياء والرسل والأولياء والصحابة والتابعين، وما كان عليه الزمان في بحري، وما أصبح عليه. ربما استضاف المجلس أقطابًا من مواضع خارج بحري، وخارج البلاد كلها: أحمد البدوي، إبراهيم الدسوقي، أحمد الرفاعي، محمد الشافعي، ذا النون المصري، علي الخواص، محمد المنير، أبا اليزيد البسطامي، إبراهيم بن أدهم، وغيرهم.

يترامى — من وراء قلعة قايتباي — هديرُ الأمواج، وتُحلق الطيور، وصافرات البواخر في الميناء الغربية، وما يشبه الموسيقى الهادئة، الغائبة المصدر.

**انظر: أبو العباس، الخضر.**

## أبو حلاوة<sup>١</sup>

فرد أبو حلاوة أمام ناظر الوقف عبد الرحيم الشطبي رسمًا، عليه أختام وملاحظات وتأشيرات وخطوط أفقية ورأسية. مسجد تربية في شارع فرنسا، بالقرب من شارع الميدان، معلق. الصلوات تقام بالدور العلوي. السقف محمول على أربعة صفوف من العقود، على ثمانية أعمدة رخامية، تنتسب إلى عصور قديمة، يونانية ورومانية. تحوّلت الشرفة الداخلية إلى مصلى للسيدات. الدور الأرضي به دكاكين تُستغل إيجاراتها في الإنفاق عليه. سُيدت الجوامع القريبة منه على نسقه. الجامع الوحيد الذي أنشئ في الطابق الأول سُمي «الجامع الأرضي».

رسم الشطبي الدهشة على ملامحه: هذا مسجد حكومي لا صلة للأوقاف الأهلية به. قال أبو حلاوة: لماذا إذن تُصر على أن إيرادات جامع الشوربجي لصالح وقف جوربجي الأهلي؟

ورماه بنظرة غاضبة: لماذا تستولي على إيرادات ملاحق الجامع؟

– لم أستول عليها. أدير الجامع لوجه الله!

– وبقية التركة؟

– أنا ناظر لوقف عبد الباقي جوربجي ... أديره لصالح الورثة.

– ضمنت إلى التركة ما هو حق لفرع واحد من عائلة جوربجي.

---

<sup>١</sup> اعتمدتُ في هذا الفصل على الجهد التوثيقي المهم الذي أوردهته د. آمال أحمد العمري في كتابها «مسجد عبد الباقي جوربجي بالإسكندرية».

قال عبد الرحيم الشطبي في لهجة مبطنة بالتهديد: لا أتخذ قرارًا بدون موافقة جلالة الملك.

أخلى أبو حلاوة وجهه للدهشة: ما دخل الملك في قضية وقف؟!  
رُوي أنه هجر تجارته في الخضر والفاكهة، وتفرَّغ لإدارة الوقف. ظل يعتز بالصفة التي اكتسبها من التعامل مع قصرِي المنتزه ورأس التين: متعهد القصور الملكية. يكتب الصفة على واجهة دكانه في شارع الميدان. لا يتقاضى — في المقابل — ثمنًا لما يُرسله إلى مطابخ الملك.

قال الرجل في لهجته المهذبة: جلالة الملك يقاسمني تجارتي ... ويقاسمني كل شيء!

الوقف نوعان: خيرى وأهلي، الخيري أوقف نفعه لعمل الخير، والأهلي خُصص — فيما يُشبهه الوصية — لشجرة العائلة التي يُعد الوقف جذرها.

الشوربجي هو الاسم الحالي للجامع المطل على شارع الميدان. اختاره الناس بدلًا من اسم عبد الباقي جوربجي، مُنشئه في العصر العثماني. جوربجي اسم وظيفة تركي ذي أصل فارسي، يطلق على الضابط الانكشاري الذي يُشرف على مرجل المرق (الشوربة) في المعسكر، رُتبته تعادل اليوزباشي، النقيب الآن.

الجامع ضمن عقارات وممتلكات بالإسكندرية، أوقفها الحاج عبد الباقي جوربجي على نسله. خص بميراثه الذكور دون الإناث، كما فعل قاضي البهار وغيره من المورثين. تولى عبد الرحيم الشطبي نظارة الوقف بتوكيل من الورثة. أحفاد الحاج جوربجي، من تضمُّهم شجرة العائلة في تفرُّع أوراقها.

ما دفع أبا حلاوة إلى التحرك، أن تشعُّب فروع الوقف وأوراقه فرض الغربة على المستحقين. لا يعرف أحدهم الآخرين، ولا يعرفون طبيعة الوقف الذي يُديره الناظر، ولا قيمته المادية، وما إذا كان يُحقق عائدًا كبيرًا، أم أن الأمر لا يستحق سؤال التقصِّي؟

أمسك الشطبي بكل الخيوط، فغابت المحاسبة. تغيَّرت صورة الوقف عن الحجة الأصلية المودعة في وكالة الأوقاف. جعل لنفسه ربع العائد من التركة. هذا ما تُبيحه له المعاناة في تحصيل العائد. هو يُنفق على محامين وموظفين واستخراج وثائق وتصاريح. اختلطت صورة الميراث في ذهنه. تصوّر أن ما ينبغي أن يرثه الناس حقُّه الشخصي. هو ناظر الوقف، وهو الذي يجني ثماره.

كانت حياة الحاج عبد الباقي جوربجي في بناء العقارات، وامتلاكها. يذكرها في وصيته (كان يغيّرُها بين فترة قصيرة وأخرى). من بين البنايات السكنية التي خلّفها — كما تقول الوثيقة رقم ٢٣٨٤ أوقاف الإسكندرية: دار سكن الوقف، جميع الدور الصغرى التي تعلقو الحاصل المعد لخزن التبن بالزريبة، جميع الدور الصغرى المجاورة لمكان سكن الوقف، جميع الدور المركبة على صهريج السبيل، جميع الدور الملاصقة للدار من الجهة الغربية، جميع بناء الغرفة الكائنة بوسط وكالة المرحوم مصطفى باشا الغزي، جميع الدار الكائنة داخل قلعة الركن، جميع الدار العلوية المعروفة بأولاد مطاوع، جميع الدار المعروفة — قديماً — بالحاج سليمان.

أما المنشآت التجارية فهي — كما تذكر الوثيقة — جميع الحاصل الملاصق للدار الملاصقة لصهريج السبيل من الجهة القبليّة، جميع بناء الحواصل الثلاثة الكبيرة القائم بناؤها على الأرض المحتكرة من وقف المرحوم مولانا الوزير سنان باشا، جميع الحوانيت الأربعة الملاصقة للحواصل المذكورة من قلبها، جميع الحوانيت التسعة، جميع الحاصلين الكائنين في وسط الحوانيت المذكورة الملاصقين للوكالة من غربيها، جميع بيت القهوة الملاصقة لمطهرة الجامع من بحريها، جميع الوكالة الكبرى بالنجع القبلي، بخط المنشية بالميناء الشرقيّة، جميع الوكالة الصغرى الملاصقة للوكالة الكبرى، جميع الحاصل الذي كان في الأصل حاصلين، ثم أصبح حاصلًا واحدًا، الحاصل المعد لخزن الجلود بالقرب من سوق أبي زيان، الحاصل المعروف بالحاصل البحري. أما البنايات التي وهبت للمنفعة العامة فهي: جميع الصهريج بالقرب من دار سكن الواقف من الجهة البحرية، لخزن الماء العذب المسبل على ارتفاع عامة المسلمين، جميع صهريج السبيل تحت تخوم الأرض، جميع الصهريج الملاصق للصهريج المذكور.

أما البنايات الصناعية فهي: جميع الطاحون الجوز الفارسي الملاصق لمكان سكن الواقف، الطاحون الفرد الفارسي ذات الدار الواحد، الحانوتان المعدّان لعمل الحياكة، المدايق الأربعة المعدّة لدبغ الجلود. وثمة قطعة أرض براح خالية من البناء.

لم يكن الجامع المطل على شارع الميدان، والملاحق التي تتصل به، ضمن الأوقاف التي ذكرها الحاج جوربجي في وصيته، خص بها فرعًا وحيدًا، ينتسب إلى سيدة اقترن بها في أخريات أيامه. قلة النسل في الفرع أدّت إلى قلة الورثة. من عقارات الوقفية جامع الشوربجي (ألت ملكيته إلى وزارة الأوقاف) ووكالة في شارع فرنسا، وإسطنبول في شارع السيلية، وبنية من ثلاثة طوابق بميدان أبي العباس.

الجامع — كما تقول وثيقة الحاج عبد الباقي جوربجي — يقع في الحي التركي، وهو ما سُمي — فيما بعد — بحي الجمرك. منطقة عمّرت بعد الفتح العثماني، بها بعض آثار العثمانيين، مثل سوق ووكالة جوربجي، ومسجد الحاج إبراهيم تربانة. شيد الجامع بالنجع القبلي الأوسط بخط الميدان، وأماكن شنوان، بالقرب من أماكن الخواجة تربانة، ووكالة الشيخ حمزة. الجامع معلق، ركبت أرضه على بعض حواصل الوكالة التي أنشأها باني الجامع. تشغل الحواصل الآن عدة دكاكين، تحتل القسم الأسفل لواجهتي الجامع الشرقية والجنوبية، حيث شارعاً الميدان والشوربجي.

للواجهتين مدخلان، أولهما في النهاية الشمالية للواجهة الشرقية، من ناحية شارع الميدان، وثانيهما في النهاية الغربية للواجهة الجنوبية من ناحية شارع الشوربجي.

يحيط بالجامع من جهاته الشمالية والشرقية والغربية ثلاثة أروقة، سُميت في الوثيقة «خرجات». بسقف كل رواق منها سقف خشبي، ويطل الرواق الشرقي على شارع الميدان ببائكة، ويطل الرواق الغربي — في جزئه الأوسط — على وكالة عبد الباقي جوربجي ببائكة أيضاً، تتألف من أربعة عقود، ترتكز على ثلاثة أعمدة، يصل ما بينها أحجية خشبية.

بالإضافة إلى ذلك، ثمة المنارة التي تهدمت فلم يبقَ منها سوى معلومات تناوَلتها الوثيقة، وحدود الجامع الأربعة، والمطهرة المشيدة من الرخام الأبيض والأحمر، والحجر المصري، والأسقف الخشبية، والساقية — التي كانت — المعدة لنقل ماء المطهرة إلى فسقية بجوارها تخرن الماء، والمراوح السبعة يتوضأ فيها المصلون. وثمة المحراب، والمنبر، والدكة، والسبيل، والكتّاب.

رتب له الفرش النفيسة وقناديل البلور والشموع والزيوت الطيبة، وما يزيد عن حاجته من الأئمة والقراء والمؤذنين والمبْلُغين والبوابين والفرّاشين والسقايين والخدم وغيرهم. خصص من إيرادات الوقف الثابتة رواتب لإمام الجامع، يؤم المصلين في الصلوات الخمس، ويكون قارئاً عالمًا بما تصح به الصلاة، وحسن الصوت والهيئة. ومؤذن ملازم للصلوات الخمس، عالمًا بصحة الأذان وأركانه، حسن الصوت والهيئة كذلك، وخطيب للجمعة والعيدين، قارئاً عالمًا بما تصحُّ به الخطبة والصلاة، حسن الصوت والهيئة كذلك، وميقاتي لأوقات الأذان الخمس وتوابعها، عالمًا بالنجوم والكواكب وما به في دخول الأوقات، وثلاثة أشخاص لأذان الجمعة وإقامتها، وللعيدين، وحافظ للقرآن لقراءة عشر منه قبل صلاة العصر في كل يوم من أيام الأسبوع، على كرسي من الخشب، أمام المحراب، أربعة



أشخاص من أهل القرآن لقراءة سبع منه من السحر إلى طلوع الفجر، كل ليلة من ليالي الأسبوع. بواب لفتح الأبواب وإغلاقها في كل الأوقات، وفراش ووقاد للسراج وللفرش، وخادم للسبيل ومالئ للقلل، ومزمل، وتخزين الماء في السبيل، وخادم للمطهرة، وكاتب يُقيد المصاريف والإيرادات.

يرأس هؤلاء، ويُشرف على أعمالهم، ويعطيهم أجورهم، ناظر للوقف يتقيد بمصالحه، ومصالح الأماكن الملحقة به، وينظر في ذلك — بنور الله تعالى — من بعد وفاته.

ألت حلقات سلسلة نظارة الوقف إلى من أحسن تدبيرها، وإدارتها.

لمَّا تولَّى عبد الرحيم الشطبي إدارته، عاب عليه الورثة — بينهم وبين أنفسهم، وفي الهمسات التي تبادلوها — أنه جعله لحسابه، يتصرف فيه كما لو أنه ملكه الشخصي. أبو حلاوة هو الذي دفعته الجرأة لكي يواجه الشطبي برأيه.

شرط الواقف — في الوثيقة — أنه أوقف جميع أملاكه من الأماكن والعقارات على نفسه مدة حياته، ثم — من بعده — أبنائه، وأحفاده من الظهور دون البطون. فإذا انقرضت أولاد الظهور بأسرهم، يقتصر الوقف على أولاد البطون وذريتهم، وأحفادهم. فإذا انقرضت أولاد البطون، ولم يبقَ منهم أحد، يقتصر الوقف على الجامع.

قاوم محمد أبو حلاوة إصرار ناظر الوقف لكي يُدخل ميراث فرعه ضمن وقف الحاج جوربجي. يُديره، ويحصل على عائداته، يبيع مفردات الوقف ويشترئها، يوزع الأنصبه بتكاثر فروع شجرة عائلة جوربجي منذ بداياتها. مصلحة فرع أبي حلاوة أن تقتصر العقارات التي ورثها على الأوراق التي يضمها. جعل محمد أبو حلاوة عنايته إثبات نسب فرع عائلته على وثائق مكتوبة، وأخبار الأعيان والآحاد.

جلس إلى مؤرخين وعلماء اجتماع ومحامين ونُظَّار وقف وموظفين مهمين، سابقين، في وزارة الأوقاف. سأل، وأجابوا عن أسئلته، أفاضوا في شرح ما يجب فهمه، دلوه على ما قد يكون مخفياً من ظروف الوقف، وأحقية الورثة. أفاد مما كتبه خليل الفحام في تسجيله لعائلات بحري، وما يضمُّه الحي من بنايات وجوامع وميادين وشوارع وأزقة. رجع إلى وثائق الأوقاف والمحكمة الشرعية، على ناصيتي شارع فرنسا وشارع سوق السمك القديم، آلاف الوثائق الخاصة بالمواريث، والقوانين، والأحكام، والإجراءات القضائية.

طال الأخذ والرد.

أثرت القضايا، وارتفعت الدوسيهات والوثائق والمستندات والمذكرات والطعون ومحاضر الشرطة والشروح والملاحق والتفسيرات والالتماسات والسوابق القانونية والأحكام التي يُعتد بها. بدت تلاماً صغيرة.

عاود زيارة الشطبي، يتقافز في ذهنه قول قنبر عبد الودود: أنت لن تحصل على حقد من شخص تكتفي بإشاحة وجهك عنه.

قال: بماذا تنصحني؟

– دافع عمًا ترى أنه حق لك.

يعرف أنه يستظل بشجرة هائلة الفروع والأوراق، وأن جذورها تمتد في باطن الأرض. الشاطبي بلا نسب مؤكد يتصل به. ما سجله في الأوراق لم يراجع فيه أحد، ولا اطمأنت التوقيعات الممهورة عليه إن كان حقيقة، أم أنه من اختراع الشاطبي.

شرح الأمر من بداياته.

قال الشطبي وهو يبطن صوته بالود: اترك الأمر لي.

ولانت ملامح وجهه: سأحاول بيع الوقف وتوزيع الأنصبة العادلة على الورثة.

علا صوتُه بالانفعال: ما صلة الجامع بذلك؟

– اسمه باسم صاحب الوقف كله.

– لكنه قصرَ عائدَ وقفٍ ملاحق الجامع على فرع واحد من العائلة.

أعاد الشطبي قوله، ربما ليُنهي المناقشة: اترك الأمر لي.

اسمه محمد إبراهيم أبو حلاوة.

أجمعت الروايات على أن والده كان يشغل وظيفةً في ديوان محافظة الإسكندرية، وإن لم تتفق هذه الروايات حول طبيعة تلك الوظيفة، وما إذا كانت مهمة، أم أنها وظيفة دنيا. أما أمه فقد أنجبت – في سني زواجها – ثمانية أبناء؛ ثلاثة أولاد، وخمس بنات، وانشغلت برعايتهم.

عمل محمد أبو حلاوة موظفًا بشركة أقطان كفر الزيات. تنقل بين الدائرة الجمركية، والمخازن وعمليات كبس القطن في القباري، والمحالج في كفر الزيات. ثم استقر موظفًا بأرشييف محافظة الإسكندرية.

قالت الأم: هذا الوقف وهم. سمعت عنه من قبل أن تولد.

– تعرفين أنه حقيقي.

– عرفت لما استولى الرجل عليه.

– ما فائدة المحاكم؟!

ثم وهو ينظر إلى نقطة غير مرئية: إنه مخرجي الوحيد.

الدوامة القاسية، العنيفة، فاجأته، دارت به فلم يدر كيف يتصرف: دعاوى التبديد، والاختلاس، والابتزاز، والاعتداء بالضرب، والبلاغات الكاذبة، والتهديد بالقتل، وبيع المخدرات ... ما شغله حتى عن أمور حياته اليومية.

اعتاد التردد على أقسام الشرطة، والمحكمة الشرعية، والمحكمة الوطنية بالقرب من ميدان المنشية، ومبنى حي الجمرك، والشهر العقاري، ووكالة الأوقاف بشارع فرنسا. يتأمل — بلا مبالاة — الفسقية الساكنة وسط الفناء المربع، من حولها دكاكين أقمشة وذهب وساعات وحلوى.

يدخل من الباب الخشبي الضخم. يصعد الدرج الرخامي إلى الطابق الثالث. يمضي — في هيئة من ألف المكان — إلى الحجرة الثانية، على يمين المدخل.

بعث ناظر الوقف شيخ الحارة شوقي أبو سليمان إلى أبي حلاوة. اشترط أن يسبق حصوله على حقه في الوقف، تنازله عن القضايا التي رفعها.

أوماً ناظر الوقف بتهديد مبطن، لكنّ أبا حلاوة اشترط الحصول على حق فرع عائلته أولاً: لا أقدر على مناقشة الناظر وهو يضع سكيناً على الطاولة. وفي لهجة مثقلة بالأسى: أقسى الأشياء أن يُطيعك الناس خوفاً من الأذى، لكنهم لا يحبونك.

أوعز الشطبي لكثيرين، عرفوا منه أمر الوقف. رفع — بدلاً منهم — مصاريف الدعاوى بأحقيتهم في التركة، أرفقها بعرائض ومذكرات والتماسات. تتسع شجرة العائلة، وتكثر أوراقها، وتتشابك، يطعن الورثة الحقيقيون بالتزوير، يتوالى إرجاء النظر في توالي الدعاوى، حتى يملّ أبو حلاوة، أو تبو الدعاوى — أمام القاضي — بلا نهاية.

إذا ظلت القضية في وضع السكون، إذا لم يُبَيَّنَّ فيها، فإن الشطبي يُفيد من الريع، يحصل عليه بمفرده، يؤمى بما جرى لباقي الورثة، يُدركهم اليأس قبل أن يُخامرهم الأمل.

عمل الأجر على حماية عبد الرحيم الشطبي من مؤاخذات الورثة، ومحاسباتهم. ربما تصدّوا له يطالبون بحقوقهم.

لمّا نفّض الأجر يده من الأذى، لجأ الشطبي إلى حميدو شومة، ليدرأ عنه ما يتهدهه من أذى. كان حميدو قد جعل نفسه — بتحريض من الشيخ عبد الستار — في خدمة الغلابة والمنكسرين.

أدرك الناظر ما ينتظره لو أن حميدو فطن إلى حقيقة ما حدث.  
حاول أن يلجأ إلى فتوات الأحياء الأخرى، لكن حميدو شومة تصدّى لهم، وأوضح له  
أن الخطر قد يلحقه!

تردّد الورثة على وكالة الأوقاف. أعادوا تقديم الوثائق والمستندات والعرائض، بما  
يُثبت أحقيتهم في الوقف. سحبوا توكيلاتهم من عبد الرحيم الشطبي، فلا يحصل على ما  
ليس من حقه، لكنه مزّق الأوراق دون أن يطلّع عليها.

لجأ الشطبي إلى المحامي سامي بهاء الدين، في مكتبه المطل على ميدان محطة الرمل.  
طلب بهاء الدين مهلة للاطلاع على الأوراق.

قال للشطبي: حق الرجل واضح.

استطرد لنظرة الاستياء في عيني الشطبي: نستطيع أن ندور حول الموضوع بما

يؤذيه.

أوماً له الشطبي يستحّته على الكلام:

قال بهاء الدين: نلجأ إلى المحكمة الشرعية لتصدر قرارًا بالحجر على أبي حلاوة

للعته.

– هل هو معتوه بالفعل؟

– هذه مجرد حيلة.

وومضت عيناه بمعان تريد أن تُعلن عن وجودها: إذا أثبتنا ذلك – ولدينا الشهود

– فسنحرم أبا حلاوة من أن يتصرف حتى فيما عنده من أموال وعقارات.

وهزّ قبضته: إنها وسيلة مؤكدة النتيجة.

وجرى على المكتب بخطوط ومربعات ومستطيلات ودوائر: بَطء التقاضي هو ما قد

نُعانيه.

ترك الشطبي لشوقي أبي سليمان تدبير الأمر من بداياته. استدعى أبا حلاوة لأمر

طارئ.

ذهب أبو حلاوة إلى دكان أبي سليمان بألفة الدعوة، يسأله عن الموقف التجنيدي

لشبان، أو صيادين يصيدون دون تصاريح، أو راكبي بحر خلفوا المياه الإقليمية وراءهم،

دون أن يحملوا جوازات سفر.

قال شوقي أبو سليمان في نبرة ودّ: أريدك في مشوار مهم.

بدت شوارع السيادة الضيقة هادئة، يعمق وقع أقدامهما من سكونها. طالعهما

البحر من ناحية حلقة السمك. مالاً إلى اليسار في اتجاه الأنفوشي.

اخترقا القزق ببلانساته، وقواربه، والهايكل الخشبية، والمناشير الهائلة، وقطع الأشجار التي لم تُقطع. وعلى رمال الشاطئ تناثرت زجاجات فارغة وأعقاب سجائر وزجاجات كازوزة وعُلب سجائر فارغة وأوراق ممزقة وأشواك سمك وصناديق كرتون وقطع خشبية وبقايا لعب أطفال وعلب صفيح ونفايات وبراز، وثمة كابوريا تجري بسرعة نحو جحرها في أسفل الكورنيش الحجري.

– أنت!

لم يكن ثمة مجالٌ للأخذ والرد. ناظر الوقف من حوله أربعة رجال يرتدون زيَّ الصيادين. لم يعرفهم أبو حلاوة، ولا التقى بهم، أو رآهم، من قبل. قبل أن ينطق بالسؤال والدهشة والخوف، كان الرجال قد دفعوه في القارب الذي توسط البحر واليابسة.

فكُّوا الحبل من الخابور، ومضوا بالقارب في قلب البحر. جرى ما جرى بسرعة لم يتوقعها. تبدَّل الهدوء الذي مشى بخطواته نحو دكان شوقي أبي سليمان، وسار به وراء الرجل في اختراقه شوارع السيادة، وعبر الطريق إلى الكورنيش الحجري، ونزل الشاطئ الرملي نحو ما لا يتبينه.

غمغم بألية: لماذا؟

فاجأته الصفعة، اندفس لها وجهه بين كتفيه. توألى اللطم والركل واللكم والدفع والبصق.

أدرك قسوة ما ينتظره: سأتنازل عن حقي، فلا تؤذني!  
صرخ الشطبي: لماذا يكون لك حق؟ ولماذا تتنازل عنه؟  
وأشار إلى الرجال الأربعة: أفضل ألا تكون أصلاً!  
فكَّر في إغراقه.  
لو أنه أبقى على حياته، لو أنه أذعن لمطالبه، فسيتبعه من لزموا الصمت من فرع عائلته.

ترامى الصوت في هدأة الليل محذراً: أنت تؤذي نفسك عندما تؤذي غيرك.  
وخالط الصوت نعمةً حزينة: إذا مات أبو حلاوة فهو شهيد، وإذا تألم من الضرب فهو ضحية. أما أنت فلن تُقلت من عقاب الآخرة!  
لا يدري إن كان ما رآه في حلم أو كابوس. صراخه أيقظه من النوم، لكن المشهد ظل في باله. الموجات العالية، الهادرة، المكتسحة، تندفع ناحية أبي حلاوة. يتماسك في وقفته. تصطدم الأمواج بجسده، وتواصل اندفاعها نحو الشاطئ.

ترامى الصوت، لم يتبَّين مصدره: إذا كان أبو حلاوة قد استطاع أن يصدَّ بجسده العفي توالي الأمواج، فإن الأمواج لن تهدأ، ولا بد أن تخذله عافيتُه!

ترامى السؤال: هل يسقط؟

— لا بد أن يسقط!

أزمع أن يترَّكه وحيداً في موضع، جزيرة، أو صخرة، خارج البوغان، بعيداً عن الإسكندرية.

قال — وهو يدفعه في البلانس — إنه سيذهب به إلى جزيرة غير مسكونة، يظل فيها، لا يرى أحداً، ولا يراه أحد، حتى يُدرِّكه الموت.

فكَّ حبال الصاري. أوثقه بها. لفَّها حول صدره وذراعيه وساقيه. صعب على أبي حلاوة مجرد التنفس.

لم يكتفوا بتقييده. توالَّت لكماتهم وركلاتهم. يضربون ما تصل إليه أيديهم من جسده، لكمات وركلات لا تتخير موضعها. يشغلها الإيذاء. أهملوا الدماء التي غطَّت رأسه ووجهه وجسده.

انطلق اللنش بعيداً. لم يُعد إلا الأفق من كل الجوانب.

شعر أبو حلاوة أنه يحترق بالشمس التي تحرق الصاري. سخونة الصاري أشد قسوة من أشعة الشمس على جسده، كأنه قطعة مشتعلة من النار، قيَّد فيها، صاراً جسماً واحداً مشتعلًا!

همس بألم الحبال حول صدره وعنقه وذراعيه، وبألم الضربات القاسية: يا رب ... المدد يا سيدي الأنفوشي!

لم يلحظ الشطبي، ولا الرجال الذين معه، أن اللنش غيرَ وجهته. الصوت الجميل الذي تنهَى من ناحية الصخرة، صمَّت — لجماله — الأفواه، وتدلت الأذرع على الأجساد، وغلب الشرود على النظرات الساكنة. كأن مغناطيساً يشدُّهم إلى الصخرة، كأن قوة سحرية امتصَّت الزمان والمكان، فلا يعرف ناظر الوقف ورجاله أين يقف اللنش، ولا أين يتجه؟ انحرف اللنش عن اتجاهه تماماً. اندفع بلا قدرة من الرجال في السيطرة عليه. انطلق — بقوة الاندفاع — نحو الصخرة. لم يُعد للدفة فائدة، ولا للشرع، ولا حتى محاولات الرجال لتعديل مساره.

تنبَّه ناظر الوقف على سقوط قطرات لزجة على رأسه ووجهه.

اضطرب لأن يخفض رأسه بمجرد أن حاول تبُّين ما إذا كان البلبل من قطرات مطر، أو رذاذ أمواج.

استغرب للزوجة، فجرى بأصابعه عليها. الحمرة القانية أذهلته، أخافته.  
مال بجانب رأسه.

كان سرسوب الدم المنبثق من الصخرة، قد تحوّل إلى شلال صغير يتخلل الصخرة.  
يتطاير منه ما يشبه الأمواج الصغيرة المتدافعة.  
غطى رأسه بيديه، يتقي الدم المتساقط كأنهما المطر.  
أغمض عينيه، وامتدت يده تفتشان في الفراغ. تحوّل المطر إلى سيلٍ غطاه تمامًا.  
أغرقه.

انظر: الأبرج، حميدو شومة، خليل الفحام، سامي بهاء الدين، شوقي أبو سليمان،  
فاروق الأول، قنبر عبد الودود.





## أبو العباس المرسي

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن علي الخزرجي الأنصاري المرسي البلنسي. عربي، من ذرية الأنصار المهاجرين إلى الأندلس، صاحب، وتلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي. وُلد في مرسية شرقي الأندلس، ٦١٦هـ.

لقب بالمرسي نسبةً إلى المدينة. كانت حاضرة الإقليم في العصر العربي. من علمائها محيي الدين ابن عربي، ابن سبعين، أبو عبد الله محمد يوسف المرسي، وغيرهم. حفظ — في صباه — القرآن الكريم، وتعلّم القراءة والكتابة والخط والحساب، وتفقه على مذهب الإمام مالك، ولامس مبادئ الصوفية وطقوسها.

في ٦٤٠هـ/١٢٤٢م خرج أبو العباس إلى الحج مع أبيه وأمه وأخيه أبي عبد الله. ركبوا البحر عن طريق الجزائر. تعرّضت السفينة لنوّة قاسية عند ساحل بونة التونسي، أغرقتها، ونجا ولداهما من الغرق، فاستقرّا في تونس. عمل أبو عبد الله بالتجارة، وفتح أبو العباس مكتبًا في زاوية الفقيه محرز بن خلف، لتلقين الصبية سور القرآن الكريم، وتعليمهم مبادئ القراءة والكتابة والخط والحساب.

سمع أبو العباس عن صوفي، هو الشيخ أبو الحسن الشاذلي، يُقيم مجالس للعلم في زاوية أسفل جبل زغوان.

سعى أبو العباس للقاء الشاذلي. حضر مجالسه، وأنصت إلى دروسه وإرشاده ونصائحه، سأله فيما استعصى عليه فهمه. أجاب الشاذلي بما أفاد كلّ المريدين.

صحب أبو العباس أستاذه — منذ ذلك الحين — ولازمه بقية حياته، وأخذ عنه. قال الشاذلي لأبي العباس: يا أبا العباس، ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت. وقال له: يا أبا العباس، فيك ما في الأولياء، وليس في الأولياء ما فيك. وقال الشاذلي للشيخ

زكي الدين الأسواني: يا زكي، عليك بأبي العباس، فوالله إنه ليأتيه البدوي يبول على ساقيه، فلا يمس عليه الماء إلا وقد وصله إلى الله. يا زكي، عليك بأبي العباس، فوالله ما من ولي لله كان، أو هو كائن، إلا وقد أظهره الله عليه. يا زكي، أبو العباس هو الرجل الكامل.

أحب الشاذلي أبا العباس. اختصه بأسراره، وما يشغله في أمور دينه ودنياه. زوجه ابنته. أنجب منها أبناءه جمال الدين محمد، وأبا العباس أحمد، ومهجة التي زوجها — فيما بعد — من مريده ياقوت العرش.

سافر أبو العباس إلى مصر. نزل الإسكندرية سنة ٦٤٢هـ. ظل بها بقية حياته، وإن تنقل بين المدن المصرية، حتى مات في ٦٨٦هـ عن حياة قاربت السبعين تمامًا. دفنه أصحابه ومريده في مقبرة باب البحر. في السنة التالية. في ٧٠٦هـ أقيم بناء على قبر أبي العباس، فيميزه الناس عن القبور الأخرى الكثيرة حوله.

كان أحمد الداخني — شيخ بنائي الإسكندرية — من أهل الصلاح، ومحبًا لآل البيت والعلماء والصالحين. رأى — في منامه — سلطان الإسكندرية.

سأله: لماذا لا تعتنون بضريحي؟

جعل الداخني تجديد الضريح وبناء المسجد شاغله وهمه، حتى أتمَّ بناء المسجد فوق ضريح السلطان. وفي سنة أربع وأربعين وتسعمائة وألف ميلادية أُعيد بناء المسجد في صورته الحالية. المئذنة الوحيدة ذات الطوابق الأربعة (٧٣ مترًا). الأعمدة الستة عشر من الجرانيت الإيطالي الوردي. الجدران المغطاة من أسفلها بالرخام الموزايكو. تتوسط السقف شخشيخة مثمثة الأضلاع، تحيط بها أربع قباب.

جامع المرسي أبي العباس يُطل على ميدان المساجد. الميدان ليس مساحةً خالية أطل عليها الجامع بالمصادفة فصارت ميدانًا. كان الميدان جزءًا من مشروع لوزارة الأوقاف بإعادة بناء مجموعة المساجد المتقاربة، وإنشاء ميدان فسيح أمامها، يمتدُّ أفقه إلى المينا الشرقية. سُمِّي بهذا الاسم لتعدد الجوامع والمساجد والزوايا والأضرحة والمقامات المحيطة بجامع سلطان الإسكندرية، والقريبة منه: ياقوت العرش، البوصيري، نصر الدين، كظمان، الواسطي، الشيخة مدورة، المسيري، الموازيني، طاهر بك، بركات، علي الفتح، رقية الشاذلية، محمد بن وكيع، محمد إمام الحرمين، محمد أبو وردة، يوسف الجعراني، محمد إجابة، محمد الشريف المغربي، محمد الغريب، محمد بركة، محمد الحلواني، محمد الغريب اليميني، محمد المطرودي، محمد صلاح الدين، محمد المنفعي، محمد مسعود.

تتفرع الشوارع من الميدان، تبدأ به، وتنتهي فيه. أَلِف المظاهرات والاجتماعات السياسية وفِرَق الطرق الصوفية وجولات الانتخاب ومواكب الزفاف والأعلام والبيارق والميكروفونات والأكشاك والخيام والسرادات والابتهالات الدعوات وحلقات الذكر ومعارك الفتوات.

تستطيع التعرف إلى موضع الجامع منذ انحناء السلسلة. هي — وحدها — مآذن أبي العباس تعلو كل البنايات. تتصور ما يُطل عليه، وما يحيط به، وقبابه، وصحنه، ومقام ولي الله، وضرجه، أسفل الجامع، بجواره ضريحاً ابنه جمال الدين محمد وأبي العباس أحمد، وأضرحة تلاميذه ابن أبي شامة، وابن الحاجب، وأبي حفص، والفاكهاني، وابن اللبان، بالإضافة إلى ضريح الأمير قجماس الظاهري، نائب الإسكندرية في القرن التاسع الهجري.

شاهد أبو العباس — وهو صبي — خيالَ الظل. لما أتى الصباح، ذهب إلى المؤبد، وكان من أولياء الله تعالى، فقال حين رآه:

يا ناظرًا صور الخيال تعجبًا وهو الخيال بعينه لو أبصرا

وكان يكتب في لوح، فقال له بعض الناس: الصوفي لا يسود بياضًا.  
فأجابه الصبي: ليس الأمر كما علمت، ولكن لا يسود الصحائف بسود الذنوب!

رأى أحدُ الأولياء بالمغرب دائرةً من الرجال، يتوسطها رجل، كلُّ مَنْ في الدائرة متوجّه إليه.

قال الولي في نفسه: هو القطب!

وعرف الرجل بصفته. وظل كلما ذُكر له عن رجل يأتي إليه، ويقول: عسى أن يكون ذلك الرجل. حتى قيل له عن أبي العباس المرسي، فأتاه، فإذا هو ذلك الرجل الذي رآه في وسط الدائرة.

قال أبو العباس: نعم، أنا القطب. أما الذين يقابلون بطني فلهم المدد من باطن حقيقتي، والذين يقابلون ظهري لهم المدد من ظاهر علمي، والذين يقابلون جنبي لهم المدد من العلوم التي بين جنبي.

كانوا يقرءون كتاب «المواقف» للنفري، في دار الزكي السراج بالقاهرة.  
سأل أبو الحسن: أين أبو العباس؟  
فلما جاء، قال له أبو الحسن: يا بني، تكلم، بارك الله فيك، تكلم، ولن تسكت بعدها أبداً.

واحتدَّ أبو العزائم ماضي — يوماً — على أبي العباس، فهتف الشاذلي بتلميذه: يا ماضي، الزم الأدب مع أبي العباس؛ فوالله إنه لأعرف بأزقة السماء أكثر مما تعرف أنت أزقة الإسكندرية.  
وقال الشاذلي: هذا هو أبو العباس، منذ نفذ إلى الله لم يحجب، ولو طلب الحجاب لم يجده.

ووارث علم الشاذلي حقيقة      وذلك قطب فاعلموه وواحد  
رأيت له بعد الممات عجائباً      تدلُّ على مَنْ كان للفتح يجحد

ولِي أبو العباس شئون الطريقة الشاذلية، بعد أن استخلفه لذلك أستاذه أبو الحسن الشاذلي. قال لأصحابه: إذا أنا مت، فعليكم بأبي العباس المرسي؛ فإنه الخليفة من بعدي، وسيكون له مقامٌ عظيم بينكم، وهو باب من أبواب الله تعالى.  
في سنة اثنتين وأربعين وستمائة، أضاءت الإسكندرية بمقدم سيدي العارف بالله سيدي المرسي أبي العباس، بدايةً لإقامة متصلة، بلغت ثلاثاً وأربعين سنة. تحدَّث، شرح، علِّم، أفاض في التفسير، وفي الفقه، وإعانة الناس على أمور دينهم ودنياهم. سكن داراً قبالة كوم الدكة. وكان يُلقبى دروسه على مريديه بمسجد العطارين، وكان يسمَّى الجامع الغربي. ولم يبدأ بإلقاء دروسه إلا عندما بلغ الأربعين، وسمح له شيخه بذلك.  
بتَّ علوم الشاذلي، نشر أنوارها، أبان عن أسرارها وغوامضها. بصر أصحابه وتلامذته ومريديه بالمقال والفعال، وانتشر في البلاد أصحابه، وأصحاب أصحابه، وظهرت علوم الشيخ في كل مكان.

قال أبو العباس: كنت في ابتداء أمرى بالإسكندرية، فجئت إلى بعض مَنْ يعرفني، فاشترت منه حاجة بنصف درهم، فقلت في نفسي: لعله لا يأخذه مني. فهتف بي هاتف: السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين.

يصفه علماء عصره بأنه «كان نافذَ الفراسة، سريع الخاطر، حسن السمات، نظيف الثياب، كثَّ اللحية، جميل المنظر، كثير الوقار. يأسر سامعيه في كلامه عن التفسير والحديث والفقه والأصول، والتعليق على أقوال بعض الصالحين.»

لم يكن التصوف عند أبي العباس تبتلاً، ولا تعطلاً، ولا تركاً للسعي أو الأسباب، ولم يكن يحب المرید الذي بلا سبب. كان يقنني الخيل، ويربيها، ويعرضها للبيع. قدوته في ذلك أستاذه أبو الحسن الشاذلي. كان من كبار المزارعين. وكان يقول: لكلُّ وليٍّ حجاب، وحجابي الأسباب. التصوف توفيق بين العقل والقلب، جمع بين الشريعة والحقيقة.

سُئل أبو العباس في قول بعضهم: لا يكون الصوفي صوفياً حتى لا يكتب عليه صاحبُ الشمال عشرين سنة. فقال: ليس معنى ذلك ألاَّ يقعَ منه ذنب عشرين سنة، وإنما معناه عدم الإصرار، وكلما أذنب تاب واستغفر على الفور. وكان يُكرم الناس على نحو رُتبتهم عند الله، وربما دخل عليه عابد فلا يأبه له، وربما دخل عليه عاصٍ فيحتفي به. لأن العابد جاء وهو متكبر بعلمه، ناظر لفعله. أما العاصي فقد دخل بكسر معصيته وذله ومخالفته. وكان لا يُثني على مرید، ولا يرفع له علماً بين إخوانه كي لا يُحسد. صلى قيام رمضان سنة، وقال: قرأت القرآن في هذه السنة كأنما أقرؤه على رسول الله ﷺ. وفي رمضان من العام التالي، قال أبو العباس: قرأت القرآن في هذه السنة كأنما أقرؤه على جبريل عليه السلام. فلما جاء رمضان من العام الثالث قال: قرأته في هذه السنة كأنما أقرؤه على الله.

وقال بعض مريديه: صلَّيتُ وراء أبي العباس، فشهدت الأنوار ملأت بدنه، وانبتقت من وجوده، حتى إنني لم أستطع النظر إليه.

وصحب أحد الصوفية الشيخَ أبا عبد الله البجائي، صاحب أبي الحسن الشاذلي، فكان يقع له الأمر، يسأل عن الشيخ البجائي، فيجيبه: ليس هذا الأمر لي، ولكن إن جمع الله بينك وبين أبي العباس المرسي، تجد عنده ما تريد.

وقال الشيخ أمين الدين جبريل لصوفي من البهنسا: تريد أن أريك ولياً من أولياء الله تعالى؟

قال الصوفي: نعم.

قال جبريل: امض بنا.

وأتى به إلى الشيخ أبي العباس المرسي، وقال: هو هذا.

ودخل رجل على الشيخ أبي العباس الدمنهوري، فسمعه يقول: يا رب، هذاك أبو العباس، وأنا أبو العباس. وكرر ذلك.

قال الرجل: مَنْ أبو العباس؟

قال: يا بني، ما من أسوان إلى الإسكندرية رجل مثله.

وقيل: ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد العظيم المنذري، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلس أبي العباس المرسي.

وقال أبو العباس: لن تهلك أمة فيها أربعة: إمام، وولي، وصديق، وسخي. قيل إن الإمام هو أبو العباس.

وقال الشيخ أبو العباس الدمنهوري: سيدي أبو العباس المرسي ملك من ملوك الآخرة.

كان يتوجّه إلى البحر، يمشي على الماء دون أن يبدّل ثيابه، كأنه يمشي في الأرض تمامًا، لا يشغله عمّا حوله، ولا يتلفت.

أكثر ما كانت رؤيته وهو في هذه الحال، عندما يكون القمر في السماء بدرًا. وكان يطير بلا جناحين، ويغطس في مياه الميناء الشرقية، فلا يظهر إلا في المنتزه أو أبي قير. ربما طار إلى مكة، يطوف حول البيت الحرام، ويزور قبر الرسول، ثم يعود إلى مجلسه وسط مريديه، كأنه لم يغادره.

طلب رجل من أبي العباس أن يزوره لأمر بعد صلاة الجمعة. وعدّه أبو العباس بالحضور. جاء أربعة رجال، طلب كلٌّ منهم الأمر نفسه من ولي الله، فوعدهم بالحضور. صلى أبو العباس مع الجماعة، ثم اتخذ مجلسه بين الفقهاء، ولم يذهب إلى أي مكان، لكن الرجال الخمسة قدّموا إليه، يشكرونه على حضوره عندهم.

أقسمت الست صبيحة أن السلطان كان يزور — بجسده — أضرحة أولياء الله: السيدة زينب، والسيدة نفيسة، والشهيد الحسين، والسيدة فاطمة النبوية وغيرهم، دون أن يبرح مجلسه وسط المريدين، وكان لا يغيب عن الله، ولو في حالة الجماع.

من بين ما أحصاه علوم الشريعة كلها، وعلوم الحقيقة كلها، وعلم لغات الإنس والملائكة والجن والطير والوحوش والهوام، وعلم ضرب الرمل والتنجيم ورصد الأفلاك. وكان يتفّرّس في لغات الحيوان، يعرف ما تقوله وما تريده، فيعيد حكايته على الناس. وكان يُسخر الجن، وتطيعه، ويسمع تسبيح السمك في البحر.

رَوَتْ أَنَّهُ أَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ — ذَاتَ يَوْمٍ — رَعُوسَ فَجَلٍ، تَنَاقَرَتْ، وَتَحَوَّلَتْ إِلَى ثَعَابِينَ وَحَيَّاتٍ، تَفَرَّقَتْ وَسَطَ زَهْوَلِ الْمَرِيدِينَ، فَلَمْ يَلْحَظْ أَحَدٌ أَيْنَ زَهَبَتْ. وَعُرِفَ عَنْهُ تَبَحْرُهُ فِي عِلْمِ السِّمِيَا، يَسْهَلُ عَلَيْهِ بِهِ أَنْ يَتَصَرَّفَ عَلَى مَا بِالكَائِنَاتِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَجَلْبٍ وَطَرْدٍ، أَعْمَالُهُ فِي الْخَيْرِ كَالْتِرْيَاقِ، وَأَعْمَالُهُ فِي الشَّرِّ كَالسَّمِ النَّاقِعِ. يَأْتِي لِلْحَوَامِلِ وَالْمَرْضَى بِالْفَاكِهِةِ فِي غَيْرِ أَوَانِهَا، يُتِمُّ بِكَلِمَاتٍ، وَيَمُدُّ يَدَهُ فِي الْهَوَاءِ، فَتَلْتَقُ الثَّمَارُ الْمَرْجُوةُ، يَدْفَعُ بِهَا إِلَى مَنْ يَطْلُبُهَا، فَيُرِضِي بِهَا رَغْبَتَهُ. يَعْرِفُ أَشْيَاءَ تَخْفَى عَلَى الْبَشَرِ الْعَادِيَّيْنَ، وَيُكَاشِفُ النَّاسَ بِمَا فِي صُدُورِهِمْ. حَتَّى الْأَفْعَالِ الَّتِي يَكْتُمُونَهَا، يَحْرِصُونَ عَلَى عَدَمِ الْبُوحِ بِهَا، يَرُويهَا كَأَنَّهُ يَرَاهَا، وَيُكَاشِفُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ مَرِيدِيهِ بِمَا حَدَثَ لَهُ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ. يَتَصَرَّفُ — فِي مَجْلِسِهِ، وَبَيْنَ مَرِيدِيهِ — بِاللَّهَامِ يُشَبِّهُ الْوَحْيِ، يُخَاطَبُ مَنْ لَا تَرَاهُ عَيُونُهُمْ، يَأْخُذُ وَيُعْطِي، يَسْأَلُ وَيَجِيبُ، ثُمَّ يَتَجَهَّ إِلَى الْمَرِيدِينَ بِالرَّأْيِ الصَّوَابِ. وَعُرِفَ عَنْهُ الْمَقْدِرَةُ عَلَى الْكَشْفِ عَنْ حَالِ الْمَوْتَى، وَسَمَاعِ كَلَامِهِمْ، وَقَدْ يَسْتَطِيعُ — بِقُدْرَةِ اللَّهِ — إِحْيَاءَهُمْ.

أَنْكَرَ ابْنَ عَطَاءِ اللَّهِ السَّكَنْدَرِيَّ — فِي مَقْتَبَلِ شَبَابِهِ — عَلَى التَّصَوُّفِ وَرَجَالِهِ. زَهَبَ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ الْمَرْسِيِّ لِيَنْظُرَ مَاذَا يَقُولُ. وَجَدَهُ يَتَكَلَّمُ فِي الْأَنْفَاسِ، وَدَرَجَاتِ السَّالِكِينَ إِلَى اللَّهِ، وَمَدَى مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ — سُبْحَانَهُ — وَقُرْبِهِمْ وَتَقَرُّبِهِمْ إِلَيْهِ، فَمَا زَالَ يَتَحَدَّثُ وَيَتَحَدَّثُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، وَمَقَامَاتِ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالتَّحَقُّقِ.

قَالَ ابْنُ عَطَاءِ اللَّهِ: «... إِلَى أَنْ بَهَرَ عَقْلِي وَسَلَبَ لُبِّي، فَعَلِمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ يَغْتَرِفُ مِنْ فَيْضِ بَحْرِ إِلَهِي وَمَدَدِ رَبَّانِي، فَأَذْهَبَ اللَّهُ مَا كَانَ عِنْدِي مِنْ إنْكَارٍ وَاعْتِرَاضٍ».

لَزِمَ ابْنَ عَطَاءِ اللَّهِ — فِيمَا بَعْدَ — أَبَا الْعَبَّاسِ، وَصَارَ مِنْ مَرِيدِيهِ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: أَوْقَاتُنَا كُلُّهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، أَيُّ عِبَادَتِنَا كُلِّهَا مَضَاعِفَةٌ مَعَ خَفَائِهَا، وَتَحْقِيقِ الْإِحْلَاصِ فِيهَا؛ إِذْ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا مَلَكٌ فَيَكْتُبُهُ، وَلَا شَيْطَانٌ فَيُفْسِدُهُ.

وَأَمْسَكَ بِلِحْيَتِهِ — يَوْمًا — وَقَالَ: لَوْ عَلِمَ عُلَمَاءُ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ مَا تَحْتَ هَذِهِ الشَّعْرَاتِ لِأَتَوْهَا وَلَوْ سَعِيًّا عَلَى وَجْهِهِمْ. وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا جَلَسْتُ حَتَّى جَعَلْتُ جَمِيعَ الْكِرَامَاتِ تَحْتَ سِجَادَتِي. وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْلَا ضَعْفُ الْعُقُولِ لِأَخْبَرْتُ بِمَا يَكُونُ غَدًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَأَنْ تَنْزَلَ إِلَى عُلُومِ الْمَعَالِمَةِ. وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا سَارَ الْأَوْلِيَاءُ وَالْأَبْدَالُ مِنْ «ق» إِلَى «ق» حَتَّى يَلْقَوْا وَاحِدًا مِثْلَنَا، فَإِذَا لَقَوْهُ كَانَ بَغِيَّتَهُمْ. أَضَافَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، مَا مِنْ وَلِيٍّ لِلَّهِ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ إِلَّا وَقَدْ أَطَّلَعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى اسْمِهِ وَنَسَبِهِ، وَكَمْ حَظُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ: الْعَامَّةُ

إذا رأوا إنساناً يُنسب إلى الولاية، جاء من البراري والقفار، أقبلوا عليه بالتعظيم والتكريم. وكم من بدلٍ وولّى بين أظهرهم فلا يُلقون إليه بالألّا، مع أنه هو الذي يحمل أثقالهم، ويدفع أغياراً عنهم، فمثلهم في ذلك كمثل حمار الوحش، يدخل البلد فيطوف به الناس متعجبين لتخطيط جلده، وحسن صورته، والحُمُر التي بين أظهرهم تحمل أثقالهم إلى مواضع أغراضهم، وتنقل ترابهم وآلات بنائهم، لا يلتفتون إليها.

قيل للشيخ الإمام العارف نجم الدين عبد الله الأصفهاني، وهو ببلاد العجم: إنك ستلقى القطب بديار مصر.

خرج الشيخ من بلاده في طريقه إلى القطب الذي تمنى لقاءه. صادفه في بعض الطريق جماعة من التتار، ألقوا القبض عليه، ووثقوا جسده، وقالوا: هذا جاسوس!. عندما تشاوروا في أمره، انقسموا إلى فريقين ما بين مؤيد لقتله، ومعارض لقتله، ثم تركوه مقيداً حتى يصلوا إلى رأيٍ محدد.

قال الإمام الأصفهاني لنفسه: خرجت من بلادي، أريد لقاء من يعرفني بالله. والله ما جزعت من الموت ... ولكن كيف أموت قبل أن أنال ما قصدت؟. وقال أبياتاً ضمّنها شعراً لامرئ القيس، منه:

وقد أوطأت نعلي كل أرض      وقد أتعبت نفسي باغتراب  
وقد طوفت في الأفاق حتى      رضيت من الغنيمة بالإياب

فما أتمّ إنشاده، حتى رأى رجلاً كَثَّ اللحية، ظاهر الهيئة، هبط كالباز عندما ينقضُّ على الفريسة، فحلَّ وثاقه، وقال له: قم يا عبد الله، فأنا مطلوبك. ووصل الشيخ إلى مصر، دلّه الناس على أبي العباس المرسي، فذهب إليه. كان هو الرجل الذي حلَّ وثاقه، وقال له: أعجبني تضمينك ليلة أُسرت، وقولك ... وذكر الأبيات إلى آخرها.

قال أستاذ الشيخ نجم الدين الأصفهاني لتلميذه: إذا لقيت القطب، فلا تصلينّ وهو وراءك.

وجاء إلى أبي العباس — يوماً — وهو بالإسكندرية، عند صلاة العصر.



ابتدره المرسي: أصليت العصر؟

قال: لا.

قال: قُمْ فصلًا!

وكان في الموضوع الذي هو فيه إيوانان، قبلي وبحري. وكان أبو العباس جالسًا في الإيوان البحري. وتذكّر الأصفهاني عند قيامه للصلاة ما قاله أستاذه، وعلم أنه إذا صَلَّى، كان الشيخ وراء ظهره، فأقام الله بقلبه حالة، وقال: حيثما كان الشيخ هناك القبلة. وتوجّه ناحية أبي العباس، وهمّ أن يُكَبِّر. قال أبو العباس: لا ... هو لا يرضيه خلاف السنة!

قال العالم الشيخ محمد السراج: كنت — ذات ليلة — نائمًا، فرأيت في المنام قائلًا يقول لي: اذهب إلى خارج الإسكندرية، ومن باب سدرة، فأول بستان تلقاه من الجانب الأيسر، فادخل فيه، فإنك تجد هناك جماعة من الناس، الجالس منهم تحت أطول نخلة هناك، رجل من الرجال. ثم قيل لي إن في الجامع حلقة، مَنْ دخل فيها فهو آمن. فلما أصبحت، خرجت إلى ظاهر الإسكندرية، فدخلت أول بستان من الجانب الأيسر، فوجدت حلقةً هناك، فرفعت بصري لأنظر إلى أطول نخلة، فإذا قائل يقول: كلها طوال. فإذا هو الشيخ أبو العباس المرسي. فسلمتُ، وجلستُ، وقلت: يا سيدي، رأيت البارحة كذا وكذا. وقصصت عليه الرؤيا.

قال: أنا الجامع، والحلقة هم أصحابي، ومَنْ دخل فيها فهو آمن، أي مَنْ دخل في شروطنا فهو آمن.

ثم قال: أنا الليلة أتيتك.

قلت: يا سيدي، أنتظرك على الباب، أو أترك لك الباب مفتوحًا ...؟

قال: لا، ولكن أغلق الباب وأنا أتيتك.

قال: فلما كان الليل، أخذني شبه الوهم، وصرّت أقول: مَنْ أين يأتي؟ ... من هنا يأتي؟ ... لا، بل من هنا يأتي؟ ... فلم أطق المكث، فخرجت إلى رباط الواسطي، فصعدت المئذنة، ووقفت لأصلي، وإذ أنا أصلي، أتى الشيخ أبو العباس في الهواء، وقال: يا محمد، أتظن أنك إذا جئت إلى هنا يخفى عليّ مكانك؟

قلت: يا سيدي، إنما جئت ها هنا لأنني لم أطق. وهالني الأمر، وكان المخاطب له مني لسانٌ آخر غير الذي كنت أقرأ به.

قال أبو العباس — يوماً — للعارف نجم الدين الأصفهاني: ما اسم كذا وكذا بالعجمية؟  
توهم الأصفهاني أن أبا العباس يحب أن يقف على اللغة العجمية، فأتى إليه بكتاب  
«الترجمان».

قال أبو العباس: ما هذا الكتاب؟

قال: كتاب الترجمان.

ضحك الشيخ، وقال: سل ما شئت بالعجمية أُجِبْ بالعربية، أو سل ما شئت بالعربية  
أُجِبْ بالعجمية.

وسأل الأصفهاني بالعجمية، فأجابه أبو العباس بالعربية. وسأله بالعربية، فأجابه  
بالعجمية، وقال: يا عبد الله، ما أردت بقولي ما اسم كذا إلا مباسطتك، وإلا فلا يكون  
صاحب هذا الشأن، ويخفى عليه شيء من الألسنة.

وقال أبو العباس للأصفهاني يوماً: كم بين بلدة كذا وكذا من نهر لبلدتين من بلاد  
العجم؟

قال الأصفهاني: أربعة أنهار.

قال: والنهر الذي غرقت فيه؟

فتذكر الأصفهاني أنه نسي نهرًا أتاه ليخوضه، فكاد أن يغرق فيه.

ونزل أبو العباس ضيفاً على الشيخ أبي الحسن المرسي بمدينة قوص. وكان الشيخ  
يعاني حدة في الطبع، فنزل أحد أبنائه للعب، فنهزه أبو الحسن، وقال له: اطلع لا أطلعك  
الله.

سمع أبو العباس ما قاله الرجل، فقال: يا أبا الحسن، حسن خُلقك مع الناس. بقي  
لك عام وتموت.

ومات الرجل في نهاية العام.

قَدِم أبو العباس على البهنسا. قال لبعض أهلها: خمس وعشرون سنة ما حُجبت فيها عن  
الله طرفة عين.

ثم غاب خمسة عشر عاماً، قدم — بعدها — على البهنسا، فقال: الآن أربعون سنة،  
ما حُجبت عن الله طرفة عين.

وكان يَعْظ الناس، حين دخل عليه أحدهم، وقاطعه بسوء أدب.

قال له المرسي دون أن يهزمه الانفعال: اخرج يا ممقوت!

وجُنَّ الرجل في لحظتها. سلبه الله عقله وذاكرته، وكل ما كان تعلّمه. خرج إلى الشوارع والحواري، لا يعرف مستقرًّا، حتى مات.

قال ابن عطاء الله السكندري. وكان قد أنكر على الصوفية، وعلى أبي العباس المرسي، دون أن يلتقي بالمرسي، أو يعرف عنه شيئاً: دعني أذهب إلى هذا الرجل لأعرف حاله عن قرب، ولأتبيّن ما يقوله عنه الناس من أنه وليُّ هذا الزمان.

استأذن ابن عطاء الله على أبي العباس، ودخل عليه. تلقّاه بحفاوة وبشاشة، حتى استصغر نفسه، وهو شابُّ صغير، والمرسي شيخ عالي المقام.

قال: فلما اقتربتُ من الشيخ، سألتني عن أحوالي. فقلت له: يا سيدي، إنني أشكو الهموم والأحزان.

قال الشيخ: أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة والبليّة والطاعة والمعصية. فإذا كنت في النعمة، فمقتضى الحق منك الشكر، وإذا كنت في البليّة، فمقتضى الحق منك الصبر، وإذا كنت في الطاعة، فمقتضى الحق شهودها منّة عليك، وإذا كنت في المعصية، فمقتضى الحق منك الاستغفار.

قال ابن عطاء الله: فقمتم من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوبًا نزعته عني.

قال لأبي العباس: يا سيدي، إنني — والله — أحبك.

قال المرسي: أحبك الله كما أحببتي.

وقال ابن عطاء الله: سمعت طلبة الشيخ يقولون: من يصحب أهل المعرفة، لا يجيء منه في العلم الظاهر شيء. فشق عليّ أن تفوتني صحبة الشيخ، فيفوتني هذا العلم. أتيت إلى الشيخ، فوجدته يأكل لحمًا بخلًّا. قلت في نفسي: ليته يطعمني منها لقمة ... فما استتمت خاطر إلا وقد وضع الشيخ أبو العباس لقمةً منها في فمي.

وقال ابن عطاء الله: سمعت شيخنا يقول: سافرت إلى قوص ومعني جماعة من أصحابي، هم: الحاج سليمان، وأحمد بن الزين، وأبو الربيع، وأبو الحسن المرسي، وخامس لم يذكره. سألتني إنسان: ما الذي تقصده بسفرك يا سيدي؟

قلت: لأدفن هؤلاء بقوص وأعود، فدفنت الخمسة بها.

وقال ابن عطاء الله: دخلت على الشيخ أبي العباس — يومًا — وفي نفسي تركُّ الأسباب والتجرد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر، قائلًا: إن الوصول إلى الله لا يكون على هذه الحال.

قال لي من غير أن أُبدِي شيئاً: صحبني بقوص إنسان يقال له ابن ناشئ، كان نائب القضاء في قوص، ومدرساً بها، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا.  
قال: يا سيدي، أترك ما أنا فيه، وأتفرَّغ لصحبتك.  
قلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامه الله لك، وما قسم لك على أيدينا هو واصل إليك.  
ثم قال: هكذا شأن الصديقين، لا يُخرجون منه شيئاً حتى يكون الحق هو الذي تولى إخراجهم.

قال جمال الدين بن أبي العباس: ورد رسول الإفرنج إلى الإسكندرية، فذهبت لأراه، ولم أعلم الشيخ. فلما رجعت، سألتني الشيخ: أين كنت؟  
قلت: ها هنا.  
قال لي: بل ذهبت لرؤية رسول الإفرنج. أنتظن أن شيئاً من أحوالك يخفى عليّ؟ ...  
كان رسول الإفرنج لابساً كذا وكذا، راكباً على هيئة كذا، عن يمينه فلان، وعن يساره فلان ... ووصف الحالة كما كانت عليه.

قال عبد العزيز المديوني، خادم أبي العباس: قال لي الشيخ مرة: يا عبد العزيز، أسقيت الفرس؟  
وما كنت سقيتها.  
قلت: نعم، خوفاً من الشيخ.  
فكرّر عليّ ذلك، وأنا أقول: نعم.  
في المرة الأخيرة، قال: يا عبد العزيز، ما الذي يدعوك أن تقول غير الحق؟ ... وماذا كنت أصنع بك إذا لم تكن قد سقيتها.

قال أحد المريدين: صليت خلف شيخي صلاة، فشهدت ما أبهر عقلي؛ وذلك أنني شهدت بدنّ الشيخ والأنوار قد ملأته، وانبثت الأنوار من وجوده، حتى إنني لم أستطع النظر إليه. فلو كشف الحق عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه، لانطوى نور الشمس والقمر في مشرقات أنوار قلوبهم. وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم؟ ... الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف فيها ولا غروب.

لجى وأصحابه دعوة رجل صالح من أبناء الإسكندرية، في بستان له بالرمل. شغلّتهم أحاديث الدين، حتى وصلوا إلى بستان ظنوه المكان الذي دعوا إليه. وكان مخضراً بأشجار التوت، فأقبلوا على تناوله، وإن أهمله أبو العباس. تذوق واحدة، فأحس ألماً في بطنه، فأهمله، ولحقهم صوت رجل من بعيد: كيف يحلُّ لكم أن تأكلوا من ثمرة بستانى بغير إذن؟

فطنوا إلى أنهم أخطئوا البستان، وأكلوا ما ليس من حقهم، في حين أفلت أبو العباس من أكل الحرام، وقال: ألم أقل لكم: الورع من ورعه الله؟!

كان إذا قرصه الجوع، خرج إلى ساحل بحر الإسكندرية. يلتقط ما يرميه البحر على الساحل من القمح الذي يُرفع من السفن. يشكر الله، ويحمده على نعمائه.

قال رسول الله ﷺ: «سبعة يُظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشابٌ نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلقٌ بالمسجد، لا يخرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرَّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه من خشية الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شماله ما تُنفقَ يمينه.»

قال المرسي: اعلم أن هؤلاء السبعة جاءهم الحق — سبحانه وتعالى — من حيث معاملتهم إياه. أما الإمام العادل، فإنه عدل في عباد الله، فأوى المظلوم إلى ظل عدله، فأوى الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله. وأما الشاب الذي نشأ في عبادة الله فإنه أوى إلى الله معرضاً عن هواه، أويًا إلى كنف مولاه، فصنع الحق معه ذلك في الآخرة جزاء، كما صنع هو ذلك مع الله في الدنيا معاملة. وأما الرجل الذي قلبه معلقٌ بالمسجد، لا يحب البراح عنه، لأنه يجد فيه روح القربى وحلاوة الخدمة، فأوى إلى الله مؤثراً لربوبيته، فأواه الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، جزاء لما سبق من معاملته. وأما الرجل الذي دعته امرأة ذات حسن وجمال، فقال: إني أخاف الله، فإنه عرف نارَ مخالفة الهوى، مخافةً من المولى، وخالف بواعث الطبع المعارضة للتقوى. فلما خاف من الله، هرب إليه. ولما هرب إليه، أواه الله إليه في الآخرة مواصلة، فأظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله. وأما الرجل الذي تصدَّق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه، فإنه قد أثار الله على نفسه، ببذل الدنيا إيثاراً لحب الله على ما تحبه نفسه، لأن شأن النفس حبُّ الدنيا وعدم البذل لها، فلا يبذل لها إلا

مَنْ آثر الله عليها. ولذلك قال رسول الله: الصدقة برهان، أي برهان يدل على أن العبد آثر مولاه على نفسه وهو، فلما قال هذا العبد إلى الله بالمعاملة، مَنْ الله عليه في ظلّه عليه بأن أظله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله. وقال: السماء عندنا كالسيف، والأرض كالبيت، وليس الرجل عندنا مَنْ يحصره هذا البيت. وقال: العارف لا دنيا له، لأن دنياه لآخرته، وآخرته لربه، والزاهد غريب في الدنيا لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب في الآخرة، فإنه غريب عند الله. ولن يصل الوليُّ إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله. وقال: إن الله — تعالى — عبادة محق أفعالهم بأفعاله، وأوصافهم بأوصافه، وذاتهم بذاته، وحملهم من أسراره ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه، وهم الذين غرقوا في بحر الذات وتيار الصفات، فهي إذن فئات ثلاث: أن يُغنيك عن أفعالك بأفعاله، وعن أوصافك بأوصافه، وعن ذاتك بذاته؛ ولذلك قال قائلهم:

وقوم تاه في أرض بقفر      وقوم تاه في ميدان حبه  
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا      وأبقوا بالبقا من قرب قربه

فإذا أفناك عنك أبقاك به، فالفناء دهليز البقاء، ومنه يدخل إليه، فمن صدق فناؤه صدق بقاؤه، ومن كان عمّا سوى الله تعالى بقاؤه، وقال: نحن في الدنيا بأبداننا مع وجود أرواحنا، وسنكون في الآخرة بأرواحنا مع وجود أبداننا، وقال: إذا أتانا مرید له شيء من الدنيا، لا نقول له: اخرج عن دنياك، وتعال إلينا، ولكن ندعه حتى ترسخ فيه أنوار المعرفة، فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه، ومثل ذلك قوم ركبوا سفينة، فقال لهم رئيسها: غداً تهبُّ ریح شديدة، لا يُنجيكم منها إلا أن ترموا ببعض أمتعتكم، فارموا بها الآن، فلا يسمع أحد قوله، فإذا هبَّت العواصف كان الكيس مَنْ يرمي متاعه بنفسه، كذلك إذا هبَّت عواصف اليقين، يكون المرید هو الخارج عن الدنيا بنفسه. وقال: طريقتنا هذه لا تُنسب للمشاركة ولا للمغاربة، بل واحد عن واحد، إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو أول الأقطاب، وإنما يلزم تعيين المشايخ الذين يستند إليهم طريق الأنساب. وقد يجذب الله العبد إليه، فلا يجعل عليه منةً لأستاذ. وقد يجمع شمله برسول الله فيكون أخذاً عنه، وكفى بهذا منةً. وقال: وليُّ الله تعالى مع الله تعالى، كولد اللبوة في حجرها. أترها تاركةً ولدها لمن أراد اغتياله؟ وقال: والله ما نطالع كلام أهل الطريق إلا لنرى فضل الله علينا. ودعا، فقال: اللهم إننا نسألك الخوف منك، والرجاء فيك، والمحبة لك، والشوق إليك، والأنس بك، والرضا عنك، والطاعة لأمرك على بساط مشاهدتك، ناظرين

منك إليك، وناطقين بك عندك. لا إله إلا أنت سبحانك. ربنا ظلمنا أنفسنا، وقد تُبْنَا إِلَيْكَ قَوْلًا وَعَقْدًا، فَتُبَّ عَلَيْنَا جُودًا وَعَطْفًا، وَاسْتَعْمَلْنَا بِعَمَلِ تَرْضَاهُ، وَأَصْلَحَ لَنَا فِي ذَرِيَاتِنَا. إِنَّا تُبْنَا إِلَيْكَ، وَإِنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَكَانَ عِنْدَ الْكَرُوبِ يَدْعُو بِحَزْبِ الْبَحْرِ، يَقُولُ: يَا قَدِيرُ، يَا مَرِيدُ، يَا عَزِيزُ، يَا حَكِيمُ، يَا حَمِيدُ. إِنَّا نَسْأَلُكَ بِالْقُدْرَةِ الْعَظْمَى وَالْمَشِيئَةِ الْعَلِيَا، وَبِالْأَلَاتِ وَالْأَسْمَاءِ كُلِّهَا، وَبِهَذَا الْعَظِيمِ مِنْهَا، أَنْ تَسْخَرَّ لَنَا هَذَا الْبَحْرَ، وَكُلَّ بَحْرٍ هُوَ لَكَ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْمَلَكُوتِ، كَمَا سَخَّرْتَ الْبَحْرَ لِمُوسَى، وَسَخَّرْتَ النَّارَ لِإِبْرَاهِيمَ، وَسَخَّرْتَ الْجِبَالَ وَالْحَدِيدَ لِدَاوُدَ، وَسَخَّرْتَ الرِّيحَ وَالشَّيَاطِينَ، وَالْجَنِّ لِسُلَيْمَانَ، وَسَخَّرَ لَنَا كُلَّ شَيْءٍ يَا مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ، وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ. يَا عَلِيُّ، يَا عَظِيمُ، يَا حَلِيمُ، يَا عَظِيمُ.

عاش أبو العباس المرسي — كما روى أحبائه — نظيف الثياب، بشوش الوجه، طلق المحيّا، وضآء الجبين، عفّ اللسان، لا يُضمر سوءًا لأحد، متوسطًا، معتدلًا في حياته ومعيشتة، يتحرز في دينه، ويحذر الحرام، ويحفظ حقوق أصحابه، ولا يُحرم على نفسه الطيبات؛ لأن ربه — سبحانه — يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. امتدّت أحاديثه في القلب الأكبر، والاسم الأعظم، وشعبه الأربعة، والأسماء، والحروف، ودوائر الأولياء، ومقامات الموقنين، والأملاك المقرّبين عند العرش، وعلوم الأسرار، وأمراء الأندكار، ويوم المقادير، وشأن التدبير، وعلم البدء، وعلم المشيئة، وشأن القبضة، ورجال القبضة، وعلوم الأفراد، وما سيكون يوم القيامة.

رُويت حكايات عن طيئه للأرض، ومشيه على الماء، وطيْرانه في الهواء، واطلاعه على كائنات كانت، وكائنات لم تكن بعد، وكشفه عن أحوال الموتى وسماع كلامهم، وإتيانه بثمار في غير أوانها، وإنباع ماء من غير احتقار، وتسخير الحيوانات الضارية، وإجابة الدعوة بإتيان مطر في غير وقته، وصبر على المكاره، وانعدام القوت مدة تخرج عن طور العادة. وقيل إنه تعلّم لغة الطير والوحوش والدواب والنبات والجماد، ولغة الماء، وحفيف الأشجار، وسراج الأقمار والضوء، ولغات الملائكة والأفلاك والأملاك ومساكلهم، ولغات أهل الإشارة والعبارة، ولغات البيت المعمور.

كان إذا أُهدِيَ إليه شيء يسير، تلقاه ببشاشة وقبول، وإذا أُهدِيَ إليه شيء كثير، تلقاه بعزة نفس، وإظهار الغنى عنه.

فإذا نزل بلدة، وعلم أن متوليها يريد لقاؤه غدًا، سافر قبل أن يَفِدَ النهار، وظل في الإسكندرية ستًّا وثلاثين سنة، لم يرَ وجه متوليها، ولا أرسل إليه. فلما طلب المتولي لقاؤه، أبقى المرسي ذلك.

قال له الزكي الأسواني: يا سيدي، متولي الإسكندرية قال إنه يؤثر الاجتماع بك لتكون شيخه.

قال أبو العباس: يا زكي، لست ممن يُلعب به، والله إنني ألقى الله ولا يراني ولا أراه، فكان الأمر كذلك.

مع سعي أبي العباس إلى العمل الصالح، فإنه لم يُهمل حظّه من الحياة. وكان يقتني الخيل، ويُعنى بتربيتها، وإطعامها، وتفقد أحوالها.

قال: دخلت على الشيخ — الشاذلي — وفي نفسي أن أكَلَّ الخشن، وألبس الخشن، فقال لي: يا أبا العباس، اعرف الله، وكن كيف شئت.

وكان يفرض الخصوصية في زيِّ الصوفي، ويقول: مَنْ لبس الزي فقد ادعى. وخرج من الدنيا، ما وضع حجرًا على حجر، ولا اتخذ بستانًا، ولا استنتج سببًا من أسباب الدنيا، ولا خَلَّف وراءه ما يدل على الثراء.

كان يُعاني أمراضًا كثيرة، لكنه لم يكن يشكو، ولا يتألم. يحرص على حلقات درسه، ويقول لأصحابه: لا تنظروا إلى حمرة وجهي؛ فحمرة وجهي من قلبي.

دخل عليه ابن عطاء الله — يومًا — فوجد به أَلْمًا، فقال له: أظنك يا سيدي ضعيفًا؟ قال أبو العباس: الضعيف مَنْ لا إيمان له ولا تقوى.

كان يرى أن العمل هو عين العبادة والتسبيح، وأنه كمال المجاهدة. ويقول لأصحابه: عليكم بالسبب (العمل)، وليجعل أحدكم مكوّكهُ سُبْحته، أو قادمه سُبْحته، أو تحريك أصابعه في الخياطة، أو الضفر، سُبْحته. وكان يشعر أن انقطاعه عن الدرس ربما يُفضي إلى سلبه. يقول: والله ما جلست للخلق حتى هددت بالسلب، وقيل لي: لئن لم تجلس للناس، سلبناك ما وهبنا لك.

كان متواضعًا للناس، بأشأ في وجوههم. يلتزم بحق مريديه وتلاميذه وإخوانه، من التعاطف والمشاركة الوجدانية، ويُحب لهم ما يُحب لنفسه. وكان يُحسن معاملة المريدين، ويحض على حسن معاملتهم. وأعلن استنكاره لما فعل بعض الأتباع، حين قالوا للمريد الذي طلب لقاؤه: قف ساعة. قال: إن المرید يأتي إلى الشيخ بهمته المتوقدة، فإذا قيل له: قف ساعة، طُفئ ما جاء به. ولم يكن يحب المرید الذي لا سبب له.



لم يؤلّف كتبًا. وكان يقول: كُتِّبِي أصحابي. تخرّج على يديه كبار الأئمة الأقطاب؛ كالבוصيري، وياقوت العرش، وابن عطاء الله السكندري، والخزرجي، وابن اللبان، وابن الحاجب، وابن أبي شامة، وقجماش الظاهري، وغيرهم.

تعدّدت حلقاته الدراسية بين مساجد الإسكندرية ومساجد القاهرة. يقوم بأمر الدعوة في جامع الحاكم المقس بالقاهرة، ويُلقي دروسه فيه، ثم يذهب — كل ليلة — إلى الإسكندرية، يسمع ميعاد شيخه أبي الحسن الشاذلي، ويرجع إلى القاهرة.

قال: ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد العظيم المنذري، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلس أبي العباس المرسي.

كراماته ومكاشفاته جعلته قطبًا لأولياء المدينة — كلهم — فيما عدا أستاذَه أبا الحسن الشاذلي، الذي مات في حميثة، ودُفن فيها. تتلمذوا على يديه، ونهلوا من علمه. صاروا — لأعوام طالت أو قصرت — مرّيين له، قبل أن تتحقّق لهم الولاية في عهده، أو بعد رحيله. لكن الناس اختاروا له اسمَ السلطان، الكلمة المفردة، تنطق فتعبّر عن المعنى دون ما يسبقها أو يلحقها، ودون شرح أو توضيح. هو السلطان بمكاشفاته وكراماته وخوارقه ومعجزاته، تُحمّى الإسكندرية من شرور الفتن والزلازل والنوات وظلم الحاكمين.

هو وليُّ الله، والقطب، والسلطان. لا أحد من أولياء الإسكندرية يُدانيه في أفضاله وإعجازه.

قال أبو العباس: الولي إذا أراد أغنى، والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرةً وقد أغنيته. وقال: والله لو حُجبت عني رسول الله، ما عدت نفسي من المسلمين. وقال: لو فاتني الوقوف بعرفة، ما عدت نفسي من المسلمين. وقال: والله لو حُجبت عني جنة الفردوس طرفة عين، ما عدت نفسي من المسلمين.

قدّم السلطان على مريده أبي عبد الله الحكيم بأشموم. فلما جاء الليل، دعاه أبو العباس. دنا الرجل منه، فوضع أبو العباس يده خلف ظهره، وفعل أبو عبد الله الأمر نفسه، وتعانقا. بكى أبو العباس، وبكى الرجال لبكائه، دون أن يدري السبب.

قال أبو العباس: يا حكيم، ما جئتمكم إلا مؤدعًا. يا حكيم، سأذهب إلى المقسم لأودع أخي، ثم أعود إلى الإسكندرية، أقضي بها ليلتي، وأدخل في اليوم التالي قبري. وسافر أبو العباس إلى أخيه. أقام عنده أيامًا قليلة. ثم رحل إلى الإسكندرية، فأقام بها ليلة، لحقته الوفاة فيها، وشُيع إلى قبره في اليوم التالي. كان قد أمضى في الإسكندرية أربعةً وأربعين عامًا من حياته.

قال ابن عطاء الله: خرج من الدنيا، وما وضع حجرًا على حجر، ولا اتخذ بستانًا، ولا استفتح سببًا من أسباب الدنيا، ولا خُلف وراءه رزقة.

ظل قبر أبي العباس قائمًا وحده، دون بناء يضمه، أو أسوار تحيط به. زاره — ضمن الآلاف الذين قصدوه للتبرك — زين الدين بن القطان شيخ تجار الإسكندرية. بنى — على القبر — ضريحًا وقبة، وأنشأ جامعًا، له منارة مربعة الشكل. أوقف على مصاريف الجامع وملحقاته.

وضعت وزارة الأوقاف حجر الأساس للجامع الجديد في أوائل عام ١٩٢٩م. استغرق البناء خمسة عشر عامًا. ثم افتتحه الملك فاروق في سنة ١٩٤٤م.

لم ينقطع المدد بوفاة السلطان، ولا انتهت كراماته. أمكن له — داخل قبره — أن يرعى مرديه وأتباعه وقصّاد مقامه. قال أحد مرديه: قبر سيدي أبي العباس عندنا ترياق مجرب، ما قصد الله عنده أحدٌ في شيء إلا استجاب له.

صار مقصود الناس، يأتون إليه من الإسكندرية؛ أحيائها القريبة والبعيدة، ومن المدن والقرى خارج المدينة، يلتمسون بركاته ودعواته ومدده، مولده ثمانية أيام — بعد مولد الرسول — وليلة في منتصف رمضان، تُتلى فيها آيات القرآن، وتُنشد القصائد الدينية والتواحيش، منذ صلاة العشاء إلى منتصف الليل.

اشتهر عنه بين الناس، أنه يُجيد — حتى وهو في موته — مخاطبة الأنبياء والملائكة والجان والأولياء والموتى والغائبين والطير والحيوان والجماد. يلجأ الناس إليه، يقفون — متلهفين — أمام ضريحه، يبتونه شكاياتهم، يثقون أنه يُحسن الإنصات والتصرف، وفعل ما يجب فعله. حتى المعجزات ليست بعيدة عن قدرته. اعتقدوا فيه، ليس بينه وبين الله حجاب. الموت يُصيب البشر العاديين. أما أولياء الله الصالحون، من كانت لهم مكانة السلطان، فإنهم يملكون — حتى في وفاتهم الظاهرة — مكاشفة وبركة، وقدرة على قضاء الحاجات، ورفع الظلم، وتحقيق الدعوات، والشفاة لقاصديه. أما من يحتمي بمقامه، فإنه يطمئن إلى قدرة السلطان على حمايته، والنصفة له من تدبيرات الخصوم.

رُوي أنه لا ينام — كل ليلة — قبل أن يغادر قبره. يستعيد مألوف عاداته — قبل أن ينتقل إلى جوار ربه — يمضي ناحية ما كان موضعه باب البحر، ومنه إلى موضع فنار الإسكندرية. ينفرد — بجسد أثري — عن أهل المدينة، يسبح بخاطره بين السماء والأرض. يسير في الأنفوشي ورأس التين والشوارع والحواري والأزقة المحيطة، يطلع على أحوال الناس، يُنصت إلى ما يعانون، يلبي الخير مما طلبوا.  
لا تزال ذاكرة الناس في بحري تستعيد مكاشفة المرسي، حين انتصر للغلبة من أهل الحي، في حلم كاليقظة، أو يقظة كالحلم.

انظر: أبو الحسن الشاذلي، البوصيري، صبيحة الداخني، ياقوت العرش. راجع روايتنا «أبو العباس».



## أحمد خليل

آخر لحظات أحمد خليل في هذا العالم، عندما سقط ميتاً — وفي يده الراية — على حافة الملعب.

بعد أن اعتزل أحمد خليل لعب كرة القدم، تعددت اختياراته: يعمل إدارياً في ناديه الترام؟ يتجه إلى التدريب؟ يُمارس التحكيم، أو التعليق في وسائل الإعلام؟ أو يركن إلى حياة مغايرة؟

لم تطل مفاضلة أحمد خليل بين الاختيارات. اختار التحكيم، فلا تشغله نتائج الفريق الذي يتولّى تدريبه، أو إدارته. التحكيم يقصر مسؤوليته على تطبيق القانون. قرأ كل ما يتصل بكرة القدم، حفظ قانون اللعبة. تردّد على مقاهي شرق، والمحروسة بالإبراهيمية، وعلولة بمحطة مصر، وسالبو باللبان. يتابع المناقشات حول مباريات الاتحاد السكندري والأولمبي والترام والسواحل. يلتقط نثرَ التعليقات عن سيطرة الحكم على المباراة، أو العكس. قرأ عن مواصفات الحكم المثالي الذي أراد أن يكونه: الشجاعة، العدالة، السرعة، الحزم، اللياقة البدنية، المرونة.

التحق بدورة تدريبية، أجرى اختبارات فنية، وصحية، رشّحته للتحكيم. لم يحاول المحاكاة، أو التقليد. حرص على أن تكون له شخصيته المستقلة.

مع تعدد الروايات التي تنسب بداية تاريخ لعبة كرة القدم إلى الصين، أو اليونان، أو الرومان، أو اليابان، فإن التاريخ المؤكد لبداية اللعبة في ١٨٦٣م، حين تأسّس في إنجلترا أول اتحاد لكرة القدم في العالم. وفي ١٨٧١م أُقيمت أول بطولة للفوز بالكأس. بعدها بسبعة عشر عاماً، أُقيمت أول مسابقة للدوري. وجرّت — في ١٨٧٩م — أول مباراة دولية لكرة القدم بين فريقَي إنجلترا واسكتلندا.

كان يلعب كرة القدم في مدن العالم — زمن أحمد خليل — أكثر من مائتي مليون لاعب، يشاهد مبارياتهم الآلاف، ويتابعها الملايين من خلال أجهزة الراديو.

شاهد أحمد خليل — في صباه — مباريات نادي موظفي الحكومة بمحرم بك، ونادي الأبطال المتحدة بالقرب من مدرسة رأس التين، ونادي الحديثة المطل على المينا الشرقية.

بدأ بلعب الكرة الشراب في شارع حالابو، المتفرع من شارع رأس التين. سُمي شارع الطلبة؛ لأن أولاده من تلاميذ المدارس، ويرتدون الأحذية. كَوْنٌ — مع زملائه — فريق الطلبة. قوامه طلبةٌ في المدارس الثانوية والتجارية المتوسطة وجامعة فاروق الأول.

لعب الفريق في الساحة المجاورة للحلقة، أو الساحة الخالية في موضع سينما التتويج، أو الأرض الخلاء بين حديقة سراي رأس التين وقصر أم البحرية. تبادل الزيارات والمباريات مع فرق السيادة الرياضي، السلام والأهلي والذهبي بالجمرك، المختلط بالميرغني، الحضرة الرياضي، شباب النيل بكرموز، الناصرية بكوم الشقافة، السعادة الرياضي، سيدي جابر، المصري بالحضرة، التحرير والترسانة وباكوس بالرمل، ومع فرق قوات الإنجليز في منطقة فنارة رأس التين، وفرق المعسكرات الإنجليزية، وفرق الأسطول البريطاني في ميناء الإسكندرية.

المرّة الوحيدة التي عمل فيها شحاتة عبد الكريم حجاباً، تميمة، لمنع الفوز، لما طلب منه الفريق أن يصنع عملاً عكسياً، يُدسُّ في شبكة فريق الأسطول البريطاني.

قدّم الفريق الإنجليزي إلى بحري بصيت الأقوى. وجد فريق الطلبة في هزيمته مسألة كرامة. أن تنتهي المباريات مع فرق الأحياء بالفوز أو العكس، فالكرة مستديرة. أما اللعب مع الفريق الإنجليزي فلا يقبل سوى نهاية وحيدة.

أصرّ أحمد خليل — عند فوز فريق الطلبة بهدفين لهدف واحد — أن الفضل لمهارات اللاعبين.

ما أثاره أن بقية أفراد الفريق شاركوا شحاتة تصوّره بأن العمل العكسي هو الذي حقق النصر لهم.

عُرف عن أحمد خليل تعلّمه أصول اللعبة.

أجاد السرعة، والترقيص، واللعب بقدميه، والتوافق، والجري بالكرة، والتمرير، وتصويب ضربات الجزاء. قلّد فهمي جميعي، وكمال الصباغ، وسعد راشد، وكامل صرصار، ويسري سليمان، والديبة، والحاج شتا، وأحمد الخولي، ومحمد بيومي، وغيرهم من نجوم الكرة في صباه.

حين اختار كرم حامد الساحة الملاصقة للحلقة — في أثناء تدريب الفريق — اصطدمت الكرة بقدمه. شاطها. تابع اللاعبون — بعينيّ الذهول — طيرانها إلى أفق البحر.

قال أحمد خليل: لو أنه ينضم إلينا، سنفوز في كل المباريات! رفضت ابتهاج المنسي أن يلعب رضا أصغر أبنائها مع فريق الطلبة. إذا فشل في الدراسة، فإن مكانه بجانب في الحلقة.

لمّا أصرّ الولد على الانضمام لفريق الطلبة، حرصت ابتهاج المنسي على الجلوس على الخط، يُحيط بها اثنان أو ثلاثة من صبيانها. تشاهد المباريات. تُبدي الملاحظات. تُويّخ ابنها على إخفاقه في التسجيل، أو تعيب على اللاعب الخصم عنقه. وكانت تُنادي، وتصيح، وتشتّم. ثم صحبت الولد — في لحظة غضب — إلى خارج الملعب، فلم يُعد.

استعاد سؤال بيبي حين همس وهما يتجهان إلى الساحة، قبالة سراي رأس التين: ألا تريد العكش؟

سأل بالدهشة: ماذا؟

لم يكن قد التقى بعبد الفتاح العكش، ولا رآه، قبل أن يلتقيا في مباراة بالساحة الملاصقة للحلقة. كان ضمن فريق نسب نفسه إلى عمال الدائرة الجمركية.

قدّم العكش إلى بحري — بعد المباراة — بمفرده. براعته في المحاور، والترقيص، وتسجيل الأهداف، أتاحت له المشاركة — مع فريق شباب السيالة — في المباريات التالية. لم يتحدث عن اسمه الكامل، ولا عن عمله، ولا أين يُقيم، ولا من أين يُنفق؟ وضع نفسه خلف جدار مصمت من الخصوصية، لا تستطيع العين المتلصصة أن تنفذ منه. اقتصر أحاديثه على المباريات، ونصيبه من الدخل.

انشغل أحمد خليل — في الأيام التالية — بملاحظة العكش: القامة الضئيلة، الجبهة المسحوبة إلى الوراء، الحاجبين اللتحمين يشكّلان خطأً أسوداً فوق عينيه، خصلة الشعر المثبته بالزيت على مقدمة الرأس، الزائدة الجلدية المتدلّية من أسفل عينه اليسرى، تهدل معها الجفن، الشارب الرفيع المتدلّي على جانبيّ الفم، السنة الأمامية الناتئة بصورة واضحة. يرتدي قميصاً وبنطلوناً ضيقاً، وبنطلوناً ملوناً مفتوحاً حتى السرة، لا يُغيرهما في أيام متواصلة.

عمل عبد الفتاح العكش أعوامًا في خيال الظل. يلون صوته، يعبر عن تباين المشاعر: الفرحة والحزن والشوق واللهفة والحنين والغضب، اللهجات ما بين عامية ونوبية، ومحاكاة لجنود الإنجليز وجنود قوات الحلفاء.

تنقل بين الموالد والأعياد، في ميدان المساجد، وبالقرب من الحلقة، وإلى جانب المحكمة الوطنية، وفي سوق العيد بميدان الخمس فوانيس.

بعد أن اختفى خيال الظل بظهور السينما، عمل العكش في الأراجوز. يضع الصفيحة في حلقة، يُدير الحوار بين الأراجوز الزوج والزوجة، يتعاطبان، يتشاثمان، يتعاركان، يستجيب العكش لضحكات الجمهور، وتعليقاته، ومطالبه بالإعادة.

عمل مهرجًا في تياترو أحمد المسيري. دوره بين الفقرات. يتقافز على المسرح، يدخل رأسه في جسده، يتشقلب، يتبادل النكات مع الجمهور، يتشابك بالقافية، يُجيد الرد على التعليقات، تُسعهف بديهته بما يفرض الصمت.

لم يجد عبد الفتاح العكش حرجًا في تذكُّر أول علاقة له. كانت مع ريس الصيادين نصار مطاوع زوج ابتهال المنسي.

التقيا أمام سينما الكونكورديا القريبة من ميدان المنشية. صحبه إلى الطابق الثالث في الدار الشبيهة بدار أوبرا. اختليا في الظلمة، وانشغال القلة من المشاهدين بمتابعة فيلم ذهب مع الريح لكларك جيبيل وفيفيان لي.

رسم على وجهه ابتسامة للسؤال: لمن القيادة في الفعل؟  
قال في نبرة متواطئة: مَنْ أَنَّى يُؤْتَى!

يتحدث عن أشواق جنسية، تجتاحه، تهبط به إلى الطريق. يتلفت حوله. يلتقط الملامح التي يتصور استجابتها، يغالب التردد، ويهمس بمطلبه. يتمنى الموافقة، وإن فرضت الاحتمالات — في اللحظة التالية — نفسها. حتى الإهانة والشتم والضرب، اعتادها. صارت من ردود الأفعال المتوقعة.

صحب ولدًا إلى داخل قلعة قايتباي. أغواه بالفاحشة ما سرى في ساحة القلعة وطوابقها من الهدوء.

وهو يفك حزام بنطلونه، ترامى صوتٌ من ناحية ضريح سيدي الأنفوشي: أَمَا تستحي من ولي الله؟!

جرى العكش بأخر ما عنده. سبق الولد إلى خارج القلعة، دون أن يحاول حتى التلُّف ناحية الصوت.



لمَّا تحدّث الشيخ عبد الستار عن وجوب إلقاء اللوطي من شاهق جبل، ويُتبع بالحجارة، كما فُعل بقوم لوط، قال حميدو شومة: هذا هو العكش، أستبدل بشاهق الجبل شاهق الصخرة، وألقيه من فوقها.

وضرب راحته بقبضته: لولا أنني لا أقتل!

كان أحمد خليل يحرص على عدم ملامسة العكش في اللعابات المشتركة، ربما ترك له الكرة، يحاور بها لاعبًا آخر من فريقه، لا ينطلق بمفرده.

قصد الشيخ عواد القدوسي إمام جامع نصر الدين. استعصت الكلمات، فلجأ إلى التعبير بيديه، وهو ينفذ رأسه كالمعتذر: ما عقاب مرتكب الفعل؟

أوماً الشيخ دلالة الفهم: الأحاديث في ذم الفعل كثيرة. هو من الكبائر، وأجمعت الصحابة على قتل الفاعل، وإن اختلفوا في كيفية قتله!

واتجه إلى أحمد خليل بنظرة مستريية.

وشئ صوتُ أحمد بالاستياء: إنه شخص أكرهه!

خطر لأحمد خليل وهو يجري بالكرة، أن يشوطها بين ساقَي العكش. يُخلصه مما يُثير حنقَ الناس وسخطهم.

لم يُعد يشغله الانتصار ولا الهزيمة. كبرت في مخه أن يبتعد العكش عن مباريات الساحة، يهزم فريقه بما يدفعه إلى حلّه.

هو ليس من أهل بحري، ربما يذهب فلا يعود.

تردّد أحمد خليل في الرد على مناداة بببي من بئر السلم. تصوّر أنه سيُعيد عرضه بلقاء العكش.

كزّر بببي نداءه. اكتفى أحمد خليل بالوقف المتسائلة، في البسطة المطلة على بئر السلم.

– هل تُلاعب فريقًا من القاهرة؟

استطرد لنظرته المندهشة: ليس ناديًا ... إنهم مجموعة لاعبين، يريدون تغطية تكاليف المصيف.

– من يدفع لهم؟

– يحصلون على نسبة أعلى من إيراد المباراة.

قبل أن تبدأ المباراة، انتحى به بيبي: لا داعي للجدية الزائدة.  
ثم وهو يُبدي قلة الاكتراث: هؤلاء لاعبون كبار، يجب أن يفوزوا!  
- فإذا هزمتهم؟

- لن نهزمتهم!

وحكَّ أنفه بإصبعه: هذا شرطهم للعب.

قال أحمد خليل في استغراب: لماذا؟

زوى عينيه في هيئة مَنْ لم يتوقع السؤال: يكفي أنهم أتاحوا لنا فرصة اللعب أمامهم.

- لماذا لا يكون اللاعب هو الفيصل؟.

- وافق زملاؤنا على الشرط!

شعر - بانقضاء الوقت - أن هزيمة فريقه وشيكة، وأن انتصار لاعبي القاهرة يقترب. تحور لاعبو الفريقين في هيئة العكش، كأنهم قد صاروا هو، أو كأنه قد صار هم. اختلطت الملامح، وشحبت، وتشابكت.

رفض فكرة أن يترك المباراة للاعبي القاهرة.

لماذا المباراة إذن ما دامت الهزيمة مفروضة على فريقه؟ لماذا لا يحاول الفوز؟

لم يعد أمامه سوى أن يهزمه، يهزمتهم.

اندفع في المحاوره، وفي محاولة تحطّي لاعبي فريق العكش، وفي استخدام رجليه في الشوط على المرمى.

لم يأبه بلامسة العكش في المحاوره، ولا محاولات انتزاع الكرة من قدميه، ولا حتى دفعه. لا بد أن يحاوره، ويتخطاه، ويندفع نحو المرمى.

لاعب، وحاور، وانطلق نحو المرمى، وسدّد في المرمى، وسجّل هدفين.

مات العكش وهو يُطارِد ولدًا في البحر. غرِق وهو يهْمُّ بالوقوع عليه. ناب في الأمواج كما يذوب الملح في الماء.

ضم أحمد خليل شفقتيه يُغالب ضحكة: مات وهو يؤدي وظيفته!

قال بيبي: مَنْ يدري، غرقه قد يجعله شهيدًا.

قال أحمد خليل: فليحاسب السمك الذي أكله.

قال بيبي: حتى لو أكله السمك لا بد أن يُحاسب!

استعاد أحمد خليل قولَ الشيخ عبد الستار في خطبة الجمعة: إذا كان لامرئ أن يُقذف في النار مرتين، فهو اللوطي!  
شغل أحمد خليل السؤال: مَنْ ابتلَعته الأمواج، وأكله السمك، كيف تجتمع أجزاءه لِحَاسَب؟

قال الشيخ جميل أبو نار إمام أبي العباس: خلقنا الله من نطفة، ومن نطفة يُعيدنا إلى الحياة!

ولجأ إلى يديه في التعبير: إذا نُفخ في الصور، خرج أهل القبور والغرقى وَمَنْ أكلتهم الوحوش والذين احترقوا وصاروا رمادًا. خرجوا جميعًا على هيئاتهم الأولى، ورجع كلُّ نبي روح إلى جسده بإذن الله تعالى.

ظَلَّت الفكرة تشغل أحمد خليل: الأسماك التي أكلت العكش، أكلها البشر والأسماك. ثم أكلت الأسماك الأكلة أسماك أخرى، أكلتها أجيال تالية، ووُضعت على موائد البشر. هكذا، إلى غير نهاية.

أي صور يجمع كلُّ ذلك؟!  
خشي الاتهام بعدم تثبيت الإيمان، والكفر، والسؤال فيما قد يجني منه شرًّا.  
اكتفى بتقليب الأمر بينه وبين نفسه، حتى نسيه تمامًا.

مالَت الشمس إلى الغروب.  
أبطأت خطوات أحمد خليل، ضعفت تصويباته، شحبت قدراته في المحاورَة والترقيص والتمرير.  
اختار التحكيم.

شارك في الدورات المتخصصة. التحق بمعسكر الحكام الدوليّين. تابع المحاضرات عن آخر قرارات الاتحاد الدولي، وعن التعديلات التي أُدخلت على قانون التحكيم. حاول تنمية معارفه بمشاهدة المباريات المحلية، والأجنبية، وتحليلها، وسماع الوصف، والتعليقات، وقراءة كتب كرة القدم، وحفظ القواعد الفنية والخطبية والقانونية. عُني بالمحاضرات الطبية عن الصحة العامة والتشريح والتغذية واللياقة وإصابات اللاعبين. تدرَّب على الجري الخفيف، والجري السريع، والجري بتغيير السرعات، وعلى التحمُّل، والمرونة، والتوافق، والحركة، وإجادة التركيز، والانتباه.

أهل البحر

استغرقه الأمل في أن يدخل القائمة الطويلة. يسافر للتحكيم في دول أخرى.  
فاجأه الموت — ذات عصر — وهو يقف على الخط، حاملاً للراية في مباراة بالدوري  
العام.

انظر: ابتهاج المشي، أحمد المسيري، حميدو شومة، شحاتة عبد الكريم، عبد الستار،  
كرم حامد.

## أحمد المسيري

عرفت الإسكندرية فنَّ التشخيص، التمثيل، قبل قيام الثورة العربية (١٨٨١م). شاهد أبناء المدينة عروضاً لأديب إسحاق وسليم نقاش والخياط، في سرادق بميدان المنشية، مأساة تبدأ بالحب، وتنتهي بالميلودراما. تكوّنت فرقة مسرحية لسلامة حجازي وأمين عطا الله وغيرهما، أسهمت في صنع بدايات سيد درويش المسرحية الغنائية. كانت نظرة الناس إلى فن التمثيل أنه بدعة سيئة، تخالف شريعة الدين، ومبادئ الأخلاق.

تطور فنُّ المسرح، فيما بعد. أضاف إليه — على نحوٍ ما — دخول السينما، والإذاعة. تعددت دور السينما، إلى جانب المسارح، ونشطت الإذاعات الأهلية، قبل أن تبدأ الإذاعة الحكومية إرسالها.

أرهمت الوقفة أحمد المسيري — وإن أسعدته — في الصالة المطلّة على مسرح فندق سان استيفانو. غنّى محمد عبد الوهاب في ليلة من صيف عام ١٩٢٤م: لم تكن حفلةً عادية؛ فقد بدأ فيها تعرّف عبد الوهاب إلى أحمد شوقي.

في بحري ثلاث دور للسينما: رأس التين. تطل على شارع صفر باشا، بالقرب من طريق الكورنيش. تقدم الأفلام العربية في عرضها الثاني. تجزئ — قبل الاستراحة — أفلام المغامرات الأمريكية مع أفلام الكارتون. الدار الثانية هي الأنفوشي. واجهتها تطل على خليج الأنفوشي، ويختفي معظمها خلف مطحن شيمي بك بطريق الكورنيش. الدار الثالثة هي التتويج، نسبةً إلى تتويج الملك فاروق عند توليه العرش. اسمها من اسم الشارع الذي

تقع فيه. قبالة مطعم الطنطاوي للقول والفلفل. أُقيمت موضع الساحة الترابية التي كانت تُقام فيها مباريات كرة القدم بين فرق الأندية الصغيرة. تعرض الأفلام نفسها التي تعرضها الأنفوشي ورأس التين، ربما لأنها تبعد عنهما نسبيًا.

قيمة تذكرة الدخول في الدور الثالث قرشان وثلاثة قروش. غالبية روادها من الشباب. يدخلون — في الأغلب — بعد الإظلام، للبحث عن كرسيين متجاورين بعيدًا عن رقابة الأسر، ونظرات أهل الحي.

يعتز أحمد المسيري بأنه شاهد أول عروض السينما في مصر، في الخامس من نوفمبر ١٨٩٦م، في صالة ببورصة طوسون باشا، بعد أقل من سنة واحدة لعرضه في باريس.

تياثرو المسيري في ليالي رمضان وعيدي الفطر والأضحى، استثناء للفرجة، يتوقعه بحري، وينتظره.

يُعد أحمد المسيري لعروض فرقته من قبل رمضان إلى ما بعد عيد الأضحى. في بداية كل صيف، قبل رمضان، قبل عيد الأضحى، تقف عربات النقل أمام السرادق الخالي بشارع التتويج. يُنزل العمال ما بها من معدات وتجهيزات وكراسٍ. يُشرف — بنفسه — على نصب الأعمدة والخيمة الهائلة المزينة بالنقوش. يمتد السرادق — واسعًا — في الساحة الخالية بشارع التتويج.

أمام مدخل السرادق، عازف البيانولا يجتذب الجمهور بألحان راقصة، إلى جانبه غازية تهزُّ جسدها (رفضت نعمات أن تقف لهذا الأداء)، والبلدياتشو القزم يُرافق صوته رنين الجرس في يده.

يتوسط التخت في صدر السرادق. على اليمين الآلاتية: العود، وعازف القانون، وعازف الكمان، وعازف الناي. على اليسار: الرقّاق، والدفاف، والمذهبجية، أو السنيدة. يميل المسيري إلى الدفاف، يعتبره أساس التخت. يحرص على تقديم المغنّين ذوي المواهب الصوتية، والقدرة على الأداء السليم.

تبدأ الفرقة بعزف البشرف: قطعة موسيقية، يتشارك فيها العود، والقانون، والكمان، والناي، والدف. تُعد الآلاتية لعزف التقاسيم على الآلات الموسيقية. تسبق الوصلات الثلاث. الوصلة تشمل الأغنية والمقطوعة الموسيقية والرقصة والمونولوج والاسكتش والفاصل الفكاهي والمشهد الصامت وحوار القافية وفقرة الساحر. هو ما تُقدمه الوصلتان التاليتان. الاختلاف في نوعية المؤدين والفقرات.

يُهد لأغنية الوصلة الأولى بموال، لا يتقيد بضرب ولا وزن، ما تواتيه به البديهة، عفو الخاطر.

يبدأ العرض بأغنية محمد عبد الوهاب: يا لي زرعوا البرتقان ... يا الله اجمعه ...  
آن الأوان ... يا الله يا الله.

ينتهي العرض بالأغنية نفسها، يؤديها كلُّ المشاركين في العرض: المغنون، والراقصات، والآلاتية. حتى العمال يقفون وسط الصفوف الثلاثة بامتداد خشبة المسرح، يُرددون أغنية عبد الوهاب.

أدرك أن الجمهور يميل إلى الغناء والرقص أكثر من ميله إلى التمثيل. حرص أن تتخلل الأداء التمثيلي رقصاتٌ وأغنيات ومونولوجات وطقاطيق، تأخذ معظم مساحة العرض.

يعتبر أن غناء المجموعة لا يقل في قيمته عن الغناء الفردي. إنها لون الغناء الرئيس في حياتنا، في الغيطان، وعمليات البناء، والتجمعات.

عُرف عنه قدرة مذهلة في تأليف الإسكتش الغنائي، أو البرنامج التمثيلي الغنائي، وتلحينه، وإخراجه، في يوم واحد.

أجاد محاكاةً محمد رفعت في تلاوته. حَفِظ قراءاتِ علي محمود، ومصطفى إسماعيل؛ وألحان سيد درويش، وعبد الحمولي، ويوسف المنيلوي، ومحمد عثمان، والشيخ المسلوب، وسلامة حجازي، وداود حسني، وزكريا أحمد، ومحمد القصبجي (اعتبره من أبرز عازفي العود، له قدرة في العزف لا تقل عن ابن سريج وإسحاق الموصلي وإبراهيم المهدي وزرياب)، ومحمد عبد الوهاب؛ وأغنيات منيرة المهدي، والحاجة السويسية، والكمسارية، ونزهة، وتوحيدة، وصالح عبد الحي، وأم كلثوم، وفتحية أحمد، وليلى مراد. أحبُّ مسرحيات نجيب الريحاني، وعلي الكسار، وفاطمة رشدي، وأفلام كمال سليم، وصلاح أبو سيف، وحسن الإمام، ونيازي مصطفى؛ ورقصات تحية كاريوكا، ونبوية مصطفى، وسامية جمال.

تعزف الفرقة الموسيقية ألحاناً شعبية وتقاسيمَ من أغنيات الفترة. تُقدِّم الموسيقى والغناء والتمثيل والاستعراض والرقص والأزياء الملونة وهتافات المطيياتية والأخذ والرد مع الجمهور في القاعة. ما يكتبه المؤلفون خيال مائة، عليه أن يُلبسه ما يجتذب الناس، ما يُثير إعجابهم وتعليقاتهم وضحكاتهم. ثمة رباط، جسر، يصل بين الممثلين على خشبة المسرح والجمهور في الصالة. يترشقون بالتعليق والنكتة والقافية.

عازف الكمان يقدُّ — بالأوتار — أصواتَ الطير والحيوان فوق الأشجار، وفي الطريق الزراعي، وعلى ضفاف الترع.

يرفع الساحر كوب الماء، يرشُّ ما بها دون أن يلمسها. يقذف المرأة ذات المايوه بالخنجر، يُخطئها، يعاود القذف مرة ثانية، وثالثة، يكاد الخنجر يلامس جسدها، لكنه لا يُصيبه. يقفز البهلوان، يدور حول نفسه، يمشي — بأطراف أصابعه — على السلك المشدود. إذا اختل توازنه، أو انزلقت قدمه، سقط على خشبة المسرح.

أعاد تقديم مسرحيات علي الكسار: البربري في الجيش، الهلال، فلفل، القضية ١٤، فهموه، أحلامهم، عثمان حا يخش دنيا ... قلد شخصية الكسار في دور البربري. وصف نفسه بأنه «أكبر كوميك بربري».

قدّمت الفرقة مونولوجات لمحمود شكوكو، وفصولاً تمثيلية، أداها حامد مرسي، وعقيلة راتب، وسيد سليمان، وعبد العزيز أحمد، ورتيبة رشدي، وبشارة واكيم، ولطيفة نظمي، وماري منيب، وسعاد حسين، وزكي إبراهيم، وعبد الحميد زكي، وفيكوريا كوهين، والمخرج توجو مزراحي.

ربما استعان في فرقته براقصات، يُحسن اختيارهن من الكازينوهات المطلّة على الكورنيش. روميات وإيطاليات وأرمينيات. يبرعن في الإثارة بما تعجز عن أدائه، حتى نساء كوم بكير.

عُني بملاحظة الفرق التي تعرض في الإسكندرية: فوزي الجزائري، فوزي منيب، علي لوز، خميس سكر، إبراهيم كحلة، حمامة العطار. أضاف إلى فرقته ما يجتذب المشاهدين.

زاد — في يومَي الخميس والأحد — حفلتي «ماتينيه» للأسر، وحفلة «ماتينيه» يوم الثلاثاء، للنساء فقط.

شدّد على أفراد الفرقة، لا يقبلون النقوط إلا بعد أن تنتهي «الوصلة». للمشاهدة تقاليدها.

قدّمت الفرقة أعمالها على قهوة فرنسا المطلّة على المينا الشرقية. وأقام المسيري سراقده — أحياناً — في موضع شادر البطيخ المجاور للمحكمة الوطنية.

قدّم عروضاً لحساب شركة «كوتاريلي» للدخان — اقتصر جمهورها على المدخنين الفائزين في مسابقات الشركة — وعروضاً في كازينو زيزينيا ومسرح الماجستيك.



تعددت حفلات الفرقة في أحياء الإسكندرية، وفي مدن قريبة وبعيدة: كفر الدوار، دمنهور، دسوق، طنطا، أسيوط، أسوان. يفضل المدن ذات الأولياء. يعرف أهلها السعي إلى الموالد والمناسبات الدينية. يجعل من عروض فرقته جزءاً من هذه المناسبات.

لاحظَ عازف العود سيد عكاشة انشغالَ المسيري بقراءة أغنيات لاستعراضات الفرقة، أزجال وقصائد يُودعها درج مكتبه. يُخرجها حين يبدأ في الإعداد لاستعراض جديد. يُعيد تقليب حتى ما سبق له قراءته. أظهر الحيرة: هل عقلت الإسكندرية؟ أين التونسي وحسين السيد ورامي ومأمون الشناوي؟

قال سيد عكاشة: إذا جاء اللحن جيداً فلا قيمة للكلمات.  
وفي نبرة مؤكدة: اللحن وحده يصنع الأغنية الجميلة أو العكس.  
ثم وهو يُشبح بيده: الكلمات لا أهمية لها!  
قال المسيري: أنت تُعيدنا إلى ما قبل سيد درويش.  
وهزَّ إصبعه: لم يكن الغناء أيامها يهتم بمعاني الكلمات.  
قال سيد عكاشة: نحن نغني لجمهور طياري تشغله الفرقة!  
عرف عن سيد حلال عليه مهارته في الرقص بالعصا والكرسي، وأنواع الخدع والألعاب السحرية. عرض عليه أن يقدّم فقرة ضمن برنامج الفقرة.  
قال سيد حلال عليه: أرقص لأرضي مزاجي!

لم يكن أحمد المسيري حزيناً، مثلما كان عليه حاله عندما أُشيع نبأ زواج أم كلثوم والملحن محمود الشريف. داخله شعورٌ بالخواء لم يشعر بمثله من قبل.

قال في لهجة متناقلة: أخذها الشريف مني!  
تحدّث عن الشريف منذ أنهى الدراسة الابتدائية، اصطحابه لشقيقه في بيع البطيخ، انضمامه — لاعب مصارعة حرة — إلى نادي باكوس الرياضي، وقوفه في دكان عم فرج بائع الأسطوانات، تعلّمه عزف العود في صالون الأسطى ببيع الحلاق، خطواته الأولى في التلحين متأثراً بسيد درويش، وأغنيات كبار مطربي الفترة، التحاقه بمعهد الموسيقى العربية، عمله في الفرق المسرحية والغنائية ليصبح — في مرحلة تالية — ملحناً لفرقة أحمد المسيري. جعله المسيري ابناً وتلميذاً. علمه الفرق بين غناء الطرب والغناء المسرحي. بعث الثقة في نفسه، وقصر ألحان الفرقة عليه.

يكتب زكريا الحجاوي أغنية الافتتاح — استبدل بها، فيما بعد، أغنية «يا لي زرعوا البرتقان» — وأغاني الاستعراضات، يُلحنها المسيري. رتيبة بهجت — زوجته — تؤدي أغنيات منفردة، وتشارك في الاستعراضات القصيرة. وفي لهجته المتناقلة: لو أنه لم يحترف التلحين، ويسافر إلى القاهرة، ما أُتيح له لقاء أم كلثوم. ثم وهو يُمسد رأسه براحتيه: كنت أقرب إليها من الجميع.

كأنما أيقظته ملاحظة حجازي أيوب من حلم: صوت المغني عمره قصير ... لماذا لا تجرب التلحين؟

كان أحمد المسيري يطرب للأداء الجميل، وصوت الناي، وعزف الكمان، وتلاوة الشيخ محمد رفعت. يميل إلى نغمة السيكا. يثق أن الغناء بدونها لا يحقق المتعة التي يحدثها الطرب. وإن عاب على ألحان رياض السنباطي أنها تقتصر — أو تكاد — على نغمة السيكا. هو رياض السيكاني.

أعاد سماع ألحان سيد درويش.

أصاخ لها سمعه بغير ما كان يستمع إليها: اختلاط التواحيش والإنشاد والأهازيج والأنشيد والأدوار والبشارف والمواويل، الأغنيات المتوائمة الكلمات والألحان، البساطة، الصور الشعبية المرتبطة بالطقوس والعادات وسلوكيات الحياة اليومية، البعد عن الاستغراق في القدرات الفنية والتعقيد اللحني، العناية بالعنصر الإيقاعي.

يرى أن عبد الوهاب — وليس سيد درويش — هو الذي نقل الموسيقى العربية من السماعيات والبشارف والتقاسيم الحرة، على الناي والعود والقانون، إلى الألحان المعبرة، المتوافقة الكلمات والنغمات. لكنه أشفق على المسرح الغنائي من انتشار الأغنية الفردية. كبار المطربين يكتفون بالغناء الفردي، لا يشغل أم كلثوم ولا عبد الوهاب ولا الأطرش ولا ليلى مراد أن يقدموا أعمالاً للمسرح الغنائي. أشفق من ذوبان الفروق بين الدور والطقوقة والمونولوج.

ما حدث، ما فطن إليه فجأة، وبدل حياته تمامًا: زكريا الحجاوي مؤلف أغنيات الفرقة يحب رتيبة بهجت.

هل تحبه هي أيضًا؟

نسي الفرقة والكلمات والألحان والأسفار. فقد الشعور بالاتجاهات. لم يُعد يدرى إلى أين يمضي على وجه التحديد. شعر أنه يفرُّ من مجهول لا يعرفه، لا يعرف ما هو، ولا لماذا يطارده.

نظرات الحجاوي القلقة، المتابعة، وشت بما يُضمّره من حب لبطلة الفرقة رتيبة بهجت، زوجة أحمد المسيري.

قال لنفسه: كنت أظن أننا نمثّل الحب المحرم على المسرح. وترقرقت في عينيّه نظرة دامعة: لكن زكريا الحجاوي جعله في حياتنا. لم يأخذ على زوجته ما يعيب، ولم يجد في نظرات الحجاوي ما يؤاخذه عليها. أزمع أن يُعلق عليه — وزوجته — باب البيت. يكتفي بما جناه من رحلة الفن، والحفلات، والأغنيات الفردية، والاستعراضات، والسراقات، والانتقال من مدينة إلى مدينة:

وعدي علينا ياممثلين

سهر ليلاتي بقى لنا سنين

ممثلين وملحنين

وعدي علينا

استعاد المسيري نفسه، بعد أن خلا إليها أشهرًا طويلة. أزمع أن يُنشئ معهدًا لتدريس الموسيقى. اختار له شقّة خلف سراي الحقانية، تُطل على زحام سوق راتب.

وضع تصورًا لمسرح جديد، مكتمل المواصفات، امتداد لفرق نقاش وخياط والقرداحي والقباني وإسكندر فرح وسلامة حجازي وعطا الله وعزيز عيد والشامي. اختار له موضع الأرض الخلاء المجاورة للمحكمة الوطنية.

أسند مهمة التصميم والتنفيذ لمكتب استشاري بشارع شريف. التكييف مركزي. خشبة المسرح واسعة، ذات مستويات متعددة، تصلح للعروض الاستعراضية والغنائية، ثمة مقصورات لكبار الزوار، ومقاعد الصالة من القטיפيّة الفاخرة، إلى جانب مقننات من مسودات المسرحيات وأوراق كلمات الأغاني ونوت الألحان، وملاحظات الإخراج وتوزيع الأدوار. على جدران الطرقات والردهات صور للفنانين المشهورين: سيد درويش، منيرة المهديّة، جورج أبيض، سلامة حجازي، علي الكسار، نجيب الريحاني، بديع خيرى، عزيز عيد، فاطمة رشدي، أم كلثوم، محمد عبد الوهاب، الإضاءة مباشرة وغير مباشرة، غرف

نجوم الفرقة مستقلة، أهمها غرفتان له ولرتيبة بهجت، غرفة «إكو» لبروفات الفرقة، كمبوشة — غير ظاهرة — للملقن، موضع أسفل المسرح للفرقة الموسيقية. حتى ما ينبغي أن يلتزم به المسرح من التقاليد، سجله في نوتة صغيرة: الدقة الثالثة — قبل رفع الستار — تُعلن بدء العرض في موعد محدد، تمنع دخول الأطفال الرضع، وقزقزة اللب، وتدخين السجاير، والتعليق على العرض، والدخول في قافية، والوقوف في الطرقات، وبين المقاعد، ومرور الجرسون بمشروبات، والنداءات. قال في نبرة حزينة: أصبح بحر الأغنية ملغًا للقراصنة! ثم وهو يهزُّ قبضته: لا بد من استعادته!

انظر: حمامة العطار، سلامة حجازي، سيد حلال عليه، سيد درويش، فاروق الأول، نعمات.

## الإسكندر الأكبر

في عام ٣٣١ ق.م. وقف الإسكندر المقدوني في موضع التقاء قرية راقودة (التسمية بالعربية، والتسمية بالإغريقية هي راکوتيس) وجزيرة فاروس.  
قال لمهندسه دينوكراتيس: أريد أن أبنِي هنا عاصمةً ملكي!  
ترك الإسكندر مهمةً بناء المدينة لمهندسيه، وللعامل المصريين. استأنف رحلة فتوحاته في بلاد العالم القديم.

وُلد الإسكندر في ١٩ يوليو عام ٣٥٦ ق.م. في مدينة «بيلا» القديمة بمقدونية. أبوه فيليب الثاني ملك مقدونية. أمه أوليمبيا. ظل — أعوام طفولته — في البلدة الجبلية التي كانت عاصمةً لملك أبيه.

سماه أبوه الإسكندر. معنى التسمية باليونانية «مساعد الناس». عهد بتربيته — وهو في الثالثة عشرة من عمره — إلى الفيلسوف الإغريقي أرسطو. لازمه الإسكندر أربع سنوات. ثم استمرت صلته به بقية حياته، يستمع إلى نصائحه، ويُفيد مما يقتنع به منها. رفض فيليب أن تظلّ بلاد اليونان مقسّمة إلى دويلات مستقلة، تُعاني الضعف، والتشرذم، وتأثيرات الحروب فيما بينها، وتهديدات الدولة الفارسية الأقوى. أوكل فيليب لنفسه مهمةً توحيد الدويلات المتفرقة. استولت قواته عليها، واحدة بعد الأخرى، حتى قامت الدولة الواحدة.

قُتل فيليب — غدرًا — في عام ٣٣٦ ق.م. فخلفه ابنه الإسكندر، وهو في العشرين من عمره.

كان الإسكندر قد أفاد من دروس أرسطو ونصائحه وتعاليمه، وشارك أباه معاركه منذ السابعة عشرة من عمره، وأخذ عن أبيه فكرة الدولة الواحدة للإغريق، ومواجهة خطر دولة الفرس.

أنهى دروسه على يدَي أستاذه أرسطو. قال: أُعد نفسي لاكتشاف العالم.  
رفع أرسطو حاجبيه بالدهشة: كيف؟  
وهو يهزُّ قبضته: بقوّتي!

كان الإسكندر على يقين من انتسابه إلى الآلهة، آلهة الأولمب وآلهة آمون. أمه أولمبياس هي التي حدّثته عن بنوته للإله آمون، ونصحتّه — عندما تبلغ حملته مصر — أن يسافر إلى معبد الإله آمون، ومركز نبوءته في واحة سيوة. المعابد والمذابح والكهنة والطقوس الدينية التي تهبّ الحق في أن يكون ابناً للآلهة.

حين زار الإسكندر معبد آمون، طالعه طيف، حدس الإسكندر أنه هو الإله نفسه.  
قال: إنني أعدك بأنك سوف تملك البلادَ كلّها، وتخضع لك جميعُ الأديان.

هذه هي القوة التي سيخضع بها العالم. قوة البشر لا تستطيع أن تنفّذ ما يحلم به، لا يستطيع ذلك إلا الآلهة. هو — بدلائل ميلاده في مقدونيا، ومباركة كهنة آمون في سيوة — ابنُ للآلهة. يستعيد ما كاشفه به أولمبياس عن سلالته الإلهية، ونسبته إلى الإله آمون. أيقن أن الآلهة ترعى خطواته، وتُسانده، لما وفق في حلّ العقدة التي تربط جزأَي المركبة المودعة داخل معبد زيوس بمدينة قورديون. ما كان يتناقله الكهان أن المرء الذي يحلُّ العقدة سيُصبح سيِّداً لآسيا.

التفّ من حوله الكهنة والقادة، يرفضون تصوُّر أنه سيحلُّ العقدة المستحيلة. لجأ إلى قوة الآلهة، ما زوّدته به، وميّزته عن بقية البشر.

أهمل تحريك الأصابع في العقدة بما يُضيع وقتاً، ولا يثق في نتيجته. هوى بسيفه على العقدة فحلّها. الذكاء من قدرة الآلهة.

أدرك الجميع أن الإسكندر حلّ العقدة بطريقته الخاصة، وأنه سيكون له طريقته في حل المشكلات التي تُواجهه. ما يحمله المستقبل من توقعات تعرفها الآلهة وحدها.

أرسل الإسكندر جيوشه إلى الشمال والجنوب. قضى على تفتّت الدويلات الإغريقية، ثم انطلق في أهم أعماله: دحر الغزو الفارسي الذي هدد بلاده، وجعل حرية الأسطول الفارسي — في البحر المتوسط — مستحيلة عبر بوغاز هلسبنت (الدردنيل) في ربيع ٣٣٤ ق.م. بقوات من المشاة والفرسان. هزم ما التقى به من جيوش الفرس بالقرب من شواطئ

مرمرة. استعاد الأقاليم الإغريقية على الشاطئ الغربي للأناضول. ثم التقى عند مدينة «إيسوس» — على الحدود السورية — بجيش داريوس ملك الفرس. دحره إلى بابل، وإن لم يتعقبه. استهدف الاستيلاء على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط، حتى بلغ الحدود المصرية الشرقية. كلما فتح مدينة أو إقليمًا قدّم القرابين للآلهة، وأقام الحفلات الدينية. كانت مصر خاضعةً لحكم الفرس، يُعاني أهلها ويلات احتلالهم.

لما دخل الإسكندر مدينة بيلوز (الفرما) في خريف ٣٣٢ ق.م. رافقه في حملته آلاف الضباط والجنود، وأعداد من العلماء والفلاسفة والشعراء والممثلين. وجد فيه المصريون حليفًا ينتصرون به على المحتل الفارسي. استسلم الوالي الفارسي دون مقاومة.

دخلت جيوش الإسكندر — وسط تهليلات المصريين وترحيبهم — حتى بلغ العاصمة منف. مضى في موازاة فرع النيل الكانوبي إلى مدينة كانوب (أبو قير) مارًا في طريقه بمدينة نقراتيس. حتى بلغ القرية الصغيرة المطلّة على البحر «راقودة».

كانت فاروس جزيرة صخرية يتردد عليها الصيادون والملاحون. يرسون بسفنهم في خليجها الصغير. يأخذون حاجتهم من الماء العذب. وكانت الجزيرة تمثّل حاجزًا طبيعيًا، يحمي السفينة من أمواج البحر، ونحر مياهه.

رُوي أن الإسكندر رأى — فيما يرى النائم — الشاعر اليوناني القديم هوميروس. أنشد الشاعر قصيدةً، قال فيها:

هناك ... في وسط البحار التي تعوم فيها مصر ...  
قامت جزيرة فاروس ...  
التي يعرفها الجميع.

صاح الإسكندر من نومه، واتجه لرؤية الجزيرة. بدت لسانًا أرضيًا، طولُه أكبر من عرضه، تقوم بين البحر وبحيرة من الماء، وتنتهي بمرفأ كبير.

يقول ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: «وقبل أن يبدأ الإسكندر في بناء المدينة، رأى في منامه كأن رجلاً قد ظهر له من الهيكل وهو يقول له: إنك تبني مدينة يذهب صيئها في أقطاب العالم، ويسكنها من الناس ما لا يُحصى عددهم، وتختلط الرياح الطيبة بهوائها، ويثبت حكم أهلها، وتُصرف عنها السموم والحرور، وتطوى عنها قوة الحر والبرد والزمهرير، وتبعد عنها الشرور، حتى لا يصيبها من الشياطين خبل، وإن جلبت عليها ملوك الأرض بجنودهم وحاصروها، لم يدخل عليها ضرر.»

أراد الإسكندر بإنشاء مدينته أن تُصبح امتدادًا لحضارة الإغريق، ويسيطر — من خلالها — على شرق البحر المتوسط، فضلًا عن الهدف النهائي: توحيد العالمين الشرقي والغربي.

وجد في فاروس موضعًا لإنشاء مدينة، هي العاصمة لإمبراطورية يحلم بها. الجزيرة صغيرة، يصعب أن تنشأ فوقها عاصمة إمبراطورية الحلم. لجأ إلى الآلهة يستشيرها فيما ينبغي فعله.

نصحتَه الآلهة أن يصل الجزيرة بقرية راقودة في الطرف الآخر، القريب. المنطقة الساحلية التي تضم راقودة وفاروس (ذكر هوميروس فاروس في الأوديسا) أنسب المواضع لمدينة بحرية، هي الأقرب إلى بلاد اليونان، ومقدونية، ومواني البحر المتوسط. عاصمة لمصر بدلًا من منف، بدايةً لاتجاه البلاد نحو الشمال. تمتد بين شاطئ البحر شمالًا، وبحيرة مريوط جنوبًا، وهي بحيرة متسعة، ترسو فيها السفن النهرية، ويسهل وصلها بالنيل، ببعض القنوات.

أشار الإسكندر إلى نهاية اللسان، وقال: أريد أن أبنّي هنا عاصمة ملكي. صار للمدينة — بعد إنشائها — ثلاثة موان: الميناء الغربي، وهو الميناء الحربي، والميناء الشرقي، أو ميناء العود السعيد، وهو الميناء التجاري والسياحي. أما الميناء الثالث، فموقعه على شاطئ بحيرة مريوط، تصل الإسكندرية عن طريق فرع النيل. قال له صوت أولمبياس: تأهب في بلد الأسرار هذا إلى ملاقاتك أبيك الحقيقي. جاءت الساعة التي قررها القدر.

مضى الإسكندر من ناحية الصحراء الغربية إلى واحة سيوة. عند باب معبد آمون، توقّف الإسكندر. أشار إلى قواده ليتراجعوا. تقدّم — بمفرده — في المحراب، للقاء أبيه الإله آمون. طالعه آمون جالسًا على عرشه الذهبي، تحيط به أشجار الذهب، وثمة أريج البخور يتضوع في أرجاء المكان. ركع الإسكندر في قدس الأقداس لمدة نصف يوم. ظل ساكنًا في موضعه، وفي الخارج، وقف القادة وكهنة المعبد.

لمّا ساورهم الريب، طرّق كبير الكهنة البابَ الخشبي الضخم. ترامى صوت الإسكندر من الداخل — غاضبًا — يطلب إغلاق الباب. خرج الإسكندر وقت الغروب. كان متعبًا، يرتجف، ووجهه يتصبّب عرقًا.



ظنَّ القادة أن الإسكندر أُصيب بالحمى. همُّوا بإغاثته، لكنه أبعدهم بإشارة من يده، وواصل السيرَ وحيداً.

روى الإسكندر ما جرى للكهنة. أقسموا أن يكتموا السر، لا يُطلعون أحداً على ما يجري في مقابلته لآمون. أخرج الكهنة له، ولضباطه، صنمَ آمون، محمولاً في زورق رفعته الراهبات فوق رءوسهن. قدَّم القرابين للإله آمون، ولقَّبه الكهنة باسم ابن آمون. انتسب الإسكندر باللقب إلى الآلهة.

خرج من باب خلفي، يضع فوق رأسه قرنين من الذهب، إلى جانب الخوذة، ونُقش القرنان في رأس الإسكندر فوق النقود في عصره. شعر أن فيضاً من الأنوار قد نفذ إلى أعماق نفسه، وأن ما يُشبه الإلهام قد حلَّ به. بدتْ كلُّ الأمور واضحة.

نقل إلى قواده وعلماء حملته ما تعلَّمه من الكهنة المصريين من علوم الفلك والتنجيم. صارت مرجعاً عند اتخاذ القرارات المهمة في حياة الإسكندر، وبعد رحيله.

سأله بطليموس— أقرب قواده إليه: هل تحدُّثنا عما دار بينك وبين أبيك الإله آمون؟ قال الإسكندر وهو يُعاني عذاب التكتّم: ما قاله لي لا يمكن أن أبوح به إلا لأمي! وهمس في نبرة مترددة: لكنني لا أستطيع أن أخفيّ وعده لي بأني سأمتلك العالم، وإلحاحه في أن أسعى لتحقيق إرادته.

غادر المعبد بقوة — في داخله — تُوَهله لتجاوز قدرات البشر، تقرب الغاية التي حددها له الإله، يستطيع بها بلوغ أقصى الأرض.

عاد إلى موقع التقاء راقودة وجزيرة فاروس، يشغله بناء المدينة التي ينطلق منها — عبر الصحراء — لامتلاك العالم.

قال: أفضل أن أفوقَ غيري في الفضائل على أن أفوقَ في اتساع الملك والسلطان. لأن المصريين كانوا يرمزون إلى آمون بالكبش المقدس ذي القرنين، فقد أمر أن يظهر القرنان في صورته، وسُمي الإسكندر ذا القرنين.

سنة أشهر قضاها الإسكندر في مصر. واصل — بعدها — رحلة تحقيق حلم الدولة الواحدة. يفكر، يتكلم، يتحرك، يتصرف، بإحساس الإله الذي لا يُقهر، لأنه يحمل رسالةً كونية، بيقين انتسابه إلى الآلهة. الآلهة تُلهمه، تُملي عليه إرادته. يعرف أن أقصى الأرض في نقطة ما، يقف عندها، يُعلن أنه قد أصبح — بحد السيف — ملكاً للبشرية. توالت المعارك في دارا، وأربلا، وبابل، والهند، والسند، والبنجاب، والجنوب الغربي لفارس.

في طريقه إلى بابل، أعلمه كبيرُ العرافين أن عودته إليها هذه المرة، يُرافقها طالع نحس. هي — في قوله — نبوءة الإله بال.

ظل تَوَقَّعُ المكروه — في داخله — قائماً، وإن لم يحاول أن يناقش الأمر بينه وبين نفسه، ولا أن يتحدث به إلى قواده. هم لا يفتنون إلى ما يجري بينه وبين ذلك العدو الذي لم يره، رغم لفح أنفاسه.

واصل سيره حسب البرنامج الذي حدده. لم يُزايله الشعور بالمطاردة. ذلك المجهول الذي يقتني خُطاه، يتبعه كظله، لا يتركه في ليل أو نهار. يذوي — أمام خوفه من قوته — ما كان يشعر به الإسكندر من قوة انتسابه إلى الآلهة.

هزم داريوس أكثر من مرة. قضى على الآلاف من جنود الأعداء. تحمّل البرد والحر والمرض والجوع والعطش، وحنين الجنود إلى الحبيبة والأسرة والوطن. أنشأ المدن المسماة بالإسكندرية. في توسُّع فتوحاته إلى أقصى الأرض، عبر الهند وفارس والعراق، بالإضافة إلى إسكندرية مصر. يشغله الوصول إلى المناطق المجهولة التي لم تطأها حوافرُ جياده. تتقارب الضفاف حتى التلاشي. تختفي الحدود. يتبدّل معنى الوطن، يصبح العالم وطناً لمن يحيون فيه. في باله أن تسود اللغة اليونانية لغة واحدة لكل الدنيا.

ما كان يُؤله أن جنوده لم يُدركوا مقاصده، الأهداف التي رسمها لنفسه. لم يشاركوه تحمُّسه للانطلاق في الحملة. مالوا إلى الاحتجاج والرفض.

كان شاطئ نهر بيس — أحد فروع نهر سوتاج — آخر ما وصلت إليه حملة الإسكندر شرقاً. رفض الجنود أن يواصلوا السير خطوة واحدة.

عانى قادة الإسكندر وجنوده آلامَ الغربية، والانتصارات غير المجدية، والتي بلا معنى. لم يقتنعوا بأقواله عن العالم الواحد، وضرورة أن يبلغوا أقصى الأرض.

المرض — وحده — هو الذي أوقف زحفَ الإسكندر إلى نهاية العالم. ألزمه الفراش في بابل، واغتاله في مدى قصير. مات بتأثير الحمى في ١٣ يونيو ٣٢٣ ق.م. كان في الثالثة والثلاثين، حكم منها اثني عشر عاماً وثمانية أشهر.

لما دنت لحظة الوفاة سأله كبير قواده: مَنْ تُرشح لخلافتك؟

قال الإسكندر في لهجة باترة: الأقوى!

لاخلاف قاداته حول تقسيم الإمبراطورية: مَنْ يظفر بالمساحة الأكبر، ومَنْ يرضى بما قُدِّر له، فقد ظل جثمان الإسكندر في بابل لمدة عامين.

نُقِلَ جثمان الإسكندر من بابل إلى مصر في عهد بطليموس الأول «سوتر». هل اختطف، أم نُقل بصورة طبيعية؟

رُوي أنه نُقل إلى منف، سواء بالاختطاف، أو بالعلن. دُفن هناك قليلاً، ثم تباينت الروايات، إذا كان قد نُقل إلى سيوة، أم إلى الإسكندرية، أم نُقل إلى الإسكندرية، ومنها إلى سيوة؟ أم أن العكس هو ما حدث؟

تعددت الروايات عن الموضوع الذي دُفن فيه جثمانه، وإن ذهب غالبيتها إلى أنه دُفن في موضع ما من الإسكندرية. روايات كثيرة تحدّثت — فيما بعد — عن زيارة ملوك البطالمة لقبر الإسكندر في الإسكندرية. حكايات وشواهد رواها علماء ومؤرخون.

كل الروايات اتفقت على أن الإسكندر دُفن في مصر، وإن اختلفت حول موضع القبر. رُوي أنه عاد — في تابوت الموت — إلى المدينة التي أمر بإنشائها، ومضى دون أن يتابع خطوات الإنشاء.

كان دينوكراتيس قد قسم المدينة الوليدة إلى أحياء وميادين وطرق ممتدة ومتوازية ومتقاطعة وبنيات. تمتد بين شاطئ البحر شمالاً، وبحيرة مريوط جنوباً. مستطيل من الشرق إلى الغرب، طوله نحو أربعة أميال، وعرضه من الشمال إلى الجنوب نحو ميل. محيطه خمسة عشر ميلاً.

كتب الإسكندر — قبل وفاته — يُوصي أن يُدفن في واحة آمون بسيوة، بالقرب من أبيه الإله زيوس آمون، امتزاج العقيدتين المصرية واليونانية.

هل دُفن في الموضوع الذي اختاره؟ أو دُفن في عاصمة البلاد منف؟ أو أنه — كما قال مؤرخو عصر البطالسة — دُفن في الإسكندرية التي أمر بإنشائها، وأن تحمل اسمه؟ لم يُتَح للإسكندر أن يرى المدينة.

لم يتحقق الحلم في حياته، وإن عادت روحه — بفضل الآلهة — إلى إسكندريته الأولى. تنقل الجثمان — في التابوت المغلق — بين العديد من المواضع، لا يُدرى أيها استقر التابوت في رحلته الأخيرة.

غابت الرؤية من خلال التابوت المغلق، من الذهب والأحجار الكريمة والأخشاب المقدسة. غطاؤه من الذهب الموشى بالفسيفساء، تعلوه قبة العرش بما يغطي الفراغ تماماً. يحيط برواق التابوت مقصورة من مشربيات، شبكاتها مذهبة، وزخرفتها على أشكال أوراق شجر الأكاسيا والزيتون، وزهور اللوتس المصري المقدس. السقف من الأعمدة ذات التيجان الأيونية الطابع، تجمع بين الفن المقدوني والفارسي. لم يغلق التابوت على جسد الإسكندر المحنط وحده. أُضيف إليه مجموعة من برديات السحر والتنجيم وأسرار الكهنة، نُقلت من معبد زيوس آمون بسيوة.

سار النعش على عجلات، تجرّها ٦٤ دابة، في ثمانية صفوف متقاربة، منتظمة. مضى الموكب في أواخر ٣٢٢ ق.م. من بابل إلى مصر، ماراً بدمشق. غابت سيرة قبر الإسكندر منذ القرن الثالث بعد الميلاد. لم يُسَرَّ إليه مؤرخو العصر، ولا العصور التالية: أين هو؟ وماذا جرى له؟ ولماذا اختفى؟.

يذكر الدكتور وليد صبحي أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية أن مقبرة الإسكندر لم تُعد قائمة — في العديد من الروايات التاريخية — في القرن الرابع الميلادي، وإن تحدّث الرحالة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر عن زيارتهم للقبر. أُقيم فوق أطلال القبر كنيسة القديس مرقس، المطلة على شارع النبي دانيال. زار مقبرته أباطرة رومان وشعراء ومؤرخون وساسة وقادة. عندما دخل أكتافيوس الإسكندرية، زار قبر الإسكندر، أدّى الشعائر أمام الضريح، السوما. ركع أمامه، ووضع فوق التابوت الزجاجي تاجاً من الذهب، وإكليلاً من الزهور. زار ابن سويرس كاراكلا Caracalla الإسكندرية، حج إلى قبر الإسكندر في السوما، وضع فوق التابوت — كتقدمة — معطفه القرمزي، وخواتمه، وحزامه المرصع بالجواهر. أمر فيلادلف بتشييد مقبرة لوالديه بطليموس وبرنيس في موضع قريب من الحائط الشرقي لمقبرة الإسكندر. وشيّد فيلوباتور ضريحاً هائلاً جمع فيه رفات كل آبائه وأجداده، وألحقه بمقبرة جده الإسكندر. ويروى أن الإمبراطور أوغسطس نزل بأسطوله عند شاطئ الإسكندرية. توجّه — من فوره — إلى قبر الإسكندر، ومعه قادة جيشه. صلى أمام القبر، ثم خلع رداءه وقلادته ومجوهراته، ووضعها فوق الضريح، ونثر الزهور فوقه، وقال: هذا وفاء لنذر. دلالة أن الإسكندرية هي المدينة التي دُفن فيها الإسكندر. حتى مقبرة كليوباترة وأنطونيوس شُيِّدت بالقرب من الجدار الشرقي لمعبد إيزيس بلوزيا. ووضع الإمبراطور سبتيموس سيفيروس ما حملة من المعابد، من البرديات المقدسة، داخل التابوت الزجاجي. وتقلّد كاليجولا درع الإسكندر.

ما تُؤكده روايات عديدة أن الإسكندر لم يفارق — بروحه — أولى المدن التي سمّاها باسمه. يفارق قبره في الموضع الذي لا يعرفه أحد. مكاشفة تُماثل مكاشفات أولياء الصوفية. هم أحياء مثل القديسين والشهداء، وحسن أولئك رفيقاً.

إذا كان لأولياء الله مكاشفاتهم التي لا تغيب بفاء أجسادهم، فلماذا لا يكون لابن زيوس آمون المكاشفة نفسها؟ لماذا لا تنتقل الروح إلى حيث تشاء، تتأمل، تهب العبرة؟

ما تردد عن استبدال تابوت من الزجاج بالتابوت الذهبي، لا شأن له بقدرة الروح على التحليق، واختراق المسافات بما تعجز عنه قدرة البشر. من مكاشفات أقطاب الصوفية

أنهم ينتقلون من المواضع التي أقاموا بها — أحياء وموتى — إلى مكة المكرمة، يطوفون حول البيت العتيق، والروضة النبوية، ويعودون.

راقودة وفاروس ينطلق اتصالهما إلى العالم الذي أراد تحقيقه. يمتدان إلى نهاية الدنيا، لا آفاق للأرض والبحار والجبال والصحاري. يتكلم الناس لغةً واحدة. تتمحي الفوارق. ليس ثمة إلا بشر يتساوون مهما تختلف أجناسهم وألوانهم. أتى بالشعراء ليعبروا — في قصائدهم — عن الحملة العسكرية التي تفوق كل ما عرف العالم من مظاهر القوة، وتسعى إلى بلوغ أقصى الأرض.

يستعيد الإسكندر ما كان في وقفته على اللسان الداخل في قلب البحر، الأرض الرملية، والقوارب، وشباك الصيادين. من حوله القادة والمهندسون والمؤرخون والشعراء. أفق نظراتهم جزيرة فاروس: أريد أن أبني هنا عاصمة مُلكي.

ما طلبه لم يكن مجرد مدينة. رسم تصورًا، أراد أن يشاهده على الطبيعة. أنصت إلى اعترافات المهندسين والعلماء: اختيار الموقع، إحاطة البحر بمعظم الجوانب، تجميع المنشآت المهمة في مكان واحد. اتجه بنظره إلى أسفل. قال في نبرة حازمة: هذه هي مدينتي ... إسكندريتي.

لم يكن حتى أقرب معاونيه إلى نفسه، يملك ردًا لقوله، أو لإرادته. ما يريده لا بد أن يحدث. عالم بلا آفاق، بلا حدود. ناسه يتكلمون لغةً واحدة، تتمحي بينهم الفوارق، يتساوون رغم تنوع أجناسهم، واختلاف مسميات وصفات الآلهة التي يعبدونها. ما أحزنه أن الروح كانت قد فارقت الجسد، في عودته إلى المدينة التي أوصى أن تكون عاصمةً لإمبراطوريته. لا يوجد حوله قادة ولا علماء، ولا يقف — على الجانبين — قوات وحشود ناس.

أفادته الوحدة المتأمل في الاكتشاف، والدهشة، واستعادة ما فات، وإلقاء الأسئلة. هل كانت صورة العالم ستتغير لو أن الإمبراطورية التي سعى لإنشائها تحققت؟ هل كان التاريخ يمضي إلى غير ما انتهى إليه؟ هل كانت الأوطان قد تحوّلت إلى وطن واحد؟

كان يناقش الاحتمالات — بينه وبين نفسه — ويستخلص العبر. يألف — بتعدّد قدومه إلى المكان — ما شهدته المدينة من اتساع ومظاهر حياة، هذه ليست عاصمةً وطنه، العالم الذي ينتمي إلى وطنه اليونان، ويتكلم اللغة اليونانية.

لم يتصور — حين أمر بوصل القرية والجزيرة — أنها ستصبح على ما أصبحت عليه. يتمنى لو أنه نزع زيّه العسكري، فلا يُثير انتباه أحد، لكنه هو الزي الذي دُفن

به. يلجأ إلى ما يزوده به أبوه الإله آمون من طاقة روحية. يخترق الشوارع والحواري والميادين، حتى يصل إلى اللسان الحجري.

يقف في النقطة الفاصلة بين قرية راقودة وجزيرة فاروس.

نقطة التقاء العالم القديم ونشأة الإسكندرية الحديثة. لطبيعتها الجغرافية سُميت بحري. عرضها كيلومتر، وطولها كيلومتر. السير في شارع ما، لا بد أن يُفْضِيَ — بعد وقت قصير — إلى قلب المدينة. يتصور ما كان، وما أصبح الحال عليه. يخترق الخيال الأرصفة، ومستودعات الأخشاب، وشون الغلال، والكسارات، والحفارات، والهراسات، والهزازات، والرافعات الهيدروليكية، والمولدات الكهربائية، وأبراج الإضاءة، والرافعات الشوكية، والشاحنات القلابة، والخلاطات، والحاويات، والسفن الكبيرة، والصغيرة، والجدران العالية، وضوء الفنار، وأسراب الطير، وأضواء البلانسات المنعكسة على صفحة الماء متموجة، ملتمة، وخضرة المياه — على الشاطئ — بتألف الأعشاب والطحالب وزيتون المراكب، وأسطح البنايات العالية، وقلعة قايتباي، ومئذنة أبي العباس، والعلم الذي يرتفع فوق سراي رأس التين.

يستعيد ما كان، ويُطيل التأمل.

راجع روايتنا «غواية الإسكندر».

## إسماعيل صبري

وُلد بالقاهرة في ١٦ فبراير ١٨٥٤م. أبوه إمام قشدة تاجر بالعاصمة، أصله من الحجاز. حُرّم العلم في صباه، فحاول أن يعوض ذلك في تعليم ابنه إلى آخر المراحل الدراسية. درس إسماعيل — في البيت — مبادئ القراءة والكتابة، وحَفِظ أجزاء من القرآن، على أيدي الفقهاء، ثم أُلْحِق في ٢٣ أكتوبر ١٨٦٦م بمدرسة المبتديان الأميرية، ثم دخل مدرسة الإدارة والألسن (الحقوق فيما بعد)، وتخرَّج فيها عام ١٨٧٣م. سافر إلى فرنسا، ونال ليسانس الحقوق من جامعة إكس في ١٨٧٨م. ترقَّى — بعد عودته — في مناصب القضاء. عُيِّن مساعداً بمحكمة مصر الابتدائية المختلطة، ونُقِل منها إلى محكمة المنصورة المختلطة، ثم عُيِّن نائباً في محكمة المنصورة، فوكيلاً للمحكمة، ثم نُقِل إلى محكمة الإسكندرية الابتدائية في أبريل ١٨٨٠م، ثم أصبح رئيساً لمحكمة الإسكندرية الأهلية في يونيو ١٨٨٦م، ورتقى إلى منصب النائب العام لدى المحاكم الأهلية في ٥ ديسمبر ١٨٩٥م، وهو أول مصري يُعَيَّن في هذا المنصب.

كانت أحكامه — كقاضٍ — تستهدف التقويم والعلاج، وليس الانتقام، أو نفي الجاني عن المجتمع.

في أول مارس ١٨٩٦م أصبح محافظاً للإسكندرية. ثلاث سنوات، عُيِّن بعدها وكيلاً لوزارة العدل «الحقانية» (٦ نوفمبر ١٨٩٩م).

بعد أن ترك منصب محافظ المدينة، لم يبتعد عن بحري. كَثُر تردُّده — في أثناء عمله وكيلاً لوزارة العدل — على مبنى الحقانية المطل على ميدان المنشية. وكان ذلك المنصب هو آخر ما شغله في وظائف الحكومة، حتى اعتزل الخدمة في ٢٨ فبراير ١٩٠٧م. إقامته في بحري، أتاحت لقصائده صوفيةً بالغة الرهافة والشفافية. يغادر مكتبه في مبنى المحافظة إلى ميدان الخمس فوانيس. يقرأ الفاتحة لولي الله علي تمران. يمضي

في شارع الأباصيري حتى ميدان المساجد. يتردد على أبي العباس ويقوت العرش والبوصيري، والمقامات والأضرحة المتناثرة في قلب الميدان، وبالقرب منه. يُطيل الوقوف والتأمل، ومناجاة الذات الإلهية.

ثمة رواية أنه طلب إحالته إلى المعاش، ليتفرغ لنظم الشعر. ورواية أنه اعتزل تعبيراً عن احتجاج صامت على انعقاد المحكمة المخصوصة صباح ٢٧ يونيو ١٩٠٦م لمحكمة المتهمين في حادثة دنشواي، وما تلا ذلك من أحكام قاسية، تتراوح بين الإعدام والجلد، أو الجلد يتبعه الإعدام.

في ١٩١٨م، عانى إسماعيل صبري ذبحة صدرية، امتدّت تأثيراتها خمس سنوات، حتى توفي في ٢٦ مارس ١٩٢٣م، عن ٦٩ عامًا، واثنين وثلاثين يومًا.

بعد أن عُين وكيلًا لوزارة الحقانية، ظلت صداقته لمصطفى كامل على توثقها. كان قد أيده في نشاطه السياسي منذ البداية. لم يستوقفه منصبه الرسمي لقاء تحرك مصطفى كامل ضد سلطات الاحتلال. وكان — في أيام كثيرة — يتجه من مبنى الوزارة إلى دار اللواء لمقابلته فيها. يُمضيان وقتًا في مناقشة القضايا المختلفة.

بدأ نظم الشعر وهو في المرحلة الثانوية. نشر في مجلة «الروضة» المدرسية وهو في السادسة عشرة من عمره.

كان يعتزُّ بأن حافظ وشوقي ومطران من تلاميذه، وأنهم تأثروا بشاعريته وشعره. دعا — في قصائده — إلى عودة الدستور، ونُدَّ بحادثة دنشواي، ورتأ مصطفى كامل بعد رحيله.

أحب الغناء، وألّف الكثير من الأغنيات لمطربي الفترة ومطرباتها. سبق أحمد شوقي وأحمد رامي في كتابة قصيدة العامية.

أولى قصائده المغناة، لحّنها وأداها محمد عثمان:

قدك أمير الأغصان	من غير مكابر
ورد خدك سلطان	على الأزهري
والحب كله أشجان	جاز المخاطر

لم يُخفِ بيرم التونسي إعجابه: هذه إضافة من شاعر فصحي لفن الزجل.



طالبه أحمد المسيري — في بداياته — أن يؤلّف الأغنيات لفرقته. وعد إسماعيل صبري أن يُهديه أغنية إذا كَوّن فرقته المعترية.

أيد قاسم أمين في دعوته لتحرير المرأة، ورفض مبدأ تعدّد الزوجات، وقال: أحب التوحيد في ثلاثة: الله، المبدأ، المرأة؛ وأحب الحرية في ثلاثة: حرية المرأة في ظل زوجها، حرية الرجل تحت راية الوطن، حرية الوطن في ظل الله. وقال: إن من الأسباب التي مسخت حياتنا، وشوّهت أعيادنا، فجعلت أعيادنا كأيام نقاهة المريض، كل ما فيها همود ونوم وأكل، غيبة المرأة عن المجتمع؛ هي علة ما نُكابده من جفاء في الطبع، وجفاف في العيش، وجهامة في البيت، وسامة في العمل، وفوضى في الاجتماع. وقال: إذا لم تُصبح المرأة في البهو عطر المجلس، وعلى الطعام زهر المائدة، وفي الندى روح الحديث، وفي الحفل مجمع الأقدرة، فهيات أن يكون لنا مجتمع مهذب، وحياة طيبة، وأسرة سعيدة.

حين زاره محمد كاظم ميلاني — في سراي الحقانية — قلب إسماعيل صبري في النسخة المطبوعة من روايته «السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين»، وقال وهو يطوي الكتاب: اتحاد المسلمين لا خلاف عليه.

ومسح شاربه الكث بظهر يده: أما رفضك دعوة قاسم أمين فإني أختلف معك. ودون أن يفقد ابتسامته: كيف نرفض تحرير المرأة من الجهل ورقّ الحجاب؟! أدرك ميلاني أنه في حضرة محافظ المدينة، وأن كلمات الرجل الواضحة، الحاسمة، لا تهبه الفرصة للمناقشة والاعتراض وإبداء وجهة النظر. اكتفي بترك النسخة المهداة، وألقى السلام، وانصرف.

رغم الوظائف المهمة التي شغلها، فإن الغربية ظلّت هاجساً لا يُفارقه. ألحّت عليه بما دفعه إلى الهمس بالسؤال: ما الوطن؟ ما معنى أن أبلغ المناصب المهمة، وثمة ظلّ للأجنبي يُخفي الأضواء والظلال، ويفرض الظلمة التي ألفتها الآخرون، لكنها تظل في النفس — نفسه — لا تتركها؟

حرص على عدم زيارة مندوبي سلطات الاحتلال في مكاتبهم، بدايةً من المندوب السامي حتى موظفي الحقانية من الإنجليز.

ناصر مصطفى كامل منذ بدايات دعوته إلى الاستقلال. لم تشغله مناصبه الرسمية عن إعلان تأييده لمصطفى كامل، وحرصه على صداقته. وكان كبار موظفي الدولة يخشون

الاتصال له، حتى لا ترصدَهم أعينُ سلطات الاحتلال. صارح إسماعيل صبري أصدقاءه: «لو لم أكن قاضياً، لاشتركتُ مع مصطفى كامل في العمل الوطني، ولكن مع جنباً إلى جنب.»

حين استعد مصطفى كامل لإعلان قيام الحزب الوطني في مسرح زيزينيا، ديسمبر ١٩٠٧م زاره البكباشي حمدي درويش في مكتبه بالمحافظة.

تحدث عن الظروف الاستثنائية التي تحياها مصر في وجود الاحتلال. قرار الحسم تملكه سراي المندوب السامي. ليس ثمة مشكلة لو أنه استجاب لمحاولات اللورد كرومر استمالته. اعتذر عن مجرد زيارته في مكتبه.

قيل له: لو بدلت موقفك ربما أصبحت رئيساً للوزراء.

قال بعفوية: ماذا تُفيدني رئاسة الوزارة غير إغضاب ضميري، وإرضاء ذوي المطامع وأصدقاء الجاه؟!

اغتصب إسماعيل صبري ابتسامه، وقال: لو أنك كلمتني في هذا الأمر قبل ساعة ربما أمرتُ بإلغاء خطبة مصطفى كامل.

أردف في نبرة تأسف: السهم نفذ. فقد رخصت بإقامة الاجتماع.

وربت كنفه: لا بأس... أنا أدرك مسئوليتي عن الأمن والنظام!

زاد إسماعيل صبري، فأرسل عدداً من الجنود المصريين، يحمون مصطفى كامل، ويحافظون على النظام، حتى أتمَّ مصطفى كامل خطابه.

لما مات مصطفى كامل، حرص إسماعيل صبري على أن يُشيعه إلى القبر. ألقى البيت الأول من قصيدة، قال فيه:

أداعي الأسى في مصر ويحك داعياً هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعياً

ثم غلبه التأثر والإعياء، فلم يستطع أن يستكمل القصيدة.

لم يشارك — لإصابته بذبحة صدرية — في أحداث ثورة ١٩١٩م، لكن انعكاس همومه السياسية على نفسه، جعله ثاني الشعراء — بعد البارودي — اهتماماً بقضايا الوطن.

تعرفَّ إلى الأميرة ألكسندرا أفرينوه والأديبة مي زيادة.

أصدرت ألكسندرا مجلة «أنيس الجليس» النسائية، العلمية، الأدبية، الفكاهية. عددها الأول في ٣١ يناير ١٨٩٨م، والعدد الأخير في ٣١ ديسمبر ١٩٠٤م. تردّد إسماعيل صبري على صالون الأميرة — مع عدد من المثقفين والأجانب — وكتب فيها قصائد صغيرة. وعندما توقّفت «أنيس الجليس» عن الصدور، كتب إسماعيل صبري:

هل لوجه الأنيس بعد احتجاب      من سفور في عالم الأدباء  
فترى فيه كلّ بحثٍ جديد      يقف الحق في صفوف النساء  
إن للفضليات في كل عصر      أثرًا في خواطر الفضلاء

تردّد — مثل الكثيرين من مثقفي العصر — على صالون مي زيادة، كل يوم ثلاثاء. أحبّها كغالبية المترددين على الصالون، خليل مطران، العقاد، المازني، لطفي السيد، مصطفى عبد الرازق، مصطفى صادق الرافعي، زكي مبارك، منصور فهمي، فؤاد صروف، شبلي شميل، أحمد زكي باشا، وغيرهم. كتب فيها طه حسين: «كان صوتها عذبًا، لا يكاد يبلغ الأذن حتى يصل إلى القلب.» وبعث إليها ولي الدين يكن يقول: «الآن عندي قبلة هي أجمل زهرة في ربيع الأمل أضعها تحت قدميك. إن تقبليها تزيدي كرمًا، وإن تردّيها فقصاراي الامتثال. وبعد، فإني في انتظار بشائر رضاك.» وفي رسالة من شبلي شميل: «ما أحلى مناغاتك، وما أرق شعورك، وما أبدع جرأتك في قوام مبادئك، وما أوضعك في رفعتك، وما أودعك في علمك، وما ألبسك لثوب دنسك، وما أصدقك في حكمك.» وكتبت مي للعقاد: «لا تحسب أنني أتهمك بالغيرة من جبران، فإنه في نيويورك لم يرني، ولعله لن يراني، كما أنني لم أره في تلك الصور التي تنشرها الصحف، ولكن طبيعة الأنثى يلذها أن يتغاير فيها الرجال، وتشعر بالازدهاء، حين تراهم يتنافسون عليها. أليس كذلك؟» وتناقضت مي من مصطفى صادق الرافعي، رغم ما كتبه في طلب رضاها في «رسائل الأحران» و«أوراق الورد» وغيرها.

إسماعيل صبري أهداها العديد من قصائده، ولم يجد حرجًا في ظروف المنصب، ولا المجتمع، ولا الطبقة التي ينتمي إليها، في أن يكتب قصائد يُعلن فيها حبه لمي:

روحي على دور بعض الحي حائمة  
كظامي الطير رفاً على الماء

إن لم أمتع بمي ناظري غداً  
أنكرت صباحك يا يوم الثلاثاء

مات إسماعيل صبري.

ألقي أنطون الجميل كلمة — في حفل تأبينه، في الرابع من مايو ١٩٢٣م — قال:  
«الحب والموت والوطن، هذه هي العوالم الثلاثة التي كانت تحرك فيهِ الشعور الفياض،  
وتنطقه بالحكمة الرائعة، وتثير في صدره الحماسة الشريفة، الماسة الصافية الماء، الطاهرة  
للألاء، السليمة من كل كد وعيب، يُنسينا جمالها عناء من قطعها وصقلها، وكذلك شعر  
صبري، نقف عند جماله ناسين الشاعر، وما لقي من عناء في تصفية شعره، وتخليص  
نظمه من كل شائبة.» رثاه حافظ إبراهيم وأحمد شوقي. كتب شوقي قصيدة، أشار  
فيها إلى حرص إسماعيل صبري على صداقته بمصطفى كامل. لم يحسب عاقبة ما يجره  
اتصاله بزعيم الحركة الوطنية:

فلکم سقاہ الودّ حين وداده حربٌ لأهل الحكم والإشراف

أهمل الشاعر جمع قصائده في ديوان. تولى ذلك أصدقاؤه بعد وفاته.

فترة تولى إسماعيل صبري محافظاً للإسكندرية، عكست تأثيرات على حياته، والحياة في  
بحري.

يُطل مبنى المحافظة على شارع شقّ — عقب ثورة ١٩١٩م — مدخلاً للإسكندرية  
من ناحية البحر. يصل بين المينا الغربية والمينا الشرقية. يميل ناحية خليج الأنفوشي، وما  
يتصل بذلك كلّه من ميادين وشوارع وبنائات: قصر رأس التين، ومبنى الحرس الملكي  
(الكلية البحرية فيما بعد)، وحدائق القصر، ومقابر البطالمة، وبداية ترام ٤، ومستشفى  
رأس التين، ومدرسة إبراهيم الأول الثانوية، وورش القزق، وحلقة السمك، ونقطة  
الأنفوشي، ومرسى القوارب، ومعهد الأحياء المائية، ومساكن السواحل، وحمّام الضبطية،  
ومستشفى الملكة نازلي، والمحكمة الشرعية، ووكالة الأوقاف، وأسواق الترك والمغاربة،  
والخيّط وزنقة الستات، وترام السكة الجديدة، وقهاوي أنح، ورأس التين والزرندوني  
والعوالم وفاروق والمطري والمهدي اللبان، وجوامع زوايا وأضرحة ومقامات أبي العباس،  
وياقوت العرش، والبوصيري، ونصر الدين، وطاهر بك، وعبد الرحمن، وعلي تمارز،

والشوربجي، والشيخ إبراهيم، وكظمان، والعدوي، ومنصور، والطرطوشي، والعقباوي، وابن عنان، والجعراني، والعروسي، ومكين الدين، وخضر الأنصاري، والموازيني، وعبد الله المجاهد، والحلوجي، والكناني، وشحاتة، وأبو وردة، وخضر الطوايسي، وابن وكيع، وأبو شوشة، ومحمد الأسعد، والطرودي، والحلواني، وإجابة، وبركة، والشريف، والمنقعي، وصلاح الدين، ومحمد غريب، والشرنوبلي، وشرف الدين.

اختصر الشارع المسافة من طريق الكورنيش إلى باب الجمرك رقم واحد، مباشرة إلى مقام سيدي العدوي، والميل — يميناً — إلى الباب الحديدي الهائل، ويساراً إلى الأبواب الأخرى. السير من ميدان الخمس فوانيس إلى شارع رأس التين، والامتداد — بميل — إلى شارع أبي وردة. في واجهة الشارع باب الجمرك رقم واحد.

اختصرت المسافة — بالتالي — إلى شارع رأس التين، ونهاية شارع فرنسا، والموازيني بامتداده إلى ميدان أبي العباس؛ فالسيالة والأنفوشي ورأس التين، لم يُعد على المتجه إلى هذه الأماكن أن يمضي في طريق الكورنيش إلى الشوارع الجانبية، الموازية للشارع الجديد. غابت مواكب الصوفية عن شارع الأباصيري حتى ميدان الخمس فوانيس. تحمل الأعلام والديارق واللافتات والمباخر، وثمة ترتيل الأذكار، والترنم بالتواحيش، وحلقات الذكر، وقارعو الطبول والدفوف، وضاربو الصاجات، وعازفو الربابة والمزمار والبيانولا والأكورديون، والرفاعية والحواة وأكلة اللهب، والابتهالات، والأدعية، وتمازج رائحة البخور والصندل المحروق والمستكة والند.

تدور المواكب في شارع رأس التين إلى الموازيني، تميل إلى إسماعيل صبري، ومنه إلى شارع الميدان، قرب زاوية الأعرج، وإلى شارع أبو وردة.

إذا كان لكل مساحة أرض في بحري ولي، فإن سيدي العدوي هو الولي في شارع إسماعيل صبري. ضريحه في نهاية الشارع. بعد أن اتصل بشارع الترسانة. جعله ولياً للشارع. هو ولي مهم، سره باتح. اسمه يعلو أفواه المنادين والأمهات في البحث عن الغائبين والمفقودين: يا عدوي!

تحول إليه طريق المواكب الملكية الرسمية، تنطلق من سراي رأس التين. تميل من طريق الكورنيش إلى شارع إسماعيل صبري، ثم إلى الشوارع المفضية لوسط البلد. تأخذ المواكب — القادمة من الناحية المقابلة — طريقها في الشوارع نفسها إلى قصر رأس التين. مواكب كبار الساسة القادمين من خارج البلاد تمضي في شارع صفر باشا إلى بداية شارع إسماعيل صبري، تخترقه — وسط زحام المستقبلين — إلى داخل المدينة. حتى جياذ الملك،

بدلت مسار مشوارها الصباحي. لم يُعد يقتصر على طريق الكورنيش، يمضي إليه عبر الشوارع المؤدية إلى إسماعيل صبري، ومنه إلى طريق الكورنيش.

استمر العمل في الشارع الجديد — ظلت هذه هي، إلى ما بعد الستينيات، التسمية التي يُرددها الناس — ثلاث سنوات، منذ ١٩٢٧م إلى ١٩٣٠م.

سمّته المحافظة شارع إسماعيل صبري. تسمية الشارع الجديد هي ما يُرده الناس. أُطلق اسم شارع محمود فهمي النقراشي على شارع الميدان، وميدان التحرير على ميدان محمد علي. اقتصر اسم إسماعيل صبري على لافتة تعلق الجدار أول الشارع ونهايته، وعلى الرسائل والمكتبات الرسمية.

الشارع الجديد — رغم انقضاء عشرات الأعوام — هي تسمية الكثيرين له، حتى اليوم. التسمية التي اختارها الناس ثابتة، لم تتغير.

بعد أن علّت البناءات على جانبي الشارع، وتفرّعت منه الشوارع الجانبية، حدث تغيّر في نوعية السكان.

سكن شقق البناءات موظفون حكوميون، وأطباء، ومحامون، ومدرسون، ومحاسبون، وأساتذة جامعة، وضباط بحرية، وضباط بوليس، وتجار، وعاملون في شركات التصدير والاستيراد، في المنطقة حول البورصة الملكية. افتتح فيه — وتكرر في الشوارع القريبة — مصنع للبلاط، ومصنع للصابون، ودكاكين كانت غائبةً عن الحي أو قليلة: مكتبة، بائع عصير، حلواني، مكوجي، بائع ساعات، ترزي، صانع طرابيش، إلى جانب قهوة فاروق، التي صار اسمها — في أحيان كثيرة — بديلاً لاسم الشارع.

شكّل الشارع ما يُشبه نقطة الاتصال بين النوعيات نفسها — تقريباً — من السكان، وبين أبناء رأس التين والأنفوشي والسبالة، والمنطقة المحيطة بميدان أبي العباس. كالفاصل بين تدرج الألوان، تكتسب شخصيتها بالاتجاه — يميناً — إلى قرب خليج الأنفوشي، حتى قصر رأس التين، والاتجاه — يساراً — إلى ميدان المنشية، وامتداداته إلى محطة الرمل، ومنطقة وسط البلد التي اقتصر غالبيتها — إلى ما بعد ١٩٥٦م — على الجاليات الأجنبية.

حدث تغيّر في مظاهر الحياة، العادات والتقاليد والسهر والباعة، ودخل بيوته الماء والكهرباء، وأضيء جانباه بمصابيح الغاز، وسارت فيه المواكب الرسمية والدينية وعربات الكارو المحملة بأثاث العرائس، وزادت السيارات وعربات الحنطور.

تشكّلت المفردات المتصلة بالشارع منذ بدايات افتتاحه، بتوالي الأعوام: قهوة فاروق، جامع سيدي علي ترماز، ميدان الخمس فوانيس، سوق العيد، نهاية شارع فرنسا، أول

شارع رأس التين، تقاطع شارع الميدان (لا أحد يعرف الميدان الذي يُنسب إليه اسم الشارع. لعله المجاز الذي وُجد في زحامه وطوله وتقاطعه مع شوارع مهمة، ما يقربُه من معنى الميدان) ضريح سيدي العدوي، أبواب الجمارك، فرن حبيب، مقابر البطالمة، مقهى الفنانين، تكية الفقراء، المكتبة الحجازية بالقرب من زاوية الأعرج، زاوية الأعرج، وغيرها من الأماكن التي تهب الشارع تميّز ملامحه.

حتى المجيرة وسط الشارع، ظهرت جدواها في تزايد عمليات البناء على امتداد الشارع، والشوارع القريبة، بمواد البناء: الرمل والأسمنت والجير والطوب الأحمر.

رُوي أن رجلاً من خارج بحري، ذا سحنة غير مألوفة، أعلن نفسه فتوةً للشارع الجديد في بداياته. دعا الأجر وحميدو شومة لأن يقتسما المسافة بين ضفتي الشارع، بينما يخضع الشارع والشوارع الجانبية لسيطرته.

ترك حميدو شومة لصبيانه أمرَ إبعاد الرجل عن الشارع الجديد، وعن الحي. غاب، ونسيه الناس.

كان من بين قاطني شارع إسماعيل صبري في بدايات إنشائه، لطفي أفندي حسن جبريل، الموظف بثلاث شركات: الفحومات الحجرية الألمانية، كوري للأقطان، الجراية لتصنيع الورق. عمله الترجمة من لغة إلى أخرى. تزوج خديجة محمد شمة. سكنا الطابق الثالث في البيت رقم ٥٤. يُطل — من واجهته — على شارع إسماعيل صبري، ومن الجانب على شارع رأس التين وفرنسا، ومن الخلف على شارع علي تماراز وجامع سيدي علي تماراز. في السطح، فوق الطابق السادس، تبين شبه جزيرة بحري، المتصلة بشبه جزيرة الإسكندرية. على يسار الواقف المينا الغربية، وعلى اليمين المينا الشرقية، وفي المواجهة خليج الأنفوشي.

أنجب الزوجان حسن (تُوفي في طفولته)، وسميرة، وعلي، ومحمد، وأحمد (تُوفي في طفولته)، وسعيد.

قُدّر لمحمد أن يكتب القصة والرواية. صدر له العديد من الروايات والمجموعات القصصية التي تتناول — في مشروعه الإبداعي — مظاهر الحياة في بحري.

أُصارع أنه لو لم يكن شارع إسماعيل صبري باسم الشاعر الذي أعرض لحياته، فلعلي كنت أتردد في الترجمة للشاعر. وُلد إسماعيل صبري في القاهرة. ظل — حتى أدرّكته الوفاة — من سكانها. إقامته في الإسكندرية فرضها العمل الوظيفي أعوامًا قليلة.

أحببت الشارع، فأحبيت الشاعر، وليس العكس، أو إني شُغلت بالشارع، فعُنيبت بكل ما يتصل به، حتى الاسم الذي أُطلق عليه.

لماذا؟ ومَن هو صاحب التسمية؟

أونوريه دي بلزاك أطال في وصف الشارع الذي دارت فيه أحداث قصته «على مَن يقع اللوم». اعتذر بأن الإطالة لأن الشارع هو الذي ولد فيه. لا أعذك باعتذار؛ فإسماعيل صبري شخصية مهمة. انتسب إلى بحري أعوامًا من الوظيفة، تُرشحه لهذه الموسوعة.

أُضيف السبب الآخر — دك من الأولويات — وهو انتماء مؤلف الموسوعة — بالطفولة والنشأة — إلى هذا الشارع، فمن الصعب أن أغفله.

البيت رقم ٥٤ بشارع إسماعيل صبري، خمسة طوابق، تعلقو دكاكين: الترزوي إبراهيم شعبان، الحلاق رشاد، والحلاق عبد السلام — كل واحد برزقه — تحتل قهوة المهدي اللبان جانب البيت الأيسر. الواجهة تُطل على شارع رأس التين، ومن اليمين على إسماعيل صبري، ومن اليسار على الشارع الخلفي الواصل بين البيت وجامع علي تمران.

كل طابق في البيت من شقتين، الشقة الأولى في الطابق الأول للطبيب الأرمني مردروس (أفدتُ من ترجمته في روايتي «صيد العصاري») تُقابلها أسرة سليمان أفندي الموظف في هيئة البريد. تشغل شقة في الطابق الثاني، أسرة طبيب مصري اسمه النجار. الشقة المقابلة لأسرة يهودية، طبقت «الجيتو»، فلم تحاول التعرف إلى الجيران، ولا أذنت حتى للمتريدين على البيت بدافع أعمالهم — كمحصل الكهرباء وبائع الخبز والزبال — أن يتعرفوا على ما بداخل الشقة. في الطابق الثالث تقطن أسرة لطفي أفندي حسن جبريل، تُقابلها أسرة من عائلة الداخني، الأب على المعاش، وأكبر الأبناء محام، فضلًا عن فتاتين تركتا الشقة بعد زواجهما. الطابق الرابع تشغل إحدى شقتيه أسرة الشيخ العطوي، المفتش بوزارة المعارف العمومية. تُقابلها أسرة عم سيد، الموظف السابق بالحكومة، أكبر أبنائه إبراهيم الموظف بمصلحة المواني والمنائر، طال عزوفه عن الزواج حتى يُتيح الفرصة لشقيقته اللتين أدركتهما العنوسة. الطابق الأخير لأسرتين، لكل أسرة ابنةٌ وحيدة، والأب يعمل موظفًا.

الوقفة فوق سطح البيت تُطل على الجهات الأربع.

في المواجهة امتداد بنايات إلى نهاية الأفق، تتخللها أسطح وطوابق عليا ومآذن وأبراج كنائس وأعمدة وأسلاك متشابكة. مَن يرتقي السور، يشاهد الجلوات القادمة



من أبي العباس، والمظاهرات التي ترفع اللافتات والشعارات والأناشيد، ضد الاستعمار والسرائي وحكومات الأقلية، ومواكب الزعماء السياسيين في قدومهم من أوروبا.

أميز ما شوهده في شارع إسماعيل صبري — تُطل عليه واجهة البيت — أرتال طويلة من العربات، أقلت جنود الإنجليز عند انسحابهم من الإسكندرية، مواكب الصوفية في المناسبات الدينية، عربات الكارو المحملة بجهاز العرائس من شارع الميدان إلى داخل بحري، مواكب الزفاف المتجهة إلى ميدان المساجد، تدور حول نفسها — سبع مرات — في قلب الميدان، تبرّكًا بمقام المرسي أبي العباس، الجنازات القادمة من الشوارع الملتحمة بميدان الخمس فوانيس، للصلاة في جامع الشيخ إبراهيم، ثم انطلاقها للدفن في مقابر العامود، الصفوف المتلاصقة من المتظاهرين، تشابكت أيديهم، وعلت أصواتهم بمطلع النشيد: بلادي، بلادي، بلادي ... لك حبي وفؤادي.

من الناحية المقابلة، تعلو مآذن أبي العباس وياقوت العرش والبوصيري، وقلعة قايتباي، من ورائها خليج الأنفوشي تبين منه الجزيرة الصخرية، والبلانسات البعيدة، والأفق المتداخل في ضبابية شفيفة.

إلى اليمين، المينا الغربية: المراكب الضخمة والأرصفة والمخازن والحاويات والمستودعات والرافعات والأبراج والمداخن.

إلى اليسار، المينا الشرقية: اللسان الحجري الفاصل بين دائرة الميناء، وأمواج البحر المتوسط، يمتد — من ناحية — إلى لسان السلسلة. ومن الناحية المقابلة إلى قلعة قايتباي، الجو الطيب، والحصيرة، والنوات التي تعلو بالأمواج، تصطدم بالمصدات الأسمنتية، والكورنيش الحجري، وتهبط — كسيل — إلى أرض الطريق.

في الشارع الخلفي، يلعب الأولاد السيجة وكرة الشراب والبلي والنحل وعنكب ياعنكب وشكل للبيع. يتابع الواقفون فوق السطح، وفي النوافذ والشرفات، صعود المؤذن درجات متدنة سيدي علي تمراز إلى البسطة الأخيرة، يضع وجهه بين كفيه، ويرفع الأذان في أوقات الصلاة الخمس. خطب الشيخ عبد الستار (الاسم مستعار، رضي الله عنه) في صلاة الجمعة، يقبل لسماعها الآلاف من داخل الإسكندرية، ومن المدن الأخرى، ينتقد الملك فاروق والحكومات المتعاقبة والفساد والتعفن.

انظر: الأبجر، أبو العباس، البوصيري، حمدي درويش، حميدو شومة، عبد الستار، علي تمراز، فاروق الأول، محمد كاظم ميلاني، ياقوت العرش. راجع كتابنا «حكايات عن جزيرة فاروس».



## أنجلو سبيرو

أنجلو سبيرو.

عَمِلَ أبوه سمسارًا في بورصة الأوراق المالية بميدان محمد علي. ثم فتح دكانًا للبقالة — قبالة أحذية باتا — بشارع الميدان. قاسمه أنجلو العمل أعوامَ دراسته بالمدرسة اليونانية، وتفرغ — بعد وفاة الأب — للبقالة. يشغى الشارع أمامه بعربات اليد، فوقها كومات الخيار والخس والطماطم والكرنب والبطاطس والبصل والثوم والبقوليات والفول والفلفل، والمبار ولحمة الرأس والكرشة والكوارع ولوط السمك، وتلاصق الأذرع والصدور والسيقان.

وجد في نهاية الحرب العالمية الأولى ما يُحفزه للسفر إلى اليونان. أسلم نفسه — في الأيام الأولى — للدهشة، ومطابقة ما رواه له أبوه على ما يراه. بعدها، شغله الحنين إلى الإسكندرية. يستعيد الأماكن والملامح.

قال لأبيه: عُد في الوقت الذي تختاره.

ثم في لهجة مؤكدة: سأعود إلى الإسكندرية بعد يومين!

أهمل الانتظار، بتوالي الأيام، وألّف الحياةَ بمفرده.

يلجأ إلى الحاج جودة هلال. يصبغ له شاربه وحاجبّيه. يترك شعر رأسه على بياضه. يتردد — في فترة المساء — على شارع صافية زغلول. يجلس في مقهى البلياردو، يشترى أسطوانات للموسيقى الغربية من محل «كولومبيا»، ولوحات — على فترات متباعدة — من «جارو» بائع اللوحات وأدوات الفن التشكيلي. قد يميل إلى الشوارع الجانبية، تُرافقه أطياف شخصيات كافافيس وداريل وفورستر. تصفو الملامح بتفرد الشخصية في الذهن، ثم تختلط بتوالي الشخصيات.

غازه أن اليونانية لينا سوفالتجي حصلت على تبرُّعه لإتمام عمليات البحث عن قبر الإسكندر. تعدّدت ترجيحاتها ما بين سيوة وشارع النبي دانيال وتحت قلعة قايتباي. أفنعه بصدق ترجيحاتها أنها عضو في جمعية يونانية للآثار، فهي تبحث عما تعرفه. تحدّثت عن خريطة في حوزتها من أيام «استرابون»، تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، وروايات أخرى كثيرة.

لم تعثر المرأة على قبر الإسكندر، ولم يبدُ أنها ستعثر عليه. قال أنجلو في أسَى: اختفت المرأة كما اختفت النقود، وثبت أن قبر الإسكندر أكذوبة! ظل — لسنوات — على علاقة بسيدة إيطالية متزوجة، تقطن الطابق الثاني في البيت الذي يقع الدكان أسفله. تُخلي له الطريق في مواعيد يتفقان عليها.

حين يغيب زوجها عن البيت، تُنير له الحجرة المطلة على شارع الميدان. يخترق المسافة بين باب الدكان وباب البيت. يتلفت — بعفوية — وهو يقفز — بوقع أقدام شاحب — درجات السلم إلى باب الشقة الموارب. يعود إلى وقفته في الدكان. طقوس الزواج ليست فرضاً على مَنْ يرفضها. من حق المرأة أن تحيا مع مَنْ تهواه، حتى لو تعرّفت إليه بعد تبيُّن خطأ زواجها.

علّمتها اليونانية، وعلّمتها الإيطالية. تداخلت مفردات اللغتين في أحاديثهما. أحب من الكتب التي أعارتها له، قصائد ناظم حكمت ولوركا وكفافيس ونيرودا، وروايات همنجواي وكامي ومورافيا، والتراجيديات الإغريقية، ومسرحيات شكسبير وتنيسي وليامز وإبسن وأونيل وبيكيت. اعتاد السهر في حجرته المطلة على شارع عبد المنعم، يقرأ، ويستمع إلى أسطوانات باخ وبرامز وبيتهوفن وموزار.

حدثها عن أدائه لدور الأب اليوناني في فيلم «الباشكاتب»، بطولة أمين عطا الله وأديل ليفي وبشارة واكيم وعلي طبنجات. أخرجه، وصوره، وأنتجه محمد بيومي. من أبناء الإسكندرية. أمضى سنوات في ألمانيا، تعلّم خلالها التصوير السينمائي. أنشأ — بعد عودته — أول استديو سينمائي في الإسكندرية.

شاهد أنجلو كل الحفلات، وشرّد به التمني، لكن المرض أقعد أباه في البيت، حل أنجلو في الدكان بدلاً منه.

تحدّثت عن استمتاعه بالتأخر في سريره أيام الأحاد. يُغلق دكانه مثلما يفعل معظم المحال والشركات ذلك اليوم في الإسكندرية.

فاجأته بالقول: ألا تذهب إلى الكنيسة؟

بدا السؤال غريباً ومربكاً. لم تخطر الكنيسة في باله. ينكر البعث والحياة الأخرى والحساب والجنة والنار. يرى أن جزء الإنسان يتم في الحياة الدنيا.

قالت: أليس للروم الأرثوذكس كنيسة؟

— أقصد أنها تختلف عن الكنيسة الكاثوليكية.

— لم أطلبك بالتحول عن الأرثوذكسية. أتحدث عن الدين في حياتك!

كتم دهشته من الانفصام بين ما تقوله وما تفعله — هو يريد ما — يرفض تصور أنهما يفترقان. قد يجز سؤال، أو ملاحظة، ما هو في غنى عنه. ما دام يلتقيان، لا شأن له بتردها على الكنيسة، إن كانت بقية الأوقات تُتيح لهما اللقاء!

قال: الطقوس ليست دليلاً على التدين!

من كانوا أعداء الماضي صاروا أصدقاء اليوم. بقايا الإغريق وبقايا الرومان نسوا ما كان، وعرفوا الحب، والتفاهم الجسدي.

قالت له — ذات مساء — وهي تمسّد شعر صدره، إن زوجها رحل إلى نابولي، وإنه

لا ينوي العودة.

أنكرت المرأة طلب أنجلو أن تقصّر علاقتها به. إذا كان زوجها قد أتاح لها حريتها، فإنها لن تأذن لأي رجل أن يفرض وصايته عليها. هي حرة نفسها.

أرهقه تمنعها بأعذار كثيرة: أنا متعبة ... عنائك يخنقني ... أعاني صداماً ... الدورة الشهرية تأخرت.

فاجأته — ليلة — وهي تغلق الباب وراءه: لم أعد أحب علاقتنا الجنسية ... لكنني

حريصة على استمرار صداقتنا.

دفع الباب بعنفوية، ليسأل.

حدثته عن الحرية المطلقة، لا قيود، لا حدود، لا التزام بشيء. ما يريد أحدهما أن

يفعله، فهو يفعله.

ناقش الأمر — بينه وبين نفسه — في لحظة، ثم وافق.

ظلاً معاً، يتنزهان، يتكلمان، يتقابلان. تروي له عن علاقات تخوضها. يشاهدها مع

آخرين. لا شأن له، وإلا استهجره!

تغافل عما أثار انتباهه — مصادفةً — في الحقيبة المفتوحة. شريط حبوب منع

الحمل، وسط النقود والمشط وأدوات الماكياج.

دعته للاحتفال برأس السنة.

ارتدى بدلة كاملة، وارتدت فستان سهرة. تجوّلاً فترة المساء في محطة الرمل. الزحام، عبارات التهنئة بالعام الجديد على واجهات المحال، الصخب المترامي من الكازينوهات والبارات على طريق الكورنيش، وفي شوارع الرمل ووسط البلد. غادرا فندق سيسل والنهار يُوشك على الطلوع. أبطأت في خطواتها، واتجهت إليه بملامح اجتذبت عينيه: فلنحدث قليلاً.

– ماذا كنّا نفعل طول الليل؟!

ظل صامتاً، يغالب الحيرة.

فاجأته بالقول: سأعود إلى إيطاليا.

– تعودين؟ ... أظن أن مصر هي بلدك؟

– أنا أجنبية في مصر.

وأشارت إلى ما حولها: حياتي ليست هنا.

قالت له إن أعوام إقامتها في الإسكندرية لم تسقط نظراتها إلى الشمال، إلى أوروبا.

وُلدت في الإسكندرية، لكنها تعرف انتماءها إلى إيطاليا.

لم تُناقش أباهما في نسبة الأسرة إلى نابولي، ولا ناقشت أمها – بعد رحيل الأب – في

نسبة الأسرة إلى ميلانو. اطمأنت إلى أنها تنتمي – بالوالدين – إلى ذلك البلد الأوروبي،

المطل على الإسكندرية من الضفة المقابلة.

ثم وهي تُحرك بإصبعين خصلةً شعر متهدلة على جبهتها: سأعود إلى نابولي.

– إلى زوجك؟

– إلى وطني ... لم أر المدينة لكنني أحنُّ إليها.

فطن إلى أنهما سارا على قضبان منفصلة، ومتوازية. إذا لم يُدرك الملل أحدهما،

فإن التعب سيُرهقه. لكنه لم يتصور أن سفر المرأة يترك – في حياته – هذا الفراغ.

تصور أن ما قالته مجرد تهديد. خلت حياته من الصداقة التي لا تترك شيئاً للمصادفة:

القراءة، وسماع الموسيقى، والعاطفة، وأوقات الدفء، والتمشي على الكورنيش، والتردد

على المسارح ودور السينما.

طالّت قعداته إلى خليل الفحام. يستريح الفحام من تعب الجولات. تشرق أحاديثهما

وتغرب. يقرأ جريدة «التاشيد روموس» اليونانية، لكنه يُتقن القفشة والنكته وتبادل

القافية، يستخدم الكناية والتورية والتشبيه، يُجيد تحويل الحديث إلى ما يخص حياته:

نشأته في الأزاريطة، دراسته في العطارين الابتدائية، تردده – صباح كل أحد – على

الكنيسة اليونانية بشارع فؤاد. يستعيد مرافقة أبيه. وهو طفل. إلى بار كوستي بشارع أنسطاسي. استمع إلى سيد درويش يغني في هجاء جليلة، حبيبته التي تنكّرت له:

أما بقى ساتت دكان      استنى عنده بالقمصان  
تلقى اللي فيه قاضي النسوان      عمر اللي زيه ما يتعتب  
بيقولوا مرة عمل خلخال      ينفع ركاب لتلاتة بغال  
سألت مين لبسته يا عيال      قالوا جليلة أم ركب

يتذكر — رغم انقضاء الأعوام — قامة سيد درويش العملاقة، ملامحه الأقرب للزنجية: بشرته السمراء، جبهته المرتفعة، وجهه المستدير، شعره المجعد، أنفه الأفطس، صوته الأجش، عينيه الخضراوين.

تقبّل خليل الفحام — بما يُشبه المفاجأة — قول أنجلو سبيرو إنه يجلس إلى جانب الراديو — مساء كل اثنين — لسماع تلاوة الشيخ محمد رفعت.

علّق على مدخل الدكان — ذات صباح — لافتة، كتب عليها «إن نطق الديك، شكك أديك». قال أنجلو للدهشة المتسائلة: انتهى البيع بالأجل ... أُعد نفسي للسفر. قال خليفة كاسب: لن يُنكر الناس حَقك بعد عودتك!  
— هذه المرة ... لا عودة!

— لماذا؟

— تعبت! ... أريد أن تكون أيامي الأخيرة في وطني.

كانت الإسكندرية تحيا تأثيرات ما بعد حرب ١٩٥٦م.

هاجرت أعداد كبيرة من الأجانب خارج مصر. شملت الهجرة فرنسيين وإيطاليين وإنجليزاً وأرمن ويونانيين ويهوداً. هاجرت أعداد من المصريين ذوي الأصول الشامية. تركوا أعمالهم، باعوا البيوت والشقق والمحال التجارية.

استعاد بيع اليهود ممتلكاتهم، عند اقتراب قوات الألمان من الإسكندرية في الحرب العالمية الثانية. لم يُطيلوا المساومة ولا الفصال. ما عرض عليهم لحقوا به أول باخرة إلى أوروبا، أو استقلوا قطار الشرق. أدت الهجرة الجماعية إلى شحوب القسّمات الأجنبية في الإسكندرية، وفي مصر كلها. حلت لافتات كثيرة باللغة العربية بدلاً من الإنجليزية والفرنسية.

قال أنجلو: كانت مشكلة اليهود هي البحث عن وطن. وهزَّ كَتْفِيهِ فِي تَهْوِينٍ: لَا مَشْكَلَةَ عِنْدِي. سَأَعُودُ إِلَى وَطَنِي.

تَمَلَّكَ أَنْجَلُو شَعُورَ بَالانْسَحَابِ وَعَدَمَ الْجِدْوَى، وَأَصَابَتْهُ نَوْبَاتٌ مِنَ الْاِكْتِتَابِ. هُوَ خَوَاجَةٌ فِي نَظَرِ أَهْلِ بَحْرِي، حَتَّى الْجِيرَانِ وَالزَّبَائِنِ الدَائِمِينَ. أَكْثَرَ مِنَ الْكَلَامِ عَنِ اشْتِرَاكِهِ فِي الْمَظَاهِرَاتِ، وَاسْتِقْبَالِ الزَّعْمَاءِ فِي عَوْدَتِهِمْ مِنَ الْخَارِجِ، وَحُضُورِ الْاجْتِمَاعَاتِ الْاِنْتِخَابِيَّةِ: عَشَتْ كَمَا يَعِيشُ النَّاسُ، تَصَرَّفَتْ كَمَصْرِيٍّ تَمَامًا، أَكْثَرَ — رُبَمَا — مِنَ الْكَثِيرِينَ!

أَحْزَنَهُ أَنْ الْاِسْكَنْدَرِيَّةَ لَمْ تُعَدِّ الْمَدِينَةَ الْكُوزْمُوبَالِيَّتِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ. رَجَلَ الْاَجْنَابِ، أَهَمَّ الْمَلَامِحَ الْمَغَايِرَةَ لِلْمَدِينَةِ. مَعَهُمْ مَا كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِهِ مِنْ عَادَاتٍ وَتَقَالِيدٍ وَإِقَاعِ حَيَاةٍ. طَالَ اِنْحِسَارُ الْمِيَاهِ عَنِ الرَّمَالِ، فَتَجَمَّدَتْ. لَمْ يَعُْدْ سِوَى الْعَجَائِزِ الَّتِي اضْطَرَّتْهُمْ الظُّرُوفُ الْمَادِيَّةُ إِلَى الْبَقَاءِ. هُوَ لَمْ يَبْلُغِ السَّنَ الَّتِي يَعْجِزُ فِيهَا عَنِ الرَّحِيلِ، وَظُرُوفُهُ الْمَادِيَّةُ تُتِيحُ لَهُ أَنْ يَجَاوِزَ تَعَثُّرَاتِ الْبَدَايَةِ فِي عَوْدَتِهِ إِلَى الْيُونَانِ.

عَرَضَ لُوحَاتٍ مَقْلَدَةً عَلَى حَجَازِي أَيُوبَ. عَرَضَهَا حَجَازِي عَلَى سَعِيدِ الْعُدُويِّ. اِعْتَذَرَ بِأَنَّهُ إِذَا اشْتَرَى لُوحَاتٍ فَسْتَكُونُ أَصْلِيَّةً. بَاعَ بَقِيَّةَ مَا فِي شِقَّتِهِ إِلَى تَاجِرٍ فِي الْعَطَارِينَ. سَاوَمَهُ قَلِيلًا، ثُمَّ وَافَقَ. اشْتَرَطَ أَلَّا يَتَسَلَّمَ الرَّجُلُ مَا اشْتَرَاهُ قَبْلَ عَوْدَةِ أَنْجَلُو إِلَى الْيُونَانِ.

قَالَ خَلِيلُ الْفَحَامِ: كَانَتْ حَرْبِنَا مَعَ الْاِنْتِجَلِيزِ وَالْفَرَنْسِيِّينَ وَالْاِسْرَائِيلِيِّينَ. وَاحْتَضَنَهُ بِلَهْجَةٍ وَدٍ: مِصْرُ هِيَ وَطَنُكَ.

قَالَ أَنْجَلُو: مِنَ الْمَسْتَحِيلِ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَخْلُقَ لِنَفْسِهِ وَطَنًا. الْاَوْطَانُ نَعِيشٌ فِيهَا، وَتَعِيشٌ فِيهَا. الْوَطَنُ لَيْسَ طُمُوحًا وَلَا أَمْنِيَّةً.

ثُمَّ هُوَ يَوْمِيَّ بَرَأْسِهِ: أَحْيَانًا، أَشْعُرُ أَنِّي سَكَنْدَرِيٌّ ... أَفَاجَأُ بِتَسْمِيَةِ «خَوَاجَةٌ» فَأَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ.

تَحَدَّثَ عَنِ اسْتِبْدَالِ أَصَابِعِهِ بِالْمَلْعَقَةِ وَالشُّوْكَةِ وَالسَّكِينِ فِي تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، اِحْتِسَاءً الْجُوزَةَ بَدَلًا مِنَ النَّارِجِيلَةِ، ارْتِشَافَ الشَّايِ الثَّقِيلِ بِصَوْتِ مَسْمُوعٍ، الْجُلُوسَ مَتْرِبِعًا عَلَى الْأَرْضِ، نَوْمَ الْقِيلُولَةِ، اسْتِخْدَامَ الْعَامِيَّةِ بِتَعْبِيرَاتِ السَّكَنْدَرِيِّينَ.

— أَتَصَرَّفُ كَمَا يَتَصَرَّفُ ابْنُ بَلَدٍ، لَكِنْ تَسْمِيَةُ الْخَوَاجَةِ كَأَنَّهَا الْوَشْمُ — بِكَلَامِ النَّاسِ — عَلَى جَسَدِي!

سَرَى فِي صَوْتِ الْفَحَامِ اِنْفِعَالَ: الْحَقِيقَةُ أَنْكَ سَكَنْدَرِيٌّ ... مِصْرِيٌّ.

وَهُوَ يَرِبْتُ صَدْرَهُ: مَشَاعِرُ طَيِّبَةٌ.

وَتَشَاغَلَ بِتَعْلِيقِ قِطْعِ الْبَسْطَرْمَةِ عَلَى وَاجِهَةِ الدَّكَانِ: أَظُنُّ أَنَّ الْوَطَنَ هُوَ حَيْثُ تَوْجَدُ لَكَ عَائِلَةٌ.



أنجلو سبيرو

وربت صدره: كما ترى، فأنا بلا أسرة!  
ثم وهو يُغالب التألم: ما أقسى أن يموت المرء وحيداً!

انظر: الإسكندر، جودة هلال، حجازي أيوب، خليفة كاسب، خليل الفحام، سعيد  
العدوي، سيد درويش.



## إنصاف

أحكمت الملاءة حول جسدها. تأكدت من موضع قصبه البرقع فوق الأنف. مضت إلى مَنْ يملكون ما يعرّفونها به، ويطمئنونها.

أهملت قول الرئيس غريب أبي النجا إن مخلوقات البحر أخذت رشاد وديعة، لسبب تعلمه، ولن تُعيده إلا لسبب تعلمه.

علا بخور المجرمة أمام سيسبان، وهممت برُقَى وابتهالات وأدعية. نصح الشيخ عبد الستار أن تثق في رحمة الله، هو المتصرف، وصاحب الأمر، لا حيلة لنا فيما يقدره. دلّتها الست صبيحة على مقام سيدي العدوي، في نقطة التقاء شارع إسماعيل صبري، وشارع صفر باشا. المقام الصغير يكبر بسرّ صاحبه الباتع في استعادة الغائبين والمفقودين.

سيدي أحمد البدوي جاب الأسرى من البلاد البعيدة. بركات سيدي العدوي مداها حدود البلاد المصرية: المدن والقرى والبحر والصحراء والخلاء. إن لم يعده بمكاشفة، همس في نفس أهله وذويه بموضع وجوده، ما إذا كان قد اختفى باختياره، أو يعاني الاختفاء.

وقفت أمام المقام المرتفع ذي الكسوة الخضراء. هزّت قضبان النافذة الحديدية الصغيرة بالاستغاثة. تذلت، توسلت، انتحبت، شرحت الظروف وما تأمله. نزعت الطرحة من رأسها، مسحت بها شبك المقام، حتى يستجيب الولي لدعوتها، ويعود الغائب.

طال انتظارها في مدخل البيت.

يُرَبِّكها توقع قدومه. تقوم وتقع. تمشي ناحية الباب. تعود قبل أن تفتحه. تبدأ جملة، تُنهيها قبل أن تتّمّها. تُغمض عينيها، تستعيد ما لا تراه: ومضات من ملامح وعبارات وتصرفات، كأنها صور ثابتة، لا صلة لها بما قبل، ولا بعد.

ظلت على ثقة — بعد أن طال غيابه — من أنه ركب البحر في رحلة بعيدة، وأنه سيعود في يوم من الأيام.

ألفت ركوبه البحر إلى بلاد الغربية. غياب ما قد يبلغ العشرين يوماً، أو الشهر. مهما يَطلُّ غيابه، فلا بد أن يعود إليها. حتى لو صدَّقته فيما يرويه عن تنقله بين أجساد النساء في مدن العالم، لو لم يكن ما يحكيه لإثارة غيرتها، فهو يلوح لها — ذات يوم — في قدومه من أول الشارع، أو تنتبه لطرقاته — تعرفها — على باب البيت. لا تأذن له بالصعود إلى السرير، قبل أن يبدل ملابسه ويستحم، يتخلص من رائحة السمك العالقة بجسده.

أسكتت الصرخة براحتها — في عودته آخر مرة — وهي تتأمل وقفته الساكنة. تدلِّي نراعيه، وصعوبة قدرته على الكلام. كأنه لم يعد يملك صوتاً. ضاع صوته فلا يعرف كيف يجد الكلمات، ولا كيف ينطق. إذا تحركت شفثاه، غمغم بكلمات مبتورة، أو مدغمة.

قال الحاج جودة هلال: متى نزل البحر؟

قالت: كل يوم ينزل البحر. الصيد عمله.

— ما يُعانيه قرصة بحر.

أضاف لنظرتها المتسائلة: قرصة الجنية لاجتذابه داخل البحر. أفلت منها، لكن القرصة أدخلته هذه الحالة.

ثم وهو يعدل من وضع طربوشه فوق رأسه: الخروج من تأثير القرصة يحتاج إلى يوم أو يومين.

لاستعجال عودته، تطوف البيت، الصالة التحتية، والحمام، والمطبخ، والسلالم، والحجرات الثلاث. تُطلق التعاويذ والأدعية وأريج البخور، تبسمل، وتتلو المعوذتين. وسورة يس.

قال الشيخ عبد الستار: إذا لم يجد الصياد رزقه في مكان ما، فإنه قد يتجه إلى مكان آخر.

أردف بلهجة مهونة: لعل زوجك واجه المشكلة نفسها.

وضغط على الكلمات: رشاد سيعود سالماً بإذن الله!

رويت حكايات كثيرة، تختلف في التفاصيل، لكنها تلتقي في أن عودة رشاد إلى اليابسة ليست مؤكدة.

غرق في البحر. لا قبر يضم جثمانه، إنما هو قطع متناثرة، مفتتة، في بطون الأسماك. عروس البحر اجتذبت به بغنائها، صحبته إلى الأعماق، لا يعود، أو قد لا يعود بعد أن يدركه الكبر. شاهده عبد الله أبو رواش وهو يصعد سلّم باخرة ضخمة، تستعد للإقلاع إلى الموانئ البعيدة.

اعتاد الناس غيابَ البلائسات. يمضي البلائس داخل البحر، ولا يعود. تتطلع الأعين — في وقفة الشاطئ — إلى الأفق. تذرع الخطوات البطيئة والمهرولة مساحات الرمال، ورسيف الكورنيش. ربما اتجهت القوارب الصغيرة إلى آخر مداها، للبحث عن أثر تهدي به.

لما طال غيابه، حدّثتها السُّ صبيحة عن الهجر الذي يهبها الحق في أن تطلب الطلاق. قالت صبيحة: كما أن للبشر نصيبهم من السمك، فإن لمخلوقات البحر نصيبها من البشر. إذا لم تتعادل الكفتان، فلا بأس من تقاربهما بإغراق المراكب ومن عليها. واتجهت نظرًا لها إلى الناحية المقابلة: حتى لو مات غريقًا فقد كسب الشهادة! قالت إنصاف: رشاد ركب البحر من أجل الأولاد. زوت المرأة عينها بالدهشة: لكنه لم يعد ... هل تموتون من الجوع؟ — الله لا ينسى عبيده!

شاب صوتها حدة: أكلّمك عن الزوج الذي طال غيابه! لم تتعود غيابه في البحر أكثر من عشرين يومًا، تزيد إلى شهر، شهر لا أكثر، ثم يطالها أول الشارع بالقامة الطويلة، والشعر المتهدل على الجبهة، والذراعين المتطوحتين والأفروال الكاكي، والحقيبة المدلاة على الكتف، والابتسام الماكرة على جانب فمه: هل سمعت أن صيادًا عاد من رحلة بزوجة أجنبية؟!

ثم وهو يهزُّ إصبعه متوعدًا: في المرة القادمة ... ربما تزوجت جنية البحر! يحدثها عن الشعور الذي لا يتبدل عقب كل رحلة، كأن الأرض تهتز من تحته، أو أنها تنهياً لابتلاعه. تماوُج المربّيات يضايقه، يُغمض عينيه، ويفتحهما. يُطيل التحديق للتأكد. يدركه التعب بالسير خطوات. السُّحن تبدو غير ما ألف رؤيتها في أيام البحر. حتى التعبيرات التي اعتاد قولها في مناسبات الكلام القليلة، تختلف عما يُثيره الزحام — على الأرض — والأخذ والرد والمساومة والكلاكسات والميكروفونات والفصال والبنائيات العالية والسؤال والملاحظة والباعة والرفض والقبول واللوم والعتاب والمعايرة وإشارات المرور.

يسيطر عليه إحساسٌ بالغرابة، في داخل نفسه، وفيما حوله. لا يتصور نفسه بعيداً عن ظهر بلانس، أو باخرة تجارية.

طال غيابه — في رحلة — أكثر من شهرين.

لم تُخَفِ استيائها: لماذا لا تبحث عن عمل في البر؟

قال: رزقي في البحر.

— وبيتك ... ألا يهْمُك؟

في لهجةٍ تقريرية: لهذا أركب البحر.

في النجمة، أحكمت لفَّ ملاءتها.

اخترقت الشوارع الضيقة، الملتوية، إلى حلقة السمك. اختلطت — في الظلمة — معالمُ الأشياء، وتشوشت، وتاهت. ثم — بالعود — بدأت ملامح الأشياء تظهر. المراكب الساكنة على رمال الشاطئ تغطَّت بشباك الصيد. سحابات النوارس البيضاء تنطلق في الأفق، وتعود. وثمة صوت تكسر الأمواج على المصدات الأسمنتية.

مالت إلى باب الحلقة العالي، المفتوح، اخترقت الزحام والنداءات والطبالي والفصال والمساومة والغمز واللمز والزعيق وبرك المياه الأسنة وألواح الثلج. لجأت إلى شروات سقط السمك والبسارية المتساقطة من الطبالي.

أشفق شوقي أبو سليمان من باب البيت الذي تتركه مفتوحاً. أهملت التحذيرات من أن يتسلل إلى البيت مَنْ يحاول سرقة، أو يُفاجئها في حجرة النوم. لم تُطاوعها نفسها على أن تغلق باب البيت في وجه التوقع. هو لا بد أن يأتي، ولا بد أن تترك له البابَ مفتوحاً، وتنتظر.

قالت لها ابتهاج المنسي: كم مرة عانيتِ القلق لغياب زوجك؟

زوتٌ حاجبها: مرات كثيرة.

استطردت ابتهاج: هو يعود في كل مرة.

واتسعت عيناها بالدهشة: لماذا القلق الآن إذن؟

لم يسأل عمران الخولي إنصاف، إذا كان طلبها ترميمَ قارب زوجها القديم، ليساعدها بيعه على الظروف القاسية، أو أنها تنوي قيادته في نقل الأولاد، في احتفالهم بعيد الأضحى، الذي كان على الأبواب.

لم يسأل عمران المرأة عن سبب اختيار المنطقة خلف قلعة قايتباي لرسو القارب، وإلى متى يظل مربوطاً في الخابور على حجارة الشاطئ؟  
الصخور كثيرة، متناثرة، تختلط بالكثبان الرملية، وقطع الحجارة، ومكعبات الأسمنت، والأعشاب اللزقة، وخطر النوات يهدد القارب، مهما أُجيد ربطه بالخابور على الشاطئ.

احتضنها بنظرة إشفاق، وهو يدفع يدها الممدودة بمقابل الترميم: ليتك تستفيدين من القارب!

تلقت حولها تتأكد ما إذا كان أحد يراها.  
استحالت ظلمة الليل رمادية شاحبة.

ثمة أسراب من الطير، تقترب وتتباع، وتعلو في اتجاه الأفق، ثم تعود. أصواتها خافتة، أو أنها صمتت عن الصياح. السماء ملبدة بالغيوم، وإن ظلت الأمواج هادئة، والمياه اختلطت بالزيت المتسرب من السفن، فصارت أقرب إلى الخضرة، والهدير الرتيب للأمواج يترامى في اصطدامها بجدران قلعة قايتباي.  
رفعت الخطاف من المياه. جذبت حبل المرساة.  
فكّت الحبل من الخابور.

دفعت القارب داخل المياه، وقفزت داخله.  
بدأ القارب يتحرك.

اعتدلت في جلستها. اطمأنت إلى أن المجدافين بين راحتها تماماً. جدفت، وجدفت، وجدفت.

انطلقت في اتجاه الأفق.

أسقطت كل ما استمعت إليه. كل ما رُوي عن مخلوقات البحر، وعن غناء الجنية الذي يجذب الصيادين، وعن الغوص بهم في الأعماق البعيدة. أسقطت حتى كلمات القدر، والمشيمة، والظروف القاسية.

لم يعد إلا صوت المجدافين وهما يرتطمان بالأمواج الهادئة.  
في بالها أن تواصل ركوب البحر حتى تلتقي بما لا تعرفه جيداً، لكنه هناك، في نقطة قريبة، أو بعيدة.

انظر: ابتهاج المنسي، جودة هلال، سيسبان، شوقي أبو سليمان، صبيحة الداخني، عبد الستار، عبد الله أبو رواش، عروس البحر، عمران الخولي.





## الأنفوشي

تعددت الروايات عن تسمية الأنفوشي. قيل إنها تعود إلى الإيطالي أنفوس، أقامت عائلته في بحري، في زمن قديم، ورجحت روايات أنه من أولياء الله الصالحين.

رُوي أن سيدي الأنفوشي هو صاحب المقام داخل حجرة، بالطابق الأول، وسط مدرسة البوصيري الأولية.

ذكر أن الاسم ليس عربياً، لكنه فارسي. لعله «الكهنفوشي» الذي ورد في كتاب السخاوي «الضوء اللامع»، عن أعلام القرن التاسع الهجري.

ثمة رواية أخرى أن التسمية محرّفة من اسم جندي في جيش السلطان قايتباي. أظهر الخيانة — بتأييد من السلطان نفسه — ليعرف ما يدبر الأعداء. رسا على ما سيفعله، وما ينتظره من عقاب. حياته ثمّن القبول بتهمة الخيانة. يُضلل الأعداء في محاولاتهم النفاذ إلى داخل المدينة. يُعطيهم الأوراق الزائفة بدلاً من الأوراق الصحيحة. مَنْ كانوا يعدون الأوراق الصحيحة أُلقي القبض عليهم، وأُعدموا. يدفع الأعداء جنودهم. بالاطمئنان لما تحمله الأوراق — إلى داخل القلعة — يلقاهم جند السلطان بالإبادة.

نفض الجندي الأنفوشي عن رأسه تدبّر النتائج. لا يملك إلا القبول برأي السلطان، هو الأشد معرفةً بصالح الجماعة، حتى لو كان الثمن حياة أحد جنوده. لم يدفع به إلى الموت لأن ذلك ما يريده له، وإنما لأن فقد حياته وسيلةً تضليل لجيوش الصليبيين.

قال السلطان: هل أنبهك إلى ما سيقوله الناس عنك.

قال الأنفوشي في لهجة تسليم: أن يظنني الناس خائناً وأنا أمين، أفضل من أن يظنوني أميناً وأنا خائن.

أصدر السلطان أمره — وهو يعاني التألم — بإعدام الجندي الأنفوشي. قال السلطان في أمره إن الخيانة عقابها النفي من الحياة.

عرف الجندي الأنفوشي ما يجب فعله من خطوات: أسلم نفسه للقيود في يديه وقدميه، وبالحراسة على باب الحجرة المغلقة حتى يضع عنقه تحت سيف المشاعلي. استعان بحدة الإرادة، وشدة المجاهدة، وإطراح ما سوى الله تعالى.

أهمل النظرات المفعمة بالغضب وعدم التصديق. سكت عن عبارات الشتم، والمؤاخذه، وقطع الحجارة التي قذفه بها الأولاد من ساحة القلعة.

عرف الثمن الذي يجب أن يدفعه لقاء اعترافه الزعم.

قرن السلطان إعلانَ براءة الجندي — فيما بعد — بدفنه في الحجرة نفسها، أسفل القلعة المسماة باسم قايتباي.

ما توصلنا إليه بالقراءة والتعرف المباشر، أن سيدي الأنفوشي ظل في سجن القلعة أعوامًا، حتى قضى والي الإسكندرية بإعدامه. كان في أثنائها قد أَلِفَ حياةَ العزلة، والانقطاع للعبادة والتأمل. يسبح الله تعالى، ويقده، ويمجده، ويوحده. إذا حان وقت الصلاة، أشار إلى القيود في يديه ورجليه، فتساقطت. يؤدي الصلاة، ويعيد القيود إلى حيث كانت. أعطى الكلمة للسلطان، وعليه أن يفِي بما وعد. اطمأن إلى الغاية التي يبذل حياته من أجلها.

زهد في متاع الدنيا وجاهها. جعل هدفه الظفر برضوان الله.

تجَلَّى الحق بأنوار الولاية عليه. أحب ذكر الموت، وترك ذكر الحياة. تعجَّل الموت. شغله أن يحيا هناء الآخرة.

نظر إلى باطن الدنيا، وأهمل النظر إلى ظاهرها، لم يتلوث بمحبتها، نظر إلى أجل الدنيا، بينما ينظر الناس إلى عاجلها. أخلص في طاعة الله، توكل عليه، وسلَّم أمره إليه. عكف على الخلوة والتعبد. يؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها، ويصوم رمضان، ويجتنب الكبائر السبع. لا يرجو عفوًا ولا مثوبة ولا جنة. ما يرجوه مجرد الاتصال بالله، القرب من جلاله.

أدرك أنه لا قبَل له بتدوُّق المعاني النورانية، فهي محجوبة عن عوام الخلق أمثاله. أثر الاختفاء والتستر على الظهور، وادعاء ما قد لا تؤهله له قدراته. فرَّغ قلبه من الفكر والنظر، أخلاه مما سوى الحق سبحانه.

لازم الذكر والمراقبة والتوبة والاستنكار والجلوس في الحضرة العلية. اصطنع المجاهدات والرياضات الشاقة. كلما وجد وقتاً، قام للصلاة، يؤدي من الركعات والسجودات ما لا يعدّه. سلّم وجهه إلى الله في كل الأوقات. لم يعد يرى إلا أسماء الله تعالى، وصفاته. أتاح الله له خرق العادة، وخصّه بأفعال الكرامات. للولاية شارات وعلائم.

مخلوقات العوالم النورانية ترانا من حيث لا نرى، وتعلم عنا أكثر مما نعلم عن أنفسنا. الملائكة موجودون أحياء، لا يراهم أحد من البشر إلا من خصه الله بكرامة من أوليائه. صار الأنفوشي يرى الملائكة، ويحدثهم، يتطلع — من خلالهم — إلى أنوار الحق تعالى، وبهاء المناظر الإلهية.

لم يكن يُقدم على تصرف، إلا إذا كان تنفيذاً للمشيئة الإلهية. يهمس الصوت الملائكي في نومه، أو يرى صاحب الصوت رؤية العين فيما يشبه الومضة. يُلقى كلماته، ويختفي. رأى في منامه، ولعله حلم يقظة، أو يقظة كالحلم، الملك جبريل يهبط من عل بأجنحته الأربعة: جناح من لؤلؤ، وجناح من ياقوت، وجناح من زمرد، وجناح من نور الله سبحانه. امتد المكان، فغابت المسافات. صارت بلا آفاق من كل الجوانب. يعرف أن خمسمائة عام تفصل بين كل جناح وآخر، على رأسه ذؤابتان، واحدة على لون الشمس، والثانية على لون القمر، رُصّعتا بالجواهر والياقوت، وتتضوع منهما رائحة المسك والكافور. ظل الملك صامتاً، وإن اكتست ملامحه بابتسامة مشفقة. ثم خفق بأجنحته، وحلق بعيداً.

دعا الأنفوشي الحق أن يكشف ما كان مستوراً، ويفصح عما كان خافياً، ويُعلي صوت ما ران عليه سكوت. يسهل أمره فيكتم بذل نفسه فدية عن الجماعة. لا يطمع إلا في أنوار الله سبحانه.

لمعت لوامع اليقين في قلبه. بلغ درجة الخواص من القاصدين. أيده الله بالكرامات، وغيب عنه البدع. هذه تجليات الحق تعالى، يظهر بها على من يشاء من عباده.

رُوي أن المشاعلي الموكل بإعدامه دخل عليه الحجر، فوجده قائماً يصلي. لما فرغ من صلاته، هوى المشاعلي بالسيف، فلم يصب الأنفوشي بشيء، ولا اهتز في موضعه، ولا تألم.

ألقى المشاعلي سيفه من الخوف، وجرى إلى ساحة القلعة.

لحقه صوت الأنفوشي: لم أكن قد أعلنت موافقتي، فعداً!  
دُنْ حيث أمضى سجنه، وحيث أُعدم، أسفل قلعة قايتباي. على يسار المدخل الرئيس.  
لما هَمَّ المغسَلُ بغسله، أُلقيت أمامه ليفة مبلولة، يرافقها صوتُ غائب المصدر: هذا ماء من  
زمزم.  
استبدل المغسَلُ الليفة بما في يده. لم يجفَّ الماء في الليفة، حتى أنهى الغسل تماماً.

ظهرت — بتوالي الأعوام — بركات سيدي الأنفوشي ومعجزاته.  
ظلت روح ولي الله على خيرها، وحبها للناس. لم يؤثر فيها أنه دفع حياته ثمناً  
لإخلاصه لقومه.

عرف الناس أن الموت لا يعزل الولي عن ولايته، المكاشفات لا تنقطع، تُعين الناس  
على أمور دنياهم، وتدلهم على طريق الصواب إلى الآخرة.  
يأتيه الجانُّ ورجال الغيب، يدلُّهم على طريق الصواب، يظهر في أوقات الليل والنهار،  
يتهدج صوته في هدأة الليل بدعوات وابتهالات وأذكار. لم يكن يخالط أحداً من المترددين  
على القلعة، وإن نسبوا ما تحقق — بفضل — لهم، ولذويهم، ما بدل حياتهم من العسر  
يسراً.

حين استغاث به الصياد السعداوي شبانة من تأثير نوة الفيضة الكبرى على صيد  
الطراحة، فهو يستعيدها فارغة، دعا ولي الله للصياد بالرزق. سحب الصياد طراحته،  
فشهق لرؤية أنواع الأسماك التي تحيا في الأعماق البعيدة.  
عانت الإسكندرية جواً بارداً في عام ١٩٣٤م. استغاث الناس بسيدي الأنفوشي. دعا  
الله لكي يقى الناس قسوة البرد. أجاب الله دعاءه.

حين هوى عامل بهيئة الآثار على ضريح سيدي الأنفوشي، بفأس، يريد هدمه، تحوّلت  
الفأس — بمجرد تحريكها — إلى حية بحجمها. أدارت رأسها ناحية العامل. لدغته، فمات  
لتوه.

لما ألمَّ الوباء بالإسكندرية في ١٩٤٧م، تشفع الناس في ولي الله. عرض الأمر على أولياء  
الله في مجلسهم داخل ساحة ضريحه.

ظل الوباء — حتى تلاشيهِ — بعيداً عن بحري، وعن الإسكندرية.  
كان صوته يتناهى من داخل القبر، يحمل نبرة الاعتذار في حديثه عما تلزمه به  
وظيفته، هو جندي في جيش السلطان أدى واجبه، بذل حياته — بتقبل تهمة الخيانة —

فدية عن حياة الناس، لا شأن له بالمشيخة والوعظ والإفتاء، لا صلة له حتى باجتهادات الصوفية. لكن معجزاته في حياة الناس تضعه في موضع الأولياء، وتضع الناس في موضع المؤمنين بقدراته التي ترتفع عن قدرة البشر.

ستر الأنفوشي أذواقه ومكاشفاته عن الذين قد لا يعون حقيقة المعاني، ودلالة الأفعال والكلمات والإيماءات والإشارات.

رُوي أن أبا المعاطي عنبة، عرضالحجي المحكمة الشرعية، تشكك في الحكايات التي تتحدث عن سيدي الأنفوشي، وما إذا كان مجرد جندي في جيش السلطان قايتباي، أم أنه رضي بتهمة الخيانة، فاكتسب الولاية، مقابلًا لما أسداه لسلطانه، ووطنه.

علا صوت الرجل بما يسيء، في حضرة ولي الله. قرن كلماته بأن أخرج قضيبه ليبول على الضريح. تجمّد البول المندفح، تحول إلى ما يُشبه العصا الرفيعة، المتبيسة. أسلم أبو المعاطي الروح قبل أن تصل سيارة الإسعاف إلى مستشفى رأس التين. أراد حميدو شومة أن يجدد الضريح. كان الطلاء قد تآكل، وتآكلت حجارته بطوق الملوحة من حوله.

اعتذر مفتش الآثار بالقلعة أن كل ما فيها يجب أن يظل على حاله، لا تعديل، ولا تحويل، حتى لا تنشأ مشكلة تشوه الأثر، وتُسيء إلى قيمته.

قال حميدو: سيقصر العمال على ترميم الضريح.

— لا أملك السماح بدخول القلعة إلا لعمال هيئة الآثار. هذا عملهم!

حتى الفجوة في الجدار ظلت على حالها. رُوي أن بداخلها ثعبانًا ضخماً، يُعنى بحراسة الضريح. يُدرك النيات الشريرة، فيتصدى لها.

رفض أن ينسب إليه ما تيقن الناس من أنها كرامات صدرت عن ولايته. أخفى أحواله، وكنم أسراره. رجح كفة المصادفة والتصرف التلقائي، حتى لا يكون ما حدث مكرًا واستدراجًا، فيخسر تواضعه، وانكسار نفسه لله تعالى.

لما تنزلت عليه الملائكة، وأعلمته أنه ولي — له المهابة والتوقير — زال عنه الخوف، واطمأن إلى ولايته، وأن ما صدر عنه كرامات، أتاحت لتحقيقها قدرة الله — سبحانه — وسابغ عطفه. تولى الله بالطاعة، فتولاه بالكرامات.

الولي هو الذي يأمر بالاعتقاد الصحيح، القائم على الدليل، ولا يُقَدِّم إلا على الأعمال الصالحة، وفق ما تقضي به الشريعة. لا بد أن تكون الأرض عامرة — في توالي العصور —

بأولياء الله، هم موجودون في كل زمان، يبصرون الناس بأمر دينهم، ويشيرون عليهم بحقائق الكتاب والسنة.

صارت له قدرة هائلة على كسب الأتباع، واجتذاب العلماء والطلاب والمريدين إلى حلقات درسه، من يتوسم فيهم الاستعداد لاتباع طريقه. يضع يده على رعوسهم، داعياً الله لهم أن يمدّهم بروح منه، وبالشفاء إن كانوا مرضى، وبالنصفة إن عانوا الظلم. وكان يخاطب أذن من يقصده من المريدين: إذا لم تكن تحسن العوم، فلا تقرب من مزالق الشطوط!

لم يعد يحزنه أنه بلا امتداد، بلا أبناء ولا تلاميذ، يأخذون عنه علومه وأسراره. أقبل الكثيرون على الالتفاف حول ولي الله، ومشاركته عزلة حياته، والأخذ عنه. أيقنوا أنه ولي من أولياء الله، عليهم أن يصدعوا بأوامره، ويستجيبوا لإشاراته. أجل رسالته لن ينتهي بوفاته.

نسبت إلى سيدي الأنفوشي — بعد رحيله — مكاشفات لا حصر لها. كان عزوفاً — في الحياة الدنيا — عن تناول الطعام. تطول الأيام والأسابيع دون أن يأكل. حدس الناس أن معظم طعامه من مصدر مجهول. لاحظوا أن أعراض المرض، أو الضعف، لم تظهر عليه. وكان وزنه يزداد. قصده السعداوي شبانة في شيء. أدخل ولي الله يده في جيبه، أخرج منه ما طلبه السعداوي. كان الرجل ينظر إلى جيب الأنفوشي. يعرف أنه يخلو من أية نقود. اكتفى بنظرة تساؤل.

قال الولي في هدوء: الخضر — عليه السلام — يأتيني بكل ما يطلب مني. إذا أراد سمكاً، أشار إلى الموج، وردد كلمات. ينحسر الموج عن أسماك كثيرة، تظل في أرضية البحر. يدعو مريديه إلى أخذ حاجتهم حتى الاكتفاء، ثم يشير — ثانيةً — ناحية الموج، ويردد كلمات. يعود الموج إلى سابق حاله.

رأه الناس يبول على صخور الشاطئ فتتحول إلى ذهب. طار وعاء به طعام، هم بأكله أحد مريديه في حضرة المقام. قبل أن يظهر المريد دهشته، كان عقرب يخرج من الطعام المراق على الأرض. وكان مريدوه يبللون أيديهم من ماء وضوء ولي الله، يمسحون به على أجساد المرضى، فيشفون بإذن الله.

رؤي الكثير عن حالات شفاء تمت على يديه الطاهرتين، سواء في اللحم أو في اليقظة. حتى بعد وفاته. زاره مريد لا يقوى على الوقوف ولا المشي. نظر الشيخ إلى حاله، وتمتم

بأدعية. عاد المرید في نهاية الجلسة — ماشياً — إلى أهله. وكان يتردد على مریديه في أيام المرض. يخترق الأبواب والجدران والظلمة. يضع يده على جبهة المرید المريض، ويمضي. يصحو المرید في الصباح على غير ما كان عليه أول الليل. ولما اشتد المرض على بلال البطران التاجر بناحية العطارين، سقاه ولي الله ماء وضوئه، فشفي.

كان يفاجئ الناس في الأسواق بالكلام عن أحوال، يتصورون أنهم أودعوا صدورهم. تغيب عن العين لمعة المفاجأة، حين يسأل ولي الله عن أمورهم الشخصية، الزوجة والأبناء والصحة والمرض والرضا والسخط والمشكلات الصغيرة. يكلمهم عن أحوال عايشوها في رؤى الأحلام. يربّت خدّ المريض بأصابع مترفة، أو يضع يده على رأسه، ويقرأ في أذنه، فيشفي، يُطيل النظر إلى بطن الحامل، ويتلو آيات قرآنية وأدعية، فتلد دون معاناة. وعُرف أنه يُبرئ الأكمه والأبرص والمجنوم.

كان يخرج من الضريح في ساعات خلو القلعة من الزوار. يقف أمام البناء ذي الطوابق الثلاثة، على هيئة مربع، يتوسطه مسجد، وتحيط به — من الجوانب الأربعة — أربعة أبراج نصف دائرية. يتوسط البرج الرئيس، الساحة الداخلية للقلعة. الأسوار الحجرية العالية، الحواصل المطلة على الصحن، أعمدة الرخام والجرانيت.

يصعد الدرجات الحجرية.

يُطل من المزغل المواجه للبحر. يتأمل البلانسات، وارتطامات الأمواج في أسفل القلعة، وفي المصدات الأسمنتية.

ألف السياحة في الخلاء، وعلى شاطئ البحر. قد يسلك طريق أقطاب الصوفية، فيجاوز المكان إلى فضاءات بعيدة، يخلو فيها إلى نفسه، يمشي على الموج، أو يطير في الهواء، أو ينتقل بالروح والوجدان، دون أن يترك مكانه. يقضي الوقت في مجاهدات، لا يدري بسرّها أحد، ثم يعود إلى داخل ضريحه في قلعة قايتباي.

كان يردّد مع السمك تسبيحاته. وكانت مخلوقات البحر تدخل القلعة. تجلس بالقرب من ضريح ولي الله، أو تمشي حوله، لا تعلق أصواتها، ولا تحاول الحفر، أو النبش، أو التشمم.

سرف الله مخلوقات البحر عنه، قرّبها — في الوقت نفسه — منه. صارت تحرسه من كل سوء، بأمر من الله.

قال غريب أبو النجا إنه شاهد — بعينه — طائر نورس، يحوم سبع دورات أمام باب الضريح، ثم يقول بصوت واضح النبرات: السلام عليك يا سيدي الأنفوشي.

وينطلق في الفضاء.

قيل إنه إذا وجّه — من وراء الضريح، أو بخروجه الذي لا يرى — قواه الخفية، نظراته، أو ما يصدر عن أصابع يديه، أو إيماءات رأسه، فإن مَنْ يقف أمامه قد يُصيبه الشلل، أو العته، أو يسقط مغشياً عليه، لا يعود إليه الصحة إلا عندما يغفر له وليُّ الله ما ارتكبه من خطأ، أو ذنب.

وكان يشفي بمجرد النظرة. وينظر إلى الشخص نظرةً واحدة، فلا يُصيبه مرض أو ألم بعد ذلك أبداً.

أخذ العهد على طوائف الجن، لا يُؤذون أحداً من مريديه، ولا المترددين على مجلسه. ظهر في ناحية اللبان فتوة، عامل الناس بالظلم، وقسا عليهم، وفرض من الإتاوات ما لا يستطيعون دفعه.

لجأ أهل اللبان إلى ولي الله. تحدثوا عن ضيقهم من تصرفات الفتوة، وتمنّوا زوال ظلمه.

تناهى صوت الولي: إذا كان الرجل ظالماً فليُتمته ربه!

بعد أن مضى ثلاثة أيام على عدم مغادرة الفتوة بيته في شارع السبع بنات، طرق أتباعه البيت. وجدوه ميتاً في سريره، والرائحة المتعفنة تفعم المكان، ما يشي أن الموت لحق الرجل في يوم فائت.

ردّ الكثير من الفتوات ومحترفي الجريمة عن حالهم. صاروا مريدين له، أو صاروا من السالكين.

ألف طيُّ الأرض، والمشي على الماء، وركوب الهواء، وانقلاب الأعيان، وانزواء الأرض، وطَيُّ الزمان ونشره. التنقل — بالروح وبالجسد — في ملكوت السماء والأرض. وكان الله ييسر له الوضوء شتاء، فيؤمن له الماء وهو بخار. وإذا صلى في الحر، شكلت طيور البحر ما يُشبه المظلة من فوقه. وحين اشتدت الظلمة ذات فجر، وعجز عن الوضوء للصلاة، دخل القلعة نوراً من السماء. توضعاً عليه ولي الله، وأدى صلاته.

شاهده مريده يطير بلا جناحين، يطوف العالم في لحظات يصعب التنبه لمرورها. صادق عروس بحر، تطير به فوق الأمواج تنقله من حيث يقف، إلى الجهة التي يريد. وكان ينتقل — بروحه — إلى مكة، ثم يعود في الليلة نفسها.

لم يكن يفعل ذلك في الحلم، أو في التصور، لكنه كان يرى ما يتحدث به. معتمرون وحجاج إلى بيت الله الحرام والروضة النبوية الشريفة، عادوا، فطابق وليُّ الله بين ما رآه



في ليلة انتقاله، وبين ما شاهده آنذاك. إن لم ينتقل، رأى مكة والمدينة من فوق قلعة قايتباي.

صار الناس على اعتقاد في قدرة الولي على قضاء الحاجات. انكشفت عنه الحجب، وكشفت له الحقائق. صار له من المناقب ما لا يُحصى، ومن الفضائل ما لا يُستقصى.

أقبل على حجرة الضريح رجالاً ونساء، يطلبون المدد والنصفة. يوفون النذور بذبيحة، أو بمال، لشفاء المريض، وحمل العاقر، وفرج المكروب، واستعادة الغائب، واستجابة الدعاء، والإخبار بالمغيبات. تشمل بركاته من يطلب الزواج فيتزوج، ومن يرجو الولد فيُنجب، ومن يُسرف على نفسه فيتوب. أيقنوا أنه يقدم مروءته — من داخل قبره — لكل من يستغيث به. قد ينهض من ضريحه، يغادره بما يمتلكه من بركات.

إذا اشتدت الرطوبة، وقف على ساحل البحر، ونظر إلى الأفق كالمنتظر. تهبُّ نسائم لطيفة، ليست من مألوف الجو في تلك الفترة، يستروحها الناس من الكتمة الخانقة.

يأخذ الناس مسحات من التراب الذي وطأه بقدميه، يتبركون بالصلاة عليه. يتوسل الصيادون بولي الله، يطلبون وساطته، لتمتلي الطراحات والجرافات. لا يكذب سيدي الأنفوشي توسلهم. يسحبون الشباك محملة بكميات هائلة من الأسماك. حتى صيادو السنارة، عرفوا سرَّ ولي الله. كانوا يرفقون إلقاءهم السنارة في المياه هاتفين: يا بركة الأنفوشي!

كان ينثر التراب على سطح الموج. يتحول إلى أسماك تتقاذف فوق المياه، تطلب الصيد. اعتاد الرئيس غريب أبو النجا — قبل أن يركب البلانس إلى أعالي البحار — أن يستنبئه الغيب، وما إذا كان البلانس يرحل، ويعود محملاً بالخيرات، أم تواجهه النوة بأخطارها؟

يعلو صوت ولي الله بالقول: حاذروا من اليوم الفلاني، ومن المنطقة الفلانية. يتحدث عن التأثيرات التي ستحدثها النوة. ليست توقعات، لكنها ما يثق أنه سيحدث بالفعل.

ولي الله يرى ويسمع، ما لا نراه أو نسمعه. يعرف الأمور على حقيقتها. إذا أعطى الولي إشارة الإذن، فإن الرئيس يبدأ في إعداد البلانس، أو يواصل إعداده. إذا حجب الولي إشارته، فإن الرئيس يُطيل وقت البقاء في الساحل.

حدس غريب أبو النجا، أن الضربات التي لاحقت الصياد الجديد، وأجبرته على ترك البلانس، مصدرها سيدي الأنفوشي.

قال أبو النجا: لماذا ضربته يا مولانا؟

تناهى صوت ولي الله: لقد أذهبت الشيطان!

– إنه زميل جديد، عرض نفسه فقبلناه.

– إنه شيطان، أعدَّ نفسه لإغراق البلانس، ومَن فيه!

عُرِفَ عنه سيطرته على القوى الخفية، وتسييرها، واستخدامها لأغراض الشفاء والسلامة والخير.

أتاحت له قدراته الإيمانية، والمدد الصوفي، وبركاته، أن يسخر الإنس والجن والوحوش والطيور والبهائم. قد يدعو الله – سبحانه – فتقصر النوات، حتى تسهل على الصيادين حياتهم، وسُبُل الحصول على الرزق.

لما تعرَّضت الإسكندرية ١٩٦٧م لهجوم من ناحية البحر. بدَّل وليُّ الله هيئته إلى أشكال البشر العاديِّين والحيوان والأسماك والطيور. يترك فراشه بالروح. يخوض المعارك ضد مَنْ يحاولون التسلُّل تحت الأمواج، بينما يظل جسده في موضعه داخل القلعة.

لطلب النصفة والمدد والبرء من العقم، وحل ما يعانين من مشكلات، يتردد النسوة – بعد صلاة الجمعة – على ضريح سيدي الأنفوشي، يكنسنَّ قبالة الضريح، دلالة كنس الظلم من الدنيا، يُشعلنَّ الشموع، يوضوعن البخور. يتحسنن الضريح بأيديهن، يضعن ترابه في جيوبهن، يتمرغن على الأرضية المحيطة بالضريح. يضعنَّ عليه قطعَ قماش ممزقة، تعاوِيدَ، نذورًا، رسائلَ أمنيات وشكاوى في أوراق مطوية. مَنْ تنشر منديلاً فوق الضريح، ترفقه بدعوات وتوسلات إلى ولي الله، أن يكفَّ عنها أذى شخص ما، حل ربط زوج، شفاء مرض طال بأحد الأبناء، عقم يلوک الزوج – بتأثيره – كلمة الطلاق. إذا لجأ إلى ضريحه أحد، واشتكى من ضياع شيء يخصه، ترامى صوتُ الولي بالتجسيد، أو بالهاجس: اذهب إلى المكان الفلاني تجد ما تبحث عنه.

ألحَّ الجوع على زائرة لضريحه، سقطت ثمار التين من الشجرة اليابسة في طرف الساحة الترابية.

شغل المرأة السؤال: كيف تحوَّلت الفروع المجذبة إلى ثمار؟ لكنها أكلت منها حتى شبعت.

أشفق على الفريش الحنفي عبد المعتمد لإخفاقه في بيع الترسه بعد أن ذبحها. لحق الترسه بعد أن كادت تتعفن. انتفضت عائدةً إلى الحياة.

اجتذبت خليل الفحام — في جولته لتسجيل المكان — المناقشات المنبثقة من الساحة الترابية.

ظن — في البداية — أنها لحراس القلعة، يتسامرون، ويسلون أوقاتهم. ثم شدّت انتباهه العباءات والعمائم الجالسة في صفّين متقابلين. أدرك أنها لأولياء الله الصالحين: الشاذلي وأبي العباس والبوصيري وياقوت العرش ونصر الدين. قد لا يكون إدراكًا بالمعنى الصحيح، لكنه تخمين نبّهه إليه ما تواتر عن تردّد أبي الحسن الشاذلي على بحري. جلوسه إلى أولياء الله من ساكني الحي. يذكرون اسم الخضر فيشاركهم وليّ الله جلساتهم. الساحة البعيدة، الخالية، أنسب الأماكن لهذه اللقاءات، يتكلمون في الأحوال، ومقامات أهل الولاية، ينظرون في أحوال العالم، يتذاكرون العلوم الدينية، والحكم، والمواظ، وأحوال الآخرة، يتدارسون أمور الطريقة الأحمدية الشاذلية، وأمور مريديها وأتباعها في بحري، وفي امتداد المدن المصرية، يناقشون ما ينبغي فعله.

ترقى الأنفوشي، جلسات الأقطاب في حضرته، وبطالبي الشفاعة والنصفة والمدد. سطعت عليه أنوار التجلي الإلهي. تلقى الحقائق، والأسرار الإلهية، والإلهامات الربانية، والمكاشفات، والفتوحات، والمشاهدات. صار من كبار الأولياء وأرباب الكرامات والمواهب والمقامات والأحوال والأنفاس الصادقة.

شاهد ما لا يراه إلا الخواص من الأقطاب: القبة البيضاء، الأبواب المصنوعة من الذهب الأحمر، البيوت ذات جدران الفضة والذهب والياقوت واللؤلؤ والزبرجد. الحجرات التي يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها. تراب المسك والعنبر، وحشيش الزعفران، حصباء الياقوت والدر، فسيفساء الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والدر الأبيض، تجاوب السرر والحجرات بالصرير. الأنهار الأربعة: نهر الماء، نهر اللبن، نهر العسل، نهر الخمر، أصل الأنهار الأربعة من البسمة. أنهار الرحمة تجري إلى جميع الجنان، حصباؤها اللؤلؤ أبيض من الثلج، وأحلى من العسل، فيها نهر الكوثر، ونهر التسنيم، ونهر السلسبيل، ونهر الرحيق المختوم، وأنهار أخرى يصعب حصرها. اصطفاف الأشجار ذات السيقان المذهبة، وأوراق الزمرد، تدلي الثمار اللينة كالزبد، الأحلى من العسل. أغصانها لا تتبيس، أوراقها لا تسقط، رطبها لا يفنى. أكبر أشجارها طوبى، أصلها من در، ووسطها من ياقوت، وأغصانها من زبرجد، وأوراقها من سندس، عليها سبعون ألف غصن، وأغصانها متصلة بساق العرش، وأدنى أغصانها في السماء الدنيا. يلتقط الفاكهة التي يتخيرها، ولحم الطير الذي يشتهيها. ألوان النعيم والدواب المرسجة. الثياب الخضر من سندس.

يركب جوادًا له جناحان مسرجان، ملجّمان، مرصّعان بالدر والياقوت، لا يروث ولا يبول، يطير في الجنة، من تحته أنهار اللبن والعسل والخمر والماء الصافي، وأرض المسك والكافور والعنبر. يتضوّع سبعون نوعًا من الطيب، ليس منها رائحة مقاربة للأخرى، وثمة تغريد الطير، وإشراق الحور العين، لكل حورية سبعون سريرًا من ياقوتة حمراء، موشحة بالدر، لكل حورية ألف وصيفة لحاجتها. الاستغراق في نشوة التجلي.

سلّكته أعماله في عداد أولياء الله الصالحين. ظهرت عليه كرامات عظيمة، وأحوال خارقة. صار من أهل الخطوة والولاية والكمال.

حين يجلس الأولياء في الساحة، يختار موضعًا قصيًّا. يصيخ السمع ولا يتكلم. للولاية درجاتها. للأولياء الجالسين درجاتهم العليا. ليس من التأدب أن يشارك بسؤال، أو ملاحظة، أو تعقيب.

مرة واحدة، نطق — دون تدبر — بالسؤال: لماذا لا يشارك سيدنا علي تمرّاز في مجلسكم الموقر؟

قال الشاذلي: علي تمرّاز تشغله أمور الدنيا. نحن تشغلنا أمور الآخرة!

**انظر: أبو الحسن الشاذلي، أبو العباس، البوصيري، حميدو شومة، الخضر، خليل الفحام، علي تمرّاز، غريب أبو النجا، ياقوت العرش.**

## بدوي الحريري

تابع أسراب غراب البحر، في تحليقها على امتداد الساحل. طائر عملاق، يأتي في نهاية فصل الخريف، وبداية فصل الشتاء. يتغذى — بشراهة — على أسماك الدنيس. تشكّل أسرابه سحباً سوداء تغطّي وجه البحر. تلتهم كميات كبيرة من الأسماك. تُجيد المناورة والغطس. تعود إلى مواطنها في مارس عقب ذوبان الجليد، بعد أن تلتهم أعداداً هائلة من الأسماك.

شاب لهجة الريس بدوي الحريري خوفٌ: لا تفرحوا بها، قاوموها. ركّب البحر صياداً، ثم معلماً للصيادين. عرف أنواع الصيد، وحيله، وأسراره. ألف رؤية الآفاق الممتدة أكثر مما اعتاد رؤية البنايات والشوارع والمآذن والأبراج والأشجار والمزروعات. يُجيد قياس أعماق البحر، وسرّ أغواره بما يمتلكه من قدرة على التنبؤ.

عاصر اقتصار الإبحار على البلانسات ذات الشراع. شاهد نزول أول بلانس بالموتور على شاطئ الأنفوشي. تابع اختفاء سفن الأشرعة، لتحل — بدلاً منها — السفن ذات الموتور، إحلال البخار محل الشراع، استخدام الصلب في بناء السفن بدلاً من الخشب. استبدال اللنشات بالقوارب ذات المحدافين. اكتشاف الطوربيد وقنابل الأعماق. يعرف مواعيد هجرة الأسماك. يركب البحر إليها. يعرف الأماكن جيداً، كما يعرف أنواع السمك. يثق في انتظامها، لا تفرُّ حتى من المناطق التي حصدت شبك الصيادين ما كان فيها من أسماك.

أطال الجلوس إلى خليفة كاسب. دلّه على الطرق الغذائية في البحار والمحيطات. تهاجر إليها الأسماك — في مواعيد محددة — بحثاً عن الغذاء، لا تتحول عن الطرق التي اعتادتتها.

لم يكن يلجأ إلى الخريطة، ولا إلى البوصلة، ولا أية وسيلة علمية من أي نوع. يعتمد على حدسه وخبرة السنين في الانطلاق إلى رحلة جديدة، هدوء الأمواج أو هيجانها، كثافة السحب، اتجاهات الرياح، زيادة النجوم في السماء أو قلتها، سطوع القمر، أو شحوبه، أو اختفائه وراء السحاب.

يستطيع — بتأمل السحب — التنبؤ بهبوب الرياح. قد يكتفي — لتوقع أحوال الجو — بقراءة انعكاس تشكيلات السحب على سطح البحر، بياضها، أو دكنتها الرمادية، أو الأقرب إلى السواد. يُجيد توجيه الدفة دون أن ينظر إليها، وقيادة البلانس في الضباب، لا يصطدم بالبوأخر الضخمة، أو الجزر المتناثرة، المتصاعدة، في قلب الأمواج. يلجأ إلى إلقاء الشباك في الطرق التي حددها خليفة كاسب. يتوقع — هذا ما يحدث — صيداً وفيراً، لا تطول به أيام الرحلة.

فقد الكثيرون حياتهم في البحر، لكن غواية البحر تجتذب حتى من يخشون دواره، وتقلباته المفاجئة، ونواته.

البحر وطنه. يحيا فيه أضعاف ما يحيا في الأرض: حياتي في البحر، لا أتركه إلا لضرورة!

البحر دنياه.

البحر هو الدنيا.

النيل له شاطئان. أفق البحر شاطئه الآخر. يعود منه، فيتهيأ للعودة إليه.

البحر هو السفر، والمدن، والمواني، والأسرار، والمجهول، والمغامرة، والتحدي، والنوة، والعاصفة، والأفق، والخطر، والقوى الخيرة والمدمرة، والرزق، والخيال، والحكايات المثيرة، وغياب التنبؤ.

صورة البحر عنده مثل البشر، يحمل الخير والشر والحزن والغضب والمسألة والحرب.

من يريد استمالة البحر، فإنه ينبغي أن يراعي تغيّر نفسيته. لا بد من ترضيته. يمتلك قدرة مذهلة على التنبؤ بالنوات واتجاهات الرياح وأحوال البحر.

يُطيل النظر إلى القمر. يُحسن قراءته والتعامل معه. له تأثيره في أحوال الجو والمد والجزر. حتى هطول الأمطار يتحكم فيه القمر. ينصح بعدم الإقلاع إذا غطت السحب وجه القمر. معنى ذلك قرب هبوب عاصفة بحرية، نوة، قد تُهدد البلانس بالغرق.

حمره الشمس في الصباح تعني يوماً حاراً. إذا ظهر قوس قزح في السماء، فمعنى ذلك أن الجو سيظل صحواً، لا نوة، ولا أمطار، ولا رياح معاكسة. إذا حمل المد الكثير من

الطحالب والأعشاب والأوساخ، فدلالة ذلك أن قاع البحر يحرك الأمواج بعاصفة وشيكة. عندما يتغطى البحر باللون الرمادي فذلك نذير توقعات شؤم. إذا ظهرت أسماك القرش بكثرة، فالنوة قادمة. المعنى نفسه يبيّن عنه اتجاه طيور النورس في اتجاه البر. ربما تنبأ بحالة الجو من تحليق الطيور، في بداية النهار قرب الشاطئ، أو ابتعادها عنه.

كان يتأكد من كميات الماء المختزنة، والأطعمة الباردة والمعلّبة، والتي تُطهى على النار، ومعدات إصلاح البلانس، والبوصلة، وأماكن النوم، وتوافر الأعطية. ينادي: أسطة، بعد أن يطمئن إلى وفرة الأسماك في المنطقة التي وقف عندها البلانس. يحذر من أن يشتبك الغزل بصخور البحر، أو النتوءات المتصاعدة في مياهه. يعلو صوته في لحظة يعرفها: بيرا.

يبدأ الرجال في سحب الشبكة، الجرافة التي صنعت دائرة هائلة، تحيط بها — فوق المياه — قِطَع الفلين.

أشد انتباهه لأيام الشتاء. النوات، وهياج البحر، وتعرّض البلانس للغرق. ينصح بالمثل: ما بين الغطاس والميلاده ... ما لكش يا مسافر معاده.

لا يرفض ركوب البحر. الخروج إلى الرزق مطلوب، لكنه يطلب الحرص والحذر. يخشى الرياح إذا جاءت من الأمام، يواجه البلانس ما يصعب توقّعه. إذا جاءت من الخلف، يجعل منها قوة دفع للبلانس ليمضي إلى الأمام بسرعة أشد.

احتفظ — فيما بعد — بجهاز اشتراه له خليفة كاسب، يرصد مواضع أسراب الأسماك، وكمياتها. يثق من النتائج في انطلاقه بالبلانس داخل المياه الإقليمية، أو خارج البوغاز.

قال لخليفة كاسب: شواطئ مصر طويلة، لكنها تستورد أضعاف ما تصيده من سمك.

وداخلت صوته حيرة: شواطئنا لا تكفي. وإذا دخل الصيادون المصريون المياه

الإقليمية للدول المجاورة ... ألقى القبض عليهم!

أردف متسائلاً: لماذا لا تدرسون هذه الظاهرة؟

— من نحن؟

— معهد الأحياء المائية. أظن أن هذه مسئوليته.

اعتاد الرجال مفاجأته لهم بتعبيرات ومصطلحات من اختراعه، تُخالف ما كانوا يُضمّنونه أحاديثهم. هو الذي أطلق على المرسي أبي العباس اسم «السلطان»، وسمّى

أبا الحسن الشاذلي «شيوخنا»، جمع مشايخ، لأنه قطب أقطاب الطريقة الشاذلية، وسمّى السماء «المتقلبة» لتقلّب أحوالها، وسمّى صيد السنارة «صيد المزاج»، ومناطق وفرة الصيد «غيطان الخير»، وسمّى كوم بكير «حي المجروحين». أما من يأخذه الموت، فهو مسافر بلا عودة.

وكان الرجال يلجئون إليه عندما يتعلق الأمر بقضايا شائكة، أو معقدة، يمتلكهم العجز أمامها عن اتخاذ قرارات حاسمة.

قال: البحر صديق ... لا تأمن عداوته!

ثم وهو يُشير إلى أعلى البلانس: هذا الصاري الساكن، شارك النوات في إغراق العديد من الصيادين. يحاولون طيّ الشراع فتُلقي بهم النوة في قلب الموج.

نصيحته لصياد السنارة أن يقنع بما تصعد به سنارته، أقة أو أقتين. يبيع ما في الغلق، ويعود إلى بيته. يحصل على ما يستحقه. يحصل صياد البلانس على ما يستحقه. وقفة صياد السنارة على الساحل، خطوات داخل المياه، أو على الكورنيش الحجري، أو فوق المصدات الأسمنتية. يأتي الله بالرزق على الساحل، لا نبذل إلا الصبر. البلانس يركب البحر أياماً، يواجه الرياح والعواصف والنوات والبرد والحر وتقلبات الطقس. حصاده من داخل الأعماق البعيدة.

– نحن نأتي بالسّمك إلى الحلقة. لا يأتي من نفسه!

يحب ما يسميه صيد الوفرة. لا تُلقِ بسنارتك أو غزلك إلا إذا قدّرت أن الصيد يساوي تعبك. حتى الغواص عبد الصمد كسبة عاب عليه أنه يصعد من أعماق البحر بما يصادف يديه: لؤلؤ، أصداف، طحالب، أعشاب. لا يحاول التدقيق، ولا يحسن الاختيار. يشغله الغوص، ولا يعنيه إن كان ما حصل عليه يستحق الغوص. يرفض الغزل ذي الثقوب الضيقة. يأخذ الحابل بالنابل. الأحجام الكبيرة من السمك بالأحجام الصغيرة. ربما جففت الزريعة الصغيرة، تصير علقاً للبهائم. لا تنمو الزريعة. تقل في الجرافة والطراحة. يطول انتظار صائد السنارة، ثم يعود باليأس.

الاختلاف بين صياد وآخر – سواء كان صياداً للجرافة، أم للطراحة، أم صياد سنارة – في اختيار أنسب أماكن الصيد، ومواضع الكثرة والجدب، والأوقات الملائمة. يُلقى الشبكة أو السنارة عند إجابة التوقع، الوقت، والموضع، واحتمالات الوفرة.

كان يعرف مواضع الغوص إلى أماكن تكاثر السبيط. تلجأ السمكة الرخوية، الهلامية التكوين، إلى ما بين الصخور، وداخل الكهوف والشقوق، والسواحل الهادئة. تهرب من



الضوضاء، والأصوات العالية، ومن المياه العميقة. لا يجتذبها نوعٌ واحد من الدعوم: الجمبري، البسارية، العجينة. الصيد ما يحتاجه صيد السبيط، وذكاء الحيلة أيضًا. الصياد يتحایل لصيده، وهو يتحایل للفرار من الصياد.

يعطي وقت البلانسات — في مواعيد محددة من السنة — لصيد السردين، اللالكئ البراقة المليئة باللحم والدهن.

ما جرى له في آخر رحلاته خارج الإسكندرية، دفعه إلى هجر البحر، والاكتفاء بإدارة بلانساته من مقهى الزردوني، أو من الحلقة.

هَبَّت عاصفة قاسية من الجانب الشمالي، أطارت الرياح صاري البلانس، ومزّقت الأشرعة. وجّهت الأمواج إلى البلانس لطمات متوالية. علّت البلانس تمامًا. اختلطت صيحات الرجال وصرخاتهم بهدير الأمواج. طوقت البلانس كأنها وحش خرافي له عشرات الأذرع. فاضت المياه من الجانبين. اختلط البلانس بالأمواج العالية، بالبحر الذي يحيط به، يميزه الزبد الأبيض في موضع دورانه حول نفسه، وغوصه. كأن السيول أحاطت بالبلانس من كل جانب، أو أنه الطوفان.

أرجع الحريري إلى بركات الأولياء عودة طاقم البلانس إلى بحري، سباحة، أو بركوب بلانسات أو لانشات أو قوارب عابرة.

كانت السماء — عند انطلاق البلانس من المرسى — صافية، والرياح مواتية. لم يكن بدوي الحريري ممن يؤمنون بالأشباح ولا الجني ولا المارد، ولم يحاول الانشغال بما رُوي عن المارد الذي يهدد السفن المارة في مدخل البوغاز. لكنه كان يحرص، فلا يقترب من الفئار. يعرف أن عسكري السواحل قُتل في ظروف غامضة. لعلها علاقة نسائية، أو جريمة ثأر.

الروايات تحدّثت عن شبح العسكري، لا يأذن لمخلوق بسكنى الفئار، أو حتى الاقتراب منه. يُطلق الرصاص على السفينة القادمة بمجرد اقترابها.

كان عسكري السواحل يرقب صخب الأمواج، عندما رأى اللانش يقترب من الفئار. بدا كأنه سيصطدم بالبناء الحجري. علا صوت العسكري بالتحذير. انتفض في وقفته، وقفز أعلى السلم. لَوَّح بيده، وبالبندقية. تعالّت تحذيراته. فاجأته الطلقات القاتلة من داخل اللانش، قبل أن يميل اللانش إلى جانب الفئار، ويمضي في الأفق.

رأى الموظف — أعلى الفئار — ما حدث في لحظة أو أقل. أخفق في التعرف إلى من أطلق الرصاص.

هل كان وحيداً، أو أكثر من شخص؟ وما الملامح التي التقطها ليسهل الوصول إلى الفاعل، أو الفاعلين؟

باع الحريري أربعة بلانسات يمتلكها. أنشأ — بقيمتها — مزارع سمكية هائلة المساحة في بحيرات مريوط وإدكو والمنزلة والبرلس. حققت إنتاجاً وفيراً من البلطي النيلي والحساني والبوري والطوبار والقراميط، بالإضافة إلى البط البكيني. تنقل اللواري محصولها — كل صباح — إلى الحلقة.

قال: الاستزراع في البحيرات بداية. الاستزراع البحري تكاليفه مرتفعة. واغتصب ابتسامةً باهتة: أترك للزمن اقتصار مزارعي على البحر. فوت ملاحظة غريب أبو النجا: لا قيمة للمزارع ما لم نخرج إلى البحار المفتوحة!

قال بدوي الحريري إن مشكلات راكب البحر لا تنتهي، يظل في شوق إليه إذا ابتعد عنه، وفي شوق إلى الأرض إذا طالت غيبته عنها.

وخالط صوته قلق: هل أضيع ما تبقي من العمر في الحياة على أرض مهتزة؟! وحسم الأمر بقوله: لن أظلّ صياداً طول حياتي. لم تُعدّ صحتي تسمح بركوب البحر.

ظل على حرصه بالمشاركة في سباق البنز والخيل والسيارات، وعلى المشاركة في سباق القوارب — يوم شم النسيم — في المينا الشرقية. ترفع القوارب الأعلام الحمراء والزرقاء، طرفا السباق من السيالة ورأس التين. يُلقن بدوي الحريري صبيانه ما يغنونه، حين يبلغ قاربه خط النهاية، قبل القوارب الأخرى:

سيالة يا سيالة ... ياللي ما فيكي رجالة ...

يأمر الصبيان.

يرفعون أصواتهم بالغناء حين يرد أهل السيالة:

قفة ملح وقفة طين ... على دماغ رأس التين.

لما اختفت ابنته مكية — في ظروف غامضة — مال إلى الاعتكاف في بيته. لا يُطل على البحر، لكنه على مقربة منه، يفصل بينهما صفٌّ من البنائيات، وشارع جودة الممتد ما بين شارع صفر باشا وميدان إبراهيم باشا.

شغله البكاء والتضرع والاستغفار، وإحياء الليل بكثرة الركوع والسجود. بدا كأنه سبح في بحار الجلال، وأخلص في الرياضة والمجاهدة، وقراءة قصص الأنبياء والمرسلين والعلماء والشهداء والتابعين والصالحين، سعيًا للمكاشفة والمشاهدة والمناقب والبركات والمكاشفات والخوارق والمعجزات.

يثبت مؤشر الراديو على محطة القرآن الكريم. يعلو بالصوت إلى مداه. يتلغ ما في أجهزة الراديو في البيوت المجاورة من موسيقى وأغنيات.

طراً على حياته ما بدّلها.

لم يردّ على أسئلة الناس الصامتة، لكنه فاجأ زحام حلقة السمك بتحية الصباح، والجلوس وراء المكتب المعدني. عاد إلى قهوة الزردوني، يلعب الكوتشينة، ويشرب الشيشة، ويدخل في مناقشات.

أعدّ نفسه للترشيح لمجلس النواب. زكّي الناس ترشيحَه. هو ابن بحري. سامي بهاء الدين، وافدٌ على الحي، بلا جذور عائلية. إقامته في منطقة الرمل. ستانلي أو ميامي، حتى عنوان بيته، أو حياته الخاصة، لا يكشفهما لأحد.

ما رجح كفة بهاء الدين — قبل أن يفتح باب الترشيح بأيام — زواج بدوي الحريري من العجرية نعمات.

تعدّدت رؤية الحريري لنعمات في المنام.

قال الشيخ عبد الستار: معنى الحلم نقص في الدين، أو الاقتران بامرأةٍ بغيٍّ! لما حلم أنه يذبح نعمات، قال له الحاج جودة هلال، وهو يغمز بعينه: دلالة الحلم أنك ستطأ المرأة!

زاد انشغال الحريري بنعمات. تابعها — بعينه — في شوارع بحري، وأكثر من السؤال عنها، وتكررت دعوته لها في بيته.

قال للشيخ عبد الستار إنه أدى صلاة استخارة. اطمأن بها إلى صدق نيته في الزواج بنعمات.

بدا زواجه بها تصرفاً غريباً، كنوة قاسية، في غير موعد ولا توقع.

اقتصرت الأحاديث على الفعلة الغربية للحريري، في البيوت والمقاهي والساحات، والهمسات في حلقة السمك والبلانسات والقزق وشاطئ الأنفوشي. أدرك أن سامي بهاء الدين أذاع سرّه، وأن الناس عرفوا من أمره ما كان يُخفيه.

أهل البحر

حين تَبِعَ الرجلُ طلاقَه للمرأة بعزوفه عن التقدم للانتخابات، قَلَّتْ الأحاديث،  
وشحِبَتْ، حتى تَلَاثَتْ.  
عادَتِ الحياةَ إلى سيرتها.

انظر: خليفة كاسب، سامي بهاء الدين، عبد الستار، غريب أبو النجا، مكية  
الحريري، نعمات.

## البوصيري

هو العارف بالله شرف الدين أبو عبد الله، محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجي، نسبةً إلى فرع من قبيلة صنهاج — أو صنهاجة — من بلاد البربر في المغرب. لُقّب بالبوصيري نسبةً إلى «بوصير» القريبة من الفيوم. وُلد في اليوم الأول من شوال سنة ثمانٍ وستمئة من الهجرة، أي في أوائل القرن السابع الهجري. أبوه من قرية دلاص، وأمه من قرية بوصير. اشتق له اسم يختلط فيه اسمًا قرينتي الميلاد (دلاص)، والنشأة (بوصير). نطق الناس للاسم حوَّره بالتدريج، فصار البوصيري، وهو الاسم الذي اشتهر به. أمضى طفولته في مدينة أبيه «بوصير». تعلَّم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن، وعلوم الدين. انتقل إلى القاهرة. تلقَّى في كتابتيها ومساجدها بعض العلوم الشرعية واللغوية. لحسن خطّه عمِل خطاطًا، ثم التحق كاتبًا للحسابات بضرائب بلبيس. لكنه ما لبث أن هجر الوظيفة، بعد أن ضاق بمعاناته من أعبائها. وكان قد أظهر تبرُّمه بالوظيفة والموظفين في العديد من القصائد، منها:

لقد خربت طوائف الموظفيننا  
فلم أجد فيهم أحدًا أمينًا

انتقد في قصائده عيوب السلطة، والإدارة الحكومية، والمجتمع، وسلوكيات الحياة اليومية.

غادر بلبيس إلى القاهرة. افتتح فيها كتابًا للأطفال. ثم اتجه إلى الإسكندرية، حيث أقام — ويقيم — أقطاب الصوفية، نجوم الفترة: الشاذلي، أبو العباس، ياقوت العرش، الدسوقي، البدوي، الصباغ، الدريني، وغيرهم.

رفض أن يستقل بالاجتهاد.

اتصل بسلطان الإسكندرية المرسى أبي العباس، وتلمذ عليه. أقبل على طريقه الصوفي. سلك طريق المرسى في الاجتهاد. عرف الأحكام بالطريق التي سبقه إليها أبو العباس. تقيّد بفتاوى أستاذه وآرائه واجتهاداته. لُقّب بشرف الدين، وصار من أقطاب الشاذلية، وإن ميّز نفسه بين هؤلاء الأقطاب بقصائد في مدح الرسول. وكانت البردة هي آخر، وأجود، تلك الكتابات على الإطلاق.

يقول البوصيري: «كنت قد نظمت عدة قصائد في مدح رسول الله ﷺ، منها ما كان اقترحه عليّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير. ثم اتفق بعد ذلك أن صاحبني فالج أبطل نصفي، وعجز الأطباء عن شفائه. فكرت في عمل قصيدتي هذه، فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها، ودعوت، وتوسلت، ونمت.» يُضيف البوصيري: «عندما انتهيت من إنشاد البردة، رأيت النبي ﷺ، في المنام، فأنشدتها بين يديه. لما انتهيت إلى البيت: فمبلغ العلم فيه أنه بشر، سكتُ، ولم أقدر على تكلمة البيت.

قال النبي: اقرأ.

قلت: يا رسول الله، إنني لم أوفق للمصراع.

– قل: وإنه خير خلق الله كلهم.

أدرجت المصراع في البيت المتقدم. جعلته صلاة متكررة بعد كل بيت، حرصاً على لفظة ﷺ.

مسح النبي وجهي بيده المباركة، وألقى عليّ بردة، فانتهت ووجدت في نهضة. قمت وخرجت من بيتي، ولم أكن أعلمتُ بذلك أحدًا.

لقيني بعضُ الفقراء، فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله.

– أيها؟

– التي أنشدتها في مرضك.

وذكر لي أولها. وقال: والله لقد سمعتها البارحة تُنشد بين يدي رسول الله ﷺ، ورأيتَه يتمايل إعجاباً بها، وألقى على من أنشدها بردته.

أعطيته إياها، وذكر الرجل ذلك، وشاع المنام.»

ذاع خبرُ البردة. بلغ صاحبُ بن بهاء وزير السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري. استدعى البوصيري. طلب منه أن يُنشد البردة. حرص أن يسمعها قائمًا على قدميه، عاري الرأس.

أنشده البوصيري بردته.

طلب الوزير من البوصيري أن يكتب القصيدة بخط يده. احتفظ بها، متبركًا. وظل يقرأها في المناسبات، حتى مات، فاحتفظ بها ابنه.

أُشيع عن أفضل البردة ما لا حصر له، هي العمدة في حلقات الذكر، والإنشاد، والقصائد، والمدائح النبوية. تحكم الشرع، وتضبطه، تشفي من الأمراض، تفرج الكروب، تسهل الأمور العسيرة، تصفي القلب، تطهر النفس بدوام الذكر والمجاهدة.

ظلت حلقات الدرس في الأزهر الشريف تدرس البردة — لسنوات طويلة — يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع. البردة، أو القصيدة الميمية، مكتوبة بماء الذهب أعلى جدران جامع البوصيري.

أفصح البوصيري في أن ينال — بما كتبه في الشعر والنثر — حظوة عند الطبقة الحاكمة. يقول ابن حجر: «كان البوصيري — رحمه الله تعالى — من عجائب الله في النظم والنثر، وإن لم يكن له إلا قصيدته المشهورة بالبردة، لكفاه فخراً، وكذلك قصيدته الهمزية البديعة.» ويقول زكي مبارك «يمكن القول إن جميع القصائد النبوية التي قيلت بعد البوصيري، على الوزن والقافية، كان أصحابها مسوقين بالروح البوصيرية.» كانت البردة آخر ما أبدع البوصيري من قصائد. ظلت هي العمدة في إنشاد المدائح النبوية، والابتهالات، وقصائد المتصوفة.

داوم التفكير في الله، والركون إليه. ربط قلبه في الله بسائر أوقاته وخلواته. داوم على العبادة والذكر والتقشف بالعيش. لا ينام الليل، ولا يأكل في النهار، ولا يتكلم إلا لضرورة. قيّد أسراره بأسرار الشريعة، العبادة والذكر والتسبيح والصلاة. لم يكن يُرى إلا مصلياً، أو ذاكرًا. يكتفي بالتذكير والتفكير والموعظة الحسنة والقدرة ورفع الهمة. كلمات مفعمة بالرموز والإيحاءات والإشارات.

هبت عليه أنوار اليقين. أوتي مفاتيح العلوم كلها. صار من أصحاب العلوم والمعارف والأحوال. أظهر من الكرامات وخوارق العادات ما يؤكد ولايته.

ذاع أمره، وكثر مريدوه وتلاميذه وأتباعه، وانتشرت ألويته. أقبل الناس على ضريحه. يتقون في قدرة صاحبه على قضاء الحوائج.

مَنْ تشدّد عليه الضائقات المالية، يدعو له، فيُغنيه الله. من يتمنّى زيارة البيت الحرام، يدعو له، فييسر الله له مبتغاه. مَنْ أعجزته الظروف عن الزواج، دعا له، ففتح بيتاً. إذا وقف — أو سار — في مكان، حفّت به الأنوار، كأنّ النور ينبثق من جسده. بالإضافة إلى الإنس والجن، فقد أخضع له جنوداً كثيرة من مخلوقات، لا يعرفها الناس، ولا يعرفون أسرارها.

كانت الأرض تُطوى له، فهو من أهل الخطوة. يترك لسجاده — في أوقات متقاربة — أمرَ السياحة به فوق أضرحة الأولياء ومقاماتهم، لا يستثنى حتى مَنْ تنأى بهم المسافات عن الإسكندرية. تكفيه ومضاتٌ من الوقت لما يأخذ من سواه أياماً بطولها. كان يصلي الصلوات الخمس في مكة، دون أن يترك موضعه داخل الحلقة. لاحظ مرید ما يُشبه الكدمة في أنف ولي الله. سأل عن سببها. قال البوصيري إنه أُوذِيَ في أثناء طوافه — صباح ذلك اليوم — حول الكعبة. دفعه الناس في ظهره وهو يقبّل الحجر الأسود.

عُرف أنه يستطيع بتحريك عينيه أن يحرك ما هو ساكن. يشير إلى سحابة صغيرة، عابرة، تهبط فتكاد تلامس وجه الموج. يمتطيها. تعلق به، تسيح فيما لا يدري أحد، وتعود، لا يتحدث عن المكان الذي انطلق إليه، ولا ماذا رأى، ولا مَنْ التقى. يبدو متغيراً كأنه دخل تجربة لا قبل لبشر على احتمالها. يظل صامتاً، شاردًا، متأملاً. إذا سأله مرید، اكتفى بهزة رأس لا تهب معنىً محدداً. وكان يمشي على الماء حتى يُغيّبه الأفق. إذا اشتدت النوة، توضعاً ولي الله في شاطئ البحر. تسكن الريح، وتهدأ الأمواج. إذا احتاج إلى أكل الطير، نادى عليه في السماء، فنزل إليه. وإذا احتاج إلى أكل السمك، نادى عليه من وقفته على ساحل البحر. تقافز على الموج القريب، الساكن، حتى يأخذ منه — بيده — ما يريد. قد تأتيه الموائد من الغيب. يمتلك القدرة على التشكل، يستطيع التعرف في بدنه على هيتين. يظل جسده الحقيقي في هيئته، بينما يُطالع الناس بجسد آخر، غير بشري، فهو طائر، أو حيوان، أو مخلوق بحري. يظنه الناس منتمياً إلى الهيئة الثانية. يُنصت لدعواتهم، وما يطلبون، ويتشفع لهم عند ربهم بما تواتيه قدراته. وكان يخاطب الموتى، يكلمهم ويكلمونه، ويعقل الطير كلامه، ويفهم ما يخاطبه به، وإذا صلّى، تصلّى الجن معه.

دخل عليه مرید كان قد نظر إلى امرأة في الطريق بشهوة.  
ابتدره وليُّ الله بالقول: تُب إلى الله عن زنا عينيك!  
عرف المرید أن مكاشفات الولي أنبأته بما فعل.



ظل في الإسكندرية حتى تُوفي في حوالي التسعين من العمر (١٢٩٥م). لم يحدّد الرواة تاريخ وفاته. قيل إنه رحل عن الحياة الدنيا في ٦٩٨هـ. وقيل إن وفاته في رمضان عام ٦٩٨هـ. وقيل إنها في ٦٩٧هـ. وقيل إنها في ٦٩٥هـ.

لم يكن — كما صرح مريديه — قطبًا، ولا صاحب مذهب صوفي، ظل — إلى وفاته — منتمياً للطريقة الشاذلية، مريداً للمرسي أبي العباس، يُفيد من دروسه وتعاليمه، وإن ظهرت — عند وفاته — أنوار وعلامات دالة على مكاشفات وخوارق.

دُفن في موضع مجاور لجامع المرسي أبي العباس. الزاوية الصغيرة تحوّلت إلى جامع يُطل على الميناء الشرقية، داخله اتساع وتجديدات وزيادات، علته مؤذنة وقباب ومقرنصات وآيات قرآنية ونقوش، وفُرشت في أرضيته السجاجيد، وتدلى النجف من سقفه. صار في الحالة التي أصبح عليها.

الجامع على الطراز العربي. ينقسم إلى ثلاثة أجزاء. الضريح في مواجهة الباب الرئيس، تُحيط به مقصورة من الخشب المحفور. ثمة باب يفتح على شارع الأباصري، قبالة جامع السلطان، وباب يفتح على شارع التتويج (محمد كريم). حلقات الذكر تقام — بعد غروب كل نهار — على الرصيف المواجه لميدان أبي العباس، يقرأ الذاكرون البردة، أو دلائل الخيرات، أو يتطوحن بالذكر الإلهي.

الصحن، أو إيوان القبلة، مربع الشكل، على يساره عدد من الحجرات، تُستخدم كمكتبة، ومكاتب للإدارة. يتوسط الصحن ستة أعمدة رفيعة، تعلوها مزولة توضح مواقيت الصلاة، وقبة حديدية، كبيرة، تشغل نصف مساحة السقف الموشى بالرسوم، والزخارف، والآيات القرآنية.

المؤذنة في الناحية الشمالية من الإيوان.

الميضة المطلة على شارع الأباصري، من الألاباستر، مشابهة لميضة جامع صلاح الدين، تتوسطها نافورة، هي قطعة من الفن المعماري العربي.

من يواجه أزمة، أو يُعاني المرض، يلجأ إلى مقام البوصيري. يقرأ البردة التي أُعجب بها الرسول، فخلع على البوصيري بردته، يتوسل الشفاء والنصفة والمدد.

الذكر في اللغة مصدر. ذكر الشيء يذكره ذكرًا. وقال الكسائي: الذكر باللسان ضد الإنصات، ذأله مكسورة، وبالقلب ضد النسيان ذاله مضمومة. وقيل: بل هما لغتان، وهو يأتي في اللغة لمعانٍ، مثل إجراء الاسم على اللسان، واستحضار الأمر في القلب. وذكر الله حياة للقلوب متجددة، دائمة.

يغادر سيدي البوصيري ضريحه وقت الغروب.  
قبل أن تبدأ الحضرة، يجلس الرسيم — شيخ الذكر — إلى الذاكرين. يحدثهم في الطريق، وأدابه، وبركات الولي ومكاشفاته. ميز الرسيم نفسه بالحزام القماشي الأخضر من يمين الصدر إلى يساره، عليه عبارة لا إله إلا الله ... محمد رسول الله، وبخط صغير في أسفل «الطريقة الحامدية الشاذلية».

ينفض ولي الله الكساء الأخضر من فوق الضريح. ينفذ — دون أن يراه أحد — من بين السور المعدني إلى الصحن الواسع، تعلوه أبيات البردة، وتتوسطه الميضة الرخامية، المستديرة.

هل تُتيح له البردة مشاهدةً النور الإلهي؟ هل يرى نور الحق تعالى رؤية العين، فيفرح به؟

يغادر الجامع من الباب المواجه لجامع المرسي. يُلقي السلام، ويميل إلى اليمين. يندس وسط حلقة الذكر اليومية. يتوسط الذاكرين تمامًا.

يطمئن إلى الوقفة وسلامة النطق ومخارج الألفاظ. الأكتاف متلاصقة، والأكف تضبط الإيقاع. يشغله الالتزام بأداب الذكر وطقوسه، فلا ينتقل المرید من مقام إلى مقام، دون أن يتحقق في المقام الذي هو فيه. يطمئن إلى توافق ذكر لا إله إلا الله مع حركة الرأس من أقصى اليمين، ثم توجه الرأس ناحية القلب. المعنى أن أنوار اسم الجلالة تصب في القلب. يعلو الصوت: الله، الله. ترافقه حركة الرأس من أعلى، وإلى الخلف، ثم يتحرك الرأس إلى أسفل. كل قول له صوته، وكل حركة لها معناها. حتى درجة الصوت تختلف في كل فقرات الذكر، من البداية إلى النهاية.

يحرص على أن يُقام الذكر على بساط الأدب والمراقبة والحضور والتهيؤ لقبول ما يرد على الذاكرين من الحق تعالى. ما يريده الذكر هو التطهر والصفاء. الذكر بناء للجنة، إن توقف الذكر توقف البناء. هو دليل طاعة الله، إعلان طاعته، حتى لو أكثر المرء من التسبيح والتلهيل وقراءة القرآن، فإن الذكر — ولو في الصمت — تأكيد الطاعة. الذكر جسر المتصوفة إلى الحضرة العلية. السماع والذكر يعبران عن معنى واحد. هو وسيلة للمرید كي يصل، دون أن يترك موضعه إلى السموات العلاء.

يقول الرسيم من قبل البداية: إن في الجنة ملائكة يغرسون الأشجار للذاكرين، فإذا فتر الذاكر فتر الملك، ويقول: فتر صاحبي.

البداء من أحزاب الشاذلي: آيات من القرآن، ومجموعة من الدعوات والابتهالات. تتناغم الأصوات في قراءة دلائل الخيرات، والأوراد.

يعلو صوت الرسيم: البردة!  
الشعر طريقته في الإلقاء. الموسيقى تلازم المعنى، إن لم تسبقها:

أهجتَ دمعًا جرى من مُقلَةٍ بدمٍ	أمنُ تذكُّرِ جيرانِ بذِي سَلَمِ
وأومضَ البرقُ في الظلماءِ من إضْمِ	أم هبَّتِ الرِيحُ من تلقاءِ كاظمَةٍ
وما لقلبك إن قلتَ استنْفِقَ يَهمِ	فما لعينيك إن قلتَ أكْفُفا هَمَّتَا
ما بينَ منسجمٍ منه ومُضْطَرِمِ	أيحسبُ الصبُّ أن الحُبَّ مُنْكَتِمِ
ولا أرقَّتَ لذكْرِ البانِ والعَلَمِ	لولا الهوى لم تُرقُ دمعًا على طَلَلِ
به عليك عدولُ الدمعِ والسَّقَمِ	فكيف تُنكر حَبًّا بعد ما شَهِدْتَ
مثلَ البَهَارِ على خَدَيْكَ والعَنَمِ	وأثبتَ الوجودُ خَطِيَّ عَبرَةٍ وَضَنِي
والحُبِّ يعترضُ اللذاتِ بالألمِ	نعم سرى طيفٌ مَن أهوى فأرقني
منِّي إليك ولو أنصفتَ لم تَلَمِ	يا لائمي في الهوى العُدْرِيَّ معذرةً
عن الوُشَاةِ ولا دائي بمُنْحَسِمِ	عدتْكَ حالي لا سِرِّي بمُسْتَتِرِ
إن المحبَّ عن العُدَالِ في صَمَمِ	محضتني النصحَ لكن لستُ أسمعُهُ
والشَّيبُ أبعدُ في نصحٍ عن التُّهمِ	إني اتهمتُ نصيحَ الشَّيبِ في عدلِ
... ..	... ..

الرسيم — بالتصفيق — يضبط إيقاع الذكر والإنشاد، من أول الحضرة إلى آخرها. النقباء العشرة يقفون حول الصفوف. يُشرفون على النظام. يبلغون إشارات الشيخ إلى الذاكرين، يمارسون القيام والقعود والسكوت والذكر، ينقلون — في الإنشاد وأداء الذكر — من درجة إلى درجة أخرى.

يبدأ البوصيري مع الذاكرين من بداية الذكر: لا إله إلا الله. الأرضية التي ينطلق منها الرسيم إلى الراس، فالدوكة، والسيكا، والجهاز كاه، والجركاه، حتى الحجاز. ينقل الرسيم الذاكرين من نغمة إلى نغمة، حتى ينتهي إنشاد القصيدة. يعلو صوت الرسيم بالاستغاثة: أغثنا، أدركنا يا رسول الله!

يرضى الإمام عن تقسيم حدود الذكر. البدء، النماء، المنتهى. للحضرة قانون يجب أن يُحترم. يكره اللهو في الذكر، ودعاء الوجد، وإتيان الحركات المصطنعة. يُشفق أن يكون الذكر حركات في الهواء، ترنحات لا ضابط لها ولا رابط. ينكر — في نفسه — من يأخذه الوجد، فيرتمي على الأرض، أو ينتحب، أو ينشج كالطير الذبيح، أو يصفق بيديه بلا

ضرورة يطلبها الذكر. الحركات المرافقة لها أصولها، مَنْ يُهمل هذه الأصول فهو يخترع ما لا صلة له بقواعد الذكر. تتطوح الرعوس، تهتز الأجساد والأيدي، تتناغم الأناشيد والابتهالات. يُرددون اسم الله، حتى تبلغ النشوة الروحية ذروتها. يعرف الذاكرون أن وليَّ الله يتوسط — وإن لم يروه — حلقة الذكر، يراقب التصرفات والأقوال والقراءات وعبارات الذكر.

يُدرِك ولي الله — ببصيرة لا تُخطئ — أن الملتفين في حلقة الذكر، يعبرون عن شوق إلى وعي لا يُدرِكونه، إلى الشفاعة والمحبة والنصفة والمدد. الوجد يسري في الجسد، يحرك الأعضاء في اتزان محسوب. يُواجه بالمؤاخذه الكلامية وحدها، دون عقوبات قد يراها الرسم.

طيور البحر — إذا تخلل صوت البوصيري أصوات الذاكرين — تتوقف عن التحليق. يشغلها جمالُ صوت ولي الله عن كل ما حولها، تلتذُّ به، تستغرق في الذكر والمجاهدة، تنهل من نبع الأنوار.

يتكرر لفظ الجلالة: لا إله إلا الله، وعبارة التوحيد: لا إله إلا الله. اللحن ثابت، والنغمات ذات إيقاع منظم.

الكلمات المغناة تطلق بالانفعال والشجن والحنين والدفء والمناجاة وطلب القرب. تُحلق في سماء الميدان، تغطيه، تغطي النوافذ والأبواب المفتوحة، والشوارع المتفرعة، بغلالات شفيفة من الروحانية التي تفرض الصمت، أو الهمس، والتأمل. يتسارع الإيقاع بملاحقة الرسم. تعلق الأصوات، وتعلو. يرافقها سرعة في اهتزاز الأجساد، وتطوحها. تبدأ — في لحظة يحددها تصفيق الرسم — في الخفوت، حتى تهدأ تماماً، ويحلَّ السكون.

علت أصوات المريدين — ذات مساء — في حلقة الذكر، وتشابكت.

أشار إليهم الرسم، فظلوا على صخبهم، ولم يمتثلوا.

غلبه التحير لارتفاع الأصوات. يذهب بجلال الاسم وهيبة الذكر. توسَّط البوصيري الحلقة، وصدق بيديه.

انفضت الحلقة في لمح البصر.

تناثر أفرادها في أماكن متباعدة.

أدركوا خطأ فعلتهم. طمعوا في عفو سيدي البوصيري.

عادوا إلى موضعهم فرادى، حتى اكتملت الدائرة، وعلا هتاف الذاكرين.

## البوصيري

يفرغ الذاكرون مما أعطوه جهدهم ووقتهم. تبدأ الحلقة في الانفضاض. يغادر البوصيري موضعه بتعالى أذان العشاء. ينسل — بجسده النوراني الأثيرى — إلى داخل الضريح، بينما يمضى الذاكرون إلى الصلاة.

راجع روايتنا «البوصيري». انظر: أبو العباس.



## جميل الخضراوي

أُنشئ المعهد الديني بالمسافرخانة في ١٩٠٤ م. أول شيوخه الشيخ محمد شاكر. ظهر جميل الخضراوي في حياة المعهد الديني — للمرة الأولى — حين قَدِم من مدينته — الدلنجات — بعد أن حفظ القرآن في الكُتَّاب، وتعلَّم ما يؤهله لدخول الأزهر. طالعتَه البناية ذات الواجهة المتأكلة، والنوافذ الخشبية العالية، الكالحة اللون، والشرفات الحجرية، التي تغطَّت بطبقة من الطحالب الخضراء، وتساقط العديدُ من مقرنصاتها.

صعد الدرجات الرخامية الخمس المفضية إلى مظلمة المدخل. وجد لنفسه مكاناً في حجرة يقيم فيها أربعة طلاب. قاسم الطالب إمام أبو زيد خزانتَه الخشبية. وضع فيها ثيابه وكتبه، ودق مسماراً في الحائط لتعليق الجبة والكاكولا والقفطان. شارك الطلبة طعامهم، وأدوار الشاي.

ألف السلّمات الرخامية المتأكلة، الدرايزين المعدني الأسود بنقوشه المتداخلة، الجدران المكسوة بتكوينات النشع، أبواب الحجرات المواربة، يتسلل من ورائها ضوءُ النهار، أو ضوء اللمبات في الليل، تمازج روائح الطعام والبخور والصنّانة المنبعثة من دورات المياه. حتى تيار الهواء من نافذة المنور المطلة على الناحية البحرية، يُغلقها الطلبة — اتقاء البرد — في أيام الشتاء، ويستلقون على أرضية الردهة — تحتها — ليالي الصيف.

كان الخضراوي يترك المعهد — في صباحات كثيرة — إلى عمل لا يتحدث عنه. يعود — وقت العصر — متعباً. يغفو بما يُعينه على استكمال نهاره، والمذاكرة، والسهر. التقى به الشيخ رافع عبيد في المكتبة الحجازية. التقط إيماءات عن ظروف قاسية، شحيحة الموارد، في الدلنجات، وفي بيت المسافرخانة.

عرض الشيخ رافع أن يساعده في أمر الكُتَّاب، بعد أن تركه العريف شحاتة عبد الكريم.

قال الخضراوي: أحوال البلد تشغلني حتى عن نفسي!  
حين قامت ثورة ١٩١٩م مال جميل الخضراوي إلى الانفراد والعزلة، وإن أظهر غضبه لإطلاق قوات الإنجليز الرصاص ١٢ مارس ١٩١٩م على المصلين في أبي العباس، لما هتفوا بسقوط لجنة ملنر. وشى صوتُ الخضراوي بمرارة، وهو يتحدث عن مشاركة البوليس المصري للجنود الإنجليز في إطلاق الرصاص على المتظاهرين.  
هل يؤدّبونهم لأنهم يعبدون الله؟ أليست هذه بلادهم؟ أليس من قُتلوا، أو أُصيبوا، أبناءهم؟

عاب عليه الشيخ لبيب الشامي أنه لا يستطيع الفصل بين مشاعره الخاصة ومشاعره العامة: ما يحدث كله أنت غير مسئول عنه. هذه مسئولية من يحكمون!  
ورماه بنظرة مستاءة: أنت مجرد طالب علم.

قال الخضراوي: أشعر أن كل ما يجري هو أمر شخصي بالنسبة لي.  
قال الشيخ في استيائه: ليس إلى حد أن تُهمل مستقبلك.  
رفض أن يخرج في المظاهرات، من بدئها في المسافرخانة إلى معسكرات الإنجليز في كوم الدكة. ربما مضوا — جماعات متفرقة أو فرادى — من المسافرخانة. يخترقون الحجاري والموازيني إلى ميدان أبي العباس. ينطلق صوت المؤذنين من أعلى جوامع الحي، يمتلئ الميدان بزحام المتظاهرين. آلاف الطلبة والصيادين وباعة السمك وغازلي الشباك وعمال الميناء وأسطوات القزق والفتوات والأبوحمدات والعمال وصغار الموظفين وأهل الجرف، يقف جنود الإنجليز في صفوف بعرض الميدان، يتخللها جنود الخيالة، في المسافة إلى نهاية حديقة الملكة نازلي. تلاصقوا، حملوا البنادق والهاويات والعصي. في النواصي، سيارات امتلأت بالجنود.

تعكس جدران الصحن صدى الهتافات من داخل الجامع. يندفع الجنود للدخول. يسد المصلون والمتظاهرون الأبواب المفتوحة بأجسادهم. يتحركون في الشوارع الموازية لطريق الكورنيش. يواجهون قوات الإنجليز بالحجارة والزجاجات الفارغة والمملوءة بالرمال.

يخلو المعهد — في معظم أوقات النهار — إلا من بضعة طلاب، جميل الخضراوي أحدهم.



يميل إلى الناحية المقابلة لخروج المظاهرات. يمضي في شارع المسافرخانة حتى نهايته، ثم إلى الحجاري. ينحرف يسارًا في شارع رأس التين، ثم إلى شارع الميدان. يبتلعه زحامه.

لم يكن يسأل الطلبة عن المظاهرات، حتى لا يسأله — ربما — عن عزلته. يغيب النهار بطوله. يعود أول الليل. قد يتأخر إلى منتصفه، على ملامحه تعبٌ واضح. يبدو شخصية منغلقة، يشارك في المناقشات بالصمت، لا يبتسم لنكتة أو دعابة، يكتفي بالرد على الأسئلة بكلمات قصيرة، مدغمة. دقائق، ثم يتمدد على جنبه، وينام.

في أثناء وزارة يوسف وهبة باشا، حرص جميل الخضراوي أن يتوسط حلقة الطلبة في مدخل البناية، تلا آية القرآن، ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾، ما بين سبع قراءات، وأربع عشرة قراءة. هتف الشيخ الشامي: آيات القرآن كثيرة ... لماذا هذه الآية؟!

اختفى الشيخ الخضراوي.

لم يلحظ الطلبة غيابه، أو أنهم توقعوا سفره إلى الدانجات، فيعود بعد أيام. في صباح اليوم الخامس، سأل عنه شاب لم يتردد على المعهد من قبل. في حوالي الخامسة والعشرين. صوته العميق يناقض ضآلة جسده. يرتدي جلابية من البولين، أغلق أزرارها، ويضع على رأسه طاقية بيضاء، ويدس قدميه في قبقاب خشبي، يُصدر — إذا سار — صوتًا ذا إيقاع.

ترك الشاب المعهد دون أن يذكر إن كان صديقًا للخضراوي، أم بليدياته، أم تربطه به ظروف عمل.

شحبت الأسئلة بتوالي الأيام. اعتاد المعهد غياب الخضراوي. لم يسأل الطلبة إن كان موجودًا في حياتهم أصلًا.

قال إمام أبو زيد: دخل جميل الخضراوي المعهد وفي نيته ألا يتركه. قال الشيخ لببب الشامي: لكن نظام الفصول الدراسية يختلف عن الجلوس إلى عمود شيخ في الجامع.

ذات عصر، عاد جميل الخضراوي إلى المعهد الديني.

كان انفعال القلق والترقب قد هدأ. عاد سعد زغلول من المنفى، وصدر تصريح ٢٨ فبراير، وتولّى سعد زغلول رئاسة الوزارة. تخرّج في المعهد طلبة، وقدم طلبة آخرون.

ظهوره في انحناء الطريق من المسافرخانة أحدث في نفوس الأساتذة المشايخ وعم البلاقي حارس المبني شعورًا بالمفاجأة.  
روى الخضراوي — بين أدوار الشاي — عن أيام الاعتقال في شاطئ أبي قير، معسكر له أسوار، يحرسه جنود إنجليز وهنود.  
قال: تحوّل الشاطئ من معتقل لأسرى الحرب الأولى إلى معتقل لثوار ١٩١٩م.  
قال الشيخ محمود شلتوت المدرس بالمعهد: أنت لم تخرج في المظاهرات.  
دون أن يجاوز هدوءه: أتهمتُ بقتل عسكري إنجليزي.  
حده الشيخ بنظرة متوجسة من تحت حاجبيه الكثيفين: قتل؟! ... هل قتلتَ بالفعل؟!!

— هذا هو الاتهام!  
ثم في مرح متكلف: لو أنه صحيح ما أفرجوا عني.  
أعاد الشيخ السؤال: هل قتلتَ بالفعل؟  
ظل الخضراوي صامتًا.  
لم يكن من الصعب على الشيخ شلتوت أن يستنتج ما حدث.

قدّم علماء الأزهر إلى سعد زغلول — عقب تشكيل وزارته — عريضة، يطالبون فيها بإصلاح الأزهر، وإلغاء مدرسة القضاء الشرعي.  
شكّل سعد لجنة للنظر في مطالب الأزهريين، من بين أعضائها حسن نشأت وكيل وزارة الأوقاف، والساعد الأيمن للملك فؤاد.  
قدّمت اللجنة تقريرها إلى سعد زغلول. طلب إعادة بحث ما تضمنه من اقتراحات.  
استغل القصر الفرصة. خرج طلاب الأزهر في مظاهرات، تردّدت خلالها — للمرة الأولى — هتافات تُنادي بحياة الملك، وأنه «لا رئيس إلا الملك»!  
عزف الخضراوي عن المشاركة في المظاهرات، وأبدى استياءه.  
تبدّل حاله إلى غير ما اعتاده طلاب المعهد. اتصلت أحاديثه عن ضرورة العيش بكرامة، ورفض الشعارات الزائفة، وعدم تصرّف المشايخ بطريقة من لا يعقلون.  
خرجت مصر من السودان، ومات سعد زغلول، وخرج الوفد من الحكم.  
اندس الخضراوي — ذات صباح — بين الطلبة الواقفين أمام لافتة على باب بناية المسافرخانة.

قرأ بياناً بتوقيع الشيخ الظواهري شيخ الأزهر: «أيها الشعب الوفي. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وإن من فضل الله علينا أن كان صاحب الأمر فينا هو حضرة صاحب الجلالة مليكنا المعظم الملك فؤاد الأول، حفظه الله وأيده بروح من عنده...»

جذب الخضراوي البيان. مرَّقه، فانفضت الوقفة.

قال وهو يتجه ناحية السلم: بيان سخي، من وقَّعه أسخف منه!

في جلسة المساء، لم يُعد هو جميل الخضراوي الذي يعرفه زملاؤه. كان أميل إلى تفضيل الصمت والاستماع عن كثرة الكلام. كلماته خيط بلا نهاية. تكلم وتكلم، عن أولي الأمر في القرآن، اعتداء حكومة صدقي على الدستور، عشرات القتلى من المتظاهرين في الشوارع، معنى الشرعية في الحكم الاستبدادي. غلبه الانفعال. علا صوته بالحديث عن الدور الحقيقي لعلماء الدين.

عندما خرج جميل الخضراوي في الصباح، وتأخرت عودته أياماً متوالية، تذكَّر مشايخ معهد المسافر خانة غيابه في أعوام ثورة ١٩١٩م. توقَّعوا عودته ليحكى ما حدث.

طالت غيبة جميل الخضراوي عن المعهد. تذكَّره المشايخ في ومضات، ما لبثت أن اختفت.

توالت الأعوام، فلم يُعد في المعهد من يذكره.

انظر: حجازي أيوب، رافع عبيد، شحاتة عبد الكريم.



## جندية محفوظ الصاوي

سألها الرئيس بدوي الحريري: مَنْ وكيك؟  
في لهفةٍ مَنْ تدبّرت الإجابة: عم أبو زيد.  
ضرب أبوها صدره بيده: وأنا؟  
- أستأذّنك في أن يكون عم أبو زيد هو موكلي ... هذا حقي.  
أضافت موضحة: بلغت الحادية والعشرين هذا الأسبوع.  
قال الشيخ جميل أبو نار: ولماذا ليس أباك؟  
قالت جندية وهي تضغط على الكلمات: أحبه وأحترمه ... لكنني أريد أن يكون عم  
أبو زيد وكيك عند زواجي.  
تلقت الجميع بالحيرة.  
قال الشيخ أبو نار: من حق العروس أن توكل والد زوجها.  
وأوماً برأسه في تأكيد: ليس في طلب الفتاة ما يخالف الشرع.  
اشترطت جندية على إيهاب أبو زيد، وثبتت شرطها في عقد الزواج، أنه متى تزوج  
عليها بزوجة ثانية، تعتبر طالقة طلقة تستعيد بها نفسها. اشترطت ألا يركب البحر  
دون مشيئتها، وألا يطول غيابه في رحلات العمل، وأن تقتصر آخر رحلات البلبانس على  
طرابلس الغرب أو طرابلس الشام. رحلات سفن الصيد تمضي إلى أعالي البحار في فترات  
ما بين ثلاثة أشهر إلى أربعة أشهر.  
- الركوب إلى البحار البعيدة يحتاج إلى زوجة من مخلوقات البحر ترافقك إلى كل  
مكان.

تحدث المأذون - في شرود محفوظ الصاوي، وحيرة الحضور - عن معنى الزواج.  
قرأ الأحاديث الشريفة عن الزواج، ثم علا صوته بالآية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

أَزْوَاجًا لِنَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠﴾. وردَّ قول الرسول «تناكحوا تناسلوا فإني مباح بكم الأمم يوم القيامة».

طلب منديلاً من إيهاب، وضعه على يده ويد أبيه. المنديل الأبيض فوق اليدين.  
قال الأب: زوّجتك موكلتي.

قال الابن: وأنا قبلت.

تلا المأذون الصيغة الشرعية لعقد الزواج، ثم حرر قسائم الزواج، أعطى إيهاب القلم، فوَّع عليها، ثم أخذها منه، قدّمه للرئيس أبو زيد، فوَّع هو الآخر. أصرت جنديّة أن تحتفظ بالمنديل، يذكّرها بوكالتها لحماها.

بعد أن حصلت على شهادة الثقافة العامة، قالت لأمها: أنوي استكمال تعليمي حتى التخرج في الجامعة.

رفعت الأم حاجبيها: جامعة؟! ... هل تستبدلينها بالزواج؟!

– لا شأن للتعليم بالزواج، وإن كانت فرصة المتعلمة في الزواج المناسب أفضل من فرصة الجاهلة.

– لست جاهلة. أخذت شهادة يحسدك عليها الشبان!

وهزت رأسها دلالة الحيرة: في سنك تسعى الفتيات إلى الزواج، وأنت تتحدثين عن استكمال التعليم.

ورمقتها بنظرة باردة: هل ينتظر العريس حتى تستكملي تعليمك؟!

أظهرت التملل: أين هو العريس؟

– ألف من يطلب بنت محفوظ الصاوي.

أقبلت على القراءة في كتب التاريخ، ودواوين الشعر والقصص. حفظت قصائد كاملة وأبياتاً لشعراء قدامى ومحدثين. حرصت أن تقرأ باب «تراجم شهيرات النساء»، والقصص المترجمة والطرائف وتاريخ البلدان. قرأت «ألف ليلة وليلة» و«اعترافات فتى العصر» و«آلام فترتر».

استعصى عليها فهم مقارنة محمد كاظم ميلاني بين السنة والشيعية، في روايته «السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين»، لكنها انتقدت قصة الحب التي رواها الكاتب. نسبتها إلى الخيال. لم تتصور أن تمثّل دعوة قاسم أمين دافعاً لتحريض الرجل ابنته على مصادقة الشبان. حفظت فقرات كاملة من «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة». المرأة التي

يتحدث عنها الكاتب، ليست نعمات ولا عليّة عشاوي. إنها امرأة أخرى. تمتنت أن تكون هي. لها الحق في الحب، واستجابة القلب، وفي اختيار مَنْ يميل إليه قلبها.  
قالت: ليس الحجاب هو الإسلام.

استعادت ما كتبته ملك حفني ناصف: «ليدعنا الرجل نُحص آراءه، ونختار أرشدها، ولا يستبد في تحريرنا، كما استبد في استعبادنا. إننا سئمنا استبداده. إننا لا نخاف من الهواء ولا الشمس، وإنما نخاف عينيه ولسانه، فإن وعدنا أن يغض بصره كما يأمر دينه، وإن يكن لسانه كما يُوصيه الأدب، نظرنا في أمره وأمرنا».  
ترددت على مجلس الست صبيحة.

تمتد المناقشات إلى أحكام الزواج والطلاق وتعدد الزوجات وعدم التكافؤ واختلاف الطباع وسوء المعاملة والغيرة والإسراف وتدخّل الأهل وغياب القدوة والمساواة في الحقوق وحق تعليم الفتاة.

يتناثر في كلمات الست صبيحة أسماء عائشة التيمورية وملك حفني ناصف ومحمد عبده وقاسم أمين ومحمد كاظم ميلاني. تؤيد، وتُدين، وتطرح حلولاً لمشكلات قديمة. تختلف آراؤها عن خطب الجمعة، ودروس ما بعد المغرب، في مساجد الحي.  
أثارها ما قالته عن طاعة المرأة لزوجها، وعن نصائحها للنساء بأن يُطعن الأزواج مهما فعلوا. حتى لو أساء الزوج، فعلى الزوجة أن تتحمل، وتصبر، وتحرص ألا تُغضبّه.  
لم تكن توافق الست صبيحة في معظم دروسها، وإن وجدت في الدروس ما يدعوها إلى التأمل، وطرح الأسئلة، والمناقشة.

قرأت جندية — ذات يوم — ما غمض عنها، ولم تسأل من نفسها. بدت — كألغاز — وقائع وأقوال واجتهادات.

سألت بعفوية من طبعها: إذا احتملت البنت ... هل اغتسالها ضرورة؟

قالت الست صبيحة: لا أرد على الأسئلة السخيفة!

ثم كمن راجعت نفسها: الرسول أوصى بالاغتسال إذا كان الماء قريباً.

وفي لهجة مَنْ يريد إنهاء الحديث: عندك ماء الحنفية ... وماء البحر!

خشي محفوظ الصاوي توقعات ما بعد تردها على مجلس الست صبيحة. قد يجتذبها ما يبدو مقنعاً من الأفكار، وإن كانت لا تعيه، أو تفهمه.

لم تُفلح محاولاته لإثنائها عن التردد على مجلس صبيحة. أن تخرج أمام عينيه أفضل من أن تتسلل في غيبته.

عاب عليها عم حجازي تأثرها بأخر قراءاتها. تجد ما قرأته هو الحقيقة. قراءاتها اختيار. تختار ما تتوقع أنه سيبدل أفكارها، ويشير إلى الطريق المعاكسة. حذرًا من قراءة سلامة موسى وخالد محمد خالد وعزيز فهمي ومحمد خطاب. قد لا يعي ذهنها معنى كتاباتهم تمامًا. قد تفسر الكلمات بغير معانيها.

ظلت على اختيارها فيما تشتريه من المكتبة. لمح محفوظ الصاوي، فأشعل في البيت نارًا صعب إطفائها.

قال الصاوي: أوافق على قراءة التسلية. لا أريد أن تُصبِحِي درية شفيق.  
قالت: أنا لا أقرأ ما يخالف الدين.

– ما تقرئينه اجتهادات ... فيها الصواب، وفيها الخطأ.  
في لهجة متملقة: أنا لن أقتنع إلا بما تقتنع به حضرتك!  
خامرتها – كالومضة – أمنية بأن تظل بلا زواج. أدركت أنها تخشى الإنجاب. رأت أمها وهي تلد شقيقها الأصغر. الألم والتأوهات والصراخ والماء الساخن والدم.  
حدست – من تجنبها لقاء العجربة نعمات – أنها تكره المرأة. تستعيد – برؤيتها – ما لم تكن تتخيله. التقطت حوارًا بين أمها وأبيها، تُصرُّ أمها أن تؤدي نعمات ما قدمت من أجله، ويجد أبوها في الأمر سخفًا لا معنى له، لكن نعمات وضعت الغلق، وأخرجت ما فيه.

تستعيد اقتراب عيني نعمات من وجهها، اقتراب جسد نعمات من جسدها. موسى الحلاق في يد المرأة، تهبط بها إلى ما بين ساقيهما المفردتين بأيدي النسوة. تمازج الخوف والتشنج والصراخ، والذكرى التي لا تغيب.

لم تكن تتحاشى محادثة الرجال، ولا مجالستهم. ربما استوقفت أحدهم في الطريق، وألقت عليه سؤالًا. لا تترك لأحد أملًا في استمالتها. لا يزيد الأمر – حتى في حالات الصداقة – عن ابتسامة تشي – عند الإلحاح – بالإشفاق، أو السخرية.

تناهت إلى الصالة دندنتها بلحن سيد درويش:

يا بنت اليوم	دا قصتك دا يومك
بزياداك نوم	قومي اصحي من نومك
واخلصي م اللوم	وطالبي بحقوقك

قال محفوظ الصاوي: لسيد درويش أغنيات أخرى كثيرة غير هذه الكلمات السخيفة!



أظهر محفوظ الصاوي استيائه لما طلبت أن تركب البحر في رحلة صيد. وقفة ابتهاج المنسي في الحلقة استثناء لا يتكرر. ركوب البحر مهنة الرجال، يواجهون الأمواج والتوقعات والأخطار وصيد الرزق الصعب.

– هل تتصورين نفسك وسط أكثر من عشرين رجلاً؟!

أردف من بين أسنانه: هل أنشغل عن عملي برعايتك؟

قالت في لهجة واثقة: أستطيع أن أرفع نفسي.

– أنت لا تستطيعين حتى الخروج من البيت بمفردك.

رفض محفوظ الصاوي فكرة أن تنزل إلى البحر. رفض حتى وعدها بأن تذهب إلى الأنفوشي، قبل أن يطلع الصباح. النزول إلى البحر يعني ارتداء مايوه، إن تركت فستانها على جسدها، فهو ما لم يتصوره.

قالت إنها تخوض في المياه – سائرة – إلى ما فوق الركبتين. ذلك حد وقوفها، حتى لا تضطر إلى العوم.

قال: إذا لم تحبي الاستحمام في البيت ... عندك حمام الأنفوشي!

– المترددون على الحلقة يذهبون إليه من النجمة.

علا صوته في غضب: هل أطلب بمنع دخول الرجال إلى الشاطئ؟!

حين عرضت على أبيها أن تعمل – مثل إخوتها الأولاد الثلاثة – معه، هتف في

استغراب: هل تريدان الوقوف في الحلقة؟

عاب عليها كثرة قراءاتها في كتب ملعونة، أحدثت في عقلها خللاً يصعب إصلاحه.

قال: لا يهم أين أقف. المهم أن أعمل.

– ينقصك شيء؟

– ينقصني أن أعمل.

– لماذا؟

– لأشعر أنني آدمية.

– الملك فاروق لا يعمل ... هل هو غير آدمي؟!

وغلب على صوته التأثر: ألا يشغلك قول الناس إن بنت محفوظ الصاوي تجري على

رزقها.

اتجهت الأم بنظرة مشفقة إلى زوجها: الناس تعرف من أنت.

قالت جندية: أريد أن أصبح ذات قيمة!

قال محفوظ الصاوي: قيمتك في بيتك، مع زوجك وأبنائك.

رفضت أن تضع المساحيق على وجهها، قبل الدخول على ربيع البنداري الموظف  
بوزارة الأوقاف: إذا غيرت خلقة ربنا فأنا أغش!

لم تكن تريد الخطبة، وتمنت فشلها. لا تعرف الرجل، وإن لمَّحت أمُّها بتقدم عمره.  
هَوَّنت من السنوات العشرين التي تفصل بين جنديّة وبينه، الرجل لا يعيبه إلا جيبه،  
ويعيب ربيع البنداري أني لا أعرف عنه أي شيء!

لماذا تنتظر الفتاة (ربما يطول انتظارها) حتى يخطبها الرجل؟ لماذا — إن استهواها  
رجل — لا تتقدم لخطبته؟ لماذا زيارة التعارف والشربات وفنجان الشاي والتكف  
والزغردة التي تؤكّد المعنى؟

النصيحة توجّه للأب بأن يسبق حرصه على تزويج ابنته، سعيه لتزويج ابنه. لماذا لا  
تُزوّج البنت نفسها؟ يقول الأب: زوّجتك ابنتي. تقول البنت: زوّجتك نفسي. يقول الشاب  
في الحالين: وأنا قبلت. لا دخل للتقاليد بذلك كله.

قالت لأمها: إنه يحتاج إلى وعاء يُفرغ فيه شهوته، وليس إلى زوجة تُشاركه حياته!  
عابت عليها أمُّها أنها تخطّت ما ينبغي أن يكون عليه سلوك الفتاة.

قالت جنديّة: لن أعطي نفسي — بالزواج أو بدونه — إلا لمن أحبه!

قالت الأم من بين أسنانها: قولي بالزواج فقط.

طال رفض محفوظ الصاوي للقائهما فترة الخطبة. يخرجان بمفردهما. يتعرف كلُّ  
منهما إلى الآخر، بعيدًا عن جلسات الأسرة.

شرط الأب موافقته بأن تصحب أباها الصغير إلى أماكن — مفتوحة — نهايتها  
ميدان محطة الرمل. يشدّد فلا يمضيان خارج البيت أكثر من ساعتين.

لم يشأ محفوظ الصاوي أن يُرغمها على الزواج ممن قد لا ترضى به. إذا لم توافق  
الفتاة على من تتزوجه، فزواجها باطل. حتى لو أكرهها على الزواج، فلن يزول البطلان.  
مع ذلك، فإن الرجل لم يُخف لهفته على رؤية الفتاة عروسًا في بيت زوجها.

خافت أن يُظن بها السوء في دينها.

لم تكن قد مارست علاقةً من أي نوع، ولا تعرّت أمام رجل. تعرف أن الفتاة التي  
تموت بكرًا، لم تمسّ الرجال، تموت شهيدة.

زارت الشيخ عبد الستار.

عرضت عليه أفكارها، وما يجول بخاطرهما. همست بتخوفها من أن يتعرض لها من لا تعرفه. يتغافل عن أنها من المحصنات. يشبب بها، يفترى عليها، يرميها بأكاذيب من اختراعه.

تريد أن تشعر أنها مالكة نفسها ومستقبلها، تُدير ظهرها لما مضى، تأخذ قرارات حياتها بنفسها. لا وصاية عليها من أحد. حتى أبواها قاما بدور اليمامة، تغطي فراخها بجناحيها. عندما يكبر الوليد، تهش عليه ليطير. تناثر في كلامها: الخادمة، قطعة الأثاث، الملل، المساواة.

قال الشيخ عبد الستار: لا بد أن يقوم الزواج على الإقناع والاقتناع. إكراه البنت على اختيار من لا ترضاه، أو تقبله زوجاً لها، تصرف غير صحيح وباطل.

استعاد قول الرسول «رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكروها عليه.»  
تمنت جندية أن يكون زوجها شاباً تختاره، ولا يختاره أهلها، لا يختاره أبوها. لا يكون قبولها به من خارج نفسها، مفروضاً عليها فلا بد أن توافق. تتشرب ملامحه، تتأمل تصرفاته. يُنصت إليها، وتُنصت إليه. تعرف ميوله وعاداته وما يفكر فيه. هل يحب البحر مثلها؟ أو أنه يحب ما لا تعرفه؟ هل يشرب السجائر؟ هل يشرب الشاي، أو يميل — كأبيها — إلى شرب القهوة؟ هل يفضل قعدة البيت، أو يفضل الجلوس على المقهى؟ هل يأذن لها بالتردد على مصلى السيدات في أبي العباس، وزيارة الست صبيحة، تسألها، تستوضح ما قد يغيب عنها من أمور الدين، أو أنه سيُلزمها البقاء في البيت، لا تتركه أياً يكن السبب.

حين رأت إيهاب ابن ريس الصيادين أبو زيد، داخلها اقتناعاً أن الرضا من جانبها، محبتها له هي التي دفعتها إلى قبوله.

رفضت تصور الحجرة المغلقة، والرقصات، والزغاريد، والطبول، والطرقات على الباب، والمنديل الأبيض، وتدخل الداية إن أخفق الزوج، ونقطة الدم، والأغنية: قولوا لابوها إن كان جعان يتعشى، والشرف الذي يسترد الأب أنفاسه بعد أن يسلمه لزوجها.  
لماذا لا يتركونهما وحدهما؟

إيهاب — بالتأكيد — يعرف ما ينبغي فعله، وهي قد عرفت ما يعينها على الفهم. قذفت — في المالح — بالحجاب الذي كتبه لها شحاتة عبد الكريم. أسلمت جسدها إلى البلانة. تنتف الشعر، وتنقش الحنة على اليدين والقدمين. قالت الأم إن جسدها — منذ تتزوج — يصبح ملكاً لزوجها. هو صاحب الحق فيه، يأتيه متى يشاء، وبالكيفية التي يراها.

مطّت شفّتها السفلى: أين أنا من كل ما سيحدث؟  
وسط لعلّة الزغاريد، ومواويل ماهر الصاوي، ورقصات سيد حلال عليه، وزحام  
المدعوين، فاجأت جنديّة أمّها برفض الزفاف البلدي.  
أصرّت أن تُغلق الحجرة على العروسين وحدهما، لا ماشطة، ولا أغنيات، ولا منديل  
أبيض، تُعلن فيه بقعة الدم شرفها.  
ابتلعت الأم دهشتها، وظلت صامتة.  
لم تُخبر محفوظ الصاوي بما تريده جنديّة. انطوت على الأمل أن تراجع البنت  
نفسها. تعي خطورة ما تطلبه، وانعكاسه على الأب الذي يعنيه شرفه.  
قالت جنديّة لنظرة الأم المتحيرة: هذا شرفي ... يخصني!

انظر: ابتهاج المنسي، حجازي أيوب، سيد درويش، شحاتة عبد الكريم، صبيحة  
الداخني، عبد الستار، عليّة عشاوي، فاروق الأول، ماهر الصاوي، محمد كاظم  
ميلاني، نعمات.

## جنيُّ البحر

الجنيُّ مشتق من أجنَّ الشيء، أي أكنَّه وأخفاه.

خلق الله الجن قبل أن يخلق الإنسان. خلقهم من مارج النار، وهو الهواء الساخن فوق النار، ومن نار السموم. يختفون عن الإنس، فلا تُدرِكهم حواس البشر في الظروف العادية. يحيون في عالم مجهول. يرون البشر، ولا يراهم البشر. لا وسيلة للتيقن من الوجود وإدراك الصفات، سوى بيان القرآن والسنة.

ذكر الله — سبحانه — الجن في القرآن اثنتين وعشرين مرة، وجاءت كلمة الجن خمس مرات، والسورة الثانية والسبعون من سور القرآن هي سورة الجن. يقول الحق تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

يأكل الجن، يشربون، يتزاوجون، يتناسلون، يرون البشر، وإن لم يملك البشر الفعل نفسه. خلق الله الإنس والجن لعبادته ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

الله — سبحانه — غني عن العالمين، لا تنفعه طاعة، ولا تؤذيه معصية. خلق الإنس والجن لعبادته، ليكتملوا بهذه العبادة. يتجلى عليهم — بإخلاصهم فيها — بأنواره وفيوضاته ومدده.

الجن يعبدون الله بما أمر، دون إكراه. منهم الصالحون والطالحون، الخيرون والشريرون، المؤمنون والكفرة.

ثمة من يصدقون وحي الله ورسالة محمد، ويدعون أقوامهم إلى الإيمان بالله ورسوله، وبالقرآن دستورًا لكل البشر. وثمة شياطين الجن، يُقدِّمون على المعاصي، ويرتكبون الشرور.

الجن يسكنون الأماكن التي لا يسكنها البشر، أو يقلُّ تردُّدهم عليها. الصحاري والخلاء والخرائب والمساحات غير المأهولة من البحر.

هو جنِّي البحر، وهو ساكن الماء.

تعددت الروايات حول ما إذا كان — في تكوينه الجسدي وملامحه — أقرب إلى البشر، أو مخلوقات البحر.

تكررت روايات الصيادين عن رؤيته يتقافز فوق المياه. وقال غريب أبو النجا إنه شاهد الجني يرقى البلانس في مرساه، ويتجول فوقه، ويتسلَّق الصاري، ثم يقذف بنفسه — بعيدًا — في الأمواج.

هيئة الجني كما تحكي الحواديت: الجسد النحيل العاري، الكثيف الشعر، الأظلاف في القوائم الأربعة، العينان الواسعتان المستديرتان، الذيل الطويل أشبه بذيل الحصان، القرنان النافران أعلى الرأس.

ثمة مَنْ رآه في هيئة الشيطان، كما وصفتَه أحاديث الوعظ والحواديت. وثمة من ميَّزه رغم تقمُّصه هيئة البشر. وقيل إنه يتحرك في شكل طيف لا يكاد يُرى.

قال الرئيس غريب أبو النجا: إن الجني هو ذكر عرائس البحر. تشحب قوته أمام إرادة عروس البحر، هي التي تأمره، وتعيب أفعاله، أو تُثني عليها.

ثمة مَنْ كانوا يخشون ذكر اسمه، أو كنيته. يكتبون بالإشارة إلى الموضع الذي يحدثون اختباءه فيه.

عرف أهل بحري جنِّي البحر بأفعاله.

لا يرونه، لكنهم يشاهدون تأثيرات ما يفعل، يُنقذ الغرقى، يساعد في جذب شبك الجرافة، يُعيد الفلايك التي تطوح بها الأمواج، يهب الناس من العلامات ما يُعينهم على التنبؤ بأحوال البحر، يحذّر الصيادين، والبحارة — متخفيًا — من خطر وشيك، أو يُنقذهم حين يبدو الغرق، الموت، احتمالًا وحيدًا.

غريب أبو النجا لم يكن يثق في نيات الجن. مَنْ يلامسه الجني بطرف إصبعه، يتحول إلى تمثال من الحجر أو الصخر. حذّر الصيادين من أن يلتفتوا وراءهم، لتبين موضع نداء، أو استغاثة، أو غناء.

كان الصياد السعداوي شبانة منشغلًا — ذات ليلة قمرية — بجذب الطراحة. أضاء الشاطيء نورًا خاطف، ما لبث أن اختفى. تَلَفَّت السعداوي حوله لتبيّن مصدر الضوء. طالعتَه الظلمة الساكنة من حوله.

## جنيُّ البحر

أخبره غريب أبو النجا أن الضوء الذي فاجأه هو جني البحر. صعد من موضعه، ثم غاص إلى حيث يُقيم. كان صعوده الخاطف لفك الغزل — قبل أن يتمزق — من صخور الشاطئ.

طاقم البلانس «السهم الذهبي» تأملوا الموضع الذي حدسوا أن الجني لامسه بيده. وجدوا غطاءً على ثقب في جانب البلانس. عرفوا أن الجني أنقذهم من خطر الغرق.

ربما تحوّل جني البحر إلى شبه سحابة سوداء من الدخان، تتشعب، تتلاشى. يظهر في موضعها تكوينٌ جسدي. يُمسك عصاً من شجر الجميز. يمدُّ بها يده، يُحيط عنق مَنْ يحاول الفرار، يُطمئنه ويريح نفسه. إن كان الشخص من فاعلي الشر، أو بدا نزوعه إليه، أرهقه بالأذى حتى يموت.

يحرص — طيلة فترة تحوره — ألا ينزل البحر، أو ينظر إلى مياهه في وجود آخرين. ملامحه الحقيقية كجني هي التي تتراقص في المياه.

إذا نظر في الماء، رأى ملامحه الحقيقية.

حتى لو بدّل هيئته، في شكل إنسان أو حيوان أو طائر، فإن التموجات لا تعكس إلا صورة الجني: عينيّه المستديرتين، شعره الكثيف يغطّي رأسه وجسده، الأظلاف المشقوقة في نهاية اليدين والساقين.

يُعيد النظر في صفحة الماء. يعرف أنه هو الجني وليس ما تقمصه. يرى نفسه بغير ما يتوهم الناس. يتصورونه ما تشكل فيه، لا يخشون أذاه، ولا يبادرونه بالعداء. يدرك أن الموقع الذي اختاره قريب من الأرض التي يحيا فيها البشر. إذا لم يعمل على إخافتهم، فربما سَعوا إلى أذيته. يعلو صوته — في فترات متقاربة — بما يُشبه الزئير، يردهم عن مجال عيشه.

لأن خليفة كاسب لم يلتقِ بجني البحر، ولا رآه طيلة حياته في البحر، فقد أنكر وجوده. أعاده إلى الأخيلة والتصورات، ورؤية ما تريد العين أن تراه. هو أشبه بسراب البحر.

روى سويلم أبو العلا أن كرم حامد كان يستمع إلى هاتف، يأتي إليه من أعماق البحر. يُناديه باسمه. يكرر المناداة في صوت يغلب عليه الحنين واللهافة.

لم يكن كرم يعرف أن الصوت لأبيه، الجني الذي يرى ابنه أمامه على الشاطئ، أو في داخل البحر. لا يراه كرم في اختفائه، ولا يعرفه في تقمُّص سحن البشر.

أرجع سويلم أبو العلا امتلاء طراحة كرم حامد، بينما صيادو الطرّاحة يعانون قلة المحصول، إلى مساعدة جنّي البحر. يُدرك معنى العلاقة، وما يحرص جنّي البحر على فعله.

كان الجنّي يُحيط كرم برعايته، يحميه من الشرور التي تهدده، يومئ — بتصرف — إلى الطريق التي يجب أن يسلكها، وما ينبغي أن يتسلح به لمواجهة الخطر. قد يعطيه إشارة عندما يقترب الخطر من حياته. يلتقط كرم الإشارة، كالهاتف أو الحدس أو التخمين. ينقلها إلى الصيادين معه، فيحاولون اتقاء الخطر.

اعتمد كرم حامد على قوّته، وركب البحر.

كانت النوة قد ألزمت الصيادين الشاطئ، وطرحت التوقعات السيئة نذرها. فاجأته النوة بما لم يتوقع: علّت الأمواج، تلاعبت بالقارب. عجز كرم عن التجديف، أو محاولة إلقاء نفسه في البحر.

لاحظ الجنّي ما جرى. يعرف ما بينه وبين كرم. اخترق الأمواج. احتضن كرم والقارب، علّت بهما يده فوق الأمواج، ومضى في اتجاه الشاطئ. أشفق الجنّي أن يراه كرم في هيئة الجنّي. وسّده على الرمال، واطمأن إلى انتظام أنفاسه.

وانطلق.

**انظر: خليفة كاسب، غريب أبو النجا، كرم حامد.**



## جودة هلال

سحب عمران الخولي كرسيًا، وجلس وسط الجلسة أمام دكان الحاج جودة هلال. جال بعينيه كمن يفتش عن مستمع لما ينوي قوله. تحدّث عن لقائه ببيرم التونسي خلال أيام عمل قصيرة أمضاها في القاهرة. استعادًا ذكريات بحري، والصيد في الأنفوشي، وعشرة السبالة، وليالي رمضان في ميدان أبي العباس، وسباق البنز، وهجاء التونسي للملك فؤاد. شكّا الخولي لبيرم صعوبة الفوازير التي تُقدّمها له الإذاعة عقب إفطار رمضان. اكتب شيئًا يسهل علينا فهمه.

قال بيرم التونسي: نحن في النصف الثاني من رمضان، إن تيسر وقت سأقدم حلقة من الفوازير عن بحري.

علا صوت سيد حلال عليه كالمذكّر: بالمناسبة، ليلة القدر، هل هي في الأيام السبعة أو العشرة الأخيرة من رمضان؟

تعددت الاجتهادات والآراء، حتى أدركهم الملل.

حسم الحاج جودة هلال الأمر بقوله: شهر رمضان كله بركة!

لاحظ وقفة المرأة المرتبكة، تُعيد تسوية الملاءة على جسدها، وتتلقت.

تحدّثت المرأة عن المغص الذي كأنه استقر في بطن ابنها.

قال: العشبّة دواء الولد.

ووشى صوته بالثقة: وصفة مجرّبة لطرد الديدان.

– عند العطار؟

– فتّشي عنها قرب الشاطئ ... تُغلى في الماء، وتُسقى للولد منقوعة.

اتجه الحاج جودة بنظراته وكلامه إلى جلسائه أمام الدكان. يتحدثون عن أحوال

الجو، وصرف مياه المجاري في المينا الشرقية، وحكايات الجرائم المثيرة، وعبر الحياة،

وتأثيرات النوات على راكبي البحر والصيادين والناس العاديّين، ومباريات الكرة في الأراضي الخلاء، ومعارك الفتوات.

عندما يبدأ في الحكى، فإنه لا يعرف له نهاية. يُشرق ويغرب. يروي ما يَقد إلى خاطره. يلجأ إلى ذاكرته، حتى في الأحداث التي ربما نسيها الآخرون. يتمتع بقدرة مذهلة في الحكى والتأليف. يمزج الخيال بالأحداث الحقيقية. يُضيف، ويحذف، ويبدّل، ويحوّر. يُضفي تشويقاً وإثارة بما يحضّ على المتابعة.

يُطالعه السؤال: من أين لك كل هذه الحكايات والحواديت والنكات والنوادر؟

يردُّ بصوت محايد: خبرة الأيام!

لا يُضيف إلى الكلمتين، ولا يحذف، كأنه يتوقع السؤال، فأعد له إجابته المحددة.

وسأله خليل الفحام: ألا تُؤلف؟

اختار ردّاً مراوفاً: الحياة تُؤلف فينا حتى نموت!

حدّر جلساءه من مراقبة رجال الشرطة السريّين.

قال شحاتة عبد الكريم: باب الدكان على الشارع.

قال جودة هلال: مضى على هزيمة يونيو أقل من عام. المناقشات السياسية ترفُّ لا

نقوى عليه!

لم يكن يحب السياسة، ولا يتابع أنباءها، يثق أن الحياة فيها ما هو أهم من

السياسة. لم يكن يتبنّى أفكار حتى حزب الوفد الذي يحبه أهل بحري. الحزبية من

التحزب، والتحزب يعني الفرقة والتشتت. وحين تتناثر أسماء الملك فؤاد وسعد زغلول

وهتلر وموسوليني وإسماعيل صدقي وتشرشل وستالين وفاروق ومصطفى النحاس وبن

جوريون وجمال عبد الناصر، يبدّل المناقشة. يُبعدها عن حديث السياسة. هذا هو ما

ينبغي أن تتناوله الجلسة.

سعى إلى صحبة الشيخ عبد الستار إمام على تمران. يستمع إلى أقواله ونصائحه،

يراقب تصرفاته وأحواله الطيبة، يتعلم منه، ويدلّه على ما يُفیده، وينظم خطواته. يحاول

التشبه به.

لم يقتصر على الحلاقة، فهو يعالج المرضى من أبناء بحري، بالأغذية بدلاً من الأدوية.

للكيمياء مضارها. أول أدويته عسل النحل، هو مستخلص من الأعشاب والزهور. يعالج

بالأعشاب والشيخ والرجل وحلف البر والمرمية والحنظل. يلجأ إلى موسى الحلاقة —

بعد غمسه في الكولونيا — لفصد الدم من المواضع الملوثة. يَصِف كاسات الهواء والحقنة

الشرجية والحجامة. قد يستعين بالوصفات الشعبية، التي تُهمل علاج الأطباء، وبالرقى والأدعية والإشارات. يُهمل السؤال عن أعراض المرض، وعن الأمراض السابقة، والأدوية التي تعاطاها، وما إذا حققت نسبة من الشفاء.

يلجأ — في مداواته — إلى ما ذكره القرآن من النباتات: التين والزيتون والزنجبيل والكافور والنخيل والأعشاب والرمان والثوم والبصل والريحان وغيرها. يُعد خليط الأعشاب، يُضيف إليه الماء، يضعه على النار الهادئة، حتى ينضج، يدهن به الأمراض الظاهرة من الدمامل والجروح والتقرحات والتقيحات والأورام، تجد الشفاء سريعاً بإذن الله، كما تشرب لأمراض المعدة والدم. يطرد الرطوبة من الجسد والعضلات والمثانة، ويُفيد في تقوية جهاز المناعة، ويُحيل الضعف الجنسي قوة مؤكدة، ويقضي على سرعة القذف، ويُفيد في زيادة الخصوبة، ويشفي من السلس البولي والتهاب البروستاتا.

يصف جودة هلال الغرغرة واللبخة واللزقة، وينصح بالزعتر لتقوية الباه، وبالتدليك والتمرينات الرياضية، وبالثوم في أمراض ارتفاع ضغط الدم، والعدوى المعوية، وزيادة السكر في الدم، وضيق الأوردة، وتصلب الشرايين، ورواسب الدهون والجير، ووجع الصدر، والسعال المزمن.

وضَع قطراتٍ من ماء البصل في أُذني الشيخ خلف فرحات، بعد أن ثقل سمعهما. ذهب ما بهما من الطنين والصملاخ. اشتهر عنه علاجه بالحبة السوداء، يضمن شفاءه من يعالجه، حتى لو بدا المرض مستعصياً.

اعتاد الناس نصَّحه بأكل طير السمان: يفتَّت الحصى، ويُدر البول. إذا قطر دمه في الأذن سكن إليها، ودوام أكله يجعل النفس أميل إلى الهدوء والطمأنينة.

قال بدوي الحريري: لم يُعد السمان يأتي كما كان يأتي إلى الإسكندرية.

قال غريب أبو النجا: قيل إن إنشاء السد العالي هو السبب!

صنع الأحرار لمن يعاني تقدُّم السن، ووهن الشيخوخة، وتلاشي القدرة الجنسية. مَنْ يتعاطى ما يصفه له الحاج، ذهب عنه جميع ما كان به، واستعاد صحته.

باعه معاذ حويدق التاجر بالبلقراطية حبوباً، أكد قدرتها على صفاء النفس. قرأ خليل الفحام غلافها، فنصحها بالتخلص منها. هي مجرد حبوب للهلوسة.

كتب الأحجبة للوقاية، وللشفاء، من كل آفة للرجال والنساء والأطفال. إن علَّق الحجاب على وجع الحمى، أو البرد، أو الرمد، أو الرياح، أو وجع القلب، أو الصداع، أو ألم الضرس، أو الخوف من الإنس والجن؛ يشترط على حامل الحجاب/الحرز ألا ينظر إليه، ولا يترك الآخرين ينظرون إليه، وأن تظلَّ مخفية عن عين الشمس.

قد يفعل ما قرأه عن السلطان، تعلّمه من الخضر عليه السلام. يضع يده على الموضع المصاب، أو الذي يصرخ بالألم. يقول: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾. يظل يردد الجملة حتى يذهب الألم. قد يمسد رأس المريض: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر. يكرر ما قال سبع مرات، ثم يقول فيما يُشبه الهمس: «اللهم رب الناس، أذهب الباس، اشفِ وأنت الشافي. لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً».

يعرف أنه لا مانع لمراد الله، لا راد لقضائه. الإنسان مآله الموت. قد يُطيل العلاج حياته، قد يُرجئ موته، لكن يظل الموت ماثلاً في الأفق.

ما يفعله مجرد توسل، شفاعته بوسيلة إلى مقام الحضرة الإلهية. سر الله المكنون يُودعه فيمن يشاء من أوليائه، حتى عباده البسطاء الطيبين.

استعار من حجازي أيوب مؤلفات ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، مختصر الجامع في الأدوية المفردة، شرح أدوية كتاب ديسقوريدس، ميزان الطبيب، الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام.

أعدّ الأحبة ضد أعداء الله. لا يحمل الحجاب بشرّاً إلا أحبه خلق الله، وسلم من تدبيراتهم، ورسخت في قلوبهم هيبتُه. لا يسأل الله به شيئاً إلا ناله، ومَن داوم على حمله فرج الله عنه كربته، ويسّر عسره، وشرح صدره، وأعانته على الطاعة، وأدخله في دائرة الشهادة والشفاعة.

يوصي بكنم الحجاب حتى عن أقرب الأقربين؛ لأن فيه اسم الله العظيم فلا يتلاعب به من يصل إليه، ويدرك تأثيره، فيتجه به إلى الشر. أحرازه تتشفع ببركات الأولياء، تُذهب الهمَّ والغم والأوجاع والضر. يخرج المرء من الضيق إلى السعة، ويجد في حياته من ينصره، ويُعينه، ويرزقه خير الدنيا والآخرة.

يعلو صوتهُ بدعاء الرسول: «بسم الله، أعوذ بعزة الله، وقدرته، من شر ما أجد وأحاذر. أذهب الباس رب الناس، اشف، لا شافي غيرك، شفاء لا يغادر سقماً. أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يشفيك.»

شكا له قنبر عبد الودود متاعب حياته. كتب كلمات على ورقة. تلا عليها تعاويذ ورقي. طلب من قنبر — وهو يقدمها له — أن يحفظها عن الأعين، وألا يتكلم بشأنها مع أحد، وأن يكرر قراءتها حتى الحفظ، يستعيدها، ويردّد كلماتها كلما تأزمت حياته. يأتي الفرج بإذن الله: بسم الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله، بسم الله ما شاء الله ... ما كان من نعمة فمن الله ... بسم الله ما شاء الله ... لا حول ولا قوة إلا بالله.

دفع الصياد سويلم أبو العلا إلى إهمال علاج الطبيب الأرمني بشارع إسماعيل صبري. أقنعه بأن ما يعانیه مع امرأته ليس ارتخاء ولا ضعفاً. تحويجة المخدر تُنسيه الارتباك، وما يتوهمه من العجز. يؤدي واجبه الزوجي بصورة صحيحة. خصص فاترينة في مدخل الدكان لبيع ما ورد في القرآن وصحيح الحديث النبوي، وأثبت العلم جدواه؛ كالمسواك، وأوراق شجرة الليمون، وعسل النحل. امتلأت الأرفف بزجاجات العطور، والأعشاب، والزيوت، والدهانات، والمراهم، والعقاقير الطبية، والبودرة، وماء الزهر، وماء الورد، وأكياس المساحيق، والقطن، والمعاجين، والكريم، وقطع الشبة والأربطة.

فصل عدة الحلاقة: الموسيقى والمقصات والماكينة والمشط وزجاجة الكولونيا وعلبة الكريم وقطعة الشبة ولفة القطن، فصلها داخل حقيبة جلدية صغيرة. تظل الحقيبة مغلقة. يفتحها إذا همَّ بالحلاقة.

لم يكن يُجرى عمليات الختان إلا نادراً. يتأكد من الأدوات، ومن موضع الإزالة، ومن تثبيت فخذي الطفل بيدين قويتين. يستعيد ما حدث حين كان صبيّاً في دكان الأسطى خيري أبو طه الحلاق برأس التين. وجد في نفسه الاستعداد لإجراء عمليات الختان. جرى بالموسى على حشفة قضيب الولد، فكاد يخصيه. واجه العقاب، لولا أن أهل الولد شالوه إلى الطبيب الأرمني، فأنقذه.

المصادفة وحدها هي التي قادت الحاج جودة هلال إلى علاج الأمراض بمخاطبة الروح. وجد الكتاب يُطل في رفِّ بالمكتبة الحجازية، فاستعاره. أتمَّه في الليلة نفسها. عاد إلى قراءته مرة ثانية، وثالثة، حتى حفظه تماماً. تعلَّم قراءة الأفكار والأدعية والتنويم. لم يُعد يثق في الأطباء أو الصيادلة، أو يؤمن بالعقاقير الطبية والجرعات علاجاً للأمراض، أو الإبر، أو جلسات الكهرباء. إنها إما مسكّنة، أو مخدّرة، أو مسهّلة، أو مطهّرة. تعالج العوارض، وتترك للطبيعة علاج المرض. يثق في القوة الهائلة داخل الجسد. لا يعرف هو نفسه طبيعتها. هي قوة تفوق العقاقير والإبر والكهرباء، وكل وسائل العلاج الحديثة. لعلها أشبه بالينبوع الإلهي داخل جسد الإنسان. لا أحد يدري منبعه، وإن ظل بلا نهاية حتى ختام الحياة.

اقتصر على العلاج الروحي. يطلب من المريض أن يترك له نفسه. هو كالمرید في حضرة القطب، كالميت بين يدي المغسّل. يسلّط عليه الحاج جودة دائرة القوة بين الذراعين

اليمنى واليسرى. يضع يديه على الموضع المصاب، لحظات قبل أن يحركها، يأخذ التدليك مساحة طولية ودائرية، ويعود إلى الموضع المصاب، يكرر الفعل حتى تحدث الاستجابة، وتنشط الدورة الدموية.

يُجيد استخدام يديه اليمنى هي الوسيلة لإرسال القوة إلى المريض. اليسرى تُكمل الدائرة. يندفع السعال المغنطيسي من يده اليمنى إلى يده اليسرى، فتكتمل الدائرة. ما ينبعث عنه، ويعود إليه، ضعيفاً، أو شاحباً، تيار من قواه العصبية إلى جسد المريض. يغسل يديه — جيداً — قبل المعالجة. ثم يفرك راحة يديه، إحداها بالأخرى، حتى تتولد فيهما حرارة يريدها للعلاج. الذراعان هما الموصّل للقوة العصبية، تسري — بسهولة — إلى أطراف الأصابع.

يُطيل التحديق في عيني المريض.

النظرة المتأملّة تكفي للتعرف على طبيعة المرض. ربما تثبت النظرة في إنسان العين اليسرى، النظرة القوية، المثبتة على موضع واحد، تُضيف إلى القوة المنبعثة من اتصال الذراعين عبر الجسد المتعب. يستمد القوة من الفراغ المحيط، من القوى العلوية التي نُفيد منها، ولا نراها.

يطلب من المريض أن يُغمض عينيه. يصرف نظره عن التفكير في أي شيء إلا ما يؤلمه. يُبعده — في الوقت نفسه — عن مراقبة ما يفعله، لإيداع القوة الروحية في جسده. يضع يده على الموضع المصاب، أو مصدر الألم. يقرأ آيات قرآنية، أو أدعية منقولة من الرسول، أو رقى. يسري بالدورة العصبية. تتجدد الحياة، ويعود الجسد إلى ما كان عليه. يستنتج أن القوة أهدت تأثيرها، إذا أحسّ برجفة صدر المريض بين يديه.

القوى الخفية العجيبة، كامنة في كل إنسان، في وسعه — إذا أراد — استخدامها. بلغ حدّاً لا نهائياً من التحكم في الروح. يستطيع الاتصال بعالم الأرواح، والسيطرة على مخلوقاتهما، وتحريضها على خدمته، وتلبية مطالبه. يسترضي الأرواح الشريرة، ويُفيد من الأرواح الطيبة.

يُعنَى بحصر المرض، أو أعراضه. ثم يعود إلى أطراف الجسد، أصابع يديه أو قدميه، ثم يصرفه بلمسة السحر من يده. يقذف المرض إلى الهواء، فلا يعود.

ما كان يؤلمه — ويثيره أحياناً — أن أهل المريض لم يكونوا يأتون به إلا بعد أن تتفاقم الحالة، بعد أن يخفت الأمل في الشفاء. إذا لم يتحقق الشفاء على يديه، فإن المريض كان في يدي الموت.

لجأ إليه — بالصيت الذي اكتسبه — مَنْ يستطلعون المقدر، ويجرون وراء العمل والسحر والشبشبة. عزّوا له نبوءات ومكاشفات وكرامات.

حلّت الأمراض — دون توقُّع — بالحاج جودة هلال.  
عانى التهاب الأعصاب والمفاصل والشد العضلي والكولسترول والدهون والربو والتهابات الجهاز التنفسي. لم يُعدّ قادرًا على الوقوف والحركة واللف والدوران وحمل الأشياء.

أدرك أنه قد أسرف في استعمال طاقته الروحية، أُعطيَ من القوة ما لا يحتمله جسده. ورَّع ما بين زراعته، أهدره بلا تعويض حقيقي. أطلق القوة باليد اليمنى، واستعادها — ضعيفةً — باليد اليسرى. اختل — بتوالي الفعل — نظامُ جسده. تأثرت صحته بما بذله منها.

نسي التعويض، فأصابه المرض.  
لم يُعدّ يجد فيما يأكله تليذًا أو متعة. هو يأكل لسدِّ بطنه. حذَّره عمران الخولي من أنه صار أميل إلى البخل. طبعٌ يُلازم كبر السن.  
اكتفى بالإيماء في الصلاة، حين اكتشف عدم استطاعته القيام والركوع والسجود. لاذ بالصبر، واحتسب لله، لا يشكو ولا يتألّم.  
شعر أنه لم يُعدّ يصلح للعمل. شاخ، وتقدّمت به السن. رضي أن يترك مكانه لأكبر أبنائه، يقف فيه ويديره بدلًا منه.

عُرف عنه أنه لم يتخلّف — يومًا — عن شهود الجماعة في جامع أبي العباس. عادةً أُلّفها منذ حضر افتتاح الجامع في عام ١٩٤٥ م.  
تردّد في الجلوس على كرسي الصف الأخير.

لم يدُر بباله أن آلام الروماتيزم في ساقيه ستدفعه إلى التخلي عن صفوف المصلين ليجلس مع العجائز والمرضى. تكررت صلاته في البيت، فلم يُعدّ يذهب إلى الجامع. أقعده المرض عن شهود الجماعة. لا يؤدي صلاة الجمعة في أبي العباس، ولا بقية الصلوات في مسجد المسيري القريب.

شهد بيته المطل على سيدي كظمان، زيارات الأصدقاء ومؤانساتهم. تمتد المناقشات: أحوال البحر والنوات والصيد وموالد الأولياء ومباريات الكرة وحالات المرض وبركات الأولياء. هؤلاء أصدقاء العمر، أخذ منهم وأعطى، ضحك وبكى، بثَّ همَّه وسرَّه، وأنصت

إلى همومهم وأسرارهم. شاركوا في الموالد، وحلقات الذكر، وسهرات رأس التين وسباقات البنز، وحفلات عقد القران والزفاف، وسراقات الانتخاب، ووداع الراحلين، والخروج في المظاهرات، والتعرُّف إلى السحن الغريبة.

يظل جودة هلال — معظم الوقت — صامتًا. لا يروي الحكايات، ولا يعقب، ولا يُبدي الملاحظات. يكتفي — إن سُئل — بإيماء الرأس، أو بكلمات قليلة، يجد أنها تعبر عن المعنى، ثم يعود إلى الصمت. يشعر أن انقضاء اللحظات يقربُه من الموت، وأن ظل النهاية — فوق رأسه — يوشك أن يغطيه.

عزاه الشيخ إبراهيم سيد أحمد: كل ما يأتي به المحبوب محبوب.

قال جودة هلال: الموت ليس سيئًا إن جاء في وقته.

تنبّه لذبابة على وجهه. ذبّها بيده، وهو يسأل: ما معنى الحياة في معاناة مرض لا شفاء منه؟!

ذات مساء، صارح خليل الفحام مجموعة الأصدقاء بقلقه على جودة هلال. قال لجودة وهو يودّعه: نلتقي غدًا.

قال جودة هلال: اللقا نصيب!

اللقا نصيب؟ هل تشم الرجل رائحة الموت؟!

أمضى أيامه الأخيرة في البيت، يقرأ القرآن، والكتب الدينية، يُدير الراديو، ينظر من النافذة المطلة على البحر، يستعيد مشاهد تصوّر أنه نسيها، وقال خليفة كاسب إنه انشغل — في نهايات أيامه — بتركيبة من الأعشاب، تحفظ الشباب، وتمنع الشيخوخة.

في آخر أيامه، وجد الحاج جودة هلال في نفسه نشاطًا للخروج إلى أبي العباس. تساند على كتف صبيّه نخلة. سار — بخطوات متثاقلة — إلى ميدان المساجد. صعد درجات الباب الملكي، المطل على السیالة. صمت لخطبة الجمعة، وأدى الصلاة. رفع المصلون رءوسهم في السجدة الأخيرة، فلم يرفعها. طالت رقدته. تبيّنوا — بعد انتهاء الصلاة — وفاته.

رُوِيَ أن الجنازة التي خرجت لتشييع الحاج جودة هلال إلى مقابر العامود، لم يشهد بحري، ولا الإسكندرية كلها، أعظم منها. فاقت استقبال مصطفى النحاس من رحلة أوروبا. أغلقت الحلقة ودكاكين شارع الميدان. ارتفعت أعلام الطرق الصوفية. تراحم الناس على حمل النعش. سار بين المشيعين مشايخ، لم يترددوا على بحري، ولا رآهم أحد في جوامع الحي وميادينه وأسواقه وشوارعه. ما استقرت عليه المشاعر أن السحن مألوفة



## جودة هلال

لأناس يهبون التوقير والثقة والتعاطف والمودة. حلّقت فوق الحشود طيور بيضاء، في مشهد لم يره أهل بحري، ولا الإسكندرية، من قبل.  
نُسبت إلى الرجل — في أثناء تشييع الجنازة، وبعد أن وُسد التراب — ما يرقى إلى مكاشفات الأولياء وكراماتهم.

انظر: إبراهيم سيد أحمد، أبو العباس، بدوي الحريري، حجازي أيوب، الخضر، خليفة كاسب، خليل الفحام، سيد حلال عليه، شحاتة عبد الكريم، فاروق الأول، قنبر عبد الودود، عبد الستار، عمران الخولي، غريب أبو النجا، محمود بيرم التونسي.



## حجازي أيوب

أراد حجازي أيوب أن يقرأ، ففتح مكتبة. قرأ في مكتبة أبي العباس، ومكتبة البلدية بشارع منشة. استعار — أحياناً — لقاء أجر من مكتبة النن بالموازيني. اقتصر اتصاله بالدنيا من حوله عن طريق الكتب. معظم وقته للقراءة. يقرأ في كل ما يجتذب انتباهه.

لاحظ أنه يُنفق الكثير من راتبه على استعارة الكتب والدوريات. نصح نفسه أن يفتح مكتبة. شجعه أن الدكان — الذي عُرض عليه شراؤه — على ناصية الميدان وإسماعيل صبري. معظم سكان المنطقة من الموظفين وذوي المهن، وثمة كتاتيب ورياض أطفال ومدارس أولية وابتدائية.

فتح حجازي أيوب المكتبة قبل أن يجاوز الخامسة والعشرين.

اختار لها اسم الحجازية، نسبةً — ربما — إلى الحجاز؛ فمعظم كُتُبها في التراث العربي، أو أنه أراد أن ينسب اسم المكتبة إلى اسم صاحبها. يُمضي فترة الصباح إلى ما بعد الظهر في عمله بالمجلس البلدي. يتنقل بين عمليات تنسيق المتنزهات العامة وأشغال الطريق والكنس والرش والأعمال الصحية والوقاية من الحريق وتنفيذ عمليات البناء والتثقيب عن الآثار وعمليات الصيد ومراقبة الشواطئ وإسعاف الغرقى، ومراقبة المحال الخطرة. يفتح المكتبة بعد صلاة العصر.

في العصر يفتح المكتبة. يحرص أن يكون انفراج الباب على سعته. يدخل الهواء ليمنع الكتمة عن الكتب، يحاذر فلا تُطيل الشمس ارتماءها على الأوراق، فتؤذيها. يصنف الكتب، ويرتبها، وينظمها. يضع كل كتاب في الخانة التي جعلها لنوعيته.

لا يذكر من ناداه — للمرة الأولى: يا عم حجازي. حين فتح المكتبة، لم يكن في السن التي تُتيح مناداته بلقب العم. ربما قالها طالب بالمعهد الديني، أو طالب بجامعة

فاروق الأول. صارت هي التسمية التي يناديه بها المتردون على المكتبة، حتى من يكبرون حجازي أيوب في العمر.

لم يحصل من المعهد الديني على الشهادة التي تؤهله لاستكمال دراسته في الأزهر، لكنه قرأ، وحصل ما جعله مرجعاً في مواد المعهد، وفي علوم أخرى. بسط له الله في العلم والمعرفة.

حفظ الكثير من أسماء الأعلام والأمكنة والبلدان والطوائف والقبائل، وأقوال الفلاسفة، واجتهادات الكتب الدينية، وقصائد الشعراء، ووقائع التاريخ، وكرامات الأولياء.

يشرق ويغرب في روايات، تبدأ ولا تنتهي، عن قصص الأنبياء ... السيرة الهلالية ... بردة البوصيري ... الزير سالم ... معاذ بن جبل ... الأميرة ذات الهمة ... حكاية السيد البدوي مع فاطمة بنت بري ... سيرة عنتره ... السيد البدوي وخضرة الشريفة ... سيرة الظاهر بيبرس ... رباعيات ابن عروس ... النبي لما كلمته الغزالة ... ألف ليلة ليلة: كنوز الملك سليمان وخادم الخاتم السحري ومصباح علاء الدين والذئبق الأحمر ومغارة علي بابا ورحلات السندباد البحري ومغامرات علي الزبيق.

كان لزوار المكتبة من أساتذة المعهد الديني بالمسافرخانة وجامعة فاروق الأول، والمدارس الثانوية، ومن الطلبة؛ أثرٌ — يُدرکه — في تكوين ثقافته.

تثور — بمجرد قراءة العنوان — أسئلة، وأجوبة، ومناقشات قد لا يشارك فيها، لكنه يلتقط ما يراه مفيداً، يودعه ذاكرته.

ربما تحدّث المتردون على المكتبة في موضوع ما. يشارك في الحديث بمعلومات وآراء. يردُّ اللحن في اللغة، ويصوّب الأخطاء، ويبيدي الملاحظات، وينصح، ويوجّه. ربما أمسك قلمًا يخطُّ به تحت الأخطاء الطباعية فيما يقرؤه من كتب. يثقون أن علمه أكبر مما يملكون من المعرفة، هو علم بحجم ما تضمُّه المكتبة من كتب ومجلات. إن قصده طالب في مبحث، يحرص أن يحيط بجوانبه المختلفة في المصادر والمراجع. قد يسأل المتردين على المكتبة من أساتذة الجامعة، وشيوخ المعهد الديني. يُفيد من ملاحظة، أو يتنبه إلى كتاب لم تُشر إليه المراجع.

استأذن الشيخ جميل أبو نار إمام جامع أبي العباس. قلب في مخطوطات مكتبة الجامع، ما ظلت على حالها منذ نسخها مؤلفوها. انتقى ما قد يهمُّ الباحثين والدارسين، فأعاد نسخها، أودعها خزينة حديدية أسفل الطاولة المستطيلة في مقدمة المكتبة، يُفيد منها — دون إعاقة — الأساتذة والطلاب، يرجعون إلى المعلومة التي يريدونها.

إذا تيسر وقت فراغ، فإنه ينشغل بنسخ المخطوطات، يُفيد من جودة خطه، يزيد من أعداد المخطوطات في المكتبة.

اتجه إلى طالب المعهد الديني أمامه بنظرة متسائلة: من الصعب أن تعرف أين كان يُقيم جمال الدين الأفغاني في أثناء إقامته بمصر، ولا أين كان يُلقي دروسه. قال الطالب: ما قرأته كتبته في هذا البحث. كان يُقيم في حارة اليهود، ويلتقي بتلاميذه في قهوة متاتيا.

وهو يُزيح بجانب يده ما على الطاولة من كتب، ليُتيح مساحة يُفرد عليها الطالب مبحثه: قد لا تكون المعلومة صحيحة. في الكتب معلومات أخرى، عن إقامة الأفغاني في خان الخليلي، وفي أماكن أخرى، وعن حلقاته الدراسية تحت أعمدة الأزهر، مع أنه لم يكن شيئاً.

ونفت تنهيدة: تعددت الاجتهادات بحيث يصعب الوثوق بمرجع واحد. ونزع النظارة الطبية، وقال: ما أعرفه أن السنوات الثماني والعشرين الأولى من سيرة الأفغاني هو الذي رواها، واختلفت الآراء — بلا سبب — في الأعوام التالية. ثم في هيئة من يرفض أن يعطي المناقشة أكثر مما أخذت: عندما تتعدد الاجتهادات، فمن المهم أن تتعدد المراجع. إذا طال الأخذ والرد حول كتاب غاب في أرفف المكتبة، حسم النقاش بالقول: أهل مكة أدرى بشعابها!

يُضيف للنظرة المتسائلة: المكتبة بيتي ... وأنا أدري بكل ما فيها من عناوين! اكتسب خبرة التعرف ما إذا كان الواقف أمامه يطلب عنواناً محدداً، أم أنه يبحث عن أي كتاب في موضوع يشغله.

يضع الكتاب ذا العنوان المحدد على الطاولة، أو يسحب من الأرفف بضعة كتب، يضعها على الطاولة: ستجد فيها ما تبحث عنه.

من فصال الزبون، يُدرك إن كان في حاجة إلى الكتاب للقراءة، أم لمجرد الاقتناء. يُزيح الكتاب على الطاولة، ويعرض السعر، أو يظل ممسكاً بالكتاب. يرفض الفصال، أو يوافق على الخصم. ربما. إن عكست ملامح الطالب (لا بد أن يكون طالباً) ظروفه الصعبة، أهده عم حجازي الكتاب.

قلّب الشاب الكتاب، وسأل عن الثمن.

علا حاجباه بالدهشة، وأعاد الكتاب.

الإشفاق هو ما دفع حجازي أيوب لأن ينسخ الكتاب، ويهديه إلى الطالب في زيارة تالية.

أصر الطالب على المقابل، فاكتفى حجازي بقيمة الورق: النسخ سبق الطباعة. لا بأس من استعادته!

أبدى خليل الفحام ملاحظة حول كثرة ما يُهديه من مستنسخات الأوراق. برر حجازي أيوب تصرفه بأن الزكاة واجبة. زكاة الأوراق من نوعها، ما يقدمه للطلبة — دون مقابل — يُرضيه، وتُسّر له نفسه.

قرأ في كتب اللغات القديمة. قلب كتباً تهزأت أوراقها، ومخطوطات ضاعت صفحاتها الأولى والأخيرة. يتعرف على الكتاب الذي يطلبه، وسط رسات الكتب. على أرضية المكتبة، وفي الأركان، وفوق الأرفف، والطاولة الخشبية المستديرة. عرف أنواع الورق: الجرائد والستانية والأبيض بأوزانه المتعددة والكوشية وأنواع الأعلفة.

أجاد فحص أوراق المخطوطات القديمة: العلامة المائية، نوع الحبر، وسيلة حياكة المخطوط، نوع الغراء، نوع الكرتون أو الجلد المستعمل للغلاف. يعالج المخطوط التالف، أو الذي ينخره السوس. يعقمه من الحشرات والفطريات.

لم يكن يفقد صبره في معالجة الكتب التي نخرها السوس، أو تسللت إليها العتة. إن أعياءه علاج كتاب، لجأ إلى عم غراب مجلد الكتب في نهاية الموازيني. وكان يستنسخ الكتب التي يخشى ضياعها، لمن يطلب استعارتها.

إذا لم يكن الكتاب موجوداً، فإن عم حجازي يطلب مهلة يحددها — لا تزيد عن ثلاثة أيام — لإحضار الكتاب. يأتي بالكتاب في الموعد الذي حدده. يكتفي للسؤال: من أين، بابتسامة محايدة. ربطته صلات صداقة بأصحاب المكتبات بالمدينة، وصادق أصحاب المكتبات في حي الأزهر وشارع محمد علي وشارع الفجالة. يعرف ما لديهم، ويعرفون ما لديه. تطلب كل مكتبة وقتاً للسؤال عن الكتاب المطلوب في المكتبات الأخرى.

يعرف نوعيات الكتب التي تُصدرها دور النشر. لكل دار مطبوعاتها ما بين كتب جامعية، وكتب في الاقتصاد والسياسة، أو تقصر نشاطها على مؤلفات الأدب. يستعيد اسم ناشر، أو ناشرين، إن لم يجد الكتاب المطلوب في أرفف مكتبته. قد يضطر إلى إغلاق المكتبة. يقضي الساعات في مكتبة أبي العباس، أو الجامع الأحمدي، أو مكتبة البلدية، أو دار المحفوظات بالقلعة، يراجع مخطوطة، أو يُضيف معلومة ناقصة.

لقرب المكتبة من جوامع أولياء الله الصالحين: المرسي أبي العباس وياقوت العرش والبوصيري ونصر الدين وعلي تمران، ضمت المكتبة الكثير من كتب الصوفية: نهج البلاغة، طبقات الصوفية، إحياء علوم الدين للغزالي، قوت القلوب لأبي طالب المكي، لطائف المنن لابن عطاء الله، المواقف للنفري، الرعاية للحارث المحاسبي، ختم الأولياء للترمذي، المولد للمناوي واليزرجي، الصلوات النورانية، مجموع الأوراد الأحمديّة، مجموع مراتب الميرغني، أنكار الليل والنهار، الأنوار البهية في مدح خير البرية، رياض الصالحين، الفيوضات الربانية في المآثر القادرية، مجموع الأوراد الكبير للطريقة الرفاعية، نيل المنى في التوسل بأسماء الله الحسنی، الرسالة القشيرية، تائية إبراهيم الدسوقي، اليواقيت والجواهر للشعراني، صلوات الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، وغيرها.

لقرب المكتبة من معهد المسافر خانة، امتلأت الأرفف بكتب أصول الدين والفقهاء والتفسير والتراجم والمنطق والفلسفة والحديث واللغة، وما يُعدّ رفضاً لأفكار الصوفية: مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية، لسان الميزان لابن حجر العسقلاني، رياض الصالحين للنووي، الكلم الطيب لابن تيمية، الوابل الصيب لابن القيم، الأذكار للنووي، مصرع التصوف لبرهان الدين البقاعي، تلبيس إبليس لابن الجوزي، العلم الشامخ للمقبلي، وغيرها.

جعل في ركن المكتبة ثلاثة أرفف، تضم المصادر والمراجع التي يُكثر من الرجوع إليها: المنهاج النووي، ألفية الإمام مالك، قواعد ابن هشام، متن أبي شجاع، سراج العقول للقزويني.

خصص رفّاً في المكتبة لترجمات كتب التراث العالمي: رباعيات الخيام، إلياذة هوميروس، كوميديا دانتي الإلهية، فردوس ملتون المفقود، الملحمة الإنجليزية بيولف، رواية دون كيخوته، تاريخ العالم لوزارة المعارف المصرية، مسرحيات سوفوكليس وشكسبير وموليير وراسين، روايات زولا وبلزاك وفلوبير وديستوفسكي وديكنز، ديوان أزهار الشر لبودلير، الأمير ميكافيلي، الأبطال لكارليل، تفسير الأحلام لفرويد، نظرية النشوء والارتقاء لداروين، الديكاميرون لبوكاشيو، الأمير ميكافيلي، جمهورية أفلاطون، دراسة التاريخ لتوينبي، قصة الحضارة لول ديورانت.

كتب الجان — وحدها — حرص حجازي أيوب أن تخلو منها المكتبة. لا صلة للأمر بتقاؤل أو تشاؤم. ما يُخيفه أن تنعكس تأثيرات ما بها على المكتبة. تواجه أخطاراً بلا قسمات محددة.

اعتاد تردّد مخبري قسم الجمرک على المكتبة، يقلبون الأرفف، يقرءون العناوين، يقلبون الصفحات، يسألون عن الكتب التي لم تحصل على إذن بالطباعة، أو الممنوعة، أو المصادرة. ربما قدموا له قوائم بكتب محظورة، يُرفقونها بتحذيرات من خطر التعرض للسجن، وإغلاق المكتبة. حدس أن غالبيتهم لا يعرفون القراءة. يدفعون له القوائم دون أن يتبينوا ما بها من عناوين. حتى التقلب في الأرفف لم يُعُد يُقلقه، ولا تُقلقه النظرات التي تحاول العثور — في ارتبাকে — على الخوف من كشف الكتاب المحظور. كان يعتزُّ بكتب عليها إهداءات مؤلفيها. باعها ورثة من كانت الكتب بحوزتهم، وباعها له باعة الروبايكيّا.

اعتاد التنقل بين المكتبات الخاصة في المدينة. ينتقي ما يرى أن زبائن مكتبته يحتاجون إليه. قد يسافر إلى المدن القريبة، يشتري الكتب في حياة أصحابها، أو يشتري التركات. يدفع المقابل الذي يحدده الورثة. إن بدا مغالياً يكتفي بالاعتذار، لا يفاصل، ولا يساوم. يخشى محاسبة الآخرة.

في اليوم الثالث لوفاة عبد الله أبي رواش، عرضت ابنته على حجازي أيوب شراء مكتبة أبيها.

رفض الرجل. قد لا تُدرك الابنة قيمة المكتبة، أو ترضى بثمن بخس لمواجهة ظروف تخفى عنه.

ناقش العرض في إطار الحلال والحرام، والنار التي يأكلها من يأكلون أموال اليتامى. اكتفى بأن ناقش الأمر بينه وبين نفسه. أشد ما أحزنه، عندما أقدمت ابنة أبي رواش على بيع مكتبة أبيها الراحل لبائع روبايكيّا.

قالت بلهجة مغتازلة: أنت رفضت شراءها!

— لو أن أباك عرضها للبيع في حياته لقبلتُ.

أطرق لحظة، ثم رفع رأسه: أما وقد مات، فالمكتبة ملك أيتام!

ثم وهو يثبت نظارته الطبية فوق عينيه: إذا أنقصت مليماً عمّاً تستحقه، فلا أضمن حساب الآخرة.

اهتز فنجان القهوة في يده. أعاده إلى الترابيزة: لكنك تصرفت في المكتبة دون مقابل.

واتجه إليها بنظرة متسائلة: هل صحيح أنك رميت الكتب في الشارع؟!



اعتاد عبد اللطيف النشار أن يتردد عليه. يبدل طريقه بعد مغادرة سراي الحقانية. يميل إلى اليسار. يخترق شارع الميدان إلى المكتبة في البناية الواقعة على تقاطع الشارع وشارع إسماعيل صبري.

يتأمل حجازي أيوب — بطلب من النشار — أوراق الحقانية. يقلب كل ورقة، يتأملها، يدقق في سطورها، يلحظ بياض ما بين السطور. قد يلحق به ما يُفسد المعنى المطلوب، أو يدخل عليه مكروه. يحذّر النشار من خطورة المساحات البيضاء. ينصحه بكتابة أوراق أخرى، أو يخط على البياض بيده، ما يحول دون التعديل، بالإضافة والحذف. يحذره من أن يكتب بغير القلم الذي يسوّد به المحاضر والتقارير. إذا وجد سطرًا ناقصًا، ينصح النشار بأن يكمله بخطه، وبالقلم الذي يستعمله. لا ينوع في الخط، ويكتب بالحبر خشية الطمس أو التزوير.

أسند مجموعة كتب على صدره، واتجه إلى سعيد العدوي بابتسامة مرتبكة. ذلك ما طلبه العدوي منه ليرسمه.

لما طالت الجلسة، أعاد الكتب إلى موضعها: حرام أن تصوّرني والزبائن وقوف. لما سأله عبد الله أبو رواش: هل قرأت كل هذه الكتب؟ ... أظهر الضيق، وظل صامتًا. قال أبو رواش: سألتك: هل قرأت كل ما في المكتبة؟ زفر في ضيقه: مللتُ هذا السؤال.

واتجه إليه بنظرة مستاءة: هل ينبغي على العطار أن يستخدم كل ما في دكانته؟! وشاب لهجته عتاب: أنا أقرأ ما يهمني. هذه مكتبة لبيع الكتب لا ليقراها البائع! قال أبو رواش في لهجة معتذرة: سألتك لأنني أعاني كثرة الكتب في بيتي ... هل يُسعفني العمر بقراءتها؟

آخر ما فعله حجازي أيوب أنه أنشأ صلوات بين المكتبة ودور النشر في العواصم العربية. تُرسل له قوائم كتبها. يبعث في طلب ما يقع عليه اختياره منها، أو ما يُشير الزبائن بطلبها.

حين اشتد السعال في صدر حجازي أيوب، قال له بيرم التونسي: أنت — مثلي — تدفع ثمن بقائك في مدينة الملح والرطوبة.

رفع حاجبيه: هل أترك الإسكندرية؟  
— لن تُشَفَى من الحساسية إلا في جوٍّ جافٍّ.

لجأ حجازي إلى الحاج جودة هلال. كتب أحرفاً متفرقة على خوصة خضراء. وعد — إن علّقها عم حجازي في عنقه — أن يزول السعال. اعتصم عم حجازي بصبر صياد السنارة، لكن السعال زاد، وهُدّ حيله.

قال الطبيب في مستشفى رأس التين: ربو.

أردف متسائلاً: صياد؟

— صاحب مكتبة.

— لعل تراب الكتب هو السبب.

نصحه الطبيب أن يُكثر من تناول البرتقال والليمون والفاكهة والخضراوات الطازجة. جرع ما كتبه الطبيب من أدوية، لكن السعال لم يترك صدره. كلماته تختلط به. ينتزعها في وقفات متقاربة. قد يطول سعاله، ومعاناة التقاط أنفاسه، فيلوذ بالصمت.

قرأ في كتب التراث عن أدوية السعال والبلغم وكرشة النفس. لم تكن تسمية الحساسية موجودة في كتب القدامى. أعد بنفسه — وأوكل إلى جودة هلال — وصفات مما أشارت به الكتب، شرب قشر اللوز المغلي في الماء، قشّر فصوص الثوم بعد تقشيرها، جعلها في قرص عجين، وضعها في الفرن حتى استوى العجين. نزعه من الثوم، وجعل الثوم في عسل. داوم على أكله، فلم يبرأ. ظل الحائط المسدود قائماً. تناول — كل صباح، بنصيحة من الشيخ حسن الدروي مؤذن جامع طاهر بك — ملعقة عسل نحل ثلاثة أشهر، مضغ بعدها أقراص العسل يومياً، دون أن يطرأ تحسُّن على صحته. يستقبل النهار بنوبات متتالية من العطس، ترافقها — أو تلحقها — نفثات سعال. قد تفاجئ الأزمة صدره في أوقات لا يتوقعها من اليوم.

قال المعلم بدوي الحريري: أعرف أن رطوبة الإسكندرية تأتي بالربو. لم أكن أعرف

أن الكتب تُسبب المرض نفسه!

— الربو نوع من الحساسية. أسبابها كثيرة.

عُنِيَ حجازي أيوب بإزالة التراب من أرفف المجلات. كثر إغلاقه للمكتبة، سعياً لإبعاد الحساسية، أو تهدئتها. قنع أبناءه الثلاثة بعملهم الوظيفي. لم يحاولوا الوقوف — بدلاً منه — في المكتبة، ولا أظهروا اهتماماً بإغلاقه لها. أضاف إلى حزنه ما لاحظته من شراء الناس للصحيفة على حساب الكتاب. يجد الصحيفة على نواحي الطرق، أما الكتاب فلا بد أن يبحث عنه.

لاحظ الرئيس بدوي الحريري تقارب مواعيد إغلاق المكتبة. عرض على حجازي أيوب

شراءها، يُحيلها إلى دكان لبيع الأسماك. هو الأنسب في شارع الميدان.

طلب حجازي مهلة أسبوعًا. استيقظ — في اليوم الثالث — على رؤيا منامية بأنه يأكل كتبه. يصف أمامه كل ما في المكتبة من كتب ومجلدات، ويبدأ في التهامها. ما يُشبه الضباب التفتت به المرئيات داخل المكتبة، وإن خلت إلا من انشغاله بالتهام الكتب. تحدث إلى الحاج جودة هلال عن الرؤيا المنامية، وإن أغفل أنه هو صاحبها. قال جودة هلال: أكل الكتب معناه الموت. وفي صوت متلكئ: انصح صاحب المنام أن يُعد نفسه للآخرة. في نهاية الأسبوع، وافق حجازي أيوب على بيع المكتبة.

انظر: بدوي الحريري، جودة هلال، خليل الفحام، سعيد العدوي، عبد اللطيف النشار، عبد الله أبو رواش، محمود بيرم التونسي.



## حسين بيكار

وُلد في الثاني من يناير ١٩١٣م، في بيت يُطل على ميدان الخمسة فوانيس، يقابله جامع علي تمتاز. تلقى دراسته الابتدائية والثانوية في مدارس بحري.

لم يكن يستطيع رؤية البحر من نافذة البيت، لكنه كان يشم رائحة البحر، ويستمتع إلى هدير الموج، واصطدامه بالكورنيش الحجري. وكان يؤنسه — في الليل — أهازيج السحر، ورفع الأذان، وصياح الديكة من الأسطح القريبة.

كان يُطيل الوقوف أمام دكان البراويز في شارع فرنسا. يتساءل — بينه وبين نفسه — كيف تنتقل الطبيعة والأشخاص إلى لوحات القماش والورق، وإلى ألوان زيتية ومائية، وقص ولصق، وتكوينات.

صادق عازف عود في فرقة حمامة العطار. جلس إليه أمام دكان طلبة القواص، تاجر الموبيليا بشارع فرنسا. تعلّم منه المقامات والأنغام والإيقاعات.

كان أبوه قد دعا الرجل إلى بيته، لتعليم ابنته — شقيقة حسين — عزف العود.

قال له حجازي أيوب: لماذا لا تحاول دراسة الفن على أصوله؟

قال بيكار: أنا أقرأ كل ما يصادفني من كتب الفن.

أعاد حجازي أيوب القول: لماذا لا تدرس الفن على أصوله؟

أطال النظر إليه، كأنه يتأكد من فهمه لما طلبه منه: عندك مدرسة الفنون الجميلة. التحق بها.

سافر — وهو في الخامسة عشرة ١٩٢٨م — إلى القاهرة. التحق بمدرسة الفنون الجميلة العليا في أول إنشائها. كان ترتيبه الأول على أولى دفعاتها.

تصوّر أن ترتيبه المتقدم سيُتيح له حضور حفلات دار الأوبرا. كانت المدرسة تُعطي للمتفوقين تذاكر لدخول الأوبرا، مشروطة بأن يرتدي الطالب بدلة ردنجات سوداء (هي البدلة نفسها التي كان يرتديها أبناء الطبقة الأرستقراطية والرسميون في المناسبات السياسية والاجتماعية).

لم يكن يمتلك — والتعبير له — سوى بدلة مهترئة. ظل محروماً من دخول الحفلات، حتى تبدّل تقليد دخول الأوبرا بالردنجوت.

عمل — بعد تخرّجه — مدرّساً. تنقّل بين العديد من المدارس في أقاليم مصر. ثم سافر ١٩٣٨م إلى المغرب، أستاذاً للتربية الفنية بالمعهد الخلفي في تطوان.

عاد — بعد أربعة أعوام — ومعه وسام «الاعتزاز» من الحكومة الخليفة.

عمل في كلية الفنون الجميلة، أستاذاً لفن الرسم، وفن التصوير الذاتي. وصل إلى منصب رئيس قسم التصوير. ثم استقال في عام ١٩٥٩م من عمله، وتفرّغ — محرراً وناقداً فنياً ورساماً — في دار «أخبار اليوم».

شهد الرسم الصحفي — بلوحاته — تطوراً لافتاً. بالذات في مجال صحافة الأطفال، وفي الرسوم التوضيحية للكتب. رسم ٨٠ لوحة لفيلم «أبو سنبل» الذي أخرجه الكندي جون فيني. عكست اللوحات تاريخ المعبد عبر آلاف السنين، حتى عمليات إنقاذه، ورفعته إلى مستوى بحيرة ناصر.

يُعد أهم تلاميذ الفنان الراحل أحمد صبري ١٨٨٩-١٩٥٥م. «ورثتُ فنَّ البورتريه عن أستاذه الفنان أحمد صبري، فهو أفضل من رسم البورتريه في مصر. كان أستاذه وصديقي، وأنا مدين له بالكثير، وهو فنُّ له أبعاد لا يدركها الكثير من الناس، وما يحدث هو أنني أغوص في الشخصية التي أرسمها، وأقبض على الشخصية الحقيقية لصاحب البورتريه. وفلسفة البورتريه أنه مثل حياة كاملة لصاحبه، فهو ماضيه وحاضره ومستقبله، وقد أحببته لهذا السبب.»

ظل أثرُ فنِّ أحمد صبري واضحاً على لوحات بيكار — لفترة طويلة — قبل أن يُفلح في الغناء بصوته الخاص. يعتز بلوحة عازف العود، صوره فيها أستاذه أحمد صبري وهو منحني عازفاً على عوده. كان صبري يمتلك صوتاً جميلاً، وحاسة غنائية موهوبة. وكان بيكار يمتلك الإحساس الموسيقي، ويُجيد العزف على العود والطنبور وآلة البزق.

أحب — في صباحه — صوتَ ماهر الصاوي. استمع إليه في مولد أبي العباس، وفي سوق العيد بميدان الخمسة فوانيس، والساحات الخالية المتناثرة في بحري. صوت ماهر المنطلق ساعده على الأداء. أجاد في غناء الموال:

يا تاجر الصبر ... عندكشي تبيع منه  
قال لي ما ينفعش واعلم ياجدع إنه  
صعب المنال، يريده كثير، خف القدم عنه

كانت ذاكرته تستعيد — وهو يعزف على العود — أغنيات ماهر الصاوي ومواويله. يثق أنها كانت المدخل لدنيا الغناء التي أحبها. مجمل أعماله لا يقتصر على الفن التشكيلي. الموسيقى وجه آخر. أجاد الرسم، والعزف الموسيقي، والغناء، وكتب قصائد زجلية، نبضها سذاجة في الكلمات والمعنى. استهوته العلاقة بين الألوان والموسيقى. يُجيد الإنصات لموسيقى بيتهوفن وباخ وموزار وفيفالدي وفردى وبورودين ورمسكي-كورسكوف. مشاعر التلقي نفسها، يعيشها بسماع الطقاطيق والتواحيش والابتهالات والأدوار والبشارف والسماعيات. يُدير الفونوغراف على أسطوانات كامل الخلعي وسيد درويش وداود حسني. «كنت موسيقياً ومغنياً جيداً. أغنّي في الإذاعة، وفي حفلات معهد الموسيقى، وكنت على وشك أن أكون موسيقياً محترفاً. وقد أحببت جملة آلات مثل العود والبزق والطنبور والبيانو والكمنجة.» انضم — بتأثير حبّه للموسيقى — إلى فرقة عبد الرحيم محمد. هو المطرب وعازف العود والطنبور. قدمت الفرقة العديد من الحفلات في معهد الموسيقى الشرقية، وفي محطات الإذاعة الأهلية. غنّى مع الفرقة محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وصالح عبد الحي وآخرين.

بدأ ميلاً للتجريد، ثم أهمل محاولاته. لجأ إلى التبسيط، وتعديل النسب، واختصار التفاصيل. أضفي على الأشكال المختزلة مزيجاً من الصوفية والميتافيزيقا والرمز. بدا كأنه استقر على شخصيته الفنية. أضاف إليها ملامح الواقع، متناعماً مع التشكيل واللون. الفن صدى، انعكاس، للواقع «إذا لم تطابق الصورة الأصل، فلا بد أن المرأة غير سليمة. الفن الحقيقي مرآة المبدع، إفراز طبيعي لتفاعل الفنان مع بيئته.»

اختلطت تأثيراته بفن الفراعنة والفن الياباني، الصراحة والوضوح والقوة في الخطوط الفرعونية، والرومانسية والرقّة في خطوط اليابان.

لم يُخفِ استيائه من إقبال بعض عديمي المهبة على التجريد. حسبوا أنه لا يحتاج إلى مهبة حقيقية، ولا إلى خبرة، ولا إلى رسالة يبشر بها. صار التقليد في أعمالهم مجرد تشويه لأسطح اللوحات.

تحدّث عن «التجريدية الجيولوجية».

قال لنظرة التساؤل في عيني سعيد العدوي: هي تجريدية، لا تنتمي إلى ما اعتادته العين المتطلعة إلى ظواهر الأشياء، بل إنها صعود إلى مراتب أعلى من الرقي، مثلما فعل الفراغنة، ورهبان الأقباط، ومتصوفة المسلمين، فاكتسبوا احترام الدنيا.

صار له اتجاه — تحول إلى مدرسة — في فن البورتريه، مفرداتها: العقل، وجمال الملامح، واختصار التفاصيل.

عمل في تدريس الفن أعواماً طويلة، وتفرغ للصحافة في ١٩٥٩م. تعددت إسهاماته في مجالات الفن التشكيلي والسينما التسجيلية والصحافة.

يعتز بأنه رسم أول غلاف لكتاب مصري. تضاعف اعتزازه بأن الكتاب هو أيام طه حسين. بدأ — من يومها — انحسار الأغلفة المصنوعة التي يعدها — كيفما اتفق — محال زكوغراف الأرمن في شارع محمد علي.

تتلذذ عليه عددٌ كبير من فئاني الأجيال التالية: مصطفى حسين، صلاح بيصار، عدلي رزق الله، إيهاب شاكر، ناجي شاكر، يوسف فرنسيس، محيي اللباد، بهجت عثمان، وعشرات غيرهم.

لم يقتصر دوره — كناقذ — على مناقشة المعارض. عرض للاتجاهات والآراء، وتبنّى اتجاهات فنية مختلفة، متباينة. رفض النسخ والتقليد، ودعا إلى الخصوصية والتفرد. قدّم مواهب لافتة.

تحدت ملاحظاته في الانطباعية. رفض الأحكام النقدية الصارمة، القاسية أحياناً. حاول أن يستوعب كل ما شاهده، من خلال أستاذية واعية متابعة لكل الاتجاهات والتيارات.

قال بيكار: التمرد على القديم ضرورة طبيعية، لأنه رفض للتوقف والجمود الذي يتنافى مع سنّة الحياة والتطور. رفض القديم لا يعني رفض مقومات الحياة. إنما هو رفض لشكل الحياة. لذا كانت مشكلة إنسان العصر هي البحث عن شكل جديد ليتناسب مع حجمه وزمانه. حياة الفنان ما هي إلا صفحة رائعة، تتميز بحساسيتها الشديدة تجاه المؤثرات الخارجية، تنطبع عليها أو تُثريها، وتُخرجها من سلبياتها لتشارك الوجود تقلباته وتغيراته. وقال: القضية ليست نزول الفنان إلى مستوى الجماهير، ولا صعود الجمهور إلى



مستوى الفنان. إنها قضية سد الثغرات الثقافية على قدر أحجامها. لا ينبغي أن نُفاضل بين التلاجة والوزير، ولا بين الكستور والموهير، ولا بين السيارة الكاديلاك والأوتوبيس. إنما ينبغي أن نوفر للمواطن مكاناً يجلس عليه في الأوتوبيس النظيف المنتظم، ولا نضطره للتشعلق فوق السلم، وأن نوفر له الكستور الجيد، فلا يضطر لشرائه من السوق السوداء، أو نُلقي به في يد المزيفين الذين يبيعون الخيش على أنه كستور. وقال: حقل الثقافة والفن عندنا خال — على الساحة الشعبية — من أي مورد يرد إليه الشعب لإرواء ظمأ عقله وقلبه. المعارض تفتح وتُغلق أبوابها دون أن يرتادها جمهور يُذكر. الفنان هو المنتج، وهو المستهلك أيضاً. بضاعته ترتدُّ إليه، فيعلن إفلاسه وهو يلعن الجمهور، وجهل الجمهور. وبقليل من التدبر نُدرِك أن الخطأ خطأ الفنان الذي يتعالى على الجمهور، ويُخاطبه من ارتفاع شاق، فلا يصل إليه صوته. إنه يبيع الناس بضاعة لا تلمهم. يعرض عليهم الحرير الفاخر، وليس في حقيبتهم إلا ما يكفي ثمن رداء من الدُمور. وقال: أفضل أن أكون فدائاً من الأرض مزروعاً بالعديد من الخضر والبقول والفاوكة، وأُطعم الملايين، من أن أكون نخلةً تخترق السماء، ولا تحمل في نهايتها سوى سباطة من التمر، لا يكفي إلا لتحلية أفواه عدد قليل من الناس.

كان — إذا ضاق بزحام القاهرة — يستقل القطار إلى الإسكندرية. يرفض ركوب حنطور أو سيارة. يمضي — على قدميه — من ميدان المحطة عبر شوارع السنترال وشريف وفرنسا ورأس التين.

البيت في موضعه، وإن وشت جدرانه وشبابيكة بتهالكة. يكتفي بالتلفظ والتذكر. يمضي إلى داخل بحري، من رأس التين، أو من الموازيني، أو من الحجاري.

الوقفة على شاطئ الأنفوشي هي ما يتجه إليه. يسلم نفسه لرؤية الأمواج، وطيور البحر، والبلانسات، والقوارب، وشباك الصيادين، والصخرة في الأفق. يتعمد اختراق البيوت المتساندة، تُعاني القدم وتكوينات النشح والرطوبة، والحواري، والأزقة، والأرض الطينية اللزقة، ورائحة الزفارة.

تصوّرت ابتهاج المنسي أنه يُعازلها. تابعها بنظراته، وهي تمضي من ميدان الخمس فوانيس إلى شارع الأباصيري.

لفتت انتباهه بالفعل. امرأة من بحري، من الإسكندرية، ملامحها، ملاءتها اللف، المدورة فوق رأسها. يلتقي بمثيلات لها في الشوارع والميادين والأسواق وحول مقامات الأولياء. يتخذ ما ارتسم في ذهنه موديلًا يرسمه. ربما جرّدها — بخياله — من ثيابها،

وإن فضل إيماءات الموسيقى، وشفافية رقصة الباليه. في باله ما رسم للمرأة على جدران المعابد الفرعونية. عارية تمامًا، لكنها لا تُثير الغرائز.

قال أحمد المسيري: الفنان الشامل في مصر ظاهرة تكاد تكون غائبة.

قال بيكار: لعل السبب ما نُعانيه من انغلاق فكري وفهم خاطئ لمبدأ التخصص.

ووشى صوته بتقريرية: إلى جانب أن التربية التي نتلقاها تُجد — أحيانًا — من

تفكير النشء. لا تهبه الفرصة لتوسيع أفقه.

واتخذ هيئة المحاضر: الفنان المنغلق محدود الأفق. الفنون تُكمل بعضها البعض.

الموسيقى تعمق بالرسم، والرسم يتضح في الشعر، والشعر تُجسده فرشاة الرسام. أبدأ في

الرسم بعد دراسة متعمقة لما أريد رسمه، وإن عبّرت الفرشاة — في أحيان كثيرة — عن

داخلي أنا. حتى عندما أرسم «البورترية» فأنا أضع فيه جزءًا من نفسي. أليست أعمالِي

هي أبنائي؟

يستعيد — في أيامه القاهرية، التالية — يوم إرضاء الحنين في بحري. «أحنُّ إلى

الأنفوشي مسقط رأسي. عشت فيه طفولتي، حيث التعامل مع البحر والسّمك والأصدقاء

والباعة. أعيش حالة اندماج نظري مع البيئة. طبيعي أن يخرج سيد درويش من

الإسكندرية؛ فالسكندري موسيقي أكثر منه فنانًا تشكيليًا. أنا أعتبر البحر مسرحية

كبيرة، ذات فصول متعددة.»

شغله الفن والوظيفة والسفر إلى خارج البلاد أعوامًا طويلة.

حين عاد إلى بحري، سبقه التصور بما علّق في الذاكرة. نزل محطة القطار أول

الصباح. اخترق ميدان محطة الإسكندرية، والشوارع المفضية إلى ميدان محمد علي، ثم

إلى شارع فرنسا.

يحب شتاء الإسكندرية. ينزل المطر. يسري بالدفع في جسدها المشتعل بالبرودة،

أشبه بإرواء امرأة تُعاني الشُّبق.

طالعه ميدان الخمس فوانيس بما لم يكن يتوقعه. أبانت المغايرة عن ملامح لم يكن

يتصور حدوثها.

هل ضاق الميدان أو اتَّسع؟

البيت في موضعه، لكن الواجهة تآكلت بملوحة البحر. خلا الميدان من الدائرة

الحجرية، يحيط بها الفوانيس الخمسة، واقتصر عربات الحنطور على واحدة، تقف على

ناصية شارع فرنسا.

قال لسعيد العدوي، وهما يحاذيان الجدار في ابتعادهما عن سوق العيد: أعرف الآن  
لماذا تركز في أعمالك على البيئة الشعبية؟  
سأل عن ماهر الصاوي: هل ما زال يغني؟  
سمعه في سرادق بالأرض الخلاء، المجاورة لحلقة السمك. استعاد — في صوته  
وأغنياته ومواويله — أيامَ الطفولة والنشأة في بحري:

أصل الغرام ده منين  
م اللحظ ولا القلب؟  
همّا السبب لتنين  
ده شاف ولاخر حب

هتف لرؤية نجم أبو العيش يعبرُ طريق الكورنيش، قبالة مستشفى الملكة نازلي. لا  
يأبه بالسيارات، ولا عربات البنز المسرعة، ولا الصيحات المحذرة.

تباعدت زيارات حسين بيكار إلى بحري، وإن ظل الحي في داخله. يستعيد البحر،  
والبلانسات، والصواري، والقلاع، وورش القزق، والبيوت التي أكلها النشع، وميدان  
الخمسة فوانيس، وأهازيج السحر في أبي العباس، وحلقات الذكر على رصيف البوصيري،  
والأذان في علي تمرز، وسوق العيد، والطائرات الورقية، ونداءات المزاد في حلقة السمك،  
وملء الأكواب بدم الترسة عقب ذبحها، وصيد الميأس وقت العصاري، والجولات الصباحية  
لجياذ الملك.

الحنين إلى البحر كان وراء اختيار بيكار لشخصية السندباد. رسمها للأطفال في  
مجلة بالاسم نفسه. يتصور فيها مدن الحكايات ورحلات البلانسات إلى خارج البوغان،  
وعمليات الصيد، والطيور المتعددة الأشكال، وحكايات مخلوقات البحر.  
ثمة ما يحيا في الذاكرة، وما يختلقه الخيال، وما ينطلق في التصورات. هدير الأمواج  
في امتدادها إلى نهاية الأفق، ارتفاعها في أوقات الثورة، وتطامنها في أوقات غيرها. تكوينات  
الضوء والظلال يصنعها تناثر البلانس والقوارب والجزر الصغيرة والمصدات والكورنيش  
الحجري وصيادي السنارة والطرّاحة والجرافة. شعر عروس البحر الذهبي، ينسدل على  
كتفّيتها، يختلط بالأمواج في وحدة هارمونية.

لما رحل محمود سعيد، عُني ببيكار بتحويل بيته في رمل الإسكندرية إلى متحف. تابع خطوات الإعداد والتنفيذ. تردّد على البيت مع لجنة من الناقد التشكيلي كمال الجويلي، وأحمد سعد الدين وكيل وزارة الثقافة آنذاك، ومحمد جبريل.

امتدت ملاحظاته إلى كلب محمود سعيد. أظهر إشفاقه — وغضبه — من فكرة دس السم للكلب، حتى يترك حجرة نوم صاحبه. يتمسح بباب الحجرة المغلق، يدور أمامه، يعلو بقائميّه الأماميين على الباب، كأنه يريد أن يدفعه.

قال حسين ببيكار: جئنا لنفعل ما يُرضي روح محمود سعيد، لا ليُغضبها!

انظر: ابتهال المنسي، أحمد المسيري، حجازي أيوب، حمامة العطار، سعيد العدوي، سيد درويش، عروس البحر، فاروق الأول، ماهر الصاوي، محمود سعيد، نجم أبو العيش، نعمات.

## حمامة العطار

مفرد العوالم عالمة (لا يوجد مذكّر). وللعوالم أغنيات خاصة، وأغنيات مقلدة، أو يطلبها جمهور الحفل لذيوعها في تلك الفترة.

نشأ حمامة العطار في أسرة من العوالم. دنياها القصائد والموشحات والقُدود والمواويل والأدوار والبشارف والسماعيات والطقاطيق والمونولوجات وأغاني الصهبجية. تعلّم أصول الموسيقى الفارسية والتركية. عزف اللونجا والتجميلة والبشرف والسماعي والتقاسيم والدولاب. أتقن مقامات الكورد والحجاز كار والنهاوند والعجم عشيران والنوى أثر والنكريز والطرزنوين والزنجران، بالإضافة إلى مقامَي العجم والنهاوند. رَدَدَ أغنيات عبده الحامولي وسلامة حجازي ومحمد عثمان ومنيرة المهديّة، وألحان سيد درويش وكامل الخلعي وداود حسني، وقصائد الشيخ أبو العلا، وطقاطيق زكريا أحمد. غنّى من الأدوار المشهورة لإبراهيم القباني وداود حسني: المحاسن واللطافة، يا ما انت واحشني، بافتكارك إيه يفيدك، يا فؤادي ليه بتعشق.

حرص على صداقة الشيخ محمود مرسي، سنيد سيد درويش في الإسكندرية. يُعيد عليه الأدوار والتواحيش والطقاطيق.

حدّثه الشيخ محمود عن المهية. لا صلة لها بالمعاهد والكليات والشهادات. أنت موهوب حقيقي، فأنت فنان حقيقي. تضيف إلى موهبتك بالدراسة، والممارسة، والبذل، والتأمل، وفهم الحقائق.

درس الموسيقى، وحفظ الأدوار، أداها على أصولها. أعاره حجازي أيوب نُسخًا نادرة من كتب كامل الخلعي: نيل الأمانى في ضروب الأغاني، الموسيقى الشرقية، الأغاني العصرية. تعلّم الفرق بين درجات الصوت وطبقاته، ودرجات النغمات، ومصطلحاتها.

أعاد لحجازي أيوب كتاب جون كومباريو «الموسيقى وقوانينها وتطورها». أجهده فهّمه، واستيعاب ما يحتويه. أزمع الاكتفاء بالموسيقى الشرقية. هي الأقرب لذوقه وفهمه وعمله.

حاول المحاكاة، وإن حرص ألا يكون نسخة ثانية من المنشدين، أو المغنين، أو الفرق الفنية. جدّد، ونوّع، فيما قدمه من ألحان، غنّأها بنفسه، أو ترك غناءها لأفراد الفرقة، أو اقتصر عزف الألحان على الموسيقيّين.

ألّف الجلوس على مقهى الفنانين بشارع إسماعيل صبري. يُعدّ الاتفاقات، وما إذا كان الحفل لعقد قران، أو زفاف، أو ختان، أو وفاء بنذر. يرى أن المقهى هو ملتقى الفن الأصيل في الإسكندرية. يجلس فنانو الإسكندرية عليه، منذ سلامة حجازي إلى كومبارس السينما، ينتظرون فيه أوامر التصوير لأفلام تُصور في المدينة.

قسّمه الذي لا يبده — في جلوسه على المقهى: وحياة صاحب المقام!

أمامه مقام سيدي العدوي، في تقاطع شارعي الترسانة وإسماعيل صبري. قدّم — مع فرقته — مسرحيات قصيرة في كازينو سان استيفانو، وكازينو زيزينيا. شاهدها رواد الكازينو والمصيفون. قلّد جورج أبيض ونجيب الريحاني وعزيز عيد وأحمد فهيم وعبد العزيز خليل.

ميّز نفسه عن بقية أصحاب الفرق بالإسكندرية، بأنه يقدم أغنيات سيد درويش كما لحنها صاحبها، دون تغيير، دون حذف، أو إضافة، أو استبدال للكلمات أو اللحن. مهجتي في إيديك أنا في عرضك، خليها يا روعي أمانة عندك. أُعيدت الكلمات كما لحنها سيد درويش: شفتي بتاكني أنا في عرضك، خليها تسلّم على خدك. حتى نشيد ثورة ١٩١٩م بدّل في كلماته. أبقى على الكلمات الأصلية واللحن الأصلي، يُنهي بالنشيد حفلاته الغنائية، إن أُتيح لها سعة السرادق، ووفرة الجمهور. غنّى في سرادقات لا يدرك أطرافها. مع أنه كان يأخذ على من يخرج عن أصل اللحن، فإنه لجأ — في أحيان كثيرة — إلى الغناء المقلوب. لا يقدم الأغنيات على ما وضعت في أصل تلحينها، يتسهّل فيها، يبدّل كلمات الأغنية، لتتناسب مع معنى المناسبة، يحذف، يُضيف، يحوّر، يعطي معنىً ثانياً، مطلوباً.

حجرات البيت المطل على شارع فرنسا، يتناثر فيها أفراد الفرقة الموسيقية، يتدربون على العزف، ويُجرون البروفات. طرد ضابط الإيقاع لأن زجاجة الخمر سقطت من بين ثيابه.

أعطاه حجازي أيوب نسخة من كتاب «مفرح الجنس اللطيف وصور مشاهير الراقصين» لمحمود حمدي البولاقبي الآلاتي. وهو يهز نسخة الكتاب أمامه: طبعته الوحيدة صدرت في سنة ١٩٠٤م. معظم الراقصات أتى بهن حمامة من فرّق العوالم في المدينة، ومن حارة العوالم القريبة من جامع سلطان.

ضايقه أن أذواق الناس لم تُعد تُقبل على الفرقة. عانت الفرقة قلة الأفراح، وضالة الأجور. يقتصر ما تتقاضاه — أحياناً — على النقوط. قد تأتي، وقد لا تأتي، ربما لا تفي بقيمة المواصلات. أحزن العطار انصراف الجمهور عنه. غابت عبارات الإعجاب والاستحسان. حلت — بدلاً منها — عبارات مستاءة أو ساخطة. ثمة من انشغل بالحديث إلى جاره، أو غادر السرادق. لم يُعد يعرف ماذا يريد جمهور الحفلات. اختلفت الأذواق، وتباين التفكير، وأثرت الأحوال الاجتماعية على نوعية ما يطلبه الناس.

— صرنا نستمع إلى المونولوج فنقول: ما أجمل هذه الأغنية!

التقط قول أحمد المسيري: شخصيتنا الموسيقية ضاعت بسبب الاقتباس. كان المسيري يميل إلى الموسيقى القديمة، تعدد الأنغام، وما فيها من روح الطرب، السماعيات والبشارف والتقاسيم الحرة على القانون والناي والكمّان. يحب الغناء القديم: الليالي والأدوار والموشحات والقصائد. يعيش في ألحان — وأصوات — يوسف المنيلوي ومحمد السبع وعبد الحي حلمي ومحمد سالم والصفتي وإبراهيم شفيق وزكي مراد وداود حسني وعبد اللطيف البنا. يعيب العجمة على الأغنيات الحديثة، ومظاهر التماوت والابتذال والتخنث والضعف. ألحان متشابهة، كأنها من مقام واحد، ونغمة واحدة. أغنيات أوروبية بألفاظ عربية. لغياب الأصالة عنها، فهي لا تعيش سوى أشهر قليلة.

قال حمامة العطار: أُسميه سرقة، وليس اقتباساً.

— سمّه ما شئت، لكن الموسيقى المهجّنة كارثة!

قال الشيخ رافع بدر: هل تريد أن تقدّم أغنيات هذه الأيام بطريقة المظ وعبد الحامولي وسلامة حجازي؟

قال المسيري: نحن نعجب حتى الآن بألحان سيد درويش.

قال الشيخ رافع: استثناء من الصعب أن يتكرر!

قال حمامة العطار: أيهما أحب إلى شارب الخمر ... الجديدة أم المعتقة؟  
استطرد دون أن ينتظر إجابة: الأغنية القديمة هي الخمر المعتقة. يتذوقها مَنْ يعرف قيمتها.

قال المسيري بلهجة مؤكدة: القديم أجمل!  
وزمَّ شفّتيه، وضيق ما بين عينيه: أغنيات هذه الأيام ورود بلا رائحة!  
وأزاح الهواء بظهر يده: أين هي من أغنيات زمان؟  
لكساد السوق، وتوقف الكثير من فرق العوالم عن العمل، لم يُعدّ حمامة العطار يُدقُّ في الدعوات التي تُعرض عليه، ولا يفرض شروطاً قد لا يقبلها أصحاب الليلة. لم يُعدّ يرفض حتى دعوات السراة من أبناء الأحياء المجاورة إلى مجالسهم الخاصة، وسهراتهم التي تقتصر على القلة.

عزا إلى أفعال السحر، انصراف الناس عن فِرَق العوالم في داخل بحري وخارجه.  
يصنعها شحاتة عبد الكريم. تمضي بالناس إلى سرادق المسيري، يُهملون الفرق الأخرى، كأنهم لا يرونها: تفيدة الإسكدرانية، الحاج طه أبو مندور، الست أم إبراهيم، فاطمة الشامية، السيدة السويسية، أنوسة المصرية، نعيمة المصرية، نظيرة المهندسة، أسما الكمسارية، المعلمة مواهب.

صار يجمع — في حفلاته — بين الموسيقى الحديثة والتراث الموسيقي القديم والإنشاد الديني والموشحات والليالي والمواويل والأدوار. ظل التخت مؤلفاً من عازفي الكمان والقانون والناي والربابة وآلات الضرب كالصاجات والدربكة والطار والطبل البلدي، بالإضافة إلى جوقة من الأصوات النسائية.

كزَّر، ونوع في طرق أدائه بتعدد المناسبات. ما يُغنى في ليلة العرس يختلف عن إنشاد الموالد والليالي الدينية. يختلف الغناء لجمهور بحري عن الغناء لجمهور القرى المحيطة بالإسكندرية، لكل جمهور ذوقه، وما يحب سماعه.

حاول التجديد والتنوع في الأغنيات التي أَلَف الناس سماعها من غيره. نوع في أسلوب الأداء، وفي الدور الذي تلعبه الآلات. يستهويه في الكمان أنها تضمُّ الأنغام كلها. استخدم الأبوا، والقانون الذي أهمل الكثير من المغنِّين استخدامه. أدخل آلات غربية لم يسبق إدخالها في الفرق الموسيقية المصرية: الجيتار الكهربائي والتشيللو والأورج والكلارينيت وإيقاعات الجازبند، بالإضافة إلى الدربكة والدهلة والرق والسلمية. أوركسترا كبير تتناغم فيه أَلحانُ الآلات الشرقية والآلات الغربية. أفرد مجالات للموسيقيين، يؤدي العازف «صولو» لاستعراض مهاراته.



أدخل الموتيفات الموسيقية الجديدة. نوَّع في وحدات الأقسام الغنائية، تخلَّى عن الكثير من الأشكال الموسيقية القديمة. حاول أن يقدِّم صورة جديدة من الأداء تنتمي إليه، تعبَّر عن موهبته وفهمه للإضافة في الموسيقى.

عرف أفراد الفرقة الموسيقية المقدمة الموسيقية، والإيقاع والكورس واللحن واللازمة والتقاسيم. أضافوا إلى مفرداتهم تسميات لم يكونوا يُردِّدونها، ولا يعرفونها: الأوركسترا، الكونشرتو، الريتم، ربع التون، الميلودي، الإيقاع، الهارموني، الدارج، الصعيدي، المصمودي، البروفة، النوتة الموسيقية، الجواب سيكاه، الجواب راست، الكونترابونت. اعتمد على التكوين الغربي: آلات النفخ الخشبي والدرامز والبيانو، والإيقاعات الغربية، مثل التانجو والسامبا والرومبا والجيرك والفوكس تروت. اعتبر ما كان يقدِّمه، وتخلَّى عنه، هو الفن الحقيقي. ما أصبح يُقدِّمه للضرورات ومطالب العيش.

في أيامه الأخيرة، أظهر ضيقه من إهمال إذاعة الإسكندرية — عند إنشائها في ١٩٥٢ م — لتقديم فقرات ضمن برامجها.

تحدَّث حمامة العطار عن اعتزازه الرحيل إلى هوليوود. ورَّع نسخة من سيناريو فيلم استعراضي — وافق على بطولته، وتشاركه البطولة مارلين مونرو — به العديد من الأغنيات والرقصات والمواقف التي تُثير الضحكات والدموع. وتداخلت في صوته نبرةُ ثقة: أنا الآن أكثر شباباً من فوزي منيب، عند قيامه سنة ١٩٢٠ م ببطولة فيلم «خاتم سليمان».

ثم وهو يُشير إلى نفسه: وأنا أفوقه فناً!  
قال خليل الفحام: حمامة العطار زمن رفضه الواقع، فلجأ إلى الحلم.

انظر: أحمد المسيري، رافع بدير، سلامة حجازي، سيد درويش، شحاتة عبد الكريم.



## حمدي درويش

لم تختلف الروايات حول شخصية ما، كما اختلفت حول شخصية البكباشي حمدي درويش.

لا أحد تحدّث — بيقين — عن تاريخ مولده، ولا المكان الذي وُلد فيه، ولا أين عاش طفولته. تباينت الروايات، فلم يطمئن الناس إلى رواية محددة. ما عرفوه أن أول ظهور البكباشي حمدي درويش في بحري، حين ظهر مع حاشية الخديو إسماعيل في جولاته — وقت الأصيل — حول سراي رأس التين.

أخذ الموت من رافقوا صباه. حتى فترة الشباب مات مَنْ أُتيح لهم العيش فيها. توالى الأعوام. تساقطت أوراق كثيرة من شجرة منتصف شعبان. لم يُعد سوى حمدي درويش شاهدًا وحيدًا على مراحل متعاقبة من الحياة في بحري.

انتقل — بعد عزل إسماعيل — إلى وظيفة ياوران في حاشية الخديو توفيق. ينظم طالبى الدخول إلى الحضرة الخديوية. يُنهي المقابلة في الموعد المحدد. شاهد أحداث مذبحة الإسكندرية.

يروى أنه حاول إنهاءها، فلا تبلغ ما بلغته. القوى الشريرة (لا يحدّها) أصرت على النفخ في الرماد. لا ينكر انحيازه إلى المحافظ عمر لطفي فهو ممثل سلطة الخديو توفيق. يثق أن دمار الإسكندرية كان يمكن تجنبه لو أن العصاة (وصفه للعرابيين) رضخوا لإنذار الإنجليز.

عمل مأمورًا لقسم الجمر عقب هزيمة الثورة العرابية (يسمّيها الهوجة). اللورد كرومر هو الذي اختاره للوظيفة.

حضر حمدي درويش خطبة مصطفى كامل — بإعلان قيام الحزب الوطني — في مسرح زيزينيا ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧م، وأشرف على تحقيقات كشف الفاعلين في حادثة

إلقاء القنبلة على موكب السلطان حسين كامل، وبعد قيام الحرب العالمية الأولى، وجد في تطبيق قانون الطوارئ فرصةً للقبض على كلِّ مَنْ يشكُّ في ولائه للسلطان، أو اشتغاله بالعمل السياسي. أطلق ضباطه ومخبريه للقبض على كلِّ مَنْ يجعل نفسه في موضع الاشتباه. ورَتَّبَ إجراءات الأمن في مظاهرات ثورة ١٩١٩م. تصدَّى لانفلات أعداد قليلة من المتظاهرين في ذلك العام، وفي أحداث ١٩٣٥م، حتى لا يتكرر دمار الإسكندرية.

نسب لنفسه الفضل في القبض على المئات من تجار المخدرات ومزيفي العملة والبغايا والجالسات على الكورنيش والقوَّادين والبلطجية ومدعي الفتونة والمشردين والمشبوهِين والمتسولين، وباعة زريعة السمك والسلع التافهة، ولما مي السبارس، والمهيجين السياسيين، والمتأمرين لقلب نظام الحكم، وموزَّعي المنشورات، والمتهامسين في الأركان المظلمة، والمتقاربين في حلقات، والمجازيب بلا طريقة صوفية. لا تُفكَّت منه جريمة، مهما بدت غامضة.

نسب لنفسه الفضل — كذلك — في القبض على القائلتين ريا وسكينة، وزوجيهما حسب الله وعبد العال. قتلت المرأتان الكثيرَ من النساء، ساعدهما الرجلان. جريمة تغلَّت بها بالغموض والأسرار. هاجمت الصحف والإذاعات الأهلية حكومة عدلي يكن باشا لتقاعسها في القبض على الفاعل. هل هو فرد أو مجموعة؟

خشِي حمدي درويش على وظيفته، بعد أن طالبت الصحف والإذاعات الأهلية بتغيير قيادات البوليس في الإسكندرية، واستبدال قيادات جديدة بها.

لم يقطن البكباشي مصطفى عطا الله مأمور قسم اللبان إلى بيت القتل وراء القسم. أمر حمدي درويش مخبريه بإجادة البحث والسؤال والتحري. تابع بنفسه إجراء التحقيقات، وجمع الأدلة، وتقصَّى الاحتمالات، واستخلص النتائج.

لما جاءه المخبرون بطرف الخيط، كرَّه حتى استوقفتَه ملاحظة الجيران عن الصمت الذي تعيشه البناية رقم خمسة بشارع مكاربوس. تقطعه — في فترات متباعدة — دقات دفوف، إيقاعات زار، أغنيات تخاطب الجان. إذا أقامت امرأة من أهل البيت زارًا، كي يخرج الجن من جسدها، فهو ما يحدث مرة، أو اثنتين. أما التكرار في بيت لا يُعرف عن أهله التكبسب من الزار، فذلك ما أيقظ الريبة.

أطل — ذات عصر في مايو ١٩٢١م — من ردهة البيت، على جثث القتلى، ٣٥ امرأة. نفى أن يكون عمال بلدية الإسكندرية قد سبقوه في اكتشاف عشرات الجثث، أسفل بيت شارع مكاربوس، خلف قسم اللبان. دُفنت بعد أن قُتلت بطريقة واحدة، هي حز العنق بسكين.

زاد في استيائه، أن البناية السر تقع خلف قسم اللبان.

هل تحتمي الجريمة بمن يحاربها؟!

أزعجه الفتوةُ الجديد في منطقة الميناء. ظل الفتوات خارج أسوار الجمرح حتى ظهر موسى أبو سبعة، وأعلن الفتونة. يفرض الإتاوات على عربات النقل، والشاحنات التي تنقل البضائع إلى الميناء، أو تخرج بها. كل مَنْ يدخل الميناء، يجب أن يدفع الإتاوة التي يطلبها صبيان الفتوة. لا فارق بين ما إذا كان صاحب باخرة، أو بلانس، أو فلوكة، أو شاحنة، أو عربة نقل. جاوزت سطوته المسافة بين البواخر والأرصفة، إلى كل ما في الميناء: المستودعات، المخازن، شركات النقل والاستيراد. دفعته جرأته لأن يصعد إلى باخرة، ويطلب من قبطانها ذي البشرة السوداء، أن يدفع لقاء رسو الباخرة في الميناء.

حين يستدعيه البوليس، أو النيابة، لسؤاله عن حادثة سرقة، أو اعتداء، فإنه يُنكر معرفته بأي شيء، ويستنكر ما حدث.

لم يشغله — ذات صباح — أن البضائع التي تحملها الشاحنة تابعة لشركة بواخر البوستة الخديوية. أهمل ما قيل إن لأحمد عبود باشا نفوذَه الذي يشمل الميناء، وخارجه، ويبدل الحكومات. ثقب خزانَ السولار، وأسقط فيه عود كبريت. قدم عبود باشا من القاهرة إلى الميناء. أشرف على التحقيق بنفسه. هدد بفصل البكباشي حمدي درويش إن لم يكتشف الفاعل.

شعر حمدي درويش أنه مهدد في منصبه ما لم يكسر شوكة موسى أبو سبعة، يقتله، أو يسجنه، أو يُبعده عن الميناء، وعن بحري. لجأ إلى حميدو شومة.

واجه الرجل — ذات ضحى — في وقفته أمام الترسانة البحرية. ومضت المطواة — بالفهم — في يد موسى أبو سبعة.

هوى حميدو بقبضته على ساعد أبو سبعة. أطار المطواة من يده. عاجله بركلات متلاحقة، ترنح أبو سبعة لها، وارتجفت ساقاه، وسقط. واصل حميدو توجيه ركلاته ولكماته إلى الرجل في تكؤمه على الأرض، حتى غطت الدماء جسده وملابسه، وبدا أنه لا يقوى على التقاط أنفاسه.

قال حميدو وهو يتجه إلى الناحية المقابلة: إذا عدت إلى الميناء فاقرأ الفاتحة على روحك!

شدّد حمدي درويش قبضته على منطقة الميناء. منع المظاهرات والإضرابات التي تشهدها الإسكندرية من أن تنتقل إلى داخل الميناء. واجهه — بأقسى درجات العنف — من حاولوا التحريض، أو تهامسوا بالشائعات.

حين تسلّم معهد الأحياء المائية أولَ عروس بحر لتحنيطها، وعرضها في قاعة العرض، طرأت في ذهن خليفة كاسب فكرة، فنفذها. أشرف على خطوات تحنيط العروس، ثم أمر بنقلها إلى سراي رأس التين.

تحتسباً لأخطار الغارات الجوية في الحرب العالمية الثانية، اقترح حمدي درويش أن يُخلى معهد الأحياء المائية من كل ما يُخشى تدميره أو فقده: أدوات العمل، والملفات، والكتب، والأجهزة العلمية. طلب نقل مقتنيات المعهد من الأسماك إلى سراي رأس التين. قال لنظرات الاستياء في أعين موظفي المعهد: قصر ملك البلاد هو المكان الأكثر أماناً لحفظ ثروة المعهد!

رُوي أنه بعد أن اعتزل حميدو شومة الفتونة، ظل معظم صبيانه يمارسون البلطجة وأفعال الشر. اقتصرُوا على حيك الدسائس والمؤامرات، لأنفسهم، ولمن يخالطونهم، وإثارة المعارك فيما بينهم. غابت الرأس، فتطلعوا إلى احتلال المكانة وفرض السيطرة. لم يحاولوا عراك السلطة، ولا مواجهة القوة التي لا يُطيقون صدّها. يتسللون إلى الأماكن الخالية، أو الساكنة، أو المظلمة. يأخذون — قبل اختفائهم — ما يستطيعون الحصول عليه. دخل روبة الفشني حجرة الشيخ عبد الستار، على يمين الباب الرئيس لجامع علي تمتاز. كان الشيخ مشغولاً بالتلاوة من مصحف، على حامل بين يديه. سكت الشيخ عن التلاوة لرؤية التماع نصل الخنجر.

قال دون أن يغادر هدوءه: خذ ما شئت، واتركني لتلاوة القرآن! تابع مدين خادم الجامع ما جرى منذ دخول الفشني حجرة الإمام. المطواة الوامضة، الكلمات التي لم يتبينها، تعبيرات الأيدي، تنقلُ الفشني في الحجرة، اتجاهاه نحو الباب الخارجي، وفي يده ما لم يره الخادم.

قبل أن يميل الفشني إلى شارع رأس التين، لحقه صوتُ الخادم بالاستغاثة. تصدّى له بقايا صبيان الأبحر، قبل أن يعتزل بنصائح سيدي أبي الحسن الشاذلي. أنس روبة الفشني في نفسه القدرة على أن يحلّ موضع حميدو شومة في الفتونة. يُحيط نفسه بصبيان يحملون العصي والشوم والسيوف والسنج والمطاوي والخناجر.

يضرب الفشني، ويتلقّى صبيانه الضربات. تتوالى الانتصارات بما يجعله فتوة على بحري. قد تمتد سيطرته إلى الأحياء المجاورة.

نصره — لأنه زميلهم القديم — بقايا صبيان حميدو شومة. لم يسألوا عن باعث فراره من الجامع، ولا تصدّي صبيان الأجر له. تفرّقوا إلى أعمال أخرى، وإن ظل بعضهم على مهنة الفتونة.

اقتصرت المعركة — بعد دقائقها الأولى — على من بقي في البلطجة من صبيان الفتوات. تطايرت الكراسي، ارتطمت الشوم بالشوم، وبالءوس والأجساد، علّت النداءات والصيحات والصرخات، تناثرت الأشلاء وبُقِع الدم.

دخل شفيع عبد المقصود مناصراً لبكير عبد البديع فتوة اللبان في معركة ميدان «الخمس فوانيس». يشغله تحريض البكباشي حمدي درويش أن يُفاجئ روبة الفشني بما لا يتوقعه.

تلقّى — في البداية — ضربات بكير عبد البديع ومساعديه. تحوّل — في احتدام المعركة — إلى الناحية المقابلة. بلغت ضرباته كتف الفشني وظهره. كاد يشج رأسه لولا سقوط شومة عبد البديع — في اللحظة نفسها — على وجه الفشني. تردّد شفيع في عيادة الفشني. خشي أن يكون قد فطن لما فعل. أن يكون لمحّه — وسط المعركة — وهو يبذل مواضع ضرباته.

وجد البكباشي حمدي درويش في معركة الخمسة فوانيس فرصةً لتصفية بقايا الفتوات. أزعجه أن معاركهم امتدّت إلى ميادين الحي وشوارعه. حتى الحواري والأزقة والمقاهي والوكالات اخترقتها المعارك. أعلن محمدي الزنط صبي حميدو شومة تحديّه من تحت منبر أبي العباس.

نقلت عربة البوكس بقايا الفتوات إلى خشبية قسم الجمرك. دفع الناس إلى العساكر شعلان صبي الأجر. عجز عن الفرار، فتكوّر على نفسه داخل عربة يد. أغراه صمّت الميدان، فأطل برأسه. سحبته الأيدي من العربة ميّتاً من الخوف.

تعدّدت حملات جنود حمدي درويش ومساعديه على البيوت والمقاهي وشاطئ البحر وظل المراكب، يبحثون عن مساعد فتوة، يصحبونه إلى قسم الجمرك، لا يتركونه إلا بعد أن يُعلن توبته.

ظلت الحملات، حتى اطمأن حمدي درويش إلى تلاشي زمن الفتوات. قال جودة هلال: دفع الفتوات وجودهم في بحري ثمناً لغياب المصارحة.

وحرك المنشة، يذبُّ إلحاح الذباب: سكت كل فتوة عن أفعال صبيانه فحصدهم البكباشي، ودفع الفتوات الثمن!

سكن حمدي درويش إلى الرياسة والتعظيم.

مال إلى إضفاء الاحترام في علاقاته، فلا تبسُّط ولا ميل إلى الدعابة أو المزاح. ردُّ السلام على أحد بأكثر من إيماءة رأس، أو إبداء التأثر تجاه ظرف إنساني ما، ضعف يُقلل من هيئته.

عُنِيَ بالمحافظة على مسافة — يحددها — بينه وبين محدثه. يمنح نفسه قدرًا هائلًا من الهيبة والتعالي على مَنْ يلتقيه. يرفض أن يُناقشه أحد في قول أو تصرُّف. ما يخطر في باله يقول أو يفعله. لا يعنيه أن يستشير حتى أقرب معاونيه.

لم يكن يُعلن أفكاره، ولا تبين عنها ملامحه. يثق أن ما يفعله لن يُحاسب عليه. كسا وجهه بقناع من الهدوء. لا يبدو عليه انفعال من أي نوع. لا شيء يُدهشه، أو يخيفه، أو يُثيره. نظراته حيادية، لا تعبرُ عمَّا يشغله، وإن حرص على أن يكون لصوته طبيعة مسرحية. اصطنع صوتًا ظل يستخدمه حتى صار صوته الذي ينطق به. تتدلى من جيبه سلسلة ذهبية، تنتهي بساعة ذهبية مستديرة، استقرت في جيب الصديري.

كان يدسُّ رجاله في فرق الصوفية ومريدي الأولياء. ينقلون ما يختلف عن طقوس الجماعة. الإشارات والإيماءات التي تحمل المغايرة، أو تستعصي على الفهم. للطقوس حركاتها المعروفة، وكلماتها التي لا تتبدل. إذا تبين ما يتلفت، نقله كما رآه أو سمعه. اشتهر عنه قدرته على انتزاع الاعتراف والتعذيب: الجلد، الضرب بالعصا على القدمين، التعرية من الثياب، إجبار الوقوف على قدم واحدة ساعات متواصلة، التغطيس في الماء المخلوط بالجير، وضع العصا في فتحة الشرج، الإجبار على أكل الزبالة، وعلى تناول السمك المملح لمعانة العطش، لا يقدم له الماء إلا بعد أن تشي حشرجته باقتراب الموت. عُرف عنه صبره الذي يُشبه صبر الصياد. يطول انتظاره — بلا ملل — لجذبة السنارة. لا يشغله حتى ما يبدو حشرجة الموت. كانت الحكومات تُعيد إليه ما تتلقاه من عرائض تتهمة بالتستر خلف القانون لأفعال الشر.



فطن حلمي كراوية التاجر بشارع الميدان إلى الأمر. رفع عريضة إلى مقام الملك. لما أغلقت وكالته — ثالث يوم — وأحيل إلى المحاكمة بتهمة بيع أطعمة فاسدة، أدرك أن السراي أحالت العريضة إلى حمدي درويش.

كان يسكن في منطقة الرمل. لا أحد يعرف له أسرة. شوهد — مرات كثيرة — يتردد على المعبد اليهودي بشارع النبي دانيال. قيل إنه على صداقة بحاخام في المعبد. وقت فراغه يُمضيه في نادي المكابي. وكان يجالس رجال الحكم ورجال المال والاقتصاد في كافيتريا سيسل والترانون وأتينيوس والأكسلسيور.

في أثناء إقامة الملك بسراي رأس التين، كان حمدي درويش يطلب من معلّم الحلقة — بواسطة مخبريه — أن يحتفظوا للسراي بأجمل ما في محصول البلانسات. وكان يتولّى التأكيد على الشيخ جميل أبو نار، إمام أبي العباس. يقف وسط جماعة من أساتذة المعهد الديني، بعد حضور الملك صلاة الجمعة، في اليوم التالي. يرددون الأدعية التي يراجع كلماتها بنفسه. يوافق على ما يراه مناسبًا، ويحذف ما لا يحقق المعنى.

اكتسب عند مقام الملك سمعة طيبة، براعته في تنظيم التشريفة، وحشد الجماهير للاستقبال، وتوزيع الهتافات المناادية بحياة الملك، وعزف الموسيقى، وبث العساكر ومخبري المباحث في النقاط المهمة، وضمان الحماية للموكب الملكي، ونظافة الشوارع، ورفع الأعلام وأقواس النصر، وفرش السجاجيد الحمراء، من وقفة الموكب إلى مكان الاحتفال.

لأن الشرّ يؤذي بعضه، فقد لجأ شحاتة عبد الكريم إلى علمه، ووسائل تحريضه للجن على بلوغ ما يريده.

كتب عملاً — بضغط خصومة شخصية بينه وبين حمدي درويش — كتب فيه مفردات في مثلث، تحتها حروف ترابية، وتحت ذلك كتب: «عقدتُ لسان البكباشي حمدي درويش، وأفقدتُه عقله، وجعلته هزؤًا يسخر منه الناس.»

انعكس تأثير العمل في ترك حمدي درويش عمله بقسم الجمرك، وهجر البيوت التي يستأجرها لدواعي المتعة.

قال إن ما فعله طبيعي بعد رحيل الملك. سكت عما روي أنه استولى على الكثير مما بقصر رأس التين من التحف والمجوهرات.

تحدثت روايات عن انتقاله للعمل في موقع مهم بالقاهرة، وعن زيارته المتباعدة للإسكندرية، وجلوسه إلى سامي بهاء الدين في التريانون والأكسلسيور وديليس ومدخل فندق سيسل. يشي تقاربهما وأحاديثهما الهامسة بصداقة حميمة.

أهل البحر

لم يُعدّ الناس يرونه في الزيّ الحكومي ذي الأزوار الصفراء، وعلى الكتفين تاج  
ونجمة. استبدل به أزياء مدنية على أحدث المودات.  
قال خليل الفحام: إذا كان عهد الفتوات قد انقضى منذ معركة الخمسة فوانيس،  
فإن سلطة البكباشي حمدي درويش لا تنتهي!

انظر: الأجر، أبو الحسن الشاذلي، جودة هلال، حميدو شومة، خليفة كاسب، خليل  
الفحام، سامي بهاء الدين، شحاتة عبد الكريم، فاروق الأول، عبد الستار.

## حميدو شومة

خطب الشيخ عبد الستار قال: إنه كان للفتوة معناها المختلف في زمن مضى. سُئل بعضهم مَنْ يستحق اسمَ الفتوة؟ قال: مَنْ كان فيه اعتذار آدم، وصلابة نوح، ووفاء إبراهيم، وصدق إسماعيل، وإخلاص موسى، وصبر أيوب، وبكاء داود، وسخاء محمد، ورأفة أبي بكر، وحمية عثمان، وعلم علي. ثم مع هذا كلُّه يزدري نفسه، ويحتقر ما هو فيه. أردف الشيخ عبد الستار قوله: إن أشد الناس اعتزازًا بقوته، يقف أمام الموت بلا حيلة. لا يملك المقاومة ولا الرفض. لا يملك حتى السؤال. يتقبل ما يحدث لأنه لا بد أن يحدث. تلك هي النهاية، يسلم لها نفسه دون أن يسأل، أو يناقش، أو يعترض.

قال الشيخ وهو يُثبت نظرتَه على حميدو شومة في صفوف المصلين: نحن نعي مطاردة الموت، ملاحظته، نكتفي بإغفاله كأنه ليس في حياتنا، وينتظر لحظة اللقاء الحتم. ظل حميدو شومة على صمته، وإن تقلقل في جلسته بما يثي أنه هو المقصود بكلمات الشيخ عبد الستار.

اسمه حميدو رمضان. حمل شومة قبل أن يصبح فتوة، يكتفي بتطويحها في الفراغ، يُرافقها بالعبارات المهددة. سكت عن تسمية الشيخ رافع له: حميدو شومة. ناداه بها الناس — فيما بعد — وقدّم نفسه. لم يُعدّ يناديه باسم أبيه حتى إخوته، أو أفراد أسرته وأقاربه. ظل حميدو شومة هو الذي عُرف به كأنه اسمه الوحيد.

بعد أن تكرر رسوبه في السنة الأولى بمدرسة رأس التين الثانوية، ألحقه أبوه بـدكان حلمي كرواية. كانت حياة أبيه في سعة، لكنه أقسم يمين الطلاق، إذا تكرر رسوب حميدو، أن يجعله صبيًّا في دكان. وكان لا بد للرجل أن يبرِّ بقسمه.

آخر الليل — في اليوم الرابع — ترك حميدو الدكان إلى قهوة الزردوني. اكتفى بنظرة تهديد بديلًا لثمن الشاي، ومضى. في باله أن يحصل على قوته بذراعه.

لم يكن من السهل إخضاع شخصيته، ولا السيطرة عليها. يعتز بأنه لا يُدَل، ولا يخضع، ولا ينكسر إلا لله تعالى.

لم يكن يأذن بالمناقشة إلا للموافقة على رأيه. إذا لم يرضَ عن المناقشة فإنه يلوِّح بالتهديد، أو يعلنه. ربما قذف كلمات قاسية دون أن يشغله ردُّ الفعل، أو يُعد نفسه لما هو أشد من أي رد فعل محتمل. لا يتناهى عن منكر، ولا يرعوي لوعظ واعظ، ولا نصيحة مشفق، ولا يردعه أيُّ وازع عن تسديد اللكمات والركلات والضربات، دون تنبُّه لما تصنعه.

اعتاد أن يُصدر الأوامر، أو يُوحى بها، لا أن تصدر الأوامر إليه. يرفض الاعتراض، أو مجرد السؤال، أو المناقشة. يُعينه على التخويف صوتُ هادر.

ما يراه هو الصواب، ينبغي أن ينفذه الجميع. يطمئن إلى قدرته على الهجوم. يختار اللحظة، ويُسارع بردُّ المباغثة، يُجيد تسديد الضربات.

قال له عمران الخولي: أنفك كبريت يشتعل بالحك!  
تخطفته الشياطين، وتفرقت به السبل، وطغت عليه الشهوات، وألهته شواغل الدنيا عن تدبُّر المصير. صار من أفجر الناس، وأردئهم سيرة، وأسوأهم طوية. يقطع — وصبيانه — الطريق، يُخيف المارة، يفرض الإتاوات، يُصادر ما يمتلكه الناس.  
إذا سار في الطريق، سبقه صبيانه، يُفسحون له، يهشون المارة بعصيهم وهراواتهم، وبالتحذيرات. حتى ضباط قسم الجمرك وعساكره، حرصوا على تجنب الاقتراب منه.  
قال الحاج جودة هلال إن حميدو شومة لو لم يجد من يُعاركه لعارك نفسه.  
اختطف — ذات عصر — عمامة الشيخ مجاهد كريشة إمام جامع نصر الدين. تحدّاه أن يحاول استعادتها، ثم لحقه بها وهو يواصل سيره.  
كان الشيخ قد أشار — في خطبة الجمعة — إلى معارك الفتوات، وتأثيراتها على الغلابة من أهل بحري.

مجلسه في دكان النن بائع الصحف — أول الموازيني — أتاح له القراءة، والمتابعة، والتعرف على أحوال العالم، والدخول في مناقشات. يزول ما يحيط به نفسه من هيبة، برفقة صبيانه. يتأمل حركة الطريق، يمازح، يُطلق الدعابات والنكات والضحكات. يأذن بالآراء المعارضة، وبالقافية.

قال لنعمات العجيرية — لما أبدت دهشتها لطلبه أن ترسم وشماً على ساعديه: لم يُعد الوشم مقتصرًا على البحارة، أو العاملين في البحر.

تحدّث عن غرز إبرة الوشم في جسد من لا صلة له بالبحر، من يحيا عمره على البر. لا يتصور أنه يبتعد عن الشاطئ. يرسم الوشم — بأشكال مختلفة — على الذراع أو الكتف أو الصدر.

أسلم ساعديه للمرأة. نظّفت الموضع الذي أراد وشمه بالكحول. دارت يدها بالإبرة برسم السيف على ساعديه. ظل جالساً، يضغط على أسنانه، لا تندُّ عنه آهة، أو أنة ألم، حتى توقّف النزف.

نقدها المقابل، ومضى.

قبل أن ينزل إلى الطريق، يفرض الإتاوات والخوف، زار بيت أبو حلوة فتوة بحري القديم. ما فعله ذكريات يستعيدها الشيوخ في بحري. أتقن محاكاته في ضرب خصومه حتى الهزيمة، حتى يسقطوا على الأرض بلا حول، أو يلوذوا بالفرار. أدرك أنه لا حق له في حياة الفتونة، ما لم يجلس إلى أبو حلوة، يُنصت إليه، يسأله، يتلقّى نصائحه.

بدا — في بيته المطل على شارع ابن الصباغ — منعزلاً، يلتقي بأعوانه القدامى وزوّاره، في حجرته بمدخل البيت. تمتد الطريقة أمامها إلى قاعة واسعة، على جانبيها حجرات مواربة أو مغلقة، يترامى من داخلها أصوات هامسة، وفي الجانب سلّم خشبي، يُفضي إلى الطابق العلوي، والسطح.

قال أبو حلوة: إذا أردت أن تصبح مجرد فتوة، بحري لا ينقصه الفتوات!

وهزّ قبضته: على الفتوة أن يستحق التسمية!

وقال بلهجة يغلب عليها الشرود: لا أملك نصائح. أنت لا تريد تعلّم الصيد، فأعلمك طريقة إلقاء السنارة أو الطراحة، ولا تسعى لأن تكون بناء، فأعلمك كيفية صنع المونة. أنت لا تتطلع حتى أن تكون قارئاً، فأدفعك إلى حفظ القرآن. يكفي — لكي تصبح فتوة — أن تحرص على أخلاق الفتوات. الفتوة تعني النخوة والشجاعة والرئاسة. وقال: يجب أن يكون لك أسلوبك الخاص في الفتونة، لا يماثل أساليب فتوات بقية الأحياء، الأفكار والأقوال والتصرفات، حتى طريقة إخضاع الناس لإرادتك، لكلمتك. وقال: الفتونة ليست مهنة، لكنها أخلاق. الفتوة الحقيقي فارس، أما الذي يجعل الفتونة مهنته فهو بلطجي، يضايق الناس، يبتزّهم، يفرض عليهم الإتاوات، يتصيدهم في قلب البحر، وفي الخلاء، وداخل الحواري المظلمة. وقال: المارد وحده هو الذي يرضى أن يكون وحيداً. قوته تُتيح له مواجهة القوة مهما بلغت. الفتوة البشر لا بد أن يعتمد على مساعدين، أدأوه يقتصر على الضرب، بينما يتلقى الأعوان ما قد يُوجّه للفتوة من ضربات. قال أبو حلوة: الفتوة

الحقيقي لا يهاجم من لا يستطيع الدفاع عن نفسه. وقال: كن قاسياً، ولا تكن خائناً، القسوة يمتلكها القوي، أما الخيانة فهي وسيلة الضعيف. قال: احتفظ بكل ما يُتاح لك استخدامه من أسلحة، تدافع بها عن نفسك، تدافع بها، فلا تبادل بالهجوم. سكين، شومة، خنجر، سلسلة حديدية. حاذر من استعمالها دون داع. هي لأوقات الحصار، للدفاع عن النفس. وقال: لا تُهمل مواطن القوة أو الضعف فيمن تُواجهه بالعداء، ضعه في حجمه الحقيقي، لا تستهن به، ولا تُضف إلى حجمه. وقال: يجب ألا تُشهر سلاحاً في وجه إنسان أعزل، حتى لو بادرك بالشتم أو الإهانة، عاقبه بقوتك البدنية وحدها. وقال: التخويف هو ما تفعله حتى العدد تسعة. لا تلجأ إلى العدد عشرة إلا عندما يُلامس الموتُ شعراً رأسك. ليكن سلاحك — ما أمكن — هو الفتونة وحدها. وقال: إذا اطمأنتت إلى قدراتك جيداً، ضع يدك على دفة الفلوكة، وانطلق. وقال: إذا وجدت في نفسك قدرة على النزول إلى البحر، توكل على الله. إذا ساورك أيُّ شك، فلا تحاول.

ثم وهو يهزُّ إصبعه: فاهمني!

اعتاد أهل بحري معارك حميدو شومة مع فتوات اللبان وكرموز والقطارين وباب سدره وغربال وغيرها من أحياء ما قبل منطقة الرمل. تلك أحياء يغيب عنها الفتوات بلا سبب مفهوم. ربما لأن معظم سكانها من الأجانب. ردّد الناس اسمه. نسبوا إليه أعمالاً خارقة، وأضافوا إليه من أخيلتهم ما لم يحدث. السؤال: من الذي ضربه حميدو شومة، يعني أن حميدو لا بد أن يضرب، وينتصر. من غير المتصور أنه يواجه الإيذاء — على أي نحو — من فتوات الأحياء. حتى لو حاصروه بالصدر، فإن صوته الهادر يجتذب مساعديه في لحظة عين. هو يضرب، ومساعدوه يتلقون الضربات.

قال: حين تطول وقفتي في ظل الموت، فإنني لا أخاف أي شيء، حتى الموت نفسه! أدواته — ومساعدوه — كثيرة: السيوف والشوم وقضبان الحديد والسنج والمطاوي والخناجر والشوم والسلاسل الحديدية.

لم يحاول القتل ولا فكّر فيه. وكان يحرص على ألا يترك الضرب أثراً من أي نوع. لا يشغله ردُّ الفعل، لكن تشغله نظرة الناس إليه. يعرف أين يوجه ضرباته، فلا تترك أثراً ظاهراً، أو دامياً، ويعرف متى تتوقف الضربات، فلا تبلغ حدّ القتل. استغاثت به امرأة في كوم كبير. ضربها بلطجيٍّ لأنها لم تدفع ما حدّده، ورمى بها خارج الحي. نصب الرجل نفسه فتوةً على الكوم، يفرض الحماية والإتاوة والسيطرة. يُحيط به صبياناه بالعصي والشوم والمطاوي والسيوف.

اخترق حميدو شوارع الحي الضيقة. أهمل النظرات التي تبيّنته، والتعليقات القلقة، والأسئلة. جذب البلطجي من جلسته في القهوة المطلة على شارع اللبان. جاوز البلطجي المفاجأة. ركل حميدو بأخر قوته. تراجع حميدو وهو يُعاني ألباً بين فحذيه. استعاد وقفته. تفادى لكمة بقبضة البلطجي، ثم فرد طوله، ووجّه إليه لكمة، حطّت على مقدمة رأسه. لمح الوهن في نظرتة، وشحوب وجهه. اندفع برأسه — التي يعرف قوتها — في بطنه، في منتصف البطن تماماً. رفع رأسه وصدره بما يُتيح له توجيه لكمتا متسارعة إلى وجهه. ثم هوى — بقبضته — على كتف الرجل. ترادف صراخ البلطجي مع كسر الترقوة، وتهدّل الذراع.

نسي حميدو — في اللحظة التالية — كلّ شيء. لم يُعدّ أمامه إلا أن يضرب، ويضرب. أدرك من نثار الدم في قبضته ووجه البلطجي، ومن السكون الذي ران على جسده، أنه قد هزمه تماماً، وربما قتله.

ألقي نظرة — تطفح غضباً — على الجسد الممدد، ومضى في اتجاه الخروج من الحي.

لما عادت المرأة إلى حميدو، دفع راحته في وجهها: احتفظي بنقودك!  
وخالط صوته إشفاقاً: أبلغيني إن تعرّضت ثانية للبلطجة.  
غالب تأثره وهو يتجه إلى داخل البيت: ربنا يتوب عليك!

لما اخترق رفاعي سعفان — وسط صبيانه — زحام شارع الميدان، قال حميدو شومة إن بحري أضيق من أن يتحمل فتوتين في وقت واحد. إما أن يُعلن رفاعي سعفان خضوعه، أو يُواجهه. لا مجال للتراضي، ومجاملة احتساء القهوة. عرف الأجر حدوده من رأس التين إلى الميناء الغربية، بينما الأنفوشي مجال حميدو.

هذا الثالث، أين يفرض فتوته؟  
بدت معركة ميدان أبي العباس أشدّ عنفاً مما توقّعه. عمّق السكون ارتطامات الشوم والعصي والصرخات والحشرجات واحتكاكات الخناجر والسنج. يعرف — بالاسم — أعوان رفاعي سعفان. تكاثروا، وغابت الملامح المحددة. ميّز بينهم أشخاصاً يلتقي بهم على المقاهي، وفي الأسواق، وداخل الدائرة الجمركية، والميناء، وحديقة رأس التين، وعلى شاطئ البحر، وفي القرقر، وحلقة السمك، والترام الدائري. ظلت المعركة من بعد صلاة العصر إلى موعد أذان المغرب.

أشدّ ما أحزنه أن الغلابة الذين دافع عنهم تركوه لأعدائه، أعدائهم. لم يحاولوا مناصرتة.

هل باعه الناس؟.

— هؤلاء الذين يبذل نفسه فدية عنهم، يخوض المعارك، يواجه الأذى ... لماذا لم يتعاركوا  
كما كان يتوقع — إلى جانبه؟

رائحة التآمر أبعدته عن مستشفى رأس التين. امتد الشك إلى الحاج جودة هلال. قد يُغريه التآمر، أو يقهره. تحامل على نفسه حتى بلغ بيته في شارع السيالة، وأغلق عليه. ظل في البيت أكثر من أسبوعين، يُعاني تأثيرات الضرب. خرجت اللعبة — لأول مرة — عن قاعدة لا تتبدل. الفتوة لا يُضرب، الأعوان يتلقون الضربات. لم يستطع لا هو ولا أعوانه ملاحقة الضربات. أحاطت بهم. لا يستطيعون إيقافها، ولا الرد عليها. الوجوه ليست لأعوان الفتوة رفاعي سعفان وحدهم، ولا لمخبري البكباشي حمدي درويش. يعرفهم جيدًا، وإن لم يُتِح له سرعة ما حدث، أن يُدقق في ملامح الصورة جيدًا. ابتعد — من يومها — عن كل ما يُثير المشكلات، وعن كل ما يُعرضه لتلقي الأسئلة. جاهد الشهوة والهوى. نفض يديه عن الناس. لا يخطرون في باله، ولا ينغى لهم همًا. إذا كانوا قد باعوه، فمن حقّه أن يُسقطهم من حياته، لا شأن له بهم، حتى لو أُلحوا بالاستغاثة.

شعر أنه قد أنصف نفسه، حين لزم بيته، وألقى هموم الناس وراء ظهره. لم تُعد تشغله هجمات فتوات الأحياء على بحري. أهل الحي يعتمدون في حياتهم على قوته الجسدية. كيف كانوا يتصرفون لو أنه لم يوجد بينهم؟ كيف يتصرفون لو أنه غاب عن حياتهم بالفعل؟

قال لنفسه: فعل الخير للناس هو دلق للماء في البحر!

طال استناده على خابور المرسى، المطل على البواخر والأفق. يُحملك في اختلاط مد الأمواج بزيت البواخر الضخمة، ومخلفات البلاستيك، والقواقع، والمحارات الميتة وقطع الأخشاب وبقايا الأطعمة، وحركة طوابق البواخر، وتنقل القوارب الصغيرة بين الرصيف والبواخر، والمداخل الهائلة، والسلالم الحديدية الضيقة، الموصلة بين طوابق الباخرة، حتى السطح، وسلالم الحبال المدلاة إلى العمال والباعة، والأوناش، والرافعات، والمولدات الكهربائية، وأبراج الإضاءة، والأوناش، وسيارات النقل، والشاحنات القلابة، والخلاطات. تأثر لدعوة عبد الله أبي رواش أن يركب البحر. يعمل في باخرة تنقل إلى كل الدنيا. الابتدائية وإتقانه الإنجليزية يُتيح له وظيفةً كتابية. حدّثه عن موانٍ ومدن وبلاد، لم يرّها، لكنه رسم لها — من خياله — ملامح وقسمات.



درس حميدو شومة الفكرة بنفيس أميل إلى الموافقة.  
فاجأه قولُ أبي رواش: بعض الرحلات قد تمتد ستة أشهر أو أكثر.  
هتف متسائلاً: لماذا؟ هل سأغزو العالم؟  
- ظروف العمل.

هل يستطيع الابتعاد عن بحري أشهرًا متواصلة؟!  
رفع كتفيه، ومضى إلى حيث اعتاد السير في شوارع بحري، والجلوس على المقاهي،  
والتردد على الدائرة الجمركية، والمشاركة في حفلات الزفاف والمولد، وفرض الإتاوات،  
ومكافآت الحماية الشخصية، والدخول في معارك تأكيد الذات مع فتوات الأحياء الأخرى.  
عاب عليه سيدي الأنفوشي - في رؤيا منامية - ضعف قلبه، وامتلاء نفسه بالظلمة،  
من كثرة المخالفات والأفعال الشريرة، وتلوُّثه بحب الدنيا، والتصرف فيها من منطلق  
الفتونة. حاد عن طريق السداد، وغلبت الرعونة في تصرفاته.  
نكَّره وليُّ الله بقول الرسول: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ، فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ. اتهمه  
بقبح السيرة، وظلم الناس، والاعتداء على حقوقهم، ومسايرة أهل الزيغ والأهواء والبدع  
والنَّحْل التي حَادَّتْ عن الإسلام.

قال بلهجة ذات معنَى: لا تطفو على سطح البحر إلا الأسماك الميتة!  
ثم وهو ينقل حبات المسبحة بين سبَّابته وإبهامه: إذا أردت أن تعود إلى الله، فاقتل  
نفسك!

لمح في وجه حميدو دلائل تحيُّر: أعني قتل نزعة الشر داخل نفسك!  
حذَّره وليُّ الله من أنه ليس على وجه الأرض من عمل أعظم عند الله - بعد الشرك  
- من سفك دم حرام.

قال ولي الله: الموت ليس شرًّا مطلقًا.  
أصاخ حميدو سمعه، فلا يفوته أيُّ جزء من كلام ولي الله: قد يكون الموت نهاية  
ظاهرة لحياة بلا معنى، لكنه ليس نهايةً حقيقية. إنه انتقال من حالة إلى حالة أخرى،  
الحالة الأولى مؤقتة، مهما يتقدم العمر، بينما الحالة الثانية دائمة، خالدة.  
أردف سيدي الأنفوشي في نبرة محرَّضة: ليس المهم كم السنوات التي نعيشها. المهم  
أن نعيشها!

أخذ وليُّ الله العهدَ على حميدو شومة ألا يعود لمثل ما كان يفعله.  
انجاب عن عيني حميدو حجاب الحس، وغواشي النفس. أيقن أن الله عين على كل  
شيء، لا تفوته خافية، ولا شاردة، ولا واردة.

تاب إلى الله. أعرض عن الدنيا بالكلية، وزهد في الناس، واستعد للحظات الوداع. تدارك ما فرط من تقصير في فرائض الله. حرص على الفرائض، لا يُضيعها، وحرّم على نفسه ما حرّمه الله، لا ينتهكه، وسكت عما يجب السكوت عنه، فلا يواجه — إذا سأل — بما يسوءه.

سأل الشيخ جميل أبو نار إمام جامع أبي العباس أن يجد له رخصة ليصلي في البيت.

قال الشيخ: هل يصلك الأذان؟

— نعم.

— صلّ في الجامع إذن!

ألّف الأذان للصلاة في مواقيتها، يؤديها — بمفرده — داخل بيته، أو جماعةً في مسجد المسيري القريب.

لم يبقَ عليه فريضة ولا مظلمة. قامت حياته على الصوم والصلاة والذكر والتلاوة والدعاء والاستغفار والتضرع والبكاء. طمع في ثواب الجنة، وخاف من عذاب النار. تُضاء الدنيا بأشعة الشمس، وتُضاء الجنة بحسن أهلها.

قال له الأنفوشي في رؤيا المنام: لن يُفيدَ الناسَ بكأوك ... اُفعل من أُجلهم شيئاً! أمره وليُّ الله بالخروج إلى منفعة الناس، لا ينكفى على نفسه، ولا يعتزل. حدّره من أن يمرّ على مظلوم، دون أن ينصره، ويدافع عنه. الفتوة الحقيقي هو الذي يتحمل المكاره، يترفع عن الصغائر، يتغلّب على شهوات الغضب والانتقام.

أطال الجلوس إلى الشيخ عبد الستار، يُنصت إلى عظاته ونصائحه: قد يبذل المرء نفسه فدية عن الجماعة. تحمّل الرسول أذى قريش، رموه بالأوساخ والشتائم والإيذاء، ظل على سعيه لنشر دين الله. تعدّدت التحذيرات للحسين بأن يظلّ في مكة، لا يرحل عنها إلى الكوفة، بوعد مناصرته ضد يزيد بن معاوية. قال له عبد الله بن العباس: إنك تأتي قوماً قتلوا أبك، وطعنوا أخاك، وما أراهم إلا خاذليك. وقال له الفرزدق: قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء. وقال له بعض أصحابه: نناشدك الله إلا رجعت من مكانك، فإنك ليس لك بالكوفة ناصر.

قال الحسين لمن حذروه: أعرف أنهم سيقتلونني. إذا كان دين الله لن يستقيم إلا بقتلي، فيا سيوف خذيني.

كان الحسين يمتلك اليقين. وكان أعوانه الاثنان والسبعون يمتلكون اليقين نفسه، بأن المعركة التي اتجهوا إليها صباح العاشر من محرم، ستنتهي باستشهادهم، لكن

الدافع لم يكن مجرد الرغبة في الاستشهاد، في الموت. كان الدافع هو التعبير عن رفض القهر والظلم، حتى لو كان المقابل لذلك هو الموت. سقط كلُّ جند الحسين شهداء، فظل يواصل القتال بمفرده. حمل على جند الكوفة حتى شقَّ صفوفهم بجرأة مذهلة، ثم سقط بضربة سيف في العنق. وأمر عبيد الله بن زياد، فمُتلَّ بجسد الحسين، وترك جثمانه للجوارح. أما الرأس، فقد دُفن — فيما بعد — في كربلاء، وإن ظلت أعداد كبيرة من المصريين تؤمن بأن رأس الإمام الشهيد مدفون في جامعته بالقاهرة. في مقدمة النتائج الإيجابية لفاجعة كربلاء، ولعلها أخطر نتائجها، أنها دخلت الضمير الإسلامي، وهزته هزاً عنيفاً. حرَّكت في النفوس ما كان خامداً، وما ران عليها من استكانة إلى الواقع الذي فرضه الأمويون. تمازج الإعجاب بالوقففة الأسطورية لسبعين مقاتلاً ضد سبعين ألفاً، بالحرص على الشهادة رغم يسر النجاة، بإلقاء السؤال الأهم: ماذا بعد؟ بحساب الذات عن التقاعس والتواكل، بإعادة النظر إلى ما سبق، وما يجري حالاً، والتفكير في ضرورة التغيير. فاجعة كربلاء — رغم بشاعتها — كانت ثورةً كاملة. أحدثت التأثير الذي تُحدثه الثورات في تحريك النفوس، وإلحاحها على التغيير، حتى يتحقق المجتمع الأفضل. تعددت ثورات التوابين، همُّها تفريغ ما استشعره الحسينيون من الندم والحقد، في حركات ثورة متتالية ضد الحكم الأموي. ثم فيما تلا ذلك من السلطة المستبدة، أيّاً تكن صورتها ومظاهرها.

قال الشيخ عبد الستار: أنت تحيا مع الناس في البلانسات والحلقة والجوامع والميادين والمقاهي والشوارع والأسواق والقعدات الخاصة، تشاهد وتتعرف وتناقش، وتصل إلى أجوبة لما يشغلك من أسئلة. لا تترك هذه الأجوبة كالعنقاء، أو كالفزورة التي تستعصي على الحل، أو اللغز الذي بلا حل.

وقال الشيخ: لا معنى لأن تعجب بتضحيات الآخرين، دفاعاً عن أنفسهم. المعنى الحقيقي في دفاعك عن نفسك، وعن الآخرين — حتى لو أقدمت على الفعل وفي خاطر ما كان في خاطر من سبقوك، ونالوا جزاء سلبياً — أن تهب المعنى للتضحية الإنسانية. وتبدلت نبرة صوته: أظن أني في غير حاجة لأن أذكرك بأن من سبقوك، جعلوا في خاطرهم خشية الله، فلم يقدموا على الضربة الأولى، ولا بدعوا بالهجوم. جعلوا الإقناع اللفظي وسيلتهم لاجتذاب الناس، وتحريكهم — بالكلام — للدفاع عما يعرفون أنه حق لهم. لم يصوبوا أسلحتهم إلا لمن بادر بالهجوم!

اخترق حميدو شومة شوارع بحري، في ذهنه ما استمع إليه من الشيخ عبد الستار. أصاخ السمع، وسأل، وناقش، واستعاد ما غاب عن فهمه من العبارات. لخص ما استمع إليه في أنه يجب ألا يُهمل استغاثات الناس.

ندم على تخلفه عن نصره بائع المانيقاتورة مرتضى الجيلاني. استغاث به من إتاوات بطة الهن فتوة كرموز، فهي تخنقه. اكتفي بالإنصات، وعاد إلى ما كان يعيشه من رؤى ترضيه.

سمت أخلاقه وسلوكياته، ورق قلبه، وعلت همته. عني بمرضاة من نالهم بالسوء: ظلمهم في المعاملة، أخذ أموالهم، أساء إليهم بالشتم والتخويف والتعدي. انقلب خُلقه من الشدة إلى اللين، ومن الضيق إلى السعة، ومن المناكفة إلى السماحة. تعف عن شهوات البدن، وعن التصرف في أمور الدنيا. وسع كفه بالسخاء والإيثار والعطاء. صار ينظر إلى الناس بعين الرأفة والرحمة والشفقة.

مال إلى مجالسة الفقراء، وذوي الحاجات، ومواساتهم، والعطف عليهم، ومداعتهم. يمشي إلى المتصوفة والدراويش والمجاذيب حول جامع أبي العباس، وفي الدحديرة الخلفية، والميدان، والشوارع المتفرعة، يحمل إليهم الطعام، ويأكل معهم. ويجالسهم، ويطمئن على أحوالهم، ويسألهم الدعاء.

جعل لنجم أبي العيش مبلغاً شهرياً، يُعينه على الحياة بلا عمل. اعتبره درويشاً له بركاته.

أوكل إلى نفسه تفقد أحوال الناس، والتعب لهم في حوائجهم، وإغاثة الملهوفين والضعفاء، وإعانة المظلومين، ومداواة أوجاع اليتامى والأيامى والمحزونين، وجمع الزكوات للفقراء، وتفريقها عليهم، ومعداة الفساق والمفترين بما يتصورونه في أنفسهم من قوة، ورد الاعتداءات.

عُرف عنه سرعة التلبية لدعوات الناس. يُواجه أذى التآمر والشتم ومحاولات الضرب. يبذل نفسه عن طيب خاطر. لا يابه بردود الأفعال. يشعر أنه يتخفف مما ارتكب من ذنوب، يغتسل منها، كلما أغات ملهوفاً، وخاطر من أجله بحياته.

تلبسه ما يُشبه اليقين أنه قد صار أداة، يقضي الله — بواسطتها — عدالته. ينتصر للمحتاج والضعيف والمظلوم. هو لا يقل — بتصرفاته — عن أئمة مساجد الحي، بعظاتهم التي تقتصر على الكلمات.

هز رأسه في استجابة لشكوى الناس من صبيّه عويس شلبي. مال إلى البلطجة وأذية الناس، بعد أن هجر حميدو الفتونة.

دله الناس على موضع انفراده بنفسه بالقرب من القزق.

ألقي عليه حميدو شبكّة طراحة، لَفَّه بها تمامًا، وقَيَّده. واصل ركّله بقدمه. التصقّت به الرمال. تحوّل إلى ما يُشبه الكرة الهائلة، عَلِقَتْ بها مخلّفات الشاطئ. ظل يركله بقدمه، وصراخ عويس يشحب في داخل الكرة.  
فك حميدو وثاقه، قبل أن يلفظ آخر أنفاسه.  
تركه، واستدار بعيدًا عن الشاطئ.

قال له أبو حلوة في لهجة محذرة: لا تكن مثل ملائكة الجحيم الذين يعكسون تأثيرات ما يعانون، على مَنْ يتولّون عقابهم!  
أبطل — دون أن يلجأ إلى الأذى — ظاهرة قطع الطريق على مَنْ يدخل أحياء الفتوات. يدفع الإتاوة، فيأذنون له بالدخول، أو يعود، أو يواجه ما لا قبل له على رده.  
استقر في ذاكرة الناس ما فعله حميدو شومة مع فتيحة يوسف فتوة القباري. كان فتيحة قد سدّ الطريق — بقطع حجارة وأخشاب — إلى المكس من بداية القباري. ليس إعدادًا لمعركة، وإنما للحصول على إتاوات من عابري الطريق. مَنْ يرفض دفع الإتاوة واجه الضرب بالهراوات، وسلب ما على جسده.

روى أبو المعاطي عنبة أنه شاهد صبيان متولي طبنجات فتوة البياصة، يحملون رجلًا إلى داخل مقابر العامود، ويعودون، وفي أعينهم نظرات تَثِي بقسوة ما فعلوه.  
لم يكد حميدو يقترب — بمفرده — من حواجز الرمال والأخشاب والطوب، حتى أسرع الكراديسي بالاختفاء، يتبعه صبيانه. وأعاد حميدو حركة المرور إلى ما كانت عليه.  
قُدّر لسيدي الأنفوشي إقناع حميدو شومة بالإقلاع عن الفتونة، والتوبة من أفعالها. توسل شفاعته عند الله ليمحو خطاياهم، ويرفع به الدرجات. جعل باسم ولي الله نذرًا، يورّع — بعد صلاة كل جمعة — على النساء المتردات على ضريح الأنفوشي، في قلعة قايتباي. تعلق دعواتهن لصاحب الضريح بما يرضيه هو، ويسعده.  
صار سيدي الأنفوشي موضع سرّه. يجلس — في أوقات متقاربة — إلى جانب الضريح. يظل ساكنًا حتى يخلو المكان. يُفضي لولي الله عما بنفسه، يحكي، ويسأل، ويطلب المشورة. يترك لقدام الأيام ما يرجوه من الإشارة والإيماء والمعنى.  
ظل هذا تصرفه، حتى أدركه الأجل.

انظر: الأبحر، الأنفوشي، جودة هلال، حمدي درويش، رافع بدير، عبد الستار، عبد الله أبو رواش، عمران الخولي، نجم أبو العيش، نعمات.



## الخضر

الخضر.

حاولت أن أُعيد بناء حياته من الروايات الشفاهية، والمكتوبة. من الصعب أن أرسم ملامح شخصية خُلِّفت وراءها حكايات أقرب إلى الأساطير. أضاف رُواة بعض التفاصيل والشروح. فعل آخرون العكس. اخترع رُواة ما يلغيه العقل، ويصعب تصوُّر حدوثه. وتعرجت روايات واختلطت كما في حكايات ألف ليلة وليلة. ثمة روايات ترقى به إلى مرتبة عليا، وأنه آخر الملهمين. أعداد المؤمنين بأفكاره يتزايدون، فهم بلا حصر، والمنشدون والرواة يقصُّون عن أفعاله ما تضيق به المجلدات. وثمة روايات تجد فيه رجلاً صالحاً.

سيرة سيدي الخضر الذي تَلَقَّبَ باسم إمام الفقراء، تناثرت في عشرات الكتب والمجلدات والأوراق، والأحاديث المروية المتناثرة في مجالس العلم والسمر. ملأ حياة الناس منذ قرءوا حكايته مع نبي الله موسى، وتكرَّر سماعهم للحكاية — قبل صلاة كل جمعة — في سورة الكهف. تتراوح التقديرات بين ما إذا كان قد أقدم على ما يدعو إلى التقدير، أو يُثير التأمل، أو يستفز السخط. لا يدَّعي أحد أنه لم يخضع لتأثيره على أي نحو. أنا لا أنتمي إلى الفترات نفسها التي عاش فيها الرواة، لم أرَ بعض ما رأوا، ولا عشتُ الوقائع التي تناولوها بالإيجاز، أو بالتفصيل، لكنني أهملت كل الروايات، لا تشغلني إلا سيرة الخضر.

سألت، وناقشت، وتأمّلت، وتفحصت، واستكشفت. ترددت على المجالس والخلوات، وقرأت التراجم والسير والمذكرات والذكريات والوثائق والمخطوطات. رجعت إلى المتون والحواشي والشروح والتفاسير والتعليقات والاختصارات. دقت في كل جملة، وكلمة، وحرف.

أول انتباهي لمن رأوا رؤية العين من الأولياء والصالحين والتابعين، ثم من أُتيح لهم السماع والنقل عن الآخرين. لم أغادر امرأً لديه ما يقوله حتى استخلصتُ منه كل ما يجب معرفته.

ذكر الرواة ما حدث، كما حدث بالفعل. شدت عليهم، استحلفتهم بالأيمان المغلظة، فلم يُضيفوا، ولم يحذفوا. رَووا الوقائع بتفصيلاتها. من ناحيته، فقد أهملتُ الأقوال الموضوعية، أو التي يشك في كذبها، أو الملفقة.

تجاوزتُ ما ذكره الرواة في الأحاديث الشفاهية. حاولت أن أُفيد من الرسائل وكتب السير والتراجم، وكتب التاريخ والدين، أتعرف على الوسائل التي أعرض — من خلالها — لشخصية مهمة.

فضّل بعضُ الرواة أن يسجل ما عنده من روايات. يكتب في أوراق، أجهدتني قراءتها. الخطوط المتشابكة، والمتقاطعة، والمستقيمة، والأسهم، والمربعات، والدوائر، وخطوط الطلاسم، وما يُشبه الأحجية، وملاحظات الهوامش.

عكفتُ مئات الساعات بين الأوراق والمخطوطات والكتب التي تكرر نسخها، أو لم تُنسخ. لم يقطع اتصال الوقت سوى الحاجة إلى الراحة، والمرض الذي يحلُّ ضيفاً على الجسد، فلا يملك رده، في المكتبات العامة والأقبية والدهاليز والمكتبات الخاصة.

جمعت الأخبار قديمها وحديثها. كل ما يتصل بشخصية الخضر. نقحت، وأعدت الكتابة. حاولت أن أربط بين المقدمات والنتائج، الأسباب والأحكام. أهملت ما بدا أنه روي عن خيال، تدخلت في تعدد الروايات بالغرابة والاختيار، غربت كل ما قيل باتفاقه واختلافه، وإن حرصت على ما أرفق به أصحابه من الأدلة التي تؤكد حدوثة.

سجلت ما ذكره الرواة بنصّه، دون زيادة أو نقص، إضافة أو حذف، تغيير الوقائع بما يُنكر حقيقة ما حدث.

لم أترك مسئولية الروايات على الذين ذكروها، ولا تركها على تناقضها، وإن نقلت ما اطمأنتت إليه، وأسقطت ما أملاه الغلُّ، أو الذي يبين عن هوى في نفس راويه. فرقت بين ما يصدقه العقل، وما يرفضه.

أحبُّ أهل بحري سيرة الخضر لأنه ركب البحر، وأمضى معظم حياته فيه. كان الأقطاب يسخرُّون السمك في نقل كتبهم، كما الحمام الزاجل في نقل الرسائل، بإذن من سيدي الخضر، وارتكازاً إلى قدرته المسيطرة على مخلوقات البحر.



للخضر مكانته. هو صاحب مقام رفيع، بصرف النظر عن درجة قربه من العرش الإلهي، وهو شيخ الصوفية الأكبر. لا يجتمع بشخص إلا إذا اجتمعت فيه ثلاث خصال: أن يكون العبد على سننه في سائر أحواله، وأن يكون غير حريص على الدنيا، وأن يكون سليم الصدر لأهل الإسلام، لا غلَّ ولا غش ولا حسد. مَنْ حَقَّتْ له قدم الولاية المحمدية. إذا رأى ولياً اعتكف بعلمه عن الناس، قال له: اخرج إلى الناس، وانفهم.

دوره مستمر منذ البداية، وينتهي في اللانهاية. هو — في تأكيد الروايات الموروثة — حيٌّ، يصليُّ في بيت المقدس كل يوم. يدعو — مثل كل المؤمنين المخلصين — أن يعود البيت إلى أمة الإسلام. يصوم شهر رمضان من أوله إلى آخره، في بيت المقدس، ويحج ويعتمر كل عام، ويشرب من ماء زمزم شربةً تكفيه إلى السنة التالية.

أحب أماكن الزيارة إليه جوامع أولياء الله بحي بحري، وأضرحتهم، ومقاماتهم. الأولياء الذين يصطفاهم الله بعطفه، وواسع رحمته ورضوانه، هم مَنْ يملكون ما يملكه الخضر من الكرامات، والاطلاع على الغيوب، وتحقيق المعجزات.

بحري هو أنسب المواضع لاحتضان ولي الله. عائلة خضر من الإسكندرية، جدُّها من محاسيب سيدي الخضر.

يجول في بحري بمفرده، وإن لا يكاد يفترق عن النبي إلياس بعيداً عن بحري. الخضر هو البحري، على منبر من نور في البحر، وإلياس هو البري. تربط روايات كثيرة بين الخضر وإلياس، فهما لا يكادان يفترقان. قيل إن الخضر هو إلياس، وإن إلياس هو الخضر، وإن الخضر هو قطب الأقطاب.

استمرت صحبة النبي موسى للخضر ثلاث وقائع، افترقا بعدها. صحبة إلياس للخضر تستمر إلى قيام الساعة. يصومان رمضان في بيت المقدس، ويحجان في كل سنة، ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة، تكفيهما إلى مثلها في السنة القادمة. قال عمرو بن دينار: إن الخضر وإلياس لا يزالان يحييان في الأرض، فإذا رُفِعَ القرآن ماتا.

ربما قطع الخضر شوارع بحري وأسواقه وأزقته، ومضى على شاطئ البحر، وحيثاً، لا يراه أحد، وإن شعر به ذوو النفوس الطيبة. يبادرونه بالسلام، أو يردون عليه السلام. يأتي إلى الأقطاب في اليقظة، وإلى المريدين في المنام. الأقطاب وحدهم هم الأهل لرؤيته، والتلقي عنه. الأحاديث تمتد، فتشمل الحياة والموت والإيمان ومنكر ونكير والبعث والخلق ونهاية البشرية والصراط والجنة والنار.

المؤمنون يقيناً يعرفون أن الخضر يكون حاضراً، رغم أنه لا يظهر للناس، وأنه سيظل حياً، لا يموت إلا عند قيام الساعة.

قال الشيخ عبد الستار إن رؤية سيدنا الخضر في المنام بشير بدخول الجنة. وأكد الشيخ إبراهيم سيد أحمد أنه قد رأى الخضر رؤية العين، ورأى أولياء الله يحضرون مجلسه في ساحة قلعة قايتباي، وفي حضرة ضريح السلطان. أفاد سيدي الخضر أهل بحري بترده على الحي. لا يقتصر على مجالسة أولياء الله، إنما يجول في الحي، يرى الناس دون أن تُتاح لهم رؤيته. يشاهد، يتأمل، يتشفع لدن رب العالمين.

رُوي أنه تحدّث — بمكانته — إلى مخلوقات البحر. ساقط ملايين الأسماك إلى داخل البوغاز، صيدًا متاحًا للجرافة والطراحة والسنارة. أحب مجالسه إلى الناس العاديين قهوة الزردوني. مقصد الصيادين وراكبي البحر. هم أحبّاءه الذين يُطيل مجالستهم، وإن لم يره إلا من خصه الله بقدرة على المكاشفة. يُنصت إلى الحكايات وما يعانیه أهل البر في ركوب الموج. يتشفع لهم عند الذات الإلهية، فيتبدّل من أحوال عسرهم يسرًا.

تشفع عند ربه، فأعاد مخلوقات البحر قارب صيد اختطفته بركابه، بالقرب من البرلس. خاطب سيدي الشاذلي، فظهر للفتوة الأبحر في نومه. وبّخه، ودفعه إلى تبديل حياته، والسير في طريق الخير، خاطب سيدي الأنفوشي، فظهر للفتوة حميدو شومة في نومه، ودلّه على ما يجب فعله. أعاد وقف عائلة خضر إلى أصحابه. ساءه أن يسرق الناظر وقفًا باسم الخضر، اسم ولي الله. صرف أعين الساعين للشر عن ضياء خير الله، فهي لا تُبصر لوأده بمقام المرسي أبي العباس. أتاح لضربات ابن خطاب على الجدران أن تقوضه، فيخرج إلى النور. صنع ما أعاد بدوي الحريري إلى أم أبنائه. رعى سعيد العدوي في لحظات احتضاره. زرع جنود الإنجليز في طريق اغتيالات جميل الخضراوي. انحرف بالرصاصة التي أطلقت من نافذة قصر رأس التين. لو أنها أصابت مقتلاً، ربما دارت معركة دامية.

عُرف عنه أنه يستجيب للطلبات، يقضي الحاجات، يحلّ المشكلات، يفصل بين المتقاضين، يُصلح بين المتخالفين، يهب وساطته بين الأزواج المتخاصمين، يفك المربوط، ييسّر لقمة العيش لمن يصعب حصولهم عليها.

لم يبخل — فيما يُشبه الإلهام — بنصيحة، أو موعظة، أو كلمات تدل على الطريق الصحيحة. لا يعلو الصوت، أو يهمس، لكنه يداخل النفس، فيتبدل المؤلف. ضبط الأمور.

لم يأذن للشر أن يجاوز مكمنه، ولا أن يمارس سطوته في ميادين بحري وشوارعه وبيوته وخلائه ومقاهيه.

لماذا يحضر الخضر هذه المواطن كلها، دون أن يراه أحد؟

الأصل — في قول ابن كثير — عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهّمات. ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء، وظهوره أعظم لأجره، وأعلى في مرتبته، وأظهر لمعجزته، ثم لو كان باقياً بعده، لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة، والروايات المقلوبة، والآراء البدعية، والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم، وشهوده جمعهم وجماعاتهم، ونفعه وإياهم، ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم، وتسديده العلماء والحكام، وتقديره الأدلة والأحكام، أفضل مما يقال عنه من كونه في الأمصار، وجوبه الفياقي والأقطار، واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم.

جاء في «معجم مصطلحات الصوفية»، في مادة خضر: الخضر يعبر به عن البسطاء، فإن قواه المزاجية مبسّطة إلى عالم الشهادة والغيب، وكذلك قواه الروحية.

تعددت الروايات حول الخضر: هل هو نبي، أو رسول، أو من الصديقين، أو هو عبد صالح أخلص في عبادة الله؟

قيل إنه إيليا بن ملكان بن فالخ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقيل إنه إيليا بن عاميل بن شمالخين إرما بن علقما بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم. وقيل اسمه إرميا بن حلقا من سبط هارون. وسماه الرسول ﷺ بلياً بن ملكان. وقيل: كان من بني إسرائيل. وقيل: كان من أبناء الملوك، يسمّى العبد الصالح، وكنيته أبو العباس. وقال الماوردي إن الخضر ملك من الملائكة، يتصور في صورة آدميين. وقال السهيلي: كان أبوه ملكاً، وأمّه اسمها الهاء، ولدته في مغارة، ظلت شاة من غنم رجل في القرية تُرضعه كل يوم، وعندما وجده الرجل عُني بتربيته. وذات يوم، طلب الملك كاتباً. تقدّم إلى الوظيفة كثيرون، من بينهم ابنه الخضر. أُعجب الملك بخط الخضر. سأله عن أصله، فعرف أنه ابنه. ضمّه إلى نفسه، وولّاه أمر الناس. ترك الخضر مُلكه زاهداً، وساح في البلدان، حتى وجد عين الحياة. هي العين التي أخفق الإسكندر في الشرب منها. موضعها في مجمع

البحرين، مَنْ يشرب منها لا يموت، وَمَنْ سبَح فيها أكل من كبد البهמות، حوت في البحر، على ظهره يقف البرهموت، ثور يحمل الأرض على قرنَيْه. شرب الخضر من العين، وكُتِب له العمر الطويل، حتى يظهر الدجال — ذات يوم — ويقتله، ثم يُحييه الله سبحانه.

قال الثعلبي في كتاب «العرائس»: «والخضر — على جميع الأقوال — نبيٌّ معمر محجوب عن الأبصار». وفي «الإصابة» لابن حجر: «ومما يستدل به على نبوة الخضر، ما قاله عبد بن حميد، نقلًا عن الربيع بن أنس: «قال موسى لما لقي الخضر: السلام عليك يا خضر. فقال: وعليك السلام يا موسى. قال: وما يدريك أنى موسى؟ قال: أدراني بك الذي أدراك بي.»» وقيل إن الخضر هو العبد الصالح، وهو مؤمن آل فرعون. ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

وفي رواية، إن الخضر وُلد في فارس. كان أبوه ملكًا وأمه فارسية، اسمها الهاء. ولدته أمه في مغارة، وأرضعته شاة كانت ترعى. ربَّاه رجل غير أبيه. ولما التقى بأبيه فرَّ منه، حتى وجد عين الحياة، فشرب منها. قيل إنه ابن آدم لصلبه، أذن لحياته أن تمتدَّ حتى يقتل الدجال. وقيل إنه ابن قابيل واسمه خضرون، وهو ابن نوح، ومن ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وابن إرميا بن خلقيا، وابن فرعون، أو ابن بنت فرعون، ومن سبط هارون، وهو المعمر بن مالك بن عبد الله بن الأزد، وهو اليسع.

أما تسمية الخضر، فقد تعددت فيها الروايات: هل لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز تحته خضراء؟ هل لأنه كان إن صلي، اخضر ما حوله؟ هل لأنه يظهر في زيٍّ أخضر؟ هل لحسنه وإشراق وجهه؟ هل لأسباب أخرى يعلمها الله؟

قال الحافظ ابن عساكر: يقال إنه الخضر ابن آدم عليه السلام لصلبه. وعن ابن عباس قال: الخضر ابن آدم لصلبه، ونُطيل له في أجله حتى يكذب الدجال. وقيل: إن أطول بني آدم عمرًا الخضر، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم. وذكر ابن إسحاق: أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة، أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس، وأوصاهم — إذا كان ذلك — أن يحملوا جسده معهم. فلما هبطوا إلى الأرض، أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه، فيدفنوه حيث أوصى. فقالوا إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة، فحرَّضهم وحثَّهم على ذلك. وقال إن آدم دعا لمن يلي دفنه بطول العمر، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه، وأنجز الله ما وعده، فهو يحيا إلى ما شاء الله له أن يحيا.

ثمة روايات أن حياته ممتدة منذ آدم إلى قيام الساعة.  
في رواية ابن إسحاق أن آدم — لما حضره الموت — جمع بنيه. قال: إن الله منزل على أهل الأرض عذاباً، فليكن جسدي معكم في المغارة حتى تدفنوني بأرض الشام.  
وفي رواية ثانية، أنه حين جاء الطوفان، قال نوح لبنيه: دعا الله آدم أن يُطيل عمر الذي يدفنه إلى يوم القيامة، فلم يزل جسد آدم حتى كان الخضر هو الذي دفنه، وأنجز الله ما وعده، فهو يحيا إلى ما شاء الله أن يحيا. أعطى الحياة من أيام إبراهيم الخليل حتى يوم النشور. يبعث في زمرة أمة محمد. هو حيٌّ حتى يظهر الدجال، حيث يقتله، ثم يُحييه.

وقال أبو العباس: «وأما الخضر — عليه السلام — فهو حيٌّ، وقد صافحته بكفِّي هذه، وأخبرني أن كل من قال — كل صباح — اللهم اغفر لأمة محمد ﷺ، اللهم تجاوز عن أمة محمد ﷺ، اللهم اجعلنا من أمة محمد ﷺ، صار من الأبدال.»  
عرض بعض الفقهاء ذلك على أبي الحسن الشاذلي، فقال: صدق أبو العباس. لم يتحدث الشاذلي عن الجلسات التي تجمعها — إلى زماننا الحالي — بسيدي الخضر، وبأولياء الله الصالحين، بالقرب من ضريح أبي العباس، وداخل قلعة قايتباي، وفي أراضي خلاء مستورة عن أعين الفضوليين.

كان الخضر قد دخل على أبي العباس، وعرفه بنفسه. اكتسب منه أبو العباس معرفة أرواح المؤمنين بالغيب: هل هي معذبة أو منعمة؟  
قال أبو العباس: فلو جاءني الآن ألف فقيه يجادلونني في ذلك، ويقولون بموت الخضر، ما رجعت إليهم!

وروي أن ذا القرنين طلب من ملك صديق أن يدلّه على شيء يطول به عمره. قال الملك: إن الله عيناً تسمى عين الحياة، من شرب منها شربة لم يمت أبداً، حتى يكون هو الذي يسأل ربه الموت.

قال ذو القرنين: هل تعلم موضعها؟  
— لا، غير أننا نتحدث في السماء أن الله ظلمة في الأرض لم يطأها إنس ولا جان، فنحن نظن أن تلك العين في تلك الظلمة.

جمع ذو القرنين علماء الأرض. سألهم عن عين الحياة.  
قالوا: لا نعرفها.

قال: هل وجدتم في علمكم أن الله ظلمة؟  
قال عالم منهم: لم تسأل عن هذا؟

قال ذو القرنين: إني قرأت في وصية آدم ذكر هذه الظلمة، وإنها عند قرن الشمس. تجهّز ذو القرنين، وسار اثنتي عشرة سنة، حتى بلغ طرف الظلمة. لم تكن بليل، وتفور مثل الدخان.

جمع ذو القرنين عساكره وقال: إني أريد أن أسلكها، فمنعوه. سأله العلماء الذين معه أن يكفّ عن ذلك كي لا يسخط الله عليهم... لكنّ ذا القرنين أصرّ على ما أراد. انتخب من جنده ستة آلاف رجل على ستة آلاف فرس أنثى بكر، وعقد للخضر على مقدمته في ألفي رجل.

سار الخضر بين يدي ذي القرنين الذي كتّمه ما يطلب، وكان هو يعرف ما يطلب الرجل. وظهر وادٍ، أدرك الخضر أن العين فيه. واصل السير حتى وقف على حافة عين من ماء أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من الشهد. نزع ثيابه، وشرب من العين، وتوضأ، واغتسل ثم خرج فارتدى ثيابه، وواصل السير. أما ذو القرنين، فقد أخطأ الظلمة.

ثمة رواية أن الخضر كان وزير الإسكندر — سمّي ذا القرنين — وأنه وقف معه على جبل الهند، فرأى ورقة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم. من آدم أبي البشر إلى ذريته: أوصيكم بتقوى الله، وأحذركم كيد عدوي وكيد إبليس، فإنه أنزلني هنا، فقال: فنزل ذو القرنين، فمسح جلوس آدم. وكان مائة وثلاثين ميلاً.

ثمة رواية أن ذا القرنين بدأ رحلة، سار فيها اثنتي عشرة ساعة، حتى بلغ حدّ الظلمة. هي ليست بليل، وتفور مثل الدخان. جمع جنده، وقال: إني أريد أن أسلكها.

طلب منه العلماء الذين كانوا معه، أن يكفّ عن ذلك، فلا يسخط الله عليهم. أبقى، واختار من جنده ستة آلاف رجل، على ستة آلاف فرس أنثى بكر، وعقد للخضر على مقدمته في ألفي رجل.

سار الخضر بين يديه، وقد أدرك ما يخفيه ذو القرنين. وفي أثناء سيره، طالعّه وادٍ، فظن أن العين فيه. ولما اقترب من أوله، استوقفه أصحابه. ومضى، فإذا هو على حافة عين ماء. نزع ثيابه، واقترب.

كان الماء أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من الشهد. شرب، وتوضأ، واغتسل. ثم خرج، وارتدى ثيابه، وتوجّه، ومرّ ذو القرنين، فأخطأ الظلمة.

ما عين الحياة التي سافر الإسكندر إليها ليشرب من مائها؟.

حدد الجيلي موقعها بأنه في جانب المغرب عند البلد المسمّى بالأزليل المغرب، فمن خاصية هذا البحر المعين الذي خلقه الله في مجمع البحرين، أن مَنْ شرب منه لا يموت، ومن سبّح فيه، أكل من كبد البهמות. البهמות حوت في البحر الهائج، جعله الله الحامل للدنيا وما فيها، فإن الله تعالى لما بسط الأرض، جعلها على قرنيّ ثور يسمّى البرهوت، وجعل الثور على ظهر حوت في هذا البحر يسمّى البهמות، وهو الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله: ﴿وَمَا تَحْتِ الثُّرَى﴾.

الرحلة الثانية إلى مشرق الأرض. سار والخضر يريدان مطلع الشمس. عبراً أرض الجزيرة والعراق وفارس ونهاوند، حتى دخلا أرض يأجوج ومأجوج. بلغا جزائر الأرض التي تزورُ عنها الشمس حين طلوعها. هل هي خور فكان؟ ثم سارا حتى أطراف جزر المحيط. ركب الإسكندر البحر المحيط. كانت الطير تصنع — فوق رأسه — مظلة تحميه من الشمس. سار فيه زمناً حتى لفته الظلمة. ثم طالعه أرض بيضاء كالتلج، ضوءها شديد، يكاد يخطف الأبصار. لم يكد يمضي — وجنوده وخيله — خطوات حتى ساخت الأجساد إلى الصدور. ترك جنوده، ومضى وحده حتى بلغ نهاية العالم الأرضي. بدت الحواجز مانعاً دون أن يصعد إلى عالم السماء. تيقن أنه في أرض الملائكة. ظهر له الملك إسرافيل. أعطاه عنقود العنب، وجرى ما تيقن به ذو القرنين من أنه لن يُفْلح — للمرة الثانية — في أن يجتاز عتبة الخلود.

لم يهتد الإسكندر إلى الخضر إلاّ لأن قلبه رُسم عليه خاتم الأسرار والنبوءات. كانت مهمة الخضر هي البحث عن ماء الحياة، وأصبح الخضر خالداً، بعد أن شرب من عين الحياة.

قال الدميري إن الحكمة في جمع موسى مع الخضر عليهما السلام، بمجمع البحرين، أنهما بحران في العلم، أحدهما أعلم بالظاهر، أي علم الشرع، وهو موسى، والآخر أعلم بالباطن، أي علم الحقيقة وأسرار الملكوت، وهو الخضر، فكان اجتماع الخضر وموسى بمجمع البحرين، فحصلت المناسبة.

قال رسول الله — ذات يوم — لأصحابه: ألا أُحدّثكم عن الخضر؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل، أبصره رجل مكاتب، فقال: تصدّق عليّ بارك الله فيك. فقال الخضر: أمنت بالله، ما شاء الله من أمر يكون، ما عندي

من شيء أعطيه. فقال المسكين: أسألك بوجه الله لما تصدقت عليّ، فإني نظرت إلى السماء في وجهك، ورجوت البركة عندك. فقال الخضر: آمنت بالله ما عندي شيء أعطيكه، إلا أن تأخذني فتبعيني. فقال المسكين: وهل يستقيم هذا؟ قال: نعم، الحق أقول لك لقد سألتني بأمر عظيم، أما إني لا أخبك بوجه ربي، يعني.

قال: فقَدَّمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم، فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء، فقال له: إنك إنما ابتعتني التماسَ خير، فأوصني بعمل. قال: لأكره أن أشق عليك، إنك شيخ كبير ضعيف. قال: ليس تشق عليّ. قال: فانقل هذه الحجارة. وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم، فخرج الرجل لبعض حاجاته، ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة، فقال: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تَطيقه. ثم عرض للرجل سفر، فقال: إني أحسبك أميناً فأخلفني في أهلي خلافة حسنة. قال: فأوصني بعمل. قال: إني أكره أن أشق عليك. قال: ليس تشق عليّ. قال: فاضرب من اللبن لبيتي حتى أقدم عليك. فمضى الرجل لسفره، فرجع وقد شيد بناؤه. فقال: أسألك بوجه الله ما سبيلك وما أمرك؟ فقال: سألتني بوجه الله، والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية، سأخبرك من أنا؟ أنا الخضر الذي سمعت به، سألني مسكين صدقة فلم يكن عندي من شيء أعطيه، فسألني بوجه الله، فأمكنته من رقبتي، فباعني. وأخبرك أنه من سُئِلَ بوجه الله فردَّ سائله وهو يقدر، وقف يوم القيامة جلده لا لحم له، ولا عظم يتقعقع. فقال الرجل: آمنت بالله، شققت عليك يا نبي الله ولم أعلم. فقال الرجل: بأبي وأمي يا نبي الله، احكم في أهلي ومالي بما أراك الله، أو أخيرك فأخلي سبيلك. فقال: أحب أن تُخلي سبيلي، فأعبد ربي، فخلي سبيله، فقال الخضر: الحمد لله الذي أوقعني في العبودية، ثم نجاني منها.

عن أنس أنه لما قبض رسول الله ﷺ، اجتمع أصحابه حوله يبكون. دخل عليهم رجلٌ طويل الشعر والمنكبين. تخطى أصحاب النبي حتى أخذ بمصراعِي باب البيت، فبكى، ثم اتجه نحو الحضور بعينين دامتين، وقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة، وعضواً من كل ما فات، وخلفاً من كل هالك، فإلى الله أنيبوا، وبنظره إليكم في البلاء فانظروا، فإنما المصاب من لم يحز الثواب.

ثم ذهب الرجل.

قال أبو بكر: عليّ بالرجل.

تلقت الصحابة حولهم، فلم يجدوا أحداً.



قال أبو بكر: لعل هذا هو الخضر أخو نبينا، جاء يعزينا فيه.  
كان أول لقاء سيدي الخضر بالإمام الشاذلي في تونس. شاهده الشاذلي في أكثر من  
موضع، يظهر ويختفي، ثم يظهر ويختفي. فلما انتهى الشاذلي في الجامع من ركوع  
تحية المسجد، وسلّم، سلّم عليه الرجل، هو الرجل نفسه عن يمينه.

سأل الشاذلي: يا سيدي ... بالله مَنْ أنت؟

قال الرجل: أنا أحمد الخضر. كنت في الصين، وقيل لي: الحقّ علياً بتونس. أتيت  
مبادراً إليك.

أنهى الشاذلي صلاة الجمعة، ونظر إلى الخضر بجانبه، فلم يجده.  
التقيا — فيما بعد — في فترات متباعدة. يخطر الخضر على ذهن الشاذلي. يأتيه،  
فيحاوره.

الخضر هو شيخ الأولياء.

الخضر بالنسبة للقبط، هو القبط بالنسبة لمريديه. من المهام التي يحيا من أجلها  
الخضر — حتى قيام الساعة — اختيار الأبدال، وتعيينهم. يختارهم من اللوح المحفوظ.  
قال أبو العباس: رأيت — ليلة — كأني في سماء الدنيا، وإذا برجل أسمر اللون،  
قصير الطول، كبير اللحية، فقال: «قل اللهم اغفر لأمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد،  
اللهم استر أمة محمد، اللهم اجر أمة محمد.» هذا دعاء الخضر، مَنْ قاله كل يوم، كُتِبَ  
من الأبدال، فقيل: هذا الشيخ ابن أبي شامة. فلما انتهيت، وأتيت إلى الشيخ أبي الحسن،  
جلست، ولم أخبره بشيء، فقال: اللهم اغفر لأمة محمد ... الدعاء. مَنْ قاله كل يوم كُتِبَ  
من الأبدال.

عانى العارف بالله الشيخ رستم خليفة البرسوي رمداً في عينيه، أخفقت في مداواته قطرات  
ومراهم، حتى قابله — ذات يوم — شاب، فاجأه بالقول: اقرأ المعوذتين في الركعتين  
الأخيرتين من السنن المؤكدة.

داوم الشيخ البرسوي على ذلك، فاستعاد — بحول الله — بصره.

سأل الشيخ عن الشاب الذي أنقذ عينيه من الرمد.

أتاه الصوت — دون أن يشاهد صاحبه: هذا رجل مشهور.

عرف الشيخ أن الشاب هو الخضر.

قال تلميذ للولي عبد الرحمن السقاف: أودُّ أن ألقى الخضر، وأعقد معه الأخوة.  
قال الشيخ السقاف: تنال ذلك.  
لقيه الخضر في صورة بدوي، كانت بينه وبين التلميذ معرفة. عقد معه الأخوة، وغاب.

شم التلميذ — في حضوره، وبعد انصرافه — رائحةً طيبة.  
قال الشيخ السقاف: ذلك الخضر.  
ثم لقي البدوي صديقه، فأنكر أنه التقاه من زمان طويل.  
تأكد التلميذ أن الخضر هو من كان التقاه.

قال أبو محمد القاسم بن عبد الله البصري: اجتمعتُ بأبي العباس الخضر، وقلت له: أخبرني بأعجوبةٍ مرّت بك من الأولياء. فقال: جزتُ يوماً بساحل البحر المحيط حيث لا يرى آدمي، فرأيت رجلاً نائماً ملتفّاً بعباءة، فوقع لي أنه ولي، فركضته برجلي، فرفع رأسه، وقال: ماذا تريد؟ فقلت: قم للخدمة. قال: اذهب واشتغل بنفسك، فقلت: إن لم تَقمُ لأنادين عليك في الناس وأقول لهم: هذا ولي الله. فقال: إن لم تذهب لأقولن لهم: هذا الخضر. فقلت: وكيف عرفتنني؟ فقال: أما أنت فأبو العباس الخضر فقل لي من أنا؟ فرفعت همتي إلى الله وقلت في سرّي: يا رب أنا نقيب الأولياء، فنوديت: يا أبا العباس، أنت نقيب من يحبُّنا، وهذا ممن نحبه. فأقبل عليّ، وقال: يا أبا العباس، سمعت حديثي معه؟ قلت: نعم، فزودني بدعوة. فقال: منك الدعاء يا أبا العباس. قلت: لا بد. قال: مر وقر الله نصيبك، فقلت: زدني. فغاب عني، ولم يقدر الأولياء يغيبون عني. ثم رأيت في نفسي بقيةً من المشي، فمشيت حتى انتهيت إلى كتيب عظيم من الرمل، فدعنتني نفسي إلى صعوده. فلما استويت على أعلاه، ظننت أنني أسامق السموات، فرأيت على ظهره نوراً يخطف الأبصار فقصدته، فإذا ثم امرأة نائمة ملتفة بعباءة تُشبه عباءة الرجل صاحبي، فأردت أن أركضها برجلي، فنوديت: تأدب مع من تحبُّ، فجلست أنتظر انتباهها، فاستيقظت وقت صلاة العصر، وقالت: الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور، والحمد لله الذي أنسنني به، وأوحشني من خلقه. ثم التفّت فرأتنني، فقالت: مرحباً بأبي العباس، ولو كنت تأدبت معي من غير نهني كان أحسن بك. قلت: بالله عليك أنت زوجة الرجل؟ قالت: نعم، فقد ماتت في هذه البرية بدله، فساقتني الله تعالى إليها، فغسلتها وكفنتها. فلما فرغت من تجهيزها، وقَعَت من بين يدي نحو السماء حتى غابت عن بصري. فقلت:

زوديني بدعوة. قالت: وفر الله نصيبك منه. قلت: زيديني. قالت: لا تلمنا إذا غبنا عنك، فالتفت، فلم أرها.

قال الخضر: إن الناس معذبون في الدنيا على قدر همومهم بها. وقال: إن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر، لا سند يستندون إليه، ولا معتمد يعتمدون عليه.

في سورة «الكهف»: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا \* فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا \* فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا \* قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا \* قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا \* فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا \* قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا \* قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا \* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا \* قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا \* قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا \* فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا \* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا \* قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا \* فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَتَلَّهُ قَالَ أَلْتَمَّتْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا \* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا \* قَالَ إِنْ سَأَلْتكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا \* فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا \* قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا \* أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا \* وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا \* فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا \* وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ

رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ (الكهف: ٦٠-٨٢).

هذا ما ألف أهل بحري سماعه في مساجد الحي قبل صلاة الجمعة. أهملوا تعدد الروايات، ما إذا كان قد خرج من بيت فرعون مصر، تربى فيه بعد أن تبنته أسيه امرأة الفرعون، وقالت لزوجها: اللهم اجعله قرّة عين لي. لا يشغل أهل بحري كذلك ما روي عن الخضر أنه كان وزيراً لذي القرنين، ولا أنه كان ملكاً من ملوك الزمان القديم، ولا أن الذات الإلهية حملته ما حملت به الأنبياء والرسل، أو أنه من أولياء الله. لا يشغل أهل بحري حتى إن كان الخضر أفضل من النبي موسى، أو أن موسى هو الأشد فضلاً.

يقول القرطبي: «إنها حجة على موسى لا عجباً له؛ ذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة، نودي: يا موسى، إن كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم. فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكزك القبطي، وقضائك عليه. فلما أنكر إقامة الجدار نودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر؟» أما قول القرطبي في حكمة قتل الغلام، فهو أن الآية تهوّن المصائب بفقد الأولاد، وإن كانوا قطعاً من الأكباد، ومن سلّم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء. قال قتادة: «لقد فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قُتل. ولو بقي كان فيه هلاكهما، فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب.»

تأمل الناس حكمة خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، طرفاها جميعاً الخضر وموسى عليهما السلام. يأتي الشيخ في صورة مذمومة في الظاهر، لكنها محمودة في الواقع.

وجد الناس في آيات القرآن حُضاً على الصبر. إيمان متوارث يؤمن به المصريون، أيوب مثلُ للأنبياء الذين اعتصموا بالصبر. ابتلي في جسده بكل أنواع البلاء. لم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، وهو صابر محتسب. يذكر الله في ليله ونهاره، وصباحه ومساءه. ضُرب المثل بصبره، وبما حصل له من أنواع البلاء. صابر تسمية يختارها الآباء لأبنائهم. لعل الهيروغليفية والقبطية حملتا الاسم نفسه، قبل أن تصبح العربية لغة وحيدة.

ما استقر عليه الناس أيضاً، أن الخضر — عليه السلام — صاحب مقام رفيع، له القداسة والاحترام والتوقير، يتطلع إليه الناس بطلب الشفاعة والنصرة والمدد. يُطَوَّى له البحر والأرض والجبل والسهل.

كل ما فعله — ويفعله — ليس من تلقاء نفسه، وإنما بأمر الله تعالى. قال ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، بمعنى أن كل أفعاله بوحى من الله سبحانه. كان علمه ربانياً، علمه الله من لدنه علماً. لم يكن نبي الله موسى وحده، هو الذي ذهب إليه ليتعلم على يديه، ويأخذ مما خصه الله به من العلم والفهم والمعرفة والرحمة. إذا كان الخضر قد أقام الجدار، وغيره من الأعاجيب التي خفيت على النبي موسى، فذلك ما اختص الله به الخضر، باعتباره ولياً لا نبياً.

لم يكلم الخضر ربه بواسطة مثل كل الأنبياء والرسل، إنما اصطفاه الله — سبحانه — على الناس برسالاته وكلامه، وعلمه علمه الله إياه.

قال الخضر: ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله، إلا كما ينقص هذا العصفور من هذا البحر.

وأشار بيده إلى أفق الأمواج.

احتاج موسى للخضر، ولم يحتج الخضر لموسى، ففارقه.

انظر: إبراهيم سيد أحمد، الأبحر، ابن خطاب، أبو الحسن الشاذلي، أبو العباس، الإسكندر، الأنفوشي، بدوي الحريري، جميل الخضراوي، سعيد العدوي، ضياء خير الله، عبد الستار.



## خليفة كاسب

قَدِمَ خليفة كاسب إلى الإسكندرية، بعد أن أمضى طفولته في بيت من طابقين، يُطل على الكوبري الموصل بين سوهاج وإخميم.

حصل على البكالوريوس من جامعة القاهرة. درس التاريخ الطبيعي: الحيوان والنبات والجيولوجيا والفسولوجيا العامة والبيولوجيا. ثم درس الأحياء المائية في المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار.

عَمِلَ — لسنوات — في مصلحة خفر السواحل ومسايد الأسماك.

امتدَّت رحلاته في السواحل المصرية من السلوم إلى رفح. تنقل بين البحرين الأبيض والأحمر، وبحيرات الدلتا والبردويل وقارون. شملت دراساته الأنهار والمستنقعات وجداول المياه والبحيرات العذبة والمالحة. يجمع العينات من أسماك وطحالب وقواقع وأصداف. يتابع رحلة تخلُّق السمك من بداياتها: تستدرج الإناث الذكور إلى أماكن — تختارها — تضع فيها البيض. تتولى الذكور تلقيح البيض، إخصابه. ربما أودعت الإناث البيض داخل أفواهها حتى يفقس، أو تقوم الذكور ببناء الأعشاش، بين الصخور المرجانية، وعلى أغصان النباتات، وبين الأعشاب البحرية، وفوق سطح الماء. وثمة أسماك تضع بيضها على اليابسة، قرب المياه.

أولى رحلاته لدراسة جنوب البحر الأحمر وشمال المحيط الهندي وخليج عمان. غادرت السفينة «مباحث» الإسكندرية صباح الثالث من سبتمبر ١٩٣٣م. كانت السفينة تابعة لمصلحة خفر السواحل. نقلت ملكيتها إلى مصلحة المواني والمنائر. ثم نقلت الملكية — فيما بعد — إلى جامعة الإسكندرية.

استغرقت رحلة «مباحث» تسعة أشهر. توصلت خلالها إلى نتائج نشرها المتحف البريطاني في مدى ثلاثين عامًا.

خرجت «مباحث» — بعد عودتها ببضعة أشهر — لدراسة شمال البحر الأحمر. رافق خليفة كاسب أستاذة من جامعة الإسكندرية.

يَعْتَرُ برحلة على ظهر السفينة «نجمة» التابعة لمعهد الأحياء المائية إلى المحيط الأطلنطي. أجرى أبحاثاً على مياه المحيط، وأسماكه، وأحيائه المائية.

درس أسباب عدم مناسبة المياه للأحياء المائية: نقص الأوكسجين، زيادة ملوحة المياه، ارتفاع درجات الحرارة، تغيّر المكونات الغذائية الطبيعية، قلة الضوء والهواء. أسباب كثيرة، أضعفت حيوية الأسماك، وقلّلت من قدرتها المناعية.

عُنِيَ بوسائل استغلال الموارد البحرية — بالإضافة إلى الأسماك — من أجل الطعام: المحار والقشريات والأعشاب والطحالب.

زاد، فدرس أسباب مشكلات تناقص السمك: التلوث (غازه تلويث المجاري لبيئة الأسماك. صوّر — بعدسة يمتلكها — المواسير الهائلة تقذف بالصرف الصحي في المينا الشرقية)، التهريب، الصيد الجائر، الصيد المخالف، الصيد في موسم التكاثر، إهمال التقيد بفترات منع الصيد البيولوجي، تغذية الزريعة بغذاء مخلوط بالهرمونات الصناعية. المبيدات الحشرية (خطر نبّه له في أبحاثه، لا يقلُّ عن خطر الصرف الصحي والمخلفات الصناعية).

أكثر من ثلاثة عشر مليون فدان من الموارد الطبيعية المائية. ضعف مساحات الزراعة. حوالي ٨٠ في المائة منها تمثّل ثروة البحرين المتوسط والأحمر، لكن مساحة البحرين لا تزيد عن ١٧ في المائة من الإنتاج.

صار على معرفة بمسائل الحياة المائية والصيد والصيادين في بلدان كثيرة، قريبة وبعيدة. المياه والأمواج، التيارات البحرية وجيولوجيا قاع البحر، الضوء والحرارة، طاقة تيارات المد والجزر.

النباتات والطحالب التي تعيش ثابتةً على الصخور، أو على بقايا الأشياء الصلبة: درقة حيوان بحري، صدفة، سقالة مثبتة في الميناء، والأسماك والمخلوقات التي يأتي ذكرها في الحواديت.

عُيِّنَ باحثاً في معهد الأحياء المائية، قبالة قلعة قايتباي (أنشئ المعهد في ١٩٢٤م). شارك في خطوات استكمال المعهد: تحويل البناء الجاهز ليقف بالمهمة الجديدة، إعداد الأجنحة ومعامل البحث الفردية، قاعة المتحف، قاعة المكتبة، قاعة الإكواريوم.

زاد انشغاله بدراسة البحر.



يخوض في الموج إلى ما فوق الركبتين. يقلب الصخور، يجمع الأحياء، ربما حصل على نماذج مما تصيده جرافات الصيادين. ينقلها إلى المعهد لدراستها. يلزم جدران المعهد أياماً بطولها. لا يتركه إلا لراحة في البيت ويعود. حياته موزعة بين الميكروسكوب والإكواريوم والمكتبة والأبحاث التي لا تنتهي. يخرج — في أوقات متباعدة — إلى البحر. يطمئن — قبل إبحار سفينة الأبحاث — إلى سلامة الأجهزة العلمية، والأدوات اللازمة، وثلاجة الأطعمة، وثلاجة السمك، وجهاز قياس الأعماق بواسطة الصدى.

راسل أقسام علوم البحار في جامعة باريس والمعهد الإقيانوغرافي وجامعة تولوز ومتحف التاريخ الطبيعي القومي.

وجد في قوس قزح ضوء الشمس المركب من ألوان الطيف السبعة: الأحمر، البرتقالي، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلي، البنفسجي.

طول موجة اللون، أو طول موجة ألوان الطيف، تُتيح لها اختراق طبقات الأعماق في مدى تأثيرها. تظلُّ الطحالب الخضراء بالقرب من السطح. تصلُّ الطحالب الحمراء إلى أعماق بعيدة، تُكمل نقص الأشعة الحمراء التي لا تصل إلى هذه الأعماق.

درس تحوُّل نِسب الأوكسجين والحرارة، في المناطق التي هاجرت منها الأسماك إلى مناطق أخرى. التغيرات الواضحة في السطح والأعماق وتيارات الأمواج.

حذّر من أن الكثير من أنواع السمك سينقرض في القريب. حدد سمك الرعاش، من فصيلة البقر والوطواط والقرش وغيرها من الأسماك التي تلد ولا تبيض.

حاول أن يصبح أستاذًا لكرسي الإقيانوغرافيا (علوم البحار) بكلية العلوم عند إنشائه في ١٩٤٨ م. أحزنه أن الوظيفة لم تُسند إليه، وإن رَحِبَ في ١٩٦٨ م بالمشاركة في عضوية لجنة وقاية الشواطئ بأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا ١٩٦٨ م ممثلًا لمعهد الأحياء المائية. وكان عمل اللجنة وضع مشروعات لحماية الشواطئ بين بورسعيد والإسكندرية.

شواطئ الإسكندرية تتميز بالرمل الناعم، بعكس بقية ملاحات العالم التي تتشكل شواطئها من الأحجار الصغيرة والحصى.

حين عرضت الباحثة اليونانية إيرين خريستو مشروعها لإقامة متحف للآثار، تحت الماء، وفي اليابسة، وإنشاء معهد مصري يوناني للتنقيب عن الآثار الغارقة، رفع خليفة كاسب مذكرة إلى وزارة الزراعة، ووزارة الثقافة، والمجلس الأعلى للآثار، ومحافظ الإسكندرية. قال: لماذا يشاركنا الآخرون ما نستطيع أن نفعله بمفردنا؟

أضاف خليفة إنه عرض فكرته على الدكتور جاب الله مدير هيئة الآثار، ودرية سعيد مديرة المتحف اليوناني الروماني في عام ١٩٩٦م. قدّماها في هيئة مشروع إلى ندوة دولية للآثار المغمورة نظّمها منظمة اليونسكو والمجلس الأعلى للآثار وجامعة الإسكندرية. طالب خليفة كاسب — في مذكرته — أن تُعلن الشواطئ المصرية الغارقة محميات، لا تُمس.

كان أسامة خليفة كاسب — الطالب بمدرسة رأس التين الثانوية — يتقاذف الكرة مع زملاء له على شاطئ الأنفوشي. شعر بسخونة مفاجئة، أو ما يُشبه اللدغة في ساقه. لم يستطع الوقوف. تهاوى على الأرض. أخفق في محاولة النهوض. تفاقم مرضه بعد أن نُقل إلى البيت. كأنه قد تسمم.

قنديل البحر حيوان بحري، يعيش في المياه المالحة والعذبة. على هيئة طاقة، أو شمسية سميكة، تخلو من أعضاء مهمة للكائن الحي، لا مخ، ولا قلب، ولا عمود فقري. معظم جسم القنديل من الماء، فهو يُصَفَّى تلقائياً بعد خروجه من البحر. يفقد ملامحه ووزنه، ولا يمثل خطراً. خطره الحقيقي في اقترابه من الشاطئ دون أن يبتعد عن الماء. جسمه الجلديني يُتيح له الطفو. ثمة معدة صغيرة الحجم، وزوجان من الغدد التناسلية، وعلى حواف الطاقة الشمسية، أعصاب ذات حساسية عالية، تكتشف الضوء والرائحة، وتخرج من الوسط أذرع مغطاة بخلايا كاوية، لاسعة، بداخلها مساحات تُصدر الكيماويات المسببة للحرق والإصابة.

روى عبد الله أبو رواش حكاية قديمة عن قنديل البحر:

كان مخلوقاً مكتمل النمو. تصوّر في نفسه القدرة على سيادة ما في البحر من مخلوقات ونباتات وأعشاب وطحالب وصخور. تحدّى جنية البحر، فيصبح المنتصر سيداً لكل ما في الأعماق. أهمل التحذير من أن يُغضب جنية البحر، ومن يدين لها بالولاء: المارد، والجني، والأسماك، والرياح، والأعاصير، والنوات. أصر القنديل على المنازلة. أمرت جنية البحر مارد البوغاز. التقط القنديل من موضع رقاده على الشاطئ. قذفه في فمه. ضغط عليه بأنيابه وأسنانه، حتى حطّم عظامه تماماً، وشوّه ملامحه. ثم ألقى به على الساحل، كتلة هلامية تخلو من كل ما يميز بقية المخلوقات.

تحول القنديل نفسه — من يومها — إلى مصدر إيذاء، بما تبقى في جسده من شعيرات اللسع والحرق. لا يسلم من لدغاته — المميّنة أحياناً — كلُّ من يعيش في البحر، أو يسير بالقرب من الشاطئ.

الترسة وحدها هي التي تحرص — كلما رأته — على ابتلاعه، تمنع أذاه عن الناس. قال عبد الله أبو رواش متصعباً: نحن نأكل مَنْ يأكل عدوَّنا!

شاهد خليفة كاسب في منامه رؤيا، لم يذكر تفصيلاتها، وإن بدت مئات القناديل متناثرة في الهواء، وعلى الجدران والأسقف، وأفاريز الشرفات والنوافذ. ميّز من بينها ثلاث ترسات تتقافز، متباعدة، كأنها تفرُّ مما تُهددها به القناديل.

تكرر استيقاظه في الليل على جسد ضخم يقتعد صدره. يشعر بالاختناق، يدُّ تُطبق على عنقه، يصرخ، يرفس بيديه وقدميه.

لجأ إلى سيسبان كودية الزار.

— هل هي أفاعيل الجان؟

— نعم، هي الجان، لعلها تُذكرك بنذر نسيته.

— أنا لم أنذر شيئاً.

— ربما أهل بيتك.

— لا أعرف!

— اسأل، وأوفِ النذر!

همست أم الولد بتردها على سيدي كظمان، والنذر الذي وعدت به إن شفى الله الولد من مرضه.

قالت: إذا عُنيت بالقضاء على القناديل فأنت تساعدني على الوفاء بنذري!

أهمل خليفة كاسب ما كان يشغله من أبحاث ودراسات وأوراق وصادر ووارد وتحاليل معامل وفحص عينات.

فرغ — بقلق — لدراسة الظاهرة.

عُني بدراسة مراحل نمو، وتكاثر، القنديل، من يونيو إلى نهاية أغسطس. امتدَّ

تكاثرها — فيما بعد — إلى طول العام.

سته أنواع تنحدر من عائلة كنديريا Cnidaria. درس منذ مرحلة ما قبل العذراء (الإيفورا) ومرحلة العذراء (الميدوزا). تزداد بارتفاع درجة الحرارة، تتغذى على البلانكتون الصغير، الكائنات النباتية والحيوانية الدقيقة، وعلى الأسماك الصغيرة والكاپوريا وسرطانات البحر. كل عام تزداد عن العام الذي قبله، يساعد على الزيادة

ارتفاع الحرارة والملوحة، ووفرة الطعام من المخلفات الملقاة في البحر. لما ظهر البيض واليرقات منذ عام ١٩٩٣م، امتدت مراحل نمو القناديل بامتداد العام.

كانت قناديل البحر قد اختفت — أو كادت — من الشواطئ المصرية.

حاول خليفة كاسب تبين مصدرها. من أين جاءت؟

درس الطبقات الثلاث في جسم قنديل البحر، دورة الحياة من البيضة المخصبة إلى اليرقة التي تتحول — بعد أشهر — إلى صغار قناديل البحر، تنمو، تكبر، تصبح حيوانات بالغة، تتحرك في الماء بحرية.

عمر قنديل البحر لا يزيد عن أشهر. يحين أجلها عندما تقذف خلاياها التكاثرية، لتبدأ دورة حياة جديدة.

اعتبر قنديل البحر أخطر من سمك القرش.

القنديل جسم مائي، هلامي، بلا أنياب ولا قلب ولا دم ولا دماغ، لكن قرصته والقبر. المجسات اللاسعة تصدر عن جسمها. الأكياس السلكية تحوي ما يُشبه الأشواك أو الخطافات أو النتوءات. تقذف السلك باتجاه الفريسة، تلسعها. في داخلها حقن مواد مسممة للخلايا العصبية. قد يُفلت المصاب بالإنقاذ السريع. وقد تؤدي اللسعة إلى شلل في العضلات، وإلى الدوار والغثيان، والموت.

رفض خليفة كاسب أن يعتبر خلوّ الكتلة الهلامية من الدماغ دليلاً على غيابها. الذكاء يبدو في استجابة النهايات العصبية المحيطة بجسمها للتبدلات المحيطة. تساعد الأعضاء الحسية، والمجسات، على معرفة ما يدور حولها. تضي تحت سطح الماء، تلتصق بها، وتتبعها، مجساتها اللاسعة. تهدد حياة الصيادين، والسابحين في البحر، والسائرين على الشاطئ.

الزواحف أنواع كثيرة، منها التماسيح والثعابين والسحالي والسلاحف. السلحفاة هي الترسة في تسمية السكندرانيين. لها غطاء عظمي، فلا يظهر منها سوى الرأس والعنق واليدين والرجلين والذنب. إذا تعرّضت السلحفاة لخطر، انكلمت إلى داخل الغطاء الصلب، يصعب تكسيره، أو النفاذ منه إلى جسم السلحفاة.

في رواية الجاحظ أن السلحفاة (الترسة) لا بد لها — لكي تتنفس — من مفارقة الماء، تبيض وتكتسب الطعم وهي خارجة منه.

بدا انقراض الترسة — في أعماق البحر، وعلى الساحل — خطرًا كالمفاجأة. هي العدو البيولوجي لقناديل البحر، تُعد القناديل غذاءها المفضل.

## خليفة كاسب

أدان خليفة كاسب شبك الصيد، وتكاثر المنشآت في مواطن التعشيش ووضع البيض، والتركيز على صيد الترسه لبيع قصعاتها للسياح، أو استخدامها غذاء في الإسكندرية، ومناطق أخرى بعيدة.

أضاف إشفاقه من التهام الحيتان وأسماك القرش والأسماك الكبيرة والكلاب والثعالب، صغار الترسه في داخل أعشاشها.

كلّف علماء المعهد، بحصر أماكن وضع بيض الترسه. نقل أعدادًا منها إلى مناطق الحميات، لضمان فقس البيض، وعودة صغار الترسه إلى البحر. أسقط — على نفقة المعهد — كهوفًا أسمنتية في أعماق البحر، تحتمي بها الأسماك، تضع فيها البيض، تتكاثر، يزيد المحصول.

وعده سامي بهاء الدين أن يتبنّى مشروعًا أمام مجلس الشعب، تعتمد فيه ميزانية لمتابعة أماكن وضع بيض الترسه، حمايتها من طيور البحر حتى يفقس البيض، استخدام الترسه في مقاومة قناديل البحر بامتداد الشاطئ.

قال بهاء الدين: سأشدد على منع الصيد في مواسم تكاثر الأسماك.

قال خليفة كاسب: هل يرضى الصيادون؟

— أمامهم أعالي البحار.

— ليسوا كلهم من صيادي البلانسات.

قال الرئيس غريب أبو النجا: الصيد مهنة الصبر. إذا انتظروا تكاثر السمك فسيزيد حصادهم منه!

عقب انتهاء صلاة الجمعة، صعد خليفة كاسب المنبر.

لاحقَ المصلين في مغادرتهم الجامع. تحدّث عن أهمية السلاحف البحرية، الترسه في تسمية أبناء بحري. حدّر من صيدها، ومن أكل لحمها، وشرب دمها. في باله ما نذرتة المرأة، وتكاثر القناديل، وانقراض الترسه.

قال إن تأثير قنديل البحر أخطر من تأثير الطوربيد. إنه يقتل في مدى دقائق، ولا نجاة!

قال قنبر عبد الودود في نفسه: هذا تحذير بعد فوات الأوان!

هتف خليفة كاسب بأعلى صوته: الترسه لا بد أن تعود إلى البحر. لا بد أن تبقى في

البحر!

## أهل البحر

صدر قرار وزير الزراعة رقم ١٤٠٣ لسنة ١٩٩٠م، يحظر التعامل مع أنواع الزواحف المهددة بالانقراض، ومنها الترسة المائية رخوة الصدفة والترسة الخضراء. ثم صدر القانون رقم ٤ لسنة ١٩٩٤م، يحظر صيد أو قتل الحيوانات المائية، أو حيازتها، أو نقلها، أو التجوّل بها، أو بيعها، أو عرضها للبيع، حية أو ميتة. من يخالف القانون، يُعاقب بغرامة لا تقل عن مائتي جنيه، ولا تزيد عن خمسة آلاف جنيه، ومصادرة المطبوعات والآلات والأدوات المستخدمة في المخالفة.

وجد خليفة كاسب فيما حدث انفراجة، طال توقعها.

**انظر: سامي بهاء الدين، سيسبان، عبد الله أبو رواش، غريب أبو النجا، قنبر عبد الودود.**

## خليل الفحام

بعد أن خرج خليل أفندي الفحام إلى المعاش، لزم البيت، لا يغادره إلا إلى مشاوير قليلة في السوق، وزيارات إلى المكتبة الحجازية بشارع الميدان، وجلسات عابرة في قهوة الزردوني بالسيالة.

استعار من المكتبة الحجازية ما قرأه من الجلدة إلى الجلدة، من كتب قدامى المؤرخين: المقرئزي وابن تغري بردي والسيوطي وابن خلكان وابن إياس وغيرهم. استعار خطط علي مبارك من مكتبة البلدية. رجع إلى الصحف والدوريات. ما لم يستطع قراءته مترجمًا عن لغة أجنبية، قرأ ملخصًا له باللغة العربية. جلس إلى الشيوخ من أهل الحي. تقدّمت به السن.

لم يُعدّ يلجأ إليه أحد في مهمة ولا مشورة، ولا يجد من يشاركه الحديث. شعر أن الحياة تضي حوله، غير مبالية به، قراءة الصحف وسماع الراديو والجلوس على المقاهي والتمشّي على البحر والصلاة والصوم والنوم والزحام والمناقشات والأسئلة والأجوبة والنكات والحكايات القديمة. كأنه قد انتهى تمامًا، لا قيمة لأي شيء في حياته.

أزمع أن يُشغل نفسه بما يُفيدة، ويفيد الناس. قرأ للعماني أحمد بن ماجد: «إن البحر أكبر من البر، وعلم البحر أكثر من علم البر، وينبغي لعارف هذا العلم أن يسهر الليالي، ويجتهد فيه غاية الاجتهاد، ويسأل عن أهله ومن جرّبه...»

أدرك أن الكتابة عن البحر مما لن يُسعفه الوقت ولا العمر، ولا حتى ما سيحصل من العلم، على إتمامه. أزمع أن يقتصر بحثه على علم البر، ويقتصر ما يدرسه من علم البر على جغرافية بحري.

صار التجول في الشوارع والحواري والأزقة عادةً ألفتها. مساحة الكيلومتر المربع بحري، نسبته إلى البحر. البحر يحيط بالحي من ثلاث جهات، يجعله لسانًا طويلًا، ممتدًا في قلب البحر. شبه جزيرة في شبه جزيرة الإسكندرية.

سُمِّي حيّ الجمرِك لالتحامه بأبواب المنطقة الجمركية. يُطل — من الشرق — على المينا الشرقية، ومن الغرب على المينا الغربية. أما الشمال فيطل على خليج الأنفوشي، بينما يمتدُّ الجنوب إلى داخل المدينة.

هذه المساحة من قصر رأس التين إلى ميدان المنشية، تضم ١٦ شياخة، آخرها من الشمال شارع قصر رأس التين، ومن الشرق طريق ٢٦ يوليو، ومن الغرب شارع الترسانة وشارع البحرية وباب الكراسته. أما حدُّها من الجنوب فيشمل شوارع الجمرِك القديم والميدان والنصر وقبو الملاح والمتنبي والباب الأخضر.

ثمة الملامح والقسمات: الشوارع، والميادين، والتقاطعات، والمفارِق، والأسواق، والساحات، والحدائق، والبنائيات، والأزقة، والخرائب، والأرض الخلاء، والجوامع، والزوايا، والأضرحة، والمدارس، والميناء، وقلعة قايتباي، وحلقة السمك، ومتحف الأحياء المائية، ومحطة الركاب البحرية، ومستشفى رأس التين، ومستشفى الملكة نازلي، وقصر الثقافة، وسراي الملك.

يسير في أيّ شارع. يميل في تقاطع النهاية. يواصل السير والانحناء، فلا بد أن يُطالعَه البحر في النهاية.

يتأمَّل الشوارع المتعرجة، المتقاطعة. البيوت القصيرة، المتلاصقة، المزدحمة، تتكئ على بعضها. يُدرك أنه إذا سقط أحدها فإنه ما يلبث أن يجرَّ الباقي. يتحول صفُّ البيوت إلى خرائب وأنقاض. المداخل المظلمة للبيوت، وقطع الفلين وشباك الصيد المكوّمة في الأركان، والشبابيك الخشبية العالية، والكوات الصغيرة، ومناشر الغسيل، والعبارات المكتوبة على الجدران، ولعب الكرة في الخلاء، ولعب البلي والدوم والنحل، والطائرات الورقية.

تابع امتداد مساحة الأرض الجيرية الخلاء، المطلة على خليج الأنفوشي، ما بين مساكن السواحل والبنائيات الحكومية، على يمين الشاطئ.

القلّبات تُضيف — كل يوم — أمتارًا من ردم البيوت وقطع الحجارة والرمال، تُلقِي بها في المياه.

بحري حيّ خاص.



الشواطئ من حوله شواطئ خاصة. أهل بحري يرتبطون باليابسة والبحر. غزل الشباك، بناء البلانسات، الصيد، بيع أدوات الصيد، العمل في الدائرة الجمركية، الذاكرة، والرؤية، والآفاق، ورائحة اليود، والملح، والقرب من البحر، وطيور النورس فوق الساحل، وهجرة السمان إلى طريق الكورنيش، أو الشوارع الجانبية، وترامي هدير الأمواج، وهجرة الرمال من الشواطئ إلى داخل الشوارع الضيقة، وبركات أولياء الحي ومكاشفاتهم، والموالد، وحلقات الذكر، وحفلات الزفاف والختان.

استعاد — من حكايات القدامى — صورة أسواق التُّرك والمغاربة والخيط وزنقة الستات، عندما كانت موضعًا لإسطبلات جياد الملك، أمواج البحر في اندفاعها إلى داخل المدينة، لا تصدُّها حواجز، إنشاء طريق الكورنيش في عهد وزارة إسماعيل صدقي، إعادة ترميم قلعة قايتباي بعد ضرب الإنجليز لها في ١٨٨٢م، سير الترام — للمرة الأولى — بين بحري والرمل، اكتشاف المسرح الروماني في كوم الدكة عام ١٩٦٤م، تغير اسم ميدان القناصل إلى ميدان المنشية. كان — في القديم — موضع إقامة قناصل الدول الأجنبية منذ أيام محمد علي. لذلك — ربما — سُمِّيت مساحة الامتداد المفضية إلى شوارع توفيق وشريف والسبع بنات والميدان وفرنسا ميدان محمد علي. هو الذي أنشأ الميدان، ويتوسطه تمثاله جالسًا فوق الجواد.

أعاره حجازي أيوب معجم البلدان لياقوت الحموي، وخطط المقريزي، والخطط التوفيقية.

لاحظ أن قدميه لم تعودا تقويان على حمله، فاعتمد على عصا لا تفارقه.

مضى في شوارع بحري.

ينظر إلى ما حوله، وفي باله أن كل شيء سيختفي في يوم لا يستطيع أن يحدده، لكنه لا بد أن يأتي، فنتبدل الصورة تمامًا. كل ما يسجله يصبح ذكريات، ما تلبث أن تُنسى، إن تبدلت جغرافية المكان، تزال البنايات، وتضيق الميادين، وتسد الشوارع. تغيب المشاهد، فلا تُدرِكها الذاكرة.

ناوشه قلقٌ لأنه قد يمضي — ذات يوم — في ميادين الحي وشوارعه وحواريه وأزقته، لا يعرفها، ولا يعرف البنايات التي تُطل عليها. تعكس المرأة ما لم يألف رؤيته، ولا توقعه. تعالَى الأذان — ذات عصر — من ميكروفون منثنة جامع ياقوت العرش. نظر من النافذة المطلة على الجامع. لم يجد المؤذن في موضعه. عرف أنه اكتفى برفع الأذان من وقفته في صحن الجامع.

لم يُعدّ خليل الفحام — من يومها — يتابع — في وقفته وراء النافذة — صعود المؤذن على سلّم المئذنة الحلزونية، إلى البسطة الأخيرة، تحت الهلال المعدني، ثم يرفع الأذان.

افتقد الطقس الذي أُلّف متابعته، منذ صعود المؤذن المتمهل على درجات المئذنة، تسبقه همماته ونحناته، وإطلاته العفوية من جوانب المئذنة المفتوحة، لا يبدو أنه يتأمل مشهدًا محددًا، ثم التأكيد من انطلاق صوته قبل أن يضع راحتيه على جانبي وجهه، ويرفع الأذان.

امتدّت جولاته من سراي رأس التين إلى باب الجمرک رقم واحد، إلى باب الكراسته، باب ١٤، حتى باب ٢٢ المقابل لهويس المحمودية، الميناء الغربية، الساحل الغربي للإسكندرية. التوكيلات الملاحية، وشركات النقل البري، والبحري، ومخازن الاستيداع، وورش صيانة السيارات، وتجار الأدوات البحرية، ومخازن الدخان، وعمليات النقل والتخزين والتخليص وتشوين السفن وتفريغها.

أمضى أوقاتًا طويلة في كازينو كليوباترة مع الكاتب نقولا يوسف. حلا له الوقوف — قبل الغروب — في نهاية السلسلة. يتصور ما كانت عليه المينا الشرقية حتى القرن الثالث بعد الميلاد.

لم يكن الميناء في موضعه، لم يكن بحرًا. كان حيًّا رئيسًا في الإسكندرية، قبالة شارع النبي دانيال. هبط الحي بأكمله في زلزال غاص بالحي، ناسه وبنائاته وشوارعه وأسواقه، تحت سطح البحر. صارت المينا الشرقية — فيما بعد — اللسان الموصل بين نهاية السلسلة وقلعة قايتباي.

تمتد الأمواج إلى نهاية الأفق. تشحب الحرارة في تحوّل الشمس إلى قرص برتقالي، بعيد. يتعرف على الشخصيات التي يشاهد صورها في الصحف وهي تمارس رياضة المشي: أم كلثوم، وتوفيق الحكيم، ويوسف وهبي بك، وعثمان محرم باشا، وعبد الفتاح الطويل باشا، وأحمد فرغلي باشا (عُرف اسمه ومكانته مما كتبتّه الصحف عن زهرة القرنفل الحمراء في عروة جاكته).

لم تقتصر جولات خليل الفحام على كتابة أسماء الشوارع والميادين والمدارس والجوامع والزوايا وحلقة السمك وغيرها من البنايات. امتدّ اهتمامه إلى الأولياء والموالد والساحات ونوعيات القهوة، وسباقات القوارب والبنز والجياد، ومَن هو سكندري الأصل، ومن قديم من رشيد، أو الصعيد.

لم يعتمد على الحكايات المتناقلة، أو الشفاهية، دون وثيقة مكتوبة: شهادة ميلاد، رسالة شخصية، صورة من عقد زواج، وثيقة طلاق، أجددة قديمة، شهادة بدرجات الانتقال من فصل دراسي إلى فصل دراسي أعلى، مصحف سُجِّلَت ملاحظات على هوامشه. عرف ما يتأثر به بحري من أحوال الجو: النوات والمد والجزر، وأنسب مواعيد الصيد. عرف أسماء النَوَات ومواعيدها من بدوي الحريري: المكتسة في ١٧ نوفمبر، قاسم في ٥ ديسمبر، الفيضة الصغرى في ٢٠ ديسمبر، عيد الميلاد والفيضة الكبرى في ٢٩ ديسمبر، الغطاس في ١٩ يناير، الكرم في ٢٨ يناير، الشمس الصغيرة في ١٨ فبراير، السلوم في الثاني من مارس، العوَّة — ما بعدها نوة — في ٢٤ مارس. تستمر النوة ما بين يومين إلى اثني عشر يومًا.

سجل معلومات عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم والفصول والبحر والبر والجبال والرياح والنَوَات، وعن أسماء الشهور العربية والقبطية والميلادية، وأعياد المسلمين والنصارى واليهود، وأيام الصوم لكل دين، ومواعيد إجازات كل ملة. حدَّثه خليفة كاسب عن خطر المد الذي يهدد الإسكندرية، يأكل النحر الشواطئ، يقضم من المدينة، يهدد بابتلاعها.

أسلم خليل الفحام نفسه — في أوقات انشغاله بالمشاهدة والتأمل والتسجيل — لحلم السدود التي تحمي شواطئ الإسكندرية، تصدُّ تلاحق المد والجزر، النحر الذي قد يعلو بمياه البحر، فتغرق كل شيء.

تطول جولات خليل الفحام، ثم يلزم البيت. لا ينزل إلى الشوارع، ولا يتردد على المقهى، أو يلتقي أحدًا. يقبُّب في الأوراق والمجلات القديمة، وفي الكتب الصفراء، المتبسة، اشتراها من العطارين للبحث في أصل مسميات الأماكن، وسير الأعلام، وتواريخ الوقائع. سجَّل — في النوتة الصغيرة — أسماء أفراد وأسر وعائلات. وصل الأوراق بالفروع والأبدان والجذور. تقصَّى جذور عائلات بحري: هنو، عبد المجيد، الإسكندراني، أبو هيف، الكسباني، الجريدي، العطار.

قال له حجازي أيوب: ما دمت ستتناول سير البشر، اقرأ هذه الكتب. زوَّده بالعديد من كتب التراجم والسير: وفيات الأعيان لابن خلكان، فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي، أعمال الأعلام لابن الخطيب، طبقات الأمم لصاعد الأندلسي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس للحميدي.

استغرقتَه جوانب الاتفاق والاختلاف بين الأبحر وحميدو شومة: لماذا اتجه كلُّ منهما إلى الفتونة؟ ولماذا حرص كلُّ منهما على أن يكون متبوعًا، فلا يقترب من صاحبه إلا في تساوي الرأس بالرأس؟

بعد أن أشار الحاج جودة هلال بيده ناحية باب الدكان، وقال: لا تُعدُّ إلى هنا، جعله المعلم بدوي الحريري من صبيانه في الحلقة، يحمل الطبالي من السيارات إلى مواضعها، يدس فيها قطع الثلج، يغسل الأرضية بالمياه، ينادي على المزداد، يشتري احتياجاته، يُعدُّ له النارجيلة، ينقل له أخبار الناس في بحري.

دخل الحريري في خناقة لم يُعدُّ لها نفسه. تصدَّى الأبحر للساطور الذي استهدف رأس معلّمه. قذف به، ودخل المعركة بذراعيه. اعتصر الرجل حتى تدلَّى رأسه على كتفه. التفت الأبحر — وهو يسقطه — إلى صبيانه بعينيّ التحدي.

عمل الأبحر — من يومها — لحساب نفسه، يحمي، يفرض الإتاوات، يخوض المعارك، يتقدم الجلوات ومواكب الزفاف.

صارت الخناقات جزءًا من حياته اليومية. أشد ما يصيب أذاه الغلابة ممن لا يستطيعون مواجهته. لو لم يجد أحدًا يُعاركه، تعارك مع نفسه. يُدلي أمامه وسادة. يوجّه إليها لكلمات متوالية حتى يتخاذل ذراعاها. يستريح — لحظات — ثم يعود إلى ما كان يفعله. يخترع أوضاعًا أخرى.

استهوته المغامرة في الميناء: سرقة الطرود، تهريب البضائع، استبدال العملة. تعدّدت الحكايات عن سطوه على معسكرات الإنجليز، وتسوّر قصر عصمت محسن، ونقب وكالة درويش بشارع الميدان. حتى الشقة التي خصصتها عليه عشماوي للبكباشي حمدي درويش، أفرغها صبيانه — ذات ليلة — من كل ما بها.

طرد فتوة رأس التين، وجعل نفسه في موضعه. جاوره حميدو شومة في الأنفوشي. وهاطة زعزع في اللبان، وفتوات أخرى في بقية الأحياء.

حميدو شومة سار خلف أبو حلوة، حتى تعلّم ما ينبغي أن يتعلّمه، ثم استقل بحياته. اجتذب الأعوان، والسمة، في بحري وأحياء الإسكندرية. خاض المعارك بقوته، وما تعلّمه، ومساعدة أعوانه.

ظل ما كتبه الفحام سطورًا في أوراق، لا يقرؤها أحد. أخفى الملاحظات عن أصدقائه في الحي.

ناقش أنجلو سبيرو — ذات مساء — في معارك الفتوات. استعاد ما كتبه عن الأبحر وحميدو. انتصر لحميدو. لم يحترف الفتونة، وإن ظلّت دنياه حتى معركة الخمس فوانيس. جعل الأبحر قوته لغته الوحيدة، يهدد، ويواجه، ويخرج من المعارك منتصراً.

الحجرة في شقة من ثلاث حجرات، بالطابق الأرضي من البيت المطل على حارة أبو يوسف. نافذتها من الزجاج المسلح أوسط السقف، والجدران مصمتة، خالية إلا من سرير سفري، وطاولة معدنية صغيرة، أسندها على الجدار. تناثرت على الأرض، وعلقت في مسامير بالجدران، أدوات موسيقية، ومجلات قديمة مُزقت أغلفتها، وتهرأت أوراقها وألوانها، وكرسیان من الخيزران، وملابس حالت ألوانها، وفتات خبز، وزجاجة بيضاء فارغة، وأطباق متسخة، وشمعة مقلوبة على جنبها، ومنفضة سجاير امتلأت بالأعقاب. كان يحتفظ بالكثير من الأشياء الصغيرة: تذكرة قطار من القاهرة إلى الإسكندرية، دمية من أيام الطفولة، كراريس مدرسية، عملة ورقية تآكلت حوافها، دعوة إلى عرض مسرحي في الأزاريطة، بقايا نتيجة سنوية، عبارات منقولة من كتاب لا يذكره.

قال للملاحظة أنجلو سبيرو عن قصر جولاته على بحري: الإسكندرية الحقيقية ليست الرمل وطالع. الإسكندرية هي الرمل ونازل.

وأوماً إلى الأرض: الإسكندرية هنا!

الإسكندرية — في ذهنه — ليست بنايات زيزينيا، وكامب شيزار، والإبراهيمية، ولوران، والسرايا، وسبورتنج، وكليوباترة، والمنتزه، وسيدي جابر، وستانلي، وميامي، ورشدي، وجليم، وسان ستيفانو، وثروت، ومصطفى كامل، ومحطة الرمل، والترام ذا الطابقيين، والتريانون، وأتينيوس، والشوارع المغسولة. هي الصيادون، وعمال البحر، وصغار الموظفين، ومظاهرات الطلاب، والجيرة، والتكافل، وليالي رمضان، وسوق العيد، وبائع العسلية، وعفريت الليل، والحاوي، ورقصات سيد حلال عليه، وأغنيات ماهر الصاوي، وخطب الشيخ عبد الستار، ومباريات كرة القدم في الساحات الخالية، وحلقة السمك، والمذاكرة في صحن جامع أبي العباس، وأهازيج السحر، وموالد الأولياء، وحلقات الذكر، وصافرات البواخر في الميناء الغربية، وصيد العصاري في المينا الشرقية، وصيد السنارة والطراحة، والجرافة، والتمشي على رصيف الكورنيش، والتطلع إلى أفق البحر.

أذنت له قيادة البحرية وهيئة الميناء. وقف على رصيف ١٨. أطل على اللسان الممتد داخل البحر، المقابل لسراي رأس التين ومرسى المحروسة وبواخر عبود باشا.

في أيام نزول الملك فاروق السراي، يلاحظ خليل الفحام زيادة أعداد الحرس الملكي حول قصر رأس التين، تكرار فتح — وإغلاق — أبواب القصر، غياب شخصيات — مدنية وعسكرية — في الداخل، وخروجها، اشتداد الحركة في الساحة الأمامية والشارعَين الجانبيين والحديقة، بالحرس الملكي والعاملين في السراي والباحثين عن الفرجة. يتوقع السؤال في جولاته: إلى أين؟

روى سويلم أبو العلا أنه شاهد رجلاً يرتدي زياً غريباً، كالذي يرتديه الممثلون في الأفلام التاريخية الأمريكية. كان الرجل يقف في زاوية الطريق من ناحية الأنفوشي إلى ما وراء سراي رأس التين. بدا كأنه لا يشعر بما حوله. نظرته مثبتة في نقطة، يراها، ولا يراها سويلم أبو العلا.

تردد في الاقتراب، ثم حدس أن الرجل قد يكون ضيفاً أجنبياً على الملك فاروق. تراجع بظهره إلى الورا، ثم مضى — بأخر ما عنده — في موازاة الشاطئ حتى طالعه الميدان الصغير، قبالة حديقة السراي.

لما همس لخليل أفندي بما رآه، قال خليل في لهجة واثقة: الرجل هو الإسكندر. أعاد القول في دهشة: الإسكندر؟!

— أنت لا تعرفه ... هو الرجل الذي بنى الإسكندرية!  
لم يلحظ خليل أفندي في وقفة الرجل ما يشي بالتأله. كان يتحرك، وينظر — بالدهشة — إلى ما حوله. ما يشبه الإحساس بالغرابة يبين في وقفته، وإن حدس الفحام أنه تردد على الموضوع من قبل. صار على ثقة من أن الإسكندر يأتي — بين فترة وأخرى — إلى المنطقة الواصلة بين قرية راقودة وجزيرة فاروس.  
ظن الأمر حلماً أو توهمًا، ثم تأكد له الأمر، حين رأى الإسكندر — بثيابه العسكرية — يقف على اللسان الداخل في البحر. متوسط الطول، متين البنية، أشقر الشعر، هادئ النظرة، بشرته أميل إلى البياض.

أعاد خليل الفحام التحديق في عينيه. بدت إحداهما بُنيّة، والثانية سوداء ... لم يأت في باله — في البداية — أنه هو الرجل. لما حاول التحديق ثانية، كان الرجل قد اختفى. نسي خليل الفحام ما كان أعدّ له نفسه. شُغل — من يومها — بالإسكندر، مولده، حياته، فتوحاته، موته. أشد ما عُني به موضع قبر الإسكندر.  
لم تتفق كتابات المؤرخين على الموضوع الذي دُفن فيه الإسكندر، ما إذا كان في الإسكندرية، أم في مدينة أخرى؟  
معظم الروايات أكدت وجود قبر الإسكندر في المدينة.

تكررت وقفته أمام تقاطع شارعِي النبي دانيال والحرية.

غادر الموضوع إلى بحري، فلم يغادره ثانية.

لاحظ أن انشغاله بموضع قبر الإسكندر فاق ما كان قد أعد نفسه لإنجازه، تسجيل جغرافية الحياة في بحري هو ما ينبغي أن يصرف له وقته: الميادين والحدائق والشوارع والحواري والأزقة والبنائيات. لا يفوته جامع ولا مسجد ولا زاوية ولا مدرسة ولا دكان ولا وكالة. حتى الأكشاك وفرشات الأرصفة، يُضيفها إلى كتابه. قد لا يشكل أهمية خطط المقريزي، ولا الخطط التوفيقية، لكنه سيفوق. هذا هو ما أعد له نفسه. ما كتبه علي مبارك عن الإسكندرية. تركيزه على بحري، وإن خرج — بحثًا عن اتصال الوقائع والتواريخ والشخصيات والعلاقات — إلى أحياء الإسكندرية الأخرى.

جاوز الإسكندر ما ينتسب إلى القبر والكنز والحلم والأسطورة، إلى ما رآه خليل الفحام بنفسه على اللسان الحجري بين راقودة القديمة وجزيرة فاروس.

هذا هو ما يشغله، ما يجب أن يشغله. لا يستطيع الحكيم إلا إذا تثبت مما رآه. يؤله تصوُّر الوهم، عمق الغموض، صمت خلفاء الإسكندر عن التأكيد، أو مجرد التكهن بموضع قبره. آثروا الكتمان لانشغالهم بالعثور على الكنوز الهائلة التي ضمَّها القبر. عرف خليل الفحام أن انتساب الإسكندر إلى الآلهة أتاح له إخضاع الزمن بأبعاده الثلاثة — الماضي والحاضر والمستقبل — في زمن حاضر، ذي بُعد واحد، لا ينتهي.

قال أنجلو سبيرو: إذا كانت المواطنة بالتاريخ، فنحن أصحاب الإسكندرية.

أضاف في نبرة واثقة: بنى الإسكندر المدينة بوصل مدينة وقرية. ظل اليونانيون داخل مصر من يومها إلى الآن.

وهزَّ قبضته: الإسكندرية الكوزوموباليتينية صناعة اليونان.

كتم خليل الفحام ما رآه في تقابل فاروس وراقودة. غاب تصوُّره لتقبُّل أنجلو سبيرو رؤيته للإسكندر. هو نفسه لا يدري إن كان ما رآه بتأثير استغراقه في القراءة، والملاحظة، وإعادة الاكتشاف، أم أن ما رآه قد حدث بالفعل.

حدَّته كامل أبو السعادات عن الآثار التي صعد بها من أسفل قلعة قايتباي. تنتمي إلى العصر الفرعوني، وإن نُسبت إلى العصر اليوناني الروماني.

كانت راقودة ميناءً بحرياً، ومنفذاً، بين مصر ومواني البحر المتوسط. وكان في جزيرة فاروس — قبل عصر الإسكندر — منارة لإرشاد السفن.

الإسكندرية، راقودة وفاروس، قديمة، موجودة من قبل أن يصل الإسكندر إلى مصر بعشرات السنين.

ثمة الرعاة والصيادون والبحارة وغازلو الشباك والجنود. يقول الملك أوديسيوس في ملحمة هوميروس «الأوديسة» إنه — في عودته من حرب طروادة — مرَّ بجزيرة فاروس، أول أراضي الفرعون من ناحية البحر. كان فيها خليج هائل، تُبحر منه السفن الكبيرة، بعد أن تتزود بالماء. ما كان قرية هي راقودة، وجزيرة هي فاروس، وصلهما دينوكراتيس. أعاد تأسيس ما كان قائمًا، وأعاد تخطيطه وتوسيعه.

تاريخ الإسكندرية بدأ قبل قدوم الإسكندر. تاريخ الإسكندرية استمر بعد رحيل الإسكندر. لم تلامس عصاه الأرض الجديدة، فتهبها الحياة.

معظم المدينة مغطى بالآثار الفرعونية، مثل عامود السواري، والمسلة، والكثير من الآثار الصغيرة.

بعد مئات السنين، ظلت التماثيل والآثار منذ عهد الإسكندر والبطالسة قليلة، بالمقارنة بتماثيل ملوك الفراعنة وآثارهم.

انظر: الأبرج، أبو العباس، الإسكندر، أنجلو سبيرو، جودة هلال، حجازي أيوب، حمدي درويش، حميدو شومة، سيد حلال عليه، عبد الستار، عصمت محسن، علية ع شماوي، فاروق الأول، كامل أبو السعادات، ماهر الصاوي.



## رافع عبيد

الكرسي الوحيد في الغرفة، يجلس عليه الشيخ رافع عبيد. يقتعد شحاتة عبد الكريم والتلاميذ الكليم الأسيوطي، الممتد إلى قرب الجدران.

يشدُّ على التلاميذ بمداومة تلاوة سور القرآن وآياته، حتى لا يتوه من الأذهان ما تم حفظه. إذا انتهى التلميذ من حفظ القرآن كله، فإنه لا بد أن يواصل التلاوة.

لم يقتصر على تحفيظ القرآن. أضاف إليه فرائض الصلاة، وبعض المعارف الدينية، وسيرة الرسول وقصص الأنبياء، ومفردات اللغة والنحو والصرف ومبادئ الحساب.

يعلِّم التلاميذ كلَّ ما كان يعرفه. لا يرفض حتى الذين لا يدفعون مقابلًا للتعليم. يؤمن بقول الرسول: «مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، وَعَلَّمَهُ، وَلَمْ يَأْخُذْ بِمَا فِيهِ، وَحَرَّفَهُ، كَانَ عَلَيْهِ شَهِيدًا، وَدَلِيلًا إِلَى جَهَنَّمَ.» ويردُّ قولَ وليِّ الله عبد الرحمن بن هرمز: «اطلبوا العلم، فإن عجزتم فأحبوا أهله، فإن لم تحبوهم فلا تُبغضوهم.» وقول الولي: «لا يكون عالمًا حتى يكون متعلمًا، ولا يكون عالمًا حتى يكون بالعلم عاملاً.» وقول الولي: «ويل للذي لا يعلم مرة، وويل للذي يعلم ولا يعمل»، سبع مرات.

يؤذبه أن معاكسات الأولاد في الكتاب له، أفسى من العصا في يده، والفلكة المعلقة على الجدار. حتى لو ضربهم. العصا والفلكة وسيلة وحيدة للتخويف، أما وسائل الأولاد فلا عدد لها. بينه وبين آباء الأولاد صداقات. يرفض فقدها لأذية طفل. يتوعد بالضرب. ربما شتم بالأباء، وإن حاذر، فلا تتجه شتائمه إلى الأمهات.

يعتز بأنه من حملة القرآن وقراءته، العالمين بأحكامه وحلاله وحرامه، والعمل بما فيه، «إنما مثل صاحب القرآن — في قول النبي — كمثل صاحب الإبل المعلقة (أي المربوطة، أو المشدودة بالعقال، وهو الحبل) إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبته.»

لم يتحدث — ولا أحد — عن مدرسة تخرَّج فيها، لكنه حفظ سور القرآن. يجودها بالسبع. والكثير من الأحاديث النبوية، ومواقف السيرة، وألمَّ بقراءات في الكتب القديمة. بدأ حياته قارئاً للقرآن الكريم. امتهن تلاوة القرآن في المآتم، وخصص له الكثير من البيوت والدكاكين رواتب. إذا وجد وقتاً في النهار، مضى إلى مقابر العمود يتلو آيات القرآن.

اتهمه بريم التونسي بأنه جعل تلاوة القرآن مكسباً وحرفة يتَّجر بها. لا يقرأ الله، وإنما للأجرة.

قال له معاتباً: قد يقرأ القرآن من لا خير فيه.

ثم وهو يُزيح خصلة متهدلة من شعر رأسه: المثل يقول: أحقق من معلّم كُتاب. نكَّره الشيخ رافع — في نبرة متسامحة — بقول سيدي عبد الرحمن بن هرمز: اطلبوا العلم، فإن عجزتم فأحبوا أهله، فإن لم تحبوهم فلا تُبغضوهم. عُنِيَ بجودة الخط عند التلاميذ، يكتبون بالطباشير على لوح الأردواز، وبالقلم البسط، وبالسن ذي الأحجام المختلفة، يغمسه في الحبر الشيني.

لجمال خطه، كان عبد اللطيف النشار يُملي عليه ما يريد إرساله إلى الصحف من قصائد، ويخشى عدم فهمه. ينقل الشيخ رافع أصل القصيدة من أوراق النشار، يُعنى بوضوح الحروف والكلمات، وبالتشكيل.

يثق أن حفظ القرآن وتلاوته منغماً، يعنى حفظ اللغة العربية. ارتبط الغناء بطرق أداء القرآن. ظل له طابعه التقليدي الذي يختلف، حتى مع المغايرة، ومحاولات الإضافة والتطوير، عن الغناء الأوروبي.

ظلت الأنغام العربية خالصة، تنتقل — عبر تلاوات القراء — منغمة، ومجودة، ومفخمة. يقرءونها في المناسبات الدينية والموالد والأفراح، يُضمنونها الأدعية والتواحيش والابتهالات والقصائد والأدوار وأهازيج السحر. معظم الملحنين والمطربين كانوا — في الأصل — حفظةً للقرآن وقراءً: أبو العلا، المسلوب، المنيلوي، علي محمود، الصفطي، صباح، سلامة حجازي، سيد درويش، زكريا أحمد.

بعد أن لاحظ تفوق تلميذه سلامة حجازي عنه في المكانة وذيوع الصيت، اقتصرت قراءاته على المناسبات الدينية، وإن ظل على ثقة بجمال صوته.

لأنه أحب صوت محمد عبد الوهاب مثلما أحب ألعانه، فقد خشي على صوت عبد الوهاب من صوته. غنى عقب أداء عبد الوهاب وصلته في قصر رفقي زلابية. نطقت الغيرة في وجه عبد الوهاب.

أظهر الشيخ رافع تأثره: توقفت من يومها عن الغناء. أردت أن يحصل عبد الوهاب على الفرصة!

لما أهداه محمد كاظم ميلاني — التاجر بشارع الميدان — نسخةً من روايته «السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين»، تساءل الشيخ رافع في نبرة ساخرة: رواية عن فتاة خذلت حبك لها؟!

قال ميلاني: هي ردُّ على دعوة قاسم أمين.

قال الشيخ رافع: أعتزُّ بأني أول مَنْ طَبَّقَ دعوة الرجل.

واتسعت ابتسامته فكشفت عن غياب معظم أضراره: كُتَّابي يختلط فيه الأولاد والبنات، ويلزمون حدَّ الأدب!

رفض تصور أن المدرسة الجديدة، المجاورة، تؤثر على الكُتَّاب. مَنْ يطلبون لأولادهم دراسة علوم الدين يدفعون بهم إلى الكُتَّاب. الكُتَّاب يُعنى بتحفيظ القرآن كله، لا يتخرج التلميذ فيه إلا إذا حفظ سورة ومعانيها. المدرسة تكتفي بأجزاء يسيرة، وقد تكتفي بقصار السور. ربما المدرسة خطوة تالية.

تابع إغلاق أبواب الكتاتيب في بحري. اقتصر تحفيظ القرآن ومعرفة علوم الدين على المدارس والمعهد الديني. أقلقه تقلُّص دور الكُتَّاب في مواجهة المدارس الأولية والابتدائية والمعهد. اجتذبت إليها تلاميذ الكتاتيب، منها كُتَّابه.

نسي رافع عبيد ما تفرضه أصول الاحترام لأولياء الله. قال في حق سيدي الأنفوشي ما لا يصح قوله. اتهمه في ولايته، وما إذا كان داخل الضريح — بقلعة قايتباي — وليُّ بهذا الاسم.

تعددت مؤاخذه رافع عبيد على إيمان الناس بكرامات سيدي الأنفوشي ومكاشفاته. زاره وليُّ الله في منامه، دعاه إلى ضبط النفس، والامتثال للخلق القويم.

جلس رافع عبيد يأكل سمكًا مع جماعة من أصحابه. وكان سادرًا في رفض معجزات ولي الله. فدخلت شوكة سمكة في حلقه، فلم تخرج.

لجأ رافع عبيد إلى مستشفى رأس التين، وإلى الحاج جودة هلال، وإلى الطبيب الأرمني بشارع إسماعيل صبري.

تخلصوا منه جميعًا لعجزهم عن إخراج الشوكة. ظلت في موضعها، تمنعه من الأكل، وتُعيق تنفسه.

قال له غريب أبو النجا: تذكر سيدي الأنفوشي ... عاديته، فحقت عليك عداوته.  
قال رافع: ثبت إلى الله من ظلمي لوليّه!  
عطس رافع في اللحظة التالية. انتشرت الشوكة من حلقه، دون أن تُسبب الماء، ولا أذى.

عاد الشيخ رافع إلى القعود أمام حامل المصحف، يقرأ القرآن كما اعتاد عقب صلاة العشاء كل ليلة.

طالعه بياض الصفحات، تخلو من كلمة واحدة. استعان بالله، وأعاد النظر إلى ما بين يديه. طالعت الصفحات البيضاء. أغمض عينيه. حاول استعادة ما يحفظه من سور القرآن. تبين أنها نُسخت من صدره، فلا يذكر منها سورة ولا آية.  
رأى في المنام أنه يركب قاربًا يتجه به إلى صخرة الأنفوشي. يجتذبه سرسوب الدم المتساقط من ثقب الصخرة.

طالعته — في اقترابه — صخورٌ أخرى كثيرة، منعت اقترابه من الهدف الذي يتجه إليه. حاول أن يلتفت حول الصخور المتقاربة، المتناثرة.  
عاد إلى حيث بدأ.

كرر المحاولة، حتى أدركه التعب. اختلطت أمامه المرئيات وتشابكت. مضى في قلب غلالات ضباب لا نهاية لها.

رأى أنه يقلع لؤلؤًا ويبيعه. تأكد من أنه نسي ما كان يحفظه من القرآن.  
أدرك أن ما حدث هو انعكاس لغضب ولي الله.  
أطال الجلوس في حضرة المقام، يرجو، يتوسل، يُظهر الاستكانة، يطلب رفع الغضب.  
غلبت طبيعة سيدي الأنفوشي المتسامحة، فعفا عنه.

أذهل الشيخ رافع عبيد الناس وهو يهبط الدرجات الرخامية لجامع أبي العباس.  
ارتدى جلبابًا من الصوف، ومداسًا مغربيًا، وأصابعه تكررُ بحبات مسبحة من الكهرمان.  
خالف التوقعات بأنه سيتجه إلى ناحية الميدان. مال إلى الدحيرة الخلفية، وغيّبته انحناء الطريق عند مقام الست رقية.  
لزم الزاوية أشهرًا، تلبيةً لنداء صوفي.

تخلّى الشيخ رافع عن الكُتاب، وعن كل ما يمتلك. فرض على نفسه المعاناة والتجرد. رضي بحياة أقرب إلى النسك، بعيدًا عن دنيا الناس.

لم يُعد يتردد على الكُتَّاب، ولا يجلس في المقاهي، ولا على شاطئ الكورنيش، ولا يجول في الأسواق.

أقام في بيت أكبر أبنائه بصحراء المتراس، اختار غرفةً تنعزل عن بقية البيت، صغيرة، قوائمها من جذوع النخل، سقفها من الطين وسعف النخل، الباب، والنافذة الصغيرة، الوحيدة، من الخشب. تتصل بالساحة الرملية، يحيط بها سور حجري متآكل، وتخلو إلا من شجرة تين مثمرة.

ناقشه جودة هلال في بواعث انسحابه إلى الصحراء. قال بسرعة كأنه قد اطمأن إلى الإجابة: لو أن أحد أبنائي يسكن صحراء أبعد، ربما أقمت عنده.

حبب إليه سيدي الأنفوشي الخلاء، وسلوك طريق الصوفية. أخلص في خلوته للتجرد والتأمل والتنسك والعبادة والتفكير. يقضي أوقاته في طاعة الله تعالى، والمداومة على الذكر، والتقشف في العيش. قد يسيح في الصحراء، ويستظل بما يتناثر فيها من تلال، أو أبنية مهجورة، أو يأوي إلى بعض مساجد المنطقة وزواياها. تمتد إقامته أيامًا، تقصر أو تطول. يقطعها لزيارة باقي أبنائه في بيوتهم في بحري والوردبان وباكوس.

يطوف — قبل أن يعود إلى موضع الخلوة — بمقامات وأضرحة أولياء الله. يقرأ الفاتحة، ويلتمس العبرة والنصح. أسقط ما كان يعتقد في رفض ولاية أولياء الله تعالى، وصدق كراماتهم.

أطول وقفاته أمام سيدي الأنفوشي بقلعة قايتباي. يلون صوته بالتذلل، يطلب أن يظل وليُّ الله على ثبات نفسه، وتسامحه، وعفوه.

تعمقت طاعته لله، وصدقت. عمل بتعاليم أبي الحسن الشاذلي: احتقار الدنيا، والتمسك بما في كتاب الله وسنة رسوله، واللجوء إلى الباري في كل الأحوال.

تعلم آداب السلوك وحقائق التصوف. عرف العلوم الظاهرة والباطنة. لم يكن التصوف مجرد أداء لما تأمر به الطريقة الشاذلية، ولا خضوع لأحكام الرياضة والمجاهدة وحدها، إنما هو سبيل إلى المعرفة اليقينية. أخلص في الوجد والخشية والخشوع. لم يُعد قلبه يتسع إلا لذكر الله. تهيأ لاستقبال الإلهام الإلهي، والأسرار الربانية، والفيوضات الروحانية.

زاره خليل الفحام في خلوة المكس.

بدأ مهمومًا وحزينًا بما حدث في ميدان أبي العباس.

حلت في قلب الميدان بناية هائلة، امتصّت الملامح والقسمات. اختفت أضرحة الأئمة الأربعة عشر، والأبواب الجانبية لجامع أبي العباس، وإطلالة الطريق إلى السيادة، والدحديرة المفضية إلى الموازيني، وغاب سوق العيد، والسرادات، وخيام الصوفية، والموالد، وحلقات الزفاف، وأكشاك الختان.

قال الفحام: ربما تخليت عن التسجيل.

وفي لهجة متصعبة: سأعجز — بعد زمن — عن استعادة الميدان في صورته القديمة!

هزّ رافع عبيد رأسه، مؤمنًا على كلامه: لأولياء الحي مكاشفات بلا حصر.

وغلبه الانفعال، فعلا صوته: ما نملكه أن نستغيث بهم ليُعيدوا كلَّ شيء إلى ما كان

عليه!

رُوي أن عيد القدوسي — فتوة المكس — لاحظ الحياة الجديدة في البيت، أول الطريق إلى الصحراء، أخبره صديانه أن الشجرة اعتادت العقم، واعتاد الناس فروعها الجرداء. نقلوا إليه ما أذاعه الناس من توبة الشيخ رافع على يدي سيدي الأنفوشي، وخضوعه لقطبيته، وتلمذته على أحواله ومكاشفاته وخوارقه.

دعا الأنفوشي، فسرت الخصرة في الشجرة، وتدلت الثمار. يأكل منها الشيخ رافع

كلما قرصه الجوع.

نسبت إلى الشجرة حالات شفاء من المرض. صار الناس يأتون إليها من الأماكن

البعيدة، يأخذون ثمارها وأوراقها، يحاولون مداواة ما لم يُفلح الأطباء في علاجه.

خشي القدوسي من أن تتبدل نظرة الناس إلى الشيخ. يزورونه، يلتمسون الخير

والبركة والمدد، يجدون فيه الولاية التي تجذب وتستقطب، تهتز — أمام النظرة الجديدة

— صورة الفتوة، أو يُسقطها الناس. يواجه — في قادم الأيام — ما لم يخطر في باله،

ويؤذي مكانته.

أمر القدوسي أعوانه.

تسللوا — في الليل — إلى موضع الشجرة. انهالوا عليها بالبلط والفتوس، يحاولون

اجتثاثها. لكن النيران المفاجئة، سرت في فروع الشجرة، وأحاطت بالمتسللين. من لم يفز

بحياته أكلته النيران.

## رافع عبيد

في صباح اليوم التالي، رأى الناس الشيخ رافع جالساً على باب حجرة اعتكافه.  
الساحة الرملية خالية، إلا من الشجرة التي سرت في فروعها الخضرة، وتدلت الثمار.

انظر: الأنفوشي، جودة هلال، خليل الفحام، رفقي زلابية، سلامة حجازي، عبد  
الرحمن بن هرمز، عبد اللطيف النشار، غريب أبو النجا، محمد كاظم ميلاني.





## رفقي زلابية

حين قال الحاج جودة هلال إن الست صبيحة الداخني تظهر جالسة — أحياناً — لصق المقام الذي بنته لنفسها، تحدّث رفقي زلابية عن اختفاء الموتى، وأنه لا يكون تاماً. نحن ندفنهم، ونزورهم، نتذكرهم أو ننسأهم، لكنهم يعودون — في كل الأحوال — إلى حيث عاشوا.

موتانا ينتقلون إلى العالم الآخر، فيظلون أحياء، يزورون مَنْ يعيشون معهم في الأبدية، ويزورون أحبائهم في الحياة الدنيا، يلاحظون، يتألّمون، يُشفقون، يتصعّبون، يبذلون النصيحة.

قال الشيخ عبد الستار: يتحدث القرآن عن حياة ثانية بعد الموت. وعدل من وضع عمامته فوق رأسه: إنها حياة موجودة، ولولا ذلك ما خاطب الرسول أهل القبور المؤمنين بقوله: السلام عليكم دار قوم مؤمنين. وخالط صوته حنوً واضحاً: مخاطبة الموتى حقيقة لا تُنكر.

وأوماً بابتسامة متواطئة: لكننا لا نعرف كيف تكون الحياة الثانية، وما أوجه الشبه بينها وبين حياتنا في الدنيا؟ ومتى تنقطع؟ وهل هي للمؤمن، أو للكافر، أو لكليهما؟ زارت رفقي زلابية — في حجرته — أمّه الميتة. وقفت فوق رأسه. انتتر في موضعه، ورآها رؤية العين.

عرف أن جدران البيت لن تُعيق دخولها، ولا تتقلّبها بين الحجرات. هي — بعد الموت — طيف أثري، لا يجسد إلا في المنام، ولن تريد أن يراها. قالت إنها رأت — في منامها — ثمرة تسقط من شجرة. أدركت أن أجلها قد حان. رأت — في ليلة ثانية — سقوط خاتم من إصبعها، فتأكدت من المعنى. رأت — في ليلة ثالثة — أنها سقطت من فوق شجرة، وماتت. أيقنت أن هذا هو ما ستواجهه في وقت

قريب. احتفظت بما رأته في نفسها. لم تحدّث فيه رفقي حتى لا تؤذيّه، وإن تهيّأت للرحيل.

قالت الأم إن كل ما يولد لا بد أن يموت، وكل ما يأتي لا بد أن يذهب. وقالت: إن أرواح الموتى لا تموت بموت الأبدان. تخرج أرواح الناس من أجسادها في لحظة الوفاة. تنتقل إلى عالم آخر، تنتظر فيه يوم الدين، تتركه — في حالات معينة — إلى دنيا الأحياء، تطمئن على أحوال أحبائها. تدخل أجسادًا روحية لا تُرى إلا لأولياء الله، أو في منام الأحباء. تتصل — من خلالهم — بالحياة الدنيا، تسأل عن أحوالها، وأحوال ناسها، وتتحدث عن أحوال الآخرة، وما ينعم به المؤمنون في جنات الفردوس. وقالت الأم: في دنيا الراحلين لا توجد أسرار، حتى ما يحرص المرء على إخفائه في حياته، لا يملك الفعل نفسه في العالم الآخر.

لما سألتها رفقي إن كانت تعرف شيئاً حقيقياً وراء الموت، اكتفت بابتسامة مشفقة، وقالت: ليس إلا الخير.

أدرك أن الإشفاق يغلبها، فتسكت عن الأسئلة التي — ربما — شغلّتْها مصائر من أسرفوا على أنفسهم.

قال الشيخ عبد الستار إن الحياة الأخرى على اتصال دائم بالحياة الدنيا، لا انفصال بينهما. الإنسان يتلاشى جسداً، لكنه لا يتلاشى روحاً. يبقى الذكر والعلم والعادات والميول والأذواق. قال الشيخ إن روح الأم، وليس جسدها، هي التي تظهر، وتخطب ابنها. من يُنكر وجود الروح، إنما يُنكر وجود النفس، ومَنْ يُنكر وجود النفس، إنما يرفض حقائق الدين. الروح لا تموت، تظل حية في عالم البرزخ، وإن مات الجسد. تملك القدرة — بحول الله — على رؤية الأحياء، ومخاطبتهم، والاتصال بهم، بوسائل يعلمها الله.

قالت الأم إنها التقت — في الحياة الآخرة — بكل مَنْ سبقها من الأقارب والمعارف والجيران. حتى الذين أخذهم الأجل ممن كانوا يشاركونها وقفة شروات السمك في الحلقة، سهل عليها تبيّن ملامحهم، كما سهل عليهم تبيّن ملامحها. لم يصعب الأمر ما ارتداه الجميع من ثياب سماوية.

تهدج صوتها بالعتاب وهي تُحدّثها عن حاجة الراحلين إلى الأحياء، مثلما أن الأحياء في حاجة إلى الراحلين. تبادلّ الزيارات والود والمؤانسة، هو ما ينبغي أن يحرص عليه الجميع. الحياة — بعد الموت — تتواصل بلقاء الأعراف، نتعرف على أحوالهم، نُشاركهم الفرحة، ونواسيهم فيما قد يعانون من مشكلات. الموتى يترددون على آخر الأمكنة التي

عاشوا فيها، وهي لم تغادر البيت الذي قضت فيه كلَّ سِنِي حياتها. طال غيابهم عن قبرها فعانت الحرج في العودة إلى البيت. رباط — تدرکه جيداً — يشدُّها إلى البيت الذي أمضت فيه معظم عمرها.

الحب — حتى في دنيا الموتى — يصعب أن يكون من طرف واحد. البعيد عن العين، تُقَرِّبه الزيارات التي تسأل وتطمئن. ما جئتُ — رغم حزني — إلا لأدلك على موضع الكنز الذي تركه أبوك في قاع البحر، بالقرب من الإسكندرية. عرف أبوك — من تعالي الأمواج بما لم يشهده من قبل — أن البحر يُعد لابتلاع البلانس نوفل. حدد الأب موضعاً، ألقى فيه بما كان يحمله من رحلته في عالم جنيات البحر. ربما وافقت الجنية على عودة الأب إلى بحري، ثم انتابها الرفض. ابتلع البحر البلانس بعد أن اطمأن المعلم زلابية الشيمي إلى موضع الكنز خارج البوغاز. التقت الأم في دنيا الغيب بمن دلَّها على موضع الكنز، وخطوات الوصول إليه. قالت إن الموتى يطلعون على عوالم من أمر الله، يصعب على سكان وجه الأرض إدراك شيء منها.

كان السعداوي شبانة من بحارة البلانس تحت قيادة أبيه لما ابتلعه البحر. اطمأن إلى الموضع الذي نصح به أبوه. الكنز مدفون في مكان ما داخل البحر، في المسافة بين مرسى قوارب المينا الشرقية وما وراء مساكن السواحل. ظل الكنز مخفياً، لا ينقصه إلا تحديد المكان. هذا ما أبلغته به أمه.

نصحته أمه أن يكون البدر في تمامه، ليلة نزوله إلى موقع الكنز.

وضع همّه في أن يحصل على الكنز. لا بد أن يحصل عليه. هو بغلة العرش التي تُنقذه مما يعانیه. يصل إلى الكنز. يفعل — بما يحصل منه — على ما يريد. يعيش في هناءة كتلك التي عاشها علي بابا، بعد أن عثر على كنز الأربعين لَصاً. يتزوج فتاةً أجمل من مرجانة، وأشد منها وفاء.

غالب تردده وهو يمضي بالفلوكة في اتجاه الجزيرة الصغيرة، قبالة شاطئ الأنفوشي. يداخله ما يُشبه اليقين أن الجزيرة لا تصلح حتى لهبوط البشر. هي تمتلئ بالأطياف والأرواح والأشباح ومخلوقات البحر الغريبة. من المستحيل أن تطأها قدم بشر. رُويت حكايات كثيرة عن المخلوقات التي تُعنى بالكنز، تحرسه من الأيدي الشريرة. مَنْ تأخذه الجرأة فإنه سيواجه بما لم يخطر على قلبه: التجمُّد في هيئته، أو التحول إلى كومة رماد، أو إلى طائر يغيب في الأفق، أو الموت.

رأى عروس بحر جالسة فوق صخرة على حافة الجزيرة. حدس — في أول رؤيته — أنها امرأة تستحم بضوء القمر. انتبه لذيل السمكة في الجسد المتصل بالجسد الأنثوي العلوي.

هي عروس البحر كما تحدثت عنها حكايات أبيه، ومَن سبقوه إلى ركوب البحر: وجه إنسان، وصدر إنسان، وذيل سمكة. قبل أن يغالب ارتباكها، نادته باسمه. فاجأته بكلام البشر، فشحب خوفه. قالت وهي تُنهنه: رافقت قافلة حتى بعدت عن موطني. — أليس البحر موطنك؟

— أقصد الأعماق التي يعيش فيها أهلي من مخلوقات البحر. بعدت المسافة بيني وبينها، فلا أعرف أين هي.

— ما عليك إلا أن تغوصي وتواصلي السباحة، حتى تجدي أهلك.

— أخشى أن أمضي في الاتجاه الخاطئ.

— ألا تذكرين الموضع الذي كنت تخرجين إليه؟

— هو قريب من أبو قير.

— اسبحي إذن على امتداد الساحل حتى أبو قير.

قال غريب أبو النجا: لم تكن من التقيتُ بها جنية البحر الأم.

أردف موضحًا: جنيات البحر مثل نساتنا فيهن أمهات وبنات.

ثم في نبرة مستغربة: العادة أن الجنية الأم التي تملك الحياة في البحر هي التي تجلس فوق الصخرة.

وضرب بأصابعه على ظهر كف زلابية: هي جميلة، وتُجيد اجتذاب الرجال، لكنك

التقيت بواحدة من بناتها.

دانت جنية البحر الأم له بفضل عودة صغيرتها إلى موطنها. انتظرت رفقي زلابية فوق الصخرة. نادته. حددت له موضع الكنز. الأمواج فوقه تفور وتغلي. دائمًا تفور وتغلي، كأنها فوهة بركان. غطته الرمال والأصداف وقطع الحجارة والطحالب والأعشاب وكومات الحطام المتبقية من السفن الغارقة. اختار المعلم زلابية الشيمي الموضع، فلا يتصور أحد أن الكنز تحته. يخشى الاقتراب منه، فيظل في مأمن من محاولات السلب والسرقه.

رافق عروس البحر في غوصها حتى الموضع الذي تحدثت عنه أمه.

لم يكن في تصوّر رفقي زلابية أن البشر يستطيعون العيش تحت الماء، لكن الحورية اصطحبته إلى الأعماق. أهملت ما رُوِيَ عن المخلوقات التي استأثرت بالكنز، لا تُتيح الحصول عليه لأحد.

هبط إلى أماكن مجهولة، ساحرة، لم يتخيلها، ولا توقّع رؤيتها. أمرت عروس البحر حراس الكنز من الجان أن يُخلوا أماكنهم.

عاد بالكثير مما في داخل البلائس الغارق من النفائس والذهب والمجوهرات.

أخذ ما استهوى عينيه.

لم تطل إقامته في دنيا الحوريات، حتى ذوى السحر والدهشة. تملّكه الحنين إلى بحري: الكورنيش، والحلقة، وميدان أبي العباس، والموالد، والجلوات، وحلقات الذكر، والمجازيب المستندين إلى الجدران، ومباريات الكرة، والقعدة فوق السطح، ومدخل البيت الخافت الضوء، واختراق زحام شارع الميدان.

وهبته العروس شعراتٍ من رأسها، صارت — بالتضفير — حبلاً طويلاً، قويّاً، لمرساة فلوكته.

قبل أن يتصرف في النفائس التي عاد بها، اتجه رفقي إلى الشيخ عبد الستار بالسؤال: حين أجد كنزاً في داخل البحر ... ماذا أفعل به؟

قال الشيخ: صيد البحر حلال. حتى كنوز الأعماق حلال لمن يعثر عليها!

تبدّل حال رفقي زلابية من يومها.

خاصم الفقر، وأوصى المعلم عمران الخولي بصنع ثلاثة بلانسات في القزق، أتاح له صيدها الجلوس شيخاً للصيادين في الحلقة. خصص لأمه مقبرة في حوش العائلة بالعامود، وأقام ليلة لأبيه أمام مسجد نصر الدين.

طلبت الأم ابنها أن يسدّد من أموال الكنز ديوناً عليها لمعلمين في الحلقة، وتاجر منيفاتورة في شارع الميدان. أضاف إلى ما سدده من ديون، صدقة جارية على روح الأم الراحلة.

سكن في بيت — من بابه — بحارة صحاح. لما وسّعت الحارة، وتحوّلت — في ١٩٣٥م — إلى شارع، انتقل إلى شقتين. وصل بينهما. في البيت رقم سبعة، المطل على الأنفوشي.

عاش في عالم لم يكن رآه من قبل، ولا يعرفه، ولا عهد له به. أقبل على الدنيا، وانقطع عن الآخرة. انشغل بالشهوات والملذات الدنيوية. ذهب حبُّ الترف، والميل إلى الاستمتاع بملذات الحياة، بما كان في نفسه من التقوى والورع. غفل قلبه، فتاه في ظلمات الضلالة. غابت من نفسه خشيةُ الله وتقواه. اشتهر بلبالي الغناء والرقص والطعام والشراب والنشوة والمؤانسة وما لا يحل، ويستظهر بذلك. اخترع له خدم القصر أفانين اللذات والرقصات والأغاني. جرّته الشهوات إلى الحضيض الأسفل. لم يرتدع بالوعيد، ولا أنصت إلى عظات الأئمة في صلاة الجمعة، ولا قنع بما يساوي جهده، ولا شَبِع من الحرام. نسي الموت والحساب.

لم يُعد للزمن عنده شأن. الأمس مضى، واليوم نحياه، والغد في يد الله. حتى الشيخ خلف فرحات إمام جامع المسيري القريب، خطب في المصلين أن زلابية يُزَعج قاصدي بيت الله، يُشغلهم عن الصلاة، وتلاوة القرآن، وتأمل الملكوت. أَلِف سكان الشارع ترامي الموسيقى والغناء من بيت زلابية. لم تكن تمرُّ ليلة دون أن يستضيف ضيوفاً من بحري وخارجه. يُقلق النائمين بالصراخ ودقِّ الدفوف والطبول والصاجات، والعزف بالنايات والكمنجات، والغناء، ومجالس الأُنس والطرب والدعابة والقافية، وغير ذلك مما يأباه الناس في بحري.

يواصل وأصدقائه الشربَ واللهو حتى الصباح. يحيا حياةَ الأمراء المترفة.  
تعالَى صوتُ ماهر الصاوي:

طول ما معاك المال	تعمل لك الرجال خاطر
كلامك يمشي ع العدا يا عم	ع العين وع الخاطر
واللي بلا مال بين الرجال	لا هو على البال ولا خاطر

دعا إلى بيته كبار المطربين: سلامة حجازي، وصالح عبد الحي، وحامد مرسي، ومحمد السبع، وعلي عبد الباري، ومحمد فوزي، وجلال حرب، وعبد العزيز محمود، وعزت عوض الله، وحمامة العطار.

زاره محمد عبد الوهاب — مطرب الملوك والأمراء — ثلاثَ ليالٍ، في أشهر صيف متتالية. خصص له رفقي سيارة مسدلة الستائر، فلا يفتن أهلُ الحي لقدمه. قصرَ الحضور على أصدقاء من خارج بحري.

احتضن عبد الوهاب عودًا قدّمه له رفقي زلابية. حرّك عبد الوهاب في الليالي والموال. غنّى: صوتي كمنجة وأحب المنجة، فيك عشرة كوتشينة في البلكونة، مين عدّبك بتخلصه مني، جفنه علم الغزل، الميه تروي العطشان، ياوابور قوللي، حسدوني وباين في عينيهم. غلبت النشوة الحضور. اهتزوا، تمايلوا، هللوا، استعادوا المقاطع. ترك رفقي مقعده. جلس تحت قدمي عبد الوهاب. يُغمض عينيّه في تأثر، ويطلب الإعادة.

أهدى عبد الوهاب — عند وداعه — صندوقًا خشبيًا صغيرًا، مغطّى بمربعات الصدف. بداخله بعض ما عاد به إلى البر من المجوهرات والحلي النفيسة. قال وهو يعود إلى البيت: صار عبد الوهاب مطرب الملوك والأمراء ... ورفقي زلابية. كان يستعيد — في ليالي السمر — ما جرى له منذ هبوطه إلى أعماق البحر. يستعين بخياله في وصف قصور الزجاج، الأرضية ذات الرمال الناعمة، المزينة بالذهب المرصع بالجواهر، والأصداف في أشكال مربعات ومثلثات. البوابات الجرانيت والرخام والمرمر. الأعمدة القرميد المزينة باللؤلؤ، وبفصوص الزمرد الأخضر والياقوت الأحمر، الأصداف الهائلة، والمحارات الجميلة التكوين، الجدران المغطاة بالجواهر. الأسرّة على هيئة الأصداف تُحيط بها صفائح الذهب، الحمامات كأنها محارات مزينة بفصوص الأحجار الكريمة. ركب عربة من الذهب الخالص، مزينة باللاّلي والأحجار الكريمة، مبطنة بالديباج، يجرّها أربعة وعشرون من جياذ البحر. يسبح أمامها، وحولها، أسماك من كل الأحجام والأنواع.

كان يعاني شعورًا مفاجئًا — كهبّات ريح ساخنة — بالعزلة والوحدة. حجه العزُّ عن الناس الذين طالت معاشرته لهم. استبدل بهم ناسًا آخرين، غيّرُوا حياته. ندماؤه وسُمّار ليلاليه من أحياء بعيدة، لا صلة له ببحري، ولا بأهله. هذه السهرات التي لا تنتهي. قال الحاج جودة هلال: أنت الآن معلّم قد الدنيا. صبيانك يتولّون العمل، ويأتون لك بالإيراد!

يُغنيه خدمه عن البيع والشراء، والنزول إلى الأسواق. تمنعه مكانته من الجلوس على المقاهي، أو المشاركة في سباقات البنز، أو مشاهدة مباريات كرة القدم في الخلاء. تاق إلى وقفة الحلقة. الضوء الشاحب المتسرب من ثقب السقف المعدني، وملاقف الهواء، والطاولات، والطبالي، والققف، والمقاطف، والظسوت، والقروانات، والمزاد والبيع، والشراء، والفصال، وألواح الثلج، والماء العطن، والفريشة، وأرقام مفتش الضرائب، وملاحظات مفتش الصحة، وإتاوات الأجر وحميدو شومة.

حين دُعي رفقي زلابية إلى سراي رأس التين، أسلم نفسه لتصورات. يثق أن ما يحياه في بيته لا يبلغ ما يحياه الملك.

هل استدعاه الملك ليعرف حكايته العجيبة؟

كان عمران الخولي قد أتاح له — قبل أن يعود من رحلة الثراء — أن يدخل السراي، وهو مختبئ خلف المقاعد الخلفية في سيارة الملك الحمراء. ظل متداخلاً في موضعه، حتى همس الخولي بما يعني الأمان.

لم يستطع رؤية القصر من الداخل، وإن بدا ما رآه أجمل مما كان يتصوره: النخيل الملكي ذو السيقان البيضاء، والقامة الفارحة المستوية، أشجار البانسيانا ذات الزهور الحمراء، أزهار البنفسج والزعفران والتوليب والسوسن، الحدائق الواسعة، المفروشة بالخضرة، تتخللها أحواضُ مزدانة بما لم يسبق له رؤيته من الورد، الفسقية الرخامية، ينبثق الماء من نافورتها الهائلة، ومن حولها تماثيلٌ لأسود وتماسيح وثعابين، الجواسق المطلة على النافورة وسط الساحة الهائلة. في الزاويتين برجان عاليان، لهما نوافذ حجرية، مفتوحة على الجهات الأربع. امتداد البحر — باتساعه الذي لا ينتهي — يقابل حدائق القصر وبنائياته.

سبقه الرجل ذو البذلة الكحلية داخل القصر.

تأمل ما حوله بالذهول: الباب الخشبي العالي، الأسقف العالية المزينة بالنقوش والزخارف الدقيقة والمنمنمات والمقرنصات والتيجان الرخامية والقبة، الجدران المكسوة بخشب الماهوجني والجوز، المكتبات التي تصل بين الأبواب والنوافذ، وتغطي مساحات الجدران، السجاجيد الفاخرة، الردهات المزدانة باللوحات، وروعوس الحيوانات الأفريقية. إن كان هذا ما أُتيح له رؤيته من قاعات القصر وردهاته وقاعاته، فكيف تكون بقية القصر؟

الطريق خالية، والصمت سادر، وإن شعر بالأعين التي تتابعه من مواضع لا يراها. عرف أنه يقف أمام باب مسحور، لما انشق الجدار عن فتحة في هيئة الباب. بدت — من ورائها — قاعة واسعة، يتوسطها مكتب جلس وراءه الملك. راعه أن الملك استقبله بنفسه.

قال في جلسته وراء المكتب الضخم، المصنوع من الأبنوس والصدف: رفقي زلابية؟ وهو يُرَبِّت صدره، وينحني: خادمك يا مولانا.



قال الملك: البكباشي حمدي درويش يرى أننا نستطيع أن نعتمد عليك.

أعاد القول: خادمك يا مولانا!

أشاح الملك بيده دلالة إنهاء المقابلة.

زار — وهو يمضي خارج القصر — ضريح سيدي البرقي. قرأ الفاتحة. تشفّع عند وليّ الله، حتى يحفظ الله نعمته.

دعا أصدقاءه — في مساء عودته من لقاء الملك — إلى أكلة كافيار، أمر الملك بإهدائها

له.

أيقظه صوتٌ — ذات ليلة — كأنه لعروس البحر. عاشا معاً، وتكلّما كثيراً. لم يعد يخفى عليه صوتها.

أخذ عليه الصوتُ انغماسه في ملذات الحياة، واستمتعاه بها. كثرت أمواله فلا يعرف كيف يُنفقها، ولا أين يجد وسائل الإنفاق. أهمل ما يفرضه عليه العزُّ الطارئ من الاعتراف بنعمة الله. باع دينه بعرض من الدنيا، فقصر حياته — أو كاد — على الندامى والكئوس والطرب وسماع مزامير الشيطان، وفتح أبواب مجلسه لضعاف النفوس والجهال والأحداث، وأصحاب الأهواء والشهوات واللعب.

طالبه الصوتُ بأن يستنّ بسنة رسول الله، ويهتدي بهدي السلف الصالح. يبتعد عن طريق السوء، ويتخلّى عن صحبة أهل الشر. يتخلص من حظوظه، وأوصاف بشريته. يحفظ نفسه من الاحتراق بأمور الدنيا وزخرفها.

— أبقى على إنسانيتك لأنك أنقذتني.

وتداخلت في الصوت بحّة غريبة: حرمت نفسي من الاستمتاع بجسدك، لكنك أنفقت — من كنوزي — على استمتاع هذا الجسد.

قال زلابية كأنه يحدث نفسه: أثق أنني أفضل من آخرين.

قال الصوت: لست أفضل من الذين يؤدون فرائض الله.

استطرد في نبرة ساخطة: ويسرقون ويظلمون.

أهمل زلابية الصوت. أرجعه إلى إلحاح عظات الشيخ خلف فرحات إمام مسجد

المسيري ونصائحه.

أزمع أن يعلن توبته في لحظة استقباله للموت. عندما يشعر بدنو الأجل، يعرف أن

هناك ما يسبق طلوع الروح. أضمّر توبةً للحظة الأخيرة.

قال له الصوت، في ليلة تالية: هل أنت على معرفة ما إذا كان الأجل سيمتد بك حتى تُعلن التوبة؟

وعلا الصوت في تساؤل مستغرب: ألم يرد في بالك أن الموت قد يُفاجئك واللحمة في فمك؟!

لاحظ أن أمّه لم تُعد تزوره في نومه. غابت زياراتها، وأسئلتها، وأحاديثها عن الحياة الآخرة، ونصائحها.

حدس رفقي أنها غاضبة منه، أو أنها تخشى عليه غضب عروس البحر. مرة وحيدة، ظهرت له أمّه في لحظة، لم يتبين إن كانت في الصحو أم في المنام. كانت في غير الهيئة التي زارته بها من قبل. بدت شعثناء الشعر، دامعة العينين، ترتدي عباءة سوداء، في حلقة الظلام الذي يحيط بها. لم يكد يتعرف على ملامحها، حتى استدارت بجسدها ناحية النافذة. ناداها، فلم تردّ عليه.

أعاد النداء، فلم تتحرك في موضعها. قالت — دون أن تحوّل نظرتها عن فراغ الظلمة — إنها غفرت له تعجيله بدفنها.

كانت الشمس قد مالت إلى الغروب حين مضى وراء نعشها، مع قلة من الجيران إلى مقابر العامود. استعان التربوي بكلوب، استكمل في ضوئه إعداد القبر. إذا كانت قد غفرت له فعلته الأولى، فلن تغفر له أذيتها مرة ثانية. الحياة — حتى بين الآباء وأبنائهم — أخذُ وعطاء. من يطلب المنفعة ينبغي أن يبذل المقابل، هي لا تأمل سوى أن يعمل رفقي بفضل الله عليه.

انتفض جسدها بنشيج.

فرك عينيه لتبين الأمر.

كانت الروح التي تشكّلت في جسد أمه قد اختفت. حدس أنها انطلقت من النافذة المفتوحة.

رأى في المنام أنه يصعد إلى أعلى مئذنة، تنبثق في الضباب، لا تبين عن الجامع الذي تعلوه. ألقى بنفسه من الشرفة الدائرية الصغيرة. تلقّفه الفراغ. استيقظ على صرخة يرادفها تحسُّس لما تصل إليه يده من جسده.

قال شحاتة عبد الكريم: المئذنة خير.

وفي نبرة تهوين: أما سقوطك من فوقها، فالأحلام تفسر بعكس ما نراه!

صحا ذات يوم، فوجد نفسه وحيداً، غريباً، على الصخرة بالقرب من الأنفوشي.  
انبجس ثقبُ الدم من الصخرة، كقطرات المطر، تغطى رفقي بالحمرة.  
فرك عينيه، يتبين الجسد العملاق، ألقى ظلُّه من قلب الصخرة إلى حيث ارتمى رفقي  
زلابية على الحافة. له هيئة البشر، وإن علت قامته كصاري البلانيس. الشرر في عينيه، وما  
يُشبه الدخان ينبعث من فمه وفتحتي أنفه، ويدها تشكلان نصف دائرة، تعدان بما لا  
يقوى رفقي على تصويره.

توله عقله بما رأى، وسمع.

قالت روايات إن ولي الله علي تماراز هو الذي دفع رفقي زلابية إلى مصيره. عاب عليه  
التهالك على الدنيا وزينتها. لم يؤدّ شكر النعم التي أنعمها الله عليه، صرفها في المعاصي،  
وتمادى فيها. أصمُّ أذنيه عن تلقّي النصيحة، واستمر في غيّه. دعا علي تماراز مخلوقات  
البحر أن تسلب زلابية ما لم يعد من حقه.  
استجابت عروس البحر لدعوة ولي الله. ألقى به أعوانها في أرض الجزيرة. تركوه  
للمارد يفعل فيه فعله.

انظر: جودة هلال، حمدي درويش، شحاتة عبد الكريم، صبيحة الداخني، عبد  
الستار، عروس البحر، عمران الخولي، علي تماراز، فاروق، المارد، ماهر الصاوي.



## سامي بهاء الدين

لا أحد يدري متى قَدِمَ سامي بهاء الدين من مدينته — الدلنجات — إلى الإسكندرية، ولا لماذا اختار الإقامة في بحري، رغم أنه افتتح مكتبًا للمحاماة في شارع شريف. انتقل — في عام ١٩٣٣م — من بيته المطل على باب رقم واحد إلى طريق الكورنيش. كان — قبل ذلك العام — يشارك أبناء بحري تحاشي الاقتراب من شاطئ البحر. لا سدود أمام مد الأمواج، لا عوائق تصدُّه عن الاندفاع إلى أقصى نقطة يريد بلوغها. تكررت حوادثُ الغرق، وتهدُّم البيوت، وارتفاع المياه الجوفية. بيته هو الرابع بعد بيت حسين سري باشا، وبيت الدكتور فؤاد سلطان، وفيلا مصطفى فهمي باشا. وصل حلقات السلسلة. امتدت على واجهة الكورنيش الحجري، يوقف — والمصدات الأسمنتية في أسفل — اندفاع الأمواج إلى قلب المدينة. تذكره أبناء بحري عندما قَدَّمَ أوراق ترشيحه إلى انتخابات مجلس النواب. قَدَّمَ نفسه باعتباره ابنًا للحي.

اشتهر ببراعته في الترافع أمام محاكم الجنايات ومحاكم النقض. يُجيد تقديم الدفوع، والاستشكالات، وفتح الثغرات، والمماطلة في تنفيذ الأحكام. قد يلجأ إلى محامي الخصم، يعرض عليه ما يُغريه بالعدول عن القضية، أو خيانة موكله. تشمل قضاياها القتل والاتجار في المخدرات والاختلاس والغش والرشوة والتزوير والابتزاز وهتك العرض ومقاومة السلطات وحيازة الأسلحة والممنوعات والهروب من الأحكام. عرف أسرار الكثير من الرجال والأسُر. لا يترك معلومة دون أن يدفع بها في ملف، يضمُّه إلى الملفات الكثيرة المرصوفة في أرفف المكتب. يظهر غضبه للقول بأنه لا يُجيد الترافع إلا تحت تأثير المخدرات. إن زال تأثير قطعة الحشيش، أو فص الأفيون، شردت ذاكرته، وعانى التلعثم والتهتة.

تعددت مجالسه وجلساؤه في سيسيل وسان جيوفاني ويونيكما وبترو والإكسلسيور. أكثر مجالسه في التريانون، إلى جانب النافذة المطلة على ميدان سعد زغلول، على طاولته عصير برتقال وفنجان شاي وتوست محمص وشطائر بطريقة البوربون وقطعتا كيك. صارت له علاقاته الواسعة بالوزراء ورجال الأحزاب والساسة وحاشية الملك. تحدّث عن زيارات متقاربة إلى دار المندوب السامي (السفارة البريطانية فيما بعد) بقصر الدوبارة. قطع زيارته بعد اقتحام القوات البريطانية قصر عابدين، وفرض حكومة برئاسة النحاس باشا. اعتبر ما فعله اللورد كيلرن إهانةً للملك، وللمصريين، وللنحاس نفسه.

ربما استقبل أصدقاءه في الشاليه المطل على شاطئ المنتزه، أو في البيت الصغير بناحية كنج مريوط. يعتز بعضويته في أندية الإسكندرية: سبورتنج، سموحة، الاتحاد، الأولمبي، الترام، المكابي. حتى أندية بحري المطلة على الكورنيش، يساعدها — بتبرعات مادية — على أداء أنشطتها.

لاحظ سعيد العدوي ترده على العطارين وأحياء الرمل. يقتني التُّحف الفنية، واللوحات الأصلية لكبار الفنانين. ينقلها إلى بيته في زيزينيا. قال: هذه وسيلة جيدة للاستثمار.

أردف للدهشة المتسائلة: إنها مثل المرسيدس والرولكس ... تتضاعف قيمتها إذا زاد عمرها!

قال العدوي: تصورتُ أنك تفتنيتها لإرضاء حبِّك للفن. قال بهاء الدين في صوت مفعم بالثقة: هذا صحيح. أحب الفن، وأحب المال أيضًا! رضخ لتهديد البكباشي حمدي درويش بأن يغيّر لون سيارته. عرف أن الملك فاروق قصرَ اللون الأحمر على سيارته. إذا انطلقت إحداها، فطن المارة إلى أنها سيارة الملك. همس بالقول لخليفة كاسب: قد تُطلى عربات المطافي بالأسود إرضاء لمولانا. استطرد في لهجة عابثة: ربما يقصرونها على جلالته وحاشيته!

منذ ترك الوفد مع مجموعة مكرم عبيد. أزمع أن يُهمل النوازع والحساسيات الحزبية. لا شأن له بصراعات الأحزاب. لم ينضمَّ إلى حزب الكتلة، ولا عُنيَ بالمشاركة في تأليف «الكتاب الأسود».

أعلن ترشيح نفسه مستقلًا عن الأحزاب. حتى الوفد لم يعد هو وفد سعد زغلول. الولاء يجب أن يكون لملك البلاد. حدّر من الفتن والخذلان والمخالفة والعصيان. كتب في

ملصقات الدعاية: «انتخبوا سامي بهاء الدين مرشح السراي.» لم يُشر ما إذا كان قد حصل على موافقة الملك، أم أنه كتب الكلمات من نفسه. لما استبدل بها — بعد أيام — ملصقات عن مرشح بحري، قال خليفة كاسب إن فاروق لم يُعد الملك الذي يحبه الناس. وقال أحمد المسيري إن السراي طلبت — ثمنًا لاسم الملك — مبلغًا لم يقوَ بهاء الدين على دفعه. لما هبَّ الريح بما لا تشتهي سفينته، وافق بهاء الدين على دعوة نبوية موسى، بأن تكون الانتخابات على درجتين. حكم البلاد يجب أن يقتصر على الصفوة، مَنْ أُتيح لهم التعلُّم ويسر الحال والمكانة الاجتماعية. أمية غالبية الناخبين تجعل الانتخابات المباشرة مستحيلة. معنى ذلك أن يسيطر على الانتخابات العوام والحوزية والبوابون والخدم وماسحو الأذى والأوباش.

في مساء السادس والعشرين من يناير سنة ١٩٥٢م، أقال الملك فاروق حكومة الوفد. أدرك بهاء الدين أن استقالته القديمة من الوفد فرصة تُتيح له الاقتراب من السراي. وقّع عريضة مع عدد من النواب والشيوخ الحزبيين، تلتمس من الملك أن يجنّب البلاد شر الحزبية.

لما صدر قرار حل الأحزاب السياسية، ومُصادرة أموالها ١٧ يناير ١٩٥٣م اعتبره سامي بهاء الدين انتصارًا شخصيًا. قال إنه يضع أمله في الجيش ليحقق الديمقراطية للبلاد، بعيدًا عن صراع الأحزاب ومعاركها. انضم بهاء الدين إلى هيئة التحرير عقب قيامها، ثم انضم إلى الاتحاد القومي، فالاتحاد الاشتراكي. وانضم إلى تيار الوسط عند إعلانته، ثم أصبح عضوًا قياديًا في حزب مصر. فلما أنشئ الحزب الوطني تحوّل بهاء الدين إليه بمكانته القيادية.

أعدَّ نفسه لدخول الانتخابات قبل إجرائها بأعوام. جعل همّه توثيق علاقاته بأسر الحي وتجاره وحرفييه. يبعث بطاقته في المناسبات، يشاهد مباريات كرة القدم، يدفع النقود في حفلات الزفاف، يعود المرضى، يشيع الجنازات.

وعد الناخبين بعالم تتحقق فيه كل الأمنيات والرغبات. أتاح لهم أن يفكروا في كل شيء. لا حواجز، ولا قيود، أو عقبات. من حق الجميع أن يتطلعوا إلى ما لا نهاية لآفاقه، لكنه رفض التفكير — أو التحدث — فيما لا يستطيع أن يحققه، ما تعجز قدراته عن فعله. أولو الأمر في القاهرة لا يعصون له أمرًا، ولا يردون له طلبًا.

وعد بتحسين قلعة قايتباي، وتقوية أبراجها، وتعزيزها بما يُتيح لها الدفاع عن الإسكندرية، كما كان الحال حتى تدمير الأسطول الإنجليزي لها في عام ١٨٨٢م. وأمر ببناء الخرائط عن بناء الجوامع والمساجد والزوايا والحصون والقلاع والأسوار والأبراج والجسور والقناطر والمدارس ودور العلم والمسارح والموانئ والأسواق والحمامات والأسبلة والأحواض والسقايات والمروج الخضر والحدائق والأروقة والنافورات الرخامية والمآذن والقباب ذات الرسوم الهندسية والدوائر والنقوش العربية والأكشاك.

تحدّث عن شقّ الطرق وترصيفها، وشق الخطط والحارات والدروب والسكك والأزقة، توصيل المياه النقية والكهرباء إلى البيوت القديمة، زرع الأشجار والنبات على امتداد الكورنيش، وفي الشوارع، توسيع الميادين، تتوسطها شاشات سينما، ووضع أجهزة الراديو على نواصي الشوارع، تقديم البرامج المفيدة والمسلية لمن طال حرمانهم. تحدّث عن العناية بالأسواق والمساجد والمدارس والبنائات الثابتة وحمام الأنفوشي، تأهيل الأسواق بالدكاكين العامرة بالبضائع والبيع والشراء، تغطية شارع الميدان بقيساريات تحمي التجار والباعة والمشتريين من رخات المطر وحرارة الشمس، استبدال بنايات من الطوب والأسمنت بالكبائن الخشبية على يسار الشاطئ، منع إلقاء الصرف الصحي في المينا الشرقية، والتأكد من نظافة مصادر المياه، إقامة ورشة في القزق لتقطيع الأخشاب وتصنيعها، إجراء بحوث لزراعة أنواع جديدة من الأسماك في معهد الأحياء المائية، زرع أشجار مثمرة على جانبي الشوارع، دوام إمطة الأذى عن الطرق، وتجميلها، وضع المصابيح على أبواب الدور والمحال والشوارع، توصيل المياه النقية إلى بيوت السيالة والأنفوشي، بدلاً من الحنفيات العمومية، وإنشاء أسبلة في مواضع متقاربة، ودورات مياه لعابري الطريق، وتحديد مواضع لقضاء الحاجات، بالإضافة إلى بيوت الخلاء الملحقة بالدور.

تحدّث عن إنشاء تكية للفقراء، أكبر من التي في نهاية شارع إسماعيل صبري، وإعادة خانقاوات الصوفية، وعدم اقتصار حلقات الذكر على رصيف جامع البوصيري، فتقام على أرصفة جوامع بحري ومساجده وزواياه، وإنفاق ريع الأوقاف على مستحقه، فتح العديد من كتاتيب للأطفال يقرءون فيها القرآن، ويتعلمون مبادئ الدين واللغة والحساب. تُتيح التعلم — بالمجان — لكل مَنْ يقصدها، إقامة حدائق واسعة يفرس فيها الأشجار، تتحول الساحات الترابية الخالية، إلى ملاعب للكرة، وللأطفال، ردم مساحات من البحر، أيمن خليج الأنفوشي، لإقامة بيوت لأهل السيالة، بدلاً من التي يُسقطها القدم، إنشاء أحواض كبيرة مليئة بالماء الثلج في الحلقة، لغسل الأسماك، تكييف الحلقة مركزياً



فلا تُفسد الحرارة ما بها، إضافة إلى وضع ماصّات — في جوانب الحلقة — لرائحة الزفارة، والروائح الكريهة، إضاءة الحلقة — من الداخل — في الليل، لا تُغلق أبوابها أبداً، بناء مصنع لتجميد الأسماك، وتعليبها، رعاية الناس منذ مولدهم، فتسبق الوقاية العلاج. إذا حل المرض، أمكن علاجه قبل أن يتفاقم، تحول مستوصف أطفال الملكة نازلي إلى مستشفى متعدد الطوابق، فيغني عن التردد على مستشفى دار إسماعيل البعيدة، تخصيص مساحة في مقابر العامود لأهل بحري، توليَ فِرَق من البنائين والنقاشين ترميم واجهات البيوت القريبة من البحر، وداخل البيوت. البيت الآيل للسقوط يُعاد بناؤه على أحدث طراز. الإفادة من الخبرات الأجنبية في صناعة مراكب تمشي على اليابسة، وتزلق — لا تتوقف، ولا تبدل وسائلها — على المياه. عمران الخولي هو الذي يتولّى الإشراف على التصنيع، فيلحق الآلاف من أبناء بحري بالقزق. تخصيص أوتوبيسات صغيرة تخترق شارع السيالة، ما بين ميدان أبي العباس وانحناء الطريق إلى المينا الشرقية، وإلى خليج الأنفوشي. ما يعوق انطلاق الأوتوبيسات يُزال، تُشيد بيوت — بدلاً من التي هُدمت — على جانبي الشارع الجديد، توسيع الميادين، توضع فيها الساعات الكبيرة والتماثيل وأكشاك التليفون وأكشاك الموسيقى، عودة سوق العيد إلى ميدان الخمسة فوانيس، إعادة حفلة الساعة العاشرة صباح كل جمعة — بالمجان — في سينما رأس التين. تقليد استنته الأميرة فايقة، للأطفال الأعضاء في نادي مدرسة إبراهيم الأول. انتهى بسقوط الملك فاروق عن العرش. تعدد الحمامات إلى جانب الحمام الوحيد، الحالي، بشارع التتويج. بناء استاد في موضع الساحة الترابية، قبالة حديقة سراي رأس التين. الإذن للناس بدخول حديقة السراي، للراحة، والذاكرة، كما في الزمان القديم، تقديم عروض موسيقية وغنائية وراقصة داخل أسوارها، للترفيه عن الأسر. عزف موسيقيين في فرقة ماهر الصاوي، أو المسيري، أو حمامة العطار، لمرضى مستشفى رأس التين، تخفيف الآمهم بالموسيقى.

وعد باستبدال أئمة جوامع الحي. لا يقتصر علم الإمام على القرآن والسنة والقياس واللغة العربية. يُضاف إليه علوم المحدثين، مثل التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم اللغويات وتحليل الخطاب والعلوم الطبيعية والكتابة على الكومبيوتر واستخدام الإنترنت. تكلم عن مشروعات قوانين بحق العمل وحرية الاجتماع والرأي والمناقشات والتظاهر والإضراب والاعتصام، إباحة الأمن فيترك الناس بيوتهم مفتوحة، وتظل أبواب الدكاكين بلا مزليج. رفع العقاب عن تعاطي المخدرات، للقضاء على الألم، أو للشفاء من مرض عضوي أو نفسي. شدّد على حق المرأة التي يطول غياب زوجها في ركوب البحر، أن تُرضي

جسدها. جعل أماكن للزواج العرفي، أو زواج الميسار، أو المتعة الوقتية بإشراف خبير اجتماعي وطبيب.

تبني مشروعاً لإبحار سفن — يساهم فيها الصيادون — إلى أعالي البحار.

جعل سامي بهاء الدين من شقة في بناية تطل على ميدان أبي العباس مكتباً يُدير منه حملته الانتخابية. يعقد الاجتماعات، ويستقبل أبناء الحي. قد يخرج إلى الشرفة لتحية المظاهرات التي تدعو لانتخابه، وإلقاء الكلمات المناسبة.

توالت زيارته — وتعددت — لمساجد الحي: أبي العباس والبوصيري وياقوت العرش ونصر الدين وطاهر بك وعبد الرحمن والشوربجي وعلي ترمز وتربانة. يكتب له موظفوه الأسماء. يزورها بالترتيب، ثم يُعيد القائمة من أولها. يصلي الجمعة، يطوف حول المقامات، يزور الأضرحة، يشاهد الجلوات والمولد وحلقات الذكر. يعتذر بأن نشاطه السياسي لم يجعل مواعيده منتظمة. حتى سرادق أحمد المسيري بشارع التتويج، دخله دقائق لتحية الجمهور، ثم انصرف معتذراً بأن الفن مما يضيق عنه وقت السياسي. وكان يحتفظ في جيبه بزجاجة عطر صغيرة. إذا صافح أحداً لجأ إلى شمّها، أو جرى بها على أصابعه.

تناثرت اللصقات واللافتات — تحمل اسمه وشعاراته ووعوده — في مفارق الطرق، والتقاطعات، وعلى الجدران. السرادقات في الميادين تعلوها الأنوار والزينات، ويفترشها السجاد الأحمر، وتصطف فيها الكراسي المذهّبة.

استضاف جلساء قعدة الحاج جودة هلال. أكلوا ما لم يتذوقوه من قبل. داروا دهشتهم من الفرقة التي عزفت بالقرب من مائدة الطعام.

فاجأ سكان شارع قبو الملاح بالبلقراطية بالجلوس على أحد مقاهيه.

عرف عن الشارع بيع البانجو والأقراص والهيروين والكوكايين وأدوية السعال والكحوليات والحشيش.

اخترق المقاهي والدكاكين الصغيرة والمستندين على الجدران، والمقتعدين الأرصفة، وباعة الحشيش والأفيون والروائح التي لا تغيب.

شك الناصورجية في بواعث دخوله الشارع، فيبادرونه — كما ألفوا — بالعداء. يعرفونه جيداً. لم يتصوروا أنه يدخل الشارع للشراء. أحاط نفسه بما يُشبه مصدات الأمواج، لا يأذن لأحد أن يقفز من فوقها، ولا حتى أن يقترب منها.

رجّحوا قدومه لدراسة ظروف قضية.

أهمل النظرات الراضة، والمتسائلة. تحدث إلى مَنْ عرفه. شاركه الجلوس على طاولته.

لم تُثِرْ سامي بهاء الدين كعوب المسدسات أو المطاوي المطلّة من الجيوب. حدس أنهم يطمنون إليه، وإن لم يهملوا التوقع. أدخلت الانتخابات في حياته مَنْ لم يكن يتصور أنهم يجلسون إليه، مَنْ تُضيف جرائمهم إلى احتمالات فوزه. يدافع عن تُهَمِّم بالاتجار في المخدرات والمقامرة والنشل والقوادة والدعارة والتهريب والسرقعة.

اجتذبت كلماته مَنْ أصاخوا السمع. تقاطروا نحوه، يسألونه، ويناقدونه. أرضاهم بفتواه أنه إذا كان القرآن قد حرّم الخمر، فإنه لم يحرم الحشيش ولا أنواع المخدرات. طرح ما كانوا يحرصون أن يظلّ في صدورهم. العقاب ليس الحل الوحيد لكل الجرائم. الاتجار بالمخدرات تهمة عقابها الإعدام، أو السجن المؤبد. المحامي الشاطر يحل من حبل المشنقة، ويفتح أبواب السجن ليُخرج مَنْ أُدينوا بتُهم ثابتة.

قال لنظرات الدهشة من حوله: إنها مسألة إجراءات، وهي مهمتي! قال له رجل ميّز نفسه بعبادة من الجوخ أسدلها على كتفيه: شرطنا لتأييدك أن ندفع التكاليف بدلاً منك.

ثم في نبرة مجاملة: هذا أقل واجب. عُرف بجولات خليل الفحام في بحري. يسجل أسماء الجوامع والمساجد والزوايا والميادين والشوارع. تشكك في البداية. سعى إليه في قهوة المهدي اللبان والغضب في ملامحه. تحدّث الحفناوي بما أذهب قلقه.

أظهر بهاء الدين تأثره لما عرض الحفناوي أن يدعوه له في جولاته المتمهلة داخل بحري. لمح بهاء الدين بما يعين الرجل على مضاعفة جهده، لكن الابتسامة المعتذرة، المؤدبة، دفعته إلى تغيير دفة الحديث.

لم يسترد بهاء الدين تأمين الترشيح. اتهم معاونيه بإهمال الدعاية اللازمة. اكتفوا بابتزازه، وسرقة أمواله، ثم تركوا الناس لاختياراتهم أمام صناديق الانتخاب. لم يحاولوا التأثير في نفوسهم على نحو حقيقي.

تعددت الروايات حول بواعث ابتعاد سامي بهاء الدين عن بحري، وانتقاله إلى البيت المطل على المينا الشرقية. هل هو سقوطه في الانتخابات؟ هل هو إخفاقه في استعادة تأمين الترشيح؟ هل عانى الفشل في الحصول على براءة للمعلم معاطي الرخاوي، التاجر بالبلقراطية؟

تكررت رواية الولد كাকা، فصدقها الناس.

ذات مساء، قاد سامي بهاء الدين سيارته بنفسه. تركها على ناصية السيالة. لم يحاول التلفت وهو يخترق الشوارع الضيقة إلى شارع الفرمانى. يعرف أن الحادثة الصغيرة، المناقشة العابرة، التحية وردّها، تتحول — بالشائعات — إلى فضيحة، تتناقلها الأفواه داخل البيوت، وعلى المقاهي، وفي المساجد والحلقة والأسواق.

استعاد اسم الفتاة من عليّة ع شماوي.

قالت: فتنة.

— أنا أعرف أباه. أليس هو الصياد في بلانسات بدوي الحريري؟

— البنت لا تعرفك.

ثم في نبرة محرّضة: إذا لم توافق على وجه القفص، فسيرحب غيرك!

سكت، حتى لا يُطيل مناقشته لنفسه.

اعتاد مكالماتها المتباعدة. تعرض عليه من ترى أنه سيدفع فيها ما تطلبه. غياب العذرية (العذرية مطلبه) يعوضه — قالت المرأة — افتقادها للتجربة. لم تكن تأذن بعلاقات داخل بيتها. يصحب الرجل من تدلّه عليها إلى خارج البيت، أو ينتظرها أمام الباب الخارجي.

دفع باب البيت الموارب. طالعته رائحة نفاذة، خليط من السمك المتعفن والبول والبراز.

تلّمس طريقه — في الظلمة — إلى الطابق العلوي. أخفق في إضاءة النور. اكتفى بالضوء الشاحب عبر النافذة المفتوحة.

كتم — براحته — صرخة الفزع لرؤية الجسد النازف بالدم.

كانت عيناه قد ألفتا الظلمة وهو يهبط السلم المتآكل، يعروه التلفت، والخوف من أن يراه أحد.

انظر: أحمد المسيري، بدوي الحريري، جودة هلال، حمامة العطار، خليل الفحام، شوقي أبو سليمان، عليّة شماوي، فاروق، فتنة السعداوي شبانة، ماهر الصاوي.

## سعيد العدوي

حلت اللحظة مفاجئة. لم يكن التوقع قائمًا. الطريق طويلة تُشرق عليها الشمس، على جانبيها، وفي وسطها، البنايات المتلاصقة وظلال الأشجار والصدقات والخبرات والأشياء القديمة وعربات اليد والكارو والحنطور والأسواق واللافتات المعلقة على أعمدة. أفق البحر يفرض الامتداد واللانهاية. تتناثر الجزر والسفن الشراعية والقوارب، تداخلت — بالمفاجأة — الأحلام والرؤى والكوابيس والأخيلة والقسمات والملامح والسجاد الشرقي القديم ورسوم الأطفال وروائح البخور والحواة والمجازيب والأدعية والابتهالات والبشارف والموشحات وغناء ماهر الصاوي، والحنين إلى ما لا يدركه.

مارس التصوير والرسم والحفر والنحت. لم يقتصر على إبداع بالذات. فنية العمل تفرض نفسها. لا يُطيل المناقشة ولا المفاضلة. يستجيب لإلحاح الفكرة، الومضة في توالي ضوءها. الفرشاة تعزف ألوانها، ما يخلق الحالة، حتى لو لم تكن تعبيرًا محددًا عنها. تتحول الأفكار والرؤى إلى صور وتكوينات ورموز. الومضة والإيماء تُعني عن المباشرة والتفصيلات التي لا معنى لها.

شغل الفنان — في عصر النهضة — بالتصوير والنحت والعمارة وهندسة الديكور. كان يمتلك قدرة مذهلة على التأمل والاكتشاف والدهشة وإلقاء الأسئلة: مدُّ الموج وجزره، قوس قزح في وسط السماء، تكوينات قطرات المطر على أسفلت الطريق، وسوسة النخيل في امتداد الرصيف المقابل للمينا الشرقية، أكشاك الختان لصق جدار أبي العباس، حلقة الذكر أمام باب البوصيري، رفو غزل الشباك في ظل هياكل البلانسات، صرخات مجذوب وسط ميدان المساجد، عجوز يعطي ظهره لحركة المرور، ويتجه بنظراته إلى أفق البحر. قراءاته في «سندباد» حسين بيكار وضعتَه في قلب البحر والمغامرات والقراصنة والجزر والمدن الملتفة في الضباب. في أول المرحلة الثانوية، حرص على اقتناء المجلة صباح

كل خميس. يقرؤها من الغلاف إلى الغلاف. يُطيل تأمل لوحات بيكار عن رحلات السنديباد بين المواني والمدن والجزر وكهوف المخلوقات العجيبة. يتحول البحر — بريشته — إلى درجات الألوان، بداية باللون الشفاف كأنه الغلالة الشفيفة، ونهاية بالبنّي الداكن. يحقق للوحة موسيقاها بإجادة استخدام الألوان والضوء والظلال.  
يا أستاذ سعيد.

النداء يترامى من داخل بئر، أو من جزيرة في عمق البحر، أو — ربما — من فوق نخلة على طريق الكورنيش. يريد الرد على النداء، يهم به. لكن القوة الغريبة — لا يراها، وإن شعر بها — تحتضنه، تُقيده في جلسته، تحركّ الدخان، أو الضباب، أمام عينيه. تجتذبه إلى أسفل.

أغنية في راديو تناهت من الشقة المجاورة، هي آخر ما وعى عليه الصحو الكامل.  
آخر ما قاله لنفسه: فلأعد الإفطار.

ماذا جرى بعدها؟

حلتّ اللحظة دون ما قبل.

تداخلت الصور والألوان ومواكب الجلوة والموالد وحلقات الذكر وتلاوات القرآن، وأبيات البردة والأعياد وليالي رمضان، وأهازيج السحر وأذان الفجر، والأدعية والابتهالات والبخارف والموشحات، وغناء ماهر الصاوي، وهارموني الموسيقى، وهسيس النخيل على طريق الكورنيش، وملامسة الأمواج لصخور الشاطئ، وانعكاس زرقة السماء — أو انعدامها — على صفحة الموج، والمساحات الخالية، الساطعة، كامتداد الموج الهادئ، في صباحات مشمسة.

استمع — بالمصادفة — إلى صوت ماهر الصاوي. ترامت أغنياته ومواويله من سرادق في الساحة الترابية أمام شارع العوامري.

توقّف، وأصاخ السمع. عرف ماهر الصاوي. حرص على سماع أغنياته. تردّد عليه في مقهى الزردوني، وفي ساحة المولد، وسوق العيد. اجتذبتّه العفوية في الأداء، تتحدث عن الصيد والصبر وعبر الزمان.

شاهد حسين بيكار معرض رسوم العدوي بالحبر الشيني. أظهر إعجابه بعزلة المعرض عن عالم الألوان: أفلحت في وضع جميع حواسنا، في نطاق الشكل الصرف، والقوالب الصماء التي تظهر فيها كائناتك الشبحية.

تحدّث بيكار عن شعوره — أمام اللوحات — بالصدقة وعدم الغربة. هي جولة باطنة، نستمتع فيها إلى أصداء الكائنات تأتي مبهمة، كالههمة، متشحة بغموض طلسمي

مثير، وتحت تأثير إحياءات خطوطه السوداء يلفُّ المتلقي ما يُشبه الغيبوبة المغناطيسية التي تفرض الإقناع — تدريجياً — بمنطقها الشاذ، فلا يلبث المتلقي أن يتقبل الأشياء المسوخة على علّاتها، يصدقها، ثم ما يلبث أن يألفها، ويود ألا يفارقها. إنها أصداء لاعبي السيرك، وباعة الكشري، وسائقي عربات الكارو، وعازفي الأبواق، والحمير، والقطط، والكلاب. تبدو مألوفةً في اللوحات، الكذبة البيضاء التي تدغدغ المشاعر، وتربط المتلقي بما وراء الأشياء من غيبيات، تزيد من إقناعه بأن هناك عوالم كثيرة تحيط بالإنسان في هذا العالم، عوالم خارجه، وعوالم داخله، وأخرى في أعماق أعماقه. ما عليه إلا أن يُزيح الغلالات التي تحجبها عنه، حتى يتسع الكون أمام عينيه، يرى ما لا يراه بالعين المجردة وحدها.

الحياة والموت، الولادة والاحتضار، الصحو والنوم، البسط والقبض، الروح والغريزة، العاطفة والمادة، الوجدان والعقل، النور والظلمة، النهار والليل، الشمس والقمر، السماء والأرض، اليابسة والبحر، المد والجزر، الرياح والسحاب، الحركة والسكون، الحلم والواقع، السر والإجهار، الجمال والقبح، الأبيض والأسود، الوضوح والغموض، الأمل واليأس، الترغيب والترهيب، المحبة والعداء، الطهر والدنس، الخير والشر، الزيادة والنقصان، الخلود والفناء.

تمنّى أن يحطم الفواصل والحواجز والحدود، تختلط الأوراق والرؤى والمشاعر. ينطلق في آفاق لا نهاية لها.

قال له غريب أبو النجا: نحن نقف على الأرض، ونُلقي شباكنا في البحر.

هتف في نبرة ملونة: فهمت؟

لم يغضب لملاحظة أبو النجا بأنه يقول ما يأتي على باله. قد لا يتدبر الكلمات، لكنه يعني ما يريد قوله، حتى وإن بدت الكلمات قاسية.

عُرف عنه إجادة التقليد. يحب تقليد أصوات البشر والطيور والحيوان والرياح والمطر. قلد ماهر الصاوي في الموالم:

لاسعى وازور النبي،

وارمي حمولي عليه،

وان حصلك ضيم نادي:

يا إمام علي.

كل ما يشدوا المحامل

للنبي قلبي يهيم.  
كل ما يشدوا المحامل  
للنبي قلبي يهيم.

قال بيكار: إذا فشل العدوي كفنَّان تشكيلي، فسيصبح — بالتأكيد — مطربًا جيدًا! تشكيلات الطيور متباعدة، ما تلبث أن تتقارب، ثم تتداخل. تبدو سريعًا واحدًا، هائلًا، يغطي وجه الشمس. الحشائش الكثيفة، الندية، في حديقة سراي رأس التين. شارع ثمانية ملاح ملاح ... بالسكينة وبالسلام. صوت ماهر الصاوي ينتقل من السماع إلى الغناء، يترنم ويتغنى بالانفعالات الروحية والعاطفية، وما في نفسه من الوجود والعشق والتوسُّل. دفعه دوام التردد على ميدان المساجد، زيارة الجوامع والمقامات والأضرحة، إلى محاولة تطوير الفن الإسلامي. الزخارف المجردة، وشغل المساحة كلها في أرابيسك متداخل، دقيق. يُجيد التنوع على اللحن الواحد، وبناء الملحمة التشكيلية. التجريد في الفن الإسلامي يجاوز الطارئ والمؤقت، إلى الثابت والدائم. أوعية الألوان المتراكمة — على الأرضية، وفوق المكتب والطاولة والكراسي — تشي باعتبار اللون أهم عناصر التشكيل. ليس مجرد صبغة، أو عجينة ملونة. هي علاقات لونية، تشكِّل لوحة متكاملة، تكوينات، موتيفات، يتخللها الهارموني كالموسيقى. يرفض تقديس الفن الغربي. ينظر — باستياء — إلى محاولات تقليده والتبعية له. لا بد أن تتواصل مع تراثنا الفني، منذ فن الفراعنة إلى محمود مختار ومحمود سعيد ومحمد ناجي وغيرهم من فنَّاني جيل الريادة. لم يَبْح الفن المصري القديم بكل أسراره، ما تم اكتشافه رمال في صحراء، لم تطأها قدمٌ منذ عصر الفراعنة.

اللوحة — فوق الكرسي في زاوية الصالة — مرحلة أخيرة، هل يتاح له استكمالها؟ في مشروعه لنقل عناصر من الفنون الفرعونية والقبطية والإسلامية. التراث ليس مجرد ابتعاث قِيم قديمة. ما يُعنى به، ما ينبغي أن يُعنى به، إيجاد صلات بين القديم والجديد، التجميع وإعادة التركيب للقيم الفنية والجمالية، والإضافة عليها. يحاول تخليق فنٍّ مصري له شخصيته المتميزة، واستقلاله.

أهمل مسامرة التغيرات المفاجئة في الفن التشكيلي الغربي، ما يكاد يُولد اتجاه حتى يلحقه اتجاهٌ آخر، وثالث، وهكذا. إدراك عناصر التراث المترسبة في الوجدان، ما اختارته، واستقر في أعماق النفس.



«حين أنجح في أن ينقل عملي إلى المشاهد إحساساً بأنه يتأمل جزءاً من سجادة فارسية مصاغة في قالب معاصر، أكون قد نجحت في تحقيق ما أعتبره هدفاً أطلع إليه.»  
متى قال هذه الكلمات؟ لمن؟

قال: أنا لا أرى في الطبيعة سوى شخصيات غريبة، وفريدة، من العناصر، تُثّرني بما تحويه من شحنات عاطفية، تفوح منها رائحة الماضي التراثي والديني السحيق والغامض؛ لهذا تجدني غنياً جداً عندما ألتحم بالطبيعة، تبدو جديدةً تماماً — كل لحظة — أمام هذه الرؤية. وقال: العنصر كيان مقدس، يدفعني — باستمرار — لمناغاته، والخط العربي أعظم طبيعة تحتويه. وقال: أبطالي موجودون في الشرق العريق، الغامض، الساحر، والعلاقة بينهم سوريلية، ساحرة، ممتعة، تُثّر ذكريات اللاشعور. وقال: أصدق دليل على طبيعة مزاجنا العربي وذوقنا وأبعاد حضارتنا الأصيلة والفريدة، هو الخط العربي. أي حرف من حروفه تلخيص رائع لمنهجية تفكيرنا. وقال: الرسم عمل فني متكامل، يحمل كل إمكانيات العمل الفني، وليس مسودةً لعمل آخر. وقال: اللون كيان وليس صبغةً لمعنى. هذا الخط أبيض، وليس لونه أبيض. وقال: يسقط كل شيء لا أحبه. محمود سعيد هو أول من تكلم عن صلة أعمال العدوي بفنون الشرق. يختلط الواقع والخيال والسحر. ربما سبقه إلى الملاحظة آخرون، لكنه كان أول من تحدّث — بلغته الهامسة — عن عمق الصلة. لم يكن سعيد قد تخرّج بعد في كلية الفنون الجميلة. تخرّج في قسم الحفر عام ١٩٦٢م، بعد مولده في بحري بأربعة وعشرين عاماً. يتذكر تاريخ ميلاده: ١٩٣٨م، حين يقرأ الأرقام على نصب تمثال سعد زغلول بمحطة الرمل. ظل مدرساً في الكلية منذ تخرّجه.

لمح — في تماوج الإطار الزجاجي أمامه — القامة النحيلة، الوجه الأبيض ذا العينين الطفوليتين، قسمات الوجه المتألّمة، الشارب الكث يضغط عليه بشفته السفلى.  
هل تتلاشى اللحظة القاسية؟ هل يُسعفه العمر لتقديم محاولاته — كما يريد — في أعمال التصوير الزيتي؟

تمنّى الموت في أحد مكانين: المرسم، أو البحر. اقتصر على الوقوف — أو التمشي — على شاطئ البحر. جثة غريق منتفخة، طافية فوق الموج، رآها في صباه. لم يعد — من يومها — ينزل البحر. يتأمل الأفق والأمواج والسفن والصيادين. ينقل ما يراه إلى وجدانه، هو ما يرسمه في معظم اللوحات.

قالت أمّه وهو يخطو إلى داخل البحر: أمواج الأنفوشي بلا حاجز كما في المينا الشرقية ... لا تبعد كثيراً!!

ابتسم للسؤال: لماذا اخترت البحر موضوعًا لأعمالك؟

يتصور أن السؤال لتحريك الحنين. البحر هو الموضوع منذ مشروع البكالوريوس في كلية الفنون الجميلة، تخرّجه في أول دفعة، تعيينه معيّدًا بقسم الحفر. الصيادون، والبلانسات، والطراحة، والجرافة، والسنارة، وورش المراكب، والمياه الساكنة، والريح العاصفة، والنوّات، والشمندورة، وعلامات الإرشاد، والفنار، وشباك الصيادين الملقاة على ظهور القوارب، وفوق رمال الشاطئ.

قال بيكار: رسالتك للمجستير عن الصيادين والبحر. اتجه إلى بيئات أخرى. يذهب إلى البحر كما يذهب المحب للقاء محبوبه. يشغله الوقوف في نقطة الالتقاء بين البحر واليابسة. يتوحّد بما حوله. يثيره التلفت إلى انطلاقات الإبداع. يعروه الشوق إلى الباليطة والفرشاة والسكين والألوان والحامل الخشبي ومساحة القماش. تتجدّد رؤيته للمشهد الواحد بتجدّد رؤيته. ربما تكررت اللوحات برؤى مختلفة. تتعدد التكوينات، ومساحات الضوء والظل.

– بحري بيئتي، أرسمها وأنا مغمض العينين.

– أخشى أن تُكرّر نفسك ... على الفنان أن ينوّع فضاء أعماله.

استطرد في ابتسامة متوددة: لا أصادر حق الفنان في أن يرسم ما يحبه.

هو قد أحب البحر. عُني — في معظم لوحاته — برسمه، أمواجه وسمائه وصياديه وتقلباته. كرر لوحات للمشهد نفسه. الاختلاف في التكوينات والألوان والظلال والأعماق. حين سافر إلى طنطا في ١٩٦١م لمشاهدة مولد السيد البدوي، لم يتصور المغامرة. توقّع الطرق الصوفية والبيارق والأعلام والابتهالات والأدعية والمنشدين. واجهه ما لم يكن رآه، منذ انحناء الطريق إلى داخل المدينة. حتى مفردات الإنشاد عكست بيئة الريف. شغلته المقارنة بين الريف والساحل، بيئة المزارعين وبيئة الصيادين.

تساءل — فيما كتبه بعد العودة — عن هذه الثروات من الإبداع التشكيلي، كيف ننفض عنها الغبار؟

لم يصل إلى إجابة محددة، وإن ترك لعينيه التمييز والانتقاء وإعادة التركيب. جعل لوحاته ديوانًا للحياة في مصر، وفي الإسكندرية على نحو خاص: الجامع، البحر، البلاج، القمر، الشمس، الصيد، الأسرة، الحارة، سوق العيد، السيرك، سيد حلال عليه، نافخ الأرغول، النقرزان، صانع الحصير، بائع البطاطا، الموسيقى العربية، الزهور، قطع الشطرنج، دقات وشم نعمات العجرية، النائحات، الأكفان، الأشلاء، الجنازة، شواهد

القبور. الأذرع المرفوعة المبتهلة، والمرفوعة بأداء الرقص، والتي تُشهر سيوفًا مقوسة. الطيور، الزواحف، الحيوانات المستأنسة، والمفترسة. الأشكال المستوحاة من عالم النبات وعالم الحشرات. طواير النمل، أسراب النحل، الطحالب، الأعشاب، أعشاش الغراب.

قال لأستاذه أحمد عثمان: لا معنى لمجاراة الاتجاهات التشكيلية في الغرب دون أن أُعبر عن رؤيتي للبيئة، الوطن والأهل والجماعة.

رحلته إلى الصعيد والنوبة أعطته بُعدًا جديدًا، يختلف عن حياته في بحري، وما رآه في طنطا. الجبل ورائحة الأرض وآثار الفراغة وسوق الجمال بدر او وأغنيات ملاحي القوارب بين ضفاف نيل أسوان المترامية.

اتسعت مشاهداته بالرحلة إلى كفر الشيخ وبلطيم. غياب الزحام والصخب والبنائيات التي تحجب الأفق.

اطمأن إلى أن حياته ستطول من نبوءة نعمات العجرية. قرأت كفه تحت قلعة قايتباي.

قالت أمه: أخشى أن يفوتك قطار الزواج.

قال: فكرة، أرسم قطارًا تلوح من نوافذه فتيات جميلات!

لم يأذن لوعيه أن يتغلب على مشاعره.

— يا أستاذ سعيد.

تبدو الطرقات — مثل النداء — بعيدة، بعيدة، كأنها حلم يتحرك في ضباب متكاثف. اهتزاز الحروف في اللوحة — أعلى الجدار — حقيقة، وليس ما أراه. التجريد، روح الخط العربي ومنحنياته. الهلال والحجاب والعين الحارسة وعروسة المولد والشمعدان ونبات الصبار. يستخدم ألوان الزيت والجواش والفحم والقلم الرصاص. يوازن بين توزيع الألوان ودرجات الأبيض والأسود. يكشف عن الروح المصرية، ورؤيته للعالم، والحياة من حوله. يحذف التفاصيل الزائدة، والخطوط، والألوان، والظلال التي لا تُضيف شيئًا. الفن ليس محاكاة للواقع. الفنان ليس محاكيًا للواقع. المعارض ومضات، تظهر وتغيب، عشرات المعارض الفردية والجماعية، داخل مصر وخارجها.

قال له مصطفى عبد المعطي: لماذا انسحبت من مجموعة الرسم. أعضاءها الاثنا عشر طالبًا في الكلية.

— أعرف ... لكنني أحسست بينهم بالغرابة!

جماعة التجريبيين مع محمود عبد الله ومصطفى عبد المعطي. تناثرت — في مناقشاتهم — أسماء فان جوخ وموديليانى وميرو ودالي وكامبيلي وبو كلي، وتسميات

التعبيرية والتأثيرية والتكعيبية والتجريدية والسوريالية. رفضوا الحياة على إبداعات فنانى الغرب. شغلهم الحرص على التفرد، وتقديم الرؤى الخاصة، والتعبير عن مفردات البيئـة. قال محمود عبد الله: نريد أن نحتقر الجوائز واللجان والمعارض الوقتية وصالون المناسبة.

قال مصطفى عبد المعطى: نريد — قبل كل شيء — أن نعرف لماذا نرسم؟ ولمن؟ قال سعيد العدوى: لقد تعلمنا — منذ اليوم — أن نناقش ما نفعل، وأن نحاكم أنفسنا، وأن نتحمل عواقب متاعبنا.

وصف الناقد أحمد فؤاد سليم ثلاثى التجريب بأن سعيد العدوى هو الوجدان، ومحمود عبد الله هو العقل، ومصطفى عبد المعطى هو الإيقاع المنطقي، المنتظم، الذي يربط طرفي النقيض بأوامر حاسمة.

عضويته للجماعة لم تحلّ دون موافقته على عرض الألمانية أورشولا شيرنج. شارك في معارض أقامتها للوحاته، ولوحات عبد الهادي الجزار وحامد ندا وفتحي أحمد.

قالت: أحببت لوحاتك، لوحاتكم، لأصالتها واستقلالها وتميُّزها عن الأعمال الأوروبية. جمهور المعارض من الأجانب المقيمين في مصر. حرصه على «المصرية» مصدر إعجابهم، وحرصهم على اقتناء أعماله. يحب لوحات فان جوخ وجوجان وليجيه وميرو وبيكاسو وحامد ندا وعبد الهادي الجزار وشاجال وميرو وموديليانى، وأفلام فيسكونتي وفليني وبازوليني. لكن محاكاة إبداعات الآخرين لا تُضيف ولا تُطور، الإضافة والتطوير ينبعان من ذات الفنان، ومن البيئـة التي يعيش فيها. الفنان الذي يعيش عصره وبيئته وناسه، لا بد أن يكون شاهداً على ذلك كلّهُ، معبراً عنه في لوحاته.

التقطت نظراته — بالكاد — ما بداخل الدولاب الزجاجي من جوائز وميداليات. المرئيات تتصل، تختلط، تتوارى. توالى شخصيات التقاه في الشوارع والميادين والساحات والمقاهي وحلقة السمك وشاطئ الأنفوشي والكورنيش ومسكن السواحل وحديقة سراي رأس التين وداخل الجامع. في انفراده بنفسه على شاطئ الأنفوشي. يجلس على الكورنيش الحجري، أو على الرمال، أو فوق قارب مقلوب: عمران الخولي، شوقي أبو سليمان، نجم أبو العيش، حجازي أيوب، خليفة كاسب، رفقي زلابية، عبد الله أبو رواش، أحمد خليل، العجربة نعمات، جودة هلال، شحاتة عبد الكريم.

تثبت صورة زوجته رائحة الملامح.

هل يلتقيان في الموعد الذي اتفقا عليه في مبنى الأتيليه؟ هل يُناوشها القلق لو أنه غاب عن الموعد؟

يحاول انتزاع ما ينطق به. الأمواج تنحسر عن الشاطئ. تعلق في انحسارها، وتعلو. تعاود الارتفاع في اتجاه الشاطئ، ثم تنحسر، إلى ما لا نهاية. أعاد التحديق في اللوحات المتجاورة. لم تكن في البيت، فمن الذي أتى بها؟ جنازة البطل، الصلاة على جثمان البطل، المدافن، النائحات. لماذا هذه اللوحات في هذه اللحظة؟

الموت معنى تناوله في لوحاته. هل هو ما يعانيه الآن؟  
الآلام لا تُطاق، الأيدي التي يشعر بها ولا يراها، تعتمر جسده، عشرات الأحجار والمصدات الأسمنتية تضغط فوق صدره. يتضاءل في توالي الأمواج، يتحول إلى أشلاء في أفواه المخلوقات التي لا يعرفها. يتسع تكاثف الضباب، يعمق، يحجب الأصوات، ويمنع الرؤية. تتلاشى، كأنها لم تكن.

انظر: أحمد خليل، جودة هلال، حسين بيكار، خليفة كاسب، رفقي زلابية، عبد الله أبو رواش، عمران الخولي، غريب أبو النجا، شحاتة عبد الكريم، شوقي أبو سليمان، ماهر الصاوي، محمود سعيد، مكية الحريري، نجم أبو العيش، نعمات.



## سلامة حجازي

لم يتصور سكان حارة «بز أمه» أن الواقف في أول الحارة، بقامته النحيلة، وشاربه المقوس وعينيّه النفاذتين. استبدل البذلة والطربوش، بالجبة والقفطان والعمامة. يُطيل تأمل الأبواب المغلقة، والموارية، والنوافذ المفتوحة، وتكوينات النشع والرطوبة على الجدران ... لم يتصور سكان الحارة أن هذا الواقف هو الشيخ سلامة حجازي.

آخر زيارته إلى الإسكندرية قبل عامين. حضر احتفالاً بمناسبة مرور خمسة وعشرين عامًا في مهنة التمثيل. عاد إلى القاهرة في اليوم التالي. لم يجد وقتاً لزيارة بحري.

قال شوقي أبو سليمان: حسبنا أنك نسيت الحارة.

قال الشيخ: هل ينسى الإنسان أصله؟

تصور أنه بالابتعاد عن حارة بز أمه، وعن بحري، والإسكندرية، قد طوى صفحة من حياته، وأنه سيبدأ صفحة جديدة في حياة مغايرة.

قال شوقي أبو سليمان: ملامحك لم تتبدل كثيرًا. الانقلاب في ملابسك!

قال جودة هلال: هل نقول الشيخ سلامة أم سلامة أفندي؟

– قل سلامة.

حتى تُرضي مَنْ أحبها مبادلته مشاعره، كان عليه أن يبدّل ملابسه. هي من أسرة موسرة، أميل إلى التحرر. من الصعب أن ترضى بالعمامة فوق رأس مَنْ يحبها!

كان بحري – حتى منتصف القرن التاسع عشر – موطن العاملين في خدمة الحاكم، بالإضافة إلى الصيادين والملاحين وقاصدي أولياء الله. ربما لقرب الحي من سراي الوالي، ثم الخديو، فالسلطان، فالملك فيما بعد. كانت الميناء الغربية مهبط القادمين من الأقطار

العربية. وكان القادم من السلوم، والمتجه إلى رشيد، يقضي أياماً — تقصر أو تطول — حتى يجيء موعد إقلاع البلانس.

كان أهل بحري يؤدون الصلاة في زاوية سلامة، لأهازيج السحر، وإقامة أذكار الصوفية، وزاوية خطاب لصلاة النهار والجمعة. كانت دار حجازي بين الزاويتين، يقصدها أبناء بحري وعابرو السبيل من مريدي أولياء الحي. هي — على حد تعبير الرئيس إبراهيم حجازي — «مضيقة الفقير والقاصد، ودار الكرم والسماحة».

سلامة إبراهيم حجازي.

انتقل أبوه — وهو طفل — من موطنه رشيد إلى الإسكندرية. أقام في بحري. ركب البحر ملاحاً في بلانس صيد. ثم اقتنى بلانسين شرعيين، يحملان البضائع من رشيد إلى الإسكندرية، ثم إلى السلوم.

بعد أعوام عزوبة طويلة، فاجأ الرئيس إبراهيم حجازي أهل بحري بالزواج من بدوية من عرب السلوم، اسمها «سلومة»، على جانب وفير من الجمال. أثمر الزواج طفلاً ذكراً، وُلد في ١٨٥٢م بدار أبيه برأس التين. سمّياه «سلامة»، تيمناً باسم الشيخ سلامة الرأس، شيخ الطريقة الرأسية.

لأن عمل الرئيس إبراهيم حجازي كان يتطلب كثرة الأسفار، فقد أناب صديقه محمد الكحلة وكيلاً عنه، فتظل الدار مفتوحة.

أصيب الأب بالتهاب رئوي، ومات قبل أن يهجر سلامة أعوام الطفولة. ترك وراءه زوجة وسلامة وأمه العجوز التي ما لبثت أن فارقت الحياة.

كانت سلومة تُعاني وضع النساء حينذاك، لا تعرف ركوب البحر، ولا الصيد، ولا التجارة. لم يكن أمامها سوى قبول الزواج من محمود الكحلة، هو وكيل الزوج الراحل، وأقربهم إلى نفسه وعمله.

أظهر الكحلة — بعد أشهر قليلة — سوء تصرّفه. أبطل الاستضافة. أغلق باب الدار أمام المتصوفة ومريدي الرئيس إبراهيم حجازي. بدد تركة الرئيس إبراهيم حجازي. قسا على الأم وطفلها.

استنكر شيخ الطريقة الرأسية ما حدث. أخذ الطفل سلامة من حضانة زوج أمه. ألحقه صبيّاً عند المعلم أحمد فراج الحلاق، في مواجهة زاويته بشارع الميدان. أفرد للأُم



بيتاً في حارة «بز أمه»، سماها دار سلامة. عُنيَ بإرسال الطفل سلامة — وإخوته من أمه — إلى كُتَّاب عبد الرحمن بن هرمز. أوصى به الشيخ رافع، ليحفظ القرآن على يديه — فترة الصباح — ويتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب. يظل — بقية اليوم — في عمله بديكان الأسطي فراج.

حاول — في تلاوته للقرآن — أن يعبر عن الموسيقى الباطنة لآياته. يُدرك أن كلمات القرآن لا تنتسب إلى الشعر، ولا إلى السجع، ولا حتى إلى السرد كمألف الكتابة النثرية. قرن تلاوة القرآن بإنشاد المدائح النبوية، والقصائد الدينية، والتسابيح، والتواحيش، والمواويل.

في «لسان العرب»: «نشد بمعنى عرّف، ونشد الضالة، ينشدها نشداً، ونشداً أي طلبها وعرّفها، وأنشدها عرّفها. ويقال: نشدها وأنشدها ونشداً، إذا طلبتها فأنا ناشدها، ونشدها وأنشدها فأنا منشد». وقد بدأ الشيخ سلامة حجازي حياته منشداً، ثم تحوّل إلى الإنشاد السلطاني، فالغناء.

حين مات الشيخ الرأس، تولى سلامة حجازي رئاسة الطريقة وهو في الخامسة عشرة. لم يُعد يحاكي الشيخ رافع في طريقة نطقه. بدّل في كلمات الذكر وألحانه، حذف وأضاف. لما زاد الإقبال على ليالي الذكر، قسم سلامة الليالي على مساجد الحي وزواياه. تناوبت استضافة الليالي. كان سلامة يؤم المصلين في صلاة الفجر، فتكرر صعوده إلى منئذنة البوصيري لرفع الأذان. يُطيل في الأذان. ينطلق صوته في الفضاء بلا ميكروفون. حلاوة الصوت أتاحت له رفع الأذان من جامع البوصيري، ثم في جامع أبي العباس. إذا رفع الأذان قطع الذاكرون ذكرهم. يجتذبهم الصوت الملائكي، فيصمتون. تظل أجسادهم في اهتزازها، وتحلق المشاعر في أجواء علوية، كأن ملائكة السماء يتجاوبون مع التسابيح والأدعية والتهدجات والأهازيج وتواحيش رمضان.

وصف شوقي أبو سليمان صوته بأنه يتصل بالعرش الإلهي، ويتشبث بكرسي الرحمن، وروى غريب أبو النجا أنه رأى الشيخ يُهمل سلاالم المنئذنة الدائرية، ويصعد سلاالم لا تُرى، يعلو — آخرها — فوق منئذنة الجامع.

قال الشيخ رافع عبيد: إنه يشغلني بأدائه الملحن عن تلاوتي للقرآن في الخلوة.

قال شوقي أبو سليمان: الأذان لتقول صدق الله العظيم، ثم تقوم للصلاة.

– حدّرتَه كثيراً من أن يؤدّي الأذان بهذا التنغيم.  
– ما دام لم يبدل الكلمات أو يحوّرهما فلا لوم عليه.  
أشاح الشيخ رافع بيده: إذا وافقنا على تلحين القرآن، فمن حق سلامة أن يُلحن الأذان!

حدّر الشيخ جميل أبو نار إمام أبي العباس من أن يفتتن الناس بصوت سلامة حجازي في رفع الأذان. يشغلهم عن الأذان نفسه، فتحل المعصية.  
زاد مريدو الطريقة الرأسية، لحسن قيادة سلامة حجازي لليلالي الذكر، ولجمال صوته في الإنشاد، ورفع الأذان، وما قبله من تسابيح.

البداية، الأرضية: لا إله إلا الله. التدرُّج إلى مقام الراست، فالدوكاه، فالسيكاه، فالجهار كاه، فالحجاز، فالرهاوي، فالكرد، فالبياتي، فالصبا. أنغام المنشد تتتابع في التنقل بين المقامات. الإنشاد صوفي، في مناسبات الحج، وليلة الهجرة، وليلة المولد النبوي، وليلة المعراج، وليلة النصف من شعبان:

إلهي توسلنا بجاه محمد      نبيك، وهو السيد المتواضع  
أنلنا مع الأحباء رؤيتك      حتى إليها قلوب الأصفياء تسارع

ينتهي الإنشاد إلى حيث تتردد الاستغاثة: أَعْنُنَا، أَدْرِكْنَا، يا رسول الله.  
يعلو صوت سلامة حجازي بالموال. النغمة نفسها، لا تتبدل. يندمج الذاكرون في الحركة، وفي إنشاد الأبيات. يغنّي بعدها القصائد الصوفية، محمّلة بالتوسّل والحب والهيام.

قبل أن ينتقل إلى إنشاد قصائد الذكر، ناقش الأمر بينه وبين نفسه. يُغمض عينيه. يتأمل موسيقى تلاوة القرآن. يتشربها. تتملّكه حال الوجد، تتسلل بالنشوة إلى أطرافه. يحاول – في خلواته إلى نفسه – محاكاة ما حفظه، وطريقة الأداء.

تعلم قراءات نافع وابن كثير وحمزة وعاصم وأبي عمرو ويعقوب وابن عامر وأبي جعفر وخلف. حفظ القراءات السبع الأولى أعوامًا، ثم أضاف إليها القراءات الأخرى.

سنّه الصغيرة لم تكن تُتيح له المشاركة في حلقات الذكر. يكتفي بالفرجة، ومحاولة تقليد الإنشاد، وصوت السلامة، وحركات الرءوس والأيدي. ثم ضمّه المنشد الشيخ كامل الحريري – بعد أن أعجبه صوته – إلى بطانته.

## سلامة حجازي

سلوا حمرة الخدين عن مهجة الصب      ودر ثناياكم عن المدمع الصب  
ولا تُنكروا لَحْظَ العيون، فإنه      لَسيف إلى قلبي وسحر إلى لبي  
بعدتم عن العينين فازداد حُبكم      فأنتم أحبائي على البعد والقرب

\* \* \*

أعاتب روعي في هواكم فإنها      لأبعد شيء في الغرام عن القلب  
وأسأل قلبي: أي ذنب جنيته      فلم يعترف قلبي بشيء سوى الحب  
فإن كان ذنبي شدة الحب عندكم      سألتكم بالله لا تغفروا ذنبي

\* \* \*

وكنت خلياً أعزل الناس في الهوى      فأصبحت ولهائاً وأمري إلى ربي  
فو الله ما أدري أروحي ألومها      على الحب أم عيني القريحة أم قلبي  
فإن لمت قلبي قال لي العين أبصرت      وإن لمت عيني قالت الذنب للقلب  
فقلبي وعيني في دمي قد تشاركا      فيا رب كن عوني على العين والقلب  
ويا رب لا تحرم محباً حبيبه      ويا رب لا تحكم على الناس بالحب

بدأت موهبة سلامة حجازي في التجلي. رتل آيات القرآن في مساجد الحي وبيوت الأسر الكبيرة. ترك صالون الأسطى فراج. اقتصر عمله على تلاوة القرآن والإنشاد. داوم على السماع — منتشياً — في البوصيري، واطب عليه. أعطى الألحان إصغاءه حيث يكون. صار السماع هو مصدر الوجد والجدب عنده. قدر أن حبه القديم للموسيقى هو الباعث لحرصه على السماع.

أتقن أداء القصائد الدينية والابتهالات والتسابيح والأوراد والأحزاب والذكر ورفع الأذان والأدعية والتوشیحات والتسليم وقت السحر والتواحيش والتلبية والتمجيد والتهليل وتكبيرات العيدين والموالد.

طلب الشيخ أحمد الياسرجي — أهم المنشدين في تلك الفترة — أن يتوقف سلامة عن الغناء، ويجتهد في تقوية قرار صوته. لاحظ رقة الصوت، وارتفاعه، وخلوه من القرار. تتلمذ سلامة على أيدي الكثير من المنشدين: كامل الحريري، سلامة الرأس، أحمد الياسرجي، خليل محرم، وغيرهم. تعلم أصول فن الإنشاد. لم يترك مجالاً موسيقياً — عند العرب — دون أن يتعلمه: الأهازيج، والحداء، وأغنيات الحرب، والزواج، والنواح،

والأعياد، والمواسم، وقصائد المديح، ومنظومات الأدعية، والأوراد، والأحزاب، والتسابيح، والابتهالات.

ظل الشيخ سلامة على عادته في رفع أذان الفجر من جوامع بحري، وإنشاد التسابيح، والابتهالات، والتمجيد، بالإضافة إلى التواحيش في الليالي العشر الأخيرة من رمضان: لا أوحش الله منك يا شهر الصيام، منذ الإمساك حتى رفع أذان الفجر:

شهر الصيام مفضل تفضيلاً  
نويت من بعد المنام رحيلاً  
قد كنت شهرًا طيبًا ومباركًا  
ومبشرًا بالعفو من مولانا  
بأنه يا شهر الهنا ما تنسانا  
لا أوحش الرحمن منك

لما دمر الأسطول الإنجليزي الإسكندرية، ودخلت قوات الإنجليز المدينة في ١٨٨٢م، تعرّف أهل بحري — للمرة الأولى — على البكباشي حمدي درويش. في العام نفسه، سافر سلامة حجازي إلى رشيد. عمل — في جامع المدينة — مؤذنًا، وقارئًا للقرآن، ومنشدًا للمدائح النبوية.

هل الغناء حرام أم حلال؟

تعددت الآراء ما بين مبيح للغناء، ومحرم له. استندت كل الآراء على آيات من القرآن، وأحاديث نبوية، وفتاوى السابقين.

زادت حيرة سلامة بين المشايخ. من يبيح الغناء، ومن يرفضه. من يعتبره أمرًا مشروعًا ومستحبًا، ومن يجد فيه ما يخالف الشرع، ويحضُّ على المعاصي. تستشهد الاختلافات (تزيد من حيرته) بأحاديث الرسول ﷺ، وأقوال الصحابة والأولياء رضي الله عنهم.

أقلقه ما رواه الشيخ رزق فتح الله إمام جامع البوصيري، عن نهي مالك بن أنس عن الغناء، وعن استماعه، وأن الموسيقى والغناء من الملاهي التي لا تليق بالمروءة، واعتبار أبي حنيفة الغناء من الذنوب، واعتبار أقطاب آخرين أن الغناء بدعة تُخرج عن حدود الشرع، وتحرض على ما لا ينبغي فعله، وأنه يُلهي الناس عن سماع آيات الذكر، الغناء

أشبه بالخمير والقمار والحريير، كلُّها حرام يجب الإعراض عنه، أقلقه ما نقله الشيخ عن الإمام ابن حنبل أن الغناء يُنبت النفاق في القلب، وقوله عن الإمام الشافعي، إن الرجل إذا داوم على سماع الغناء، رُدَّتْ شهادته، وبطلت عدالته. داخله أملٌ في قول الشيخ عن سيدي أحمد الرفاعي إن سماع الألحان والأشعار يوفر الرغبة في القيام بأوامر الحق تعالى، ويدفع المستمع إلى التحرر من غلظة القلب وقسوته، ومن زلات النفس وشهواتها. أضاف الشيخ قول الإمام الغزالي: إن سماع الصوت الطيب حلال بالنص والقياس. وقال الشيخ نعمان حبة: إذا كان الغناء من أجل اللهو والتسلية وامتعة القلب، فهو جفاء وخروج عن حدود الشرع. استراحت نفسه لما أضاف الشيخ عن سيدي الشاذلي قوله إن السماع بعيداً عن اللهو وتحريك الشهوات ليس مكروهاً. الصوت الجميل ليس حراماً في ذاته. الحرام إذا كان تعبيراً عن محرم، أو إلهاءً عن واجب ديني. لا بأس من الإنشاد الديني وأغنيات الحج والغزو والمناسبات كالحختان وعقد القران والزفاف.

الشيخ مجاهد كريمة أباح السماع بالأدوات الموسيقية، إن لم يكن هذا السماع سبباً للارتداد، ولا منتهاً بالعقل للمسير في طريق الحرام.

أخذ سلامة قرار المواصلة في اللحظة التالية لقول الشيخ: قطبنا الشاذلي لا يحرم سماع الغناء الذي لا يخرج عن آداب الدين.

وربَّتْ كتفه في ود: لا بأس من اشتغالك بالغناء، ما دام لا يثير الآفات المستكنة، ولا يهيج الشهوات.

اطمأن إلى صحة سماع الأصوات الجميلة، والنغم الطيب. الغناء يخفف عن الإنسان ما يُرهق حياته. القلوب إذا أُكْرهت عميت، ترويحها يُعينها على الجد والإخلاص في الطاعات، وإن ساوى بين النغمة في الصوت، ومعاني الكلمات. حرم السماع على مَنْ لم يعرف معانيه.

أجاد سلامة حجازي سماع الموسيقى الأندلسية والفارسية والتركية. فرَّق بين النغمات.

كان الغناء سمة العصر. حتى الأُسْر الفقيرة كانت تحرص — في حفلاتها — أن تدعو مغنياً لإحياء الصهبة.

تعلم السلم الموسيقي، ثم العزف على العود: الإمساك بالعود، إصلاح الوتر، عمل الفروقات — التي تُهملها أصابعه — بصوته.

تحول من التواحيش والإنشاد وقصائد مدح الرسول، إلى الغناء على التخت. ثم اتجه — فيما بعد — إلى فن الغناء المسرحي.

في ١٨٨٣م، عاد سلامة حجازي إلى الإسكندرية. اختطَّ طريقًا مغايرة لأغنيات تلك الفترة. لم يشغله كثرة منشدي الموشحات، ولا كثرة نجوم الفترة في التلحين والغناء: محمد البوشي، درويش الحريري، حسنين المكوجي، عبده الحامولي، محمود الحصري، محمد الربع، خليل القباني، الشيخ المسلوب، محمد عثمان، عبد العزيز البولاقي، عبد الحميد الجزمجي، وغيرهم.

لم يفتتح ليلته بعبارة «يا ليل» كما اعتاد مطربو الفترة. يبدؤها بتوشيح، أو مذهب من ابتداعه. لترتيله وإنشاده صدًى واضحٌ في نفوس مَنْ استمع إليه. استجاب له الصوفية والنسك والزهاد والذاكرون والفقراء.

صار يتنفس الموسيقى والطرب. مارس الغناء في الليالي والأفراح والموالد. ذاعت ألحانه، تغنى بها الناس في البيوت والمقاهي والساحات وحفلات الختان والزفاف.

طال تفكير سلامة في العمل بالتمثيل.

التعبير المرادف للممثل هو «المشخصاتي». هو لا يقبل أن يكون مشخصاتيًّا. حين عرض عليه الخياط أن يُغني مرة، كل أسبوع، في مسرحه، وافق سلامة، لأنه سيُغني — بمفرده، وبدون أداء تمثيلي — بين فصول المسرحية، وشهد سرادق الخياط بميدان المنشية زحامًا لم تشهده الإسكندرية من قبل.

سافر سلامة حجازي — بعد فترة قصيرة — إلى القاهرة. غنى، ولحن. تعددت رحلاته. يُحيي الحفلات الغنائية للعائلات الشهيرة في مجتمع القاهرة، ثم يعود إلى مدينته.

ذاع اسمه في القاهرة.

تعرفَ إلى مطرب الخديو عبده الحامولي. اشتركا في تقديم حفل لمناسبة زواج إحدى كريمات الخديو. كان من فقرات الحفل مسرحية بعنوان «السر المكنون». بدّل سلامة — لرؤيتها — نظرته إلى التمثيل. لم يجد فيه ما يتنافى مع الدين والأخلاق. تحدّث إلى الحامولي في فكرة الغناء والتمثيل على المسرح. وافق الحامولي على الفكرة، مجال جديد للمطربين، لا بأس أن يدخلوه.

أطال سلامة النقاش بينه وبين نفسه. يسافر إلى القاهرة، فيستقر فيها، أو لا يسافر؟  
ينضم إلى جوقة الحداد والقرداحي ممثلًا إلى جانب الغناء؟

ودّع بحري — ذات صباح — ثم استقل حنطورًا إلى محطة السكة الحديد.  
قالت له أمه: إذا سافرت إلى القاهرة فلن تحسّ من ألم الغربة ما أحسّه.  
تصعّبت من بين أسنانها المثمرة: لن تطيب لي الحياة في الإسكندرية بدونك.  
هجر سلامة التخت. انضم إلى فرقة القرداحي، ثم إلى فرقتي القباني وإسكندر فرح.  
عمل ممثلًا ومطربًا في فرقة إسكندر فرح. تعاقد على ثلاثين جنيهاً كل شهر، أعلى  
أجر لمطرب أو ممثل حينذاك.

كانت الفرقة تقدّم عروضها في المسرح الوطني (مكان سينما أولبيا بشارع عبد  
العزیز). استمرت عضوية سلامة حجازي في الفرقة من ١٨٨٩م إلى ١٩٠٥م. قدّم أثناءها  
ما يقرب من أربعين مسرحية. صارت الأغنية جزءًا من المسرحية، تتصل بها، وتعبّر عن  
أحداثها. نقلها سلامة من التخت إلى خشبة المسرح.

بعد انفصال سلامة حجازي عن فرقة إسكندر فرح، أنشأ فرقةً مسرحية. كانت  
«صلاح الدين الأيوبي» أولى مسرحيات الفرقة الوليدة. قدّمت في صالة سانتني في الناحية  
القبليّة من حديقة الأزبكية.

حقّق العرض نجاحًا جماهيريًا، لم يتوقعه الفنان. استمر أربعين يومًا بلا توقف.  
وحققت المسرحية الثانية «البيتمتين» نجاحًا مماثلًا. أهدته الممثلة الفرنسية سارة برنار  
عقدًا، دليلًا على إعجابها.

حاول إسكندر فرح — بعد انفصال سلامة حجازي عن فرقته — أن يدعمها، فلا  
تنفرط. ضمّ إليها الفنانين عزيز عيد، وأحمد محرم، ومحمود كامل، وأحمد الشامي،  
وأمين عطا الله، وألظ ستاتي، وغيرهم. ظلت الخسائر على تفاقمها، حتى حلّ إسكندر  
فرح فرقته، واكتفى بتأجير مسرحه للفرق الأخرى.

حلّت فرقة إسكندر فرح، فاقتصر الفرق الفنية في القاهرة على فرقة سلامة  
حجازي.

زاد على عروضه المسرحية أسطوانات لشركة أوديون. ثم افتتح — في ١٩٠٦م — دار  
التمثيل العربي بشارع الباب البحري. قدّم فيها مسرحيات: السر المغطى، بائعة الخبز،  
صاحبة الشرف، الحرم الخفي، تسبا، عواطف البنين، اللص الشريف، مطامع النساء،  
ثارات العرب، وغيرها.

يبدأ كل حفلة بقصيدة مطلعها:

مرحبًا بالسادة النجب سادة العرفان والأدب

يختم القصيدة بالقول:

فلتعش مصر ونهضتها وليعش تمثيلنا العربي

تنقّل بين القاهرة والعديد من المدن العربية. في رحلته الشامية ١٩٠٨م، شكا من تعبٍ وفتور يستوليان على جسده. عُولج بالأشعة، حتى زال إحساسه بالتعب. وفي أثناء جلوسه على مقهى مع أصدقاء سوريين، سقط رأسه على صدره، وسال اللعاب من فمه. قال للنظرات الخائفة من حوله: أظن أنني مريض، جسمي ثقيل، لا أستطيع تحريكه. ثم علا صوته صارخًا: سأموت. أريد طبيبًا!

دخل في غيبوبة، استمرت ثلاثة أسابيع. ثم أفاق، وتحرك جسده، ما عدا اليد والساق. عادت الفرقة إلى مصر، وظل سلامة حجازي في الشام بضعة أشهر، لاستكمال العلاج. حين عاد إلى بيته في بركة الفيل، ظل طريح الفراش ما يقرب من العامين، أنفق خلالهما على مرضه كلّ ما ادخره. وبعث رسالة إلى صديقه الصيدلي محمد فاضل بدمنهوور، يشكو له انفضاض أقرب الناس عنه. حتى زوجته هجرت البيت.

مؤل عبد الرازق عنایت بك جوق الشيخ سلامة، فاستأنف عروضة. اقتصر الشيخ على تلحين بعض الفقرات الغنائية. ثم حاول أن يؤدي بعض الأدوار التي تخفي ظروفه الصحية.

سافر سلامة في رحلة طويلة ١٩١٤م إلى تونس وطرابلس ونابولي. لم يكن قد استرد صحته بعد.

في نهاية ١٩١٤م تكوّن جوق جورج أبيض وسلامة حجازي. وجد سلامة في قيام جورج بالأدوار التمثيلية ما يُعنيه عن الحركة فوق خشبة المسرح، فلا يبين ما يقدمه من عرج. انضم إلى الفرقة عددٌ من الممثلين الهواة: زكي طليمات، ألمظ، صالحة قاصين، محمود رضا، فؤاد سليم، حسن ثابت، سرينا إبراهيم، ماري إبراهيم، عباس فارس، حسن فائق، إبريز ستاني، نظلة مزراحي.

لم تكن الفرقة تدفع للممثلين أجرًا ما. كان العمل بالمساهمة. لكل ممثل عددٌ من الأسهم، يوزع الإيراد بنسبة المساهمات.



تنقلت الفرقة بين مسرح الكورسال، وتياترو دي باري وتياترو عباس، والكوزموجراف، وأخيرًا مسرح برنتانيا. ظلت تعمل فيه حتى صيف ١٩١٥م، ثم نقلت الفرقة عروضها إلى عواصم الأقاليم. وفي أواخر ١٩١٥م، انفصل سلامة حجازي وجورج أبيض بلا أسباب معلنة. حلت - بدلاً من جوقهما - فرقة أخرى جديدة.

في ١٩١٦م، تحسنت صحة سلامة حجازي. لم يعد يشكو مرضًا ولا ألمًا، وإن ظلت آثار العرج الخفيف في قدمه اليسرى. أعاد الروح إلى فرقته. شاهد السلطان فؤاد إحدى مسرحياته في دار الأوبرا. ثم قامت الفرقة ١٩١٧م برحلة في عواصم الوجه القبلي حتى أسوان، ثم قامت الفرقة برحلة مقابلة في عواصم الوجه البحري. قدّم أربع مسرحيات جديدة على مسرح الكورسال، عرض آخرها مساء الأحد ٣٠ سبتمبر ١٩١٧م. وفي صباح الأربعاء الثالث من أكتوبر، اعتذر الشيخ عن عدم مرافقة الفرقة إلى المنصورة. وعد بأن يلحق بها بعد أن يزول ما برأسه من صداع، لكنه سقط على الأرض في بيته. تبين الأطباء أنه أسلم الروح.

مات سلامة حجازي بعد أن قدّم آخر مسرحياته «عظة الملوك»، وقبل أن يُنمَّ رواية «فاوست»، في العام الذي تولى فيه السلطان فؤاد عرش مصر، وتخرّج الشيخ محمود شلتوت في معهد الإسكندرية الديني، وعاد سوق العيد إلى موضعه في ميدان الخمسة فوانيس، وشق الشارع الجديد من المينا الشرقية إلى باب الجمرك الرئيس، وأُعيد تجديد مقام سيدي كظمان وكسوته بالجوخ الأخضر، وغنّت منيرة المهديّة من لحن داود حسني: عصفوري يا امه عصفوري ... لا العب وأوري له أموري، وتألّفت المدرسة الحديثّة من أحمد خيرى سعيد، ومحمود طاهر لاشين، وحسين فوزي، وسعيد عبده، ومحمود عزي، وآخرين، وافتربت الحرب العالمية الأولى من نهايتها، وصدر وعدٌ بلفور، وقامت الثورة السوفييتية في روسيا، واكتشف أينشتين نظرية النسبية، وعانت الإسكندرية طقسًا متقلبًا، وكثر تردّد محمود سعيد على بحري للبحث عن تكوينات لوحاته، وهُدّد البكباشي حمدي درويش عمال الميناء بضرب أية محاولة للإضراب أو التظاهر.

انظر: أبو الحسن الشاذلي، حمدي درويش، ماهر الصاوي، شوقي أبو سليمان، رافع عبيد، محمود سعيد.



## سيد حلال عليه

لا أحد يعرف: هل اسم «حلال عليه» هو اسم الأب أو الجد، أو أنه اختار الاسم لنفسه، أو أنه أطلق عليه؟

مجرد نطق الجملة من الكلمتين تعني الاسم وليس التعبير الذي نتداوله في عمليات البيع والشراء.

رُوي أنه سُمي سيد حلال عليه لإلحاح الشيخ رافع عبيد على أبيه أن يُلحَقَه بالكتَّاب. يُفِيده حفظ القرآن في احتراف تلاوته. ويُفِيده تعلُّم القراءة والكتابة في التوظُّف، أو مراجعة حسابات أبيه في دكان البقالة بشارع رأس التين. الرقص في الموالد والأفراح طريق مسدودة لا مستقبل لها.

لاحظ الأب ما يربحه سيد من تنقله بين السرادقات ومقدمة الموالد وحفلات الزفاف والختان.

تحسَّس شاربه بإصبعه: حلال عليه!

ألف الناس — من يومها — ترديدَ الاسم. هو الاسم الذي يُعرف به. لما مات أبوه، وقف سيد وراء الواجهة الزجاجية المطلة على شارع رأس التين، يعوض ضيق مساحة الدكان بصفِّ البضاعة على الرصيف. الصفوف الهرمية من عُلب التونة والصابون، وأقراص الجبن التركي، وبراميل المخللات، وصناديق الرنجة، وحباش أم الخول: الطحينية والليمون والزيت، وجريد أرغفة الخبز، والأرض المغطاة بالمياه الراكدة. أضاف العطارة إلى بضاعة الدكان: الزعتر، الكمون، الكزبرة، القرفة، ورق اللوري، ورق الأثل، لسان العصفر، الشيح، النعناع، المستكة، الحبهان، الزنجبيل، الفلفل الحار، الفلفل الأسود، الكركديه، الحنة، الحلبة، الخروب، التمر هندي، العرقسوس، الحنظل، لباب الصبار.

يتبين — في وقفته خلف الواجهة الزجاجية — مواكب الصوفية القادمة — عبر الموازيني والحجاري — من ميدان المساجد: الزحام والأعلام والدفوف والطبول والإنشاد وأولاد عبد السلام وأفعال الخوارق.

يأخذ موضعه في مقدمة الجلوة، يرتدي السروال الفضفاض، والصديري المزركش، والحداء الكاوتش. يتلاعب — فوق رأسه — بالعصا الطويلة، ثم يُرسل العصا في الهواء، ويتلقاها على جبهته، أو على أرنبة أنفه. يلتقط الكرسي الخيزران بأسنانه، يرفعه، يرقص ويدها تُحلقان في الهواء. يقذف السكين في الفراغ، ويتلقفه. يصحبه عازف، أو زامر، أو ضارب على الطبلية. تمتزج حركاته بالعصا، فوق رأسه وجبهته وذقنه وأنفه وكتفَيْه، تطويحه لها، والتقاطها، بعزف المزمار وإيقاع الطبلية والنقرزان. ربما رافق رقصاته شقالباط، يؤدي حركات بهلوانية، يطير في الهواء، ينثني حول نفسه.

قد ينضم إلى مواكب الزفاف أو الختان القادمة في امتداد رأس التين، ومن ناحية صفر باشا وأبو وردة، أو من الناحية المقابلة في شارع الميدان، وشارع فرنسا، والشوارع المتفرعة. يُنهي الموكب لفأته السبع حول الدائرة الرخامية أوسط الميدان: اقرءوا الفاتحة لأبي العباس ... يا اسكندرية يا أجدع ناس.

يحرص أن يكون في المقدمة. لا ينتظر أجزًا، ولا يطلبه. البقالة مهنته. ما عدا ذلك فلإرضاء النفس. يُعيد إلى الأذهان أيام الفتوات.

يتأمل مظاهرات طلبة المعهد الديني القادمة من المسافرخانة. الجيب والقفاطين والعمام والهتافات والأيدي الغاضبة. تخترق الشوارع الصغيرة إلى رأس التين. تميل إلى اليسار، متجهة إلى قلب المدينة. يُدرك الطلبة — مثلما يُدرك المصلون في أبي العباس — أن مظاهراتهم من الميدان تنتهي عند الطرف الخارجي لحديقة رأس التين. هو آخر ما يمكن بلوغه.

تمضي مظاهرات المصلين من الأباصيري والتتويج والموازيني، أو تتجه ناحية طريق الكورنيش. امتداده بلا تقاطعات. يجتذب المتظاهرين من الشوارع الفرعية. يظل في وقفته وراء الواجهة الزجاجية. يصعب أن يتصدر المظاهرة، أو يتلاعب بالعصا والسكين، وسط زحام المتظاهرين وهتافاتهم.

في مناسبات عودة الزعماء السياسيّين من الخارج، كان سيد حلال عليه يُسدل الشيش الحديد على الواجهة الزجاجية. يمضي — باللهفة — إلى باب رقم واحد. يُفسح له الواقفون دائرة، يتلاعب فيها بالعصا والسكين. يُرادفها تمازج صوت المزمار وإيقاع النقرزان ودقات الطبلية والدف.

يرتدي الصديري الأسود ذا الياقة العالية. يعوج على رأسه الطاقة الشبيكة، أو الطربوش الأحمر بلا بطانة داخلية. ربما لفَّ على رأسه لاسة حريرية كالعمامة، تترق الأسنان الذهبية من بين شفتيه، ويبدو الشارب الرفيع خطأً يفصل بين الأنف والشفة. حين تترامى صافرات البواخر من الميناء، وتتعالى الصيحات والهتافات، يُدرك أن الزعيم أطل من أعلى الباخرة. تذوب الدائرة في اندفاع الناس نحو الرصيف، أسفل الباخرة. ذلك ما فعله سيد حلال في استقبال سعد زغول ومصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين، وأبطال الرياضة الفائزين في بطولات العالم والدورات الأولمبية.

ينسب إلى نفسه اختراع رقصات الصهبة:

صلاة النبي ... صلاة النبي  
مالحة في عين اللي مايصلي ع النبي  
الحارس الله والصلاة على النبي  
العروسة بنت حارتنا وعريستها فنجري  
يا ما انت صغير ... حلو يا عريس

التلاعب بالعصا، قذف السكين في الهواء، والتقاطه، قد يضع السكين بين إصبعيه، يدور بها حولهما دون أن يُصيبه جرح، السير — بخطوات راقصة — في مقدمة الجلوات وحفلات الختان وحفلات الزفاف. هو أول من بدأ ذلك كلّه، أول من أضافه إلى الصهبة فاكتسبت معناها. لم تُعد مجرد تسمية. قد يساعده رجل يرتدي زياً يتعمد به الإضحاك. الوجه مصبوغ بالألوان، الزر يتلوى فوق العمامة الحمراء، الطبلية تحت الإبط، اليد تنقر عليها في ضربات متلاحقة، حركات الجسد وتأوداته لا تنتهي.

لم تكن الفتونة في باله، ولا حاول الدخول في معارك من أي نوع. الفراغ هو الخصم الذي يوجّه إليه سكاكينه. يقذف بها، ويستعيدها في اتجاهها إلى الأرض. تأخذ أشكال الدوائر والمثلثات والمربعات. يضع قناع الجدية، ويقذف بها إلى هدف غير مرئي. قال له حجازي أيوب: ما تفعله ألعاب مهرجين لا معنى لها. وأظهر التصعب: ربما قتلت مسكيناً بسكينك.

لكي يظلَّ في عافية، كان يتعاطى على الريق وصفةً عشبية، يُعدها له الحاج جودة هلال. يأكل — لتقوية جسده — كميات من الفلفل الأبيض، وبذر أبو النوم، وبذر الفجل، وعرق الذهب والحبهان والزنجبيل والعسل الأبيض. يَثِقُ بتأثيرها في عافية البدن، وسهولة الحركة. اليود مفيد لصحة الإنسان. يحرص أن يضع ثلاث نقط من صبغة اليود في فنجان صغير. يحذّر من أكل السمك والبيض في وقت واحد. يُورث وجع الطحال والرياح في رأس المعدة. وكان يتلاعب بالعصا.

القرد هي التسمية التي أطلقها عليه أحمد المسيري، ليس للشبه الجسدي، وإنما لإجاداته الرقص، واللعب بالعصا، ومحاكاة ما يصنعه الحواة. حين عرض عليه المسيري أن يشارك في سرادق العيد، اشترط أن تنفصل فقرته الراقصة عن العرض الجماعي، لا ينتظر حتى يُغني مع أفراد الفرقة: يا اللي زرعوا البرتقان.

قال المسيري: نحن لا نقبل الشروط المسبقة، إن شئت خصّص لنفسك مسرحًا! رفض سيد أن يكون أقل مكانة من الحاوي. يُخرج من فمه شريطًا من المناديل الملونة، ومن جيوبه حمائم وأرانب ونقودًا، ويفاجئ المشاهدين بما لم يتوقعوه. رفّت على شفّتيه ابتسامَةٌ زهو: قد يتابع أبناء بحري فقرة الحاوي، لكنهم يحبون رقصتي!

كان يُجيد الكلام من بطنه. لا يُحرك شفّتيه، ولا يعبرُ بيديه عن معنى الكلمات، دلالة أنه لم ينطق بها. يظن محدّثه أن الكلام من موضع قريب، لا يتبيّنه. يُصيخ سمعه، يحاول التعرف على مصدر الصوت، لكن الصوت يلحقه بما يثق أنه موضع آخر. يبذل إرهاف السمع حتى يُدرّكه المثلل أو اليأس. ربما ظن البعض أنه يتعامل مع الأرواح، أو الكائنات التي لا تُرى. هي التي تُصدر الأصوات. ربما أحدث الوهم بأن شيطانًا في بطنه هو الذي يعلو صوته بالحكايات والمداعبات.

يمدُّ يده في الجراب الجلدي، يأخذ ما به من الحصى، يدفع بها إلى فمه، واحدة، واحدة، حتى يتكور خداه. يبصق الحصى واحدة، واحدة، لكنها تبدو للمشاهد كرات صغيرة، ملونة. تتمدد المرأة ذات المايوه على طاولة خشبية، يُغطيها سيد بملاءة بيضاء. يسحب الغطاء. يبدو في موضعها رجل. يكرر سيد الفعل، حتى تنهض المرأة، وتتجه بالتحية إلى الجمهور.

سيد حلال عليه

يُدرِك المسيرى أن سيد حلال عليه يلجأ إلى الخفة والمهارة فيما يفعله. لا سحر، ولا ما يخالف الطبيعة، يُجيد تحويل المشاهدين، فلا يكتشفون الحيل.

لا أحد يدري تماماً متى ولا كيف انسحب سيد حلال عليه من حياة الناس. انكفاً على حياته الخاصة، لا يزور ولا يُزار، لا يغادر بيته إلا لضرورة. ربما أدار الفونوغراف على أغنيات لسيد درويش، ومنيرة المهديّة، وأم كلثوم، وعبد الوهاب، ونادرة. يكتفي بهزة الرأس للأصدقاء على قهوة الزردوني دون أن يميل للجلوس عليها. لم يُعدّ لديه ما يتطلع إليه. عاش في ذكريات الماضي.

انظر: أحمد المسيرى، حجازي أيوب، رافع عبيد، سيد درويش.





## سيد درويش

وُلد سيد درويش البحر في التاسعة صباح ١٧ مارس ١٨٩٢م بحي كوم الدكة. والي البلاد الخديو عباس حلمي، في ظل الاحتلال الإنجليزي لمصر. أبوه المعلم درويش البحر النجار بكوم الدكة. كان يمتلك ورشةً لصناعة الكراسي الخشبية. أمه ملوك بنت عيد. سيد هو الذَّكر الأوَّل بعد ثلاث بنات: فريدة وستوتة وزينب. الأولى والثانية تزوجتا قبل مولده. وتزوجت الصغرى وهو في العاشرة.

كتب في مذكراته: «وُلدت من أبوين فقيرين في مدينة الإسكندرية. وكان والدي نجارًا بسيطًا، يعمل لاكتساب لقمته بعرق جبينه، على أنه كان كثيرَ التقوى، زاهدًا، قنوعًا في الحياة. وكم كان يُعاقبني — منذ نعومة أظافري — على ترك الصلاة، وكان لا يلدُّ له شيء أكثر من أن يراني حافظًا لكتاب الله الكريم؛ ولهذا ما كدت أبلغ التاسعة من عمري حتى أدخلني أحدَ الكتاتيب، وهناك ظللت أوصل حفظ القرآن الشريف وتجويده. ولما بلغتُ غايتي من ذلك، توجَّهت بكلياتي إلى دراسة شيء قليل من أصول الموسيقى، وتمييز النغمات الأولية بعضها عن بعض، وخطر لي أن أحترف حرفةً أخرى غير حرفة الفقهاء، أضمن من ورائها القوت لِنفسي. كان لوالدي صديقٌ من خيرة أصدقائه، يحكي عن نفسه أنه بدأ الحياة بناءً بسيطًا ككل البنَّائين، وأراد الله له الخير، فأصبح في يوم من الأيام مقاولًا لا بأس بثروته. وهنا وضعتُ كل آمالي في معونة ذلك المقاول، وظللت ألحُّ عليه في الرجاء، حتى أسلمني إلى رجاله، موصيًا بتدريبي على صناعة البناء، وكم كان شوقي شديدًا لليوم الذي أخرج فيه على أيديهم بناءً حاذقًا، لكن القدر أراد لي خلاف ما ابتغيت لِنفسي.»

الروايات تتحدث عن تلقّي تعليمه الأوّلي بمدرسة حسن حلاوة. حفظ فيها القرآن والقراءة والكتابة ومبادئ الحساب. أحبّ ما كان يحفظه من الأناشيد والسلامات. انتقل — بعد عامين — إلى مدرسة «شمس المعارف» في شارع الشمري ببحري. لقّنه المدرس نجيب أفندي فهمي ما كان يحفظه من ألحان سلامة حجازي.

مات أبوه سنة ١٩٠٦ م. صار سيد العائل الوحيد للأسرة. عمّل في محل لبيع الموبيليا مع زوج إحدى شقيقاته، ثم عمل في دكان للعطارة، أغلقه ظهر جمعة لأداء الصلاة في جامع أبي العباس. طلب منه إمام الجامع أن يقرأ سورة الكهف لتغيّب القارئ. إجادته التلاوة كانت دافعاً له، كي يتكسب من قراءة القرآن.

أغنيات سلامة حجازي هي أول ما حفظ سيد درويش. وكان يحرص على حضور حفلات سلامة حجازي في مسارح الإسكندرية.

اشتغل مغنياً في فرقة كامل الأصلي بمقهى إلياس بكوم الناصورة. أدى أغنيات سلامة حجازي. عندما حُلّت الفرقة، عمل مغنياً في مقهى «أبو راضي» بالفراهة، لكن إقامته بها لم تطل. حاصرته الظروف، فاشتغل مناولاً للبياض.

كانت معسكرات الإنجليز فوق كوم الدكة مشهداً يومياً، يراه في هبوطه إلى أحياء الإسكندرية، وعودته منها.

ترك مقهاه في كوم الدكة. هبط إلى المدينة. تردد على المقاهي وأماكن الطرب.

التحق سيد بالمعهد الديني وهو في الثالثة عشرة. أتاح له اقتراب المعهد من البحر والجوامع والزوايا وأضرحة الأولياء ومقاماتهم، أن يشاهد الموالد وحلقات الذكر وحفلات الزفاف في ساحة المرسي أبي العباس. أنصت إلى التلاوات القرآنية، وإنشاد الموشحات، والقصائد النبوية، وأهازيج السحر، وتواحيش رمضان.

كان يرافق صديقاً له يعزف مع الفرق الأجنبية. يجلس إلى جانب صديقه مع أفراد الأوركسترا. يتابع بروفاتهم وألحانهم على الأوبرات العالمية وعروض الباليه. لاحظ أنه يُطيل التوقف عند أصوات الباعة في نداءاتهم على ما يبيعون. يكرر النداء — بينه وبين نفسه — يُقلِّبه، يُعيد — بدندنة يسمعها هو — تلحينه. فطن إلى موهبته الموسيقية.

عمّل مؤذناً لجامع الشوربجي بشارع الميدان، وشارك بتلاوة آيات القرآن، وإلقاء القصائد، ورواية السيرة النبوية، في المناسبات السياسية والاجتماعية، وفي السراقات

المقامة بالساحات أيام الأعياد، وفي البيوت والمقاهي والحانات. قَلد القارئ الشيخ حسن الأزهري، وقلد غناء سلامة حجازي، وقرأ في الموالد، وفي الأفرح.

كان يُخلي الطريق — أحياناً — لقدميه وأُذُنِيه وحاسة الالتقاط في داخله: نداءات الباعة، رفع الأذان من مسجد قريب، صرير عجلات الترام، صياح مجذوب يهزُّ مجمرة البخور، تلاقي صافرات البواخر في الميناء الغربية، زحام الموالد والجلوات، ألعاب الأولاد في الحواري والأزقة، أغنيات الصيادين عند سحب الجرّافة، اختلاط أصوات الطيور على امتداد الساحل، إيقاع صحن العطاراة في سوق الترك.

طرد المعهد سيد درويش لعدم مثابرتة على التعليم. ورُوِيَ أن الحاجة المادية دفعته إلى ترك المعهد، والعمل في مهن عديدة.

المصادفة — وحدها — بدّلت حياته. رآه الأخوان سليم وأمين عطا الله، وهو يُغني — على السقالة — للفواعلية. عرضاً عليه العمل بفرقتهما، ومصاحبة الفرقة إلى حلب. أمضى سيد درويش في رحلة سوريا عشرة شهور، عمِلَ — بعدها — في مقهى «شيبان» بجوار حلقة السمك القديمة.

أراد الشيخ سلامة حجازي أن يستمع إلى سيد درويش. قال سيد درويش لرسول الشيخ سلامة: أنا لا أنتقل من مكاني. إذا أراد الشيخ أن يسمعني، فليتفضل بالحضور إلى هذا المقهى. رفض سلامة حجازي أن يُنصت لمن نصحوه بعدم الذهاب إلى سيد درويش. التقياً في قهوة شيبان.

سأل سيد درويش، وأجاب سلامة حجازي. تحدّثاً في البشارف والرصد والبيات والهزام والصبأ. غنّى سيد درويش من ألحان سلامة حجازي ومحمد عثمان وعبد الحمولي، وغنّى الكثير من ألحانه.

قال سلامة حجازي: أعجبتني ألحانك. قال سيد درويش: الجمهور يحب ما أغنّيه من ألحان غيري.

وتبدّلت نبرة صوته: أظن أنني سأسير في طريقك. ضحك الشيخ سلامة: تظن أم أن هذا هو ما تريده؟

— أريده ... لكن الظروف قد لا تساعدني.

— مَن يملك ألحانك الجميلة لا تشغله الظروف.

واحتواه بنظرة مشفقة: إذا طلبت نصيحتي، فلا تُغنِّ إلا أحنالك. ما لا يتذوقه الناس الآن سيُقبلون عليه فيما بعد.

ثم في نبرة محرّضة: أنت صاحب ظروفك؟

أعاد سيد درويش السؤال: هل تنصحنى بالسفر إلى القاهرة؟

قال سلامة حجازي في لهجة محملة بالإيماءات: كُن الفنان الذي تريده في أي مكان!

تنقّل سيد درويش بين قهوة أبو راضي باللبان، وقهوة أمينة المنصورية بالحي نفسه، والقهوة العالية بميدان المحطة، وقهوة السلام بالمنشية الصغرى، والعديد من المقاهي في كرموز ومحرم بك، واشتغل كاتبًا في محل للأثاث يملكه صهره. ثم عاد إلى الغناء في بار «كوستي» بشارع أنسطاسي.

سافر — للمرة الثانية — إلى الشام ١٩١٢م. حفّظ الكثير من الأغاني والموشحات الأندلسية والأمازيج والأدوار والطقايق. عاد — بعد سنة — يحمل معه كتبًا في الموسيقى. لم يعتمد على موهبته وحدها. حرص أن يُضيف إليها صقل الدراسة.

عمل في قهوة السلام بميدان محمد علي، وفي مقاهي سلامون، والمنصورة، والشيبان، والسلام، ومقهى الحميدية بشارع التتويج، وبار نيكولا، وبار كوستي بشارع أنسطاسي. عرف ١٩١٤م بوجود داود حسني في الإسكندرية. سعى للقاءه.

— أنا سيد البحر. أحب أنغامك، وأقدّر فنك، وأحفظ أدوارك وأغنيّتها.

— تهوى الفن؟

— الفن الجميل.

وشاب صوته تحيّر: هل هناك وسيلة للاحتراف؟

— أمامك كتب الموسيقى. اقرأ، واستوعب، واسمع كثيرًا، ثم حاول.

أول أدواره: يا فؤادي ليه بتعشق. ياللي قوامك يعجبني. عواطفك دي أشهر من نار. بالحب الهجر مايل. عشقت حسنك. لحن: زوروني كل سنة مرة. يا ناس أنا مت في حبي. يا عيني ليه تنظري لأهل الجمال تاني.

كان تميّزه في التلحين، وليس في جمال الصوت، ولا حسن الإنشاد.

رحل سيد درويش إلى القاهرة في سنة ١٩١٦م. غنى — للمرة الأولى — في كازينو البوسفور بميدان محطة العاصمة. سافر إلى القاهرة للتخلص من الغناء في المقاهي، وفي

سرادقات الخلاء، ولنسيان مطلقة التي كان يحبها. قدّمه سلامة حجازي إلى جمهور المسرح بالقول: «احفظوا اسم هذا الشاب، واذكروا أنني فخور به، معترّ بفنه، ولنعلمن نبأه بعد حين.»

ذهب — بعد أيام من إقامته في القاهرة — إلى قهوة «متاتيا»، المواجهة لتياترو الأزبكية.

سأل: أين كان الأفغاني والإمام محمد عبده يجلسان إلى تلاميذهما؟ أشار الجرسون إلى ركن في القهوة. اتجه سيد درويش ناحيته. جلس، وأغمض عينيه كالمتذكر.

عاود الجلوس في الركن نفسه، فترات الراحة من البروفات. كتب، ولحّن لفرق الريحاني في الإجبسيانا، أمين صدقي في كازينو باريس، وفرق علي الكسار وأولاد عكاشة ومنيرة المهديّة. عبّرت أراحنه عن حياته العاطفية، في طقاطيقه وأغنياته الفردية: وجوه، وعيون، ونهود وسيقان، وتطلّع، واشتفاء، وترفّع، وتذلّل، حياة عريضة في سنّ قصيرة. نزع العمامة والقفطان، وارتدى الطربوش والبدلة. أضاف الياقة والساعة ذات السلسلة.

كاد يعدل عن الزواج، عندما أصر المأذون على تغيير مهنة الزوج. ألحّ أهل العروس والأصدقاء، حتى وافق سيد درويش على أن يستبدل كلمة مدرس بكلمة مزيكاتي.

لم تُعدّ الموسيقى تقتصر على الشجن والوجد والهيام. دخلت مواضع لم تطأها من قبل. عبّرت عن لحظات العمل والفرح والأمل والحزن والسعادة والحنين. انتقل من الموسيقى الزخرفية وفنيات التطريب، إلى الموسيقى التعبيرية التي تُبرز المعاني، وتؤكدّها، ومعاني الكلمات وأجواء المشاهد. لم تُعدّ مجرد تنغيم، لكنه امتزاج بين الصورة المتخيلة وتجسيدها. المضحك أن تغنيّ قصيدة حزينة الكلمات بلحن راقص. لا بد من صلة بين اللحن ومعاني الكلمات.

تعاقد مع فرقة الريحاني على أن يلحّن استعراضاتها. البداية مسرحية اسمها «ولو». كتب بديع خيرى أولى أغنياتها، شكوى للسقايين: يعوض الله ... يهون الله ... ع السقايين ... دول غلبانين ... متبهدين ... م الكبانية ... خواجاتها جونا ... دول بيرازونا ... في صنعة أبونا ... ما تعبونا يا خلائق ... حذف الربع تون من ألحان مسرحياته، فيسهل عرضها بالآلات الغربية.

تَوَقَّع الريحاني أن يَأْتِيَ لحن سيد درويش معبراً عن المعنى. هو — من خلال سماعه لكل أُلحانه — يُجيد التعبير عن المعنى الكلي، وعن الجملة والكلمة. امتلك قدرةً مذهلة على تجسيد معاني الكلمات. عبَّر بالألحان عن المعاني. تصور الموقف. حاول أن يبين عن الملامح الظاهرة والنفسية. يستطيع المتلقي أن يلمسها بيده، يراها بعينيه، يشمُّها بأنفه. قال الريحاني: المرء يُدرك — من أول وهلة — ما يرمي إليه هذا الكلام عند سماع الأنغام.

لم يَعدْ سيد درويش بالكلمات — ملحنة — في الموعد المحدد. مضى — بعد ذلك — يومٌ ثانٍ وثالثٌ. بعث إليه الريحاني مَنْ يتعجل إنهاء اللحن. اعتذر سيد درويش بأن الأنغام لا تُطاوَعه. ترامى — وهو يتحدث — صوتٌ سقاء ينادي: يعوض الله! تنبَّه سيد درويش. أمسك بذراع محدثه، وقال: خلاص ... خلاص ... لقيت اللحن اللي أنا عاوزه.

في المساء، جلس سيد درويش إلى الريحاني. احتضن عوده، وعزف لحن السقاين. ثم توالى الألحان.

عبَّر عن شكاوى العمال والحرفيين والموظفين: السقاين، الشيالين، المراكبية، الجزائريين، الصنایعية، الحمارين، العرجية. تناول طوائف المجتمع المصري في ألحان عن البرابرة والسودانيين والمغاربة والصعايدة. تحدَّث عن معتقدات المصريين، وعاداتهم في الحب والخطوبة والزفاف والسبوع والختان.

أنتج كل أُلحانه في ست سنوات. كان يلحَّن خمس مسرحيات استعراضية في يوم واحد. توزَّعت أُلحانه بين جميع الفرق المسرحية بالقاهرة: الريحاني ومنيرة المهدي وعلي الكسار وترقية التمثيل العربي وكازينو دي باري. لَحَّن في ست سنوات ١٩١٧-١٩٢٣ م ما يقرب من عشرين مسرحية، بها أكثر من مائتي دور.

في ثورة ١٩١٩ م، غنَّى له الناس في الشوارع والمسارح والمقاهي، وفي المظاهرات:

قوم يا مصري مصر دايمًا بتناديك

احنا الجنود زي الأسود

بلادي بلادي، لك حبي وفؤادي

حين عاد الموظفون إلى دواوين الحكومة. بعد إضرابهم عن العمل في أحداث الثورة. كان القلق يُدخلهم: هل ستقطع سلطات الاحتلال من مرتباتهم أيام الإضراب؟

لحن سيد درويش:

هز الهلال يا سيد كراماتك لاجل نعيِّد  
يكفي اللي حصل كام يوم ووصل  
يا زرع بصل

مثلاً اللحن دافعاً لتدبر ما حدث، والتطلع إلى المستقبل.  
ويقول لحن سيد درويش على لسان الموظفين:

هديت وراق الحال،

ورجعنا للأشغال.

دا الموظف منأ مش وش خناق ولا شومة،

لما يحمر عينه،

والا يقوم له قومة.

حد الله ما بيننا وبينك،

غير حب الوطن يا حكومة.

لكن نبرة اللحن تعلق بالقول:

عشرين يوم راحوا علينا،

إن شا الله ياخدوا عينا.

بس المقصود ... يبقى لنا وجود ... والدنيا تعود.

خسر الموظفون روايتهم عن عشرين يوماً، لكن المقابل — الذي يعتزُّون به — هو الحياة في ظل الاستقلال والسلام.

في ١٩٢١م كوّن سيد درويش فرقته الخاصة. قدّمت مسرحيات «البروكّة» و«العشرة الطيبة» و«شهرزاد».

تغيرت حياة سيد درويش، لكن ما انطبع في نفسه من أيام الصُّبا في بحري لم يتغير. البحر، والبلائسات، والنشاطى الملاصق للبيوت، وصافرات البواخر، والقزق، والشباك، وصيد الجرافة، وصيد الطراحة، وأغنيات الصيادين، وشمس الأصيل، وصيد العصاري،

والموج الحصرية، والنوات، والملاءات اللف، والسراويل، والأبو أحمدات، والفتوات، وموالد الأولياء، وحلقات الذكر والأدعية، والابتهالات، والجوامع، والمساجد، والزوايا، والأضرحة، ومقامات الأولياء، وأهازيج السحر، وتواحيش رمضان.

طالعه — ذات مساء — ميدان محطة سكة حديد الإسكندرية.  
قَدِم من القاهرة لإعداد مظاهرة موسيقية، تستقبل سعد زغلول في عودته من المنفى.  
بدلاً من أن يميل إلى اليمين، في الطريق الصاعد إلى كوم الدكة، جاوز الميدان إلى شارع شريف. يتأمل — بالحنين — ما غاب عن عينيه، وإن لم يَغِب عن ذاكرته.  
اتجه من ميدان محمد علي إلى شارع الميدان. يستدعي الألحان التي أخذها من نداءات الباعة وتجار العجم والجرسونات والمغاربة والرشايدة والعرجية والحمارين والجزارين والبويجية، وغيرهم. ضمن أغنياته عبارات: القلل القناوي، الفول السوداني، صابحة الزبدة، يا نواعم يا تفاح، أنا بابيع الغربال، يا بلح زغلول، يا لذيد يا اخضر.  
شارع الميدان غارق في زحامه: أجساد المارة، والعربات، وباعة الخضراوات، والفاكهة، والأسماك، والمبار، والكلاوي، والفضة، ولحمة الرأس، والطحال، وطبالي السمك، وقروانات أم الخلول، والقراميط يعلط في طست مستدير ممتلئ بالماء، وأقفاص الطيور، وباعة الحلوى، والسجاجيد المتباينة الألوان، والحصر، والأوعية البلاستيك، والطاولات، والتند، والأواني، والقنور، والصناديق الخشبية، والأقفاص، والقفف، والمقاطف، والسلال، والأسبته، والغلقان، والزلع، والطُسوت، وصناديق الرنجة، وبرطمانات المخلل والزيتون، وباعة الملابس الداخلية، والكتب، والعاديات، والعمود، والبخور، والعمارة، والأعشاب، والمقويات الجنسية، والفجل والكرات والبصل الأخضر والخس والليمون.  
أطال الوقفة على رصيف الميناء. يتأمل البواخر الراسية، والمتناثرة في المدى. يتخيل تلوحة يد سعد زغلول وهو على ظهر الباخرة القادمة من أوروبا، إنشاد المستقبلين لألحانه. هو الذي ألَّف الكلمات، ترحيباً بمقدم الزعيم:

مصرنا وطنا ... سعدنا أملنا	كُلُّنا جميعاً ... للوطن ضحية
أجمعت قلوبنا ... هلالنا وصلينا	أن تعيش مصر عيشة هنيئة
عزُّك حياتنا ... ذلُّك مماتنا	يا مصر بعدك مالناش سعادة
لولا اعتقادنا ... بوجود إلهنا	كنَّا عبَدنا ... النيل عبادة



حبك كفاية ... ما لوش نهاية      كله مزايا من فضل ربي  
مهما آسينا ... مفروض علينا      موت المجاهد من غير ذنب  
مصر وطننا ... سعدها أملنا

تابع البكباشي حمدي درويش تحفيظ سيد درويش لحن استقبال التلاميذ لسعد زغلول. مال عليه بصوت هامس: ما رأيك في مائة جنيه ولقب مطرب السلطان؟ ثم في لهجة محرضة: تُنشد هذا اللحن في قصر رأس التين، أمام جلالة السلطان فؤاد.

قال سيد درويش وهو يربت صدره: يُسعدني الغناء دون مقابل في حضرة مولانا. غالب حمدي درويش توتر: فقط تضع كلمة فؤاد بدلاً من كلمة سعد. تصبح العبارة فؤادها أملنا.

قال سيد درويش في نبرة معذرة: حفظ الأولاد النشيد بالكلمات التي تطلب استبدالها.

واصطنع ابتسامة شاحبة: قد أوافق ... لكن هل يوافق الأولاد؟ بعد أن اطمأن سيد درويش إلى توقُّع اكتمال الصورة، عاد من الشوارع نفسها إلى كوم الدكة.

مات سيد درويش بالإسكندرية في ١٥ سبتمبر ١٩٢٣م، ودُفن فيها. كان في سنته الواحدة والثلاثين.

لم يكن يمتلك في نهايات حياته (كم كانت قصيرة!) سوى عوده، وفونوغرافه القديم. نزعت عنه أسرته خاتمه من يده. دفعت ثمنه — بضعة جنيهات — لتغطية مصاريف الدفن. كان قد أنفق كلَّ ما ادخره على فرقته الخاصة التي قدمت مسرحيته الموسيقية «شهرزاد».

أوصي أن يكتب على شاهد القبر:

يا زائري لا تنسني      من دعوة صالحة  
وارفع يدك إلى السماء      واقرأ لروحي الفاتحة

أهل البحر

روى أحمد المسيري أنه أمضى مع سيد درويش ليلته الأخيرة. لم يكن يبدو عليه المرض، ولا النظرة التي — يعرفها جيداً — تَشِي بالتهيؤ للموت.

انظر: أبو حلاوة، أحمد المسيري، حمدي درويش، سلامة حجازي.

## سيسبان

يُروى أن الأرض كانت — قبل آدم — مسكونة بنوع من المخلوقات العاقلة المكلفة، وأنهم أفسدوا فيها، وأسخطوا الله، فنفاهم منها إلى الأماكن النائية، أو المهجورة، الخربة، أو استأصلهم تمامًا، وعمّر الأرض بذريرة آدم، واستخلفهم فيها.

مخلوقات العالم الأخرى تُشبه البشر في كل طرق حياتها، بل إنها تتزاوج — أحياناً — مع بني الإنسان، لكنها لا تتخذ — في الأغلب — سمة البشر، بل تتخذ أشكالاً مختلفة، مثل الثعابين والعقارب والأسود والذئاب والقطط. وتنقسم إلى ثلاثة أنواع: نوع يسكن الأرض، وآخر يسكن البحر، ونوع ثالث يسكن الهواء. الأنواع الثلاثة إما ملائكة خُلقت من النور، أو جنٌّ خُلقت من النار، أو شياطين هي — في الأصل — من الجن العاصين. كانت كودية الزار سيسبان تُدرك أنها تُداوي مرضاها من تسلط الجن عليهم، تلبسهم لهم.

في حضرة الزار يحل الأسياد مكان العفاريت التي تلبس أجساد النساء. أهملت سيسبان ما رواه لها زوراها من قول الشيخ جميل أبي نار إمام جامع أبي العباس، إن الخضر له فضله في طرد الجن الذين يقصدون الناس بأناهم. يُخرجهم — بلا تعاويذ ولا دقات دفوف أو بخور — من الأجساد التي تلبسونها.

قالت: للشيخ شغله ... لا شأن له بشغلنا!

تعيش في عالمها المفعم بالجن، والشياطين، والأرواح، والأطياف، والأشباح، والبخور، والأنياب، والأذئاب، والأظافر، والمخالب، والأظلاف، والأتر، والمريوحة، والرقي، والتعاويذ، والأدعية، والاستخارة، والشيشية، ونحر الذبائح، والبخور، وصنع الأحجية، وإيقاد الشموع، والوعد بالندور، والأسوار، والخلاخيل، والأطواق، والخواتم، والعبد الحبشي، والعبدة الحبشية، والعفاريت، والأرواح، والدفوف، والبطول.

تعلمت من المعارف ما يُتيح لها إبعادَ الجن والأرواح الشريرة عن المرضى، وحماية البيوت من أذيتهم.

عالمها، أدواتها، القراءات والأناشيد والصراخ وذبح النذور وشرب دمائها، والمبخرة النحاسية والشموع والشمعدانات والسكر والعسل والورود والفطائر والحلوى والصابون والظلمة والضوء. ترفض وجود الذكور — حتى الأولاد الصغار — في حضرة الزار. تحرص سيسبان أن تجلس على الأرض. ترفض أن تكون النسوة — في الجلسة — أعلى منها. ذلك ما يشترطه احترام أهل العوالم السفلية. الشياطين والمردة والعفاريت والجان والكائنات غير البشرية. تتناثر — من حولها — حبات قمح، وعظام حيوان، وأوراق مهترئة، وخنافس ميته، ورماد متخلف من بخور. في إصبعها خاتم، تثق أنه يحميها من السحر.

القرآن يتحدث عن أرواح من نار.

أفلحت في تحضير الجن، وكتابة العهد معه. تستطيع أن تؤذي عن طريق الجن، ويطيعها الجن حتى فيما يغضب الله، يؤذي الإنسان، يصيبه بأمراض لا شفاء لها. تأمر الجن أن يتلبس جسد الإنسان، وتأمره أن يخرج منه. ما بين الحالين تُملي ما تريده: النقود والذهب والطير والحيوان والملابس. تلك مطالب الجن حتى يغادر الجسد المتعب، يتخلى عن تلبسه له.

تتلو ما تحفظه من تعاويذ. تأمر الجن الذي تلبس الجسد أن يغادره، تبعده بما يحرضه على الموافقة. ينطلق إلى دنياه التي لا صلة لها بدنيا البشر، لا يؤذي بأفعاله، ولا يؤذي بآيات الله والرقى والأدعية.

من حسن طالع المريضة-المريوحة، أن يكون الجن مسلماً، يمتثل للخروج من الجسد عندما تُصدر له الأمر. الجن الكافر تعوزه دقات عالية، وأدعية، وأغنيات، تعبر عن واقع الحال.

تُضيف سيسبان إلى النقود ما يطلبه العفريت من المصاغ والحلي. ربما ظهر العفريت لها في المنام. يطلب أن تشدد على المرأة، تفي بما طلبه حتى لا يعاكسها، ويلبسها المرض. ثمة من لا يقبل إلا الفضة، وثمة من يقبل النقود والذهب والأطواق والأساور والخلاخيل والكرادين والخواتم والحلقان والثياب والطعام.

تذبح — لأداء النذر — خروفين في حالة المولود الذكر، وتذبح خروفاً واحداً في حالة المولود الأنثى.

ترى ما لا يراه أحد: الجن عند حضوره. تتجه إليه بالأسئلة، تناقشه، توصيه بمن يهّمها، تُطالبه بأن يرفع أذاه عن المرأة التي يتلبسها. غالبية الجن يُطيعونها، وينقادون لها، ويُنفذون ما تطلبه.

تخرج الجن من مواضع كثيرة: مسام البشرة، فتحة البول، فتحة الشرج، الأذنين، فتحتي الأنف، الفم. قد تخرجه من خلال دموع العين. قد يخرج من العين، أو إصبع القدم، أو من تحت شعر الرأس.

جعلت همّها مساعدة الأرواح التي عذّبها المرض.

شفاء المريض من متاعب النفس يصدر منه هو نفسه. لشفاء النفس من المس الروحي، تنصح النساء بالإكثار من تناول الأطعمة المخلوطة بالثوم، ومن العسل، وقرقشة عظام السمك.

أفادت من الأحجار السحرية التي تشفي من الأمراض. لها خصائص تختلف عما في الأحجار العادية. جرّبت بعضها بنفسها، وعرفت بجدواها من آخرين: الجمشت الأخضر يعالج الباه، يصرف عن إدمان الخمر، يسكن الشجار، يدفع إلى اكتساب المعرفة، يُهدئ آلام الكبد، يوقف الفواق والتجشؤ المستمرين، يُعين الجسد على مجاوزة التعب، يحفظ الوئام بين الزوجين. الزمرد حجر ذو طبيعة طاهرة، إذا خلطت حبات صغيرة منه بجرعة ماء، وظلت في جوف فتاة، فهي طاهرة لم يمسهما بشر. يشفي الزمرد كذلك من الصرع، يُقوّي الأسنان، يُذهب آلام المعدة، يطرد الأشباح والثعابين.

لما طلب سيد درويش أن تصنع زارًا، يحضره بمفرده، تصورت أنه يُداعبها بالعشرة القديمة.

قناع الجدية الصارم دفعها إلى السؤال: لماذا؟

— أريد أن أعيش دقائق الدفوف والأغنيات.

استغرق سيد درويش في الأغنيات تمامًا. استعادت ما جرى حين استمعت إلى لحن سيد درويش عن الزار — للمرة الأولى — في سرادق بشارع أبي وردة.

قالت سيسبان: الطرب الحقيقي يختلف عن صراخنا!

المجمرة التي يتصاعد دخانها، تلتفُّ به أجساد الفتيات، في الخطو سبع مرات. يرافق الفعل تلاوة سيسبان لآيات من سور البقرة وياسين والفلق، ونداؤها بصوت رتيب: شيخ محضر، يا شيخ محضر، والي عليه عفريت يحضر!

تنفك الضفائر، تتطاير خصلات الشعر، تدبُّ الأقدام الحافية على الأرض، تتمايل الأجساد، تهتز على إيقاع الدفوف، وأغنيات الزار، تتصاعد ضربات الدفوف، يعلو معها

إيقاع الرقص، يبلغ الانفعال ما يبدو كأن المرأة تُعاني تقلصات أو ارتعاشات قاسية، كأنها تموت.

حين يتلبس الشيخ عبد السلام المرأة، تعود إلى الطفولة، تتكلم، وتلعب، وتنظر للأطفال. يحلُّ بعده في جسدها العبد مرجان، فتتكلم، وترقص كالعبيد. ترش سيسبان الماء المالح على رأس المريوحة ووجهها، لتُخلِّصها من تأثيرات السحر. استنتجت أن المرأة نجمها خفيف، تخشى الحسد. وضعت قطعة رصاص في كوب ماء، ثم استعدتْها. حرَّضتها على جرع ما في الكوب، فيزول تأثير الحسد.

نصحت المرأة أن تكنس مقام المرسي أبي العباس، والاستحمام بماء ساخن مخلوطاً بكناسة المقام. وعدت المرأة أن يحضر عليها السلطان. يسكن جسدها، فيطرد الشياطين والعفرانيت والأرواح الشريرة.

طلبت من المرأة — التي طال عقمها — أن ترقد أعلى الدحديرة الخلفية لجامع أبي العباس، وتتدحرج في اتجاه جامع البوصيري. ثم طلبت — لما تأخر الحمل — أن تذهب المرأة إلى البحر في موضع وزمان، لا يراها أحد. ترتدي ثوباً، وتحمل ثوباً ثانياً. تنزل المالح عارية، وتغسل الثوب الذي كانت ترتديه. تعود بالثوب الثاني إلى حياة جديدة، تحصل فيها على ما تتمناه.

ذكرت الأسماء الأولى لنساء، طالبت المرأة أن تستكمل أسماءهن من معارفها. إذا التقت بإحداهن، أدارت وجهها، تتجنَّب الشرر من العينين الصفراوين، المستديرتين. اتخذ زوج المرأة زوجة ثانية، خرجت عن شعورها، وتلبسها الجنون. قالت سيسبان إن من تلبس المرأة جني، وجد في حزنها الشديد ما دفعه إلى تقمصها. كتبت لها كلمات رقى على فخذها. طلبت أن تنزل إلى المالح في لحظات الحسم بين الليل والنهار. تترك للمياه إزالة الرقى، فيذوب الجني في البحر كما يذوب الملح.

إذا عجزت عن شفاء المريضة، المريوحة، فالأمر في يد أولياء الله. عندهم الشفاعة والمكاشفة والبركة والمدد. سيدي المتولي هو الذي يقضي بالشفاء. تنصح المرأة بوضع قطعة صغيرة من ذيل ملاءتها، في مسمار الباب الخلفي لجامع المرسي.

رُوي أنه إذا قلت أعداد المترددين عليها، أمرت الجان أن يلبس جسد المرأة. يظل الجان داخل الجسد، حتى تلجأ المرأة إلى سيسبان، تُخرجه بالرقى والتعازيم، أو تنصح بالزار.

أعطت الفتاة رقائق عشبية، مخلوطة في الماء. تغسل عينيها — قبل النوم — بقطرات منها. يزورها طيفٌ من تحبُّه في منامها، تراه، تتشرب ملامحه، تُكلمه، تأخذ منه وتُعطي.

أنكرت ما أشيع من أنها تسهّل — في حفلاتها — اجتماع الجنسين.  
لم يقتصر زوارها على أبناء بحري. قَدِم إليها ناسٌ مساكين ومهمون، من أحياء الإسكندرية الأخرى. اجتذبهم صيتُ المعلمة سيسبان، وحالات الشفاء التي تمت على يديها، والقدرة على تسخير الجان، للفرج عن المكروبين، وحل العقد والربط، والوفاق بين المحبين.

حين لجأت إليها سنية الطبلاوي، صاحبة البيت المطل على ناصيتي ميدان الخمسة فوانيس وشارع الشيخ نجيب، تشكو استيلاء زوجها على ما تملك، وطردها من البيت الذي تملكه، نطقت سيسبان بتعاويذها وطلاسمها. خاطبت الجانَّ بأسئلةٍ يملكون — وحدهم — إجاباتها.

التفتت نحو المرأة بسحنة متغيرة: هل تُمارسين حياتك بصورة طبيعية؟

— لا أفهم!

— هل تنامين وتستيقظين وتأكلين وتشربين دون متاعب؟

— ما أعيشه يُصيّني بالتوتر، وينعكس على كل حياتي!

تكلمت عمّا ينتابها من الصرع والهياج الشديد.

لقنت الفتاة ما تُردهه في لحظات وحدتها، أو وهي تنهياً للنوم:

«اللهم لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك. سبحانه وبحمده، تحصّنتُ بالله الذي لا إله إلا هو، إلهي وإله كل شيء، واعتصمتُ بربي ورب كل شيء، وتوكلت على الحي الذي لا يموت، واستدفعت الشرَّ كلَّه، بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. حسبي الله ونعم الوكيل. حسبي الرب من العباد. حسبي الخالق من المخلوقين. حسبي الرازق من المرزوقين. حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، ليس وراء الله منتهى. لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.»

عادت إليها المرأة — بعد أشهر — وخيبة الأمل مرتسمة على ملامحها.

قالت سيسبان: المشكلة صعبة، وإن كان حلُّها سهلاً.

ثم وهي تُظهر القلق: ما حدث أن جنياً تلبّس زوجك، هو الذي يُملي عليه تصرفاته، ويقف في طريقك.

أضافت في لهجة حاسمة: لا بد من زار!

قالت المرأة: هل نُقيمه في البيت؟

تزيين الشر للإنسان، وصرْفُه عن الخير، هو ما يملكه الجن. أسلحته الحيلة والمكر والخداع. أما أسلحة البشر فهي ذكر الله في قرآنه، وأدعية رسوله وأوليائه والتابعين.

الآلام التي بلا علة ظاهرة، من أفعال الجان. يتلبس الجسد، أو يستقر في المكان، لا يتركه إلا بحفل زار.

قالت في لهجتها الحاسمة: لن يترك الجن بيتك إلا بالزار. صممت المرأة حتى عن التفكير فيما ناوشها من المؤاخذة والرفض. تُدرك أن ما تقوله، أو تكتمه، ينقله الجن إلى سيسبان، هي مريدته التي لا يُخفي عنها سرًا. يُبلغها بكل ما يصدر عن النساء المترددات عليها من أقوال وتصرفات. استطردت سيسبان في هيئة من اطمأنت إلى موافقة المرأة، تُعد ما ينبغي إعداده ليحقق الزار تأثيره، فيخرج الجني من البيت.

لجأت — في بداية العلاج — إلى الطرق العادية، حتى يخرج الجان. قراءة أذكار الصباح والمساء، تلاوة آية الكرسي، أداء الصلوات الخمس، الرقى، التعاويذ. إذا ظلت الأمور على ما هي عليه، فإنها تلجأ إلى وسائل أخرى ترى أنها أشد تأثيرًا.

قالت وهي تُصوّع البخور في فراغ الحجرة: «بسم الله الحي القدوس، رب الملائكة والروح، أسألك بحق من سخر الجن لسليمان، وبحق قول الرحمن ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وبحق قوله ﴿وَقَالُوا لَجُودِيهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أسألك بالله العظيم، وبسلطانه القديم، وبعزه الذي لا يروم، وملكه الذي لا يُضام، أن تنطق، وإلا حرقتك بقول الواحد الديان ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لِنَسْفَعَنَّ بِالنَّاصِيَةِ \* نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ \* فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ \* سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾.»

تصاعد بخور الشبّة في أشكال وتكوينات. أدركت أنها صورة السحر أو الحسد، أو الجني نفسه. انهالت على المبخرة بعضًا أقرب إلى الشومة. لم تسكت إلا بعد أن اطمأنت لتحطّمها، وتناثر الشبّة، فيتلاشى الأذى.

هزّت الخادم مرزوقة المنقد الفخاري، تصاعد منها اختلاط البخور وعين العفريت والشبّة والملح والفكوك.

وضعت مرزوقة المجرمة على الأرض. مرّت عليها المرأة بقدميها سبع مرات، وسيسبان تُردد التعازيم والأدعية والرقى.

عاودت سيسبان تقريب الدف من سخونة مدفأة الفحم الخزفية، حتى يتصلب جلد الدف.



علا إيقاعُ الدفوف. ترفض سيسبان النغمةَ الواحدةَ في الزار السوداني، تُدير الدفوف بالنغمات المصرية، أو المغربية. تشتد الرقصات وإيقاع الدفوف والصاجات، ويعلو البخور والتعاويد والأدعية والصراخ والأناشيد:

مدد يا أهل الله ... نظرة يا أسيادي!

قد تستخدم الآلات الموسيقية التي يستخدمها المنشدون الشعبيون: الدربة والصاجات والسلامية.

نسبت ما حدث إلى جنٍّ غير مرئي دخل البيت. حاولت أن تُخرجه بالصلاة والرقى والتعاويد، لكنه أجاد التخفي.

تآخى الجني والزوج. دخل في جسده، جرى في عروقه. ارتفع الخلط الحراري داخل الجسد، لوجود ثقل الجان الريحي.

ما أحزن سيسبان أن الجن لم يكتفِ بتلبُّس الزوج، بتقمصه، لكنه ترك من ينتمون إليه يسرحون ويمرحون في البيت. يفتحون، ويُغلقون، ويحطمون، ويكسرون، ويفرضون الخوف على ساكني البيت.

بدأت المشكلة أقسى من أن تنتهي بحفل زار، البيت المسكون يتركه أهله، يفرون بحياتهم من الأذى.

قالت: طردُ الجن من جسد زوجك ومن البيت يحتاج إلى ما هو أشد من الزار.

واحتضنتها بعينيها: ربنا معك!

قالت المرأة: لا أتصور أنني أترك البيت ليسكنه الجن.

قالت سيسبان: أعرف ظروفك. ساعديني على أن نصرف الجن.

استطردت كالمستدركة: قد لا يكونون من الجن. لعلمهم عفاريت!

قالت وهي تدور بالمبخرة: يا ضيوف البيت، اتركوه لأهله، لا يملكون سواه!

ملأت حجرات البيت بتضوعات البخور والأدعية والرقى والتعاويد.

عرف الرجل بدعوة المرأة لسيسبان، تضوع البخور، وتقرأ الأدعية، وتتلو الرقى

والتعازيم.

طرد زوجته من البيت، وأغلقه.

عرفت الزوجة أنه لم يعد يتردد على البيت. إذا جاءه، فبمفرده، يحمل في يد حقيبة، ويطوي أصابع اليد الثانية على مفتاح. يصرف سائق السيارة. يصعد الدرجات الثلاث، ويفتح الباب. يَشِي الصوت من الداخل بأنه يحكم الرتاج. يظل في البيت ساعة، أو أقل،

ثم يُطلُّ — من الباب الخارجي — على السائق، في موعد تُدرك المرأةُ أنهما اتفقا عليه. يمتدُّ غيابه أسابيع، أو أشهرًا، قبل أن يتجه من السيارة إلى باب البيت المغلق، المفتاح بين أصابع يده، والحقيبة في اليد الثانية.

يظل الباب الخارجي مغلقًا، والشرفات والنوافذ مغلقة. لا أصوات، ولا روائح. لولا أنها رأته يدخل البيت، لتصور أنه يخلو من الناس.

نقلت لها سيسبان عن الجان حكايات السرايب والأقبية والحجرات المغلقة. روت أنه يدسُّ العملات الورقية في تجاويف الجدران، وتحت الأرضيات، وفي زوايا الأسقف، وداخل الوسائد والمراتب، وتتخلل قطن الألحفة.

قالت سيسبان: كل ما جاء به زوجك إلى هذا البيت حرام لا بد أن يزول!

ثم وهي تهزُّ يدها: هذا هو رأي الجن الطيبين.

لاحظ الناس — في الأيام التالية — على واجهة البيت شقوقًا وشروخًا وتصدعات وعيوبًا لم تكن موجودة. حتى مصاريع النوافذ والشرفات تساقطت وتطايرت. خرب البيت، وانطمست معالمه، وتكسّرت محتوياته، وتبعثرت، قبل أن يسقط البيت تمامًا.

انطبق البيت على الرجل وهو فيه. وما كان يُخفيه من أموال. تلاصقت الطوابق الثلاثة. وحين رفع العمال الحجارة وأسياخ الحديد والأتربة وبقايا الأثاث، أخفقوا في العثور على رفاته.

امتدت عملية رفع الأنقاض خمسة أيام.

فحصت المرأة ما نقلته عربات النقل من ردم البيت، وبقايا الأثاث. قلبت بين الأنقاض، وداخل قطع الأثاث المتكسرة، لعلها تجد ما كان يحمله الرجل من حقائب النقود والذهب والمجوهرات. لكن صيحة الاكتشاف لم تنطلق منها.

أرجعت سيسبان ما حدث إلى عشرات العفاريت التي فرّت من البيت المهجور. تابعت لقاءته بصبيان الفتوات ومحترفي الإجرام، وما أعطاه لهم — داخل البيت — من أموال، والأماكن التي أخفى ما احتفظ به لنفسه. خضعت لأمر — لا يدري من أملاه — فسربت ما كان بالبيت قبل هدمه.

تناقل الناس ما حدث في البيت المتهدم. مع قلة مساحات الأرض الخلاء، فإن أطلال البيت ظلت على حالها. خشى الناس عودة العفاريت إلى حيث كانت تختبئ في البيت المهجور.

بدأ الفواعلية في إزالة الأنقاض، ففر من كان تحتها من العفاريت. كانوا قد سكنوا في البيت فترةً إغلاقه. اندفعوا في غير اتجاه. اختبئوا في الخلاء والشقوق والغرف المهجورة. صعدوا إلى أبواب البيوت المفتوحة، أو تسلقوا الأعمدة والمواسير إلى النوافذ والشرفات والأسطح، أو جرّوا — دون أن يفتنوا لهيئة العفاريت في أجسامهم — إلى الشوارع الجانبية، للبحث عن الملاذ في خرابة، أو خلاء، يستفزهم شعورٌ بالانتقام.

تعلّات التحذيرات من أن تؤذي العفاريت من تقابله. رقي الشيخ مدين — خادم علي تماراز — درجات السلالم الحلزونية، إلى أعلى المتدنة. قرأ ما كتبه الشيخ عبد الستار من حث للناس على أن يلزموا بيوتهم، حتى يزول الخطر، وتمحي الغمة. انطلق شبان أطلقوا اللّحي، وارتدوا الجلابيب، من جامع علي تماراز إلى الميدان والشوارع المتفرعة عنه، يوزعون أوراقًا توضح خطورة مواجهة العفاريت. وضع مريدو علي تماراز مبخرةً من النحاس، وسط ميدان الخمسة فوانيس، في الموضع الذي كانت عليه الفوانيس، بين الجامع وبيت حسين بيكار. تضوعت — من المبخرة الهائلة — روائح المستكة والكسبرة والشبّة والجاوي والحنثيت وعين العفرية ودم الأخوين. تداخلت معها أدعية المريدين وابتهالاتهم، تتوسل إلى الله — بشفاعه وليّه — أن يرفع البلاء، ويحمي المؤمنين من أذى العفاريت.

انظر: أبو العباس، حسين بيكار، الخضر، سيد درويش، علي تماراز.



## شحاتة عبد الكريم

ما يعرفه أهل بحري أن الأعوام السبعة عشر التي سبقت قدوم شحاتة عبد الكريم إلى بحري من روايته: أصله، فصله، مدينة مولده، وطفولته، ونشأته، وما إذا كان أبواه على قيد الحياة، وإن كان له إخوة وأقارب؟

لم يتحدث عن سيرته، ولا أرّخ لحياته. احتفظ في نفسه بما كانت عليه أسرته، وهل هما من الإسكندرية، أو من الوافدين إلى المدينة؟ هل كانا ميسوري الحال أو من الفقراء؟ تناسى الناس أسئلة البداية. أهملوا تصوّر شحاتة — منذ مولده — بعيداً عن بحري. حتى لهجته ومفرداته وتعبيرات وجهه ويديه تنسبه إلى تميّز أهل الحي.

حين قدّم شحاتة عبد الكريم إلى بحري — للمرة الأولى — قدّم نفسه إلى الشيخ رافع عبيد صاحب الكتاب المطل على جامع ميبر بشارع فرنسا. تدلّل ليعمل بنومه وطعامه. حدّق الشيخ رافع في وجه شحاتة: مَنْ يُرْكِيك؟

— الله!

تأمل الشيخ ما قاله شحاتة. استهوّته الكلمة: هل تعرف القراءة والكتابة؟ قفز شحاتة على السؤال الذي توقّعه: وأحفظ معظم آيات القرآن. أمن له الشيخ. عهد إليه بمهمة العريف. ترك له المفاتيح، يسبقه في فتح الكُتّاب، وكنّسه، وإعداده قبل أن يأتي التلاميذ.

حرّضه الشيخ رافع — فيما بعد — على أخذ الثواب. صَحِبَه إلى غسل الموتى، والسير مع أفندية الجنازات، وتفكيك الأكفان.

لما عرض بخيت الحانوتي بشارع أبي وردة على شحاتة أن يمارس ما تعلّمه، بأجر، هجر مهنة العريف. زاول الغسل — بنفسه — من بداياته. يُزيل شَعْر الميت عن جسده، حتى شَعْر ما تحت الإبطين والعانة (يضع حساباً لأعين أهل الميت، تُتابع ما يفعل، يردُّ

ذراعِي الميت إلى عضديهِ، يردُّ أصابع راحتيهِ، يمدُّها، يردُّ ساقِيهِ إلى فخذِيهِ، يمدُّهما، ينزع عنه ثيابه التي مات فيها) يتركها أهل الميت لبخيت، فيتركها لشحاتة. يُفرد ملاءة على الجسد، تُغطِّي الرأس أيضًا. يُردد الفاتحة والشهادتين، وما يَفِد إلى ذهنه من قصار السور، وما لَقَّنه له بخيت بأن يرزق الله الميت — وأمة لا إله إلا الله — العيش على الإيمان، والموت على الإسلام، وحسن الختام.

يطمئن شحاتة إلى وضع الميت على الخشبة، متوجِّهًا إلى القبلة. تنحدر الخشبة ناحية القدمين. تثبت في مواضع، ليسهل نزول ماء الغسل. يغطِّي يده بقطعة قماش، يضغط بها على مواضع خروج الفضلات، يضغط على البطن، يعصره تمامًا، حتى يخلو من كل ما به من بقايا طعام وشراب. يُوضئه وضوء الصلاة، وإن حرص فلا يدخل الماء في الأنف والشم. يمسح الأنف والأسنان بقطعة القماش المبللة. يطمئن إلى تغطية الفوطة الصغيرة لأسفل البطن، فلا تنكشف العورة (يعطي الفوطة لأهل الميت بعد الغسل ليحتفظوا بها). يميل على النصف الأيمن من الجسد. يدلق الماء عليه حتى يغطي كل البدن. يتجه إلى النصف الأيسر، يُعيد ما فعل ما بين ثلاث مرات إلى خمس. يُضيف — في المرة الأخيرة — بنفسجًا، أو كافورًا، أو صابونًا معطرًا (هو — في الأغلب — صابون السان لايت) ينتهي بتجفيف الجسد، يُطيبه بالمسك وماء الورد، وما يقدمه له أهل الميت من روائح طيبة.

ظل مساعدًا لبخيت حتى مات الرجل، فاشترى شحاتة الدكان من أبنائه. فضَّل قهوة مخيمخ لقعداته، يجلس فيها معظم وقت فراغه، ينمِّي صداقات. هي قهوة القراء، يتعاقدون فيها على المآتم والمناسبات الدينية. قد يتصيد مآتمًا قديم أصحابه للتعاقد مع قارئ أو أكثر، يوسع من دائرة عمله في بحري، لا يقتصر على الأنفوشي والسيالة ورأس التين، والميادين والشوارع القريبة.

يُثير غضبه أيُّ خروج على قواعد الغسل: صراخ النسوة، أو بكاؤهن، في أثناء تكفين الميت. الميت يتعدَّب، وهو أيضًا يتعدَّب. مَنْ تفعل ذلك، عليها أن تتحمل نتائج ثورته. ربما دعا الله، يؤذيها في عافيتها. وربما تتمم بتعاويد فسخطها.

حين سأله سيد حلال عليه عن المشاعر التي يتحرك بها منذ يدخل بيت الميت حتى يغادره، قال شحاتة عبد الكريم إنه وجد العبرة لما تنبَّه إلى أن المرء يشتري بيت الآخرة بماله. يعرف أنه يموت، فيُعد قبره. يختار الموقع، يُشرف على عملية البناء، يطمئن إلى التفصيلات الصغيرة، تُلْفه رهبة الموت وهو يهبط إلى النومة الخالية، كأن الموت سبقه إليها، أو أنه سيلقاه في داخلها. يتأمل ما كتبه الخطاط على شاهد القبر من كلمات تطلب الرحمة وقراءة الفاتحة، تُشير إلى تاريخ الميلاد، وتترك تاريخ الوفاة حتى يأتي موعده.

يثق أن مهنته هي المهنة الوحيدة التي لا بد أن يحتاج إليها أهل بحري ذات يوم، مثلما يحتاج إليها الناس في كل الدنيا. يتناسونها، يتوقون لتأخر السبب، لكن السبب هناك في نهاية الأفق.

السُّحْر — في اللغة — كلمة مشتقة من «سَحَرَ»، وهو آخر ساعات الليل، وأول طلوع النهار. يختلط الظلام بالضوء، وتلتفُّ المرثيات بالضباب. يبدو الواقع عكس ذلك. العكس أيضًا صحيح. سحر العين يرى الحقيقة في غير ما هي عليه، لكن الحقيقة تظل على أصلها، والسُّحْر لا يغيّر طبيعة الأشياء.

السُّحْر — في مضمونه اللغوي — يعني الخيال. هو رؤية الشيء على غير طبيعته، وسُمي السُّحْر سحرًا لخفاء سببه، فلا يُفعل إلا خفية. وقيل: معنى السُّحْر الإزالة، وصُرف الشيء عن وجهه. ويقال: ما سَحَرَكَ عن كذا؟ أي ما صَرَكَ عنه؟ وقال أبو جعفر الطبري إن معنى السُّحْر قد اختلف فيه. قال بعضهم هو خُدَع ومخاريق، يفعلها الساحر حتى يُخيل للمسحور الشيء ذاته بخلاف ما هو به. أشبه بمن يرى السراب من بعيد، فيتوهم أنه ماء. وذهب آخرون إلى أن الساحر يستطيع — بما يملكه من قدرات — أن يُحيل الإنسانَ حمارًا، ويسحر الإنسان والحمار، ويخلق أعيانًا وأجسامًا.

السُّحْر علمٌ له أصوله وقواعده.

عثر شحاتة عبد الكريم في تجويف داخل دكان بخيت على كتب صفراء مهترئة، دلّته على طريق السُّحْر، ويسّرت له سلوكه. خلا إليها، حاول استنطاقها بالقراءات الجادة، المثابرة، التي لا تكلُّ، وبالطهارة، والحرص على الموضوع، إهمال ما يشغل المرء عن الفهم واستخراج المعاني، وبالتركيز في تنفيذ نصائح الخطوات، خطوة خطوة. تعلّم الطقوس. لجأ إلى الرقى والتعاويذ لشفاء مختلف الأمراض، وضرب المندل، وصرف العمار والجان والأشباح والأرواح الشريرة.

وضَع قراءاتٍ ووصفاتٍ شعبيةً وأعشابًا وتعازيمَ ورُقَى وتعاويذَ وأفعالَ سِحْر، توصّل إلى الكثير من الأسرار والعلوم الخفية وعلم التنجيم وعلم الأفلاك، والبركات التي أودعها الله — سبحانه — في الأسماء والآيات والحروف.

عُرف عنه قدرته على الاتصال بالجن. يلتمس الشفاعة، يستأذن في رفع البلاء الذي ربما أصابوا به فلانًا من البشر، ينقل عن الأرواح أخبار المتوقَّع والآتي، فيُعد المرء نفسه لمواجهة ومنع ضرره.

قال إنه يحتفظ في دكانه بنسخة (نقلها إلى بيت ابتهاج المنسي، بعد زواجهما). لم تحذف منها كلمة. من كتاب سلطان الجن شمهورش بن مقارش. عرف من الأسماء والآيات والأسرار والطلاسم ما يدعوه لأن يتذلل إلى العلي القدير، فيسخر مدداً روحانياً مع خدام اسمه اللطيف المبارك، لأجل المكاشفة، وإخبار الظاهر والباطن، وفهم علمه المكنون، وأن يكون كلُّ مَنْ يحيون بفضل نعمائه، عوناً له على ما يريد، فيقضون حاجته، ويمتثلون مرضاته، ويسمعونه بالطاعة لخدمة الله ورسوله.

كان يخلو إلى نفسه في الليل أو النهار. يُغلق جميع المنافذ، فلا يراه أحد. يُضوّع في الحجرة بخور اللبان الذكر والكزبرة، حتى يصعب عليه رؤية خيال نفسه. يتلو سورة الفاتحة ثلاثمائة وثلاث عشرة مرة. كلما عدّ مائة، قال: احضر يا خادم هذه السورة، واكشف الحجاب بيني وبينك، حتى أراك بعيني، وأخاطبك بلساني.

يظهر له الخادم في لباس مغربي. يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يذكر له شحاتة حاجته، يُخبره بها بلا خفاء ولا تورية. يُهدي ثواب ما يتحقق إلى حضرة النبي، وللخلفاء الأربعة، ولأولياء الله، والتابعين.

رُوي أنه عثر داخل تجويف بحجرة مخفية، بين الطابقين الأول والثاني، على صندوق — لعل صاحبه سكن البيت من قبل — فيه قوائم بأسماء عشرات الأولياء، وأهل الخطوة والكرامات. يترددون على بحري، أو يعيشون فيه، دون أن يجاهروا بذلك. دلّته مناقبهم على ما غاب حتى عن كتب السحر.

أصبحت قدراته السحرية بلا حدّ.

حتى أفعال السحر التي تُصيب مَنْ يستغيثون به، كان يُحسن طردّها، أو جعلها غير ضارة بتعاويز العوالم السفلية. يُردد التعاويز لطرد الأرواح الشريرة والعمالقة والجان. يقرأ سورة الجن على أوراق. يخطُّ على كلِّ منها حرفاً من حروف الهجاء، إلى نهاية الأبجدية. ينقش على كل ورقة اسم صاحب الوصفة، واسم أمه، واسم الغائب، واسم أمه. يحرق الأوراق وهو يرُدُّ التعاويز بالسريانية. يطلب رش الرماد — في أحوال الحب — على عتبة المحبوبة. إذا خطت فوق الرماد، فإن النفس تميل إلى ما كانت ترفضه.

نقى ما همست به سيسبان من أن روح جني تلبّسته، دفعته إلى أعمال السحر. المصادفة — وحدها — قادت إلى كتاب السحر القديم. قرأه، وحفظ ما فيه.

قرأ في كتاب مجموعة ابن سينا الكبرى في العلوم الروحانية: الطب والسيميا والأبواب والعزائم والطوالع والبروج والطبائع والطلاسم وأبواب المحبة، وغيرها. وقرأ حكايات



السحر والشياطين والمردة والجان وخاتم سليمان وسحرة فرعون وسحر بابل وهاروت وماروت والأحجار والنار والكواكب والسموات والملائكة والجان وكتاب أخنوخ، وغيرها مما يستعين بالقوى الروحية الغامضة.

تعلم في مؤلفات أبي معشر في السحر، أن يلاحظ الكواكب والأجرام السماوية في مساراتها، ومنازل الشمس والقمر. ينظر في حال الفلك، واقترانات الكواكب، ثم يُشير بما يراه صواباً. يراعي مناسبات النجوم والكواكب والأبراج، ورصد الأفلاك، يعمل كل عمل في الوقت الذي يناسبه.

عمل دوائر للطاعة، والقبول، والعطف، والمحبة، وجلب البيع، والشراء، وقضاء الحوائج، والرزق، والبركة، والهيبة، والعز، والجاه، والدخول على ذوي النفوذ. كتب أعمالاً لكشف السرقة، وتسهيل الولادة المتعسرة، وحل المعقود، وفك السحر، وزواج البنت البائرة، وتسكين الوجع، والشفاء من الأمراض، وطرد سم الزواحف، وحفظ المتاع، وإيجاد المحبة والعطف، وإثارة الرغبة، وقضاء المصالح، ورواج البيع والشراء في حلقة السمك، والتفريق بين المجتمعين على ما لا يُرضي الله، وخراب دار الظالم المارق من الدين، وتسهيل صيد السمك، وحفظ البلانس من الغرق، وتقوية المسافر على قضاء رحلته، واكتساب الهيبة في نظر رجال السلطة، وخلاص المسجون، وإحضار الغائب، وردّ الأبق، وكشف ما غمض، وترحيل الجار السوء، وعقد الألسنة فلا تنطق إلا بالخير.

صار له خدمه الذين يُلبون أوامره، من الجن الصالحين. عالج — بواسطتهم — أمراضاً لا شفاء منها؛ كالفالج والجدام والعشق والجنون، وجمع بين المتنافرين، المتباعدين، وفرق بين المجتمعين على ما لا يُرضي الله، وكشف عن اختفاء الأشخاص والأشياء المسروقة. استطاع — بحول الله — تسمير العفاريت في أماكنهم.

إذا كان العمل لإزالة مرض أو مصيبة، يؤخذ اسم المريض إن كان المرض شاملاً لكل أعضاء الجسد، أو اسم العضو المريض إن اقتصر الداء عليه. فإذا غاب اسم الأب والأم، طلب تشخيص المراد رفع الأذى عنه، أو إلحاق الضرر به، يُجسده صاحب الشأن من طول وقصره، ولون بشرته، وملامحه، وما إذا كان أصلح أم غزير الشعر.

إذا غاب ذلك كله، حلت حواء موضع الأم؛ فالإنسان ابن آدم وحواء. لا يتحقق العمل إلا بالطريقة الصحيحة، بالكلمات التي تُحدث تأثيرها المطلوب، لا زيادة ولا نقصان: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى صحبه وسلم، اللهم إني أسألك بألف ألوهيتك يا الله، وبهاء الهداية يا هادي، وبميم الملك يا ملك، وبسين السلامة يا

سلام، وبقاف القهر يا قهار، وبكاف الكفاية يا كافي، وبحاء الحلم يا حلِيم، وبلاد اللطف يا لطيف، وبعين العلم يا عليم، وبياء اليمن يا ذا المن، وبصاد الصمدانية يا صمد يا الله يا واحد يا هادي، اهدني إلى سواء السبيل، يا مؤمن يا مهيمن يا سلام، سلّمني من آفات الدنيا والآخرة، يا قاهر اقهر عدوي، واجعلني قاهرًا غير مقهور، واكفني شرّ ما قضيت، يا كريم يا كفيل يا كافي، اكفني السوء بما شئت، وكيف شئت. إنك على ما تشاء قدير، يا حلِيم يا عليم يا لطيف، الطف بي في الأمور، وعلمني من لدنك علمًا تنفعني به في الدنيا والآخرة، واعفُ عني يا الله يا هادي يا ملك يا سلام يا قاهر يا كافي يا حلِيم يا لطيف يا عليم يا صمد، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.» ربما ضمّن الأحجبة كلماتٍ أشبه بالألغاز، لا يفهما سواه.

أفاد من سحر الأرقام.

للأرقام خصائصها وقدراتها في رسم مصير الإنسان. قراءتها، والتعامل بها يُتيح معرفة ما قد يغمض عن الذهن من أمور الغيب.

الأرقام فردية وزوجية، الله هو الواحد الأحد. وأسماء الله الحسنى تسعة وتسعون اسمًا، وهو خالق العالم في ستة أيام، ثم كان اليوم السابع، ورسّت سفينة نوح على اليابسة في اليوم السابع، بعد أيام الطوفان الستة، وسفينة نوح حملت من كل زوجين اثنين، والزوجان ذكر وأنثى، والرقم سبعة هو رقم الكون، وعدد السماوات سبع، والأرضين سبع، وألوان الطيف سبعة، وحروف أوائل السور، الأسماء النورانية، أربعة عشر حرفًا، وأركان الإسلام خمسة: الشهاداتتان، الصلاة، الصوم، الزكاة، حج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا، وثمة الشهاداتتان لا إله إلا الله، محمد رسول الله، والصلوات الخمس، والحواس الخمس: البصر في العينين، السمع في الأذنين، الشم في الأنف، التذوق في الفم، اللمس في اليدين. وعدد أصابع كلٍّ من اليد والقدم خمسة، ولم يكذب إبراهيم الخليل إلا ثلاث كذبات: قوله حين دُعي إلى آلهتهم: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله لسارة: إنها أختي. وأولو العزم خمسة: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد. والملائكة الكرام أربعة: إسرافيل وميكائيل وجبريل وعزرائيل. وجاءت النبوة لثلاث نساء: سارة، وأم موسى، ومريم. وقال الرسول: خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وأسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله. والخلفاء الراشدون أربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، والخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز، وكان أهل الكهف ثلاثة، رابعهم كلبهم، وفي حديث للرسول: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك

قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك.» وفي حديث آخر للرسول: «بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطعياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مُفندًا، أو موتاً مُجهزاً، أو الدجال؟ فشرُّ غائبٍ ينتظر، أو الساعة؟ والساعة أدهى وأمر.» والأربعة التي يلزمها الإنسان: المحافظة على الصلاة، والصدقة، وقراءة القرآن، وكثرة التسبيح، والأربعة التي يجتنبها: الكذب، الخيانة، النميمة، البول على البدن، والعهود السليمانية سبعة، وثمة السبع آيات المنجيات، وسبعة يُظلمهم الله في ظلّه، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحاببا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشابُّ نشأ في عبادة الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله. والنقباء — عند الصوفية — ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والبلاء أربعون، والأخبار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد، والجنان ثمان: دار الجلال، دار السلام، جنة المأوى، جنة الخلد، جنة النعيم، جنة الفردوس، جنة عدن، دار القرار. وأبواب الجنة ثمانية، من الذهب المرصع بالجواهر. على بابها الأول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. هو باب الأنبياء والمرسلين والشهداء والتابعين. الباب الثاني باب المصلين، ومن يُحسنون الوضوء، وأركان الصلاة. الباب الثالث للمزكّين بطيب أنفسهم. الباب الرابع للآمرين بالمعروف. الخامس لمن يقطع نفسه عن الشهوات، ويمنعها عن الهوى. السادس باب الحجاج والمعتمرين. السابع للمجاهدين. الثامن للمتقين الذين يغضون أبصارهم عن المحارم، ويعملون الخير. وقال يوسف: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، وروى الفرعون ما رآه في نومه: سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر، وأخرى يابسات، وتنبأ يوسف بسبع سنوات خير، وسبع سنوات عجاف، واستمر بلاء أيوب ثماني عشرة سنة، واليوم السابع إجازة عند المسلمين والمسيحيين واليهود، والقراءات سبع، وبدء نزول القرآن على محمد في الرابع والعشرين من رمضان، ومولد النبي في الثاني عشر من ربيع الأول، وسنُّ النبوة أربعون عامًا، واستمرت الرسالة المحمدية ٢٣ سنة، وبدأ الرسول هجرته من مكة إلى المدينة في الأول من المحرم، وقُتل الحسين في العاشر من محرم، وكان عدد المقاتلين — إلى جانب الحسين — ثلاثة وسبعين، ثبتوا أمام أربعة آلاف جندي، حتى قُتلوا عن آخرهم، وعاش: آدم — أبو البشر — ألف عام، وعاش النبي إدريس على الأرض ٨٦٥ سنة، ثم رفعه الله إليه، وأدرك من عمر آدم مائتين وثمانين سنوات، وظل نوح في قومه ٩٥٠ سنة،

ثم عاش — بعد الطوفان — ما بلغ بعمره ألفاً وسبعمائة وثمانين سنة، وعاش هود ٤٦٤ سنة، وولد إبراهيم الخليل — أبو الأنبياء — بعد الطوفان بـ ١٢٦٣ سنة، وعاش ماثنتي سنة. أما ابنه إسماعيل فقد عاش ١٢٧ سنة، والاثنا عشر مذهبٌ مهمٌ في عقائد الشيعة، والتثليث أساس العقيدة المسيحية، وحواريو المسيح ثلاثة عشر حوارياً، والأسباط اثنتا عشرة قبيلة تُنسب إلى أبناء يعقوب. ذلك ما يحدث — أو يشابهه — في أرقام أخرى، لها معانيها ودلالاتها، كالحسد الذي يواجهه الرقم خمسة، والحظ السعيد في الرقم سبعة، والبطيرة في الرقم الثلاثة عشر، وأركان العالم أربعة، والليل يعقبه النهار، ويكتمل القمر بداراً في الليلة الرابعة عشرة، وعدد الليالي التي يظهر فيها الهلال حتى يختفي، ثمان وعشرون ليلة، والقمر يغيب فتشرق الشمس، وفصول العام أربعة، والسنة البسيطة ٣٦٥ يوماً، والسنة الكبيسة ٣٦٦ يوماً، والسنة اثنا عشر شهراً، والشهور الميلادية بين ٣٠ و ٣١ يوماً. شهر فبراير وحده ٢٨ يوماً ثلاثة أعوام، و ٢٩ يوماً في العام الرابع، واليوم أربع وعشرون ساعة، والساعة ستون دقيقة، والدقيقة ستون ثانية، وحروف الهجاء العربية ثمانية وعشرون حرفاً، والبروج اثنا عشر، والصداقة في الرقم اثنين، وفي العشرة الطيبة. وفي بحري ١٩ شياخة.

أتقن علم الفلك وحسابات الأبراج ومسارات الكواكب.

يُطيل تأمل السماء، يتلقَى فيض المعرفة، تهبه أجوبة الأسئلة، والأسرار. يثق أن مصير الإنسان كتبته النجوم على جسده. للكواكب تأثيرها في الإنسان والأشياء، وفي السعد والنحس، وهي أساس كل علوم التنجيم. يبني عليها توقعاته.

لكل كوكب من الكواكب السبعة بخوره الذي يجلبه، أو يدفعه. لجلب زحل بخور الميعة السائلة واللبان الذكر، ولدفعه بخور الحنثيت والكبريت وشعر قط أسود، و لجلب المشتري بخور الصندل الأصفر وعود القماري والعنبر، ولدفعه الصندل الأصفر، و لجلب المريخ الصندل الأصفر واللبان الذكر، ولدفعه دم ماعز يُذبح يوم الثلاثاء والأقيون، و لجلب الشمس بخور الند والكافور والمسك والعنبر، ولدفعه بخور الكافور، و لجلب الزهرة بخور اللبان الذكر والجاوي والعود والمستكة، ولدفعه اللبان الذكر، و لجلب عطارد البخور الأزرق واللبان الذكر، ولدفعه اللبان الذكر والميعة السائلة، وللقمر الظفر واللدان واللبان الذكر، ولدفعه اللبان الذكر.

يُشد على جلسائه، فتحلو المعدة من الطعام إلا ما يطلبه استمرار الحياة (تؤذيه رائحة فضلات الطعام وهو يعتصر بطن الميت)، واجتناب أكل الحيوان، وما يخرج

منه، واجتناب الطعام ذي الرائحة الكريهة كالثوم والبصل، وملازمة الطهارة بدناً وثوباً ومكاناً، وأن يستقبل الشخص القبلة الشريفة، والصلاة على النبي قبل العمل وبعده، والاستخارة قبل كل عمل، ليكون على بصيرة من أمره.

يؤكد أنه لا يُقدم على أمر طُلب منه، أو أُشير به عليه، أو سعى هو إليه، إلا إذا كان موافقاً للشرع الشريف، خالياً من شبهة عرض دنيء.

يحذر الحضور فلا يلمسون شيئاً مما حولهم. يستخدم العون المبارك ريحان، خادم المليك الأخضر، خادم سورة الفاتحة. يفعل جميع ما يريده خيراً كان أو شراً، متى كان موافقاً لسنن الشريعة.

رفض الأعمال المؤذية: زرع المرض في جسد الصحيح، التفرقة بين الزوجين، إيقاف حال الولد أو البنت فلا يتزوج، منع المرأة من الحمل، النزيف الدائم للمرأة فلا تصلح للمضاجعة ولا للإنجاب، تبدل صورة الزوجة في عيني زوجها، موت الطفل في رحم أمه، الشرود، سلب العقل، الإصابة بالمجهول من الأمراض فلا يقدر على علاجها الأطباء، نشر الضرر والشر.

الله — سبحانه — هو الذي أعلن سرَّ المحبة والمودة في قلوب أهل الأسرار، وأكمل ذوات الطالبين بالنور السرمدي، وتجلّى بالعز الدائم والنور القائم على الأكوان، وخلق الإنسان والأشباح، وألّف بينها وبين الأرواح التي هي من أمر الله.

عمل فائدة لطرد الجان، وفائدة لتقوية الروح، وفائدة لمنح قوى التنبؤ، وفائدة لإزالة النظرة وفك السحر، وفائدة لبكاء الأطفال، وفائدة للأرق والدوار والصداع وسرعة ضربات القلب، وفائدة للمغص والجدري والجذام والبرص، وفائدة لوجع الظهر، وفائدة لوجع الضرس، وفائدة للحمل، وفائدة للصداع، وفائدة لحل المربوط، وفائدة لإزالة الصرع، وفائدة لطرد الغازات من البطن، وفائدة لإيقاف النزيف، وفائدة لقضاء الحاجات ونيل الرغبات، وفائدة للخوف والفرح والهم والغمّ والجنون والمرض الظاهر والباطن، والإحساس بالضعف، وكل ما يحدث في جسد الإنسان، وفائدة لدفع أذى الكلب العقور، وفائدة للصحو من النوم في الوقت الذي يريده المرء، وفائدة لكشف ما أشكل في المنام، وفائدة للسلوى، وفائدة لنجاح الأمور، وفائدة لتسخير الأرزاق، وفائدة لجلب الثراء. وكان يُلقن زائريه فضل التصرف بآية الكرسي.

فاجأ المترددين على بيته بلافتة، علّقها في واجهة المدخل، تُثبت عضويته في الاتحاد العالمي للفلكيين الروحانيين بباريس.

زواج بين العلاج الطبي والسّحر.

يعتمد على القوى الخفية التي تربط مصائرَ البشر بالكائنات. أدوائه النار والبخور والأعشاب والشجيرات والأشجار والنباتات وأحشاء الحيوانات والطلاسم والرُّقى والتعاويذ وغيرها مما تحفل به الكتب القديمة.

يطلب أثرًا من الشخص الذي يتجه إليه بسحره: أظافره، شعرات من رأسه، منديل. تخدمه الجان والشياطين والأرواح، بطاعة الله الذي يقتصر لجوئه عليه وحده. يتجه إليه بأنواع التعظيم والعبادة والأدعية والخضوع والتذلل لله تعالى، والتيقن من أن كل الكائنات — إنسيها وجانها — تخضع للإرادة الإلهية.

لم يكن يطلب في علاجه تحاليل، ولا أشعة. مجرد النظرة السريعة، المتفحصة، تكفي للتعرف على ما يُعانيه المريض.

حتى خاصة أصدقائه، باتوا على يقين من استطاعته المناداة — سرًّا — على الجان، أو الخادم. يحل المسائل والمشكلات.

حين صارحه خليل الفحام بما في نفسه، قال شحاتة: سيدنا سليمان اتصل بالجان في الزمن القديم.

رفض الشيخ عبد الستار ما يقوم به شحاتة عبد الكريم من أفعال السحر. ما يروى عن استدعائه الأرواح، وتسخيرها في أعماله، وتسخيره للعوالم العلوية والسفلية، وعوالم البشر والملائكة والجان. رفض مزاولات السّحر من تعاويذ وطلاسم ورموز وأرقام وحروف.

اتهمه بالسعي لضلال الناس، وصرفهم عن أمور دينهم، وأنه يستخدم عظام الموتى وتراب الجماجم في صنع أفعال السحر، تُتيح له مطلبه صداقة بينه وبين التُّربي مبارك الجيلي.

قال إن السحر لا حقيقة له، إنما هو تخيل وتمويه، أشبه بأفعال الحوأة. وقال إن عمل السحر يقرب من الشيطان بقدر ما هو ابتعاد عن الله. وقال إن شحاتة عبد الكريم تعلم السحر وتناقله من الشياطين، وهو يستعين بالجن لقضاء حوائجه، ويحدث التأثير السيئ للنوات: ابتلاع الأمواج للبشر وللسفن، والوصول إلى ما بعد الشاطئ، وإيقاف حال الصيادين.

أخذ على شحاتة استخدام أسماء الله في استحضار الجن، وتسخيرهم في قضاء الحوائج.

## شحاتة عبد الكريم

قدرات البشر تفوق قدرات الجن. لماذا نُرضخ القويَّ لسيطرة الضعيف؟  
قال الشيخ عبد الستار إن شحاتة منح لنفسه من الصفات ما يسهل تكذيبه،  
ويصعب قبوله، وإنه لو كان لسحر شحاتة فائدة في حياة الناس لأفاد نفسه.

أردف — في لهجة متوعدة — إن الساحر لا يموت على حالة طيبة.  
دافع شحاتة عن نفسه بأن القرآن يعترف بوجود القوى الخفية: إبليس، والشياطين،  
والجان، والقرين، وأنواع السحر، والتنجيم، والنفّاثات في العُقد.

قال شحاتة: أنا لا أمارس السحر الأسود.

قال الشيخ عبد الستار: السحر كله أسود!

وقال الشيخ في خطبة الجمعة بجامع علي ترمز — دون أن يشير إلى شحاتة على  
نحو ما — إن السحر من إعانة الشياطين، ومن الكفر أن يستعين المرء بالشيطان. السحر  
كُلُّه محرّم، لا يجوز فعله. مَنْ يفعله، أو يعتقد فيه، يخرج عن ملة الإسلام.  
لم يُعد شحاتة — منذ اتهمه الشيخ في إيمانه — يُجاهر بقدرته على مخاطبة القوى  
الغيبية. احتفظ بعلمه لنفسه، يستخدمه دون إعلان.

قال له خليفة كاسب ١٩٥١م: هل قرأت الصحف؟ ... ألغت الحكومة الإنجليزية  
قانون السحرة.

علا صوتُ شحاتة عبد الكريم بالغضب: وما شأنِي بمثل ذلك القانون. لا صلة لي  
بالسحر ولا السحرة.

ولمخ خليفة كاسب في عينيّ شحاتة ما ألزمه الصمت.

انظر: خليفة كاسب، خليل الفحام، رافع عبيد، سيد حلال عليه، سيسبان، عبد  
الستار.





## شوقي أبو سليمان

قال له العميد حسان القرعي مأمور قسم الجمرك: أبلغ الصيادين بمنع الصيد في الأنفوشي؟

لم يُشِر البكباشي حمدي درويش إلى المطلب الغريب سنوات عمله في القسم. تَكَرَّرت — في الأعوام الأخيرة — ظاهرة المنع. لم يُعَد من المسموح به تجاوز الناس للكدونات التي أُغْلقت الطريق إلى سراي رأس التين، ولا إلى الحديقة الواسعة أمامها. غابت وقفة الناس أمام باب القصر، يحاولون تَبَيُّن ما بداخله، جلسات الأُسُر تحت ظلال الأشجار، تلاوة القرآن في ليالي رمضان، مذاكرة الطلبة، إجراء جنود الحرس الملكي تدريباتهم. لم يُعَد إلا جنود البحرية والحرس الجمهوري، يقفون وراء الكدونات، أمام الحديقة الخالية.

مُنِع الصيد بالسنارة في مواضع كثيرة بالمينا الشرقية، وأُغْلقت منطقة السلسلة. لا أحد يستطيع الدخول إلى اللسان الممتد داخل البحر، على يمين المينا الشرقية. غاب المشهد الذي أَلْفوه، شخصيات يرونها في الصحف والتلفزيون. تَمَشَّى — وقت الأصيل — على اللسان. تتطلع إلى الأفق، والشمس المنحدرة نحو الأفق، والقوارب المتناثرة في المساحة ما بين السلسلة وقلعة قايتباي.

المنوعات كثيرة، وإن لم يتغير الناس في بحري. لم يُعَد الدخول متاحًا إلى الدائرة الجمركية. التصريح ضرورة للعاملين في الميناء: شركات التصدير والاستيراد، وبواخر الركاب والبضائع والأسواق الحرة. يستوقفه حرس المواني لمراجعة الأوراق، والتفتيش. يختلف الحال عمَّا كان يحياه إلى زمن قريب. الاكتفاء بإلقاء السلام، التجوُّل — دون ممانعة — بين الأرصفة والحاويات والشون والمخازن،

وقضاء المصالح. حتى الصفوة من العلماء وخلفاء الطرق الصوفية، رحلوا تباعاً، الواحد بعد الآخر، لم يبقَ على قيد الحياة إلا المجتهدون الأقل شأنًا.

قال عبد الله أبو رواش: تغيّرت الأوضاع منذ ١٩٤٨م. نحن في حالة حرب لا تنتهي! من أيامها، تغيرت الحياة في الإسكندرية.

المحظورات كثيرة. أوامر المنع تتكرر. اختفت مباريات كرة القدم من الساحات الخالية، ورفع الأثقال وتنس الطاولة من النواصي. احتلت ورش القزق معظم مساحة الشاطئ. اختفى حمام الأنفوشي، وأهازيج السحر، والجلوات، وتلاوة القرآن في ليالي رمضان داخل حديقة السراي، وخطب الشيخ عبد الستار، وسباقات البنز، وسباقات المراكب، والبلبي، والدوم، والطائرات الورقية، وسوق العيد بميدان الخمسة فوانيس، وأغنيات ماهر الصاوي، والتكافل، والسير وراء الجنازات، والنظرات المتأملّة في الوجوه الغريبة، والمظاهرات التي لا تُفرقها الشرطة، وملصقات الإخوان المسلمين على الحوائط: الجهاد في سبيل الله أغلى أمانينا.

لم يُعد قباطنة البلانسات ينطلقون في البحر، قبل أن يحصلوا على إذن بالسفر. صدر قرار من رئيس هيئة الثروة السمكية بحظر الترخيص لأي سفن صيد جديدة. قال شيخ الحارة شوقي أبو سليمان وهو يهرش بظفره في مقدمة رأسه: أظن أن الزحام هو الباعث لكل هذه التغيرات في بحري!

يتحدث عن ماضي الحياة في بحري ما بين تزواج البيوت القديمة، وأكواخ الصيادين على امتداد شاطئ الأنفوشي. يعرف جميع عائلات بحري: هنو، جميعي، أبو هيف، الجريتلي، الناضوري. ينادي بالأسماء، ويسأل عن أفراد الأسر، ويعرف أصحاب الوظائف والمهن والحرف والميول الحزبية.

يضايقه أنه إذا دخل على جماعة يتحدثون، قطعوا أحاديثهم، وتكلّموا في غير معنّى، أو لاذوا بالصمت.

تشغله معرفة ما يدور داخل المقاهي والدكاكين والبيوت والمساجد والزوايا والأزقة المعتمة: الخلافات العابرة، والمؤامرات، والدسائس، والمعارك، والفضائح، والخيانات الزوجية. يحتفظ بمعظم ما يعرفه في نفسه، لا يبوح به حتى ضمن مهام وظيفته.

عرف سامي بهاء الدين — بواسطته — تجار البلقراطية. صداقته بهم قديمة، ويخشون رواية أسرارهم إلى أي أحد، لا يأخذها — في ظروف خافية — عليهم. أكد لهم

ثقته في بهاء الدين، وحكى لبهاء الدين ما يريده التجار من فطنته، وذكائه، ووسائل خروجه على القانون.

أميز ما في الشقة شرفتها المطلّة على البحر — رغم بُعد المسافة — لا تحجبها عنه البنايات. يبدو — في نهاية الشارع، أعلى البيوت القصيرة، المتساندة — شاطئ الكورنيش، وأكشاك القزق، وفلوكة صغيرة تهزها الأمواج في وقفته داخل البحر. اختلطت النوة الصياد صادق عبد المعز. قذف الصياد مبارك شومان بنفسه في المياه لإنقاذه. لم يستطع مغالبة الأمواج. اجتذبتّه النوة هو أيضًا. غاصت بالرجلين إلى داخل البحر.

قال غريب أبو النجا: أهل البحر ليسوا جميعًا من ذوي النيات الطيبة! والتمع في عينيه قلقًا: ربما غيَّبوا الرجلين في الأعماق، دون عودة! لا ينزل شوقي أبو سليمان البحر، لا يعوم، ولا يصيد، ولا يركب القوارب. يخشى تحذيرًا همست به غجرية بعد أن وشوش الودع: بعد عمر طويل ... البحر آخر ما تراه! من يومها، شغله الأمر. انتقل من بيته في شارع الحجاري إلى بيت يُطل على خليج الأنفوشي. في باله أن تنشأ بينه وبين البحر جيرة وصدقة. يطمئن إلى حياته بعيدًا عن خطر البحر. حتى السير على الكورنيش الحجري — ما كان يحلو له في طفولته — لم يعد يُمارسه. قد تُفاجئه هبة ريح، أو يختلُّ توازنه. يتحقق ما يحرص أن يتجنب حدوثه.

لم يكن يشغله إن طال عمره أو قصر. مشوار الموت يبدأ في لحظة الميلاد. كل يوم نعيشه يقربنا من نهاية الرحلة.

تمنى ألا يكون موته بالشيخوخة. للشيخوخة أمراضها ومتاعبها وانعكاسها على تصرفات من تتصورهم أحبائنا.

— يُخيفني أن أسقط على ظهري، فلا أستطيع القيام كصرصار! قذف بصقة في الطريق، واستطرد: في الشيخوخة وحدها يعرف الإنسان كم هو ثقيل!

ومسح على رأسه براحة يده: الشيخوخة شرٌّ من الموت. إنها عذابٌ راحته في الموت!

عرف جلساء دكان الحاج جودة هلال أنه قام بدور المحلل لزوجات واجهن الطلقة الثالثة، البائنة. يترك المرأة في حالها، داخل الحجرة المغلقة، حتى يأتي الصباح. يحلف عليها يمين الطلاق، ويمضي إلى دكانه.

داعبه خليل الفحام: ماذا لو أن المرأة استهوتك، أو أنك أرضيتها فأصرت أن تظل في عصمتك؟! عصمتك؟!

قال شوقي أبو سليمان في هيئة من يدرأ تهمة: زواجي من أم العيال هو — وحده — صورة الزواج في حياتي.

في آخر أيامه: عاب عليه الناس دقائق نقص لا تليق بسنئه. تلفت نظره أية امرأة يراها. ثم لا يكتفي باللفتة العابرة. يُعيد النظر، والتأمل، والتحديق. تتملكه الرغبة أحياناً. يضعها في عينيه، ويتلفت، يبحث عن الاستجابة في الأعين التي تبادلها النظرات.

إذا شاهد امرأة في الطريق، لم يحوّل نظره عنها، كأنه يحاول أن يحدس تكوينات جسدها من وراء الملاءة التي التفت بها، كأنه يفتش فيها عن شيء يتوقعه، أو يريده. لم يعد يهّمه من شأن عمله، بقدر ما تهّمه امرأة مقلوطة، تتأوّد داخل ملاءتها المحبوكة حول جسدها.

استغرب في نفسه أن شبّقه يزداد خارج البيت. مضت الأيام على إيقاعها إلى مرحلة عمره الحالية، وإن لاحظ عجزه عن السيطرة على انفعاله. يثور لأي سبب، وربما بلا سبب محدد. يشقيه — داخل البيت — إحساس بالغربة. يشغله الدكان والمقهى والطريق والرؤى المثيرة. عندما يغادر البيت، تصطبّخ الأمواج بانديفاع النوات، ويعلو صوت المارد، وتُغني جنيّة البحر. يجتذبه المتاح والصعب، وينسى أصول مهنته.

لم يعد سكان الشارع يُفاجئون بصفعة على وجهه، تتلوها شتائم، من امرأة يتبعها في شارع رأس التين، أو شارع فرنسا. يقترب من المرأة إلى حدّ بلوغ أصابعه ثنية إبطها، فيقرصها. تسكت المرأة بغلبة الحياء، أو يُثيرها ما حدث. تلتفت ناحيته بالصفعة، تتلوها الشتائم.

قال بدوي الحريري إن تفكير الرجل اقتصر على ما بين فخذه، يجتذبه ما بين أفخاذ النساء.

فسّر خليفة كاسب ما يفعله شوقي أبو سليمان أنه قد تجمّع فيه ما يحدث للناس في مثل سنّه من ميل إلى التصرفات الصبيانية. شعر أنه لم يبقَ من سِنِي الشباب إلا القليل، وأنه سيواجه — في الأيام القادمة — حياةً أخرى تتسم بالجفاف، أو البرودة. قال خليل الفحّام إنه جاوز السنّ التي تُتيح له تغيير طباعه. هو كالشجرة التي كبرت، من المستحيل تغيير هيئتها.

هتف بدوي الحريري بالدهشة: المصيبة أنه ابتلي بهذا الطبع في الكبر! يلحظ الناس تغيرُ سحنته، وتبدُّل ألوانها. يُدركون أنه يُعاني. ربما لم يظن بدوي الحريري إلى المعنى، لو لم يُصارحه شوقي أبو سليمان بالهدف من وقفته في مفارق الطرق. يبظُّ الشبق في عينيه، وترتعش شفّاته. يعاني بصورة حقيقية. قد تمتدُّ يده داخل جيب البنطلون، تعبت بجسمه. يمضي — دون أن يلتفت — إلى شارع الأباصيري.

يعرف الحريري إلى أين يتجه.

قال له شوقي سليمان: لا أذكر متى بدأت تراودني أفكار الرغبة. لعلها بدأت بانحسار أمواج الرغبة نفسها، المد والجزر في داخلي لا شأن لهما بما كنت أمتلك العوم في أمواجه. أقف على الساحل، لا أجازه إلى داخل البحر. وتهدّج صوته بالانفعال: أعرف أن الإنسان — إذا كبر — قلّت شهواته، لكنني أحب النساء أضعاف الحب الذي عرفته في أعوام الشباب. أحب الجسد العفّي، والعينين الصاحيتين، والشفتين الممتلئتين، والساق المدملجة.

وكسا وجهه قناعاً من الجدية المفتعلة: أنا لا أخشى زجرَ المرأة التي ترتدي ثوباً يكشف مفاتن جسدها. هي ترتديه ليثير الفتنة. قد تُبدي الضيق للنظرات المقتحمة، لكنها تحقق ما تطلبه من نشوة. تتضايق لو عبرتها النظرات، لو أنها لم تُحدّق في الأجزاء التي عرّتها من جسدها، أو النتوءات والانبعاجات. المرأة التي تحيط كاحلّ قدمها بسلسلة ذهبية ... اختارت هذا الموضوع لأنه هو الذي تريد أن تقع عليه النظرات. إذا ادعيتُ الحياء، واتجهت بنظراتك بعيداً، فأنت ترى أن الكاحل الجميل لا يستحق اهتمام نظراتك. واعتمد على الطاولة بكوعيه، واتجه إليه بنظرة متسائلة: تخيل بضاعة أجهد صاحبها عرضها في فاترينة، ثم لم يُكلّف واحد من المارة نفسه بالوقوف أمامها.

لم ينعكس ما يفعله على نظرات الحريري وحده.

كانت نظرات الناس — بالتساؤل والدهشة والاستياء — تتجه ناحية يده في داخل جيبه، تداعب ما بين فخذيه.

قد لا تستجيب المرأة، أو الفتاة، إلى الإشارات. لا تفهمها، أو تُهملها. يعلو صوته بالشَّخْط والنَّظَر.

لم يَعدْ يَأبه بالنصائح، ولا التوبيخات، ولا حتى التهديد بإبلاغ العميد حسن القرعي. ازداد شبُّه لكلِّ مَنْ يستقبلهن في دكانه، أو يُصادفهن في الطريق، أو تلتقطهن نظراته من داخل نافذة.

لَمَّحَ خليفة كاسب إلى أن شحاتة عبد الكريم أغضبتَه وشايَةُ شوقي أبو سليمان بما يصنعه من السحر. صنع سحرًا أوقع به الخبل في ذهن أبي سليمان. صار على ما هو عليه.

كان جودة هلال أول مَنْ تحدَّثَ عمَّا يُعانيه شوقي أبو سليمان في الفترة الأخيرة. لاحظ أنه يأتي بتصرفات غريبة لم يألفها أصدقاؤه، ويُفاجئهم بأقوال لا تتسق مع موضوع النقاش. يقذفهم من فمه بما يطرأ على باله، لا يتدبره، ولا يتأمل معناه. يُهمل ما قد تعكسه الملامح من الدهشة، أو العجب.

لم نَعدْ ذاكرته تُعينه على متابعة النقاش. شحبتَ الذاكرة، وضعت حركة الجسد. يستعيد الأسماء، يُردِّدها. ينادي مَنْ تحدَّثَ إليه بغير اسمه. يُدرك جودة هلال أنه ينسى الأسماء. يغلبه الملل والسأم. يسلم نفسه إلى الشرود.

عرف أن الفوسفور مفيد للذاكرة، وأنه متوفر في لحم السمك. لم يَعدْ يأكل إلا أنواع السمك: البوري والمياس والمرجان والبربوني وغيرها.

شَخَّصَ الطبيب الأرمي في شارع إسماعيل صبري ما يُعانيه الرجل بأنه تصبُّب في الشرايين، أثر على الذاكرة، فضعفت، وعلى حركته الجسدية، فلا يستطيع الحركة كما يريد.

قال الطبيب في مستشفى رأس التين إن الحالة تأثيرات شيخوخة. تعددت المسميات: القلق النفسي، العصاب القهري، النيوروستانيا، العصاب النفسي، الفصام، الاكتئاب، الاضطرابات الانفعالية.

لَمَّا نطق الطبيب في مستشفى المواساة كلمة «الذاكرة» استعادها عبد الرحيم أكبر أبنائه. صارحه الطبيب بدورة المرض، منذ غلبة النسيان حتى يعود المريض إلى تصرفات الطفولة، ثم الموت.

حدس جودة هلال أن شوقي أبا سليمان يفقد ذاكرته، وربما أصابه الخرف. صار في دنيا غير دنيا الناس، بها ما لا يعرفونه من الذكريات والحكايات القديمة والأحداث

والرؤى. يصحو على أسماء يردها. يتحدث عن لقاءاته بأصحابها. ينقل تحياتهم من العالم الذي يعيشون فيه. يذكر من لم يلتق بهم معظم جلسائه، ولا رأوهم. تبينوا — من ذكرياته القديمة — أسماء أعمام وأحوال ومعارف وجيران. عرفوا عن أحوال أولياء الحي وبركاتهم ومكاشفاتهم. يستعيد ما قد مضى عليه سنوات طويلة: خطبة مصطفى كامل في زيزينيا: لو لم أولد مصرياً، لتمنيت أن أكون مصرياً، عودة سعد زغلول من الخارج، مباراة كرة القدم بين منتخب الإسكندرية ومنتخب المجر، إنشاء الكورنيش الحجري على امتداد الساحل من رأس التين إلى المنتزه، افتتاح مستشفى الموساة، ليلة التقاط يد سيدي أبي الدرداء طوربيداً كاد يدمر الإسكندرية.

قال جودة هلال: إنه يتحدث عن سيره أمس في جنازة سيد درويش!

ظل ينسى حتى نسي وظيفته.

يفتح — كل صباح — دكانه المطل على شارع أبي السعادات. يسحب الكرسي إلى الرصيف، ويجلس. تتجه نظراته إلى الفراغ. لا يدخل في مناقشات، ولا معاملات من أي نوع. حتى الأسئلة التي تتصل بعمله، يكتفي بنظرة يغلب عليها التردد. لا يترك مكانه. ربما أشار إلى دفتر المواليد الهائل، المهترئ، على مكتبه. يَوْمى دلالة أن يفتش صاحب الطلب عمًا يعنيه.

أقعده المرض تمامًا، بعد أن امتصَّ كلَّ قوة الجسد. لم يعد يستطيع النهوض، ولا الحركة، ولا الكلام، ولا يقوى حتى على إيماءات الصلاة. إنما هي إشارات باليدين، وأعلى الصدر، وغمغمات بالشففتين، ونظرات متلفتة لا تستقر على وجهة محددة.

في نهايات عمره، أُصيب بالعمى. صارت له ذاكرة صوتية. يعي الدنيا بأذنيه: الأصوات والروائح والملامح والألوان. لا يُجهد غيابه بصره في التفريق بين أصوات اللحظة الواحدة، ولا التعرف على صوت لم يستمع إليه منذ سنوات طويلة. يعرف الداخل إلى مجلسه قبل أن يُلقى السلام: أهلاً يا فلان.

ينطقها في ثقة وبساطة دون توقُّع للخطأ.

انظر: جودة هلال، حمدي درويش، خليفة كاسب، سامي بهاء الدين، سيد درويش، عبد الستار، عبد الله أبو رواش، ماهر الصاوي.





## صبيحة الداخني

تعتر الست صبيحة الداخني بأنها عاشت في حياتها للحب، تبحث عنه، وتمارسه. ترمّلت عن ستة أزواج، لم تُغضب أحدهم، ولا توَعّدها بالطلاق. الموت اختطفهم جميعًا، وهو ما لا حيلة لهم — أو لها — فيه. أول أزواجها دخل عليها قبل أن يدركها الطمث. بعد أن ظهر طمثها الأول، حملت بأول أبنائها. سُمِّي الأجر أزواجها ملوك النحل. يدفعون حياتهم ثمنًا لفعل الجنس الأول، هو الفعل الأخير.

أعطى الإسلام المرأة حقَّ تعاقب الأزواج. إذا مات زوجها، أو افتقرت عنه بالطلاق، فإن الدين يَهَبُها الحق في طلب زوج جديد.

كانت صبيحة — في كل مرة — تختار زوجها بنفسها، لا تطلب الطلاق إلا إذا فعل ما يغضب الله. تمنّت الزواج من حميدو شومة. قال لمن سعى إليه بتمنيها، إنه لا يستطيع أن يتصور زوجة إلا أم أبنائه!

لم تُنجب صبيحة من أزواجها الستة إلا ابنة واحدة وثلاثة أبناء. لما مات آخر أزواجها، كان قد تقدّمت بها السن. أدركت أنه لم يبقَ أمامها من العمر إلا سنوات قليلة. عانت الخوف من المعصية، وفعل ما لا يُرضي الله. قالت: آخر أزواجي هو خير أزواجي. لن أعقبه بآخر، حتى يأذن الله أن أتزوجه — إن شاء الله — في الجنة!

مالت إلى العبادة والتأمل والاجتهاد، والتزام الصلاح والتقوى، والعمل بأوامر الله وآداب الإسلام. ساعدها أنها تعلّمت إلى الثالثة الابتدائية. أكثرت من زيارة أبي العباس، تؤدي الصلوات لأوقاتها، تُضيء الشموع، تدعو، تُقدّم النذور، تلمس المقصورة بأصابعها، تدور حول المقام، حتى يدركها التعب.

قالت: لا حياء في الدين.

دعت الشيخ حامد فرغلي، قارئ جامع أبي العباس. جود آيات القرآن في جلسته على كنبه الصلاة. استعدت، وحاوت المحاكاة، حتى اطمأنت إلى قدرتها على التجويد. حفظت القرآن، ووعته، ودرسته.

أخلصت في مجاهدة النفس.

سعت إلى تحصيل العلوم العرفانية. صانت جوارحها عن الخوض في الباطل، وغالت في الحشمة، ولزوم أداء شعائر الدين.

لم يفلح الشيطان في أن ينفذ إليها، أو يكون له حظٌ معها. استبدلت بنعيم الدنيا نعيم الآخرة. تذكّر الله، وترتعش فرائضها. تنغمس في حالات الشرود التي تلمُّ بها. تستحضر عظمة الله — سبحانه — في نفسها. تقضي وقتها — حتى وهي بين الناس — في العبادة والطاعة، وتمارس الاعتكاف والتهجد والرياضات والزهادة والورع والمجاهدات الروحية.

ربما صعدت إلى سطح البيت. جعلت لنفسها خلوة في الحجرة الوحيدة المطلّة على الزقاق الخلفي، تتلو آيات القرآن، تطالع كتب التفسير والأوراد وأحزاب الشاذلي.

اعتكفت بمصلى السيدات في جامع أبي العباس، لا تُفارقه إلا لقضاء حاجة، أو عقب صلاة العشاء. يتعاقب إطفاء اللمبات، وتصرُّ الأبواب، تأهباً للإغلاق. تلتف بملاءتها، وتتجه — قبل أن تحلّ الظلمة تماماً — ناحية الباب.

ظهرت لها في المنام رؤيا. يدعوها من لم تتبين ملامحه جيداً، أن تُعين الآخرين على أمور دنياهم ودينهم.

همست بالسؤال: لماذا أنا؟

قال ذو الملامح الشاحبة: تعلمت بما يعينك على النصح.

اطمأنت إلى أن الله يسر لها نفع الناس. ظلت على النسك والزهد والتعب، لا تأذن بالدخول عليها إلا لخادمتها فلة. تُرتب لها الحجرة، تسخن ماء الطهارة، تطهو الطعام، تشتري احتياجات البيت من السوق.

لم تعتزل الجماعة.

ظلت على اتصال بها في المجالس التي تُقيمها في قاعة البيت السفلية. تتضوّع في المكان روائح بخور الجاوي والعنبر الخام والكافور والزعفران والمسك. تجلس — بالساعات — لمن يقرأ لها قصص الدين والأنبياء والصحابة وأقطاب الصوفية.

كانت تُطيل الاعتكاف ليلاً، وتعدّد الحلقات، أو المجالس نهاراً. توزع فيها الشاي والقهوة وأكواب العنّاب.

## صبيحة الداخني

عُرفت بالعلم والورع وخشية الله والتواضع لعباد الله. تناقل الناس عنها شدة الميل إلى مجاهدة النفس، ومراقبتها، ومحاسبتها، وقيام الليل. تستعيد في خلواتها صورة سيدي المرسي، تأتي لها روحه، تردُّ على أسئلتها، تقضي حوائجها، تُطلعها على خفيِّ الألفاف، تبوح لها بالأسرار. كانت تؤدي الفرائض على أكمل ما يجب، تحذّر من الوقوع في الخطيئة، تُلحُّ في طلب المغفرة. وكانت دائمة التردد على أضرحة الأولياء.

لا تجد تعليلاً لحياة الناس — دون أن يعصف بهم غضب الله — إلا بركات الأولياء ومكاشفاتهم. إنهم يتوسلون بالشفاعة، حتى تعفيهم السماء من عقابها، ولا تجعل عاليها أسفلها.

شكّت إليها عليّة عشاوي من أفعال شحاتة عبد الكريم في السحر. نصحتّها (تعلم مهنتها) بأن تلجأ إلى الله تعالى، تتقرب إليه بتلاوة القرآن، والتوبة، والاستغفار، وقراءة الأذكار المستعيذة من الشيطان.

ارتدت الست صبيحة — ذات صباح — خمراً صوفياً، وعباءة بيضاء، وببيدها مسبحة زرقاء طويلة، على حباتها أسماء الله الحسنى. وجدت نفسها أهلاً للفتوى.

الفتوى — في معاجم اللغة — هي الجواب عمّا يُشكل من المسائل الشرعية، أو القانونية، جمعها فتى وفتاوى. أفناه في الأمر: أبان له، وأفتى الرجل — أو المرأة — في المسألة، واستفتيته فيها، فأفتاني إفتاء. ويقال: أفتيت فلاناً رؤياً رآها، إذا فسرتها له، وأفتيته في مسألة إذا أجبته عنها.

رأت الست صبيحة نفسها ندّاً للعلماء من الرجال، تُغيظها نظرتهم المتعالية إلى المرأة. لو أن الحديث لم يُقل إن النساء ناقصات عقل ودين، هل كانت تلك النظرة تتغير؟ هل كان يؤذن للمرأة بما حرم عليها؟

ساءها رفضُ الشيخ إبراهيم سيد أحمد مجلسها: لا توجد نصوص دينية تمنع إلقاء المرأة دروساً للناس.

عابت على الرجال تسكُّعهم أمام مقام السلطان، أو الجلوس لصق الجدار بالقرب منه. يرمقون زائرات المقام بنظرات، وعابت على من يتعرضون للمحسّنات، ويفترون عليهن.

ترقّت في المقامات والأحوال: الإيمان، والصدق، والإخلاص، واليقين، والمعرفة، والتوكل، والمحبة، وغيرها.

ظهر لها أبو العباس في المنام. ناقشها في علمها. سألها، ولاحظ عليها. لما أُنِسَ فيها القدرة على الاستقلال بالفتوى، أُذِنَ لها بالإفتاء، دون أن ترجع إلى شيخ معلّم، ولا إلى كُتَّاب. ما حفظته، ووعّته، من سور القرآن والأحاديث النبوية والتفاسير واجتهادات الصحابة والأولياء والتابعين، يُتِيح لها الفتوى من ذهنها واجتهادها، بلا توجُّس في صحة القول.

انتفع بها الناس في بحري انتفاعاً كلياً، واجتمعوا عليها. اعتقدوا في صلاحها وبركتها. اشتهرت بعلو الهمة، وقوة العزم، والتصرف من رأسها، وإهمال همسات الوشاية والنميمة والغدر والحسد، والانتقاص من الآخرين. تجد الخير طبيعة النفس البشرية، والشر مجرد زوائد لا تُفسدها.

اشتهرت بأنها من أرباب الأدواق والحقائق والمجاهدات والمشاهدات. تحدّث الناس عن أحوالها ومكاشفاتها وشطحاتها. شُفي على يديها مَنْ كانوا أقرَبَ إلى الموت، تحرص أن يقرأ المريض الرقية الشرعية بنفسه. إذا لم يستطع، فعلى أحد الصالحين (ربما كانت الست صبيحة) أن يقرأها على المريض، بعد أن تضيق به السبل، وتبدو محنة المرض كالزقاق المسدود.

كانت مجالسها — في البيت المطل على مقام سيدي كظمان — تتحول إلى أسئلة وتساؤلات في أمور الدين والتعبّد. تعتز بأنها حصلت على إجازة لتعليم فقه الدين، ومبادئ الصوفية من سيدي المرسي أبي العباس. حفظت أقواله، تتبّعت أحواله، ما رُوي عن انصرافه إلى الفرائض والسنن، نقلت ما عرفته إلى زوّارها ومريديها، علم الباطن، وأعمال القلوب، والمقامات، والأحوال.

كُتِرَ مريدها وزوّارها، يتلاصقون تحت مجلسها، وأعينهم ترنو — بلهفة — إلى ما تقول، يتناوبون الشكوى من أمور الدنيا، وما تُطالعهم به ظروف الحياة، يسألون فيما غمض من أمور الدين. قد تصمت قليلاً، وتتأمل السؤال، ثم تُجيب بالرأي الصواب، والذي يُثمر الفائدة.

قَدِمَ إليها الناس من خارج الإسكندرية، يطلبون ما حدّثته، وأحكمته، من أمور الدين والدنيا.

رُوي أن زائرًا لمجلسها نظر إليها نظرة الرجل إلى الأنثى. صرخ — في اللحظة التالية — لأن الله سلبه نور عينيه.

قالت الست صبيحة في هدوء مَنْ يدرك ما حدث: إذا أردت أن تستعيد ما فقدته فاعتذر!

أحسَّ الرجل في عينيه ما دفعه لفركما. صاح بفرحة الرؤية.  
قالت الست صبيحة في نبرتها الهادئة: لا أريدك في مجلسي!  
أصابها — ذات ليلة — تغيرٌ، ما يُشبه التصلب، والارتجافة في الأنف والشفقتين،  
والشرود فيما لا يراه أحد. ثم ران الهدوء على ملامحها، وأغمضت عينها: والسلام عليكم  
ورحمة الله وبركاته.

سأل واحد من المريدين: مَنْ كان معك؟

— سيدي المرسي. أودع في رأسي بعض علمه، وانصرف.

ألف مريدوها ترديدًا دعاء السلطان، حتى حفظوه: اللهم اغفر لي واسترني، ولا  
تفضحني في الدنيا والآخرة، وعلمني وذكّرني وفهمني، وأرحني وفرحني وبرّئي، وفرغني  
من كل شيء إلا من ذكرك وطاعتك واطاعة رسولك، ومحبتك ومحبة رسولك. روت الكثير  
من مواجيد وأحواله ومكاشفاته وكراماته وخوارقه وأقواله: رأته — بعينين صاحبتين  
— يمشي على الماء، ويطير، ويُمسك النار، ويطوي الأرض. ربما قطع المسافات البعيدة في  
لمحة بصر.

نقلت عن أبي العباس قوله: الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من  
الآخرة إلى الدنيا. وقال: الزاهد غريب في الدنيا، لأن الآخرة وطنه. وقال: العارف غريب في  
الآخرة، فإنه عند الله. وقال: الولي يكون مشحونًا بالمعارف والعلوم والحقائق، حتى إذا  
أعطى العبارة، كان ذلك كالإذن من الله في الكلام، كلام المأذون له يخرج من فمه، وعليه  
كسوة وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار. وقال: أوقات العبد أربعة،  
لا خامس لها: النعمة والبلية والطاعة والمعصية، والله عليك في كل وقت منها سهم من  
العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية، فمن كان وقته الطاعة، فسبيله شهود المنة  
من الله عليه إذ هداه لها، ووفّقه للقيام بها، ومن كان وقته المعصية، فسبيله الاستغفار  
والتوبة، ومن كان وقته النعمة، فسبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله، ومن كان وقته  
البلية، فسبيله الرضا بالقضاء والصبر. وقال: صلاح العبد في ثلاثة أشياء: معرفة الله،  
ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا، فمن عرف الله خاف منه، ومن عرف النفس تواضع لعباد  
الله، ومن عرف الدنيا زهد فيها.

تتلمذ على يدي السيدة صبيحة الكثير من طلبة المعهد الديني بالمسافر خانة، وأئمة  
المساجد والزوايا في بحري، لا يجدون حرجًا في سؤالها عن المعاني الغامضة وفقه الدين،  
وينقلون اجتهاداتها وآراءها.

لم تكن توافق على جلوس المريـد بين يديها، إلا إذا أظهر في أقواله مـثابرتـه على القراءة والدرس، وتفقه في الفقه وعلوم الشريعة.

حتى أئمة الجوامع المهمة: أبو العباس والبوصيري وياقوت العرش وطاهر بك ونصر الدين وعبد الرحمن بن هرمز والشيخ إبراهيم، تردّدوا على مجلسها. يحرسون على التأدب، وإن اكتفوا بالإنصات إلى أحاديثها دون أن يشاركوا في توجيه الأسئلة. لم تشغلها طبيعتها المغايرة لطبيعة الرجال، ولا اقتصر مجلسها على من تغمض عنهم أمور الدين. جاوزت النواحي الفقهية (اجتهدت بما وسّعه علمها) إلى الإرشاد عن أفضل الطرق للعيش.

تسكت عن الكلام بلا حجة، أو القول بغير دليل. ألف مريدوها أن تُجيب السائل بأكثر مما سأل عنه. تضع النظائر، وتضرب الأمثال، وتُكثر من الاستشهادات، وتضع الاحتمالات الغائبة.

إذا واجهتها مشكلة لرجل أو امرأة أو جماعة، شقّ عليها حلّها، لجأت إلى كُتُب القدامى والمحدثين، تستفتيها الرأي. ما يغيب عنها فهمه، أو لم تقرأ فيه جيداً، استعانت بمن تثق في علمه من المشايخ، أو لجأت إلى حضرة سلطان الإسكندرية. استأذن في الدخول رجال ونساء شغلّتهم أمور الدنيا. هي بين الرجال ذات كلمة مسموعة ورأي صائب. لم يجدوا حرجاً في أن يترددوا على مجلسها، يستفتونها، ويتلقّون العلم عنها. تتدخل بمحاولات الوفاق بين الأزواج المتخاصمين.

وجد النساء في مجلسها ما يُتيح السؤال — بلا حياء — عن أمور الدين والدنيا. تُشدد على النساء بأن يخضعن لأزواجهن، حتى فيما يطلبونه مما قد يبدو غريباً أو نابياً. من تهجر فراش زوجها ناشز، تحوطها — حتى الصباح — لعنات الملائكة. تحذّر من فكرة الطلاق، وتطلب مراجعة كلا الزوجين لنفسه، تبشّره بما وعد الله تعالى به الصابرين من الأجر والثواب، لا تُخلي مسؤوليتها إلا عندما تصطم بحائط مسدود، تتجه محاولاتها بالوفاق إلى فراغ. تهمس بموافقتها على الطلاق بإحسان. أفنت بتطبيق المرأة التي تطول غيبة زوجها في البحر، أو التي يُعاني زوجها عنّة مستديمة، أو حتى الذي تستثقل الزوجة ظلّه. أفنت بعدم جواز الطلاق بالثلاث. هي طليقة واحدة، ينطقها الرجل — غالباً — في لحظة غضب. غضب، أو سكر، أو ضيق. يراجع نفسه، فيرجع عن يمين الطلاق. تظل الطليقة واحدة غير بائنة، فيملك أن يردّ زوجته، ويردها مرة ثانية. لا يستحق زوجته إن طلقها للمرة الثالثة. المحلل تحايل على الشرع، نقيصة لا يرضى بها زوجٌ يحترم نفسه، وزوجة تحترم نفسها.

لاحظت أن الناس حمّلوا كلمات الله ورسوله — من المعاني — ما تحتل، وما لا تحتل.

نكّرت المعلم محفوظ الصاوي — والد جندي — برأي المذهب الحنفي. يعطي الفتاة في سن الرشد، حقّ رفض الزيجة التي تُدبر لها، يعطيها الحق في أن ترتّب لزوجها بنفسها. عابت على المعلم خلف زيدان قهره لمن يعيشون تحت أمره وسطوته، وأن نفسه تميل إلى قطع الأرزاق، دون تدبر للنتائج على النساء والأطفال.

بعد أن تبيّنت ابتهاج المنسي ما لم يرق لها — عقب زواجها من شحاتة عبد الكريم — أوصت لأبنائها بكل ما تملكه من أموال وأسهم وأراضٍ وعقارات. تحدّثت الست صبيحة — بإلحاح من شحاتة — عن عدم جواز الوصية بأكثر من الثلث.

في إجابة عن سؤال لامرأة من السيالة، قالت الست صبيحة بصوت تملؤه الثقة: لمثل هذا السؤال تُفتي صبيحة.

استعادت السؤال من المرأة.

قالت المرأة وهي تغالب ارتباكها: هل يجوز تعويض الصلاة الفائتة، بسبب العذر الشرعي كل شهر؟

قالت الست صبيحة: للرجل ظروفٌ تخصه، وللمرأة ظروف تخصها، وللتشريع خصوصية الواقعة التي لم يرقّ إليها تشريعٌ مثله، لم يغفل عند المرأة، وعند الرجل، خصوصية كل واحد منهما. الطمث الشهري عارض ينال من جهد المرأة، ومن جوانبها النفسية، وقد يؤدي إلى توتر أعصابها. ولأنّ الصيام شهر في العام، فمن السهل تعويضه، وقد راعى الإسلام هذا العارض، فأوجب عليها أن تعوّض الأيام التي فاتتها في رمضان بسبب هذا العارض. أما الصلاة فهي يومية، وهي موقوتة بخمسة أوقات، وللتكرار في اليوم الواحد فقد رفع الله عن المرأة إعادة الصلاة لما فيها من المشقة. فإذا تحاملت المرأة على نفسها، وصلّت، أو صامت، وهي تُعاني العارض الشهري، كان فعلها باطلاً، وحرماً، حتى لو كانت حجتها هي التقرب إلى الله. الطهارة من الحيض والنفث شرطٌ لصحة العبادة، وإعادة الصوم واجبة، وإعادة الصلاة لا تجب ولا تجوز.

لما بدأت الانتخابات، لجأ إليها المرشحون، ينشدون رضاءها، يستعينون بها في استمالة الناخبين، يطلبون مشورتها فيما يستشكل عليهم من مسائل. لم تتكلم بعبارات دلالة التأييد أو الرفض. اكتفت بهمسات مدغمة كالأدعية.

حين ذكرها سامي بهاء الدين بأنه من بحري، ولم يَفِد من خارجه، هزّت الست صبيحة رأسها، وقالت: ربنا يُولي الأصلح!

قال في لهجة متواطئة: لن أقبل سوى مجلسك وفتاوك.  
وقال لأصدقائه: ما أجمل الإمام المرأة في وضع الركوع والسجود!  
لم يكن يشغلها — في الحقيقة — مَنْ قَدِمَ إلى مجلسها، ولا مَنْ انصرف، ولم تسأل  
عن شخص بما يَشِي أنها لاحظت غيابه. ما كان يشغلها أن تجيب عن الأسئلة، تنصح بما  
تراه أخذًا بتعاليم الدين.

استأذنت فتنة — ذات صباح — في دخول مجلس الست صبيحة. أوامت بما يعني  
طلب انصراف الخادمة فلة، يخلو المجلس إلا من الست صبيحة، ومنها — أشارت الست  
إلى فلة — تركت القاعة، وأغلقت الباب وراءها.  
تحدّثت فتنة عن تغيّر حياتها.

قالت الست صبيحة: نقضي على المشكلة إذا عرفنا أسبابها.  
وواجهتها بنظرة مستهمة: كما أرى ... أنت تعرفين سبب مشكلتك!  
وخببت فخذها بأصابعها: الحل في نفسك!  
ما يذكره الناس من آخر أيامها، أنها اعترضت سيارة الملك فاروق، في اتجاهه إلى  
سراي رأس التين. لم تأبه بنداءات الأسطوات في ورش القزق، ولا تحذيراتهم.  
أوقف الملك السيارة، ربما لأن هيئتها لم تكن تدل على أنها تستطيع الأذى، وربما لأن  
قدرتها الروحية أجبّرتَه على التوقف.  
كان الملك يقود السيارة بنفسه، دون مرافقين ولا حراس. ظل في موضعه، وإن لم  
يتجه بنظراته ناحية الست صبيحة.

عابَت عليه أنه يأتي بالقراء، يتلون آيات القرآن في حديقة السراي، طيلة ليالي  
رمضان، ويُطعم الفقراء، ويقدم لهم الشاي والقهوة والمشروبات الباردة. يحاول أن  
يداري سوء أفعاله، وما يشغى به القصر من تصرفات معيبة.  
سلط الملك مَنْ حاول قتلها.

ارتفعت اليد بالسكين، فتجمدت، سكنت في الهواء. حمل الناس غانم عبد الفضيل،  
الخادم بالسراي، إلى مستشفى رأس التين. تصعب الطبيب للغرغرينا التي أكلت الذراع،  
ونصح ببتراها من مفصل الكتف.

غابت الست صبيحة عن بحري في الأيام التالية. لم تظهر في بيتها بشارع سيدي  
كظمان، ولا في صحن مسجد المسيري بالسيالة، ولا في ميدان أبي العباس، ولا حتى في  
الضريح الذي أقامته لنفسها في المساحة الرملية الموازية للطريق إلى قلعة قايتباي.



أشيع بين الناس أنها رُفعت.

رأها الحاج جودة هلال — سابع يوم — فيما يرى النائم. أنبأته بأن الملائكة الكرام صحبوها من هواها في بحري، إلى دنياهم العلوية، لتنعم بأنهار اللبن والعسل، والأشجار الوارفة، والأغنيات.

اعتاد الناس — بعد سنوات — رؤية امرأة التفت بملاءة سوداء، تستند إلى ضريح سيدي محمد البحيري. دفنه الناس في الموضع الذي هيأته لنفسها السيدة صبيحة. لما أحسّت بدنو أجلها، حفرت قبرها بيدها في طريق القلعة. أضاء الليل بنور ربها. أتاح لها أن تواصل الحفر بيديها حتى أتمت القبر. نزلته، وصلّت ما لا حصر له من الركعات. كانت المرأة تُسدل طرف الملاءة على وجهها كالنقاب. هيبة مجلسها حالت دون التحديق، أو إلقاء الأسئلة. قال الولد عماد إنه اقترب من المرأة المتخفية بالملاءة بحيث رأى وجهها، وإن المرأة الجالسة عند الضريح هي السيدة صبيحة. لم يحاول أبناء الحي إعادة النظر، وإن رجّحوا صدق رواية الولد. يجذبها إلى الضريح، وإلى بحري — من دنياها العلوية — هوى قديم.

انظر: أبو العباس، فاروق، فتنة، سامي بهاء الدين، عليّة عشاوي، شحاتة عبد الكريم، محفوظ الصاوي، جنديّة محفوظ الصاوي.



## ضياء خير الله

أعاد النظر إلى ما حوله: الشوارع والبيوت والمارة والمطلين من النوافذ ومناشر الغسيل ورائحة البحر والنخيل العالي على امتداد طريق الكورنيش. لم يصدق أنه ابتعد عن جامع عبد الرحمن بن هرمز، وشارع رأس التين، وإطلاق الرصاص، ومطاردة الشرطة.

حدث ما حدث في لحظات، توالى إطلاق الرصاص، تعالت الصرخات والنداءات، ووقع أقدام العساكر.

كيف اختطفته اليد — التي لم يرَها — من استلقائه المسترخي، وهو يذاكر لصق ضريح سيدي عبد الرحمن؟

عرف أن الرصاص استهدف مسئولاً، كان يتجه للصلاة في الجامع، أو أنه كان يمر من أمامه.

استعاد الاسم: السلطان حسين كامل.

عرف — بعد أن خلف المكان — أن الجناة أرادوا قتل السلطان.

تبدلت حياته بعد ما جرى.

حاصرته الوحدة. لم يبقَ في صحبته إلا الخوف والإحساس بالمطاردة. يعاني التوقع والتلفت والخوف. يقاوم رغبة بأن يلتفت ورائه، ليرى إن كان هناك مَنْ يتبعه. إذا صعد درجات المسجد للصلاة، أو دخل دورة المياه لقضاء الحاجة، أو تمشَّى على طريق الكورنيش. يُدرك أن مَنْ يكلم البائع الذي تركه في شارع الميدان يسأله عن أشياء تخصه، ومَنْ يقفز ورائه إلى ترام رقم ٦. يضايقه — في أثناء سيره — تعدد الظلال، بتعدد لمبات الطريق، والمنبعتة من النوافذ والدكاكين. تتشابك. يتخيل مَنْ يسير ورائه، شخص أو أكثر. يلتفت ورائه. لا يجد إلا تعدد الظلال. ينسى الأمر — بعد لحظات — ويعاود التلفت.

لم تكن السياسة تدور له ببال، ولا شارك في تنظيم، أو مظاهرة، أو ناقش قضية تتصل بالسياسة. التردد على جامع سيدي عبد الرحمن للمذاكرة، أو للانضمام إلى حلقات الدرس بعد المغرب. المسافة بين الجامع والبيت في شارع أحمد كشك، أقل من مائتي متر، يذاكر مع زملاء يقيمون في شارع حلابو. في منتصف المسافة، يُكمل المشوار إلى البيت، أو إلى الجامع. لم تكن تفوته دروسُ المغرب لإمام جامع سيدي عبد الرحمن بن هرمز. يُنصت، ويتأمل، ويسأل، وتُدخله نشوة للنظرة المتعاطفة في عيني الإمام.

نشأ في أسرة متدينة. أبوه خير الله الطماوي من علماء الأزهر الشريف. ظل — بعد أن أُحيل إلى المعاش — يعتز بتلمذته لعلماء مهمين، مثل الشيخ عlish، والشيخ محمد شاکر، والشيخ دراز.

اعتاد زيارة الجوامع والأضرحة والمقامات. يقدم النذور، يوقد الشموع، يلامس المقصورات بأصابعه، يُتمتم بدعوات. رافق أباه في زيارته إلى أولياء الله، ففعل مثله. لم يسأل عن المعنى. أعاد ما كان يفعله أبوه لمجرد المحاكاة.

لم يحاول مشاهدة مباريات كرة القدم في الأرض الخلاء برأس التين، وإلى جوار حلقة السمك، وفي الأرض الخلاء برأس التين، وفي شارع التتويج، ولم يرفع الأثقال في الأكشاك على نواحي الشوارع الخلفية.

اكتفى بالقراءة هواية وحيدة. يشتري المجلات والكتب من مكتبة النن بالموازيني، والاستعارة من مكتبة فارس قبالة فرن حبيب. يقرأ حتى قصاصات الصحف. ظلت الواقعة القديمة في داخله. تُناوشه، تلحُّ عليه. تعروه ارتجافة في استعادتها. استعاد طمأنينته بعد أن ألحقه خليفة كاسب — بالابتدائية — مخبراً بمكتب مباحث الأسماك. الكشك القريب من سراي رأس التين. عمله بين الشواطئ، يومين أو ثلاثة، ثم يعود إلى الإسكندرية.

شغلَهُ حبُّ القراءة والسماع والمشاهدة. استهوتَه روايات روبن هود ومغامرات روكامبول وكنوز الملك سليمان وسكاراموش وهي أو عائشة وشركو هولز وأرسين لوبين والفرسان الثلاثة والتاجر هورن وروبينسون كروزو والكابتن بلود وأسرار باريس واليهودي التائه وفانتوماس، ومجلات البلبل والبكوكة والفارس وسندباد.

تردد على المجلس البريطاني بشارع طوسون، والنادي الثقافي بوسط البلد، والمكتبة الأمريكية بشارع فؤاد، وجماعة الصداقة الفرنسية.

سأله حجازي أيوب، وهو يباده له كتباً بأخرى: هل تأكل الكتب!؟

تعرفّ — بالمصادفة — إلى حسين بيكار.  
طابق ملامح الصورة المنشورة في الصحف، وملامح الرجل الواقف على شاطئ  
الأنفوشي، يتأمل الأفق والبلانسات والصيادين والطائرات الورقية والأعلام الملونة فوق  
ورش القزق.

استحثه بيكار — بابتسامة — على الكلام.  
— قرأت رحلات السندباد. لم يكن ذلك الطفل الصغير.  
قال بيكار: ما أرسمه هو سندباد المجلة، سندباد الطفل.  
— من اختراعك؟

استطرد بيكار: مثلما أن سندباد الحكايات من اختراع مؤلفها.  
حيّاه بيكار، ومضى ناحية أصدقاء نادوا عليه.  
ظل اللقاء في باله، وهو يقرأ «سندباد» في الأسابيع التالية. تبدّلت صورة خياله.  
سندباد بيكار يختلف عن سندباد الحكايات. حرص أن ينتزع رسوم بيكار من الصحف  
وأغلفة الكتب، يحتفظ بها في ألبومات، أو في دوسيهات يعود إلى مطالعتها، أو يغطي بها  
جدران حجرته.

كان يحرص على التنقل بين دور السينما: أوديون، الهمبرا، رأس التين، التتويج،  
كونكورديا، بلازا، ماجستيك، ركس. أحب سابو في «لص بغداد» وجوني ويسمولر في  
«طرزان». أحب سيلفانا مانجانو في «الأرز المر»، وأفا جاردنر في «الكونتيسة الحافية»،  
وريتا هيوارث في «سالومي»، ومارلين مونرو في «الرجال يفضلون الشقراوات»، وتحية  
كاريوكا في «شباب امرأة»، وهدى سلطان في «امرأة على الطريق». أحب المرأة الأثنى،  
الفتنة. يُطيل التحديق. يستعيد — في البيت — ما اختزنه. تمضي راحته باللذة إلى  
منتهاها. يسكن بالرجفة، ويهدأ.

حين شاهد فيلم «والله خلق المرأة» في حفلة العاشرة صباحًا، عاد إلى سينما استراند  
في حفلتي الثالثة والسادسة. اجتذبتّه عينا بريجيت باردو. تبينّ أنه يحب العين الواسعة  
ذات الرموش الطويلة، لا يستوقفه لون العين، ولا مدى تعبيرها عن البراءة أو الوحشية.  
أدرك — في لحظة كالومضة — أن العينين تُشبهان في اتساعهما عيني نعمات.  
حدّره رفقي زلابية أنه لن يحصل من نعمات بأكثر مما حصل هو عليه. تعدّ ولا  
تفي، تكثفي بالإيماءة المحرّضة دون أن تتجاوزها إلى الفعل. أهملت كلّ ما وضعه تحت  
قدميها من نقود وهدايا.

ثم وهو ينفخ في استياء: تظن نفسها السفيرة عزيزة!

سعى ضياء خير الله إلى الشاعر عبد اللطيف النشار في جلسته ببار البوستة. داخله نوعٌ من التردد والتوجس، وهو يقترب من البار ذي المصراعين الخشبيين المفتوحين، والضوء الشاحب. لم يكن تردد عليه من قبل، ولا عرف الجلوس في الأماكن العامة، حتى الجوامع — منذ الحادثة القديمة — لم يُعد يتردد عليها. كان قد سمع عن ميل نفسية عبد اللطيف النشار إلى التغير. وصفه حجازي أيوب بأنه رجل مزاجي، متقلب النفسية، يصعب التنبؤ بأفعاله، وردود أفعاله. دلّه النشار على قراءات لم تكن تهمّه. قرأ الذخيرة لابن بسام، ومروج الذهب للمسعودي، وحياة الحيوان للدميري، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، وخطط المقرزي، ونفح الطيب للمقري، وفتوح البلدان للبلاذري، وأدب الدنيا والدين للماوردي، والكامل للمبرد، والكامل في التاريخ لابن الأثير، والبخلاء للجاحظ، وتاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام للزركلي، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي، وعجائب الآثار للجبرتي.

التقى في المكتبة الحجازية — للمرة الأولى — بجميل الخضراوي. اجتذبتة العناوين التي طلبها الخضراوي. ليست الألفية ولا هي في الفقه أو أصول الدين أو العبادات. تناثرت أسماء عبد الرحمن الرافعي وعمر طوسون وأحمد خاكي ومحمود كامل ومريت غالي ومحمد عوض محمد وحسين فوزي وصبحي وحيدة ومحمد خطاب. قال: فهمت أنك طالب بالمعهد الديني.

— هذا صحيح.

— قراءاتك — كما أرى — تقتصر على التاريخ.

— أنا أدرس الدين، لكنني أحب قراءة التاريخ.

زار جميل الخضراوي في المعهد الديني.

البنية ذات الواجهة المتأكلة، والنوافذ الخشبية العالية، الكالحة اللون، والشرفات الحجرية، التي تغطت طبقة من الطحالب الخضراء، وتساقط العديد من مقرنصاتها.

صعد الدرجات الرخامية الخمس، المفضية إلى ظلمة المدخل.

ألف السلّمات الرخامية المتأكلة، الدرابزين المعدني الأسود بنقوشه المتداخلة، الجدران المكسوة بتكوينات النشع، أبواب الحجرات المواربة، يتسلل من ورائها ضوء النهار، أو ضوء اللمبات في الليل، تمازج روائح الطعام والبخور والصنارة المنبعثة من دورات المياه.

تناقشا. اتفقا واختلفا. انتقلت جلساتهما إلى قهوة أنح على ناصية صفر باشا ورأس التين. اطمأن كلُّ منهما إلى صداقة الآخر. طرح السؤال الصعب نفسه: هل تستمر الصداقة بعد أن يُنهَي الخضراوي دراسته؟ لكن التطورات السياسية المتوالية ألجأت جميل الخضراوي للعودة إلى الدلنجات، وألجأت ضياء خير الله للاختفاء.

صداقته لسعيد العدوي غيّرت حياته تماماً، بدلتها. لم يكن يعرفه، ولا التقى به من قبل. تبادلا حديث المصادفة وهما يتطلعان إلى سباق البنز على طريق الكورنيش. امتد الحديث — لا يذكر كيف — إلى القراءات. تحدث ضياء عن طه حسين والعقاد والمازني والزيات وهيكل.

قال سعيد العدوي: لم تتكلم عن سلامة موسى؟

قال ضياء: لا أعرفه.

— ألم تقرأ سلامة موسى؟

أعاد القول: لا أعرفه.

— من المهم أن تقرأه.

واتسعت ابتسامته: سأعيرك بعض كتبه.

أعاره العدوي — فيما بعد — الأم لجوركي، العادلون لألبير كامي، الجدار لسارتر، الأحمر والأسود لستاندال، لمونتسكيو، الأحياء للافاييت، صمت البحر لفيركور، الأجزاء الأربعة من مذكرات أحمد شفيق باشا.

زادت انفراجة الباب، اتسعت، صارت فضاء بلا أفاق ينتهي إليها.

قال للعدوي في تظاهر بالجدية: أصبحت من الإنتلجنسيا.

وأشار إلى نفسه: كما عرفت، فهي تعني الطبقة المثقفة!

كان قد نسي الحادثة القديمة تماماً، حين أُلقي القبض عليه في مظاهرة على طريق الكورنيش.

اجتذبه الهتاف، وتحطيم المصابيح وإشارات المرور وعربات الترام والأوتوبيسات وواجهات الدكاكين، وإشعال النيران في الإطارات وسط مفارق الطرق.

اندسَّ في المظاهرة، ذاب في الزحام، ودخان القنابل المسيلة للدموع، والأحذية الثقيلة، والهاويات، ودباشك البنادق، والخوذات، والدروع الحديدية، وقطع الحجارة، والصرخات، والصيحات، والدماء.

رَدَدَ — بألية — صراخ الهتافات: أين أمك يا فاروق؟ ... الاستقلال التام أو الموت الزؤام.

في مواجهة المتظاهرين صفوف متلاصقة، متتالية، من الجنود، الخوذات على الرؤوس، والدرع والهاويات في الأيدي.

لم يلحظ متى، ولا كيف، اجتذبتَه الذراعان القويتان، ودفعتا به داخل اللوري المغلق. التقى — بعد غيبة طويلة — البكباشي حمدي درويش.

قال البكباشي: أهملت النيابة حادثة سيدي عبد الرحمن فأفرجت عنك. وواجهه بعينين متقدتين: أنت في وضع المحكوم عليه مع إيقاف التنفيذ ... أي خطأ

يجر القديم والجديد!

وصرت أسنانه على غضب واضح: لا تُصعب علينا الأمر.

وعلت وجهه إيماءة تهديد: اعترافك يُنهي كل المتاعب.

ورمقه بنظرة رافضة: لن تتوقف أعين رجالي — منذ الآن — عن مطاردتك.

ثم وهو يهزُّ إصبعه: لن تستطيع الصمود طويلاً!

جذبه شيخ الحارة شوقي أبو سليمان، من زحام شارع الميدان إلى داخل دكان

الكبابجي «على الناس»: خذ بالك فأنت مراقب!

قال في لا مبالاة يائسة: هذا ما هددني به البكباشي حمدي درويش.

— ليس تهديداً، الرجل ينتظر وقوعك في أي خطأ.

هتف في حيرة: لماذا؟

— لم يتصور أن النيابة تُخلي سبيلك!

ثم وهو يرسم في الفراغ دائرة هائلة: يغزل لك شبكة على مقاسك.

واجهه بعيني الحيرة: المهم ألا تلصق بي تهمة كاذبة.

— الأهم ألا تُتيح له الفرصة!

وأدار إصبعه في الهواء: إذا كفَّ مخبر عن مراقبتك، فسيُتولَّى مخبر آخر المراقبة من

بعده.

وحَدَّقَ فيه بعينين تُفتشان عن معني مفتقد: مطاردة حمدي درويش لك قدرٌ لن

تستطيع الفرار منه!

لاحظ في نفسه إصغاءه للخطوات التي تتبعه. وقَع الأقدام يلاحقه، يقترب، يبتعد،

لكنه يظل في أذنه. تزايد التلفت خلفه وحوله، معاناة الإحساس بالمطاردة. ظلت المسافة

بينه وبين السائر وراءه على حالها. كلما أسرع، علا إيقاع الخطوات من ورائه.



يُفاجئُه النداء باسمه — يهْمُ بالرد — يُدرك أن أعوان حمدي درويش يحاولون اجتذابه بالنداء. يردُّ فيفطنون إليه. يُلحق استجابته بالصمت. يتجه إلى الناحية المقابلة. ضبط نفسه وهو يميل من شارع الميدان إلى شارع وكالة الليمون. النظرة متشككة في عينيَّ الرجل ذي الجلاب والبالطو والطربوش. أعطى ظهره لسور الدائرة الجمركية. ظل واقفاً حتى اطمأن إلى غياب النظرة.

أحزنه أن الخوف في نفسه لم يُعد طارئاً. لم يُعد يُدرك حتى بواعث الخوف، يخاف من المجهول، وما لا يعرف طبيعته.

يتنبه إلى ما يُشبه الهمس أسفل البيت. يحدق من خصائص النافذة. يطالعه الصمت والظلمة الشاحبة، وغياب الظلال. ربما استيقظ — في أثناء الليل — ليتأكد من إحكام رتاج باب الشقة وإغلاق النوافذ. حتى نافذة المنور كان يطمئن إلى إغلاقها.

في انحناءة الطريق من مرسى القوارب، استدار ليُواجه الخوف. لم يجد الشخص الذي يتبعه.

مال إلى التخفي، والتستر على نفسه من الأعين الراصدة والمطاردة. يطمئن — قبل أن يدخل حجرته — إلى إغلاق مزليج الأبواب والنوافذ، وإطفاء النور.

أرهقه السير المتخفي في الشوارع والحواري والأزقة. صارت حياته سلسلة من الاختفاء والمطاردة. يشعر أن هناك مَنْ يتبع خطواته، ما يُشبه الأطياف أو الأشباح يلاحقه. يتلفت وراءه لتعدد الظلال، يتبين أنها ظلُّ المتعدد في تداخل الظلال. يديم التلفت في المارة والسيارات والبنائيات. لا يطمئن لأي إنسان، ويرتجف لكل حركة، ويتوجس من أي حوار هامس. يعاني القلق والخوف والمطاردة والتوقع والمصير الذي ينتهي تصوره إلى أفق أسود. أدرك أنه لا قبل له بمواجهة ما يترصده.

قال لعبد اللطيف النشار: أسخف ما أعانيه أنني أفرُّ إلى الظلام. أخشى الضوء، وأحتمي بالظلام.

وضرب الفراغ بجانب يده: لم أعد أحتمل!

روى له النشار عن معاناة بيرم التونسي خلال الأشهر الستة التي أمضاها في مصر، قبل أن يُنفى — مرة ثانية — إلى الخارج. غاب عن الأماكن التي اعتاد التردد عليها. عانى التلفت والإحساس بالمطاردة.

قال النشار: أنت تشكو تعقُّب رجال البكباشي. بيرم أرهقته المطاردة والنفي.

قذف السيجارة من يده — بتلقائية — وسحب من العلبة سيجارة أخرى. أشعلها، وواصل الكلام: عاد بريم من المنفى باختياره. اعترف أنه عانى النفي بما فيه الكفاية!  
ووشى صوته بتأثره: المطاردة تهون أمام الابتعاد عن ناسك!

تمنى أن يصل إلى نهاية.

أرهقه الهرب من النظرات المتابعة، والتلفت الدائم، والتحديق بتوجس، وتخمين التوقعات.

بدأ له الأعين التي تحيط به، كأنها اقتصرت على مراقبته، ملاحظة حركاته وتصرفاته. كيف تصل أخباره، والأماكن التي يسير فيها، أو يتردد عليها، إلى البكباشي حمدي درويش. يحرص على التلفت فلا يتابعه أحد.

لكن الأعين الراصدة ظلَّت تُطارده حتى غلبه اليأس، وأهمل التوقع.

ألحَّت عليه فكرة الهرب، يمضي إلى مكان لا يرى فيه أحدًا، ولا يراه أحد.

أيقن من زيف الأمان الذي اطمأن إليه. النظرات تُحاصره كأنها تتجه كلها ناحيته، الشرخ يتسع، يئس بالانهيار، الأشباح تُلامسه دون أن يراها.

تكرَّر حلمه بالسير في خلاء أشبه بالخلاء المحاذي لمساكن السواحل. غلفت المرثيات بضباب متكاثف. صعب عليه التعرف إلى طبيعة المكان. مضى دون أن يعرف أين هو، ولا أين تقوده خطواته. تَلَفَّت حوله بشعور الوحدة. تنبَّه لأشباح أو أطياف، تتحرك من حيث تقف متناثرة في الأطراف، تتجه ناحيته كأنها تريد أن تحيط به.  
صحا على صراخ الاستغاثة.

أرهقه مجانبية الناس له. يرونه، ويتظاهرون بعدم رؤيته. يتحاشون لقاءه أو مجالسته. إذا قَدِم على مقهى الزردوني، انصرف مَنْ كانوا جالسين، أو اكتفوا بهزِّ الرؤوس، وتشاغلوا بلعب الطاولة، أو الكوتشينة.

مرة وحيدة، التقط ما حدس أنه دعاء له من امرأة لحيمة، لم ترفع رأسها وهي تُنقِّي الأرز.

قال له الشيخ عبد الستار إن البكباشي حمدي درويش قد يحُدُّ من حرّيته، أو يسدُّ عليه أبواب الرزق، لكنه سيظل عاجزًا عن النيل منه.

وقال الشيخ: إذا أظهرتَ الخوفَ أمام مَنْ يراقبك أو يتبعك، فأنت تدفعه إلى ملاحقتك. أنت تقضي على الخوف باقتحامه. إذا أقدمت على الهجوم، فالأغلب أن مَنْ يطاردك سيلجأ إلى الفرار!

وتألق في عينيه حزنٌ هادئ: نحن نخاف الموت والليل والظلام والمجهول والمرض والوحدة والعزلة والشيخوخة والأصوات القبيحة ... نحن نخاف ذلك كله، لكننا نستطيع أن ننتصر عليه — أو نُوقفه — إذا لم نكتفِ بالفعل. إذا واجهنا الفعل بفعل مماثل، أو أقوى منه، أو حاولنا المبادأة بالهجوم دفاعاً عن أنفسنا. ثم وهو يتخلل لحيته بأصابعه: يجب ألا نحزن إذا دخلنا السجن من أجل ما نؤمن به.

أضاف في لهجة تأكيد: قد يدفع المرء حياته ثمناً لحرية الآخرين. واصطبغ وجهه بحمرة الانفعال: إذا كنا ندين الحكام على أنهم يضحون بالناس من أجل مصالحهم، فإننا مطالبون بأن ندين أنفسنا إذا اكتفينا بالفرجة على تلك التضحيات. ما نحمله من معرفة ووعي يلزمنا أن نتجاوز الفرجة إلى الفعل، حتى لو بدت النهاية الشخصية، القاسية، عند الأفق.

وربت ركبته في إشفاق: قد تلقى الإيذاء، أو تخضع للتهديد، فتفعل ما لا ترضاه، ليكن ذلك بلاء، حاول — بمشيئة الله — أن تتخلص منه. لاحظ العينين المتابعتين، وهو يغادر الساحة المجاورة للحلقة، بعد انتهاء المباراة. أزمع ألا يعود مباشرة إلى البيت. تعمّد أن يُبدل سيره. مضى ناحية مساكن السواحل. مال — فجأةً — ناحية البحر. تعثرت خطواته في كومات الردم التي أضافت إلى مساحة اليابسة.

استدار لتبين مصدر الخوف. أمسك الرجل بساعده. دفعه ناحية الخلاء المطل على البحر: لا تخف. أريد أن أكلّمك. استعاد قول عبد اللطيف النشار: الخوف ظاهرة طبيعية. حدثه عن المخاوف التي لا تنتهي: الخوف من الفشل، ومن قلة الحيلة، ومن المرض، ومن الموت، ومن عذاب القبر، ومن عقاب الآخرة.

وضغط على الكلمات في صوت متلجج: الإنسان — وحده — هو الذي عرف فكرة الوطن والجنسية والانتماء. بقية المخلوقات تنتمي إلى أي مكان تجد فيه الرزق والدفع. هذا ما يفعله طائر السمان. يضيق — حيث يُقيم — بالبرودة وغياب الرزق. ينطلق — في أسراب لا تنتهي — نحو ما يتصور أنه سيجد فيه الشيء المفقود.

وحدجه بنظرة متأمة، لكي يرى وقّع كلامه في نفسه: نحن نصيد السمان في الفجوات التي تفصل بين الوطن واللا وطن، عندما يقتصر البحث عن موضع للإقامة المؤقتة، أو الدائمة، فراراً من خطرٍ لا يقوى على مغالبتة.

ثم وهو يهزُّ قبضته: من واجبنا أن نقاوم الخوف!  
بدا — في نظرتة الجانبية إليه — في حوالي الثلاثين. يرتدي زيَّ الصيادين: السروال الضيق من أسفل، الفانلة ذات الرقبة، الصديري الكثير الأزرار، الحذاء الكاوتش.  
عمق إحساسه بأنه يملك الموقف. يستطيع أن يُبدي الرأي، ويقبل، ويرفض، ويرفع الصوت، دون أن يشغله التوقع ولا ردُّ الفعل.

وهو يقاوم دفعة الرجل: ماذا تريد؟

— لن أؤذيك.

في صوت متحشرج: سأصرخ.

التفت الرجل حوله بنظرة مستخفة: مَنْ يسمعك؟!  
كانت الساحة خالية إلا من قلاب في الحافة يعطي ظهره للبحر، والصمت السادر يُعمق صراخ طيور النورس المحلقة في امتداد الشاطئ.  
شعر بجفاف في الحلق وما يشبه الغثيان، ورعشة في الأطراف والركبتين، وميل إلى التبول.

أدرك أن الذي تبعه — طيلة الأيام الماضية — هو مساعد لحمدي درويش: ضابط، أو صول، أو مخبر. يطلب ما لا يعرفه. ليس القبض عليه، فما أيسر ذلك. ربما يريد أن يتعرف على حياته، أصدقائه ومعارفه والأماكن التي يتردد عليها. حياته تتباعد عن الأماكن الشاحبة والهمسات. لعل تشكُّك حمدي درويش على حاله من أن انخراط ضياء في المظاهرة لم يكن وليد اللحظة ولا مصادفة.

مال — بتلقائية — يتقي اللكمة الموجهة إلى وجهه. أفلح في تفاديها. لكن الضربة التالية، المفاجئة، فوق رأسه، لفته بإعياء.

دفعه الرجل من حافة الشاطئ الحجري. حاول أن يغالب الإعياء، ويتماسك في وقفته، ثم تهاوى في الفراغ.

حين صحا في مستشفى رأس التين، أدرك أن الأمواج تلقفته. لم يجد في جسده رضوضًا ولا جروحًا. إغماءة الخوف انعكاس ما حدث. هل كانت في البحر يدان حمته من الوصول إلى القاع الصخري؟

أحسَّ بما يُشبه بشرة الإنسان لامست ذراعيه ووجهه، خاضت به اليدان الموج، ترفقتا به، حملته إلى رمال الشاطئ، بعيدًا عن توقُّع السنة الأمواج.

إذا لم يكن الملمس لبشرة إنسان، فلمن يكون؟!

قبل أن يصعد الدُّحية الخلفية لجامع أبي العباس، أطلق ساقيه. جرى بأخر ما عنده. علا إيقاع الخطوات المتابعة.

الخوف وحده هو الشعور الذي اقتحمه، واستولى عليه.  
وجد في داخل أبي العباس أفضل مكان للاختباء. يُدرك أن السلطان يحمي كلَّ مَنْ يلوذ بمقامه. يُعْمي أعين مَنْ يترصدون له، فلا يرونه. لن يتصور أعوان حمدي درويش أنه يلوذ — بأفكاره — داخل الجامع: حول المقام، دورات المياه، قاعة المكتبة. الباب المغلق في جانب المنبر.

اشتدت المطاردة. تناثرت الأعين حول أبي العباس، وفي الميدان والشوارع المحيطة. أطلَّت النيات من الأعين. بدا باب النساء — المفضي إلى الموازيني — خاليًا من المتناثرين داخل الصحن، فهبط منه.

احتواه ميدان أبي العباس.  
المولد في تمامه: خيام الصوفية، وحلقات الذكر، ومواكب المولد، وراكبو الجياد، وحاملو الأعلام واللافتات والبيارق والمباخر، وقارعو الطبول والدفوف، وضاربو الصاجات، وعازفو الربابة والمزمار والبيانولا والأكورديون، وأصوات المطربين والمنشدين والمدَّاحين، ورواة السيرة، وترتيل الأذكار، والترنم بالتواشيح، وأكشاك الختان، وسراقات السيرك، والأراجوز، وخيال الظلِّ، وغرفة المرايا، والمراجيح، وألعاب النشان والقوة، وطاولات القمار، ولعبة الثلاث ورقات، والرفاعية والحواة وأكلة اللهب، والفتاة الكهربائية، والثعابين الملتفة حول الأعناق، والدواء الشافي من كل الأمراض، والابتهالات، والأدعية، والمجازيب، والمتسولون، وتمازج رائحة البخور والصندل المحروق والند.

اندسَّ في زحام حلقة الذكر. شارك المرئيين ما يفعلون. إغماض الأعين، واهتزاز الرءوس، وتطوُّح الأجساد يمينًا ويسارًا، وإلى الأمام والخلف.  
أملت المسايرة — بالخوف — فعله في البداية.

قال له الشيخ عبد الستار: لماذا لا تعدل خوفك؟ لماذا لا تخاف الله وحده؟  
واحتواه بعينيه النافذتين: أيًّا يكن مَنْ تخافه من البشر، فلكلما يخضع لإرادة الله. وأشار بإصبعه إلى السماء: الخوف من الله هو الذي سيُتيح لك الأمن وهدوء النفس.  
ثم وهو يحتضنه بعينيه: اعتصم بالله!  
انغمس في التأود والتثني والأدعية والابتهالات. حتى بعد أن غابت الأعين الراصدة، والأجساد التي تنوي الشر، ظل على حرصه في الوقوف وسط الأجساد التي اجتذبتها الوجد.

في رحاب المرسى أو البوصيري أو ياقوت العرش. يُغمض عينيه، يعلو صوته، يُقبل على التصوّف، يخضع لأحواله ومواجيده وشطحاته.

ذات صباح، ارتدى الشيخ ضياء خير الله المرقعة، وأطال ذقنه، ودلّى المسبحة على صدره، وحمل العصا.

بلغ حدّ النهاية من الفرار والمطاردة.

لم يعد يشغله التوقع ولا النظرات المتابعة والمتسائلة. هو وسط الزحام ليس وحده، اختلطت من حوله الأجساد والرءوس والعيون والأنوف والأفواه. ذاب في الأجساد المتلاصقة. أهمل الضغط القاسي، وكتمة النفس. يصعب أن تصل إليه أعين حمدي درويش، أو يناله بالأذى.

صار جزءاً من الدراويش اللائذين بأبي العباس، المستندين إلى جدران مسجده، الزهاد، العابدين، المتوكلين، الفقراء، الصابرين، ومن المآذن والأروقة والمحاريب والصلاة وحلقات الذكر والمدد والصراخ والرقص والوجد والتطوحات والانجذاب وآيات القرآن والأدعية والأوراد والتسابيح والندور والابتهالات والتراتيل والتواشيع والبخور والسبح والبيارق والأعلام والأناشيد ولطم الرءوس والنداءات المستغيثة، والزجاج المتناثر — عمدًا — تحت الأقدام الحافية، والأسياخ التي تخترق الوجوه، والنار المندفعة من الأفواه، ودقات نقرزان سيد حلال عليه.

طال ارتداؤه للخيش، وألّف رائحة العرق في جسده، وطالت لحيته حتى بلغت أعلى الصدر.

لا يذكر من أيامه الماضية إلا جلسة عبد اللطيف النشار على مدخل بار البوستة، منعزلاً في عالمه: القلم والأوراق وزجاجة النبيذ والمزّة وعلبة السجائر.

انظر: أبو العباس، جميل الخضراوي، حسين بيكار، حمدي درويش، سعيد العدوي، سيد حلال عليه، شوقي أبو سليمان، عبد الرحمن بن هرمز، عبد الستار، عبد اللطيف النشار.

## عبد الرحمن بن هرمز

قَدِمَ موكبُ السلطانِ حسينِ كاملٍ من قصرِ رأسِ التينِ. جاوزَ مدرسةَ إبراهيمِ الأولِ، وفرن حبيبَ، وتقاطعَ شارعَ صفرِ باشا ورأسِ التينِ. اقتربَ الموكبُ من جامعِ عبدِ الرحمنِ بنِ هرمز. تراجعَ الحرسُ السلطانيُّ والبوليسُ إلى الأرصِفةِ وأمامَ البيوتِ.

حينَ همَّ السلطانُ بالنزولِ من العربةِ، أُلقيتِ قنبلةٌ من نافذةِ البيتِ رقمَ ٩٩. اندفعَ رجالُ البوليسِ داخلَ البيتِ. لم يكنِ فيه أحدٌ. ليسَ إلا قنبلتانِ محلّيتا الصنعِ، مشابِهتانِ للقنبلةِ التي أُلقيتِ على موكبِ السلطانِ.

اطمأنَّ البوليسُ إلى رواياتِ النسوةِ في البيوتِ المطلّةِ على الجامعِ، أن الفاعلَ قفزَ إلى سطحِ البيتِ المجاورِ للجامعِ. نزلَ من سُلّمه إلى عطفةِ السلاوي، خلفَ شارعِ رأسِ التينِ. تصوّرَ النسوةُ أن الفاعلَ قريبٌ لصاحبةِ البيتِ الذي نزلَ منه. أهملنَ التعرُّفَ عليه، وإن التقطنَ ما أثبتتهِ البوليسُ في محاضرتهِ: مربعُ القامةِ، متوسطُ الحجمِ، أبيضُ اللونِ.

ألقيَ رجالُ البوليسِ مَنْ تصادفَ وجوده بالقربِ من الجامعِ. امتدتِ عملياتُ الاشتباهِ، وإلقاءِ القبضِ، والتحقيقِ، إلى خارجِ بحري، وبعيدًا عن الإسكندريةِ.

علّقتِ على الجدرانِ نشرةٌ تُعطي خمسمائةَ جنيهٍ لمن يُدلي بمعلوماتٍ تؤدي إلى القبضِ على الشخصِ الذي استأجرَ — في ٢٢ يونيو ١٩١٥م — البيتَ رقمَ ٩٩ ملكِ التمساحِ. عمره بين الثامنةِ عشرةِ والثانيةِ والعشرينِ، ملامحهِ مصريةٌ، قمحي اللونِ، مائلٌ إلى الصفرةِ، أسودُ الشعرِ، بارزُ الوجنتينِ، غائرُ الخدينِ، بارزُ الحنجرةِ، شاربهِ أسودٌ خفيفٌ، متوسطُ القامةِ.

أصدرَ القائدُ البريطانيُّ العامُ منشورًا، يطلبُ من «كلِّ شخصٍ يعلمُ بوجودِ مؤامرةٍ ضدِّ نظامِ الحكمِ، سواءً نتجَ من هذهِ المؤامرةِ أيُّ فعلٍ أو لا، وعلى كلِّ شخصٍ يعلمُ أن فردًا أو أفرادًا مشتركينَ في مؤامرةٍ، أو متَّهمونَ بأيةِ جريمةٍ موجَّهةٍ ضدِّ نظامِ الحكومةِ،

أن يُبلغ — بلا أدنى تأخير — أقرب سلطة، سواء ملكية أو عسكرية، كل المعلومات التي يكون حاصلًا عليها، وكل من لم يَقُمْ بالتبليغ عن ذلك — مع علمه به — يُعْرَض نفسه للمحاكمة بالطريقة العرفية، وكذلك من يتستر على أشخاص مشتركين في مؤامرة أو جريمة، أو يساعدهم في الهرب من يد القضاء».

روى من كانوا في الجامع — لحظة إطلاق الرصاص — أن ضريح سيدي عبد الرحمن بن هرمز اهتزَّ في موضعه، كأن يدًا حاولت تحريكه.

الضريح إلى يسار المحراب. تعلوه مقصورة خشبية. إلى جانب الضريح ضريح آخر، دفن به الحاج درويش أبو سن باني الجامع، وعلى الجدار لوحة كُتِب عليها: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». بنى هذا صاحب الخيرات الحاج درويش أبي سن ١٢٦٥هـ».

قال الشيخ حلمي إمبابي إمام الجامع، إنه استمع إلى صوت يتناهى من داخل الضريح، يردّد العبارة: حسبي الله ونعم الوكيل!

لم يفسر الشيخ ما إذا كانت العبارة رفضًا للقتل في رحاب ولي الله، أم أنها موافقة على قتل الخونة من المصريين، أم أنها تحفيز للخروج على سلطة الاحتلال؟

طلب الشيخ من خليل أفندي الفحام أن يحتفظ بما رآه — أو ما تصور أنه رآه — في نفسه، لا يخبر به ثالثًا.

قال الفحام إن القبر انفتح في اللحظة التالية لوقوع الحادثة. امتدت اليدان النورانيتان، الطويلتان، إلى الشاب الذي كان يبحث عن مكان للاختفاء. احتضنتاه، اجتذبتاه إلى داخل الضريح، فلا يراه أحد.

ترك الشاب الجامع في ظلمة الليل. كفل به سيدي عبد الرحمن بن هرمز — بأمر الله سبحانه — خمسين ألفًا من الملائكة، يُخفونه، ويرعون خطواته، ويحفظون حياته، حتى ابتعد عن بحري.

تعدّدت عمليات الاعتقال، وتفتيش المنازل، والمصادرة. أبعدت السلطات المصرية الشاعر أحمد شوقي، واعتقلت أمين الرافعي وعبد الرحمن الرافعي وعبد الله طلعت، من قيادات الحزب الوطني. نفت السلطات البريطانية حسين شيرين وإبراهيم راتب إلى مالطة.

نشرت «المقطم» ٢٠/٧/١٩١٥م حوارًا للسلطان حسين كامل مع فارس نمر. قال السلطان: «إنني لو تحققت أن هذه الحوادث واقعة من أفراد متهوسين لم يدفعهم



لارتكابها إلا لؤم طباعهم وخبث فطرتهم، لكان اهتمامي بالأمر أقل كثيرًا مما هو عليه الآن. لكن متى ثبت أن الجريمة واقعة باتفاق جماعة من الأشرار، لكان ذلك دليلًا على وجود جرثومة فساد في البلاد، مضرّة بمجموعها، ولا بد من استئصال هذه الجرثومة ليصلح المجموع كلّه. وهذا ما نحن بصددّه، وهو الذي يهمني كثيرًا.»

أضاف السلطان: «يؤلني جدًّا أن هؤلاء القوم لا يفرقون بين الخير والشر. يؤلني جدًّا أن أراهم يحكمون في الأمور بأهوائهم لا بعقولهم. ما ضرّهم لو فكروا قليلًا في السبب الذي دعاني لقبول السلطنة. لو كانوا من السياسة في شيء لشكروني على هذا القبول. لو كان فيهم من يعقل أو يفكر لعلموا أن وجودي ليس عائدًا بشيء من النفع على شخصي، بل نفعه عائد على البلاد بعون الله.»

أذن متنصتة في قهوة، على ناصية وكالة الليمون. التقت حوارًا هامسًا بين شابّين يرتديان الملابس الإفرنجية، استندا إلى جدار على الرصيف.

قال محمد نجيب الهلباوي: غاظني ما قاله السلطان، إنه قبل منصبه في ظروف حرجة لأن سياسة البلاد تريد ذلك.

قال محمد شمس الدين، شريكه في عملية إلقاء القنبلة: من قال إن البلاد تريده؟! ومطّ شفته السفلى في خيبة أمل: هل وقف الرجل في وجه تصرفات الإنجليز؟ هل رفض الحماية؟

ثم في لهجة باترة: أظن أن عدم وجوده أفضل! التقت الأذن تكرارًا تعهد الشابين على القيام بحركة سرية، لتخليص مصر من الاحتلال ومعاونيه من الساسة المصريين.

أجرى التحقيق في سرية. أعلن أن الحادثة دبرها شابان مصريان هما نجيب الهلباوي المدرّس بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية. ألقى القنبلة على موكب السلطان، ثم لاذ بصحن جامع عبد الرحمن بن هرمز. طال اختفاؤه عند الضريح، قبل أن ترصد الأذن المتنصتة كلماته. في الثانية والعشرين من عمره، أصله من قرية «أبي الوقف» التابعة لمركز مغاغة. المتهم الثاني محمد شمس الدين، طالب لم يستكمل دراسته الثانوية. شارك برصد الموكب، ثم اختفى بعد إلقاء القنبلة.

في ٣٠ مايو ١٩١٦م، أصدرت المحكمة العسكرية البريطانية في محكمة الاستئناف حكمًا بإعدام الشابين. طلب السلطان حسين كامل تخفيف الحكم. وافق القائد العام الإنجليزي على طلب السلطان. عدل حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.

روى خليل الفحام أنه رأى سيدي عبد الرحمن بن هرمز في المنام. أبدى إشفاقه من وقوع الهلباوي في يد البوليس. أراد إغاثته، مثلما أغاث ضياء خير الله. يسهل له الفرار خارج الإسكندرية. لكن الشاب ظل في المدينة بلاطمئنان، أو بالثقة التي لا معنى لها. الحادثة منذ بدايتها، دفعت الفحام إلى التردد على جامع سيدي عبد الرحمن بن هرمز. ملازمة ضريحه ساعات طويلة. يراجع أوراقه، يتأمل، يضيف الملاحظات.

هو عبد الرحمن بن هرمز بن أبي سعد. وُلد في المدينة المنورة. لم تتفق الروايات على سنة محددة لمولده. كنيته أبو داود. اشتهر بالأعرج، القرشي، المدني. يُنسب إلى التابعين رواة الحديث، وهم من يشترط أن يكون قد رأى صحابياً، أو جالساً، في حين أن الصحابي هو المسلم الذي شرف برؤية النبي عليه الصلاة والسلام، وإن لم يجالسه، أو يخالطه، بينما تشترط اجتهادات أخرى أن يجالس الصحابي رسول الله.

ثمة رواية أنه مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. رواية أخرى أنه مولى محمد بن ربيعة. وهو — في الحالين — يدين بالولاء لأسرة بني هاشم.

المدينة المنورة هي مسقط رأسه. أمضى فيها زمناً، كانت فيه ملتقى علماء المسلمين من الصحابة والتابعين، يشغلهم تفسير القرآن، ورواية الحديث، واجتهادات الفقه. عُرف عنه إتقانه تلاوة القرآن الكريم. وهو أشهر من كتب المصحف من القدامى. وأحد اثنين جعلاً للغة العربية قوانينها، ووضعاً علم النحو. كان الناس يعهدون إليه بكتابة المصاحف، اطمئناناً إلى حفظه وقراءته وعلمه.

سمع عبد الرحمن بن هرمز الحديث، ورواه عن عدد من الصحابة الذين أدركهم في حياتهم: أبي هريرة، أبي سعيد الخدري، عبد الله بن مالك بجنة، أبي سلمة بن عبد الرحمن، ابن عباس، عمير مولى ابن عباس، محمد بن سلمة، معاوية بن أبي سفيان، معاوية بن عبد الله بن جعفر، أسد بن رافع، عبد الله بن كعب بن مالك، وغيرهم. لم يكن عبد الرحمن يكتفي بنقل ما يسمعه، لكنه يسأل، ويتقصى، ويدقق، ويأخذ عن أكثر من صحابي، ويلزم أكثر من أستاذ، وإن كانت أشد ملازمته لأبي هريرة، وروايته عنه.

قال السيوطي: «هو صاحب أبي هريرة، أحد الحفاظ والقراء، أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس، وأكثر من السنن عن أبي هريرة». وقال الذهبي: «كان ثقة ثبناً عالماً بأبي هريرة». وفي طبقات ابن قاضي شهبة: «عبد الرحمن بن هرمز بن أبي سعد الأعرج

أبو داود المدني، مولى محمد بن ربيعة المقرئ المحدث، صاحب أبي هريرة. «وروى ابن سعد في طبقاته، قال: «أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة، عن عثمان بن عبيد الله بن أبي رافع، قال: رأيت مَنْ يقرأ على الأعرج حديثه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ. فيقول: هذا حديثك يا أبا داود؟ قال: نعم، قال: فأقول: حدثني عبد الرحمن وقد قرأت عليك؟ قال: نعم، قل: حدثني عبد الرحمن بن هرمز.»

امتدَّت يدا سيدي عبد الرحمن بن هرمز من ضريحه في الجامع المطل على شارع رأس التين. كان الضريح هو الاختيار الأول لعبد الرحمن بن هرمز. اختياره الثاني في زاوية الأعرج بشارع الميدان. هو — في رواية — سيدي عبد الرحمن بن هرمز، وهو — في رواية ثانية — سيدي عبد الرحمن بن هرمز الأعرج. الشخصية واحدة، وإن اختلفت التسميتان. لا يجد وليُّ الله عناء في التنقل ما بين الجامع والزاوية. تجتذبه في الموضعين نداءات القاصدين، ودعواتهم بالشفاعة والنصفة والمدد. اجتمع عليه الناس، وكثر تلامذته ومريده.

رُوي عنه الكثير من الأحوال والمعارف والأسرار والبركات والمكاشفات والأنوار والفيوضات والفتوحات والأنفاس الصادقة.

كان يكفيه الطعام القليل ليشعر بالشبع، ويسمع الهواتف من السماء، وتطوى له الأرض، ويخاطب ناسًا لا يراهم مريده، يسألهم، ويُجيب عن أسئلتهم، يخوضون أحاديث الفقه والشريعة. وكان يحرك الرياح والعواصف، ويمنع تأثير النوات، ويخضع مخلوقات البحر وحيوانات البر المفترسة، ويعرف لغة الحيوان والطير والأسماك والزواحف والنبات والشجر. ويُجيد السيطرة على الأرواح والأطياف والأشباح، يحدثها، يتلقى منها الأسرار، تدلُّه على ما هو غامض، وعلى المستقبل. يأمرها فتطيع. وكان يظهر له — في مجلسه — كرامات ظاهرة. يطلع على الخواطر. يكشف الزائر بما يُضمره في نفسه، أو بما يريد التحدث فيه، ويعلم المغيبات والحوادث قبل ظهورها. يخدم الفقراء والغرباء، ويقضي حوائجهم، ويمسّد رأس المريض بيده التي لا تُرى، فيزول المرض، ويقوم المرء، كأن لم يكن به شيء. وكان يستطيع أن يرى ما في الجهات الأربعة، دون أن يُدير رأسه. يُبصر في أشد الأماكن ظلمة، ويطوي المسافات، ويكون موجودًا في أكثر من مكان، في وقت واحد.

اشتهر ذكره، وعلو قدره. أحاط به الزهاد وأرباب القلوب والمجاهدات. عند وفاته، حدث تغير في الشمس. التفت بظلمة تُشبه الكسوف. صار له ضريح مشهور، مقصود بالزيارة، وقضاء الحوائج. تفوح من داخله — دومًا — رائحة المسك

الأذفر. لا شأن لموته بقضاء حاجات الناس. سرُّه باتع، فيلجأ إليه الناس لقضاء الحاجات والنصفة والمدد.

شهد القريبون من المقام — في صلاة الجمعة — أن قارئ الجامع أخطأ في آية من سورة الكهف. ردّه وليُّ الله من داخل الضريح بصوت سمعه القارئ، فأعاد تلاوة الآية. استند زكي أبو الوفا، الطالب بالمعهد الديني، إلى مقام سيدي عبد الرحمن. استبدل قراءة كتاب — لا تصح قراءته في الجامع — بكتاب صحيح البخاري. فاجأته قبضةٌ يد تهصر أسفل بطنه، وصوتٌ يتناهى من داخل المقام: أما تخشى الله؟!

بالإضافة إلى علم الحديث، فقد شغل عبد الرحمن بن هرمز بقراءة القرآن ودراسته. وكان الناس يلجئون إليه للقراءة عليه، ويعهدون إليه بكتابة المصاحف. وعُنِيَ بأنساب العرب، حتى وصفه السيرافي بأنه أعلم الناس بأنساب قريش، وهو أول من وضع علم العربية والنحو. قال لهيعة عن أبي النضر: كان الأعرج أول من وضع العربية. وقال القفطي — نقلاً عن سماهم أهل العلم — إن الأعرج أول من وضع علم العربية. السبب في هذا القول أنه أخذ عن أبي الأسود الدؤلي، وهو أول من أظهره، وتكلم فيه بالمدينة، وكان من أعلم الناس بالنحو. وقال ابن قاضي شهبه: وهو أول من وضع النحو في قول. جعل ابن هرمز للنحو أبواباً، وأصله، وذكر عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم، ووضع باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف. تتلمذ عليه الإمام مالك. صاحبه، ولازمه — وحده — أعواماً طويلة.

أجاد معرفة علم الحديث وطُرُقَه ورواياته، وعلوم الفقه، والفتاوى، والتفسير، والבלغة، والمعنى، والبيان، والمنطق، والطبقات، والتصوف، والخطابة، والقضاء، والشورى، والطب، وعلم اللغة، والآداب، والشعر، والكتابة، والجهاد، والرياسة، والولاية.

قال القفطي في «إنباه الرواة»: «يُروى أن مالك بن أنس، إمام دار الهجرة — رضي الله عنه — اختلف إلى عبد الرحمن بن هرمز عدة سنين، في علم لم يبته في الناس؛ فمنهم من قال: تردّد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما. وقيل: كان ذلك في علم أصول الدين، وما يردُّ به مقالة أهل الزيغ والضلالة.»

لم يكن ابن هرمز يُفتي بغير ما يعلم. وإذا لم يكن يعرف، فإنه يقول: لا أدري. ويرفض أن يُروى عنه، فيرد الخطأ، ويعاني الاتهام بالكذب.

قال الإمام مالك: «سمعت عبد الرحمن بن هرمز يقول: ينبغي أن يورث العالم جلساءه قول: لا أدري، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه. فإذا سئل أحدهم عمّا لا يدري، قال: لا أدري.»

ظل مالك — إفادةً من أستاذه — يقول في معظم ما يُسأل عنه: «لا أدري.»  
أحبّ عبد الرحمن مدينته — المدينة المنورة — لم يغادرها إلا مرة واحدة، زار فيها الشام بين عامي ١٠١هـ و ١٠٥هـ. وكانت رحلته الثانية — والأخيرة — إلى الإسكندرية.  
قال البلاذري في «فتوح البلدان»: «... وحدثني محمد بن سعد، عن الوفدي، أن ابن هرمز الأعرج القارئ كان يقول: «خير سواحلكم رباطاً الإسكندرية. فخرج إليها من المدينة مرابطاً، فمات بها في سنة ١١٧هـ.» كان في حوالي المائة من العمر. أمضى أعوامه السكندرية في التدريس ورواية الحديث. كانت الإسكندرية مدينةً جذب لأعداد هائلة من علماء المسلمين، تكوّنت بهم مدرسة الإسكندرية في علوم القرآن والحديث والفقه واللغة. امتدّت إقامته بالإسكندرية خمس سنوات، حتى أدركه الأجل.

روى الشيخ محمد البنا — أحد علماء الإسكندرية في القرن التاسع عشر — أنه كان دائم السّير في شارع رأس التين، في طريقه إلى سراي رأس التين، لزيارة الخديو إسماعيل. ذات ليلة، رأى — فيما يرى النائم — أن وليّ الله يُعاتبه: كيف تمر بقبري ولا تُحييني؟

سأل الشيخ البنا: ومَن أنت؟

— أنا عبد الرحمن بن هرمز.

قصّ الشيخ البنا رؤيته المنامية على أصدقائه، ومنهم الشيخ درويش أبو سن. تبرع أبو سن لبناء جامع ضمّ ضريح ولي الله. نسب الجامع والضريح إلى عبد الرحمن بن هرمز، وأوصى أن يُدفن إلى جواره بعد وفاته.

قال علي مبارك: «مسجد أبي سن أصل أرضه مقبرة، بها ضريح الشيخ عبد الرحمن بن هرمز. وكان عليه مقصورة من خشب. فلما بُني ما حوله، ودخل في تنظيم المدينة، بُني ذلك المسجد، وجُعل داخله ضريح الشيخ المذكور، والذي بناه المرحوم درويش أبو سن، وهو مسجد تام المرافق، حسن المنظر، مُقام الشعائر، ويُصرف عليه من الوقف.»

انظر: خليل الفحام، ضياء خير الله.



## عبد الستار

هو الشيخ عبد الستار منوفي، إمام جامع سيدي علي تميز. من بلدة بركة غطاس القريبة من (أبي حمص). لم تُبعده عالمية الأزهر عن قراءة ما لم يُتَح له قراءته: السياسة والتاريخ المعاصر والفلسفة والاجتماع وعلم النفس وعلم الجمال. داخله شعورٌ بأن ما حصَّله في الأزهر يخص مهنته، مثلما تخص دراسة الطبيب أو المهندس أو المحامي مهنته. يضيف إلى معرفته ما يجب على المرء أن يُواجه به ظروف حياته. يستعيد في شوارع السبالة والأنفوشي ورأس التين أعوام دراسته في الأزهر. وجه الحياة يختلف، لكن العادات والتقاليد على حالها.

صار فقيهاً في أحوال الناس، ومشكلاتهم، في أمور الدنيا والدين، يؤزره فقهه في الشرع، وتدقيقه في ترتيب الأحكام، وحدود الدين، وتمييز الناسخ من المنسوخ، والخاص من العام، بالكتاب والسنة والإجماع والقياس. يروي الأحاديث بأسانيدها، يُخرِّجها من مصادرها المعروفة. «لا بد للناس أن يتقوا في تدبُّن الإمام، قبل أن يُنصتوا لعظاته».

استبدل بسورة الكهف — قبل صلاة الجمعة — ما يختاره القارئ من طوال السور وقصارها. كلها سور القرآن وآياته، لا مناسبة بموعد لقراءتها.

لم يكن يخرج — في خطبه — عن حدِّ الاعتدال. يحرص أن يكون قريباً من الأذان والقلوب. يلجأ إلى أبسط العبارات في النصيح والتذكير، والإلحاح على الفوائد الطريفة، والنوادر، والنكات، والحكايات، والجِكم. يُكثر من الاستشهاد بآيات القرآن، وأحاديث الرسول، والمواعظ، والعبر. يُجيد اجتذاب المصلين بقدرة بلاغية، تلجأ إلى السجع والجناس والكناية والتورية. يوقف الخطبة — بين فترة قصيرة وأخرى — لينصح المصلين بأن تنتبه قلوبهم لما يُحدثهم به من قصص الأنبياء والأولياء وأقوالهم. يشغله أن يستمع إليه المصلون جيداً، ويحاولون الفهم. لا تمنعه مكانته، ولا الهيبة التي تحكم تصرفاته، من

الرد على ما يُوجَّه إليه من أسئلة، مهما تبدو شائكة، أو تنطوي على سذاجة. يوافق على الأسئلة المقاطعة، يجيب، يشرح، ويوضح ما غمض. يتحدث عمَّا يراه صوابًا. يشدُّ على الإخلاص لما يستمعون إليه، ويعملون به. ربما اكتفى — إذ تغلبه الحيرة — بالقول: لا أدري. قد يؤجل الجواب حتى يعود إلى كتبه وأوراقه، ثم يعلن رأيه، أو فتواه.

يرفض كتابة الأحجية، وإن قبل مطالب المصلين بأن يدعو لهم — ولذويهم — بالصحة والستر والفلاح. ربما مسَّد على جبهة الطفل المريض، ودعا له بالشفاء. أقبل الناس على جامع علي تراز لصلاة الجمعة. خُطب الشيخ عبد الستار تختلف عن خُطب أئمة جوامع الحي. تخوض في أحاديث السياسة، تُحلل، وتناقش، وتُبدي الرأي، وتنتقد.

يفرش المصلون الحصر والسجاجيد الصغيرة وأوراق الصحف، في الساحة الواسعة أمام الجامع، تمتد إلى مسافات من الشوارع المتفرعة من الميدان. يُشدد الشيخ على المصلين بكنس مساحة الميدان والشوارع الجانبية، وغسلها بالماء. لا يفرشون الحصر إلا بعد أن يطمئنون لخلوه من النجاسة.

تحدَّث الشيخ عبد الستار عن غفلة الناس، وذهابهم في النوم. قال إن الأمر ازداد شدة، وزادت الدنيا إديارًا، والناس شحًا. تقاربَ الزمان، ظهرت الفتن، كثرَ الهرج، قبض العلم. ظهر الجهل، فشا الزنا، أذان أرباب البدع، وأصحاب الآفات الباطنة، والظلمة، والمجاهرين بالمعاصي. قال إن الساعة لا تقوم إلا على شرِّ الناس. دعا إلى ترك المعاصي والذنوب، وإلى اليقظة وعدم الغفلة، وعدم إغفال الأمور، وإقامة الشعائر على وجهها الصحيح، والتمسُّك بأحكام القرآن والسنة، وتطبيق حدِّ الله بما يُرضي الشريعة، والوقوف عند تعاليمها، وعلى ترتيب الخيرات، وتقليل المكوس، وإبطال المظالم، وتخصيص الرواتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين. شدَّد على حظر الرشوة، والمعاقبة عليها، ومنعَ المحتسبة وكبارَ الموظفين من أخذ الرشوات. وشدَّد على قضاء حوائج القاصدين والسائلين.

دعا المصلين أن يقصروا ذكرَ الله على القلوب، لا تعلقوا به الأصوات. هدَّد بعقاب السماء من يدخل المسجد فيوسخ حصيره، أو الجنب، أو المرأة الحائض، وحدَّر من أن يُعاني المصلون بين يدي ربهم، ما ينشأ بين المتقاضين من اللغظ والشجار، وعبارات السب والشتم. وأغرى بشرء المصاحف والكتب، والحرص على صلاة الجمعة، وطالب المصلين بأن يصلوا الفجر — حاضرًا — كل يوم، في الجامع.



ألف كتاباً في الفقه. وزع نُسخَه — هبةً — على طلبة المعهد الديني، وعلى مَنْ يطلبه من المصلين. وزَّع وقته — فيما بعد — بين إلقاء الدروس في الجامع، وبين تصنيف الكتب التي تشرح تعاليم الدين، وتتناول قضايا التفسير والفقه.

عُنِيَ باستقامة الظاهر والباطن، فلا يختفي الحقد والوسخ وراء الواجهة الجميلة. اتق الله في كل أقواله وأفعاله، فهو لا يعمل شيئاً إلا بعد وزنه بميزان العدل، وعرضه على قواعد الشريعة المطهرة.

عاب على النساء مساحيق الوجه، وطلاء الأظافر، وانزلاق الشعر — ولو في هيئة خصلة صغيرة — خارج الحجاب.

رفض ممارسات سيسبان كودية الزار. سمَّاهما وسيطة الجان. اتهمها بأنها تبتزُّ أموال الناس.

الإنس هو الذي صنع قدرات الجان. أطال التحدث فيها حتى صدَّقها، وداخله الخوف منها.

أجاز للست صبيحة الداخني أن تؤمَّ النساء. شرط أن تقف في الوسط، وليس في الأمام، إن لم يكن ثمة إمام رجل. لم يرفض نزول ابتهاج المنسي إلى العمل، وإن رفض عملها في الحلقة. اعتبرها متبرجة، لأنها لم تكن ترتدي الحجاب، وتجالس الرجال كأنها تنتمي إليهم. زاد، فاتهم ورعها البادي بأنه قد يُخفي سلوكاً معيباً في حياتها الخاصة. عُرف عنه أنه إذا أمَّ المصلين في صلاة الجنازة، فلأن الحدس يُخبره بأفعال الميت، وأنها أميل إلى الخير. أما إذا اعتذر عن إمامة المصلين، فلأن الحدس يُنبئه بما ارتكبه الميت — في حياته — من أفعال الشر.

أظهر غضبه مما رواه أنجلو سبيرو، أن روح الإسكندر دلَّته على مكان قبره، وأنه يقع تحت ضريح سيدي الأنفوشي، داخل قلعة قايتباي.

هل نهدم ضريح وليِّ الله المسلم لبحث — غير مؤكد النتيجة — عن قبر أجنبي كافر؟!!

لما طرقت الألمان أبواب العلمين، فاجأ الشيخ عبد الستار المصلين بحُطَب بها كلمات مثل: الجهاد، الفتح، الرق، الجزية، الردة، موالاتة غير المسلمين.

وحين تحدَّث خليل الفحام عن دحر السوفييت للألمان في ستالينجراد، اتهمه عبد الستار بأنه يدعو إلى ما يخالف الشريعة الإسلامية. هو في حكم الطوائف الملحدة التي تستحق الإلقاء في النار. حتى لو لم يكن يؤمن بما يدعو إليه الملاحدة، فإن فرحته

بانتصارهم يحمل موافقتهم على ما يدعون إليه. ولما أزيح الستار — في مارس ١٩٤٥ م — عن تمثال الخديو إسماعيل بالمنشية، أدان الشيخ ما حدث. التمثال تجسيد للإنسان. الإسلام يرفض التجسيد، ويقبل بالتجريد والزخرفة التي لا تُحاكي خلق الله. ظل الشيخ عبد الستار على يقينه بأن الخلاص في ضرورة الرجوع إلى الله، والمحافظة على حدوده، والابتعاد عمَّا نهى عنه.

دعا إلى مجانية البدع، وأتباع ما أجمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام، والتباعد عن مجالس اللغو والذم والنميمة، ولزوم طريق الاقتداء بنصوص القرآن والسنة، في الأوامر والنواهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

عاب على خلفاء أولياء الله وخذَّام مقاماتهم، أنهم يحصلون على الصدقات والندور، يقسمونها بين أنفسهم، يحرمون منها فقراء المسلمين. اتَّهم مريدي الشيخ إبراهيم سيد أحمد أنهم يعيشون على حساب سمعة الرجل، يجنون ثمار ما يدعو إليه. يُظهِرونه في صورة مَنْ يقدر على فعل كل شيء، فلا غمَّة يعجز عن مواجهتها، ولا مشكلة يضعف عن التخلص منها.

الولي — في يقين عبد الستار — مَنْ يُؤَيِّد بالكرامات، وَيُغَيِّب عن البدع. قال: لا كهنوت في الإسلام. تحدَّث عن غياب الصوفية من حياة الرسول، ومن حياة الصحابة والتابعين. اتهم الصوفية بأنهم يُفسدون على الناس عقيدتهم، يُوقعونهم في حبال الكفر. وقال: إن أقطاب الصوفية بشرٌّ، يجب ألا تُضفى عليهم وصاية ما. وقال: إن أولياء الله — مثل سيدي علي ترماز — لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقال: إن متصوفة هذه الأيام خرجوا عن مقصد التصوف. هدف التصوف طاعة الله، وخشيته، والفناء فيه. لا موضع للدنيويات بين المتصوفة. رفض ما يلجأ إليه أتباع الطرق الصوفية من الجلوة، والرايات، والأعلام، وإيقاعات الطبول والدفوف، وأفعال الحواة، وابتلاع النار، وطعن الأجساد بالسكاكين، وازدراء الأفاعي والحيات، واللجوء لغير الله.

حين يسري لغطُّ أو همهمات في صحن الجامع — عقب تلاوة القرآن، ورفع أذان الجمعة — يضرب الشيخ عبد الستار بعصاه أرضية المنبر، ويقول في صوت يخالطه ضيق: إذا ظهرت الأصوات في المساجد، فهذا دليل شؤم! نقل إليه شوقي أبو سليمان عتاب البكباشي حمدي درويش بأنه يجانبه، ويعرض عنه، دون سبب مفهوم.

اصطنع الشيخ ابتسامة متوددة: إذا أراد سعادة البكباشي وعظي، فأهلاً به!

ثم وهو يمسد لحيته القصيرة: لهذا أنا في الجامع. تحدّث عن العدل الاجتماعي في آيات القرآن، وأحاديث الرسول، وأقوال الخلفاء والصحابة وتصرفاتهم، وكتابات العلماء والمفكرين. استعاد إيقاف الخليفة عمر بن الخطاب — في عام الرمادة — حدّ السرقة. قال إن الشريعة حقوق قبل أن تكون حدوداً، الحق هو الأصل، والحد تابع له، أو مترتب عليه. وقال إن جرائم الفقراء تختفي إذا وجدوا عملاً صالحاً. وقال: مصر الآن دار حرب، يجب الجهاد كي تُصبح دار سلام. عاب على الناس أنهم باعوا الدنيا بالدين، وتركوا الحلال وأتوا الحرام. أدان أهل النميمة والسُّحت والحرام والإتاوة، والجائرين في أحكامهم، والذين يعجبون بما يفعلون، والساعين إلى الناس بالسلطان، وأهل الكبر والفخر والخيلاء والجور، ومَن يمنعون حقَّ الله تعالى من أموالهم، والزناة واللوطية والكاذبين، ومَن تقتصر حياتهم على إرضاء الشهوات واللذات. ومَن أماتوا الصلاة، واستحلُّوا الكذب، وعطّلوا الحدود، وأضاعوا الأمانة ومصالح الناس.

أخذ على الناس تعطلُّ الأحكام، وضياع الحق، وعظُم البلاء، وانتشار الفوضى، وخمول أهل العلم، واختفاء الأمانة، وذواء الإيمان من القلوب، وفساد نظام الخلق، وقلة الصالحين، واستيلاء الباطل على الأمور، وتحكُّم في الأجساد والأموال والأعراض، وغياب أكثر الحقوق.

اتهم الحكام — لم يسمِّهم — بالإسراف في الجور والظلم وتطميس الحق. تحدّث عن فساد الحاشية والوزراء، وعن جلساء السلطان، يُمالئونه، ويتملّقونه. يُزيّنون له ما ينهَى الله عنه، ويسهّلون له ارتكاب الشر. اتهمهم بأنهم يُؤوّلون الأحداث تأويلًا يلائم مصالحهم، وما يتطلعون إليه، ويشغلهم أداؤه.

رفض استعادة الشيخ خلف فرحات إمام أبي العباس — في حضرة الملك فاروق — قولَ الشعراني إن الله تعالى أخذ على الناس العهود أن يقوموا لحكّامهم، إن وردوا عليهم، وتقبيل أيديهم، ولو جاروا.

يلقى الأشرار جزاءهم في النار، ويجد الأخيار خلودهم في الجنة، مع الأنبياء والأولياء والقديسين والشهداء، وحسن أولئك رفيقاً.

نال الشيخ عبد الستار — فيما يُشبه المفاجأة — من الملك فاروق بما لا يحتمل. قال: أنا أخطب لأدعو إلى الله. من واجبي أن أتهم مَن يحكموننا بأنهم لا يعرفون الله. وقال: إن الحاكم الذي يظلم ويُفسد يُقام عليه حدُّ ربّه، ومَن يُحسن فله الجزاء الكريم، يدخل نعيم الجنة، فلا يتحيفه اليأس، ويخلد لا يموت، يتجدد شبابه، لا يبلى ما يرتديه.

عاب على الملك ضعفه في محاسبة حاشيته. يسمع ويرى، لكنه يتغاضى، أو ينتحل المعاذير. استغلوا سلطانه، فامتدت أيديهم إلى ما ليس من حقهم. فرضوا الرشا والهدايا على تلبية الاحتياجات، وتقلد المناصب، واغتنام المكاسب، والفرار من تنفيذ الأحكام. يعد الملك بالمحاسبة، ويرد حاشيته عما يفعلون، لكن الوعد يظل في دائرة مغلقة.

تبدل صوته فبدا كالحشرجة: لا أدين بالولاء للملك! ولائي لله!

عاب على الناس فقد الغضب لأمر الله في أن تنتهك فرائضه وحرماته. حذرهم من أن يعمهم الله بعقابه.

قال: «الله رجال لا تبلغ تيجان ملوك الأرض أن تكون لأقدامهم الحانية نعلاً، ذلك مقامهم عند ربهم.»

اتجه إلى المصلين بنظرة تطق شرراً: من رأى الظالم، ولم يأخذ على يديه، أوشك أن يعمه الله بعقاب من عنده.

نفى الشيخ أن يكون قد لجأ إلى مقام سيدي علي تمتاز. يوافق ولي الله على ما ينبغي، وما لا ينبغي، أن يضمته خطبه. نحن نلجأ إلى الله في كل أمورنا، ولا نلجأ إلى عبده. لأولياء الله مكانتهم وتوقيرهم، القرآن والسنة وشفاعة الرسول تضع كل ما عداها خارج المعنى الذي نطلبه.

حرّض البكباشي حمدي درويش خدم الجامع. رفعوا عريضة — دون توقيع — إلى إدارة المساجد بديوان عام وزارة الأوقاف. نسبوا إلى الشيخ عبد الستار قوله إن صندوق النذور يساوي بيت المال في فجر الإسلام وضحاها وظُهره، أمواله أحقُّ بها الفقراء. وزّع حصيلة صندوق النذور على فقراء المسلمين. من يقصدون مقام الولي لحاجة يلتمسون تحقيقها.

تحدّث التقارير التي رفعها البكباشي حمدي درويش إلى مقام الملك، عن استقبال الشيخ عبد الستار لرجال من داخل بحري وخارجه، في أوقات لا يُرفع فيها الأذان، ولا تُقام الصلوات، ولا تُلقى الدروس الدينية. أكثر تلك الأوقات قبل رفع أذان الفجر، أو بعد الصلاة. يدخل الرجال الجامع في حذر كالتسللين. يغادرونه بالكيفية نفسها. دس — في اللقاءات المخفية — من نقل إليه همسات، وأسئلة، وعبارات محرّضة.

لما حدّد الملك موعداً لأداء صلاة الجمعة في جامع علي تمتاز. لزم الشيخ عبد الستار بيته، بحجة المرض. فطن إلى أن الملك يريد أن يستميله بمنحه وعطاياه.

قال له خليل الفحام وهو يعود: لعلك أول إمام يُقعده مرض سياسي!

ترصد لقتل الشيخ — بأمر من الملك — حبشي عبد السميع المخبر بقسم الجمرك. ظلت يدُ المخبر عالقةً بالمسدس، وظل واقفًا في مكانه، لا يستطيع التحرك. لما أمسك به المارة، أرجع ما كان ينوي فعله إلى البكباشي حمدي درويش مأمور القسم، هو الذي نقل إليه أمر الملك.

قال الشيخ للمخبر بلهجة مشفقة: لماذا؟

— نفذت التعليمات.

أردف في نبرة متذلة: أوامر سيادة البكباشي.

— البكباشي يؤذيك، كما يؤذي أهل بحري ... لماذا وافقتَه؟

— هذا عملي.

— هل ترى أنني أستحق القتل؟

— لا!

— ألا تعرف أن قتل البريء يؤدي بالفعل إلى جهنم؟

— أعرف.

— لماذا إذن فعلت ما فعلت؟

عرا الرجل تلعثم، فظل صامتًا.

أدرك الشيخ عبد الستار أن بركة ولي الله علي تمرّاز أنقذته من الموت.

حين صدر قرار من وزارة الأوقاف بعزله من منصبه، لم يلزم الشيخ بيته، ولا عاد إلى بلده بردلة. ظل — عرفانًا بالجميل — محسوبًا ومريدًا لولي الله، يؤدي — في جامعه — الصلوات الخمس، ويخلو إلى نفسه، ويتأمل.

يغادر الجامع في أوقات تناوله طعامه ودوائه. يعبر الميدان إلى حيث يقيم في الطابق الثاني من البيت المواجه. ربما أغفى وقتًا قصيرًا، ثم يعبر الميدان إلى الجامع. يظل فيه إلى ما بعد صلاة العشاء.

ظلت تلك صورة أيامه، حتى لحقه الأجل.

انظر: إبراهيم سيد أحمد، ابتهاج المنسي، الإسكندر، حمدي درويش، خليل الفحام، سيسبان، شوقي أبو سليمان، فاروق الأول.



## عبد اللطيف النشار

تردّد ضياء خير الله على مجلس عبد اللطيف النشار في بار البوستة، قال النشار — بلهجة معتذرة — وهو يصبُّ من الزجاجة في الكوب الصغير: هذه نصيحة الأطباء، كأس أو كأسان من النبيذ لتوسيع الشرايين!

ثم في نبرة معتذرة: حياتنا ومضة ... علينا أن نُمضيها في الشُّرب وكتابة القصائد! قصده ليناقله فيما يقرأ، ويوضِّح له ما لم يفهمه.  
قال حجازي أيوب: عبد اللطيف النشار كموج البحر، يثور بلا توقع، ويسكن بلا توقع.

افتّر فم ضياء عن ابتسامه: أنا أعرف مواعيد النوات.  
— نوات النشار بلا مواعيد، إنها حالة مزاجية.  
النشار — من كلمات عم حجازي — شخصية محيرة. يبدو لطيفاً، ودوداً، يأخذ ويُعطي، يُظهر مشاعر طيبة. ثم تنتابه — فجأة — نوبة من الانفعال، يعلو بها صوته، ويقذف بكلمات لا يتدبرها.

كان النشار يحيا على ماضٍ شعريّ عريق. وكان هو الوجه الأدبي الأول في الإسكندرية. معظم «الأسماء» هاجرت إلى القاهرة، أو إلى خارج مصر. خلّت الساحة إلا من بضعة أسماء ذات قيمة فعلية.

بدا له — بتوالي لقاءاتهما — المثقف الوحيد في العالم. نهل من اطلاعه الواسع في الثقافات الأجنبية. نبّهه إلى أدباء روسيا القيصرية: بوشكين وجوجل وتولستوي وتورجنيف وتشخوف. أظهر رفضه لأدب ما بعد الثورة البلشفية. إنه أدب زعيق، لا قيمة له.

كان مدمناً للقراءة. قد يخلو إلى قراءة كتاب في بار البوستة القديمة، وقد يحمل بضعة كتب أثناء سيره في الطريق. وكان يبذل المعلومة ببساطة، لا يتعالى على محدّثه، إنما هي عبارات بسيطة، هادئة، تقدّم المعلومة، لا يأخذ سمّت المحاضر أو الأستاذ، لا يسأل وينتظر الإجابة، فإن عجز محدّثه عن الإجابة، أملاها عليه بتعالٍ واضح. قرأ عليه النشار من قصيدة له:

ظمئي إلى العرفان لا يروى أنزفت ماء الفكر من بحر الكتب  
أنا مثل فاوست ولكن لم أبع روحي ولم أفتن بمعسول الكذب

كان يُجيد الترجمة عن الإنجليزية. لكنه لم يحب قصائد كفافيس، ذلك الشاذ على حدّ تعبيره، ولا رباعية داريل التي عُنيّت — في تقديره — بإسكندرية الخواجات، ولا كتابات فورستر التي تتحدث عن الماضي الأوروبي. لم تكن تُعجبه كتابات الأدباء السكندريين. في رأيه أنها تخلو من التجربة، الأدب بلا تجربة، بلا تعرّف وملامسة، أدب بلا قيمة. يغيظه العمل الذي يخلو من المعنى، أو تغيب عنه الدلالة. يحب النص الذي يحتوي على ما لا نهاية له من إمكانيات المعنى.

أحب الفنان في قراءات الرجل وقصائده وآرائه، وإن أضمر الاستياء لتصرفاته، تصرفات غير مسئولة، لا تُلقَى بالألّ شيء، لا يشغلها مشاعرُ الآخرين، ولا ردود أفعالهم. قدّم له قصته الأولى. توليفة من قراءات في قصص عربية وأجنبية. اكتفي النشار بقراءة الأسطر الأولى من القصة. قال: هل هذه قصتك الأولى؟ — هي القصة التي تشجعتُ لأعرضها عليك.

فاجأه التصرف، وأغضبه. طوّح بالأوراق — متناثرة — في أرض الطريق. جرى خلف الأوراق التي زاد تناثرها بهبّات الهواء القادمة من ناحية البحر. عاد إلى الرجل بالنظرة الغاضبة: لماذا؟

ثم وهو يعاني كتم مشاعره: كنت تستطيع إعادتها لي!  
قال النشار دون أن يجاوز هدوءه: أردتُ أن أنبهك إلى شدة سذاجتها.  
عانى ضياء ارتباكاً. لم يدر كيف يتصرف: هل يأخذ أوراقه وينصرف؟ هل يأخذ الأوراق ويعود إلى جلسته ساكناً؟ هل يُظهر استياءه مما فعل الرجل؟  
قضى النشار على حيرته: هل بلّغت؟  
زوى ما بين عينيّه دلالةً عدم الفهم.



قال النشار: هل أدركك البلوغ؟  
رمقه بنظرة استياء: لا أعرف ما تتحدث عنه!  
تأمل النشار ما تبقي في قاع الزجاجاة: اكتب عما تعرفه. لا تتحدث عن بلد لم تزره،  
ولا عن تجربة تجهل معناها.

وأوماً بابتسامة متواطئة: لهذا رميت أوراقك البلهاء!  
قال ضياء: قرأت الكثير من الشعر الجاهلي. في معظمه شرف وطهر.  
وهو يُشيع بيده: تلك تجربتهم. إذا اتسعت ربما كان اختلف شعرهم.  
— أقصد عنتره وابن علقمة وعروة بن حزام وابن العجلان وعدي بن زيد.  
قاطعه: لا أنتقص من قدر أحد، لكن التجربة تفرض نفسها!  
أسقطت يده المرتجفة زجاجة الويسكي على الطاولة المعدنية. أسرع ضياء، فرفعها  
بيده.

قال النشار: إذا كانت الخمر حراماً، فلماذا وعدنا الله بها في الجنة؟!

اسمه: محمد فرحات عبد اللطيف محمد حمدي النشار. وُلد بمدينة دمياط في الثامن  
والعشرين من مايو ١٨٩٥م. وكان أبوه وجدّه شاعرين، وأغلب الظن أنه ورث موهبة  
الشعر عنهما ... لم يستكمل النشار دراسته الثانوية، رغم تفوقه فيها. اجتذبه الشعر،  
فهجر الدراسة، وعمل في وظيفة كاتب بالمحكمة الكلية، وهي الوظيفة التي كان يشغلها  
والده الشاعر محمد حمدي النشار. ظل عبد اللطيف في وظيفته بسراي الحقانية، مبنى  
المحاكم المختلطة منذ بداية جلساتها في أول فبراير ١٨٧٦م. حين أُلغيت المحاكم المختلطة،  
أصبحت مقرّاً للعديد من المحاكم والإدارات التابعة لوزارة الحقانية، العدل فيما بعد.  
وصل في وظيفته الحكومية إلى منصب رئيس قلم المطالبة بمحكمة الاستئناف، لكنه  
لم يكن يحرص على ثيابه. وكان يُهمّل قصّ أظافره، والعناية بشعره المنكوش، وذقنه  
غير الحليقة. يُضيف إلى غرابة مظهره، مقصّ كبير يُطل من جيب جاكته العلوي، يلجأ  
إليه في قص ما يريد حفظه من قصاصات الصحف.

كان يصعب عليه كتابة الشعر بين الملفات والأوراق المصلحية التي تملو مكتبه.  
تصطدم عيناه، فلا يرى حتى المترددين على الحجرة الواسعة، المطلّة على الميدان. أخلى  
المكتب من ملفات وزارة العدل. وضع — بدلاً منها — أوراقاً بيضاء، يكتب فيها بعض  
خواطره، وأبياتاً من الشعر.

ابتسم للملاحظة حجازي أيوب أنه يستطيع أن يحقق الثراء من بيع صور ما لديه من كنوز الوثائق والحجج والأوراق المهمة، باللغة العربية، أو بلغات أخرى كالتركية واليونانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية.

لما أعاد حجازي أيوب ملاحظته، قال النشار في نبرة مهونة: وظيفتي أكل عيش ... أنساها على باب المكتب.

ثم وهو يهزُّ إصبعه: الشعر هو حياتي.

لم يُظهر استياءه لقول حجازي أيوب: إذا كانت القصة الروسية قد خرجت من معطف جوجول، فإن الشعر المصري الحديث خرج من معطف إسماعيل صبري.

ورنا إليه بنظرة متأملة، لكي يرى وقَعَ كلامه في نفسه: البارودي مهَّد الطريق، ثم شيدَّ إسماعيل صبري فوقها البنائيات الجميلة.

وعلا صوته: هو أستاذ شوقي وحافظ ومطران.

وأشار بإصبعه ناحيته: وأستاذك أنت.

قال النشار دون أن يجاوز هدوءه: إذا كان الرجل أستاذًا لكبار شعراء العصر، فمن حظي الجميل أن أكون واحدًا منهم!

ميزَّ نفسه عن إسماعيل صبري بقصائده المطولة. غلب على صبري شعر المقطعات. القصيدة في بيتين أو ثلاثة أو ما يزيد قليلًا. قصائده الطوال قليلة، وإن بدا حرصه على أن يلمَّ الخيوط، قبل أن تختلط وتتشابك.

تزوج النشار من سيدة سكندرية، أنجب منها وحيدته رفيعة التي هاجرت إلى الخارج مع زوجها، بعد أعوام من حصولها على ليسانس اللغة الإنجليزية من آداب الإسكندرية.

صدر للنشار في ١٩٣١ م و ١٩٣٢ م ديوانان، هما «جنة فرعون» و«نار موسى». صدر له قبل ذلك ترجمة كاملة لرواية «كوخ العم توم». ترجم «رباعيات الخيام» شعراً، ونُشرت في مجلة «رعمسيس» ١٩١٩ م. حرص على الاحتفاظ بروح النص. ترجم ديوانه «نار موسى» وديوان «زين النساء» عن ترجمة، عن شاعرة هندية، وترجم ٢٥ رواية من بينها الأبله لديستوفسكي وليزا لتورجنيف وأنا كارنينا لتولستوي. نشر في رسالة الزيات مؤلفاً منجماً — لم يُتاح له الصدور في كتاب — بعنوان «الأغاني لأبي الفرج الإسكندراني»، يتضمن خواطر باسمه مضفرة بالمعرفة. ظلت قصائده ومقالاته التالية حبيسةً الأدراج، أو أنه اكتفى بنشرها في الصحف، ثم تكفلت ابنته — بعد وفاته — بضمِّ معظم قصائده في ديوان واحد، صدر عن هيئة الكتاب في ١٩٧٨ م.

كان النشار من خطباء ثورة ١٩، بعد أن شارك أعوام شبابه الأولى في جماعة الشلالات التي استمدت اسمها من اجتماعها عصر كل يوم بحدائق الشلالات بالإسكندرية. وكان النشار يسمي نفسه «المسئول عن إجلاء القوات الأجنبية المحتلة عن الآداب العربية المحتلة».

بالإضافة إلى عمله بسراري الحقانية، انشغل النشار بالكتابة في جريدة «وادي النيل» (بدأ صدورها في ١٩٠٨م): شقة واسعة في بيت يُطل على سوق راتب. ينعزل في جزيرة عن الأصوات المتصاعدة من السوق. يخلو إلى تأملاته وكُتُبِه وأوراقه وقلمه. يترك مقاله، ويخترق زحام السوق إلى بار البوستة.

عندما أُحيل إلى المعاش، تهيأ لمعاناة الانتظار والسأم. لن يكون الجلوس في البار استراحة ما بعد العمل في الحقانية. يجلس — عصر كل يوم — في بار البوستة. وأمامه الطاولة المعدنية الصغيرة، فوقها زجاجة الخمر والكوب وطبق المزة. قد تمتد جلسته — إن لم يجد ما يفعله — بطول النهار. القصائد التي كان يكتبها في الديوان قد يضطر لكتابتها في البيت، أو في «وادي النيل»، أو على طاولة البار، من خلال رشفات النبيذ الممزوج بالصودا.

أزعجه أن ناجي ميلاد — زميله في المكتب المجاور بسراري الحقانية — لم يُمهله الموت. اختطفه بعد شهرين من إحالته إلى المعاش.

كانت صحته مثل البمب، فماذا حدث؟

عائى هواجس المرض. الألم البسيط قد يكون نذيرًا بمرض يُنهي حياته. يتردد على المستشفى الأميري. يسلم جسده للفحوص والتحليل. يشكك في صحة التشخيص. يشدد على ما قد يحتاجه من الأدوية.

لم يكن يخاف الموت، لكنه كان يكره الفكرة. يكره أن يسكت — رغم إرادته — عن الحركة والكلام وإعلان الرأي والحب والغضب والفرح والحزن. يختزل الموت ذلك كله في سكون جامد. يدفن تحت الأرض. يغيب في الظلمة والعدم. الموت يكره الاختيار.

مال إلى التسكُّع — بلا هدف — في شوارع الإسكندرية. بار البوستة نقطة الانطلاق والعودة. يختار — في كل مشاويره — الطريق المحاذية للبحر. يميل إلى الشارع القريب من مقصده.

يغادر بيته في محرم بك — كل صباح — إلى سراي الحقانية. يهبط الدرجات الرخامية، في موعد انتهاء العمل. يمضي من ميدان المنشية إلى طريق الكورنيش، يتمشى —

متمهلاً — إلى السلسلة. يدور مع إفريز اللسان، إلى انحناءة الطريق ناحية قلعة قايتباي. ربما واصل السير إلى سراي رأس التين. يعود — من الطريق نفسه — إلى ما بعد تمثال الخديو إسماعيل. لا يفكر — حتى لو غلبه التعب — في الجلوس على أي مقهى يُصادفه. يواصل السير حتى شارع البوستة. لا يبدل جلسته، بالقرب من الباب الخارجي للبار. اطمأن إلى أن المشوار اليومي يُهيئه للإبداع. يجلس على الكرسي بالقرب من باب البار، فتواتيه القصيدة. لا يجد عناء في تسجيلها، كأن المشوار لاختزان الأبيات الشعرية.

ألف أصدقاء النشار رؤيته مخموراً، واعتادوا رائحة الخمر من فمه. وحين تعرّض لحادثة سرقة كتب قصيدة يقول فيها:

سُررت! سُررت من نشلي      وأن أستأنف الفقرا  
فعندي فوق ما يكفي      إذا لم أشرب الخمر

نظم النشار أروع قصائده، تعبيراً عن حزنه لما أصاب الإسكندرية من تأثيرات الحرب العالمية الثانية.

رفض — معظم أعوام حياته — أن يهجر الإسكندرية. اتخذ قراراً — بينه وبين نفسه — أن يظل في الإسكندرية، لا يتركها، حتى وفاته. يثق أنه يستطيع أن يحقق الكثير دون أن يغادر المدينة.

صدر قرارٌ بترقيته ونقله إلى طنطا. تكاثرت التقارير عن استقباله — في مكتبه — لشعراء وأدباء، تعلقوا أصواتهم في المناقشات، فيصعب على زملائه العمل. أشارت التقارير إلى إدمانه الخمر، فهو يفقد التركيز عند قراءة تحقيقات النيابة والأحكام.

أعلن النشار رفضه في العديد من القصائد، هجا فيها مدينة طنطا، وتهكّم على أحمد خشبة باشا وزير الحقانية الذي طلب مقابلته، ليُقنعه بقبول الترقية والنقل:

وكل ما قابل النشار، ينشره      فاحذر مقابلة النشار يا ... خشبة!

قرأ الوزير في أوراق قُدمت إليه:

طنطا ألي فيك مقر؟      أبساحة البدوي خمر؟  
في قبة البدوي لو      قلبت لنا كأس مبر

استبدل الوزير بقرار النقل إلى محكمة طنطا، قرارًا بالنقل إلى محكمة القاهرة.  
قال في قصيدة يخاطب بها تمثال إبراهيم باشا بميدان الأوبرا، ويرفض فيها تنفيذ  
قرار النقل الترقية إلى القاهرة:

تشير إلى باب الحديد بأصبع لك الأمر يا مولاي ... أرجع ثانيًا!

عاد النشار إلى الإسكندرية. قال لنظرة حجازي أيوب المستغربة: أمرني إبراهيم باشا  
بالعودة، فعدت!

قال حجازي أيوب: لن يُتاح لشعرك فرصة حقيقية إلا بالسفر إلى القاهرة.

قال النشار: أنا مثل سمك المينا الشرقية، لا يعيش إلا في مياهها!

— أنت شاعر كبير!

— إذا تركت الإسكندرية فسأصبح مجرد مواطن قاهري!

قرأ وزير العدل القصيدة بين أوراقه. أمر أن يبقى النشار في الإسكندرية.

ترك النشار الإسكندرية إلى القاهرة في أوائل الستينيات، لا للبحث عن الفرصة أو المجد  
الأدبي. ذلك آخر ما كان يشغل باله. كانت الكتابة، والشعر بخاصة، حياته. ولم يكن  
يعنيه أين ينشر كتاباته.

ظل — لأعوام طويلة قبل رحيله — يكتب في جريدة «السفير» السكندرية المحلية،  
إعلانات المحاكم مادتها الرئيسية، إلى جانب ما يزودها به — دون مقابل — بعض أدباء  
الإسكندرية وشعرائها. وكان النشار واحدًا منهم.

أقام عند ابنته الوحيدة في منشية البكري. لم يُعد لديه ما يتطلع إليه، اكتفى بذكريات  
الماضي. ثم نسي شعره كلّه، ونسي دواوينه.

نظراته الذاهلة، وارتجاف يديه، يَشيان بإسرافه في شرب السجائر واحتساء الخمر.  
أهمل تغيير ثيابه المتسخة. المقص يُطل من الجيب العلوي، والأوراق في يده بُليت، لا يبدو  
أنه يقرؤها، أو يكتب فيها. يمشي في الشوارع القريبة من بيت ابنته، أول مصر الجديدة.  
يتأمل — بالدهشة — كلّ ما تقع عليه عيناه، حتى من كان يعرفهم، يكتبي بلمعة التذكُّر  
في عينيه، ويواصل سيره.

لا أحد يدري السبب الحقيقي الذي دفع النشار للإقامة في القاهرة: هل هو وفاة زوجته، أو إحالته إلى المعاش؟ أو العيش مع وحيدته — وزوجها — قبل أن يسافرا إلى خارج البلاد؟ أو أن هناك أسباباً أخرى؟.

أيّاً كان السبب، فإن النشار استقر في القاهرة. لم يحاول التردد على المؤسسات الصحفية ولا دور النشر، وإنما كان يبعث بكل كتاباته إلى جريدة «السفير». جريدة محدودة القيمة والتوزيع، لكنه قصرَ نشرَ مقالاته — توقّف عن الإبداع الشعري في أعوامه الأخيرة — على جريدة «السفير»، كأنه حرص على الكتابة في الظلّ. خلّت حياته من الالتزام.

لا وظيفة، ولا أسرة، ولا أصدقاء دائمين. حتى ابنته صارت هي المسئولة عن المشكلات التي يواجهها. التزامه الوحيد (هو الذي اختاره، وحرص عليه) أن يكتب — بانتظام — في «السفير». يثق أنها بلا قرّاء، أو أن قرّاءها قلة. هو يريد أن يكتب، ولو لنفسه، ولو لم يقرأ مقالاته أحد.

لم تكن «السفير» تُعطي النشار مقابلاً لما يكتبه، وأهمل — من ناحيته — مجرد التلميح بالمقابل.

كره فكرة الانتظار.

وجد في الكتابة اليومية امتداداً مناسباً لحياته الوظيفية. يقرأ، يتأمل، يلاحظ، يناقش، يسأل، يُجيب. يخلو إلى أوراقه. يتوقع الموافقة أو الرفض. تحدث حالة من ردود الفعل أن تُشعره بالمشاركة.

مات النشار في القاهرة في السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٩٧٢م. كان في حوالي السابعة والسبعين.

رثى نفسه — قبل رحيله — بأبيات، عنوانها «قصيدة إلى قبر عبد اللطيف»، قال فيها:

أَتَسْمَعُ يَا عَبْدَ اللَّطِيفِ دَعَائِيَا	فَلَبَّ دَعَائِي إِنْنِي جِئْتُ دَاعِيَا
وَنَفَّضَ تَرَابَ الْقَبْرِ عَنْكَ وَحَيْثِي	فَمَا كُنْتُ خَوَانًا وَلَا كُنْتُ جَافِيَا
أَتَسْمَعُ يَا عَبْدَ اللَّطِيفِ بَكَائِيَا	عَهْدَتِكَ تَبْكِي حِينَ تُبْصِرُ بَاكِيَا
فَنَفَّضَ تَرَابَ الْقَبْرِ عَنْكَ وَعَزَّنِي	فَقَدْ كُنْتُ عِنْدَ الْحَادِثَاتِ عَزَائِيَا
وَعَدْتُ فَلَمْ تَسْمَعْ وَجَاشَتْ لَوْعَتِي	فَحَسْبِي أَنْ أَبْقَى عَلَى الْقَبْرِ جَائِيَا

هل كانت وفاته مفاجئة، أو أنه انتقل إلى الموت عبر جسر من المرض؟  
ما يذكره أصدقاؤه وزملاؤه أنه قضى حياته مثلاً للفنان البوهيمي الذي أهمل كلَّ  
المظاهر والشكليات، يحيا ما لا يتصوره الناس. إنهم يحيون ما لا يعيشه، أو يراه، أو  
يسمعه.

صرف جهده — في آخر أيامه — إلى القراءة والكتابة، والنشر في جريدة لا يقرأها  
إلا محضرو المحاكم وصغار المحامين، بحثاً عن الأحكام في قضايا المواريث والضرائب  
والتقليسات!.

انظر: إسماعيل صبري، حجازي أيوب، ضياء خير الله.





## عبد الله أبو رواش

حين قَدِمَ عبد الله أبو رواش من بني سويف إلى الإسكندرية، كانت وجهته البحر. لم يكن قد رأى — قبل سنِّ العشرين — سوى النهر. البحر صور في الصحف، وفي أفلام السينما وأحاديث المشاهدة، لكن الأمنية الوامضة تأكدت بتوالي الأيام. تاق إلى البحر، والحياة على شاطئه، وركوبه، يُتيح له ركوب البحر رؤية العالم: التنقل بين البحار السبعة، والانتقال من أرض إلى أرض، والتعرف إلى المواني والمدن البعيدة.

— البحر هو الذي دفعني لأن أهجّر بني سويف.  
ملاً حبُّ البحر نفسه.

أحبّه دون أن يراه، وتمنّى أن يعمل فيه. قرأ ما يصعب عدّه من كُتُب القدامى والمحدثين، عن ركوب البحر، ومخلوقاته، وتقلباته، ومدّه، وجزره، وامتداد آفاقه. أنصت إلى حكايات من عوالم الغرابة والدهشة. عرف أسماء قادة البحار المشهورين، وتواريخ المعارك البحرية المعروفة. حاول التصور، ما يُدرّكه وما لا يدركه. أهّلته شهادته المتوسطة ليتخرج «مساعد بحري» في القوات البحرية.

تغاضى — بحب البحر — عن قسوة التعليمات في القوات البحرية، وعن القوانين، والأوامر التي لا تُطبقها طبيعته.

ركب البحر — بعد أن رآه — للمرة الأولى في حياته.

بدا له البحر سرّاً هائلاً، يُثير في نفسه الأحلام والأخيلة والتصورات والرغبة في الاكتشاف.

عرف — دون أن تنطلق السفينة في رحلة ما — إلى دقائق أنواع السفن، وإلى فنون مهن البحر. الفرق بين البلانس والبارجة والمدمرة والفرقاطة والغواصة وكاسحة الألغام

ولنش الطورييد واللنش الصغير. عرف حتى المعلومات التي قد لا تتصل بعمله: سعة الوقود، علامات النداء، السرعة، المدى.

تنقل بين الوحدات الإدارية ومراكز العمليات والإشارة ومراكز التدريب والمخازن والورش والإدارات التخصصية. عُني بأحوال البحر. وظيفته الإدارية في مكتب اللواء سليمان عزت قائد البحرية، لم تُتَح له السفر بعيدًا عن الإسكندرية، لكنه قرأ كتب الرحلات، وكتب الجغرافيا العربية.

طال جلوسه — في مقاهي بحري — وقت العصر، إلى بدوي الحريري. يروي له أحوال البحر، والصيادين، والنوات، وعروس البحر، والمارد، والمخلوقات التي تخضع لأوامرها.

أنصت إلى حكايات البحارة، ما صدقه، وما أسقط تصديقه، عن الموانئ البعيدة، والمدن، والفنارات، ورسائل التحذيرات والاستغاثة، والصحة، وحكايات الحب، واللذة المختلصة، والأركان المظلمة، ودوار البحر، وجنية البحر ذات الجسد الأنثوي والذيل السمكي، والخوف، والتحدي، ومواجهة المجهول، والشوق إلى البر في ركوب البحر، والشوق إلى البحر في العودة إلى البر.

في داخله حنينٌ دائمٌ إلى البحر، يستعيده حيثما يذهب. المينا الشرقية: لسان السلسلة والبلانسات ومرسى القوارب وقلعة قايتباي ومعهد الأحياء المائية ونقطة الأنفوشي والخليج وامتزاج روائح الملح واليود والطحالب والأعشاب. المينا الغربية: البحارة وعمال الشحن والتفريغ والبواخر الضخمة واليخوت واللنشات والدناجل والفلايك ومزالق السفن والأوناش الهائلة والرافعات والحاويات الخشبية والحديدية وبلوطات الخشب وشون الغلال وבלات القطن ورصيف الفحم وأرصفت الشحن.

يتخيل وقفته في سطح السفينة. يتأمل ابتعادها عن الرصيف، ودخولها البوغان، وخروجها إلى عرض البحر.

يشغله السؤال: ماذا بعد أفق البحر؟

لم يكن يعرف عن السفر ما يُعِينه على التوقُّع، وإن عاش أمنية الرحيل إلى المدن البعيدة. لا صورة واضحة لها ارتسمت في مخيلته، هي صور مختلطة، ومتشابكة، لموانئ وميادين وشوارع وأبراج ومقاهٍ وأرصفت ومخازن وحاويات ورافعات وأبراج بواخر، ومداخن، وحاجز الحديدي يحيط بطوابقه الباخرة، والبحارة ذوو السحن واللغات المختلفة. ربما أمضى الليل — بطوله — يفكر في البحر.

عَلِقَتْ نَفْسُهُ بِصَفَائِرِ الْبُؤَاخِرِ، وَضَوْءِ الْفَنَارَاتِ، وَالْمَوَانِي، وَالشَّوْاطِئِ، وَالْمَدْنَ الْبَعِيدَةِ.  
تَرَكَ لِخِيَالِهِ رُكُوبَ بَحَارِ الدُّنْيَا: الْبَحْرَ الْأَبْيَضَ، الْبَحْرَ الْأَحْمَرَ، الْبَحْرَ الْأَسْوَدَ، الْبَحْرَ الْمَيِّتَ،  
بَحَارَ الشَّمَالِ وَالْبَلْطِيقِ وَالْمَحِيطِ الْأَطْلَنْطِيِّ.

ظَلَّ هَوَاهُ مُضْنِيًّا، لَا يَقَاوِمُ، نَحْوَ الْبَحْرِ.

قَرَأَ فِي التَّارِيخِ الْبَحْرِيِّ، وَفِي رِحَالِ ابْنِ بَطُوْطَةَ وَابْنِ جَبْرِ وَمَارْكُوبُولُو وَالسَّنْدِبَادِ  
الْبَحْرِيِّ وَجَلِيْفِرٍ، وَعَجَائِبِ الْهِنْدِ لِبَزْرِكِ بْنِ شَهْرِيَّارٍ، وَعَنْ مَعَارِكِ الْبَحَارِ وَالْقَبَاطِنَةِ،  
وَالْقِرَاصِنَةِ ذَوِي اللَّحَى الْحَمْرَاءِ، وَالْعَصَابَاتِ الْمَفْرَدَةِ فَوْقَ الْعَيْنِ.

فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَبْنَى قِيَادَةِ الْبَحْرِيَّةِ، الْمَلَاصِقِ لِسَرَايِ رَأْسِ التِّينِ، يُبْطِئُ خَطْوَاتِهِ أَمَامَ  
قَصْرِ أُمِّ الْبَحْرِيَّةِ. الْبَابُ مَغْلُوقٌ، وَالسَّتَائِرُ مَسْدَلَةٌ عَلَى النُّوَاظِدِ. الصَّمْتُ السَّادِرُ لَا يَبْثِي  
بِحَرَكَةٍ، وَلَا أَثَرَ لِلْحَيَاةِ دَاخِلَ الْقَصْرِ. حَتَّى الْحَارِسِ النَّوْبِيِّ، ذِي الْقَفْطَانِ الْأَسْوَدِ، وَالْحَزَامِ  
الْأَحْمَرِ، وَالْخُفِّ الْمَغْرِبِيِّ، كَأَنَّهُ يَغَالِبُ النَّوْمَ، وَأَنَّهُ يَنْتَمِي إِلَى عَالَمٍ آخَرَ.

يُدْرِكُ حُبَّهَا لِلْبَحْرِ، مِثْلَهُ تَمَامًا. تَفْتَرِقُ عَنْهُ فِي أَنَّهَا تَمَلِكُ مَا يُتِيحُ لَهَا السَّفَرَ إِلَى الْمَدَنِ  
الَّتِي تَحِبُّهَا.

يَتَسَلَّلُ أَبُو رَوَاشٍ — بِتَصَوُّرَاتِ قِرَاءَاتِهِ — إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ. يُنْصِتُ إِلَى حِكَايَاتِهَا عَنْ  
حَسَنِ بَاشَا الْإِسْكَندَرَانِيِّ، وَمَعَارِكِ الْبَحَارِ، وَالْقِرَاصِنَةِ الْقَدَامِيِّ.

يَلْتَقِي مَعَ زَمَلَاءِ الْعَمَلِ عَلَى رَصِيفِ اللَّشَّاتِ، فِي الثَّامِنَةِ تَمَامًا مِنْ كُلِّ صَبَاحٍ. تَنْقَلِبُهُمْ  
لِنَشَاتِ الْخِدْمَةِ إِلَى السَّفَنِ الرَّاسِيَةِ دَاخِلَ الْمِينَاءِ. يَصْعَدُ السَّلَامُ الضِّيْقَةَ، ذَاتِ الدَّرَجَاتِ  
الْحَدِيدِيَّةِ، حَتَّى يَصِلَ سَطْحَ الْبَاخِرَةِ. تَتَرَاقَصُ عَلَى الْمِيَاهِ ظِلَالُ السَّفَنِ الْهَائِلَةِ، الرَّاسِيَةِ.  
يَصْطَخِبُ — عَلَى امْتِدَادِ ٨٦ رَصِيفًا — زِحَامُ الْعَمَالِ وَالْمُوظَّفِينَ وَالرَّافِعَاتِ وَالْأُونَاشِ  
وَالْكَسَارَاتِ وَالرَّافِعَاتِ الْهَيْدْرُولِيكِيَّةِ وَالْمَوْلِدَاتِ الْكَهْرِبَائِيَّةِ وَأَبْرَاجِ الْإِضَاءَةِ وَالْحَاوِيَّاتِ  
وَالْمَخَازِنِ وَالْمَسْتَوْدَعَاتِ وَالشُّونِ وَالصَّنَادِيْقِ وَالْأَجُولَةَ وَالْبَالَاتِ وَعَرَبَاتِ النُّقْلِ وَالشَّاحِنَاتِ  
الْقَلَابَةِ وَنِدَاءَاتِ الْحَمَالِينِ، وَعِشْرَاتِ الْعَصَافِرِ تَعْلُو صُوصَوَاتِهَا وَهِيَ تَنْقُرُ أَجُولَةَ الْقَمْحِ  
الْمَكُومَةِ فِي بَلُوطَاتِ عَلَى الْأَرْصَفَةِ.

وَجَدَ فِي الْقُرْبِ مِنَ الْمِينَاءِ وَالسَّفَنِ وَالْأَفْقِ وَالْأَمْوَاجِ، طَمَأْنِينَةً يَسْتَكِينُ إِلَيْهَا.

— الْإِسْكَندَرِيَّةُ لَيْسَتْ مَجْرَدَ مَصِيفٍ. إِنَّهَا — كَمَدِينَةٍ — أَقْدَمُ مِنَ الْقَاهِرَةِ.

يَكْرَهُ الْإِسْكَندَرِيَّةَ الصَّيْفِ. يَحِبُّ الْإِسْكَندَرِيَّةَ الشِّتَاءِ. السَّحْبُ الْمَتَكَافِئَةُ حَتَّى نَهَايَةِ الْأَفْقِ،  
الْبُرُودَةُ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنْ دَفءٍ، الشُّوَارِعُ الْمَلْتَفَةُ بِضَبَابِيَّةٍ. حَتَّى هَطُولِ الْمَطْرِ يَحِبُّهُ. لَا  
تَشْغَلُهُ الْقَطْرَاتُ — أَوْ حَتَّى حَبَابِ التَّلْجِ — الْمَتَسَاقِطَةُ عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَثِيَابِهِ.

— لَوْ أَنِّي وُلِدْتُ فِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ، رُبَّمَا ظَنَنْتُ أَنَّ وِلَادَتِي فِي فُلُوكَةِ!

وأطلق ضحكة: لعليّ وُلدت في فلوكة على النيل!

كل شيء يدفعه للسفر: التحديق في أفق البحر، مجموعات البحارة من كل الجنسيات في الشوارع والميادين، حكايات العائدين من البحر، الدخول والخروج والعمل داخل الدائرة الجمركية، صفافير البواخر في المينا الغربية، الصعود إلى ظهر الباخرة، البحث عن كابينة. يتوق للحياة المفعمة بالأسرار والمغامرة، والتعرف على ما لم يسبق رؤيته. يحلم بركوب محيطات الدنيا وبحارها، يسافر إلى بلاد بعيدة، يشاهد ما يصنعه الخيال من المدن والمواني، يحنُّ إلى أماكن غائبة الملامح، ولا نهاية لآفاقها.

قال بدوي الحريري: هل تستطيع السباحة؟

– أحب الصيد ... لا يحتاج لركوب البحر.

تعلم وضع الدودة في السنارة المتدلية من قصبه الصيد. تعلم معه الانتظار والصبر، والشعور بجذبة السمكة، وما إذا كانت كبيرة أو صغيرة، أو أنها مجرد طحالب أو أعشاب.

قال: كيف تتصرف إن صادفت مشكلة؟

– سأعاني ما يُعانيه الآخرون!

كان بيته رقم ١٠ شارع الزواوي، مؤلفاً من ثلاث حجرات وصالة. قسم مساحتها. أقامت الأسرة في حجرتين. الصالة للمعيشة واستقبال الضيوف. رصّ كومات الكتب في الحجرة الثالثة المطلة على المنور. اضطر – عند امتلائها – إلى وضع بقية الكتب في بوفيه الصالة وفوقه، وفي دواب الملابس بحجرة ابنه وابنته.

تناثرت في أغلفة الكتب أسماء موباسان، وديستوفسكي، ومحمد عبده، وبايرون، وطه حسين، والعقاد، ومولير، وشكسبير، والزيات، والمازني، وصادق الرافعي، والشوقيات، وهيكل، ومظهر، وسلامة موسى، والحكيم، وإبسن، وسويفت، وتولستوي، ومصطفى عبد الرزاق، وبودلير، والغزالي، وأناطول فرانس، وبنيت الشاطي، وأبو شادي، وخالد محمد خالد.

شملت المكتبة مجلدات بالصحف والدوريات، ومخطوطات ووثائق وخرائط، وكتباً بمعارف لا حدود لها: قوانين البحار، وعلم الإنسان، والتاريخ، والجغرافيا، والجيولوجيا، وأدب الرحلات، والكيمياء، والرواية، والشعر، والطبيعة، والبيولوجيا، والمسرحية، والتشريح، والموسيقى، وفقه اللغة، والسيرة الذاتية.

لم يكن أبو رواش يمارس حياة اجتماعية من أي نوع.

يقضي معظم الوقت — بعد عودته من العمل — في القراءة والكتابة. ربما استقبل أصدقاء وتلاميذ من الشعراء والأدباء، يهبهم وقته، ونصائحه، وتشجيعه. قرأ لمحمد الصاوي روايته «كوم الدكة». قال له: أدوات الكاتب فكره ولغته، وأنت تملك الفكر، لكن اللغة قاصرة. سأحدث صاحب دار لوران عنك. اذهب إليه، ولا تُقلق كلماتي. سمى نفسه شاعر الأسطول. صدر له «وحي الطبيعة» و«اللحن الأزرق» و«شعاع خيالي».

عندما تزوج للمرة الثانية، انتظمت أسفاره إلى القاهرة — حيث تُقيم الزوجة الثانية — من بعد ظهر الخميس، إلى عصر السبت كل أسبوع، وحين أرهقه المرض، جمع بين الزوجتين في شقة شارع الزواوي.

عرضت مؤسسة السينما على قيادة القوات البحرية أن تُخرج فيلمًا عن معركة البرلس في عام ١٩٥٦م. اشترط اللواء سليمان عزت قائد القوات البحرية أن يكتب قصة الفيلم أحد ضباط البحرية. رشَّح له معاونوه المساعد البحري عبد الله أبا رواش. عرفوا بأمر مكتبته الخاصة، وقراءاته في تاريخ البحرية.

كان أبو رواش قد كتب قصيدة عمودية. لم يكن يكتب سوى الشعر العمودي. أعجبت اللواء سليمان عزت. زكَّت اختياره لأبي رواش كي يكتب قصة معركة البرلس. قال أبو رواش:

هو لا يدكُ جحافل الأعداء	هَبَّ الردى من أرضنا الخضراء
بمناقب الأبطال والشهداء	ويُردد اللحن المجيد معطرًا
ورموهمو بالبأس والضراء	من صيروها كالجحيم على العدا
بالحق لا بدعابة جوفاء	ويشيد بالنصر الذي قد أحرزوا
أن يجتلوا ليل الحمى بدماء	زحموا الوغى يوم الفداء وأقسموا
حتى أطاحوا بالعدا الجبناء	وهبوا الحياة رخيصة من أجلها
تسري إلى حيفا بلا إبطاء	يا فخر إبراهيم لما أقلعت
ردًا لذاك الغدر في سيناء	دكَّت معاقلها وكل حصونها
يُجدي صده عن صدى الأنباء	أعطت لإسرائيل درسًا قاسيًا
بزوارق الطوربيد والبأساء	وسرى نشيد الموت من شطآننا

مثل العواصف في هبوب خاطف      يزري بهول البحر والأنواء  
 هجمت على أسطولهم بصواعق      دفنت بوارجهم ببطن الماء  
 صرعتهم والشمس في وجه الضحى      لا تحت ستر الظلمة الظلماء  
 شهد الخضم بطولاً من نوعها      عند البرلس من يد الأكفاء  
 ملئوا الشواطئ والبحار ملاحماً      هوجاً تبديد شرانم الأعداء  
 يشدو بها التاريخ لحنًا خالداً      عن همة وبطولة ووفاء

وجد أبو رواش في عرض سليمان عزت متنفساً مما يعانيه. طال توقُّعه للخروج إلى البحر، في المهام التي تتصل بعمله. توالى الأيام دون أن يتلقَّى أمراً بالصعود إلى سفينة، تُعد للسفر، حتى إلى الموانئ القريبة، مجرد أن تعبر البوغاز.

سمَّى أبو رواش القصة «عمالقة البحار». تناول ظروف إغراق البارجة الفرنسية «جان بار» بزورقي طوربيد، عملية استشهادية للضابط البحري المصري إبراهيم الدسوقي والضابط البحري السوري جول جمال.

راجع عبد الله سجلات البحرية المصرية. قرأ عن حياة الشهيدين. استوقفته — وأثارتَه — شخصية جول جمال، ديانته المسيحية، اللاذقية مدينة مولده ونشأته، إصراره على أن يقاسم الدسوقي عمليته الاستشهادية.

كتب أبو رواش سيناريو الفيلم مع العقيد كمال الديدي، ياور اللواء سليمان عزت قائد القوات البحرية. مزجا بين ما حدث، وما أضافه خيالهما، ليكتب قصة سينمائية. كتب الحوار السيد بدير ومحمد مصطفى سامي.

عانى الارتباك بين حدث البطولة، والعلاقات الإنسانية التي تخفت الجهارة والمباشرة (ألا يكفي اسم الفيلم؟! ). قرأ النص في قيادة القوات البحرية، وعلى أصدقائه في مقهى قصر رأس التين. أضاف، وحذف، وبدل، وحوّر. استقر على ما يحقق المزاوجة. ناقش المخرج السيد بدير في خطوات التنفيذ. لم يُخفِ ارتياحه لإسناد بطولة الفيلم إلى نادبة لطفی وأحمد مظهر. قرأ الاسمين كثيراً في الصحف، فهما اسمان معروفان.

تبدلت حياة عبد الله بعد سيناريو «عمالقة البحار». كان أول مشاهدته لأفلام السينما. شاهده في عروضه الأولى، ثم في العروض التالية. حتى عندما عُرض في سينما «الهلال» بالقباري.

بدل قراءاته. اقتصرت — أو كادت — على فن السينما. كل ما يتصل بالفن الذي شعر أنه وجد فيه نفسه، القصة والسيناريو والحوار والإضاءة والديكور والصوت والمونتاج

والإخراج والإنتاج. صحب أكبر أبنائه — أحمد — إلى دور السينما. عرف أسماء كَتَّاب السيناريو والممثلين والمخرجين. حتى أسماء شركات الإنتاج، لاحظ اختلافات أسمائها، وإن أزمع — بينه وبين نفسه — أن يقتصر إنتاج أفلامه المرتقبة على مؤسسة السينما. اكتشف في علاقته الجديدة بأكثر أبنائه ما لم يكن يعرفه، واكتشف الابنُ صفةَ الصديق في شخصية أبيه.

يغادران البيت قبل موعد العرض بساعتين. يجلسان على قهوة على أنح في ناصيتي صفر باشا ورأس التين. إذا دخل المقهى، حرص على إلقاء السلام والتحيات على الجالسين على الموائد، لا يستثنى أحداً، ويصافح مَنْ له بهم صداقة قديمة. قد يجلسان في قهوة فاروق بإسماعيل صبري، أو قهوة الإسعاف في ميدان المنشية. يتحدثان عن الفيلم الذي خرجا لمشاهدته. الأسئلة لعبد الله، والأجوبة لأحمد. هو الأكثر خبرة — بدنيا السينما — من أبيه. يلتقط الأب أسماء صلاح أبو سيف، ونيازي مصطفى، ومحمد مصطفى سامي، وآسيا، وإيرول فلين، وروبرت ميتشوم، ورمسيس نجيب، وكلارك جيبيل، وتوني كيرتس، وسوزان هيوارد، وآفا جاردنر.

يسأل عن صفة صاحب الاسم. يُعيد رأيه بأن أحوال السينما لا بد أن تتغير بعد «عمالقة البحار».

يقول للاستياء في ملامح الأب: نحن لا نمتلك إمكانياتهم في أفلام الحرب! طالت جولات عبد الله أبي رواش في العطارين وشارع النبي دانيال. يفتش عن كتب السينما. زار — للمرة الأولى — المركز الثقافي الأمريكي بشارع فؤاد. استعار كِتَابًا في فن السينما. أضاف إليها كِتَابًا في فن المقاومة.

استهوته فكرة أن يكتب أعمالاً عن مقاومة المصريين للغزو الأجنبي. ومضت أمامه أسماء أحمس، وبيبرس، ومحمد كريم، وعمر مكرم، ومحمد فريد، وعبد الرحمن فهمي، وأحمد عصمت، ونبيل منصور.

ذلك ما حقق النجاح لفيلمه الوحيد.

غالب الارتباك وهو يتأمل المقهى في نهاية شارع إسماعيل صبري. عرف أنها قهوة للفنانين، أعدَّ أسئلة، وتصور مناقشات. تمتد فتشمل فيلمه الوحيد، وما يشغله من أفلام تالية. تبين أن المناقشات تقتصر على الموسيقى والغناء، وأسماء سيد درويش وسلامة حجازي وحمامة العطار وأحمد المسيري وأم كلثوم وعبد الوهاب وعزت عوض الله وبيدارة. كان قليل الاستماع إلى الأغنيات، لكنه أجاد حفظ أغنيات سيد درويش، الكلمات والألحان وطريقة الأداء.

ترامى الأذان من مسجد قريب. استأذن للقيام إلى الصلاة. واصل السير إلى صفر باشا.

ظل عبد الله أبو رواش على البر. لم يُتَّح له تحقيق حلم حياته. شحبت الرغبة في ركوب البحر، حتى تلاشت تمامًا.

أهمل عبد الله أبو رواش مرض السكر، فتفاقمت تأثيراته. ثقلت حركته، وأُصيب بالعمى، وتوقع الموت.

كانت صغرى بناته قد شاركته الإقامة في الشقة — مع زوجها — في أيامه الأخيرة. نادّت — بعد وفاته بأسبوع — على بائع روبايبكيا، تقاضت ما عرضه من نقود، وتركت له حجرة أبيها، يُخلي ما بها من كتب.

أضاف إلى حزن خليل الفحام، ضياع نسخة خطية من خطه لبحري، أودعها عند أبي رواش ليُفيد منها الرجل في حال وفاته، ويضعه تحت تصرّف المهتمين. قدّر أنه سيرحل عن الدنيا قبل أبي رواش. لكن المرض الذي قضى به الرجل خالف ظنه.

انظر: أحمد المسيري، حمامة العطار، خليل الفحام، سيد درويش، سلامة حجازي، عصمت هانم محسن.



## عبد الله النديم

وُلد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسي، الشهير بالنديم، في يوم عيد الأضحى عام ١٨٤٥م بمدينة الإسكندرية. درس في الكتّاب، ثم في جامع الشيخ إبراهيم القريب من ميدان المنشية. اشتغل عاملَ تلغراف، وأدبائياً، ووكيلاً لدائرة توتنجي بك، ومعلماً لأبناء عمدة، ومدير مدرسة، وخطيباً، وصحفيّاً، وكاتباً، ومؤلفاً مسرحياً، وممثلاً.

قَدِم مصباح بن إبراهيم إلى الإسكندرية من قرية الطيبة بمديرية الشرقية. عمِل في قسم النجارة بالترسانة البحرية. لما صدر فرمان الباب العالي بخفض الجيش المصري إلى ١٨ ألف جندي، وإغلاق المصانع الحربية التي تزود الجيش باحتياجاته، ومن بينها الترسانة البحرية، سرَّح المئات من العمال إلى خارج الدائرة الجمركية. لم يُعد مصباح إلى قريته، كما فعل الكثيرون، لكنه حاول أن يبحث عن مهنة، فلا يترك الإسكندرية.

افتتح مصباح فرعاً في المنشية. ساعده أنه لم يكن في حاجة إلى رأس مال كبير.

وبإحساس الاستقرار، تزوّج، وأنجب عبد الله قبل أن يجاوز السادسة والعشرين.

بدأ عبد الله بن مصباح التعلم في كتّاب المنشية. أتم القرآن في التاسعة. أعانته

ذاكرته على حفظ ما تلقّاه من قواعد اللغة والنحو. ثم ألحقه أبوه (١٨٥٥م) بمدرسة

جامع الشيخ إبراهيم (الجامع الأنور) لكي يصبح عالماً من علماء الإسلام، يُفيد بعلمه

الناس. فطن شيخه محمد العشري إلى حبه للأدب. كان الشيخ نفسه مشهوراً في مجالس

الإسكندرية بالنوادر والمُلح والفكاهات. اصطحب النديم إلى ندوات الأدباء بالمدينة، أنشد

الشعر، وشارك في المساجلات، وتبادل القافية، والنكات.

لم يُقدّر لعبد الله أن يواصل الدراسة في الجامع الأنور. ضاق بطريقة التدريس. المواد

لا بأس بها: فقه الشافعية والنحو والصرف والتوحيد والمنطق والعلوم اللسانية والأصول.

المشكلة في طريقة الدراسة، وغلبة التعقيد، والنقلية. قرر عبد الله أن يهجر الجامع إلى حياة أخرى غير التي أعده لها أبوه.

فرغ النديم للمجالس العامة والخاصة، في البيوت والساحات والمقاهي، سماع سير الشاعر الشعبي وحكاياته، المناقشات، المنادمة، الخطابة، إلقاء الشعر، تبادل النوادر والقوافي.

انعكست حياة عبد الله — بعد أن هجر الدراسة في جامع الشيخ إبراهيم — فزعاً في نفس أبيه. نذره للعلم، وأنفق عليه من إيراده القليل، ليصبح عالماً يتقرب به إلى الله. ما أقدم عليه الابن بدد كل تصوراته.

ضغط مصباح على مخارج الألفاظ: إما أن تعود إلى طلب العلم فتجد الرعاية والإنفاق، أو تذهب إلى حال سبيلك، وتتولى أمر نفسك. كل بشعرك وزجلك.

لم يعد أمامه إلا أن يعمل، ويُنفق على نفسه. نفض أبوه يده من مسئولية تعليمه وإعالته. سافر إلى القاهرة. تعلّم الإشارات التلغرافية، وعمل بمكتب التلغراف بينها، ثم نقل إلى القاهرة، بمكتب تلغراف القصر العالي، مقر الأميرة خوشيار خانم أفندي، أم الخديو إسماعيل.

واصل إعداد نفسه في القاهرة. يمضي في حلقات الأزهر بضع ساعات كل يوم، لتلقي دروس الفقه والنحو على أيدي كبار العلماء، من بينهم الشيخ محمد الإنبائي شيخ الأزهر فيما بعد.

تغيّرت عليه نفس خليل أغا. ضربه، وطرده. سدّت في وجهه أبواب الرزق بالقاهرة، مثلما سدّت في الإسكندرية. نزل عند عمدة في إحدى قرى الدقهلية. أقام عنده، وعُني بتعليم أولاده، لكنه ما لبث أن تخاصم معه، فتركه.

عاد عبد الله النديم إلى الإسكندرية في مطلع عام ١٨٧٩م (أو ١٩٧٦م). كان في الخامسة والثلاثين، يحمل رصيماً هائلاً من الخبرة والتجربة والوعي.

كتب في جريدتي أديب إسحاق «مصر» و«التجارة». من أقوى صحف المعارضة في أواخر عهد إسماعيل، وفي عهد توفيق. حفلتا بالكثير من المقالات التي تنتقد سياسة الحكومة، وتندد بتفريطها في حقوق البلاد.

كان ذلك أول انشغاله بالكتابة السياسية. ثم انضم إلى «مصر الفتاة»، جمعية سياسية سرية، تهدف إلى مقاومة الخديو إسماعيل. وكان الأفغاني يُشرف عليها.

دعا إلى إنشاء الجمعيات والمحافل الخطابية بالقطر المصري، بحيث تكون «مصبوغة» بدم الغيرة الوطنية، تمحو فتور الإنسانية، لا كالراح تُشرب للنشوة، بل كالسيف يُقلد

للسطوة». في ١٨ أبريل ١٨٧٩م عُقد الاجتماع التأسيسي للجمعية الخيرية الإسلامية، مجالاتها الأعمال المشروعة، بعيداً عن السياسة، والاقتصار على المحيط الثقافي والاجتماعي. ودعا النديم الأقباط — في المقابل — إلى تكوين جمعية، تنظر في شئون الطائفة. وتكوّنت الجمعية الخيرية القبطية، متسقة في أهدافها وأنشطتها مع الجمعية الخيرية الإسلامية. كان أول خطاباتها. حثَّ على الاتحاد والتعاون ورفض التفرقة والتخاذل. ندَّد بسفاهة الأغنياء، وإنفاقهم فيما لا يعود عليهم، وعلى الوطن إلا بالضرر.

أعلن الحرب على الرُّق. رعى خطوات إنشاء جمعية الأحرار السودانيّين، تضمُّ الرقيق المحررين من أبناء السودان. تحفظ حقوقهم، وتُتيح لهم التكافل. ظل مؤمناً — في توالي الأحداث — بأن المسألة ليست خديويّاً يحلُّ محلَّ آخر، لكنها مسألة «تقدّم البلاد في ضبط النظام، الأمر الذي يقضي على الجاهلين بحقوق الإنسان الطبيعية، والرافضين للحكومة المنظمة الحافظة لحقوق الإنسان».

قدّم أول عدد من «التنكيت والتبكيك» (٦ يونيو ١٨٨١م) بأنها «صحيفة وطنية أسبوعية أدبية هزلية، هجومها تنكيت، ومدحها تبكيك». أما لغتها فهي «قد لا تُجكك إلى قاموس الفيروزآبادي، ولا تُلزمك مراجعة التاريخ، ولا نظر الجغرافيا، ولا تضطرك لترجمان يعبرُ لك عن موضوعها، ولا شيخ يفسر لك معانيها»، وإنما هي «صحيفة أدبية تهذيبية، تتلو عليك حكماً وأدباً ومواعظَ وفوائد ومضحكات، بعبارة سهلة لا يحقرها العالم، ولا يحتاج معها الجاهل إلى تفسير».

صباح التاسع من سبتمبر ١٨٨١م.

كان النديم وراء فكرة أن تقف الجماهير في ميدان عابدين، تملؤه، تسدُّ منافذه، تعلق صيحاتها بتوكيل عرابي في مطالبها. وكان هو الذي جمع توكيلات الفلاحين من مئات القرى المصرية، بتفويض عرابي في المناادة بمطالب الناس، لقاء مؤامرات الشراكسة الذين أعدوا لعودة دولة المماليك. كان هو حلقة الوصل بين الحزب العسكري والجماهير المصرية. وقاد مظاهرات الإسكندرية لرفض اللائحة: يهتف الرجال: اللائحة ... اللائحة ... يُضيف النساء والأطفال: مرفوضة ... مرفوضة!

«هنالك ظن رياض (رئيس النظار) أنني أخطب الناس إلى قادة الحركة العربية، لأجمع القلوب عليهم، فكتب قراراً في مجلس النظار بنفيي من الديار. ولما عرضه على الخديو في الديوان، برز له علي باشا فهمي من الميدان، وقال إن نديماً منّا معشر الجهادية،

إن لم يحمل سلاح العسكرية. ولئن أخذتموه بغتةً من البلاد، حافظنا عليه بالأرواح والأجناد، فبطل ذلك القرار، وشرب العدو المرار.

أعلنني علي باشا بهذا الأمر وأنا أخطب في ميت غمر، فتظاهرتُ بحب العسكر والتعويل عليهم، وناديت بانضمام الجموع إليهم، وأوغلت في البلاد، ونددت بالاستبداد، وتوسعت في الكلام، وبيّنتُ مثالب الحكام الظلام.

أعلن الخديو توفيق انحيازه ضد الشعب، وهدد الأسطول البريطاني شواطئ الإسكندرية. بدا في الأفق القريب خطر التدخل الخارجي.

شنَّ النديم في مجلة «الطائف» أقوى حملاته ضد الخديو، وضد الأسرة المالكة. جرّد إسماعيل من صفات البشر، ونسبه إلى دنيا المتوحشين. اتهم توفيق بخيانة الوطن، والمروق من دين الإسلام.

اختلفت صورة الحياة في مجالس الإسكندرية عمّا كانت قبلها.

نوّت الأحاديث في غزليات أبي نواس، وهجاء ابن الرومي، ومديح الشعراء في الخديو إسماعيل، وفكاهات الشيخ علي الليثي، والأزجال، وقوافي الأدبائية. حلّت — بدلاً منها — أحاديث قلقة، متوترة، عن التدخل الأجنبي، وفوائد الدّين، وجمعية مصر الفتاة التي تُعلن معارضتها للسلطة القائمة.

حاول عسكري بكركون الجمرك — بأمر من البكباشي حمدي درويش — أن يبدل سيجارة النديم سيجارة مسمومة. دخن النديم جزءاً من السيجارة، أفقده وعيّه وبصره، خمساً وثلاثين ساعة.

قبل مذبحة الإسكندرية بستة وثلاثين يوماً. بالتحديد في الخامس من يونيو ١٨٨٢م، وقف عبد الله النديم يُلقى خطاباً في مبنى جمعية المقاصد الخيرية للشبان. كان عرابي قد أوفد النديم إلى المدينة لهيئة الجماهير قبل أن يصل إليها درويش باشا مبعوث الباب العالي، للتحقيق في أسباب الخلاف بين عرابي والإنجليز.

يقول النديم: «... وبينما هم في اختباط، ويُعد عن الارتباط، جاء الخبر بقيام وفد درويش، وكثُر الخلط والتشويش، وبلغنا الاتفاق مع السير ماليت والمستر كولفن على أن يُحدثوا فتنةً في إسكندرية بين الكافر والمؤمن، ليسوغ للأساطيل أن تخرج العساكر إلى البر، بدعوى أن العساكر قد أثاروا الشر، خشيةً أن يحول درويش باشا بينهم وبين هذه الأمنية إذا ظهر بحضوره السكون والأمنية. فتوجهتُ في الحال إلى الإسكندرية، وأعلنتُ

جمعية الشبان القصدية، بأني أريد أن أخطب بأمر فيه صلاح بلدنا، وتقوى عددنا، فأصبحت مئآتٌ غير محصورة، وخطبتُ فيهم خطبةً الأنفوشي المشهورة، ونبّهتهم على لزوم السكون، إذا كثرت الظنون، والبعد عن مجالس الأجانب، حتى تنتهي تلك المصائب، وحرّضتهم على لزوم الهدوء، وعدم التداخل مع العدو، وبيّنت لهم أن عرابي باشا أخذ عهدة الأمن على نفسه، والخديو يسعى في عكسه. فلما بلغ ذلك عمر باشا لطفي، طلبني لديه، وأخذ يرفع صوته ويُسِرُّ بيديه، وقال: لمَ خطبت بين الأهالي؟ قلت: لتسكين الهَرَج الحالي. قال: ومَن أمرك بذلك؟ قلت: الخوف من المهالك. قال: هذا شيء من حدود المحافظة والضبطية. قلت: أراهما أصل البلية؛ فإن البلد في هرج عظيم، وسير غير مستقيم، والفتنة أخذة في الانتشار، وقد أكثروا من شراء السلاح، وإعداد الصفاح، وعقد المجالس ليلاً ونهاراً، وإعلان الفتنة جهاراً، حتى كتبت بها التلغرافات بين مصر وإسكندرية، والبعض كاتبَ الجهات الأوروبية. كل هذا والحكومة لا تنفي حرجاً، ولا تسكّنُ هرجاً، ولا تلاحظ المحافل، وتجمّع الأسافل، فكان من الواجب عليّ نصحُ أهل بلدي، بما دار في خلدي، خوفاً من توالي الخطب، والوقوع في الحرب، فأراد أن يشير إلى الأعوان، بحجزي في الديوان، ولكنه رأى عدداً عظيماً من الشبان على الباب، فخاف من سوء العاقبة، وارتاب، ورغب أن أخرج من البلد في الحال، فلم أضغِ لذلك المقال، وبقيتُ حتى جاء وفد درويش، ومر في البلد دون تشويش.»

أمر المحافظ، فأودع النديم سجن المحافظة. لكن الجماهير — التي كانت قد تبعت النديم إلى مبنى المحافظة — هددت باقتحام المبنى، فأُفرج عنه. تهيأً النديم لمغادرة الإسكندرية، بعد أن لَقّن الناس ما سيردونه من شعارات عند وصول المبعوث التركي. يهتف الأولاد: اللايحة ... اللايحة ... يردُّ النساء: مرفوضة ... مرفوضة. ثم تعلقوا كلُّ الأصوات في نغم موحد، رُدُّوا الأسطول ... رُدُّوا الأسطول!

تعدّدت مواهب النديم؛ فهو يخطب، ويكتب، ويحرّر الصحف، وينظم الزجل والشعر، ويؤلّف الفصول المسرحية، ويعلم، ويُنشئ المدارس والجمعيات، ويحمّس الجماهير والجنود للمعارك، ويجمع التبرعات. إن أَلجأته الظروف إلى الفرار من سلطات الاحتلال، أجاد التخفّي، وأخفقت كلُّ محاولات البوليس في كشفه، والعثور عليه. لم يستقر النديم — حتى في أعوام استقراره وظهوره المعلن — في مدينة واحدة. وُلد في الإسكندرية. زار، وعمل في بنها وطنطا والزقازيق والمنصورة، ومدن أخرى كثيرة. امتدّت زيارته إلى العديد من المدن العربية.

حتى أوائل القرن العشرين، لم يكن توزيع أية صحيفة يزيد على خمسة آلاف نسخة. كان ذلك هو الحد الأقصى لطاقة ماكينات الطباعة. ظلت الصحافة وسيلة إعلامية قاصرة. واتجه النديم إلى وسيلة إعلامية أخرى، أشد تأثيراً في بلد تغلب فيه الأمية، واليقين الديني الموروث، وحب الخطابة. أفاد من مواهبه الصحفية في الخطابة، يروي المثل، يحكي النادرة، يستفز المشاعر، يُثير الوعي، ينقل المتجمهرين أمامه من حياة إلى حياة، التأثير نفسه الذي كان يُحدثه في قرّاء صحفه، والمستمعين لها.

- في أي فرح تغني الليلة؟

كان المطرب محمد عثمان يُجيب عن السؤال: في الفرح الفلاني مع عبد الله النديم. وُصف بأنه سيد الخطباء دون منازع، وخطيب الشرق. كان يُجيد السيطرة على مشاعر المستمعين لياليَ كاملة ببلاغته الأسلوبية، وقدرته على الإقناع.

صار الرجل الثاني بعد عرابي.

ليس مجرد خطيب الثورة، ولا هو زجال، ولا مهرج، كما وصفته بعض الأقلام، هو قائد للثورة، يساوي - إن لم يُفَق في دوره أدوار - محمود سامي البارودي وعلي فهمي وعلي الروبي وعبد العال حلمي. وبينما كان قادة الثورة يميلون إلى مهادنة الخديو، حتى لا يتفاقم الخلاف، فتجد الدول الأجنبية مبرراً للتدخل، فإن النديم تلقى إنذاراً لخروج جريدته «الطائف» عن جادة الاعتدال. ثم صدر قرار (أصدره العرابيون!) بتعطيل الجريدة نهائياً في ١٧ مايو ١٨٨٢م، ترضيةً للخديو.

التقى في القطار المتجه إلى القاهرة، بكازم ميلاني التاجر بشارع الميدان بالإسكندرية. هما صديقان من بحري، ودكان ميلاني قريب من جامع الشيخ إبراهيم، أول ما تلقى فيه النديم دروسه. قال النديم: إننا مستعدون للمقاومة في البر، لأن الإنجليز لم يكن لهم قدرة على المحاربة، فأني أنا يا ضعيف قتلت بهذه الطبنجة ثلاثة من الأوروبيين.

وأخرج طبنجة «ريفولفر». قلبها في يده، وأعادها.

حلّ بين الرجلين صمتٌ سادر، حتى بلغ القطار القاهرة.

كان ضرب الأسطول البريطاني للإسكندرية بدايةً تحوّل «الطائف» إلى جريدة مقاتلة، تشذ الروح المعنوية، وتعبئ القوى انتظاراً للمعارك الفاصلة، المقبلة. ترك النديم القاهرة، يحرر جريدته في إيكنج عثمان، يضمّنها البلاغات العسكرية، والتحليلات، والتعليقات.

دخلت قوات الاحتلال الإنجليزي القاهرة في ١١ سبتمبر ١٨٨٢م. أزمع النديم أن يسافر إلى دمياط، لينضم إلى عبد العال حلمي الذي لم يكن قد استسلم بعد. عاد من كفر

الدوار في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢م. أقام — عشرة أيام — في بيت صديقه الشيخ مصطفى ببولاق. تغيّر مظهره بإطالة اللحية وشعر الرأس. استبدل بالزي الأوروبي زعبوطاً، لفّ رأسه بعمامة خضراء، غطّى عينيه بمنديل، أحفى شاربه. خرج ليلاً يتوكأ على عكاز طويل، يقوده خادمه إلى ساحل بولاق. استقلّ مركباً شراعياً في طريقه إلى بنها. عرف في الطريق أن عبد العال حلمي ألقى سلاحه. استقلّ مركباً آخر إلى المنصورة، بداية تسع سنوات من التخفي.

بدأ النبض يخفت في جسد الثورة، حتى التلاشي. أعلنت طبقة الأعيان المصرية عمالتها، ونفي قادة الثورة، وامتلات المعتقلات بثلاثين ألف مواطن، وصُفي الجيش المصري. أحكم الظلام قبضته تماماً، فيما عدا النديم الذي أصرّ على مواصلة الثورة. لم تُضعفه الهزيمة، ولم يندم على اشتراكه في الثورة. ظلّ — رغم الهزيمة — وفياً لمبادئها. انشغل النديم — في أيام اختفائه الأولى — بالتكيف مع حياته الجديدة. الجسد الذي لا يهدأ يعاني السكون والظلمة والوحدة في حجرة صغيرة، ترشح — لانخفاضها — بالمياه. يصلها بالعالم الخارجي سرداب طويل، لكنه — ربما في ليلة اختفائه الأولى — بدأ يُعد نفسه لمواصلة ما كان. تنقل بين العديد من المدن والقرى، يبدّل ثيابه بما يوافق المهنة التي يدعيها، أو البلد الذي أتى منه، هو مغربي، ويمني، ومدني، وفيومي، وشرقاوي، ونجدي، وهو يقصر لحيته على هيئة السائح، ويُطيّلها على هيئة شيخ الصوفية.

تناثر أرساد الحكومة وعيونها في المدن المصرية للبحث عن النديم. طرق أعوان حمدي درويش أبواب كل البيوت في بحري، فتشوا القاعات والحجرات والمطابخ ودورات المياه والأسطح. أوفدت الحكومة مَنْ يبحثون عنه في بلاد الشام. وصل رجالها إلى إيطاليا. أعلنت عن ألف جنيه جائزة لمن يعثر على النديم أو يدل عليه. هدّدت بالإعدام مَنْ يُخفيه، أو يُؤويه، أو يساعده على التنقل.

راسل عرابي في منفاه.

تحدّث عن الجولة الثانية، المقبلة: «فأمامك مستقبل أنت عصامه، يجمع فريقاً أنت إمامه، وقد تناولت الأعناق بعظيم الاشتياق، إلى ذلك الميقات، وكل ما هو آتٍ آتٍ». «إن حال الأحرار، بعد النفي والأضرار، قد فتح الله أبصارهم، فتبصروا، وصفي بصائرهم فتنوروا، وسقاهاهم شراب المحبة، فائتلفوا، وهداهم الصراط المستقيم، فما اختلفوا. وإذا قيل للواحد منهم: هذا عرابي المشرب، فرح كأنه قد فُتح له مطلب، وإذا أتى منك كتاب إلى بعض الأحباب، دار به على الإخوان وهو فرحان، فأنت في مصر وإن كان جسمك في سيلان.»

لم يكن التخفي عن أعين السلطة همّه الوحيد. خُلف ديواناً شعرياً به أربعة آلاف بيت، وديواناً آخر في نحو ثلاثة آلاف بيت، وديواناً ثالثاً في عشرة آلاف بيت (كان حجازي أيوب يحتفظ في مكتبته بنُسخ مخطوطة من الدواوين الثلاثة)، ورواية بعنوان «الوطن والعرب» (ظل عبد الله أبو رواش يعتز بأن الرواية مودعة في مكتبته. لا يدري أحد مصيرها بعد أن باعت ابنة أبي رواش مكتبة أبيها)، ورسائل أدبية، وواحدًا وعشرين كتاباً في المعارف الإنسانية. كتب في الأدب والشعر والبديع والديانات والتاريخ والجغرافيا والتفسير واللغة والأصول وعلم الكلام والتصوف والتربية والسياسة.

طال اختفاؤه تسع سنوات. تنقل بين العديد من مدن الدلتا وقراها. لما انكشف مخبؤه، وألقي القبض عليه، قرر مجلس الوزراء (١٢ أكتوبر ١٨٩١م) إبعاد النديم إلى الشام، والإفراج عن كل الذين أُدينوا بمعاونته على الاختفاء.

حين أراد العودة إلى مصر. لم يطلب العفو من الخديو. زار مقام النبي موسى، واستغاث به، «فإنه صاحب الأمر بالعفو عني، وإن كان الظاهر خلافه». أنشد النديم في المقام:

«رجوتك يا كريم الله حاجة أرجيها وقد حققت فضلك  
فقل لي مثلما لك قبل أوحى إله الخلق، قد أوتيت سؤلك»

أول ما فعله عبد الله النديم — بعد أن عاد من المنفى — إصدار جريدة «الأستاذ» لإصلاح ما فسد من أخلاقنا».

كان محمد عبده قد جعل من عفو الخديو بداية حياة جديدة، تغيب عنها السياسة، وكل ما يتصل بالسياسة.

وصف النديم «الأستاذ» بأنها «جريدة علمية تهذيبية فكاھية». أفرد صفحاتها للنيل من الاحتلال وعملائه، ووعده بأنه «لن يغمد سيف بيانه، طالما هناك صحفيون منافقون، ومحرمون خائنون، حتى يقطع أسننتهم التي طالت بغير حق، ونطقت بغير حق».

أدان ظاهرة استهلاك البضائع الأجنبية. هاجم الأعيان لإقبالهم عليها. وجد أن الطريق الصحيح لإحياء الصناعات الوطنية هي إنشاء الشركات الصناعية المساهمة. وكانت له أفكار لترقية أحوال الحرفيين والصنّاع، وكتب في إصلاح حال الموظفين، ورفع الظلم الذي يُعانيه الموظف المصري عبر مئات السنين، وطالب بثورة إصلاحية شاملة



للأزهر، ودعا إلى إنشاء مجمع للغة العربية، وإلى تعميم التعليم، فهو «العامل الأكبر في الحضارة والعمران».

تخلَّى النديم عن الأسلوب البديعي، الذي يعتني بالحلي والزخرفة الشكلية. غلبت في أسلوبه البساطة، والسهولة، والاتجاه إلى الوجدان. تعمَّد أن تكون أدواته متنوعة، فتصل إلى كل المستويات، وإلى كل الأعمار. كتب بأسلوب تقريرى مباشر، وبأسلوب مسجوع، وكتب الفكاهة والقصة والحوار والمعلومات الطريفة والمفيدة، «واضطرَّ مَنْ لا يعرف القراءة إلى مصاحبة مَنْ يعرف القليل منها، فكنت تراهم في الشوارع جماعات، بينهم الرجل أو الصبي يقرأ عليهم، أو يقف صبي في حانوت وبيده صحيفة، وأمام الحانوت خلقٌ محدقون بالصبي وهو يقرأ».

حرص على أن يسلم الرسالة إلى الأجيال التالية. التقى بمجموعات من طلاب مدرسة الحقوق العليا. تكرر اللقاء. يسألون، يناقشون، يستوضحون، يُلمون بالبدايات التي أدت إلى الاحتلال. يطالبهم بالالتفات إلى المستقبل، لتصبح مصر للمصريين.

كان من بين الطلاب الشاب مصطفى كامل. طبع مصطفى كامل صحيفته «المدرسة» — فيما بعد — في مطبعة المحروسة، وهي المطبعة التي كانت تطبع «الأستاذ»، ولازم مصطفى النديم ملازمة التلميذ لأستاذه.

ظلت المؤامرات تترصد للنديم في منفاه بيافا، حتى أمر السلطان عبد الحميد بإبعاده من المدينة.

وصل النديم إلى الإسكندرية، بعد أن كان — منذ النفي — محرَّمًا عليه دخولها. وُفقَّ الغازي أحمد مختار باشا في الحصول على عفو السلطان عن النديم. ألحقه بديوان المعارف في إسطنبول، لتبدأ مرحلة جديدة، وأخيرة، في حياة النديم. بدا أنه وصل إلى مرفأ استقرار يقضي فيه ما تبقى من سني حياته. ما مضى يحتاج إلى بضعة أعمار لا عمر واحد، مهما يكن الرجل عنيدًا وقويًّا. الطفولة القاسية، العمل في التلغراف، التدريس، المثابرة، التقلب في الظروف الاجتماعية المختلفة، المشاركة في الأحداث السياسية القائمة، الاندفاع في الموجة الأولى لمد الثورة، الصحف والخطب والمؤتمرات، الإصرار على النضال — متفردًا — بعد أن طلب الآخرون عفو الوالي. قد فعلنا ما وجب، الحياة في قلب الناس تسع سنوات كاملة، الحض على التماسك واستمرار الثورة، حتى بالنسبة للذين وجدوا الأمان لحياتهم في المنفى، الاعتقال، النفي إلى يافا، العودة إلى مصر التي لم تعد أقلام

الاحتلال تُخفي شماتها في أهلها، الأستاذ توضح وتدافع وتؤكد: مصر للمصريين، العودة إلى المنفى. حتى المنفى ينفيه.

أطال النديم الوقوف أمام قصر رأس التين. لو أن ثورة العربيين انتصرت، ربما كان أحمد عرابي هو الذي يُقيم في داخل القصر، هو الذي يُدير الحكم، بعد أن يتخلص من الخديو والإنجليز.

امتدت جولاته في بحري: البحر والأمواج التي يعلو بها المد بلا حاجز، فتتخلل البيوت، وقلعة قايتبائي (لاحظ تأثر البناية والأسوار بقذائف أسطول الإنجليز) الساحات والمقاهي وشاعر الربابة وجامع أبي العباس وجامع تربانة وجامع الشيخ إبراهيم وشارع الميدان وأطلال ميدان القناصل وعربات الكارو والبنز وغازلي الشباك وصيادي الجرافة والطراحة والسنارة وعفريت الليل والطائرات الورقية. امتدت جولاته إلى عمود السواري وكوم الناضورة وكوم الدكة، وأحياء المنشية واللبن ومحرم بك ومينا البصل والرمل. مضى إلى محطة السكة الحديد، في اليوم السابع لعودته إلى الإسكندرية.

كان الهدف الاجتماعي — والسياسي أحياناً — هو الذي أملى على النديم كتابةً لوحاته المسرحية. وجد أنها أقرب في الوصول إلى قلوب المشاهدين. شخصيات موضوعاتها من العرب الذين يستنهضون الهمم، سواء كانوا من التاريخ القديم، أم من البسطاء الذين يجد فيهم المتلقي العادي نفسه.

خطب في حفلات التمثيل بدار الأوبرا. تحدّث عن رسالة الفنّون، وعن فنّ التمثيل، وأصالة المسرح المصري، وأثره في ذوق الجمهور. فوجئ النديم بموهبته في التمثيل. أدرك أن السنين التي تصوّر أنه أضعافها، تُؤتي ثمارها.

نُفي النديم — للمرة الثانية — إلى يافا.

أندرت وزارة الداخلية بإغلاق «الأستاذ» إذا تحدّثت في السياسة. وأعلن اللورد كرومر عزمه على نفي النديم، وإغلاق الجريدة إذا خالف الإنذار. ورغم خلو «الأستاذ» من كل إشارة سياسية في الأعداد التالية، فإن الصحف البريطانية واصلت هجومها على النديم، وطالبت بإسكاته. وأصرّ اللورد على قرار النفي.

كتب في آخر عدد من «الأستاذ» (١٣ يونيو ١٨٩٣م) — وهو يتهيأ لرحلة نفيه الأخيرة — «ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال، ومصادمة النوائب، والعامل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظمة والجلال. وإذا كان المبدأ صعوبةً وكدرًا في أعين الواقفين عند الظواهر، وعلى هذا فإنني أودّع إخواني قائلًا:

أودّعكم والله يعلم أنني أحب لقاءكم والخلود إليكم  
وما من قلبي كان الرحيل وإنما دواعٍ تبدّت فالسلام عليكم

منحته الحكومة المصرية ٤٠٠ جنيه بصفة ترضية، وخصصت له ٢٥ جنيهًا راتبًا شهريًا «تصرف إليه أينما يكون، بشرط ألا يكتب عن مصر مطلقًا، وأن يُقيم خارجًا عنها».

قضى معظم أعوام نفيه في يافا، ثم في إسطنبول شبه سجين في قفص السلطان عبد الحميد. فترة قصيرة أمضاها في مصر، بين النفي الأول والنفي الثاني بيافا. لم يعد من المسموح له أن يكتب، أو يخطب، أو يُنشد الشعر، أو يعبر بوسيلة ما. أحاط به الأرصاء والأعين، لا يتركونه لنفسه ولا إلى مجالسه، أو تأملاته. جعل النديم حلقة أيامه الأخيرة مشابهةً تمامًا لحلقات عمره كله: الشيخ أبو الهدى الصيادي اتخذ طريق الصوفية. ربط نسبه بالبيت. ورّع عيونه في قصور السلطان، ودواوين الحكومة، والجيش. سُمي مستشار الملك، وحمي العثمانيين، وسيد العرب. وسُمي شيطان تركيا، وراسبوتين الشرق. عمِل له الجميع ألفَ حساب. ألفَ له العلماء الكتب، ونسبوا إليه، ونسب إليه الشعراء قصائد ادعوا أنها من تأليفه. زاد نفوذه لدى الخليفة، فلم يعد يرفض نصائحه أو أوامره.

تحدها النديم، وفضحه، حتى طفر الدمع من عينيه. ألفَ فيه كتابًا بعنوان «المسامير». طلب حاشية الخليفة من النديم — على مسمع من السلطان — أن يكفَّ عن هجاء أبو الهدى. قال النديم: قلّد مولانا السلطان أبا الظلال (يعني أبو الهدى!) وسامَ الافتخار، فلألبسَنهُ أنا وسام العار، يلازمه في حياته، ويصحبه إلى قبره بعد مماته. ظل النديم بدار الخلافة، حتى جاءه الأجل في الرابع من جمادى الأولى عام ١٣١٤هـ. ودُفن بمقبرة يحيى أفندي في بشكطاش.

انظر: محمد كاظم ميلاني.



## عفريت الخرابة

تسمية العفريت في المعاجم والقواميس مأخوذة من تعفرت، يتعفرت، تعفرتاً، وعفرته، صار عفريتاً، وهو أقوى الجن ﴿قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾. العفريت هو الجن الصالح، المحبُّ للخير.

كان الجان جلساء نبي الله سليمان. وفي التراث الديني أن رسول الله ﷺ ذهب إلى الجن قصداً. تلا عليهم آيات من القرآن. دعاهم إلى الحق سبحانه. شرع لهم — على لسانه — ما هم في حاجة إليه. ربما أن المرة الأولى التي سمع فيها الجن رسول الله يقرأ القرآن، لم يشعر بهم — كما قال ابن عباس — ثم وفدوا إليه بعد ذلك. كما يروي ابن مسعود. وقد أرسل رسول الله رسلاً من الجن إلى قومهم.

قال نخلة صبي جودة هلال إنه رأى العفريت رؤية العين. عيناه تبتآن ناراً، وأشداقه تتلَمَّظ دماً، ومن حوله ثعابين، وحيات، وجماجم بشر وحيوان.

روى مدين السلاموني الطالب بالمعهد الديني أن العفريت فاجأه وهو يمرُّ أمام الخرابة. لم يتصور أن العفريت يُطالعه قبل أن يأتي الليل. التفت مدين بتوجس ناحية الخرابة. التقط — بين تداخل الحجارة والتراب وكومات القمامة — شيئاً ما يشبه الجسد الآدمي، وإن اختلف في التكوين. التفَّ بسواد قاتم. قبل أن يحاول تبيئته، كان العفريت قد انقض عليه، كاد يلامس وجهه. لم تُسعهف اللحظة — كأنها الومضة الخاطفة — لتبيئ ملامح العفريت. هل الوجه لوحش أو لإنسان؟.

روى ما حدث بيقين أن الذي انقض عليه هو عفريت الخرابة. لولا أنه جرى نحو ميدان الخمسة فوانيس، ربما أفلح العفريت في أذيته.

قال الشيخ عبد الستار: العفريت لا وجود له إلا في الحواديت.

قال نخلة: كيف وأنا رأيته؟

- رأيت ما تصوره خيالك!  
- هل لا بد أن تلقاه كي تصدق؟!  
- اللي يخاف من العفريت يطلع له.  
حذّره من أن يشغله الأمر، فيجد ما يخافه في كل ما يراه.  
فضّل مدين السلاموني أن يواصل السير في شارع رأس التين، ويميل من شارع  
أبي العباس إلى نهاية الموازيني. مقصده المكتبات المتجاورة، يشتري ما يحتاجه من كتب  
دراسية.

لم يكن عفريت الخرابة - في يقين الناس - شريراً، مثل الغيلان والمردة والجن العاصين،  
لكن سيسبان نفت أن يكون العفريت في الصورة التي اطمأن الناس إليها. حذّرت من أنه  
يملك أن يحول نفسه إلى غير هيئته، إنس أو حيوان أو طير، أو غيرها من المخلوقات. ربما  
جعل نفسه شجرةً تسكن بالتوقع. يقف من ينتظرها تحتها، أو يسير بالقرب منها، تمدُّ  
أغصانها، تلتفُّ حول عنقه أو جسده، لا ترفع الأغصان حتى تُهلكه.  
وضع الناس حساباً للكائن الذي اعتادوا رؤيته في الخرابة المطلة على شارع سراي  
محسن باشا، والأماكن القريبة، هو - بهذا المعنى - عفريت، يخشى أذاه سكانُ الشارع  
والمارة.

قال شحاتة عبد الكريم إن العفريت هو نوع من الجن المتشيطنة، وإنه يرتاد  
الخرابات والأماكن المهجورة والخلاء والمقابر. يتلون بأشكال مختلفة، يتقمص أجساد  
الحيوانات المفترسة، يتقّب شبك الصيادين فيعود السمك إلى المياه، يتسلق الجدران  
والمواسير، يتقافز على أسلاك الكهرباء والهاتف، يثب فوق الأسطح وبين الطوابق العليا،  
يقذف الملابس المنشورة على أعمدة الغسيل، يُغلق أبواب البيوت والنوافذ ويفتحها،  
يُطفئ أنوار الدكاكين فتحل الظلمة، ينفخ بأخر زفيره فيُثير الهواء والأتربة، يدقُّ الأبواب  
والجدران والأرضيات، يتسلل من انفراجات الأبواب، يهزُّ الستائر، يبدل مواضع الأثاث  
والصور واللوحات، يترصد للبشر في النواصي وأماكن اختفائه، لينالهم بعداوتهم وأذاه.  
كانت الخطوات تُبطئ، أو تغالب الارتباك، وهي تقترب من شارع سراي محسن  
باشا، أو تهبط من داخل بيت فيه، أو تدخل إليه، أو تطل من نافذة.

آخر سكنه بيتٌ في حارة سيدي داود، المتفرعة من شارع سليم البشري. تلاحظه  
الأمين المتسائلة، مهما أجاد التحوّل. يقيد حركته تلاصق البيوت، والحارة الضيقة،  
والجيرة، والصدافة، وسهولة تبين الملامح المغايرة.

لما انهار البيت — أول شارع سراي محسن باشا — فضّل العفريت أن ينقل سكناه إليه. يُطل — من جانبه — على ميدان الخمسة فوانيس، وتُطل الواجهة على بداية سراي محسن باشا.

قال شحاتة عبد الكريم: نحن ننفي وجود العفاريت ... لكننا نبتعد عن الأماكن التي يقال إنهم يعيشون فيها!

تباينت الروايات في حقيقة ما يفعله العفريت داخل الخرابة، لكنها اتفقت على خطورته، وأن أذاه يبدأ بالتخويف، وينتهي بالقتل.

يتشكل في هيئات مختلفة: ثعبان، قط، كلب، غراب. تتعدد رؤيته — على هيئة البشر — في شوارع بحري وحواريه وأزقته. يُطل من أسطح البنايات، أو من فوق أعمدة الإضاءة، أو مواسير المياه والصرف الصحي. يُدرك أن محاولة صعوده إلى مآذن جوامع الحي، أو حتى ملامسة جدران الجوامع، أو سيره على أرضفتها، لا تعني موته حرقاً. قراءة آية الكرسي، أو الصمدية، أو المعوذتين، تُخفيه في مكان غير معلوم. لكنه ما يلبث أن يعود — بعد أيام أو ساعات — إلى موضعه في الخرابة. ينسى — بتوالي الوقت — ما لقيه من تأثيرات الآيات القرآنية. يعود إلى مداعبة الناس وإخافتهم، ومساعدتهم أحياناً، والتنقل بين مواضع بعيدة عن الخرابة. يتقافز — بساقيه النحيلتين — بين الأسطح وأعمدة الإنارة والتليفونات والشرفات العليا، المغلقة.

لم يره الناس على هيئته الحقيقية. يمشي بينهم في هيئات مختلفة، يتخذها فلا يفطن إليه أحد. تطيب له لعبة التحول. هو رجل، وهو امرأة، وكنب، وقط، وفراشة، وحمار. قد يتشكّل في هيئة طائر، يكسو جسده بالريش. لا يُطيل الحياة في هيئة ما. يمتلك التشكّل في الهيئة التي يريدها.

تقافز في هيئة فأر على حامل اللوحة في أثناء جلوس محمود سعيد للرسم بالقرب من قصر أم البحرية. قبل أن يقترب الخادم — استجابةً لصيحة الفنان — كان قد تلاشى. شاغله المعاكسة لا الأذى. ينزع جلده، ويبدّل ملامحه. يبدو بشراً سوياً. يمشي بين الناس في الشوارع والأسواق، كأنه كائن بشري، لا يلفت النظر، ولا يُثير الانتباه. هو مجرد عابر طريق. يظل على حالته البشرية حتى يقرصه الجوع. يأكل مما تراه عينه، أو تصادفه يده. لا يقرب البشر.

إذا استعاد هيئته الحقيقية، قفز إلى أقرب بناية، تنقل بين الأسطح والأسلاك العالية، حتى يصل إلى موضعه في الخرابة.

بعد أن تبدلت حياة فتنة بلمسة إصبعه، فاجأته بالحياة بعيداً عن بحري. آخر ما يؤذنه له بالتحرك فيه — من اليمين — انحناءة الطريق ولسان السلسلة، ومن اليسار حد نهاية جانب قصر رأس التين. تنقلت بين بيوت ضباط الجيش الإنجليزي في الرمل، وترددت على البارات والكاзиноها في المنطقة. أعاد التجسد في هيئة آدمي، شاب وسيم الملامح، يرقب عودتها إلى بحري، أو الاقتراب منه.

تحدث السعداوي شبانة عن الحافزين اللذين أطلاً من أسفل جلياب الواقف أمامه. استوقفه لكبريت يُشعل به سيجارة. أدرك أن الرجل عفريت. هو عفريت الخرابة بما يُضمره من الأذى. ترافقت صرخته مع سقوطه على الأرض مغشياً عليه. لاذ العفريت — من صيحات المغيثن — بالخرابة. قفز فوق الجدار إلى الناحية الخلفية، واختفى.

لم يتسبب ما حدث في أذى بالسعداوي، لكنه ظل يعاني الخوف من الشوارع المهجورة والمظلمة. لم يتصور أن العفريت يلتقي البشر فلا يؤذيهم. أشد خوفه من الخرابة. ما رُوي عن العفاريت التي ظلت تسكنها لسنوات طويلة، منذ سقط البيت في ظروف خفية. تُثير الخرابة خيالاته، في وقفته في ميدان الخمسة فوانيس. تبدو جسداً من أطلال الحجارة والتراب، له وجه وصدر وذراعان وساقان. رأى الولد نخلة حماراً صغيراً يقف — بمفرده — في انحناءة الطريق إلى شارع الأباصيري. امتطى الولد الحمار، وسار به. خطوات، ثم لاحظ أن الحمار يعلو به، وتعلو ضحكاته بما يُشبهه ضحكات البشر. ألقى الولد بنفسه إلى الأرض، قبل أن يزيد علو الحمار. روى ما حدث بين لهاث أنفاسه.

اصطدمت قدما رافع عبيد — أول شارع الأباصيري — بتراب الطريق. علا التراب كسحابة، تشكّلت في ارتفاعها. أخذت صورة كائن يختلف عن تكوين البشر. رآه مدين — خادم علي ترماز — جالساً فوق سطح بيت من طابقيين بشارع الأباصيري. تدلّت ساقاه. لاحظ أن إحدى القدمين لآدمي، والقدم الأخرى لحصان. أغمض عينيه، وفتحهما. كان العفريت — هذا ما تصوره — قد اختفى من مكانه. لم يعرف كيف، ولا أين ذهب؟

خمن أن ما رآه من أفعال السحر. لم تكن حكايات المردة والعفاريت والأشباح والجان تُثير خوفه أو خياله. اطمأن إلى قول أمه: ما عفريت إلا بني آدم. نحن نخترع ما يُخيفنا.



دخل عفرية الخرابة في خناقة بين فتوات الأحياء في ميدان الخمسة فوانيس. آخر معارك الفتوات قبل أن يفرض البكباشي حمدي درويش إرادته. لأنهم يُفسدون على الناس حياتهم؛ فقد سعى العفرية بالفتنة بين الفتوات. حاول أن يُفسد ما بينهم. دفعهم إلى العراك، وتنقل بين المتعاركين ليزيد من اشتعال النيران. أصابته طعنة سكين، ففضى.

زوّده الله بالقدرة على التشكّل فيما يتيح له قضاء مآربه. الصورة التي يختارها العفرية تتحكم فيه، سواء كانت صورة إنسان أو حيوان أو طير أو حشرة. إذا واجه الخطر بالهيئة التي اختارها — الطعن أو الضرب أو إطلاق الرصاص — تأثر بكيفية تأثر المخلوق الذي تشكّل على صورته. نسي العفرية الأمر. نفذت طعنة السكين في صدره، فقتلته.

حين مال عليه شحاتة عبد الكريم ليغسله، ويكفنه، فتح العفرية عينيه، وقال بلهجة مطمئنة: لا تحرمني من مية الشهادة.

أدرك شحاتة أن العفرية من الجنّ المسلم، وأنه يجوز عليه ما يجوز على البشر المسلمين.

ترك شحاتة ما كان العفرية يرتديه — عند قتله: السروال والصديري والحذاء الكاوتش.

كانت الدماء تغطي الثياب، وتغطي الرأس والوجه، وما ظهر من جسد العفرية في هيئته البشرية.

كفنه شحاتة بثيابه. تركه لصبيانه يحملونه — داخل النعش — إلى مقابر العامود. روى شحاتة للشيخ إبراهيم سيد أحمد ما جرى، من أوصاه، ومات بين يديه، ليس من بني آدم.

عاب الشيخ على شحاتة ما فعله، وأدانته. الملائكة والجان سجدوا لآدم إلا إبليس، فإنه أبقى.

العفرية من الجن، وليس من الأبالسة. الصلاة على العفرية تخالف الدين. دفنه في مقابر المسلمين قد لا يقصر الإقامة فيها على عفاريت القيلة. تزدهم بعفاريت لا حصر لها. تجد في المقابر موضعاً أشد طمأنينة من الكهوف والخرابات والخلاء.

عندما التفت مقابر العامود بالظلمة، سبق التربي قمشة خطوات شحاتة عبد الكريم إلى حيث دُفن العفرية.

أهل البحر

رفعاً المجاديل، ومسح التُّربي داخل القبر ببطارية.  
كان القبر خاليًا إلا من عظام متناثرة، غابت عنها رائحة الموت.  
أدرك شحاتة أنها لموتى دُفنوا في زمن قديم.

انظر: إبراهيم سيد أحمد، حمدي درويش، رافع عبيد، سيسبان، شحاتة عبد  
الكريم، علي تمران، فتنة السعداوي شبانة، محمود سعيد.

## عروس البحر

لماذا كل الحكايات عن عروس البحر أنها ذات عينين زرقاوين وشعر أشقر؟ لماذا لا تكون سوداء العينين والشعر مثل بنات بحري؟

رُويت حكايات كثيرة عن جنيات البحر، عرائس البحر، حوريات البحر. اجتذبت رجالاً رَقَنَ لهن. تهبط الجنية بالرجل إلى أعماق البحر. تُنزله أحد قصورها التي تنعزل تماماً عن دنيا البشر. تُسَلِّمه نفسها — بالزواج — فيُنْجبان البنين والبنات. تُدرك أنه لا بد أن يعود — في يوم ما — إلى دنيا البر. تصعد به — في ذلك اليوم — وتتركه، ومعه نفائس ومجوهرات تُغنيه عن العمل حتى آخر العمر. ثمّة مَنْ تأخذه عروس البحر، وفي نَيْتِهَا أَلَّا تُعِيدَهُ.

تشدو بأغنيات جميلة، للصيادين والموج والطيور والأسماك والسفن ومخلوقات البحر، يختلط شدوها بصوت الريح وجيشان أمواج البحر، أغنيات كأنها شدو السماء. تجذب إليها الصيادين وراكبي البحر:

إني أنتظرك يا فارسي، يا أميري الجميل.  
سأرحب بك — حين تجيء — وأرقص لك بمفردك، وأغنيّ باسمك.  
أصحبك إلى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

إذا استغرقت في الشدو، فإن البحر يغطيه السكون. تهدأ الرياح والأمواج. حتى الطيور ومخلوقات البحر تسكت عن إطلاق أصواتها. إذا حزنت، أو استاءت، أو غضبت، فإنها تأمر ما في البحر ليتحرك، ويثور، ويكنس ما يقابله.  
تصل الأغنيات إلى مَنْ تقصدهم بها، هم وحدهم يستمعون إليها، ويلفهم التأثير. تأخذهم إلى عوالم الأعماق. يتزوجون، يتناسلون.

إذا تقدّم بهم العمر، عادوا محمّلين بالكنوز والنفائس. يلقاهاهم أهل بحري على الشاطئ، أو في جزيرة داخل البحر. ثمة من اجتذبتهم عرائس البحر داخل الأعماق، فلم يعودوا إلى الأرض.

رُوي أن شدوها اجتذب دياب عبد السيد الصياد. ظل يرنو ناحية الصوت:

إذا صحبتني إلى الأعماق ...

فأنت تنزل إلى المكان الأجمل ...

لا أعدك بالخلود ولا الثراء ...

لكنني أعدك بالحياة الخالية من المتاعب والأحزان.

حين تعالى صوتها بالغناء، ظن دياب أنه صوت الريح. تبين الكلمات، واتساق اللحن، فأصاخ السمع.

بدت له حورية البحر في جلستها فوق الصخرة، كأنها حلم. لم يلحظ انطلاق الفلوجة في البحر، حتى اصطدم بالصخور الصغيرة، المتناثرة أسفل الجزيرة. تحطمت الفلوجة. غابت وفوقها دياب عبد السيد داخل الأعماق.

لم يعد أحد يراه — من يومها — في ركوب البحر، ولا في شوارع بحري، ولا مقاهيه، ولا مساجده.

نسي طه عبد الفضيل ما قيل من كراهية عروس البحر لمن يرنو إليها بعينيّه. ثبّت نظراته عليها.

اعتبرت العروس ما فعل خطأ يجب محاسبته عليه. أمرت المارد في مدخل البوغاز. اصطاده في موضعه المفضي إلى داخل الميناء وخارجه. ابتلعه على هيئته، لم يُبق منه شيئاً. هي عروس البحر، حوريتها، جنيتها، سيطرتها لا يحدها أفق. البحار والمحيطات متداخلة، وكل ما فيها يخضع لأوامرها. مخلوقات البحر — بأمر منها — تركب الأمواج، وتركب البروق والرعود، والسحب المتسارعة. تتجه — بأخر ما عندها — ناحية الموضع الذي تقصده لإحداث الخطر، أو لدرئه.

هي ملكة مخلوقات البحر، وسيدتها، ما يمشي على أربع، وما يطير في السماء، وما يسبح في الماء، وما يزحف على بطنه، وما يأكل العشب، أو الأسماك. تُسخرها، تُسبّرها وفقاً لرغبتها وإرادتها، لا يمتنع منها شيء: الأمواج، الأعماق، المخلوقات، الأشجار، الرياح، العواصف، الأنواء، البواخر. تمتدّ سطوتها إلى كل ما تتخلله الأرض من البحار الصغيرة والبحيرات والأنهار والترع والقنوات والينابيع والعيون والغدران. حتى نافورات الميادين

تخضع ما فيها من أسماك صغيرة وظيفادع وقواقع وأصداف، وإن اعتبر الرئيس غريب أبو النجا من الكفر ما روي عن تحكُّم جنية البحر في أحوال الجو، وإشارتها للشمس فتبدل موضع طلوعها، وللحسب فتُنزل الأمطار في المواضع التي تُحدِّدها، وتغيّر خصائص الفصول، تأتي في غير الصورة التي عهدتها الناس.

تمتلك حيلًا لا نهاية لها لاجتذاب مَنْ تهبط به إلى أعماق البحر. إن أخفقت في اجتذابه، بدلت من هيئتها وسحنتها، فلا تبدو عروس بحر، جنية بحر، يختفي ذيل السمكة والبشرة العارية للمساء. تتجسد بشرًا سويًا، تجلس على الكورنيش الحجري، تكشف عن ساقَيْها، وتهزُّ قدمَيْها الحافيتين، وتمشُّط شعرها الأسود، الطويل. تبدو غريبةً في جلستها، كأنها اطمأنت إلى خلو المكان.

معظم تكويناتها في هيئة فتاة بالغة الجمال، أو دلفين لا يخشى راكبو البحر صداقته. قد تظهر عارية تمامًا بالقرب من الشاطئ، كأنها فتاة جميلة تستحم. تحرص أن تظلَّ على حسنها. تتحور، وتتشكَّل، وتُضفي النظرة على الملامح التي يعروها الذبول، لا يبدو عليها تقدُّم العمر، فجمالها متجدد.

تُومئ للرجل على الشاطئ. يخلع ثيابه، وينزل إلى الماء. تبتعد ليلحق بها. تضيق المسافة وتتسع، حتى يبلغان الغويط، فتجذبه إلى القاع.

تشغل البلائس — الذي تريد اجتذاب أحد ركابه — بإثارة الطبيعة من حوله. تُوقِف البلائسات في عرض البحر، تدور بالدوامات من حوله، تُبدل اتجاه الرياح، تُثير النوات، أو تمنعها. ترتفع الصيحات طلبًا للغوث. تمدُّ عروس البحر يديها وسط الصخب. تدفع مَنْ تريد إلى داخل الموج. تمضي به حيث تريد.

لمَّا قال السعداوي شبانة: كيف، وسكت، أدرك غريب أبو النجا ما يريد السؤال عنه. قال إن حوريات البحر لهن ما يُتيح اكتمال العلاقة مع رجال البر. لها وجه البشر، وجسد الدلفين. نصف السمكة الأسفل ليس مصمَّمًا تمامًا. هي تضاجع، وتحمل، وتلد، مثلها مثل نساء البر تمامًا.

كانت تُسدل شعرها كالشباك على مَنْ تريد جذبه إلى قاع البحر. يستهوئها — من ملامحه — ما يدفعها إلى احتضانه بعينيها. أغرت الكثير من الصيادين، فحاولوا اصطيادها بشباكهم. تتحول إلى سمكة صغيرة، تختبئ تحت الصخور الطحلبية.

قال السعداوي شبانة: سأصدق أن الجنية تهبط بمن تجذبه للعيش في الأعماق، لكنه لن يستطيع العيش دون تنفس.

قال غريب أبو النجا: للحرورية وسائل تُعينها على العيش في داخل البحر دون حاجة إلى التنفس.

تحدّث غريب أبو النجا عن ضحايا سحر عروس البحر وغوايتها، الرجال الذين صحبتهم إلى أعماق البحر، البلائسات التي حطمتها، لأن ركابها رفضوا أن تأخذ من تريده، مخلوقات البحر التي تدين لإرادتها، تفعل ما تقضي به، دون أن تسأل، أو تناقش، أو تتعلل بعدم القدرة.

قال أبو النجا إن من تلتقط جنية البحر التلّفت في عينيه، أو يظهر الرفض، تثبت نظرتها عليه. يتحوّل — في اللحظة نفسها — إلى تمثال من صخور البحر، أو إلى دخان أبيض يُغيّبه التلاشي.

تملك من فنون السحر — أنواعه، ووسائله، وتشكيلاته، وتركيباته — ما تخضع به البشر ومخلوقات البحر. حتى الطيور تتحكم في طيرانها، وما تفعله، والأفاق التي تنطلق إليها. تستخدم — في تعاويذها السحرية — ما في قاع البحر من أصداف وبقايا سمك وأعشاب. تُوقد نارًا على صخرة منعزلة، أو في شاطئ مهجور. تضع عليه قدرًا مملوءًا بالماء. تخلط فيه ما حملته من البحر. ترافق ذلك بتعازيم عالية، وهامسة، ومدغمة الكلمات.

تستطيع — بما تملكه من قوى خارقة — أن تُعيد أنواع السمك إلى أعالي البحار، وتُلحق الجذب بالسواحل المحيطة بالإسكندرية. تُحيل الأمواج إلى ما يُشبه مساحة الثلج الناعمة، المنبسطة، فيسهل السير فوقها. تعرف مواعيد تحرك النوات فتوقفها. تضع سحابة ثابتة أمام الشمس، تسلط عليها حرارتها، فتسقط المطر الذي يحتاجه الناس. يثق الرئيس غريب أبو النجا أن لعروس البحر السيطرة حتى على ما قد لا يحده الأفق، على الأشجار والنبات والشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار والطيور والزواحف والحيوان والبرق والرعد والمطر والغيم والرياح والصواعق.

تُسخر طاقاتها السحرية في إثارة الرياح والعواصف. تتحكم في قوى المد والجزر. تأتي بالنوات في غير أوانها. تكنس ما تصادفه: البلائسات والأكشاك والشباك والكبائن والفلايك الراسية على الشاطئ. تكتسح النخيل وأعمدة الإضاءة. تقذف بالأمواج إلى الطريق. يصل تأثيرها إلى الناحية المقابلة، فتغلق الدكاكين والنوافذ والشرفات.

تمارس سلطانها على مخلوقات الماء، كلها مخلوقة لها على الطاعة، لا تسأل، ولا تناقش، ولا ترفض. ربما انطلقت في موكب من حوريات البحر، يحطن بصدفة تجلس داخلها، يتراقصن، يصنعن التكوينات، يشدون بالألحان.

مَنْ يَحْيُونَ تحت حكمها من أهل البر، مَنْ تُغْضِبُهَا تصرفاته، تأمر الأمواج، فتعلو في هيئة الجبال، وتندفع تكتسح ما أمامها، أو تأمر خدمها. يقذفون به إلى قاع سفلي، أرضيته من الصخور الناتئة، الحادة. تمرّقه إلى أشلاء من اللحم والدم.  
 روى قنبر عبد الودود أنه شاهد عروس البحر — مرات كثيرة — وهي تمشّط شعرها على حافة صخرة الأنفوشي. تصعد من داخل البحر، فتستلقي على الصخرة.  
 واصل انطلاقه بالقرب، دون أن يحاول التلّفُ ناحيتها، فلا يناله أذاها على أيّ نحو.

قال غريب أبو النجا: عروس البحر قدّم سعد وليست مصدرَ شرّ.  
 قال خلف زيدان: كيف أتصرف لو أن قدم السعد لم تكن كذلك؟  
 ثم وهو يُشّيح بيده: لا أميل إلى المخاطرة!

كان يحرص على أن يبدّل اتجاهه في البحر، حتى لا تفتن إليه الأعين المتابعة. يعرف أن قدرة الجنية تتجاوز اجتذابه إلى الأعماق. مَنْ يعلو صوته باستغاثته، أو يُبدي الرفض، تُلامس رأسه، وتتلو تعاويد. يتحوّل بها إلى سمكة صغيرة، وتتركه في الماء لتلنقطه شباك الصيادين، أو تأكله الأسماك الكبيرة.  
 علّت ضحكات السخرية وعدم التصديق، لما روى السعداوي شبانة ما فعله عند رؤيته لعروس البحر جالسة على الصخرة.

كان القارب بمفرده، يحمل الطراحة إلى العميق. دفعته رغبة لم يتدبّرّها.  
 أومأت عروس البحر باستجابتها. أشارت له حتى يأتيها.  
 خشي أن تكون دعوتها له حتى تؤذيه.  
 وضع قوته في التجديف، عائداً إلى الشاطئ.

قال غريب أبو النجا: لن تحتاج إلى حيلة للإمساك بك!  
 وفي لهجة تسليم: يكفي أن تأمر الموج فيحملك إليها!

حلّت لحظة صمت متوترة، شرد الرجال في التصورات التي لا نهاية لها.  
 ما تريده عروس البحر لا بد أن تحصل عليه. إذا أفلت من حضنها، فهو مجرد حلقة في سلسلة نهايتها أعماق البحر. قد يناور مَنْ تسعى لاجتذابه. قد يفرّ بجسده بعيداً، لكن الفعل المشابه لفعل النداهة يلحّ عليه، يُنسيه ما كان اعتزمه من عدم العودة إلى البحر. يعود إلى البحر والذهن خالٍ من ترصّد عروس البحر، تجتذبه في لحظة لا يتوقعها، تحسن اختيارها.

تجيد التحكم في أذهان راكبي البحر، والسيطرة عليها، واختلاق ما ليس موجودًا ... على معرفة بما في أعماق البحر من مخلوقات، أسماك هائلة، ووحوش، وعفاريت، ومردة، وأرواح. مَنْ يستهويها، تكفل لنفسها حمايته. تدافع عنه — وعن سفينته — ضد كائنات البحر التي تُضمر الأذى، وضد النوات والعواصف والأعاصير.

أمرت المئات من مخلوقات البحر. وقفت — خارج البوغاز — لنوة الفيضة الكبرى. تحدُّ من اندفاعها، أو تلغيه.

كانت النوة قد أغرقت السفن الراسية على الشاطئ، وهياكل البلانسات واليخوت في القزق. اكتسحت ما صادفها. عبرت الرصيف المقابل إلى داخل الشوارع والبنيات في الأنفوشي.

إذا أخفقت في محاولاتها، فإنها تلجأ إلى صرف انتباه الكائنات الشريرة، وتُخلص في الدعوات حتى تنقش الغمة التي تُهدد بالغرق والموت.

تلحظ أن تردُّ الصيادين يقل داخل البحر، أو على الساحل، لصيد الجرافة أو الطرّاحة أو السنارة، تعرف أن الصيد لم يُعد وفيرًا. تسبح إلى مواضع متناثرة. تضرب الموج بذيلها. يرافق الفعل صوتٌ شدوها الذي لا يُخطئه راكبو البحر. ينبثق في مواضع تحرك الذيل نافورات من السمك، بألوان وأشكال وأحجام لا نهاية لها.

انزلقت قدمُ الصياد صادق عبد المعز — بالخطأ — من قاربه. علا صوته بالاستغاثة. لم تكن قد أمرت باختطافه، ولا حاولت اجتذابه إلى أعماق البحر. تألّمت لصراخه، وقلّة حيلته في السباحة والعودة إلى القارب. حولت سمكة كبيرة إلى ما يُشبه قطعة الخشب. مالت ناحية الصياد، فتعلّق بها. مضت به في اتجاه الشاطئ.

ساعدت رفقي زلابية في العثور على كنز أبيه المفقود. بلغها سوءُ تصرفه، وميله إلى فعل الشرِّ. أمرت أعوانها، فاختطفوه من بيته. وضعوه في الجزيرة الصخرية قبالة الأنفوشي. تشاغلت بتسريح شعرها وهي تشاهد المارد يواجه رفقي بما لم يكن أعدّ له نفسه، ولا تصوّره.

يروي — عن هذه الجزيرة الواقعة في أفق خليج الأنفوشي — حكايات كثيرة. هي الموضوع الذي اختارته حورية البحر موضعا للجلوس فوق الأمواج، شعرها الأسود، الناعم، ينسدل حتى يلامس الصخرة. تجلس إلى نفسها، تتأمل السفن وتبدلات الجو، تُحدّث المردة والجان ومخلوقات البحر بما في نيتهما، وما ينبغي أن يفعلوه. ربما



انزلقت من الصخرة إلى البحر. تسبح فوق الأمواج، مسافة قصيرة، ثم تهبط إلى الأعماق كالغواصين. تتسع دوائر الموج، متلاحقة، ثم تبدأ في التلاشي.

تسحب كرم على الصخرة دون أن يُصدر صوتاً. أمسك بشعر عروس البحر. في لحظة تصوره أنه يستطيع أن يلفه حول جسدها، فيقيدها، تحوّل الشعر إلى خصلات، وتحولت الخصلات إلى ثعابين رفيعة، طويلة. أنقذ نفسه من أذاها، بالقفز في البحر.

تابعته العروس — بعين مشفقة — وهو يعوم — بأخر قوته — ناحية الشاطئ. كانت عينا عروس البحر قد وقعتا على كرم حامد وهو نائم. أحبته كما لم تحب كل من رأتهن، تمنّت أن تصطفيه لنفسها، تمتلكه، تأخذه إلى الأعماق، يشاركها العيش في دنياها الحافلة بالجمال وما لم يره أهل البر.

اخترقت صدره بيدها. أخرجت قلبه المغطى بالدم. قرّبت من شفّتيها. تمتمت بما يُشبه الدعوات أو الرقّي، ثم أعادته. جرّت على موضع الجرح بشفتيها. غاب أثر الجرح كأنه لم يكن.

ألّفت الجلوس على الصخرة، منذ أحببت كرم حامد. حاولت استمالته بالغناء، وبتقمّم أشكال الإنس والطير والحيوان. تجتذبه إلى دنيا الأعماق، تهبه الحب والموانسة والسحر، والثراء الذي يبذل أحواله حين تُعيده إلى الأرض. ظل كرم على ابتعاده. لم يلحظ محاولاتها.

هل كانت حورية البحر تعرف ولادة كرم حامد من أبٍ جنّي؟ هل أحبته لاقترابه من صفتها؟ أو اجتذبتها فيه الوسامة والفتوة؟

لم تواجه الحورية كرم بمشاعرها. لم يفتن هو إلى تلك المشاعر أصلاً. ظلت تتبعه عند نزوله إلى البحر، تلاحقه بأغنياها وتحولاتها الجسدية، والسباحة إلى أماكن وجوده. حين ظهرت على هيئة سمكة هائلة الحجم، قذفها كرم بسكين في يده، طفرت بالدم في جنبها. تصرّف أملتة العفوية، ليبعدها، أو ليخيفها.

كانت جالسة على الصخرة. قالت وهي تشير إلى جنبها: انظر ماذا فعلت؟ لم يتدبر كرم قولها: سأترك دمي ليذكرك بي! ظنه هواجس، أو رؤى غير مفهومة. لم يستطع التأكد، إن كان ما حدث قد رآه بالفعل.

شقّ عليها ما فعل، وإن استعذبت عروس البحر الألم. لم تحاول الثأر على أيّ نحو. لم تأمر مخلوقات البحر، ولا أقدمت هي نفسها على فعل شيء. تركت ثقب الدم حيث

كانت تجلس فوق الصخرة، يرادفها الأمل في أن يهبها كرم إنصاته، يلتفت إلى محاولات استمالتة. يرنو — عند ركوبه البحر — إلى موضع الدم، فيتذكر فعلته. ظل الثقب في الصخرة — من يومها — يُسقط قطرات الدم، تصنع خيطاً من الحمرة، يضوي في ألقى الشمس، تتاح رؤيته — بالعين المجردة — لمن يقترّب. يختلط بمياه البحر، يذوب في زرققتها.

تعددت الروايات حول مصدر النبع.

تحدّث كرم حامد عن السكين التي أصابت عروس البحر، وإن هزّ كتفّيه لرواية عليه عشاوي بأن الحورية حرصت أن يظل تساقط الدم، حتى تظل حكاية حبها لكرم حامد باقيةً في وجدان أهل بحري، وقال خليفة كاسب إن ما يبدو دماً هو ألقى الشمس على نتوءات الصخرة، ورجحت رواية أن ثقب الدم واجهة كهف تحيا فيه مخلوقات البحر. لم يُفلح بلوغ الأمواج موضع ثقب الصخرة في إزالة قطرات الدم المتساقطة. قذف الصيادون بالماء على موضع الثقب. يدفعهم التشاؤم — وربما الخوف — لرؤية الالتماع في خيط الدم المتساقط من ثقب الصخرة. صعد إليه من حاول تغطيته، لكن الدماء المتساقطة ظلت على حالها.

ما أذهل الجميع أن زهوراً انبثقت من قلب الصخرة، من داخل الصخرة نفسها، وليس من شقوق تتخللها، كأنها ترتوي من سرسوب الدم.

بدأ العمال — بأمر من البكباشي حمدي درويش — إزالة أجزاء من الصخرة، مقصدهم إزالة الصخرة كلها. أتوا بديناميت مما يلجأ إليه الصيادون لصيد السمك. في اقترابهم من موضع الصخرة، فاجأهم اختفاؤها. غابت كأنها لم تكن. البحر يمتد حصيرة، في المساحة التي كانت الصخرة تبرز فيها بصخورها المدببة، ولعة الدم المنساب من الفجوة.

لم تتفق الروايات حول ما إذا كانت الصخرة طرح بحر، انحسرت عنه المياه، كما طرح النهار، أو أنها قديمة في موضعها قدّم خليج الأنفوشي، لا زمان محدد لها. قيل إنها من بقايا الزلزال الذي شهدته الإسكندرية في عصر البطالمة. إسكندرية الثانية فوق إسكندرية الفراعنة، الأولى. هدأت الأمواج، واستقرت اليابسة. لم يُعد مما كان سوى الصخور والجزر المتباعدة في امتدادات الأفق.

روى غريب أبو النجا أن الصخرة علّت في الأمواج بأمر من ولي الله الأنفوشي. يطلّ من قمته المسنونة — في فترات متباعدة — على بحري: المادّن والبيوت والميادين والشوارع

والأسواق والحداثق والخلاء والمارة الذين، مهما ابتعدت أماكنهم، فإن العينين الحادّتي النظر تتبينان حتى التجاعيد الصغيرة في البشرة.

أذهل العمال أنهم — كلما اقترب البلانس من الجزيرة — غاصت في المياه. غمرتها الأمواج تمامًا.

أدرك شوقي أبو سليمان — بتوالي اختفاء الصخرة — أن القوى الخفية في البحر تريد أن يبتعد التدمير عنها. تصرفات أقرب إلى مكاشفات الولاية وبركاتها.

قال حمدي درويش في نفاذ صبر: لولا الدم المتسرب منها، كنا حوّلناها إلى مرسى للنشات في قلب البحر.

قال شوقي أبو سليمان: المرسى يحتاج إلى أرض مستوية. معظم سطح الصخرة رءوس مدببة!

وزفر في ضيق: هذه صخرة مستحيلة!

قال حمدي درويش: يغيظني أنها بلا فائدة. أما أخطارها فلا حصر لها. وضغط على شفته السفلى كمن يمضغها: أقل الأخطار أن القوارب قد تصطدم بها. قال شوقي أبو سليمان في لهجة محذرة: هل نسيت ما جرى للشطبي ناظر وقف جوربجي؟!

قال حمدي درويش: لم يُعد أماننا إلا أن نلعننا!

— لماذا؟ ... لعل في وجودها فائدة!

— هي بالدم المنبثق منها مثل الموت الذي سيُنهي حياتنا!

— ربما لأن الدم المنبثق منها أغرق الشطبي ناظر الوقف.

سحق حمدي درويش بقايا سيجارته في المنفضة: أعرف أنه فعل ما يستحق عليه نهايته!

وعكست عيناه شعورًا بخيبة الأمل: إذا قضينا على الموت فإننا نستطيع أن نتخلص من الصخرة.

قال شوقي أبو سليمان: الموت حتم. لكننا لا بد أن نجد وسيلةً لتدميرها! ظلت الصخرة في موضعها. منبعجة، غير مستوية الأطراف، وزواياها غير حادة، ويغيب عن تعدّد أسطحها الاستواء والنعومة. حتى الحواف ضيقة، فيصعب الجلوس عليها.

تطول جلسة حورية البحر فوقها إلى الليل. تجلس في ضوء القمر. يضوي شعرها المسدل على ظهرها بما يُشبه الألق.

لم يتحدث محمود سعيد عن أنه رأى عروس البحر في جلستها فوق صخرة الأنفوشي. تكلم أهل بحري عن المرأة الجميلة ذات الذيل السمكي، والجلسة المتكررة، والغناء، واجتذاب راكبي البحر.

كان يُدِيم التطلع — من موضعه — إلى الصخرة في مدى الأفق.

هل رآها، فاكتفى بالموديل تعبيراً عما رأى؟

المرأة أمامه عارية، وسط البحر والمراكب والسماء المثقلة بالغيمة وخط الأفق البعيد وأجواء السحر والأسطورة والموسيقى الغامضة والألوان الحارة وفضاءات البني والأزرق. قال عمران الخولي إن عروس البحر تسلقت الصخرة، في أثناء انشغال محمود سعيد بالرسم، وإنه لمح النظرات المتبادلة بين الفنان وعروس البحر، كأنه شرد في نظراتها، أو أنه أراد التأكد مما رآه.

يثق أن اللوحة ليست انعكاساً لجلسة الموديل، لكنها الحورية وسط المشاهد التي روى من رآوها أنها — حين تجلس على الصخرة — تحيط بها.

انظر: أبو حلاوة، حمدي درويش، رفقي زلابية، شوقي أبو سليمان، عمران الخولي، غريب أبو النجا، كرم حامد، محمود سعيد.

## عصمت هانم محسن

اسمها الكامل عصمت محسن حسن الإسكندراني. وُلدت في الإسكندرية عام ١٨٩٧م. جدُّها أمير البحر حسن باشا الإسكندراني، أحد قادة الأسطول المصري في القرن التاسع عشر. أبوها محسن باشا من كبار رجال الدولة. أمها عزيزة حسن ابنة الأمير حسن إسماعيل. شقيقها عزيز حسن من قادة الجيش المصري الذين شاركوا في حرب البلقان عام ١٩١٢م. لُقِّبت بأُم البحرية، وكتبت العديد من المؤلفات باسم بنت بطوطة.

لم تتعد لا هي ولا عائلتها عن بحري. وحين أسَرَ جدُّها سفينتين يونانيتين، وعاد بهما إلى الإسكندرية، رُقِّي إلى رتبة اليوزباشي (النقيب)، ومنحته الدولة بيتًا بشارع أبي وردة.

التردد على البحر عادة يومية، أَلْفَتْهَا. تصيد، تستقل اليخت، أو القارب الشراعي، تغطس إلى عمق قريب.

أحبَّت البحر من حُب أفراد أسرتها له، وارتباط حياتهم — وموتهم أحياناً — به. «البحر تعبير سما على بقية التعبيرات اسمًا ومعنى، فهو مهد الكائنات ولحدها، ومبعث الأمل، ومنشأ اليأس، يختار لنفسه مَنْ يشاء من الناس، فيُسعده، ويُعلي من شأنه، ويرفع من صيته».

ركبَت البحر إلى لبنان وسوريا وتونس والجزائر والمغرب والأندلس. أجادت قيادة السفن الشراعية واليخوت والبلانسات. تنقَّلت — على سفن صغيرة — بين مواني البحر المتوسط ومواني البحر الأسود، شاركت ملاحِي السفن الصغيرة مخاطر ركوب البحر. تردَّدت على المتاحف والمكتبات في فرنسا وبلجيكا وسويسرا. تواصلت رحلاتها ثمانية عشر عامًا.

سمّيت بنت بطوطة، تشبيهاً بابن بطوطة، أشهر الرحالة العرب. قرأت في كتب التراث، وأخبار المعارك البحرية، ورحلات الملاحين القدامى، وجرائم القراصنة، وفي أحوال البحر وتقلباته، وأخطار العواصف والنوّات، وأماكن السكينة والخطر، والوفرة والجذب. عرفت من أحوال البحر ما لم يعرفه الذين اتخذوا ركوبه مهنةً لهم.

كانت تقرأ عن المعارك التي خاضها حسن باشا الإسكندراني. تحتفظ بالكتب والدوريات والصحف التي تتناول سيرته. حتى القصاصات الصغيرة، تُلصقها على ورق، تُودعها درجاً في المكتبة. تستغرق في القراءة والتأمل والشروء. تُعيد رواية ما حدث، كأنها شاهدها، كأنها شاركت فيه.

أمير البحار حسن باشا الإسكندراني. اسمه الأصلي زكريا. نجل الإمام حسن، أحد رؤساء قبائل الشراكسة. قَدِمَ إلى مصر مع أبيه على ظهر سفينة شرعية. أقام الابن في بيت سلحدار شركسي، وسافر الأب في رحلة حج لم يُعده الموت منها. تعلّم زكريا صناعة الأسلحة، وعيّنهُ الوالي محمد علي (عام ١٨١١م) في الديوان.

دخل زكريا حسن مجال العسكرية، وأزمع الالتحاق بالبحرية. بدّل اسمه إلى حسن، وتلقّب بالإسكندراني. ثم سافر (١٨١٧م) في بعثة تعليمية إلى فرنسا. درس العلوم والفنون البحرية. عاد — في مطالع ١٨٢٥م — حيث عُيّن ضابطاً بحرياً برتبة ملازم. تولى قيادة إبريق تابع للأسطول المصري. رُقّي إلى مناصب أعلى. شارك في العديد من المهام، حتى أُصيب في معركة نافارين.

تحيا عصمت وسط المعارك البحرية، وحكايات القراصنة، والمغامرات، والخوارق، ومخلوقات البحر، والملاحم الغاضبة والخائفة والمتألّمة والمتشفية والمنتصرة، وخيالات الموتى، والقتلى، والمقطوعي الأنوف والأذنان والأرجل، والمشجوجي الرءوس، والمسمولي الأعين. تتعالى الاهتزازات القاسية، والأوامر، والنداءات، وأصوات المدافع، والتأوهات، والعويل، والصراخ، والأنين، والنحيب، والحشرات. تومض قذائف البنادق والمسدسات والمدافع، وانفجارات القنابل، وفرقعات البارود، ونبثات الشظايا، والشرر، واللهب، والوهج، ووميض البروق والرعود، واختلاط الألوان، تندلع النيران والأبخرة والدخان والحرائق والرياح السوداء. تصطبخ الأمواج. تتهاوى الصواري والأشعة. يتناثر الحطام وأشلاء القتلى. تهبط السفن إلى الأعماق. تستقر في قاع البحر. تصطبغ المياه بلون الدم. يرافق صوت جدها — الذي لم تره — ارتفاع سيفه، وهو يعلو بالقول: هذه مكيدة. وهو يأمر، ويحذر، ويوصي، ويشرح الخطط.

أبحرت إلى المورة سبعون سفينة، من بينها ثلاثون سفينة تجارية نمساوية وأيونية محمّلة بالإمدادات. تأخرت أياماً بسبب الرياح القاسية، ثم وصلت بين السادس عشر والعشرين من ديسمبر ١٨٢٦م. عُني حسن الإسكندراني بتسريح المئات من البحارة الأتراك، وإحلال أطقم مصرية — بالكامل — محلّهم.

تنام وتصحو وليس في خيالها سوى البحرية، والبوارج، والفرقاطات، والحراقات، والزوارق، والصواري، والأشعة، وسفن نقل الجنود، والمدافع، والقراصنة، ولصوص البحر، وبراميل البارود، والقراويت، والقوارب، والصنادل، والرافعات، وحوض إصلاح السفن.

إذا جاء الليل، أغلقت الباب والنوافذ في حجرة المكتب. الجدران مغطاة بالمجلدات. معظم ما بها عن التاريخ والآثار. وبلوحات المواقع البحرية، وقادة البحرية المصرية القدامى. تُقلل من الإضاءة فلا تبين إلا عن الجالس أمامها. الجالس هو جدّها حسن باشا الإسكندراني. أطالت التحديق في الصورة المعلقة على الجدار حتى حفظتها. أودعتها ذاكرتها فلا تنساها: السحنة البيضاء المشربة بحمرة، الذقن التي وخطها الشيب، العينان النفاذتان. تستعيد معاركه وانتصاراته، حتى معارك القرم. دمر القصف أجزاءً من سفينة الفريق الإسكندراني «مفتاح جهاد». دفعت بها العاصفة العنيفة، المفاجئة، إلى قرب ثلاثين ميلاً من البوسفور. اصطدمت السفينة بالصخور، فانشطرت نصفين. رفض الإسكندراني — كما تقضي قواعد القيادة — أن يترك سفينته للنجاة. انتهت سيرة حياته في ٢٥ أكتوبر ١٨٥٤م.

لكثرة ما قرأت عن موقعة نافارين: البحث عن ذريعة للقضاء على الأسطول المصري، اعتبار الوثائق والمعاهدات أوراقاً لا قيمة لها، المفاجأة الغدر دون باعث حقيقي، ولا إنذار، ولا إعلان حرب، إغراق السفن المصرية، حتى ما رفع بحارتها رايات الاستسلام ... لكثرة ما قرأت عن الموقعة الكارثة، صار الشك جزءاً من تكوينها. تهبّ إنصاتها، ولا تهبّ ثققتها، تسأل، تناقش، تتأمل، تتدبر، تصل إلى رأيٍ تحيطه — ما وسعها — بأسوار الشك، وعدم الثقة.

ثثق بمن حولها. لا تبذل جهداً للتعرف على ما قد يُضمرون. تصدّقهم دون أخذٍ ولا رد، أو استشفاف ما قد تُضمّره النفوس.

يتغير الحال أمام من يقصدونها — لأعمال — بالهدوء والمحالية. لا تُعطي ثققتها حتى بعد أن تُبدّي الموافقة.

تسلم الخيال، يقوده جُدها إلى نافارين.

٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م، ذلك اليوم الحزين. واجه الأسطول المصري مؤامرة تحطيمه، فتغيب منافسته في سيادة البحر. تعود مصر— كما كانت — ولاية في دولة الخلافة التي تعيش أحوامها الأخيرة.

كان قد مضى ثمانية عشر شهرًا على انتهاء معركة «سريجو». قطع الأسطولان المصري والتركي مسافةً طويلة حول السواحل اليونانية، حتى أَلَقَتْ مراسيها في خليج نافارين جنوبي المورة في أغسطس ١٨٢٧م، ٨٩ سفينة، تضمُّ بوارج وفرقاطات وقراويت وسكونات، ٣١ سفينة للأسطول المصري، منها جهاد. وقيادتها لمحرم بك، صهر الوالي محمد علي، ومن كبار مساعديه حسن الإسكندراني. وثرىا، وإحسانية، وبرج الظفر، وجيلان، ورشيد، وزهير جهاد، والتمساح، وشير جهاد، ونافارينو، وليون، وواشنطن. رسا الأسطول — تُرافقه ٨٨ سفينة تركية، في مقدمتها «بندينو سيريت، بقيادة الأميرال طاهر باشا — في خليج نافارين.»

تَصِفَ عصمت محسن خليج نافارين — صباح ذلك اليوم — وصواري سفن الأسطولين التركي والمصري متراصة، كأنها أشجار غابة، والسفن تتأرجح وادعة، وهي مستقبلة على مخاطيفها. وثمة بيوت صغيرة بيضاء تطل على الميناء، «كأنها كانت تستيقظ وتتمطى، مستقبلة ضوء شمس الخريف، وقصر بليو كسترون البيزنطي، وقد تحوّل إلى أنقاض، ثم أصلح على عجل، وقلعة نيو كسترون القديمة ذات الطراز البندقي، وعلى أسوارها جثم عددٌ كبير من المدافع، كأنها ضوار تتحفّز للوثوب. أما الجو فكان مشبعًا بالبخار، لكنه صافي الأديم.»

علت صيحة مفاجئة: في الأفق إلى اليسار سفن قادمة.

ردد مراقبو السفن الصيحة، انتقلت من سفينة إلى أخرى، حتى بلغت آخر سفينة في الخط، في أقصى الطرف الثاني، كأنها الصدى المتصل، ثم حلّ السكون. ظهرت في الأفق سفنٌ لا حصر لها. اقترب الأسطول الإنجليزي، تلاه الأسطول الفرنسي، ثم الأسطول الروسي. تشكّلت الأساطيل الثلاثة في صفين، أحدهما إلى الشرق. تألّف من ثلاث سفن إنجليزية، تتقدمها الفرقاطة «وردتمادث»، وأربع سفن فرنسية بقيادة اللورد كودرنجتن. أما الصف الثاني، فيتألّف من ثمانية سفن روسية، تتقدمها السفينة «أزوف».



وشى تحركُ الأساطيل الثلاثة بما يصعب إهماله. أمر قائد الأسطول المصري محرم بك (أطلق اسمه على حي مهم بالإسكندرية) أحد ضباطه أن يطلب من قائد الأسطول الإنجليزي الأدميرال اللورد كودرنجتن، أن يراعي وجود السفن المصرية والتركية في الخليج. قال كودرنجتن: أنا أراها جيداً.

– أهدر من إمكانية وقوع حوادث.

– جئت لأعطي أوامر لا لأتلقاها.

وربّ صدره: حماية استقلال اليونان مسئوليتنا.

حمل الأدميرال الضابط المصري رسالةً إلى محرم بك، تطلب نقل الأسطولين المصري والتركي بعيداً عن الخليج، أو إفراغ السفن من الجنود.

كانت السفن المصرية في وسط الخليج. تُشكّل مع الأسطول العثماني – على يمينها – هيئة الهلال. بدت الحركة أمامها صعبة، وأكثر تعرضاً للقصف.

أدرك محرم بك أن ما طلبه الأدميرال الإنجليزي يعني أمرين: التسليم بلا شروط، وترك السفن ليستولي عليها الحلفاء، أو تعريض السفن المدافع السفن المعادية، فتدمرها، أو تغرقها.

قال محرم بك في محاولة لمنع الكارثة: نحن لن نطلق النار ما ظلوا ممتنعين عن إطلاقها.

لكن الانفعال أطلق القذائف الأولى من سفينة مصرية، وانطلقت المدافع من كل ناحية كأنها الجحيم.

أطلقت السفينة الفرنسية «سيرين» أول قنبلة على السفينة «إحسانية». جاءت الفرصة للضابط حسن الإسكندراني حتى يحصل على مكانته. ردّ على القصف بمثله. واصلت مدافع سفينته إطلاق قذائفها بلا توقف. ساعدتها الفرقاطة «ثريا» بإطلاق مدافعها على السفن المعادية. أطلق من القذائف ما دمر سفناً كثيرة للإنجليز والفرنسيين والروس.

ظل الإسكندراني يقاوم، ويردّ القصف بمثله، إلى قرب الغروب. اختار الجنود أن يغرقوا، ورفضوا الاستسلام. انفجر مخزن البارود، فانشطرت «إحسانية» إلى نصفين، ثم تحولت إلى حطام، تناثر فوق الأمواج. تحطمت ٣٤ قطعة من الأسطول المصري. غاصت في أعماق البحر جثث الجنود المصريين، وحطام السفن. لا أسرى في الجنود، ولا في السفن. لم يُقلت من الغرق سوى الفرقاطة «ليون»، وأربع حراقات، وستة مراكب من ذات الساريتين، وأربعة مراكب شراعية صغيرة. لوجود تلك القطع خارج نافارين،

فقد انطلقت في رحلة العودة إلى مصر. لم تستسلم سفينة واحدة، واعترف الحلفاء أنهم أخفقوا في أن يأسروا أية سفينة.

قفز الإسكندراني إلى الماء جرياً، يساعده جنوده. حصل — في روايات الجنود — على المكانة التي تعتز بها حفيده. لم يهجر الإسكندراني البحر.

خاض المعارك، امتدَّ تأثير قيادته إلى الأمواج، والرياح، ومخلوقات البحر، طوَّعها لتُشاركه في دحر سفن الأعداء، نال لقب أمير البحر، أشرف على الترسانة وأحواض بناء السفن.

حاولت الشركات الأجنبية أن تُعيق عمليات بناء الترسانة، وتطويرها. أدركت أن المشروع الجديد قد يؤدي إلى توقُّف نشاطها في المنطقة. لكن حسن الإسكندراني واصل الإعداد والتنفيذ. أصبحت الترسانة البحرية — في مدى ثلاث سنوات — من أهم المنشآت الحربية في مصر. أُقيمت — على طول رصيف الميناء — ورش للصواري، وللأجهزة الخاصة بها، وللأشعة، والقلوع، والفلايك، والبويات، والبكر، والأعلام، ومسكن مديري الترسانة وموظفيها، ومخازن الأخشاب، وورش صناعة المداخن والرصاص والبرامل، وورش الحدادة والسباكة وصناعة الحبال. أُضيف إليها حوض جاف، انتهى بناؤه في ١٨٤٤م.

كان محمد علي — الكلام لرفاعة الطهطاوي — «يُديم النظر في السفن عند صناعتها، ويصوِّر الغرض منها. وكلما شارفت الإتمام، ازداد فرحاً وسروراً. وإذا نزلت في البحر، لم يتمالك نفسه مع ما كان عليه من كمال الهيبة وحفظ ناموس الوقار، أن يُظهر إمارة السرور؛ فلهذا كملت عنده دونانمة ملوكية طبق مرامه، وطقمها بالمدافع والعساكر، ونظمها على نسق نظام العساكر البرية.»

عادت إلى الأسطول المصري مكانته القديمة.

ثم أصبح حسن باشا الإسكندراني في يونيو ١٨٣٧م وزيراً للبحرية.

أمضى معظم وقته في تحصين الشواطئ المصرية، يدعم القلاع، يُشرف على نظام الدوريات، يسيِّر جماعات الاستطلاع والإشارات. أشرف بنفسه على بناء حاجز صخري في الجهة الجنوبية للميناء القديم.

قال حسن الإسكندراني: كانت أية محاولة للتحديث والتقدم مقضياً عليها بالفشل، ما لم ينشأ أسطول بحري يدافع عن السواحل المصرية، الطويلة. وقال الإسكندراني: كانت

نافارين ضربت قاتلة للقوات البحرية المصرية، لكنها لم تنل من إصرار الوالي على إصلاح ما أصيبت به السفن من أضرار وتلفيات، وإعادة تصنيع سفن جديدة. وقال: بعد هزيمة الأسطول المصري في نافارين، ظل الباشا على إيمانه — ومحاولاته — بضرورة استعادة السلاح البحري لعافيته. وقال: حين عهد لي الوالي محمد علي بمهمة إصلاح ما دمر من الأسطول المصري في نافارين، أرجأت تشييد السفن في ترسانات أوروبا. أزمعت إنشاء ترسانة الإسكندرية لبناء السفن المصرية فيها. كان لا بد — لتقليل الإنفاق العسكري، وللتخلص من كساد التجارة المصرية — أن يقتصر بناء السفن على ترسانة الإسكندرية. قال الإسكندراني: عوّضت الخسائر، وأصلحت الأضرار، وشيّدت الكثير من السفن الجديدة. وبعد عامين على الكارثة، بلغ عدد السفن الجديدة ٨٩ سفينة، فوقها ٩٢٢ مدفعًا. وقال: الآن، لا أحب لنفسي أن أكون مكان ذلك القائد المسكين المكلف بالهجوم على الإسكندرية.

كتبت عصمت محسن في الصحف الفرنسية، وألّفت كتبًا بالفرنسية، عن أشهر المواقع الحربية التاريخية الفاصلة: حطين، عين جالوت، شريش، وغيرها. ألّفت «المغامرات البحرية»، «بطولة قرصان»، «صفحات من تاريخ البحرية»، «معركة نافارين». أعادت طبع كتاب حسن الإسكندراني عن فن الحرب البحرية.

لما عادت إلى مصر واصلت الكتابة في الصحف المصرية. محور انشغالها ما يتصل بالتاريخ العربي، وانتصارات المصريين في المعارك البحرية، ومخاطر الحياة في البحر عمومًا «إن للبحر قضاء، امتزجت قسوته بعذوبته، وسخريته بعطفه، حتى ليعز على المرء أن يضرب عنه صفحًا، أو أن ينتني عنه بعطفه. إننا نلجأ إليه دائمًا بأيدي مبسوطة وقلب ملتهب، يزداد ضرامه عندما نقف مسيطرين على الدفة ... الرجل — وهو قابض على الدفة — رمز للنبل والشهامة؛ فكلما ابتعدت عنه الأرض، زالت عن نفسه الصغائر، فالبحر كفيّل إذن بتنقيته من رذيلة الزهو والخيلاء، وكلما اتسع الأفق في عينيه، اتسع في بصره جوّ الفضاء «وأصبح رجلًا كاملًا».

استقبلت في قصرها قادة ووزراء وسفراء وأجانب وشعراء وأدباء وهواة فنون، إلى جانب أصدقائها الشخصيين من أبناء طبقتها. يتنقل الخدم بزيهم الموحد: القفطان الأسود ذي الحزام الأحمر.

إذا طالت إقامتها في مصر، اعتلت البحر ببيختها الخاص. حرصت على تجهيزه بنفسها. قرأت عن الخديو عباس حين تابع — في جلسته بشارع عماد الدين — عملية

بناء العمارات التي سُميت باسمه. أدوات الصيد الآلية، أجهزة كشف قاع البحر، وزوايا الاتجاه، وقياس الأعماق، تنجيد الحوائط لامتناص الصدمات، السجاد المضاد للحريق، الموائد المقعرة، لا يُطيح الاهتزاز بما فوقها. أضافت ماكينة صغيرة لتحلية مياه البحر. تضع في قمرتها باليخت بوصلة، وخريطة، وجهازًا لتحديد الأعماق. تصيد البياض والبلاميطة، والمياس أحياناً. ربما امتدت رحلتها إلى البحر الأحمر، تحب الشعب المرجانية. تصيد الشعراخ والتونة والدراك وغيرها، أسماك تخلف أشكالها وألوانها ومسمياتها، تعرف كل سمكة باسمها.

القصر بُني على هيئة القلعة، من الحجر الأبيض، ذو ثلاثة طوابق. بابه الرئيسي يُطل على ميدان سراي رأس التين. الحديقة المحيطة به مزروعة بأشجار الكافور والصبّار والورد البلدي والياسمين. أمام المدخل نافورة رخامية تنبثق منها المياه، وعلى جانبي المدخل الرئيسي تمثالان من الرخام لعرائس بحر. وفي مدخل الطرقة المفضية إلى ما وراء القصر — من اليمين — تمثال «بوسيدون» إله البحر، يقود جياده البحرية بشعورها المتماوجة. علّقت — على الجدران — بنادق صيد، ورءوس حيوانات مائية، وأسماك هائلة، محنطة. واحتفظ — في دواليب هائلة — بمجموعات من أدوات البحر الصغيرة، ما انتهى استخدامه، وما ظل في حياة البحارة.

تقتني الساعات الرولكس، والنقود الفضية والذهبية، واللوحات الفنية القديمة وطوابع البريد، والأسلحة الصغيرة النادرة، والآثار الفرعونية، تشتريها من رحلاتها في الخارج، أو جولاتها — المتباعدة — في مدن الصعيد. تُطيل الوقوف أمام مقنناتها، تُزيل عنها الأتربة، تتفحصها. لا تأذن للخدم بملامستها.

حين طرق خليل أفندي الفحام باب القصر، وطلب مقابلة عصمت هانم محسن، نزلت إليه في القاعة المطلة على خليج الأنفوشي. يعرفها ولا تعرفه. كانت تُعنى بكل من يتصل عمله بالبحر: كمال أبو السعداء، عمران الخولي، عبد الله أبو رواش، كرم حامد، رفقي زلابية، بدوي الحريري، غريب أبو النجا. قد تمضي — في ساعات الصباح الأولى — إلى الحلقة. تتابع تصنيف السمك إلى أنواع، صف الطبالي، تكسيته بالثلج، البيع بالمزاد، وبالقطاعي. تعود بمفردها — كما جاءت —

ماشية. تستعيد — برؤيتها زِيَّ الصيادين وباعة السمك — زي بحارة الأسطول في عهد محمد علي: حسن الإسكندراني والغزوات والمعارك البحرية.

تأملت القامة الأقرب إلى القصر، والجبهة العريضة، وشعر الرأس الأسود، تتناثر فيه شعيرات بيضاء، والعينين البنيتين اللامعتين تحت حاجبين كثيفين، والأنف الأقرب إلى الاستدارة. تلوح أوسط جبهته سجدة خفيفة من تأثير الصلاة. اطمأنت إلى الهدوء والطيبة في استرخاء ملامح وجهه، وإلى الثقة التي يثني بها صوته.

قال: جئت في الأسبوع الماضي ... قيل إنكم على سفر.

رَفَّت على شفَتَيْها ابتسامة: إلى البر وليس إلى البحر.

وأشاح بحركة قاطعة: أسفار البحر صارت ماضيًا.

كل ما له صلة بالبحر يُشعرها بالحنين إليه. البحارة والصيادون وعمال الميناء والسفن العابرة في خليج الأنفوشي.

قال: أولف كتابًا عن جغرافية بحري ... الشوارع والميادين والأسواق والبنائيات.

وتعلّقت عيناه بالفراغ: محاكاة لخطط المقريري.

اكتفّت بالقول: جميل!

قال في اندفاع: أعرف أن مكتبكم بها وثائق ومعلومات قد تُعينني على ما أولفه.

وهي تمسح المكتبة بعينيها: أخشى أن معظم ما في المكتبة عن البحر.

وأشارت بيدها ليجلس: لكنني أُعد بتقديم ما قد يُفيد دراستك.

جاوزت المعنى.

هي أم حقيقية للآلاف من الضباط والجنود الذين يركبون البحر. تخرج — في غبشة

الفجر — إلى الشرفة المطلّة على الميدان الواسع. يتجه الترام من اليسار إلى مستشفى

رأس التين ومدرسة إبراهيم الأول الثانوية. في الناحية المقابلة من قضيب الترام مدافن

البطالمة. تفتح — بيدها — أبواب الشرفة الواسعة. تُطالعها رائحة البحر، ونسائم الصباح

الصيفية، والمشاهد التي تُحبها.

الزاوية التي تحتلها الشرفة تُتيح لها التطلع إلى حديقة السراي، والطريق المفضي

إلى نهاية الكورنيش، ورؤية العشرات من ضباط وجنود البحرية، يتوزعون في طريقهم

إلى أماكن مختلفة. تدقق في الثياب ما إذا كانت نظيفة ومكوية، أم أن إهمالها يستحق

المؤاخذة. تصعد إلى المدمرات والبوراج والفرقاطات، دون أن تواجه السؤال: إلى أين؟

هي أم البحرية، من حقها — وواجبها — أن تتفقد قطع الأسطول، تُظهر رعايتها

لضباط البحرية وجنودها. تحضر احتفالات التخرج لطلبة الكلية البحرية، تُهدي أول

الخريجين ساعة رولكس فاخرة، ترفع مصحفًا على كل سفينة، وتضع لوحة نحاسية بها آية الكرسي، على صاري السفينة. إذا التقت بضابط في البحرية، أو دُعيت لحفل تخرُّج، أو المناورة بحرية، فهذه فرصة للحديث عن حسن باشا الإسكندراني، جدها، قائد الأسطول المصري القديم.

تحرص — في المناسبات الوطنية — على تغطية واجهة القصر بالأضواء الملونة، تكوينات من ألوان مختلفة، يتوسطها شكل النسر.

طالبت بأن يُطلق اسم أبيها محسن باشا على ميدان رئيس بالإسكندرية. الشارع الجانبي الصغير باسم سراي أبيها — قبل أن تتهدم — أقل من قيمة الأب والجد. تهامس خدم القصر بخوفهم من أن يستاء العفريت لحرصها على إبعاد اسم أبيها عن الشارع الذي تُطل عليه الخرابة، سراي محسن باشا. قد يفعل العفريت ما يؤذي. اكتفت بالوعد دون أن تُلحَّ في المطالبة. هي أم البحرية، وأفضل أبيها وجدها لا تحتاج إلى ما يُثبتهَا.

أنفقت من أموالها في عمل الخير، وإغاثة المعوزين والمحتاجين والمرضى وذوي العاهات. تُسدد المصروفات الدراسية لغير القادرين من الطلاب، تحرص — بعد صلاة الظهر، كل اثنين — على زيارة سيدي علي ترماز. يتولَّى الخدم — بأمر منها — توزيع الهبات المادية والطعام — الفتة وقطع اللحم — على الفقراء. تطلب أن ينظم الجميع في طابور، فلا يحصل أحد على ما ليس من حقه.

إذا كان الجامع باسم ولي الله علي ترماز، فإن جدها حسن باشا الإسكندراني هو الذي شيدَّ الجامع على نفقته، إحياءً لذكرى الولي الذي أحبَّ سيرته، وآمن ببركاته ومكاشفاته. رفضت النصيحة بأن تُجري في القصر عمليات ترميم. شغلها أن تُعيد بناءه كقصر لأم البحرية. تأخذ شرفته الحجرية هيئةً الحدوة، وتعلو — في مقدمته — منارة صغيرة، تطلُّ على المياه المحيطة بشبه جزيرة بحري، وتزيد قاعاته وصالواته لتسع أعدادًا أكبر من الزوار.

ماتت قبل أن تبدأ في بناء قصرها الجديد.

أظهرت رئاسة الحي خريطة بتوسيع المساحة الممتدة أمام حديقة رأس التين. كان موضع القصر من بين البنايات التي تنتظر الإزالة.

انظر: خليل الفحام، عبد الله أبو رواش، عمران الخولي، كرم حامد، كمال أبو السعادات.

## علي تـمـراز

المجذوب في اللغة هو مَنْ جذبته الله.

أجمعت الكتابات التي تناولت سيرة وليّ الله علي تـمـراز على أنه كان مجذوبًا، بمعنى أنه أحب الله، وعشقه، واشتاق إلى لقاءه. وصف الشيخ علي تـمـراز لا يعيبه، أو ينقص من قدره. الطريق طُويت للمجذوب، ولم تطوَ عنه. مَنْ طُويت له الطريق لم تفتته، ولا غابت عنه، وإنما تغيب عنه متاعها، وطول المسافة.

سار علي تـمـراز في طريق أهل المحبة، السالكين إلى الله بالجذبة. يرافق نيته القصد والعزم والإرادة والمشية. يجري الصواب على لسانه بتلقائية، لا يعتمد اختيار الكلمات ولا صقلها. أظهر في انجذابه من البركات، ما يدل على ولايته، وتمكُّنه.

تعددت رؤيته للفظ الجلالة، كتب في السماء بحروف من نور، ولباب يفتح — يحيط به الضوء — في أفق المينا الشرقية، ولومضات ملونة كالبرق، تتناثر في الفضاء أمامه، دون أن تُحدث صوتًا.

رأى — ذات أصيل — تكوينات لملائكة بأجنحة في سحابات شتوية. تحدّث عما رآه، واستغربه. أدرك الناس أنها كرامات للشيخ يصعب فهمها حتى عليه هو نفسه. لكنّ عينيّه تريان ما لا تراه أعين البشر العاديّين.

تعددت الحكايات، وتضاربت، حول مولده ونشأته. تتصف الأعوام الأولى من سيرته بالغموض، وعدم التثبيت. لم يتحدث علي تـمـراز عن أسرة، ولا عن الموضوع الذي قَدِم منه إلى بحري.

أول ظهوره في الحي، عندما قَدِم مع موكب للصوفية إلى حيث أضرحة أولياء الله. نصبوا الخيام وأكشاك الختان، نشروا الأعلام والبيارق. أقاموا حلقات الذكر. تعالت

أصوات الطبول والدفوف، وتعالَت أصوات الذاكرين بالإنشاد والابتهالات والأدعية وبردة البوصيري.

حين انتهى ما قدموا من أجله، مضوا في اتجاه الجنوب.  
ظل علي تمرّاز في الحي، يسير في الساحات والميادين والشوارع والحواري، يتنقل بين الجوامع والمساجد والزوايا. يقرصه الجوع، فيلجأ إلى تكية أنشأها حسن باشا الإسكندراني بالقرب من سراي رأس التين. تفتح أبوابها للمتصوفة والفقراء وعابري السبيل.

مال إلى الانفراد والعزلة والتقصّف. انقطع لعبادة الله، وتجرّد لذكره:

على بُعدك لا يصبر من عادته القرب  
ولا يقوى على قطعك من تيمّه الحب  
إذا لم تَرَ العين فقد أبصرك القلب

هجر الدنيا، وانصرف إلى عالم الآخرة من صلاة وصوم وتعبّد وتهجّد، مع مواظبة الخمس في الجماعة. ومداومة الذكر والفكر، واللجوء إلى الله، والدعاء له، والتوكل عليه، والثقة بعدله وإنصافه: أستغيث بك، فنجّني كما نجّيت نوحًا من كربه، وكما كشفت ضرّ أيوب، وأنقذت يونس من غمّه، وهبت لذكريا الولد الذي طال شوقه إليه. أغثني، ارحمني كما فعلت مع كل هؤلاء. أطعتك، أقبلت عليك، أيقنت أنك الغفور الرحيم. إذا كنت قد أسأت، فقد أمرتنا أن نُسقط الملامة، ونُحسن إلى من أساء إلينا. ما أرجوه من دنياي، أن تحفظني من فوقي، ومن تحتي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن خلفي، ومن أمامي، ومن ظاهري، ومن باطني، ومن بعضي، ومن كلي.

أعرض عن زخرف الدنيا وزينتها. أثر أهل الآخرة، ومرافقة ذوي الحاجات، والفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، وينصرون الله ورسوله.

سعى إلى الصفاء التام في النفس، والتقوى الخالصة لله، وحبّه — تعالى — والتعلق به، والارتفاع بالروح، والعمل — بالروح وبالقول — عن الدنيا. وكان يرفض نداء نفسه، إذا دعته إلى ما قد يصرفه عن العبادة.

كان يستغرق في الوجد، فيفنى عن كل ما حوله.

هو مع الخلق بجسده، وبقلبه وبباطنه مع الحق تعالى. تلتذُّ الروح للنعيمات المنسجمة والأصوات الطيبة. لا يأبه بالمارة ولا بالقعود، ولا يشغله التلفت، كأنه يحيا في نفسه، أو



يحدِّق فيما لا يراه أحد، لا تهيج له روحانية، ولا ينظر إلى النساء بشهوة، ولا يُعنى بما يُعنى به الرجال العاديون. قطع العلايق، أوّلَى ظهره حب الدنيا وشهواتها، زهد فيها، وطلب الفقر، رماها تحت قدميه، وداسها. لا قيمة لها عنده. تقوّى الوجد في نفسه بصفاء القلب من وساوس النفس وخنسها. يحرك يديه، ويتكلم، كأنه يلتقط الكلمات من حيث لا يرى أحد.

إذا اعتراه الحال، غاب عنه تمييزُ الأشياء. غلبه الاستغراق والوجد والهباج، وفني عن كل ما حوله، وعن الحظوظ. قذف سيفه الخشبي، وعمامته، ومزّق ثيابه، وعبر عن مشاعره بتعبيرات اليبدين، والعبارات المدغمة. قد يصرخ بلا توقف.

يفتح عينيه على نظرة مريد مفعمة بالألم: زمانكم يُخرجني من ثوبي! أدرك الناس أن ما يُصيبه هو من جذبات الله تعالى، نصرّة لدينه، وللفقراء، والمنكسرين من عباده. وقيل إنه كان يتستر بالتجاذب ليصرف الأعين المتابعة.

مال إلى الجلوس على بساط الصدق. لیس خرقة التصوف، هي التعبير عن التجرد وإظهار الضعف والعجز والذلة. أسرف في حرمان جسده، التماساً لمزيد من الثواب في الآخرة.

لم يكن يُبدل خرخته حتى تنهراً على جسده تماماً. أَلَف الناس رؤيته وهو يمشي عاري الصدر والبطن، ويتمنطق من الصرة حتى الركبة بمئزر من القماش. لا يأبه بشيء، ولا يحفل بالأولاد الذين يلاحقونه بمعاكساتهم.

أعرض عن الدنيا. تجرّد عن أعراض الحياة، واتجه وجهةً روحية خالصة. أقبل على الله. مال إلى الزهد والورع والتقشف ودوام التفكير في الله. أكثر من التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد لله. أخضع نفسه للمجاهدة، والمراقبة، والعزلة عن الناس. خلّص نفسه من شوائب نفسه. صار من أصحاب الرياضات والمجاهدات والأذواق والمواجيد.

كتم نزعات النفس والهوى. مارس الرياضات والزهادة والمجاهدات الروحية. عوّد نفسه على أن يُحمّلها أشد الحرمان، ويفرض عليها ما لم يكن يطيقه في أيامه العادية. يحرص على الصوم قبل المكوث في الخلوة. يشتغل بذكر الله حتى مطلع الفجر. يتلو الأوراد والأذكار. يُعيد قراءة الفاتحة وآية الكرسي وسورة الإخلاص وأول البقرة وخواتيم البقرة. لم يقبل على العبادات خوفاً من عذاب القبر، ولا أهوال يوم القيامة، ولا خوف فوت ثواب. أحب الله لله. تقدّم في مدارج التصوف، وارتقى، حتى أفاءت عليه فيوض النور. صار مجذوباً للعشق الصوفي.

فَنَيَّ عما سوى ربه. استغرق في الذات الإلهية استغراقًا كاملاً. امتلأ قلبه بنور الإيمان، وإشراق اليقين. لا يخاف عذاب النار، ولا الشوق إلى الجنة. أخلص في حب الله لذاته، وطاعته، والأنس به، والشوق إليه. ظفر بالقرب والوصل والأنس من المحبوب. يستشعر انتقال الكعبة إليه، وطوافها حوله، بدلاً من أن ينتقل هو إليها، ويطوف حولها. لا يقتصر ما يحدث في أوقات الحج أو العمرة، إنما هو يسلم نفسه إلى هذا الشعور في أوقات متقاربة ومتباعدة. إذا أخذته الجذبة، تبدلت المرثيات أمام عينيه، فهو لا يرى الناس الذين يخالطونه، ولا الأسواق والشوارع والجوامع والبحر والأرصفة والنوافذ والمقاهي. يتملكه الوجد حتى يغيبه عن نفسه، وعن كل من حوله، وعن كل شيء. يستغرق في الغيبة والمحو والسكر والنفاء. يصرخ، يتواجد، يهتزُّ جسده كأنه يرقص. تستغرقه الجذبة، كأن روحه خرجت من جسده. قد تأخذه الجذبة أيامًا متتالية، تبلغ العشرة، أو أكثر، أو أقل. إذا زالت الغيبة، عاد إلى نفسه، وميز الناس والأشياء.

ربما شهد — بعيني البصيرة — ما يُحزنه، أو يُدهشه، أو يُثيره. يصرخ — لما رآه بمفرده — صرخةً عظيمة، وأغشى عليه. يُفيق، فيروي ما لم يره سواه من مشاهد الدنيا والآخرة، وأفعال المكاشفات والكرامات والخوارق والمعجزات.

أشفق أمير البحر حسن باشا الإسكندراني من البلل تحت قدميه. ظنَّه يعاني السلسال. أعاد التثبت. أدرك أن ما يبدو ماء هو عرق، اهتز جسده — بالانفعال والجذب والسكر — فسال العرق إلى ما تحت القدمين.

عرف عنه أنه على وضوء دائم، يقينه أن ملك الموت إذا قبض روحه وهو على وضوء كتبت له الشهادة. اعتاد النوم في الظلمة التامة حتى لا يعاني ظلمة القبر. وكان يصلي في أماكن يستتر فيها بطقوس دينه عن الأعين الفضولية، هذا زمن يستتر فيه أولياء الله الصادقون، من يجدون نعيم الآخرة في نعيم الناس في الدنيا.

لم يكن يتناول الطعام الذي يأكله الناس. يكتفي بكسرة خبز لطعامه. يتناولها أول الصباح، وماء وضوء للصلاة، ومصحف يعكف على تلاوته إلى موعد الصلاة التالية. لا يلتقي بمريديه في مواعيد محددة. قلبه مفتوح في كل الأوقات لمن يقصدون علمه، ويطلبون الدعاء منه، ويتبركون برؤيته.

شدد على مريديه أن يردوا السلام على سيدي الخضر كلما ورد اسمه في مجالسهم. يثق أن الخضر لا تفوته المجالس التي يُذكر فيها اسمه. يُلقى السلام على الحضور، لا يسمعه إلا أقطاب الصوفية. قال إن الخضر شيخ الصوفية، هو فوق كل المقامات، وجامع

كل الكلمات، وإنه كثيراً ما يجتمع أو يتلقَى عن الخضر، وإنه يدين لسيدي الخضر بإرشاده وهدية وقيادة خطواته.

عرف المريدون أن سيدي الخضر يخصُّه بمجالس لا يحضرها سواهما. يتلقَى علي تراز العلم، ويتلقَى الطريق من أحاديث الخضر. الفتوحات والأسرار والمنامات والأحوال. يسلك المقامات السبعة.

أتمَّ مراتب التصوف.

بدأت القطبية حقَّه الذي لا ينازعه فيه أحد. ظهر عليه من الأحوال والمكاشفات والشطح ما لا يخفى على العين المؤمنة، وظهر على يديه من الخوارق والكرامات، ما دفع الكثيرين إلى السير في هدي طريقته.

ذاعت شهرته في الإسكندرية.

تداخلت في خطب أئمة الجوامع والمساجد والزوايا وأحاديثهم. أشاروا إلى بركاته التي شمل لطفها الكثيرين. رَووا عن مدده في رفع الشدائد والمخاوف وقضاء الحوائج. أشار على بائعي الشروات بمواضع يظل فيها السمك — يتخلله الثلج — ثلاثة أيام، واللحم عشرة أيام، وربما أكثر، دون أن يُصيِّبه التلف، وتطمر في أرضها عشرات السنين، فلا يصيبها التسوس، ولا تتبدل خواصها.

صارت له كرامات لا تنتهي.

رُوي أنه لم يبكِ — لحظة مولده — مثل الأطفال، وإنما نطق — فور نزوله — بالشهادتين. لم يكن قد تعلَّم القراءة ولا الكتابة حين بدأ في تلاوة سور القرآن. لا يعرف أحد من تلاها عليه، ولا من حفظها. وقف الشيخ شوقي البتانوني إمام جامع سيدي خضر متحيراً مما يراه. لا يستطيع الفهم ولا التفسير. قضى على تحيُّره بالقول إن الله مشيئته.

لا أحد يذكر إن كان قد عرف في نفسه، أم لاحظ الناس قدرته على التنبؤ بالموت. يلتقي بالمرء، للمرة الأولى. ينظر في عينيه، لا يستوقفه ما يدفعه إلى التحديق، أو إعادة النظر. إذا عاود النظر، فلأن دلائل الموت تُطل من العينين. يواجه الملامح المتسائلة بالقول: أمامك شهر، أو شهران، أو أمامك سنة. تمر الأيام، فتصعد الروح إلى السماء، في الموعد الذي حدده وليُّ الله. تكررت رؤيته لمن هم على حافة الآخرة. أدرك الناس — لا بد أنه كان يُدرك أيضاً — قدرته على التنبؤ بالرحيل. تُناوشهم الحيرة: هل يتركون وجوههم لنظراته، فيعرفون ما كان خافياً، أو يبتعدون عن طريقه، أو يظل الأمل قائماً في غياب موعد الأجل.

رأى الناس كراماته رؤية العين:

سرق ولد كوفية كان يتقي بها البرد. أهمل علي تمران طلبها. وضع الولد الكوفية حول عنقه، فخنقته. توسل الولد بعينين جاحظتين، ويدين تحاولان التعبير بدلاً من الفم المفتوح. خلصه وليُّ الله بإيماءة من رأسه، واستعاد كوفيته.

لما طرده المزملاطي عواد الكلزة من أمام حنفية سبيل رأس التين، دعا عليه سيدي علي تمران، فأصابه الجنون. أهمل نفسه وثيابه. علا صوته — في الشوارع — بالصراخ، والكلمات التي بلا معنى.

لاحظ الأولاد ما يُعانيه.

امتدت أيديهم إليه بالأذى. قذفوه بالطوب، وضربوه بقطع الأخشاب. تقافز في مكانه، ثم جرى. أغراهم جريه بالحقاق به وهم يتصايحون، ويقذفونه بما تصل إليه أيديهم. بلغ الشيخ أن عسكر شندي، العلاف بشارع الميدان، وصفه بالجنون، دعا عليه، فأصابه خبل. لم يعد يدرى من أمر نفسه شيئاً. وشمته سيد شبيرو الجزار بالموازيني، فدعا عليه وليُّ الله بالألأ ينفعه علمه، ويُفتن في ماله وولده، ويفضحه أمام الناس.

لم يكذ ينقضي العام، حتى كان قد أصاب التاجر زهول، صرفه عن تجارته وبيته، وسار في الشوارع لا يعرف حتى أقرب أقاربه، ويسكت — غضباً — عن ملاحقة الأولاد، وأذيتهم له.

التفَّ حول الشيخ عددٌ من المريدين والذين آمنوا ببركاته ومناقبه. لا يتركونه أينما حل، ويسيرون معه أينما ذهب. أدركوا عظمة الشيخ ومنزلته. يمتلك قدرةً على تحريك الأشياء دون أن تلمسها يده. ينظر إلى المريض فيُشفى دون أن يلمسه.

لحق الفريش ربحان دكروري بعد أن أطار الساطور أصابعه وهو يهوي على الأورمة، ينظف لحم الترسة. تتمم بآيات قرآنية ودعوات. لصق الأصابع، ثم بصق على ما بين اليد والأصابع، فعادت إلى حالتها الطبيعية.

أغرقت الأمواج البلانس «سلطان» في نوة لم يقدر الصيادون موعدها. خاطب الحدس ولي الله بما حدث. استغاث بمخلوقات البحر. نقلت العرائس طاقم البلانس إلى الجزيرة، قبالة الأنفوشي. طالب علي تمران مريديه أن يعودوا بالطاقم من الجزيرة إلى الشاطئ.

عُرف عنه قدرة التنبؤ بالأحداث قبل وقوعها. يتنبأ بأمر قد تحدث في البحر: الهواء، والرياح، وصفو السماء ودكنتها، وظهور نجم، واختفاء نجم، ونزول المطر، وهياج الأمواج ... كلها علامات يستدل بها على المتوقع والآتي. إذا تنبأ بما يُقلق، حاول الناس دفع

ما يخافون نزوله بالدعاء، والتضرع إلى الله، والتوبة، والإنابة إلى الله بالصلاة والصوم والندور.

قضى الحوائج، ونفَذ الرغائب، وحصل المطالب، ورسم الدوائر الخفية حول الأشخاص والأمكنة، يمنع الخير من الخروج، ويمنع الشر من الدخول. زاد في البركة والقوة والمال والعز والجاه والفصاحة والمحبة والقبول. الأعمال مرايا للرياضات والمجاهدات. زهد في الدنيا. حثَّ على التقلل منها. عاب على الناس ما فشا بينهم من الإقبال على الدنيا، والانصراف عن الدين. رفض مشيخة الطريقة، ورفض الرئاسة من أي نوع. أثر الزهد، واعتبر الخرقه دليل تواضع الإنسان في نفسه.

صاح وهو يتراجع أمام يد بدوي الحريري الممدودة: لا!  
ووشى صوته بالغضب: أنا من نسل الأشراف. حرام أن أتلقى الصدقات!  
قال الحريري: هذه هدية، وليست صدقة.  
قال: أكتفي بهدايا السماء.

لم يكن يحترف التسول ولا أية مهنة أخرى. يقلب حبات المسبحة، ويتهدج بدعوات وابتهالات وآيات من القرآن الكريم. كان يغرف بكفه ما لا يراه أحد من الهواء، يضعه في فمه ويمضغ. عرف الناس أنه يحصل على طعامه بمكاشفات نورانية، ولاتصال رؤية مردييه له دون أن يُقبل على طعام أو شراب، فقد استقر يقينهم على أنه يحيا على الهواء. يتنفسه، فتتصل حياته. تُعينه على ذلك قدرة علوية، تقول للشيء: كن، فيكون.  
تألقت — على جبينه — الأسرار الإلهية.

رُوي أنه كان يمتطي السحب في التنقل بين المدن، وإذا لاحظ اتساخ أرض الطريق، فرد السجادة في علو عن الأرض شبراً أو شبرين، وصعد فوقها يؤدي صلاته.  
منح الكثير من أتباعه كرامة التنقل بين الأماكن على سجادة. أُلّف الناس رؤية السجاجيد الطائرة بين البنايات، وفوق مياه البحر. كثرت السجاجيد السابحة فوق أمواج الميناء الشرقية وخليج الأنفوشي.

واجه شيخُ الصيادين وليَّ الله بالسؤال: كيف يتأثر المجذوب بالمداعبات الجنسية؟ هل تُثيره ملامسة النساء؟

ووشى صوته بسخرية: النساء يُحببنك ... خذ الصيت وأعطنا الغنى!  
صعقه سيدي تمراز بنظرة غاضبة، ألزمت لسانه فمه، لا يستطيع أن يتكلم. لم يُعد إلى ما كان عليه إلا بعد أن تذلل لولي الله، وباس قدمه.

طالبه ولي الله بأن يرتدي خرقة الصوفية، ليتخلص مما داخله من الكبر. وقف علي تمراز في طريق جواد المعلم أبي الفرج، شيخ طائفة الحدادين. دفعه المعلم بيزو المداس، وواصل طريقه.

قبل أن يميل في انحناء الطريق، تعثر الجواد، وسقط المعلم على ظهره. كزم بيته قعيد الحركة أيماً، طالت إلى أشهر. استغاث بعلي تمراز ليعفو عنه. رنا ولي الله إلى الرجل القعيد بنظرة متسامحة، فاستقام ظهره. عاد إلى الحياة، وإن كَفَّ عن ظلم خلق الله.

قذفه شاب — يجلس على الرصيف — بطوبة، أصابته في عنقه. اتجه إليه علي تمراز بنظرة سلبت روحه. ارتمى الشاب على جنبه، دون أن ينطق بكلمة. حركه الناس، فلم يتحرك. أيقنوا وفاته. عادوا إلى ولي الله، يقبلون يديه وقدميه وخرقته. يتوسلون أن يمنح عن الشاب غضبه. مال ولي الله على الشاب. هزه بيده، فتحرك. سمع أبناء بحري عن كرامات ولي الله ولطائف عنايته ورعايته. عرف عن مقامه استجابة الدعاء.

لاذ بالمقام عشرات من أهل المحبة الصادقة، والمحبة الخالصة. افترش المريدون — لصق الجدران — الحصير والأبسطة المصنوعة من مزق القماش الملون. وكانوا يمسخون — بأيديهم — الأرض التي جلس، أو سار، فوقها. أرسل الوالي جنوده لإحضار الشيخ.

كان المريدون قد تزايدوا. ملئوا مساجد بحري وميادينه وساحاته. أقاموا الخيام وحلقات القراءة والذكر. علّت دعواتهم بنصرة ولي الله، وتيسير أمور دعوته، وتكاثر اللائذون ببركاته، لا تقتصر طريقته على بحري، وإنما تجاوز بحري والإسكندرية إلى المدن القريبة والبعيدة. تشمل أمة الإسلام.

التف المريدون حول شيخهم يدافعون عنه، يمنعون الجنود من اصطحابه إلى الوالي. لم يلتفت ولي الله إلى ما يجري بين الجنود والمريدين. ما أحزنه أنه لا يجد الوقت لأداء صلواته، وسنن عبادته. خلف الجميع وراءه، ومضى في اتجاه البحر.

سار فوق الأمواج الساكنة إلى موضع في قلب البحر، يخلو فيه إلى ربه. علّت صيحات المريدين وهتافاتهم، حين حاول الجند ملاحقة ولي الله. ابتلعت المياه صفوف الجنود الأولى. غيبتهم في الأعماق دون أن يجدوا وقتاً للاستغاثة، وتراجعت بقية الصفوف، تُشارك المريدين صيحاتهم وهتافاتهم.

بلغ يقين المرادين ببركات وليّ الله درجةً لم يبلغها — من قبل — إلا القلة من أقطاب الأقطاب.

كان لحسن باشا الإسكندراني بعلي تراز عناية، وله فيه اعتقاد ومحبة. وكان يستقبله في قصره، ويستمع إليه إذا التقى به في الطريق. يسعى في شأنه، ويخدمه، ويلبّي مطالبه، ويقرّبه، ويكرمه.

أذهله تخطّي الشيخ حرس القصر وخدمه، حتى بلغ حجرة نومه.  
أسكتت نظرة ولي الله اعتزام الإسكندراني مناداة الحرس والخدم.  
قال علي تراز: لا تبتل نفسك بکراهة أولياء الله!

وغرس نظرتيه في عينيه: إذا بنيت لي مسجدًا فستعود إلى البحر الذي تحبه!  
كان حسن الإسكندراني قد طال ابتعاده عن البحر. وضع الوالي محمد علي ما فعله الرجل — خدمة البحرية المصرية — في سلة مثقوبة. ذوت قوة الأسطول المصري، وتلاشت. ثم أنقص الوالي عباس أفراد الجيش المصري، وأغلق المدارس والمصانع، وحاول التقليل من مكانة الإسكندراني بين المصريين الذين أحبوه.

لم يكن أمام الرجل إلا أن يعتزل بإرادته. طلب الإحالة إلى المعاش، وترك الخدمة.  
كان ما جرى فصلًا من سيرة حسن الإسكندراني.  
لما أعاده الوالي عباس تذكّر زيارة علي تراز له. أشرف بنفسه على بناء الجامع. أعاد على أصحابه القول: «من أذى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة.»

أوقف الإسكندراني على الجامع إيرادات أراضٍ زراعية وعقارات ودكاكين، في الإسكندرية وخارجها. تغطي مصاريف الجامع، بالإضافة إلى ما يحصل عليه من صناديق النذور.

حلّت البركات في حياة أهل بحري، بعد انتقال سيدي علي تراز إلى جوار ربه. يرى ما لا تراه أعين الآخرين، يسمع ما لا سمع آذانهم، يمتلك من القدرة والتصرف ما لا يمتلكه أحد. اشتهر باستطاعته ردّ الأشياء المفقودة، واستعادة الغائبين، وجلب الطعام غير الموجود، وقطف الفاكهة في غير أوانها، وطيّ المسافات في لمح البصر.  
بدا التأثر واضحًا في عيني الشيخ صفر الرزاز. سرقه العمر دون أن يؤدي فريضة الحج.

تناهى صوت ولي الله من داخل الضريح: ألا تستطيع أداء المناسك؟

قال الشيخ في نفاذ حيلة: كبرت!

– مكة الآن في الميدان أمام الجامع. لن يحول عائق بينها وبينك.  
حلت الكعبة – أمام عينيه – في موضع أضرحة الأئمة بوسط الميدان. طاف حول  
البيت الحرام بقوة، لم يعهد لها في نفسه من زمن بعيد. كرر الطواف، والتلبية، والتهجد،  
والدعوات.

أسقط الشيخ الرزاز تكذيب الناس لما رآه، وعاشه، لأنه رآه وعاشه بالفعل.  
وفي يوم قاتظ، انبثقت المياه من النافورة الساكنة، وسط ميدان الخمسة فوانيس.  
لم تصمت إلا بعد أن لطف الجو. قالت الروايات إن سيدي علي تمرّاز أشفق على مريديه  
وزوّار مقامه. غادر الجامع. ضرب النافورة الصامتة براحته. انبثقت المياه. عاد إلى  
موضعه داخل المقام.

الباب الرئيسي لجامع سيدي علي تمرّاز يُطل على ميدان «الخمسة فوانيس». سُمي بهذا  
الاسم لوجود خمسة فوانيس على هيئة دائرة، وسط الميدان. يُحيط بها موقف لعربات  
الحنطور. على يمينه شارع إسماعيل صبري، وتقاطع مع شارع فرنسا. على يساره  
– من ناحية – شارع الأباصيري، يتجه إلى شارع التتويج، وميدان المساجد، يتوازي  
معه شارع سراي محسن باشا. يتجه إلى الشوارع الضيقة، المفضية إلى شارع الكناني  
والموازيني والحجاري والدحديرة الخلفية لجامع أبي العباس. ظل الناس يتجنبون السير  
فيه سنوات طويلة، لرواية عن عفريت يسكن الخرابة المهجورة على ناصيته. ثم اختفى  
العفريت بعد أن شغلت موضع الخرابة بناية حديثة. على يسار الشارع أيضًا – في الموازة  
– شارع قصر رأس التين. يمضي – يمينًا – إلى الموازيني والحجاري، ويسارًا إلى أول  
شارع الميدان، ويمتد إلى تقاطعاته مع شوارع أبي وردة (في نهايته باب الجمرق رقم  
واحد) وصفر باشا وجودة، ثم موقف الترام، ومدرسة إبراهيم الأول الثانوية، ومستشفى  
رأس التين، المقابل، ومقابر البطالمة، وحديقة السراي، وقصر عصمت هانم محسن، المطل  
على خليج الأنفوشي.

الأعمدة رخامية. الجدران مكسوة بالرخام، مغطاة بالآيات القرآنية والرسوم  
والنقوش. إفريز السقف مزين بالنقوش والآيات القرآنية. المحراب مكسو بالفسيفساء  
والزخارف رخامية، وزخرفت جدران القبة بأشرطة من الرخام المتعدد الألوان، وبلاطات  
من القيشاني عليها أسماء الله الحسنى. قوائم الضريح خشبية مكسوة بالقماش الأخضر،



تُبَّت على مسامير عُلفت فيها لفافات صغيرة. المنارة من ثلاثة طوابق، رشيقة، تعلق البيوت المحيطة بها. القبة مزينة بالنقوش.

غابت — فيما بعد — الفوانيس الخمسة، واختفت عربات الحنطور. تناثرت على نواصي الشوارع. حُلَّت — بدلاً منها — سيارات التاكسي والملاكي. شغل الميدان — لأعوام طويلة — سوق العيد. يبدأ قبل شهر رمضان بأسابيع. يظل إلى ما بعد عيد الأضحى. يشغى بالزحام والابتهالات والأدعية والموسيقى والمواويل والأغنيات ودقات الطبول والدفوف ولعلعة الزغاريد ورش الملح والمراجيح والأراجوز وصندوق الدنيا وأكشاك الختان وخيام الصوفية والفتاة الكهربائية وألعاب النشان والقوة والثلاث ورقات. اكتسب الجامع سمعة هائلة في أعوام إمامة الشيخ عبد الستار.

قَدِم إليه المصلون من أحياء الإسكندرية، ومن المدن القريبة. يريدون سماع خطبة الشيخ عبد الستار، قبل صلاة الجمعة. يتناول فيها قضايا مهمة في أمور الدين والدنيا. رُوي أن الشيخ عبد الستار كان يعرض خطب الجمعة على سيدي علي تراز. يكتب النقاط المهمة لما يريد التحدث فيه. يضع الورقة فوق المقام — بعد صلاة العشاء — ثم يأمر وهو يغادر الجامع، فتُطفأ الأنوار، وتُغلق الأبواب. أول ما يفعله عند قدومه لصلاة الفجر، أنه يأخذ الورقة من فوق الضريح. ما يوافق ولي الله على الخطابة فيه، يتركه، ما لا يوافق عليه كأنه لم يكتب.

أدرك الشيخ عبد الستار — من الكلمات على هوامش خطبته التالية — أن غضب ولي الله في درجته القصى. كانت مشيخة الأزهر قد أعلنت انتساب الملك إلى آل البيت.

الكلمات مكتوبة بخط النسخ: نحن آل البيت نعرف مَنْ هو منا، ونرفض الاستئصال! تحدَّث الشيخ عبد الستار — في خطبته — عن آل البيت، هؤلاء الذين أذهب الله عنهم

الرجس، وطهَّهم تطهيراً.

غلبه الانفعال: إذا كنا قد سكتنا على إهانة أنفسنا، فلن نقبل إهانة الدوحة المحمدية. ما توقَّعه المصلون، تأخر حدوثه. نجَّى الله الشيخ عبد الستار من محاولة قتل. ثم نُحِّي عن عمله، فلزم بيته.

انظر: عبد الستار، عصمت محسن، فاروق الأول، راجع روايتنا «علي تراز».



## علية عشاوي

تكتفي بالبخار المنبثق من الدش. ثم تُزجج حاجبيها، وتضع الكحل حول عينيها، وتجري على بشرتها بالزيوت العطرية ومستخلصات الأعشاب، وتطلي شفتيها بلون أحمر داكن، وتقلم أظافرهما، وتدعك كعبيها بالحجر الخفاف، وتُسدل شعرها المنكوش، المصبوغ، على الكتفين، وترتدي فستاناً زينت أطرافه بالترتر، ويظهر ضيقه تكوينات جسدها.

تلتقي في حمام الأنفوشي بفتيات وعوانس ومطلقات وأرامل.

تعيب على الرجل حب السيطرة، وما يضعه من قيود على أهل بيته. تتحدث عن حق المرأة في أن تحيا حياتها، بعيداً عن إملاءات الرجل وسطوته، عن الحياة الهانئة خارج بحري، يكتفي الناس من البحر بأكل سمكه، لا شأن لهم بالصيد — إلا للتسلية — والشباك، والبلانسات، وما إذا كان البحر حصيرة أم نوة، والبيع، والشراء، والرزق الصعب. تكرر ما ترويه عن سماعها سيد درويش يغني في كوم بكير، قبل أن يسافر إلى القاهرة، وقبل أن تستقر في بيتها بشارع الفرمانى.

يا صباح القشطة ... اسم الله

على عقلي ... يعوض الله

أه يا ني من سحر عنيكي

يا أرض احفظي ما عليكي

على عقلي ... يعوض الله

— لما أتته الشهرة استعادت أيامه. ما أذكره أن صوته لم يكن جميلاً.

وتُشبح بيدها في استهانة: لعل ألحانه هي التي أعطته الشهرة!

تضع عينها على مَنْ تلقى منها استجابة. تدعوها — في مرة تالية — لزيارة بيتها. لا تحاول وصل التعارف وسبل اللقاء إلا بعد أن تطمئن إلى الاستجابة تمامًا. تشدّد على كلِّ مَنْ تعمل بواسطتها، لا تقول لا. لا ترفض ما يطلبه الرجل مهما يكن غريباً أو مقرّفاً، هذه هي المتعة التي يريدها، وعلينا أن نلبّي إرادته.

اقتصر عملها على تيسير فرص اللقاء، والتستّر عليها، بعيداً عن الأعين. لديها ألبومات، بها صور فتيات في أوضاع عارية، ودفاتر بعناوين وأرقام تليفونات. لها علاقاتها بمديري الفنادق الكبرى. لا يسأل موظف الاستقبال عن الاسم، ولا الصفة، ولا يطلب إثبات الشخصية. تذكر المرأة الاسم المتفق عليه. يتقدمها الخادم إلى باب المصعد.

ساد بين أهل السيالة فهمٌ أن البكباشي حمدي درويش يبسط حمايته على عليّة، فهي تأمن في حياتها من أيّ توقُّع.

قال سيد حلال عليه: لكل مومس فتوة يحميها. أما المعلمة عليّة عشماوي فحاميها هو شيخ المنسر نفسه!

تحدّث شحاتة عبد الكريم عن الشقة التي استأجرتها عليّة عشماوي على ناصية شارع الترسانة البحرية وشارع وكالة الليمون. أهدت مفاتها للبكباشي حمدي درويش. يستضيف فيها مَنْ يشكّن الأزواج أو الجارات أو أصحاب العمل، أو من يلقى القبض عليهن بتهمة ما، أو مَنْ تنظر إليهن عليّة عشماوي بعين البكباشي، فيعجبنها. امتدّت علاقاتها إلى نسوة أجانب من كامب شيزار والإبراهيمية وكليوباترة، إيطاليات ويونانيات ومالطيات، وراقصات في الكازينوهات المطلة على البحر. تكتفي بمعرفة الاسم، وتدللُّ الرجل على مَنْ تُخمن أنه الأقرب لما يطلبه.

قالت لشحاتة: أصعب شيء أن يتحول ما تُحبه إلى مهنة. لا أحد يُنكر لذة الجنس، لكنك تتناسى اللذة وتفكر في العائد الذي تجنيه. حتى التعبير عن النشوة تفرضه ضرورات المهنة!

أردفت في صوت فاتر: قد أكون حزينّة حتى أظافري، وأدل زبوناً على الأوضاع التي لم يفتن إليها.

وتراقص على شفّيتها ظلُّ ابتسامته: لك أن تتصور راقصةً تتثنّى وهي تُعاني ألماً في مفاصلها؟!

ثم وهي تنفخ في كوب الشاي الساخن: الدعارة مهنتي!  
رأى سكان شارع الفرمانى، معتمد الجرسون بقهوة كهربان، وهو يصعد — آخر كل ليلة — إلى شقتها. تعرف — ويعرف الجميع — أنه يعطي جسده لمرتدين على

القهوة. يصحبونه إلى بيوتهم، أو يطلعون به الخرابة المهجورة في دحيرة أبي العباس. تجد فيه ونساً وإشباعاً، دون أن يخضعها للبلطجة أو الابتزاز. لما عايرها حميدو شومة برفقة معتمد، قالت في ضيق: فحولته لا شأن لها بالقوة الجسدية.

ولكزت فخذَه بأصابعها: أترك لأمثالك تدليك قدراته، ليصعد إلى شقتي — مستعداً — آخر الليل!

وأطل من انفراجة شفّتيها سنّ علويّ من الذهب: أنتم تدلكونه ... تُعدونه لي! ثم في لهجة تقريرية: لهذا أصحابه.

همست الشائعات في أذن السعداوي شبانة، أن ابنته زارت عليّة عشاوي، بعد أن تركت بيته. استغاث بالسمرّة فتوة العطارين. تسلل إلى عليّة من النافذة المطلّة على الشارع الخلفي.

أطلت القسوة — واضحة — في عينيه: أين فتنة؟

قالت في صوت ممزق: من فتنة؟

— فتنة يا امرأة. بنت السعداوي شبانة.

وهي تغالب الخوف: لا أعرف ... جاءتني فطردتها.

لم ترفض عرض فتنة. منذ اختارت مهنتها، اكتفت بالوساطة، لا ترفض عرضاً من الرجل الذي يطلب، ولا المرأة التي تعرض. فتحت عيني فتنة على ما لم تكن تعرفه، على ما ينبغي أن تعرفه. حدّثتها عن طبيعة العلاقة. قد تهونين الأمر على نفسك بما ينتظره منك الرجل. اجعلي انتظاره طويلاً، وصعباً. الصياد يعتز بالسمكة التي لا تسقط في شبابه بسهولة.

علّمتها كيفية التعرف — بيدها — إلى ما قد يحمله الرجل من أمراض، التظاهر بالنشوة حتى لو كانت مجهدة، التأوّد، التثني، الفحيح الهامس، الغنج، تحمّل المداعبات، والكلمات البذيئة، والتصرفات الشاذة.

الارتباك في ملامح فتنة وشى بما تعانیه، وهي تتهياً لدخول الحجرّة التي سبقها إليها الرجل.

قالت: هل أفعل مثلما تفعل المرأة مع زوجها؟

قالت عليّة: دعي الأمر له. ليس مطلوباً منك أي شيء!

أهل البحر

قال السمرة: طردتها أو سلمتها إلى الإنجليز؟! نترت الهواء بيديها، فتعالق وسوسة الأساور الذهبية حول الساعدين: أنا لم أجبرها على ما تكره ... هي التي طرقت بابي.

– بابك مفتوح دائماً.

– نعمة، أحمد الله عليها.

– هل أصبحت الدعارة نعمة؟!

أزمعت أن تستضيف فتنة، لا تعرفها بأحد، حتى تتبين من يقدرها، ويفهم قيمتها. الجوهرة النادرة لا تتفحصها إلا العين الخبيرة.

فاجأها بالسؤال: كم تقاضيت من الضابط الإنجليزي؟

حاولت أن تتكلم – لم تجد كلاماً – توالت الصور أمامها متقافزة، متراقصة، كالأطياف أو الأشباح، تتشابك، تلتحم، تتباعد، تشحب ملامحها، تتجلى سافرة. ليس مجرد الخوف ما سيطر عليها. شعرت أنها لا تقوى على الحركة، يصعب أن تغادر موضعها.

تداخلت في نفسها، كترسة تتداخل في درقتها.

لم تقدر على مقاومة الطعنات المتلاحقة في جسدها. قفز السمرة من النافذة، قبل أن يجتذب صوتها نساء البيت والجيران.

تبين قولها في حشجة الصوت: لا شأن لي بما حدث لفتنة!

انظر: حمدي درويش، حميدو شومة، شحاتة عبد الكريم، فتنة السعداوي شبانة.

## عمران الخولي

رفع عينيه عن البلانس وقال في لهجة مستاءة: إذا كَشِطْتَ طلاءَ البلانس، فلن يبقى سوى ألواح خشب مفككة!

واتجه بنظره ناحية البحر: عندما تهبُّ العاصفة على البر، فإنك تستطيع الاختباء داخل أيِّ بناية حجرية. أما إذا فاجأتك النوة في قلب البحر، فأنت لن تملك فعل أي شيء إلا أن يتدخل الله برحمته!

قبل أن يفتح ورشته في القزق، عمل في بناء العمارات، وصنَّع الأبواب والنوافذ. ثم أدخل مساحَةً من شاطئ الأنفوشي لصنع قارب صغير، أول ما جرى صنعه في القزق. لجأ إلى مقام أبي العباس.

تمت بما لا يجعل البلانس الذي يصنعه يغرق أبداً. لم يعد ما يصنعه من بلانسات — من يومها — يعرف الغرق. لا تقلبه النوات، ولا يصطدم بالصخور، أو السفن العابرة. امتلأ القزق — فيما بعد — بالنجارين والميكانيكية والمقفلطين والنقاشين، وبمفردات القزق: المنشار والمخرطة والفارة والإزميل والمطرقة والقادوم والمثقاب.

قلَّت السفن الشراعية أمام سفن البخار، المحرك، البواخر، وإن يصنع في القزق السفن ذات الشراع: الفلايك، اللاتس، اللواتس، وغيرها. الشراع مصنوع من «القلع». قماش مشمع مما تُصنع منه الخيام. يشتريه من ميناء البصل.

اشتهر بميله إلى صناعة أنواع من السفن، تختلف عن غيرها مما يركب البحر. يُضيف إليها، يطورها، قوارب الصيد والنزهة، لنشات الخدمات البترولية، ناقلات المياه، وحدات خدمات المواني. يُعنى بالتصميمات وتأمينات السلامة والنقوش والزخرفة. يشتري البلانسات المستهلكة، والتي انتهى عمرها الافتراضي. يُجدها، فتقرب مما كانت عليه، يُضيف إليها ما تستخدمه البلانسات الجديدة. إذا احتاج الأمر، فهو يستبدل أعمدة

الرفاصات والزفف والسيالات. قد يلجأ إلى تفكيك البلانس، واستخدام أجزائه في صناعة البلانسات الجديدة. حلمه أن يجعل من القزق أكبر مركز لصناعة السفن الخشبية، من البلانسات الضخمة إلى الفلايك.

يختار لبدء صنع البلانس يوماً مشمساً.

يبنى بدن البلانس من الخشب والحديد، لكي يواجه الأمواج العالية والنوات وتقلبات الطقس والصخور والدوامات. يعرف كل ما يتصل بتجارة الأخشاب، وتصنيعها. يستخدم أنواع الخشب التي لا يؤثر فيها الماء، وألواحها عريضة، وانحناؤها طبيعي، وتقاوم الحشرات والتسوس والانتفاخ. يُفيد من أفضل الأخشاب المحلية، التوت، السنط، الكافور، لا يلجأ إلى الأخشاب المستوردة إلا لضرورة. يستطيع تبئ ما إذا كانت كتلة الخشب تصلح لصنع سفينة، بالنظرة المتفحصة، أو بالطرق الخفيف للتعرف على الأجزاء الصلبة والمجوفة، أو التي يتخللها التسوس أو الرطوبة.

كل مركب: بلانس، لنش، دنجل، كوتر، فلوكة، له ثخانتة في الخشب، وله عرضها. يعرف أنواع الخشب، ما يصلح لجسم السفينة، وما يصلح للأغراض الأخرى: الأبواب والنوافذ والدواليب والطاولات والمكاتب والكراسي.

حدّد لصبيانه صفاتٍ يحرصون عليها في صناعة السفن: الأمان، المتانة، الطفو، القوة والقدرة على الاحتمال، الثبات، التأكد من سد الفجوات بين ألواح الخشب. إذا انتهى صنع البلانس، اختبره — قبل أن يُبحر — في السرعة، والقدرة على المناورة، والانسياب على الماء، والتحول إلى الاتجاهات المختلفة، والقدرة على الإبحار عكس الريح، والسير في الطرق المتعرجة.

أعانه سامي بهاء الدين ليتحول من صناعة السفن بالخشب إلى صناعتها بالصلب، تكسيتهما بالصلب.

استبدل الصلب بالخشب. تكلفة الخشب أكثر من الصلب، ويحتاج — بين فترة قصيرة وأخرى — إلى عمرة، أو إصلاح. البلانسات المصنوعة من الصلب تقل حاجتها إلى الإصلاح.

رفض بهاء الدين أن يتقاضى فائدة على مائة ألف جنيه دفعها. اكتفى بالقول وهو يربت كتف الخولي: الناس لبعضها!

يضع البخور من حول هيكل البلانس، وفي قلبه، حتى لا تتسلل إليه الأرواح الشريرة، تلتصق به، ويجري البناء والطلاء فوقها، فتظل جزءاً منها، تحمل الشؤم



والخطر إلى حيث يسافر. قال: لماذا نَسَلُّق الصنعة ما دمننا نستطيع صنع بلانس يواجه أقسى النوات؟

لا أحد يعرف ماذا في ضمير البحر، ما يعتزم أن يُقدِّمه أو يأخذه. قاسم، صياد من بحري، غدرت به النوة، اختطفته. سُمي باسمها.

قال: البحر كريم ... لكن إذا فاضت أمواج كرمه ابتلعت البشر والمراكب!

ثم وهو يهزُّ رأسه: البحر غدار!

البحر ليس في كل الأوقات حصيرة. البحر الساكن — دائماً — خيال مستحيل. إنه يواجه — في كل لحظة تأثير النوات. ينقلب الهدوء في وقت ما، في لحظات غير متوقعة، إلى نوة عنيفة، هوجاء، تنقلب فيها زرقة الأمواج إلى رمادية قاتمة.

اختيار لون البلانس مهم. ما يتفاعل به صاحب البلانس أو ملاحوه. اسم البلانس حقٌ لصاحبه وحده. يُطلق عليه — في الأغلب — اسم أحد أبنائه أو أحفاده. يترك لمن يُحسن الخط والوشم مهمةً تزيين جوانب البلانس بعينٍ تطرد الحسد، وكلمات ضد الحسد، وبالنفوش والخطوط، والعبارات التي تدعو بالسلامة.

وقال المعلم عمران — وهو يدفع إلى البحر بلانساً جديداً، في لهجة متباهية: صار القزق أكبر من هذه التسمية. إنه الآن ترسانة بحرية!

يفضل الجمعة موعداً لنزول البلانس إلى البحر.

يرفض ساعة النحس في ذلك اليوم. هو يوم مبارك، وهو أفضل الأيام، على أن يكون البحر حصيرة، والنوات غير مرئية. لكنه يتشاءم من غياب الطير فوق الساحل لحظة بدء الرحلة. يعتبره نذيرَ خطرٍ يتهدد البلانس. ليس غرق البلانسات — دائماً — من فعل النوات، ولا من أذى مخلوقات البحر.

يتجنب الصيادون لقاء الحانوتي شحاة عبد الكريم. يبتعدون عن مجلسه في قهوة مخيمخ. يميلون في سيرهم إلى شوارع جانبية تبتعد عن بيت الرجل. يعزون إليه أفعال السحر التي تقلب البلانسات، تُغرقها بطاقمها، وبالصيادين. يلجأ إليه الحساد وذوو النيات الشريرة. يدفعون له، فيعمد إلى التعاويذ.

شاهد أهل بحري ما تبقي من حطام البلانس «قدورة».

حملته الرياح والتيارات المائية. أدرك الناس أن مَنْ كانوا في البلانس قد اختطفهم البحر. تحدَّث الرئيس خلف زيدان عن السحر الذي دسَّه شحاة عبد الكريم في طعام الصيادين. جعل المستحيل ركوبهم البحر، وقيادتهم للبلانس. بدواً كالمؤمنين، يتكلمون

ويتحركون، وهم خاضعون لتأثير السحر. أسلموا البلانس — دون أن يفطنوا — للأمواج. غابت الوقفة وراء الدفة، وملاحظة أحوال الجو. أغاثهم جنِّي البحر، قبل أن يرتطم البلانس بصخرة في قلب البحر. قفز إلى موضع الدفة. أدارها في الاتجاه الصحيح. الطعام المسموم أذهلهم عن رؤيته. صحوا (كانوا قد ناموا، أو أُصيبوا بالإغماء) على الصيحات والنداءات والزغاريد تترامى من الشاطئ.

يأخذ عمران الخولي مسحةً من تراب مقام أبي العباس. يُعيد المسح بها على دفة السفينة. يثق أنها ستحفظ البلانس — بشفاعة المرسي — من النوات والأعاصير، ومن الغرق.

يُبدي استعداداه للتنازل عن جزء من أجره لإعداد احتفال يناسب ما بذله في صنع البلانس. يُقام سرادق، تبدؤه تلاوة للشيخ مصطفى إسماعيل. تعزف فرقة موسيقية. يرقص سيد حلال عليه. يغني ماهر الصاوي. يوزع الشرابات، وتُدبج الأضاحي. تضغط الأيدي المغموسة في الدم على جوانب البلانس. يحرص على تشحيم بدن البلانس، فيسهل انسيابه في الماء.

يعلو صوت عمران الخولي: الفاتحة لسيدنا الخضر!

يعرف أن الخضر على منبر من نور، بين البحر الأعلى والبحر الأسفل. واجب مخلوقات البحر أن تسمع للخضر وتطيع. حتى الأمواج والرياح عليها طاعة الخضر — بتأييد الحق سبحانه — فهو يُنقذ من يستغيث به في أوقات الخطر.

ترفع الدعوات التي تُمسك البلانس، ويرفع الهلب، ويقذف الجانب بزجاجة ماء ورد، وينزلق البلانس على الحاملين الحديديين الموصولين بين اليابسة والبحر إلى قلب الماء. تتعالى الزغاريد والأغنيات والدعوات:

يا اللا ياريس ...

هشوا قدامك ...

هشوا السمكات ...

حوط ياللا ... وارم غزولك ...

خير ياما ...

نور جانا ...

شدوا بهممه ...

سردين ياما ...

النيل جانا ...  
ياللاً معانا ...  
شدُّوا بهمَّه ...  
ارم غزولك ...  
ياللاً حوط ...  
ياللاً مجدافك ...  
هيه هيه ...  
الطرح نضيفه ...

يشقُّ البلانس الأمواج في مناطق يحسن ركوبها، وإن أخلى عمران الخولي مسئوليته من الجزر التي يتوقع أن تسكنها الشياطين والجان والمخلوقات الغريبة. لم يكن كذلك يقترب من حطام السفن الغارقة، أو الأخشاب الطافية فوق الماء، قد تَثَّي بوجود أشباح، أو أطياف، أو أرواح تبحث عن ثأرها.  
إذا كانت الباخرة قد غرقت بالقصد، فإن أرواح القتلى لا تهدأ قبل أن تحصل على الثأر. قد تحيد الضربة عن الموضوع الذي تقصده.  
لماذا يضع نفسه في احتمال الخطر!؟

المحروسة، يخت اشتراه الخديو إسماعيل، لنقل الإمبراطور نابليون الثالث ملك فرنسا وزوجته الإمبراطورة أوجيني من بلدهما، بالإضافة إلى الملوك والأمراء الذين استضافهم إسماعيل لحضور احتفالات افتتاح قناة السويس، وإعادتهم — بعد انتهاء الحفلات — إلى بلادهم.

ظلت المحروسة يختاً ملكياً، تثول ملكيته إلى حكام مصر، بتعدد المسميات: الخديو، السلطان، الملك. هو يخت من ثلاثة طوابق. يصعب أن يكون بارجة، أو مدمرة، ويصعب أن يكون «بلانس»، ويصعب أيضاً أن يكون لنشاً، أو حتى قارباً. اليخت هي التسمية المناسبة.

أثّر توالي الأعوام على «المحروسة».

لم تُعد — كما كانت — أجمل القطع البحرية الماثلة في العالم. بدت الحاجة إلى إصلاحها ضرورية، لا لإنقاذها من الغرق فقط، وإنما للحفاظ عليها كأثر تاريخي مهم. رسا العطاء على شركة إيطالية متخصصة في عمليات الإصلاح، لقاء مليون جنيه.

وافق البرلمان على اعتماد المبلغ، ووَقَّعت الحكومة العقد، وانتقلت «المحروسة» إلى مواني لإصلاحها.

كان يرأس الحكومة — آنذاك — إبراهيم عبد الهادي باشا رئيس الحزب السعودي. عندما تغير مجلس النواب السعودي، وجاءت حكومة الوفد بمجلس ذي أغلبية وفدية. كانت الليرة الإيطالية قد انخفضت أمام الجنيه المصري. وجدت حكومة الوفد نفسها مطالبةً بسداد فرق عملة للشركة، هو ٣٢٠ ألف جنيه.

كانت المحروسة في مواني إيطاليا. وكانت الشركة قد تقاضت مبلغ المليون جنيه. لم يكن بوسع الحكومة — ومجلس النواب بالتالي — سوى الموافقة على دفع فرق العملة، إنقاذاً لليخت ذي القيمة التاريخية والأثرية.

عادت المحروسة بعد إجراء الإصلاحات، وإعادة اللمسات الفنية إليها. لجأت الحاشية إلى عمران الخولي، لصنع إضافات في قاعات اليخت وحجراته. عُني بها كما يجب العناية بيخت ملك.

استدعته الحاشية — بعد أيام قليلة — لإجراء إصلاحات في فيلا الملك بالعجمي. ضابطته مراقبة الحرس الملكي والموظفين المدنيين. تعددت التوجيهات والتنبيهات والملاحظات.

أصاخ السمع لهمسات الخدم أن الدواليب والخزائن المغلقة بها ثروة هائلة. ربما — إذا قامت ثورة — حملها الملك في سفره إلى الخارج.

حين عرض رفقي زلابية على عمران الخولي أن يبيني — في القزق — سفينةً كبيرة، سأله الخولي مستوضحاً: بلانس؟

قال رفقي زلابية: أريد قصرًا متحرِّكًا.

وفرد ذراعيه بامتدادهما: أريد يختًا لا يقل في حجمه ولا فخامته عن المحروسة. يعتز الخولي بأنه شارك في عمل عمرة ليخت الملك «المحروسة». عانى الذهول لرؤية القاعة الزرقاء، العربية الطراز، والقاعة الفرعونية، وقاعة التدخين التي لم يشهد مثلها. وشى صوته بسخرية: للصيد أم لنقل الركاب؟  
— لرحلاتي.

ثم وهو يفرد يديه باتساعهما: أقل شيء يجب أن يكون في فخامة اليخت فخر البحار، أو اليخت الشراعي فيض البحار.

لاحقته متابعات زلابية وملاحظاته. زادت، حتى علا صوته يتساءل إن كان ما يريده سفينة نوح؟

أهمل زلابية قوله، وواصل إبداء تصوراته. تزويد اليخت بمحركات داخلية، ومولد كهربائي كبير، وجهاز لتقطير المياه، وحمامات، وحجرات نوم، وصالونات، وشاشة عرض سينمائي، ومهبط لطائرة هليكوبتر، وحمام صغير للسباحة، وأنابيب أوكسجين، وبدل غطس.

شدّد على انسياب اليخت، مناورته السريعة، مرونته في الحركة، سواء كان البحر حصيرة، أم علّت أمواجه. سهولة انطلاق رحلاته إلى أعالي البحر والمحيطات. قدّم لعمران من المقدمات ما دفعه إلى كتم تساؤلاته. نسي عمال القزق أوقات البطالة، والعمل في البلانسات والفلوكات وعمليات الترميم والصيانة.

بعد أن أنهى القزق صنّع اليخت، كان رفقي زلابية قد غاب عن بحري. لم يجده الخولي في قصره المطل على رأس التين، ولا في الجوامع أو المقاهي أو الأسواق أو الشوارع. اختفى تمامًا، حتى من حياة أسرته. خفتت أصوات الموسيقى والغناء. قبلت روايات كثيرة، وإن اقتصر تصديق الناس على أن عروس البحر اشتاقت إلى رجلها القديم، فأعادته إلى دنيا السحر في الأعماق.

انظر: الخضر، رفقي زلابية، سامي بهاء الدين، سيد حلال عليه، شحاتة عبد الكريم، فاروق الأول، ماهر الصاوي.



## غريب أبو النجا

بحري يعتمد على أحوال البحر.

يعرف ريس الصيادين غريب أبو النجا مواعيد النوات، يترقبها: المكنسة، قاسم، الفيضة الصغرى، عيد الميلاد، رأس السنة، الفيضة الكبرى، الغطاس، الكرم، الشمس الصغيرة، السلوم، الحسوم، الشمس الكبيرة، العوة — ما بعدها نوة — ثم يأتي الخماسين. تُعينه على التنبؤ أحوال البحر من حالات المد والجزر، واتجاهات الرياح، والتيارات البحرية، يسترشد بالأجرام السماوية. يلجأ إليها، وإلى قراءة الأفق، يحدد توقعات الرياح، والنوات، وأنسب مواعيد لركوب البحر، وللصيد. لا يتابع نشرات الأرصاد الجوية. يحدد موعد بدء رحلة البلانس، حين تكون الرياح مواتية، والجو طيباً.

يثق أن البحر الحصيرة ليس أكثر من واجهة هادئة تُخفي أعماقاً صاخبة، قاسية، تُحركها النوات، فنغرق ما فوقها. يعرف متى ينشر الشراع، ومتى يأمر بخفضه، توقيتاً لخطر العاصفة الوشيكة.

لا شأن للبحر بمشاعر البشر، لا شأن له بالخوف، ولا الألم، ولا الحزن، ولا الغضب، ولا الفرحة. حتى تقلباته لا شأن لها بما يطلبه البحارة والصيادون، أو يتطلعون إليه. تتحرك نواته بالرياح والعواصف والأعاصير. تملو الأمواج. تطوي المراكب والبشر داخلها، لا تعباً بتوسلات ولا صياح أو صراخ. رفع أذاها — إن تشفع الأولياء — بيد الله وحده. يقول في لهجة تذكير: العاصفة ليست في النوة وحدها. قد تُفاجئك العاصفة في وقت لا تتوقعه!

عرف عنه أنه يُجيد قيادة البلانس في أقصى حالات رداءة الجو. إذا واجه البلانس نوة في قلب البحر، إذا وقع في شدة، نادى باسم الله، وتشفع باسم ولي الله الأنفوشي من

موضعه. يطالب الولي أمواج البحر بالسكون. تسكن وتهدأ الريح. يمضي البلانس في طريقه بإذن الله.

حين نفذ ماء الشرب والبلانس في داخل البحر، تشفع غريب أبو النجا بولي الله الأنفوشي. صعد بالدلو من الماء. تذوّقه، فوجده عذبًا.

شرب الرجال حتى ارتووا.

يعرف أماكن صيد الوفرة، ما غابت عنها شبك الصيادين فترات طويلة، فاطمأنت الأسماك إلى مألوف حياتها.

الصيد مهنة لها أصولها.

حتى صيد السنارة لا بد من تعلّمه قبل أن يُلقِيَ الصياد سنارته في المياه، وينتظر جذبة السمكة. اعتاد صيادو السنارة نصيحته: إذا جذبت السنارة سمكة، فعلى الصياد أن يُغيّبها في الغلق، كي لا تراها أسماك المنطقة، فتفر بعيدًا.

يفرق — بالنظرة السريعة — بين أنواع الجمبري: النايلون، القزاري، الأحمر.

أسلاك الواير لازمة لشباك الجر.

يفضل صيد الكنار، يحيط به الحجارة. حين يدبُّ بالدماقة. تلجأ الأسماك في فرارها إلى داخل الغزل، لا تستطيع النفاذ من الثقوب الضيقة.

واجه غريب أبو النجا غضبَ الصيادين وغازلي الشباك، حين استبدل الغزل المصنوع من النايلون بغزل القطن المصري. عاب على غزل القطن أنه يستهلك بسرعة، ويحتاج — على فترات متقاربة — إلى الصيانة والديباغة، وقدرة تحمّله محدودة.

قال في حسم: شبك النايلون هي الأمتن والأوفر!

من أصرَّ على أن يظلَّ استخدامه لغزل القطن، أعاد مراجعة ما يفعل. امتدت شبك النايلون — فيما بعد — على الكورنيش الحجري، والمناشر، وجوانب البلانسات، وظهور القوارب المقلوبة على الرمال.

يعيب على مراكب الجر أنها تؤثر على قاع البحر. لغزلها فتحات ضيقة، يكنس البحر من السمك والزريعة. حتى الأعشاب والطحالب يجتثها. يُخلي مساحة المياه من كل ما بها. لو أننا تركنا الزريعة في أماكنها سنة واحدة، فسيمتلئ البحر بالسمك. يرفض الصيد باستخدام الديناميت والبودرة. يُثيره مشهد الأسماك الطافية فوق سطح البحر. يجد في استعمال الديناميت جريمة لا تقل عن جريمة قتل البشر. إنهم يقتلون السمك، فيسممون الناس، أو يحرمونهم من وجبتهم الأساسية.



يأخذ على أصحاب البلانسات صيد ما تطلع به الجرافة، حتى الزريعة والأسماك الصغيرة.

صداقته للمعلم بدوي الحريري لم تحل دون رفضه لصيد الزريعة. مواقعه في البواغيز والمنافذ وقنوات الاتصال. صداقتي للبحر أهم من صداقتي لبدوي الحريري. البحر رزق، وما يفعله الحريري أنه يقضي على هذا الرزق. قال: كل ما يأتي به الماء رزق حلال.

لم يكن السمك عنده مجرد طعام، أو مورد رزق، لكنه يتبرك به، ويؤمن بالخير الذي يحمله.

يغيظه أن يطأ الصيادون وباعة السمك والمترددون على الحلقة، ما يتناثر على الأرضية البلاط من أسماك.

يعلو صوته موبخاً: هذه نعمة ربنا. حرام أن ندوسها! عاب على هيئة الثروة السمكية إهمالها في مراقبة بلانسات الصيد الآلية، ومتابعة الشباك التي تُلقي بها، ومدى التزامها بقوانين الصيد، ومنع السطو المنظم على الزريعة. يحرص على الاغتسال في ماء البحر، وضوئه فيه. الماء الذي يزيل أوساخ الجسد، يزيل كذلك أوساخ الروح، يطهرها. النار تحرق، أما البحر فيطهر. البحر طاهر، لا يحب غير الأطهار.

إذا لم ينتبه الريس غريب لمن يلوث البحر بأفعاله، فإنه يجلب النحس للبلانسات كله. إذا أذن له بالصعود إلى البلانسات، فإن البحر هو الذي سيقتله.

من حكاياته التي يحرص على استعادتها، ما فعله سيدي نصر الدين: لما ضاق بالحال، صعد إلى مئذنة أبي العباس، هتف في الناس، يعيب عليهم زمانهم وأفعالهم ومداراتهم لأفعال الآخرين. بعد أن امتلأ الميدان — في أسفل — بالآلاف الناس، أشاح ولي الله بيده دلالة الاستياء، وطار إلى حيث لا يدري أحد.

في ليلة إبحار البلانسات، الموعد المناسب لبدء الرحلة، عندما تكون الرياح مواتية، كان غريب أبو النجا يؤدي صلاة الفجر في أبي العباس. يظل في الجامع إلى قرب الصباح. يطلب غفوةً في تكوُّره إلى جانب الجدار، أو أحد الأعمدة الثمانية وسط الصحن. يتبين — في رؤيا أشبه بصلاة استخارة — إن كان سيقود البلانسات في رحلة الصيد، أم يُرجى الرحلة إلى موعد آخر. لا يتوقع — في غفوته — ظهور السلطان. تكفيه الإشارة التي تهب الإذن بالرحيل. حياتنا، وما نملكه، والمتوقع، والحظ، والقسمة، والنصيب، بشفاعة أولياء الله ومكاشفاتهم.

المرسي سلطان الإسكندرية، وقطب أوليائها. ما يشير به، لا يناقش، ولا يرد. اعتاد التردد على مقامه حين تضيق به الأمور، وتتعدّد الظروف، يجد الراحة والطمأنينة والأمان. يعني — قبل أن تنطلق الرحلة — (تعددت رحلاته، فلا يذكر عددها) بسلامة الغزل، وتوفير حبال الكتان، وصفائح الزيت، والأوعية، وأدوات النجارة، وصناديق المسامير، والسولار، والثلج، وما يحتاجه طاقم البلانس من الخبز واللحم والخضر والفاكهة والمأكولات المعلبة. يفحص الأثرعة، يتأكد من تثبيتها في أفضل زاوية. يفحص الدفة، يطمئن إلى امتلاء براميل الماء. يحرص أن يتدلّى حبل إنقاذ من مؤخرة البلانس، يتعلق به من يسقط في المياه لأي سبب.

كان يرفض أن يصحبه في ركوب البحر من يهمل أداء الصلاة في أوقاتها، أو يتردد — لتعاطي المخدرات — على البلقطرية، أو على بارات شارع البوستة، أو على بيوت كوم كبير. يرفض حتى من يغضب امرأته، أو يمتنع عن دفع دين عليه. حتى لا يواجه صيادو البلانس المتاعب. ويظلوا أحياء، يجب أن يشعروا بالتقارب، بأنهم مثل أسرة واحدة. لا اختلاف، ولا حسد، ولا كراهية. أخوة البحر أمتن من جيرة البيوت المتلاصقة، أو المتباعدة، في بحري. المثل يتحدث عن الذين يعيشون في قارب واحد. يواجهون مصيراً واحداً. يياسط أفراد طاقم البلانس، يسأل عن أحوالهم الشخصية، ويمازحهم. يجيد الإصغاء، ولا يضيق بالأراء المعارضة.

يُعيد سبع مرات — قبل بداية الرحلة — ما لقّنه له شحاتة عبد الكريم:  
«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ﴿بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. يبسمل، ويعلو صوته بالآية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ﴾.»

— ما يريده البحر سيأخذه!

البحر يأخذ الطيبين والأشرار، تصحب عرائسه الطيبين إلى الأعماق، يقضون فترات، تقصر أو تطول، تُعيدهم إلى اليابسة، محملين بالكنوز والثروات، تصحب مخلوقاته الأشرار، فلا يعودون.

ترفع السقالات الخشبية، وينطلق البلانس. يتابع — بنظره — نشر الشراع، وامتلاءه بالهواء. تخفي الأرض. وتغيب طيور النورس. ليس إلا طيور بحر متباينة الأحجام

والأشكال والألوان، تُحلّق فوق البلانس، أو بالقرب منه. تبتعد الطيور، وتعود. تَثْبِي صيحاتها وصراخها بمرافقة الونس. تكتمل من حول البلانس دائرة الأفق، لا مرثيات سوى تلاحق الأمواج. تداخل غريب أبو النجا راحة، وهو يتطلع إلى المساحات الممتدة من حوله في المياه والسماء، وانطباقهما في نهاية الآفاق.

تلوح طيورُ النورس، فيعرف طاقم البلانس أنهم قد اقتربوا من ساحل آخر. إذا هبَّ الرياح دون توقُّع، يقرأ وفق «المتسع» الذي من منافعه هدوء البحر بعد هياجه، يطمئن إلى أن الأمواج لن تظلَّ على ارتفاعها، وتواليها. نظراته الهادئة تعكس احتفاظه بخبرات، تبين في كلامه وتصرفاته، وإن لم يتحدث عنها.

إذا عانى ضيقًا، أو التمس الجلوس لنفسه، اخترق الشوارع الضيقة، المتشابكة، إلى شارع السيادة. يعبر ميدان المساجد إلى الباب الرئيسي لجامع أبي العباس. يصعد الدرجات الرخامية. يدخل الصحن الواسع، على يمينه مقام السلطان، وباب الحریم. في المواجهة — أعلى الصحن — مصلى السيدات، تُغطيه مشربيات بامتداد الواجهة. يختلط الضوء المتسرب من الزجاج الملون في القبة العلوية، بأضواء اللمبات المتناثرة، تتوسطها نجفة هائلة من الكريستال.

يختار مجلسه لصق الجدار، بالقرب من المنبر. يترك نفسه للشروء، أو ينشغل بالقراءة من المصحف، أو يتوسل إلى الله بسيدي المرسي. ربما سحب كتابًا في الأدعية. يظل في موضعه حتى رفع أذان الصلاة التالية.

حين يترامى صوتُ المارد من منطقة ما بعد البوغاز، يؤذّن غريب أبو النجا — اتقاء شرّه — أذانَ الصلاة. يعرف أن الجان والمردة والعفرات — إذا نُودي للصلاة — لاذت بالفرار.

لا يدفعه الصوت إلى العدول عن الدخول أو الخروج: من يخاف المارد، فهو يخاف الموت.

ويتجه إلى الفراغ بعينين ساهمتين: الموت ليس في المارد وحده. إنه في البلانسات، وفي ركوب البحر، وفي المرض. حتى النوم قد تلتقي فيه بالموت.

ويرسم على وجهه ملامح متسائلة: لماذا نخاف الموت!؟

إذا حلَّ موعد نومه، بسمل، وحوقل، وقرأ المعوذتين والشهادتين. يطمئن إلى انصراف الشيطان، ثم يتجه إلى السرير.

وقف الطائر ساكنًا على صاري البلانس. لم ينعق كغراب، ولا أصدر صوتًا يئس بنوعه. هو طائر لم يسبق للرجال رؤيته.

رافق البلانس دون أن يتحرك من مكانه. حتى الأسماك المتقافزة فوق الأمواج، لم يحاول التقاطها. حتى بقايا الطعام على أرضية البلانس، عبرتها نظراته.

قال غريب أبو النجا في نبرة محايدة: هذا طائر الموت! لا أحد يعرف الإنسان الذي سيقبض روحه!

كانت فكرة الموت تُرافقه في كل لحظة، أيام إقامته في بحري، وفي رحلاته الكثيرة بعيدًا عن البر.

حدس غريب أبو النجا أن الموت سكن نجمه، وأن نجمه تقمّص الطائر الغريب. جاء الطائر ليدخل جسده. يمضيان معًا إلى الحياة الآخرة.

— أظن أن زمني قد انتهى.

وأغمض عينيه، وهز رأسه: هذا أوان رحيلي.

يُطل بيت غريب أبو النجا على مسجد سيدي نصر الدين، فهو دائم الود لولي الله، والاستغاثة به، وسؤاله فيما يُغمض من أمور دينه وديناه.

حدّث نصر الدين عن الحياة بعد الموت، الصور والبعث والنشور والحشر والصراف وجنة النعيم لمن أخلصوا في عبادة الرحمن.

قال ولي الله إنه يجدر بالإنسان أن يُعد نفسه — دومًا — لترك الحياة الدنيا، فالحياة الأخرى أفضل منها للمؤمنين. في الجنة: لا فرقة، ولا تعب، ولا حزن، ولا نصب، ولا يصيب ساكنها التعب ولا المرض ولا الكبر، ولا يواجه الفناء. له فيها ما يشتهي.

وقال نصر الدين: السعيد، السعيد من يواتيه أجله وهو قائم بما يُطلب منه. إذا كان عمله صالحًا، خرج من قبره. تُطالعه نوق لها أجنحة، عليها رجال الذهب، شراك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مدّ البصر. تسبقه، ويمضي وراءها. ينتهي إلى شجرة ينبع من أصلها عINAN، يشرب من إحداهما، فتغسل له ما في بطنه من وسخ. يغتسل من الثانية، فلا يهرم أبدًا. تظل على محياه نضرة النعيم. يبلغ باب الجنة. حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب. يضرب بالحلقة على الصفيحة، فيسمع لها طنين يبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل. تبعث قيمها، فيفتح له. إذا رأى الرجل القيم خَرَّ له ساجدًا. يقول القيم في لهجة مشفقة: ارفع رأسك، إنما أنا قيمك، وكلت بأمرك، فيتبعه الرجل. تخرج الحورية — باللهفة — من خيام الدر والياقوت. تقول: أنت حبي، وأنا حبك، وأنا الخالدة التي لا

أموت، وأنا الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أسخط، وأنا المقيمة التي لا أظعن. يدخل الرجل بيتاً من أرضيته إلى أسقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ، طرق صفراء وخضراء وحمراء، لا تُشابه طريق الطرق الأخرى، في داخل البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حشية، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يُرى مخ ساقها من باطن الحلل، يقضي جماعها في مقدار ليلة من ليالي الدنيا. الأنهار من تحته تجري، أنهار ماؤها صافٍ لا كدر فيه، وأنهار من لبن لم يتغير مذاقه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا﴾.

رُوي أن غريب أبا النجا التقط آخر أنفاسه، وهو يؤدي صلاة العصر في بيته. أسند جبهته على السجادة الصغيرة. لم يتحرك إلا بعد أن تبينت زوجته طول السجدة، وحاولت تبين ما حدث.

كان يدعو الله أن يحيا دون ألم، ولا حزن، ولا مرض، أو بما لا يرهقه من ذلك. فإذا جاءه الموت لا يعاني حشرته.

قالت زوجته إنه تمنى أداء الحج ماشياً، كما كان يفعل قدامى المسلمين. يُدخل عصا في أذني الغلق، يُسندها على كتفه، يخترق المدن والقرى والخلاء وما بين الجبال. ينسى المعاناة في رؤية البيت الحرام وقبر الرسول. يُطيل الإقامة، يتلأأ في العودة. قد يُكرمه الله، فيجعل البقيع مثواه الأخير. سمّت المرأة عيني زوجها.

اتجهت بنظرها — في اللحظة التالية — إلى حيث كان يقف الطائر الغريب. في الأيام الأخيرة. فوق إفريز النافذة المطلة على السيادة. كان الطائر قد اختفى.

انظر: بدوي الحريري، شحاتة عبد الكريم، المراد.



## فاروق الأول

في ٢٩ أبريل ١٩٣٦م، تناول رواد مقهى «الزردوني» نسخة «الأهرام» من خليفة كاسب. على الجانب الأيمن من صفحتها الأولى صورة للملك فؤاد، تحتها عبارة «مات الملك»، وعلى الجانب الأيسر صورة للملك فاروق، تحتها عبارة «ليحيا الملك». قدّمت الصحف الملك الجديد — مع استعدادات تولّيه العرش — على أنه يُتقن اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، ويُجيد ركوب الخيل، وقيادة السيارات، والسباحة، والألعاب الرياضية المعروفة. حرص بدوي الحريري أن يكون في الميناء يوم عودة فاروق من أوروبا. عرف اسم الباخرة «فيسروي أوف إنديا». ترقب وصولها.

هو فاروق بن أحمد فؤاد. وُلد في الحادي عشر من فبراير سنة ١٩٢٠م. أنهى دراسته في الأكاديمية العسكرية البريطانية عقب وفاة أبيه. عاد في الأسبوع الأول من مايو ١٩٣٦م. ظل ملكًا لمدة عشرة أيام فقط، ثم حول مجلس الوزراء سلطاته إلى مجلس وصاية حتى يبلغ سن الرشد في الثامنة عشرة من عمره. وكان سيُبلغه في ٢٩ يوليو ١٩٣٧م. كانت الوزارة — آنذاك — برئاسة مصطفى النحاس. حسبت أعوام ميلاده بالتاريخ الهجري لا الميلادي (وُلد في الحادي عشر من فبراير سنة ١٩٢٠م). يصبح سن الرشد عنده هو الثامنة عشرة الهجرية، وليس الميلادية. بعد انتهاء مدة الوصاية في ٢٩ يوليو ١٩٣٧م استقل فاروق عربة مطلية بالذهب، تجرّها ستة خيول، انطلقت في شوارع القاهرة إلى مجلس النواب. أقسم الملك اليمين، وهو يضع يده اليمنى على نسخة من القرآن، ويُمسك صولجانًا بيده اليسرى: «أقسم بالله أنني سوف أحترم الدستور، وقوانين الدولة المصرية، وسوف أحافظ على استقلال الوطن، وأحمي أراضيّه».

وَرِثَ عن أبيه خمسة قصور، وعدة فيلات واستراحات من ساحل البحر المتوسط شمالاً إلى السودان جنوباً، ومساحات واسعة من الأراضي الزراعية، تبلغ عشر كل الأراضي المصرية المزروعة، وأكثر من سيارة، منها عشر سيارات رولزرويس، وسرباً من الطائرات الملكية، واليختين البحريين «المحروسة» و«فخر البحار». وكان أبوه يستثمر ٣٠ مليون جنيه في بنك مصر، وما يقارب نصف هذا المبلغ في بنوك أجنبية.

في عهده وُقِّعت معاهدة ١٩٣٦م بين مصر وإنجلترا. حلت فيها المسائل الأربعة المعلّقة في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٤م، واستقلت مصر — في ظاهر الأمر — استقلالاً تاماً. تزوج في ١٩٣٨م العشرين من يناير، من الأنسة صافيناز ذو الفقار (فريدة في الاسم الملكي). استمر الاحتفال بالزفاف الملكي ثلاثة أيام. عادت — في هذه المناسبة — أعداد من عمال الميناء المفصولين إلى أعمالهم، وأفرج البكباشي حمدي درويش عن المحبوسين في تخشبية قسم الجمرك، وإن استثنى المعتقلين لدواعٍ سياسية، وانطلقت الألعاب النارية من «التيرو»، وتدلت الأنوار على واجهات المباني الحكومية، ونصب التجار أقواس النصر أمام محالهم، وفي الميادين القريبة، ووُزِعَ الطعام والكساء على المحرومين، وخرجت جلوة للطرق الصوفية من أبي العباس، وأقامت الكنائس حفلات قداس، وقدمت جمعية «إكشورة» الإسرائيلية الطعام للفقراء.

أُعلن — رسمياً — في ١٩٤٨م طلاق فاروق من فريدة. أُعلن — في العام نفسه — طلاق شاه إيران من الإمبراطورة فوزية.

أنشأ محمد علي باشا قصر رأس التين في أوائل القرن التاسع عشر. يقع في نقطة التقاء قرية راقودة وجزيرة فاروس. في نهاية الانحناء ما بين خليج الأنفوشي، والامتداد إلى المينا الشرقية، والاتجاه إلى غربي المدينة.

لا أحد يدري إن كان الموقع من اختيار محمد علي، أم أنه ترك الأمر لمستشاريه من العلماء الأجانب، فأجادوا اختيار هذا الموقع. هو في عنق الزجاجة التي يحيا داخلها حيُّ بحري.

تعلو القصر قباب من طراز الروكوكو. صمّمه المهندس الإيطالي مينوتولي. أشرف ثلاثة مهندسين معماريين على بنائه. بدأت عملية البناء في سنة ١٨٣٤م، وانتَهت في ١٨٤٥م، ثم أُضيف إليه جناح في ١٨٤٧م، وأُضيفت قاعة في عهد الملك فؤاد، جدرانها محلّاة بأيات من القرآن، والأحاديث النبوية، وأقوال الحكماء العرب. تتدلّى من وسط السقف نجفة ذات نقوش ومنمنمات عربية.



يحتل القصر زاوية في أول بحري — أو في آخره — تُطل على البحر من جهات ثلاث، امتدادًا لشبه الجزيرة المتصلة بشبه جزيرة الإسكندرية. يشكّل تجاوزًا جغرافيًا، لكنه يختلف في عزلته وناسه وبنائاته وحرّاسه وحدائقه ومظاهر الأبهة. الفرجة هي ما يملكه أهل بحري على الداخلين إلى القصر، والخارجين منه، وثكنات الحرس الملكي، والبوابات الهائلة، والصارى الذي يعرفون بالعلم فوقه إن كان الملك في داخله، وانطلاق البروجي في مواعيد لا يُدركون بواعثها، والحديقة المستلقية أمامه. يضمّن الناس ما رأوه مناقشاتهم. يُضيفون إليه ملاحظات ومبالغات. الأميرة فوزية هي آخر من شهد القصر مولده ١٩٢١م من أفراد الأسرة المالكة. لهذا السبب — ربما — أحبها أبناء بحري، وأظهروا فرحتهم لزوجها من ولي عهد إيران. نسب الصياد السعداوي شبانة إلى نفسه فضلًا إنقاذ فاروق من الموت، قبل أن يُصبح وليًا للعهد.

كان السعداوي يبحث عن الموضع المناسب للصيد، في المسافة من أول الطريق الملاصق لحديقة رأس التين إلى انحناء خليج الأنفوشي. هتف لصراخ الطفل بعد أن أفزعته خيل السراي في جولتها الصباحية. أربكت قيادته للدراجة التي كان يقودها خارج السراي، فكاد يسقط تحت حوافر الخيل. جرى الصياد سويلم أبو العلا بأخر ما عنده. احتضن الطفل، وقفز به بعيدًا. بدا الفزع في عيني الضابط أول طابور الخيالة. أخذ الطفل من يدي الصياد. عرض عليه — ربما لشراء صمته — مبلغًا هدية.

اعتذر الصياد عن قبول المبلغ: هو مثل أولادنا!

حين وصلت باخرة الملك من أوروبا — فجر الأحد ٢٥ يوليو ١٩٣٧م — كان السعداوي شبانة واحدًا من الآلاف، وقفوا داخل الفلايك والدناجل واللنشات، يستقبلون عودة الملك الجديد بالموسيقى ودقات الطبول والدفوف والأغنيات، والهتاف بحياته. ظهر التغيير على التكوين الجسدي للولد الذي أنقذه السعداوي — ذات يوم — وعلى ملامحه. أمضى خمسة شهور في رحلته خارج مصر. قرأ الحاج جودة هلال في الجريدة عن تنقل الملك بين سويسرا وفرنسا وإنجلترا. تذكّر السعداوي مدة الرحلة، وموعد الوصول، وإن نسي أسماء البلاد التي زارها الملك، أو أنه لم يستوعب أسماءها.

عندما وصل الملك إلى الإسكندرية، صعد إلى ظهر الباخرة رجال الياوران، ورئيس الوزراء، والوزراء. فوجئ فاروق بمن يُلثم يده، ثمة من اكتفى بالانحناء فوق يد الملك الممدودة.

ما حدث كان نقطة تحول في نظرة فاروق إلى الحاشية ورجال الحكم. أضاف إلى سلبية النظرة، ما قاله رئيس الحكومة مصطفى النحاس — بعد لقائه بالملك — عن حكمة صاحب جلالة الملك المحبوب، وعن إرشاداته السامية، ونصائحه الغالية.

قال خليفة كاسب: أثق أن هؤلاء الناس هم الذين بدلوا أخلاقه!  
بدا تدخّل الحاشية وموظفي البلاط الملكي في شئون الحكم معلناً. يُجرون الصفقات، يعينون الوزراء وكبار الموظفين، يُصدرون أوامر الاعتقال. تحوّل حمدي درويش إلى أداة منفذة لأوامر رجال القصر — ونسائه أيضًا — وقراراتهم.

عرف عن فاروق إهمال نصائح الزعامات السياسية وقيادات الحكومة، والإنصات لنصائح خدمة الإيطاليين، واثمانهم على أسراره، ومواربة الباب لينطلق وراء نزواته. أدرك رفقي زلابية — من تردّده على قصر رأس التين — أن للحاشية تأثيراً، يفوق — ربما — تأثير الملك نفسه. يمتلكون الدهاء، وسعة الحيلة، والقدرة على التدبير، وإحكام الخطط. هم الذين يسألون، ويشيرون، وينصحون. الملك يكتفي بنظرة متابعة، وضحكات متقطعة للملاحظات التي تستهويه.

ألقي خليفة كاسب باللوم على علي ماهر في إفساد الملك، من قبل أن يجلس على العرش.

تعددت إقالة فاروق لحكومة الأغلبية. أسلوب الممارسة الذي كان لأبيه السلطان (الملك فيما بعد) فؤاد. لم يُعدّ يحترم الدستور، ولا البرلمان، ولا الشعب نفسه، أو ممثليه، ولا حقوق الأغلبية. لا يستشير حتى أقرب مساعديه فيما يفعله — قراراته من مخه — حتى الذين زينوا له خطوات البداية، سار بقية الخطوات دون أن يُعنى بأرائهم. حتى أحمد حسنين باشا، مربيه ومعلمه، والمخطط لسياسة الملك وقراراته، أهمل فاروق نصائحه وملاحظاته، أهمله الملك كما أهمل الحاكم بأمر الله معلمه برجوان، حين لم يُعد له به حاجة.

تسرّبت إلى بيوت بحري ومقاهيه وجوامعه وزواياه وورش القزق وقعدات الصيادين حكايات الشراهة في الطعام والجنس. تكلم الخدم عن مسميات الطعام التي يصعب نطقها، وعن الأجنيبات اللائي يقمن في جناح الملكة السابقة فريدة، وعن سهرات القمار في قاعة المكتبة حتى الصباح.

تحدّث عمران الخولي عن حفلات الغناء والرقص في قصر رأس التين إلى طلوع الشمس، وعن زجاجات الويسكي والشمبانيا والمجلات والأفلام الجنسية، وألبومات النساء

الجميلات، تعرض على الملك، فيختار مَنْ تصلح لمضاجعته. نساء من كل الدنيا، عرايا، وفي أوضاع مثيرة. كان يحرص على شراء الصحف التي تهاجم الملك. يوصي بائع الصحف أمام فرن حبيب. يحجز له نسخة الصحيفة، قبل أن يفطن أعوان البكباشي حمدي درويش إلى ما قد يحمل هجومًا على السراي، أو على الحكومة.

روى جودة هلال أنه أتى من سوق الترك بأعشاب ودهانات، لُح من طلبها من خدم السراي، أنها لمساعدة الملك في علاقاته النسائية.

قال بدوي الحريري: مَنْ كان يصدِّق أن الملك الذي ركبنا البحر لاستقباله في عودته من الخارج، هو الملك نفسه الذي تهتف المظاهرات الآن بحياته!

في صباح الأحد ٢٥ يوليو ١٩٣٧م، استقلَّ بدوي الحريري قاربًا مع عمران الخولي وغريب أبو النجا. أضافوا إلى مئات البلانسات واللواتس والدناجل والفلايك. انتشرت في المساحة الواسعة أمام الميناء. علت الموسيقى والطبول والدفوف والزغاريد، والهتافات بحياة الملك.

رأى الحريري — في وقفته فوق البلانس — رجال الحاشية والوزراء يصعدون السلم إلى أعلى الباخرة، الراسية على رصيف الميناء. صافحهم الملك. لثَّموا يده، أو انحنوا فوقها. قرأ — في صحف اليوم التالي — أحاديث مستقبلي الملك عن حكمته، وإرشاداته السامية، ونصائحه الغالية.

رأى خليل الفحام وخليفة كاسب — ذات عصر — رجلًا ضئيل الجسد، له سحنة الأجانب، يتمشَّى على لسان السلسلة.

تكلم الفحام — بعد ابتعادهما — عن وظيفة الرجل في السراي الملكية. لا يقطع في أمر دون مشورته، ولا يوقع على معظم المراسيم دون أن يناقشه.

تعرف الناس — في فترات متباعدة — على رجال الديوان الذين يشاهد صورهم في الصحف: حافظ عفيفي، أنطونيو بولي، جارو، كافاتزي (مربِّي الكلاب الملكية)، السائق الخاص حلمي حسين، بيترو، حسن يوسف، الطبيب يوسف رشاد، إسماعيل شيرين، كبير الياوران عمر فتحي باشا. يدخلون القصر بسياراتهم، أو يتمشون في المنطقة القريبة من القصر.

لم يَعد للوزراء رأيٌ ولا أمر ولا نهى. ما يقضي به رجال الحاشية، ويوعزون به للملك، يجري توقيعه، وتنفيذه، دون أن يعودوا لأحد.

ضح الناس منهم.

قال خليفة كاسب: هذا رجل لا يمكن أن تُصلحه مواعظ ألف من أمثال عبد الستار. ووشى صوته بنبرة يائسة: مَنْ يحيطون به، تأثيرهم عليه أقوى! حين عرض فاروق على أرملة الأمير عمر طوسون أن يتزوجها بعد طلاقه من زوجته فريدة، قالت فاطمة وهي تُشير إلى رجال الحاشية: كرامتي تمنعني من الجلوس إلى هؤلاء الناس!

– لماذا؟ ... ستُصبحين ملكة مصر.

– ما فائدة أن أصبح ملكة بدون ملك؟!

وكررت إشارتها إلى الرجال المتناثرين: بولي ومن معه هو الملك الحقيقي، وأنت خادمهم!

شاهد خليل الفحام الملك فاروق – ساعة العصر – في أوقات متباعدة. يقطع المسافة على الكورنيش الحجري الموازي لسور حديقة رأس التين. يصطف جنود الحرس الملكي، يمنعون الاقتراب. يصوب الملك بندقيته إلى طيور البحر. يجعل صيدها هدفاً، فتسقط في البحر.

قال: لعله أشفق من صيد الطير للسمك فأراد العكس.

وأظهر التأثر: ما يُخيفني أن يصوب رصاصاته إلى صخرة الأنفوشي. قد تعود النتائج بمصيبة علينا وعليه!

قال بدوي الحريري: السراي تطل على البحر ... لماذا لا يصيد هناك؟

– لعله يريد أن يُظهر قدرته على التصويب.

ثم مطَّ شفته السفلى: ولعله يريد إعجاب الناس!

يقف الأولاد على رصيف الكورنيش الحجري، وفوق المراكب المقلوبة على رمال الشاطئ. قد يستقل سيارته الحمراء ذات السقف المطوي – بمفرده – بعد الغروب. المسافة من رأس التين إلى المنتزه ٢٦ كيلومتراً. تقطعها السيارة السرعة في دقائق. قد يميل إلى «التيرو» داخل منطقة السلسلة. يُصر على المراهنات في التصويب على الأطباق. عندما يتواصل صوت الطلقات إلى قرب الفجر، يعرف الناس أن الملك اطمأن إلى مهارته في التصويب.

استعاد فاروق فقراً – تصفَّحتها عيناه – في تقرير البكباشي حمدي درويش إلى الديوان الملكي: «... وقال الشيخ عبد الستار منوفي في دعاء خطبة الجمعة: خلَّصنا من حاكمية البشر، واجعل الحاكمية لك وحدك!»

رفع الملك رأسه بعد قراءة هذه الفقرة: لمن يتجه الرجل بدعائه؟

قال كبير الياوران: إنه يدعو الله!

قال الملك في لهجة متسائلة: لماذا لا يأخذه الله؟!

وافق الملك على اقتراح لكريم ثابت بأن يصليَ في جوامع بحري، فيعيد لصورته ملامحها المطلوبة. يخلع على الأئمة عباة فضفاضة من السندس المزين بنقوش الفضة وقصب الذهب. يوزع رجال الحاشية المنح والعطايا على الفقراء وأهل السبيل. يستمع إلى آيات من سورة الكهف يتلوها الشيخ مصطفى إسماعيل، أو الشيخ أبو العينين شعيشع، أو الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي، أو الشيخ محمود خليل الحصري. يشارك المصلين نداءات العيدين: لبيك اللهم لبيك ... لبيك لا شريك لك لبيك.

قال فاروق: سأصلي الجمعة القادمة في أبي العباس.

كان معظم أدائه لصلاة الجمعة. أشهر نزوله الإسكندرية. في جامع المرسي. للجامع باب ملكي يُطل على مقامات الأئمة الاثني عشر، والسيالة.

يهبط من المركبة الخشبية المزينة بالذهب، يجرُّها ستة جياد. يصعد الدرجات الرخامية، ويهبط عليها، بين صفين من المشايخ، تعلق أصواتهم بالأدعية، تدور في أيدي خدم الجامع مجامر البخور، تتضوع روائح اللبان والجاوي والمستكة والعنبر والصندل. تترامى — من خلف صفوف الجنود — زغاريد وهتافات بحياة ملك مصر والسودان، وملك الشباب، والملك الصالح، والمصري الأول.

يتقدم الوزراء، يسلمون عليه، يلتزمون يده، أو يحننون عليها.

يقام — بعد صلاة الجمعة — ما يُشبه الحفل الديني، أدعية خاصة وابتهالات، تعلق بها أصوات المشايخ من موظفي وزارة الأوقاف. الملك يتوسط صحن الجامع. من حوله رجال الحاشية. المشايخ حول الجميع يرددون أدعيتهم وابتهالاتهم.

لم يُخفِ عمر فتحي إشفاقه: لعل الأصبوب أن نبتعد عن أبي العباس هذه الأيام.

استطرد في نبرة محذرة: المظاهرات التي تخرج منه بعد صلاة الجمعة لا تنقطع.

أوماً الملك ناحية حمدي درويش، في وقفته آخر القاعة: ماذا يفعل الأمن إذن؟

قال كريم ثابت: من حق مولانا أن يحدّد الجامع الذي يؤدي فيه الصلاة.

قال عمر فتحي: لعل في زيارة الجوامع القديمة فرصة جيدة، لكي تُرممها وزارة الأوقاف، وتُعيد تأنيثها.

قال الشماشجي محمد حسن: لتكن الصلاة إذن في علي تمران.

أهل بحري شهود على أحداث ذلك اليوم. المصادفة — وحدها — هي التي أملت التطورات. اليوم هو السادس والعشرون من يوليو. مقر الوزارة في بولكلي. إقامة الملك ما بين قصر المنتزه ورأس التين.

تطلع خليفة كاسب إلى السماء — بتلقائية — يبحث عن الطائرات التي دوى صدى صوتها. رفع الكراديسي، جرسون قهوة مخيمخ، صوت الراديو، يبثُّ الأناشيد والموسيقى الحماسية.

قَدِمَ الناس على ترامي طلقات رصاص متتابعة من ناحية السراي. روى الواقفون — منذ الصباح — ما حدث: أطلق الحرس الملكي رصاص بندقه على صفوف جنود الجيش أمام السراي. ردَّ الجنود بطلقات متتالية من المدافع الرشاشة. لحظات، ثم تحرَّك منديل أبيض من شرفة جانبية.

قال عمران الخولي: ألا يحكمون من القاهرة ... لماذا لا تدور معاركهم فيها؟

قال خليل الفحام: الإسكندرية مدينة مهمة.

— مهمة في الصيف فقط ... تهمننا نحن طول العام.

ردَّد الواقفون أمام جنود الجيش يحملون البنادق ويرتدون الخوذات، والكردونات والدبابات، ومدافع الميدان (لم يتجاوزوا العشرات) هتافات تقول: الجيش جيش الشعب ... الجيش حامي الأمة ... أهلاً أهلاً بالحرية ... يسقط الملك ... لا ملكية بعد اليوم.

أمر حمدي درويش جنوده بالألَّا يتصدوا للمظاهرات. إنها تؤيد الجيش. من غير المتصور أن يمنع البوليس تأييد الشعب للجيش.

وزَّع الجنود على النواصي والمفارق البعيدة. يتقدمون بتقدم المظاهرات إلى مناطق أكثر بعداً.

قال خليفة كاسب إن رجال الملك هم الذين دفعوه لدخول حرب فلسطين. أرادوا كتم سخط الناس، إلهاءهم عن قسوة الحياة.

قال جودة هلال: يجب على قادة الجيش أن يشكروا الملك لأنه حرص أن تظل حركتهم بيضاء.

قال خليفة كاسب: هم الذين حرصوا على ذلك.

— كان بوسعه أن يسكت عن إطلاق المدافع من مبنى الحرس الملكي، أو يطلب تدخُّل قوات الإنجليز.

وشى صوت عمران الخولي بلهجة تحذير: لو أنه ركب رأسه، ربما لم يأخذ مليماً واحداً من الأموال التي خرج بها!

روى عمران الخولي أحداثَ اليوم الأخير، من ابن عم له، يعمل طباًحاً في القصر. أنصت فاروق — صامتاً — إلى نصائح الحاشية بأن يستعين بقوات الإنجليز الموجودة في منطقة القناة، يحرك قواتٍ من الإسكندرية، يلجأ إلى قوات البحرية، يأمر قوات الحرس الملكي.

قال عمر فتحي باشا كبير الباوران: كما أرى، الحرس الملكي على ولائه، والسلاح البحري كذلك. لو أن مولانا قاد سيارته إلى معسكرات مصطفى باشا فسيجتث التمرد من جذوره.

تعددت النصائح، والملك على صمته، لا يناقش، ولا يُبدي رأياً، يضرب راحةً يده بقبضة اليد الأخرى، يزفر، ينتتر من جلسته، يذرع المسافة — في معاناة واضحة — بين الكرسي والنافذة المطلة على البحر.

اتجه إلى رجال الحاشية بنظرة تقطر الماء، وهز رأسه دلالة الرفض. أدرك خليفة كاسب أن الملك قد اقتنع بنصيحة علي ماهر باشا، حين قَدِم إليه — في الصباح — بفكرة التنازل عن العرش.

قال فاروق: أنا لست جباناً. سأقاوم ... عند الحرس الملكي مدافع أكبر من مدافع الجيش المصري.

قال علي ماهر: ليس الأمر بعدد المدافع ولا ضخامتها. أنا لا أرضى لك أن تتسبب في حرب أهلية. حركة الجيش يؤيدها الشعب، لا أريد لك أن تقف ضد الشعب. لما ترامت طلقات المدفعية من ناحية السراي، حدس عمران الخولي تكرار ما جرى — في الصباح — من تبادل للنيران. انتظمت الطلقات، حتى الطلقة الحادية والعشرين، ثم توقفت.

فسر خليفة كاسب عدها بأنها تحية استقبال أو وداع. قال في لهجة واثقة: لا بد أن الملك رحل. هذه الطلقات في وداع. روى أبو حلاوة أنه شاهد الملك وهو يقود سيارته الحمراء على طريق الكورنيش، في الطريق من قصر المنتزه إلى قصر رأس التين. دخل القصر. تركه آخر النهار، في السادسة تماماً، إلى الباخرة المحروسة. انطلقت به إلى المنفى.

قال الحاج جودة هلال إنه عرف تدبير عزل الملك من الحكم، ونفيه خارج مصر، قبل أعوام من حركة الجيش. لم يُحدد اسمَ مَنْ أبلغه ولا صفته. اكتفى بالقول: الحوت الكبير تأكله صغار الأسماك!

## أهل البحر

ظلت سيرة فاروق في حياة الناس أعوامًا قليلة. شحبت — في توالي الأحداث — وتلاشت. لم يعودوا يترددون على حديقة السراي في ليالي رمضان، ولا يتابعون موكبه، أو قيادته للسيارة الحمراء — بمفرده — في طريق الكورنيش، ولا يرددون الأغنيات التي تتحدث عن الملك الذي يُحبه شعبه. نسي الناس الاسم. استبدلوا به أسماء أخرى: جمال عبد الناصر ويوسف صديق وأنور السادات وعبد الحكيم عامر وخالد محيي الدين ويوسف وهبي وعبد الحليم حافظ وفاتن حمامة وعبد الباسط عبد الصمد وأم كلثوم وصالح سليم وتحية كاريوكا وعبد اللطيف أبو هيف وزينات علوي وحسن إبراهيم والضظوي وعبد الوهاب وعصمت عبد المجيد ومحمود الخطيب وسعاد حسني وصلاح جاهين.

صارت الدنيا غير الدنيا.

في ١٧ مارس ١٩٦٥م مات الملك السابق فاروق، بتأثير أزمة صحية مفاجئة. كان في الخامسة والأربعين من عمره.

انظر: أبو حلاوة، بدوي الحريري، جودة هلال، حمدي درويش، خليفة كاسب، خليل الفحام، عبد الستار، عمران الخولي.



## فتنة السعداوي شبانة

الابنة الوحيدة للصيد السعداوي شبانة. ماتت أمُّها وهي في السادسة. تزوّج السعداوي من ثانية بعد سبعة أشهر من رحيل أم فتنة. أنجب منها ولدًا وابنتين. تردّد أبوها في إدخالها المدرسة. عرض على الشيخ رافع عبيد أن يعلّمها القراءة والكتابة، ويحفظها القرآن. جلست أمام الشيخ مرتين، ثم اعتذر بضيق الوقت.

قال لخليل الفحام: البنت جميلة ... خشيت أن تفتني عن نفسي!  
نفر عرق في جبهة الفحام: فتنة طفلة ... في سن أحفادك.  
- تبدو أكبرَ من سنّها.

دخلت فتنة المدرسة في محرم بك. أمضت غالبية أيامها في بيت خالة لها بشارع الإسكندراني.

كانت تُمضي الصيف في بيت أبيها. لم يكن في صلتها بزوجة أبيها شدٌّ ولا جذب. تتنقل سحابة النهار بين بيوت الجيران، تُعاملها النسوة بحبهن لأمّها الراحلة. إذا ظلت في البيت، أغلقت عليها باب حجرتها، وأدارت الراديو دون أن تهبّه إنصاتها. تنشغل بقراءة مجلة الاثنين والدنيا، وروايات الجيب ومسامرات الجيب. تستعيرها من مكتبة النّز أول شارع الموازيني، أو من مكتبة فارس في تقاطع شارعي رأس التين وصفر باشا. تنعزل بقراءتها عن العالم. تشرّد. تتخيل ما تقرؤه. تُمصص شفّتيها لمصير مؤلم، تضحك على موقف مغاير، قد تُحاكي الشخصية بيديها وملامح وجهها. تخترع عالمًا شخصياته موجودة في الكتب والمجلات التي قرأتها. تُضيف، وتحذف، وتحور. لا تترك الحجرة إلى القاعة التحتية، إلا لتناول الطعام مع أبيها وزوجته وإخوتها الثلاثة.

لما أراد أبوها تزويجها اشترطت على زوجها — خيري أبو العز، تاجر الأسماك في الحلقة — أن يُخصص لها بيتًا بالقرب من بيت أبيها. رفضت عرضَه بالسكنى في أحياء الرمل. لا تتخيل نفسها بعيدةً عن بحري.

إذا ترددت النسوة على الحمام العمومي بشارع التتويج. علّق عم نجاتي على الباب الخارجي فوطة كبيرة، أو ملاءة، لإشعار الرجال بأن الحمام مقصور — في هذه الفترة — على النساء. يجلس عم نجاتي على الكرسي جوار الباب، لا يأذن حتى لنفسه بالدخول. يُصر أن تكون للحمام حرمة. لا يأذن بحدوث اختلاط، ولا شجار، ولا أعمال سحر. تأخذ الملابس — بعد نزعها — لوحظ التمورجية بمستشفى الملكة نازلي. تدفع بها إلى غرفة البخار، الملاصقة للمدخل، وتُعيدها بعد انتهاء الحمام. تُوزع الصابون واللوف والقوط. تُشير إلى كل واحدة على مربع، أيمن الطريقة المستطيلة. لما بدّلت فتنة بثيابها أدوات الحمام، مضّت إلى المربع الذي اختارته. تُهمل رفضها لقذف الثياب في غرفة التبخير. تُعيدها لوحظ بعد أن تُجفف نفسها. إذا عرف أبوها بالأمر، فلن يأذن لها بالتردد على الحمام. تبخير الثياب شأن الفقراء وحدهم، لمنع الأمراض والأوبئة.

تحب الوقوف في المساحة الصغيرة، ما بين الجدران الثلاثة والستارة المشمع، هي الموضع الذي تشعر فيه بالراحة، وأنها تملك روحها. تسدل الستارة. تخلو إلى نفسها تمامًا. تستمتع بنزول الماء الدافئ على جسدها. تُدندن بأغنيات تتذكرها، أو ألحان نسيت كلماتها، وتناقش نفسها، وتتأمل. هذا هو عالمها، تفضله على أي مكان. تنسحب إليه من عالم البيت والأب وزوجة الأب والملاحظات والتوبيخات والأوامر. تُواتيها الأفكار بما يصعب أن يحدث، حتى في بيت خالتها بمحرم بك. لا أسئلة، ولا ملاحظات، ولا نظرات لوم.

انهمرت مياه الدش ساخنة، شعرت بلسعتها على الكتفين والظهر. تراجعت بتلقائية. مدّت يدها، فأدارت الخلاط على الماء البارد. اطمأنت إلى اعتدال حرارة الماء. عادت إلى الوقوف بجسدها العاري تحت الدش. غمغمت بدندنة يغيب عنها المعنى، ثم وجدت الكلمات واللحن، فعلاً صوتها بالغناء.

تأملت الماء وهو ينزل على رأسها ووجهها وعنقها وكتفَيها. ينحني باستدارة نهديها. يهبط إلى البطن والساقين. تُبطئ في الحركة، حتى لا تنزلق قدمها في الأرضية الزلقة. كان الوقت ظهرًا، والمربعات خالية.

تنبّهت من دندنتها بأغنية تحت الدش على ملامسة يد لكتفها. أجملت. نظرت خلفها بتلقائية، تفتت حولها. كانت لواظ قد أغلقت باب الحمام الداخلي، وترامى صوت كلمات مداعبة بينها وعم نجاتي، من النافذة العلوية، المطة على شارع التتويج. شكّت فتنة فيما أحست. تفحصت المكان جيداً. لم تعثر على مصدر الصوت. تصورت اللمسة تياراً هوائياً مفاجئاً. عاودت تدليك جسدها باللوفة، وعلا صوتها بالدندنة:

ادلع يا رشيدي ... على وش الميه  
سيب رجلي وامسك إيدي ... على وش الميه

كان العفريت قد لاس كتفها بإصبع الغواية، ومضى. نسيّت فتنة ذكر اسم الله، فظل داخل الحمام، كعادة العفاريت ما لم يُصرفوا بسم الله الرحمن الرحيم، وبآية الكرسي، والأدعية.

بدت فتنة — حين رآها العفريت تُطل من نافذة البيت — مثيرةً بما يجعلها سبباً للغواية. راعه جمالها. افتتن بها، فتبعها في كل الأماكن التي تتردد عليها. أصاحت السمع، كأن صوتاً يناديها. رافق الصوت — ذات صباح — تصاعداً ما يشبه الطيف من قلب الأمواج، بعد أن استحمت في غبشة الفجر. كان العفريت يغطس ويقب في الموضع نفسه الذي استحمت فيه فتنة، ينثر على صدره ما يتصور أنه الماء الذي لامس جسدها. يكرر تقبيل الماء، ويمتص ملوحته. هذا هو الماء الذي تقبله شفثاها!

حوم في أوقات من النهار والليل حول البيت. يرنو إلى الحجرة المضاعة. يدرك أن فتنة تعيش وراءها. يكتم خاطر بأن يصعد إليها. يُخيفها في الحالين، إن أحست بوجوده وهو في الخفاء، أو رأته رؤية العين.

أكثر العفريت من التحول. لم يجاوز سحنة البشر، يشغله أن يستهوي عين فتنة. تُبطئ خطواتها، تأخذ منه وتعطي، ترضى به. يكرّ طرف الخيط، فيهمل نهاية صورة العلاقة في اكتمالها.

انتظرها، وتابعها، في ميدان أبي العباس، على كورنيش الأنفوشي، وهي تنشر الغسيل فوق سطح البيت، عند لحظات الصباح الأولى في الحلقة، صحبتها لأخيها الصغير إلى سينما رأس التين، أمام مصلى السيدات بجامع ياقوت العرش، في الساحة الترابية قبالة شارع أبي السعداوي.

ناداها باسمها وهي تصعد دحديرة أبي العباس. كان الوقت ظهراً، والشمس لاهية. لاذ الناس بداخل البيوت.

استدارت وراءها.

رأها، ولم تره. ذوّب نفسه في الفراغ.

واصلت السير بتصور أنها أخطأت السمع.

حاول أن يصرفها عن ذهنه، لكنها ظلت في موضعها، لا تتركه.

تسلّل — باليأس — وراءها إلى حمام الأنفوشي. وجد — في ملامسة جسدها —

انفراجة باب، يُطل منه على دنيا يتوق إليها.

تبدّلت — في اليوم التالي — حياة فتنة.

اتجهت عينها إلى ما لم تكن تراه من قبل. مالت إلى كلمات الغزل، واستجابت لها.

أكثرت من النزول إلى زحام المولد في ميدان أبي العباس وسوق العيد وشارع الميدان

وزنقة الستات. خلعت حذاءها، وسارت — بخطوات متباطئة — أمام الجالسين تحت

الشماسي وداخل الكبائن.

لأنه من المستحيل على المرأة أن تتزوج من رجلين، فقد اتخذت لنفسها عشيقاً:

حاولت مع كرم حامد، ثم رضيت برزق جرسون قهوة مخيمخ.

حلمت بالعيش مع حميدو شومة. لو أنه اختطفها من البيت، أو وهي في الطريق.

يصحبها إلى عالم السحر والإثارة والمغامرات، إلى الخلاء والظلمة والخوف والتوقع والدفاع

عن النفس. يضع ما يحصل عليه من مال ومجوهرات وذهب تحت قدميها. تقبل ما

يستهوئها. توزع الباقي على جاراتها في السيالة.

داخلها شعورٌ أنها لم تُخلق للحياة في بيت أبيها (إلى متى تتحمل منغصات زوجته؟)

أو الحياة في بحري، وفي الإسكندرية كلها؟

ما يُشبه اليقين استقر في نفسها، أنها خلقت لشيء آخر، لحياة أخرى، لا تدري أين،

ولا كيف، ولا صورتها على وجه التحديد؟

بلغت الهمسات أدن خيرى أبو العز.

عرف أن أمراً ما يشغل المرأة، ويُبعبدها عنه. ضاق بإيماءاتها، ولمزاتها، وبعدم قدرته

على إشباعها، وإن أهمل — في عدم تصديق — ما قيل عن لقاءاتها برزق، في غفلة منه.

تصعد إلى حجرته، فوق سطح بيت ابتهال المنسي. يُغلق عليهما الباب أوقات القيلولة،

يفتحه لما تعلق الشمس واجهة البيت.

قال الشيخ عبد الستار: هذا نشوز!

وأوماً برأسه: علاج النشوز بالنصح أولاً، ثم بالهجر.

قاطعته: هي التي تهجرني.

– من حَقَّك إذن أن تؤدب زوجتك بما لا يمَسُّ وجهها، ولا يوجعها، أو يترك عليها أثرًا!

ركبه القهر مما يجري. أحزنه – حتى الموت – تصوُّر أن رجلاً آخر في حياة فتنة، يلتقي بها، يسمحان لنفسيهما بما لا يستطيع تصوره. سعيًا للممكن والمتاح.

لجأ خيرى إلى شحاتة عبد الكريم.

حدّثه عن ظنونه وشكوكه، وما تتسلل به الشائعات إلى أذنه.

عمل له شحاتة فائدة لعقد المرأة عن غير زوجها، كتب فيها وفقًا، وضع اسم فتنة في الخانات الخالية منه. يجامع المرأة، فلا يطوّها غيره بعد ذلك. الظنون والشكوك لم تبرح مواضعها. زادت الشائعات من إلحاحها على أذنه. أيقن أن الإخفاق نصيبٌ ما فعله شحاتة عبد الكريم من السحر.

لم يُعدَّ خيرى يدخل حجرة النوم. يقضي الليل – بمفرده – في حجرة القعاد. يغالب ضيقه وأرقه بشرب الشاي والجوزة، يعدُّهما له الولد كاكًا. أخفق في أن يضبطها بما يُدينها. طال ترقُّبه لأيّ تغيير في سلوك فتنة، حتى يتناسى شكوكه. تعود حياتهما إلى ما كانت عليه. لكن غربان البحر واصلت الصراخ، وعلت الطحالب والأوساخ والأمواج الداكنة.

لمضايقتها، كرر توسيخ ملاءة السرير بأسمك غير طازجة، والشكوى من رائحة النتن. يحرص على الاستحمام قبل أن ينام، من أين تأتي الرائحة الكريهة؟! لما رفضت أن تغسل له قدميه، رمى عليها يمين الطلاق. أهملت ما اعتاده منها: إعداد الطست والإبريق وجلباب البيت، نزع الحذاء والجورب عن رجليه. عقب عودته من الحلقة. وغسل قدميه في الطست.

فطنت إلى أنه خاض في المياه الآسنة. علّت رائحة الزفارة بما أشعرها بالغثيان.

قال: ألم تشمّي زفارة الحلقة إلا الآن؟!

ترددت في الكلام، ثم قالت: لم أعد أُطيق.

– الرائحة التي تشمينها فيك أنت لا في زفارة الحلقة.

وقال في هدوء: أنت طالق!

لم يحدث أباهما في باعث تطليقه لها، ولا تحدّثت فتنة.

ثاني شهر من عودتها إلى بيت أبيها، التفت بالملاءة، وأسدلت البرقع على وجهها، وسارت إلى بيت عليّة عشماوي على ناصية شارع قبو الملاح. جاوز الأمر مجرد نزوة تريد إشباعها. تمت أن تخوض تجربتها، تبدل عالمها بما لم يخطر في بالها، ولا تصوّرت. اتجهت إليها المرأة بملامح متسائلة: السعداوي صياد قد الدنيا ... ألا تخشين أذاها؟ أربكها السؤال.

شغلها السر. تطلّعت إلى معرفة العالم السحري، وملامسته. تنفرد بمن توافق على لقائه. الخلوّة تشجع على امتداد العلاقة إلى نهايتها. ذلك ما تريده. تمت التجربة.

بدأت لها المرئيات ممتدة بلا آفاق تنتهي إليها. أزمعت أن تترك نفسها للانطلاق. هذه هي فرصتها الوحيدة التي ربما لن تتكرر، تنفذ ما تفكر فيه، وتطلبه. لا توقفها همسة تحذير، ولا شخطة رفض، ولا عين تلاحظ حتى ترددات أنفاسها. هزّت رأسها، ولوت شفّتيها، وأشاحت بيدها، ولم تُجب.

تنامى — في داخلها — إحساس المغامرة، مواجهة المجهول الذي لا تدري ملامحه. شردت بالتصورات. ما تتمنى حدوثه، وما تُصر على رفضه. يجوس بها من لا تعرفه، وإن تُصر على اختياره. عالمًا لم تدخله من قبل، ولا تعرف منه إلا ما يتناثر في الكلمات المدغمة، أو الهمسات.

أسلمت نفسها لتصورات، بدأت كالأصداء البعيدة: الحجرة التي تضمهما، أنفاسه فوق وجهها، ساعدها يعتصرانها. يقبلها. لا تقاومه فذلك ما تريده. روت للمرأة ما تهيأت له. حدست أن مجرد البوح بما في داخلها، سيخفف مما تعانيه. لعله يخلصها منه تمامًا. داخلها ضيقٌ لما رافق تحسُّس يد المرأة جسدها، وهي تتحدث عما ينبغي فعله. تحركت في موضعها. فكرت في أن تُزيح يد المرأة، ترفض ما تفعله. الخوف مما لا تعرفه شلّ تصرفها.

أدهشها رفض المرأة اختلاؤها بالبحار الإنجليزي. أصرت أن تظل معها داخل الحجرة. فاجأتها بالقول: سأدخل معك؟

— لماذا؟

ثم وهي تداري ارتباكها: أريده هو لا أنت.

انتزعت المرأة ابتسامه: سأظل في الحجرة دون أن أفعل شيئًا.

— لا أتصور وجود عينين تراقبان ما يحدث.

- هذا لصالحك.

قالت المرأة: إنهم يقلدون الأفلام الأمريكية. يطعنون الصدور في ذروة اللحظة. وربت كتفها بإشفاق: تكررت حوادث طعن بحارة أجنب لنساء في غرف الفنادق. استطردت وهي تلون صوتها: وفي بيوت مثل بيوتنا! ورجعت إلى الوراء، حتى لامست مسند الكنبه: ترفض المرأة دخول الحجرة إلا بصحبة صديقة لها. فاجأتها الملاحظة.

تحوّلت الدهشة إلى زهول، لما روت لها المرأة ما تتوقعه: تتعالى أغنيات النشوة والتراتيل والابتهالات الملتذة. البحار يشغله ما لا يشغلها. أن يكون هو الأقوى، وتكون هي الأضعف. يشعر في عناقها بكل قوته. يملأ الحجرة المغلقة، الضيقة. يتمدد جسده، يتمطى، يتلوى، يخلق، يطير، يفعل فعل البراكين. تأتي الطعنة في لحظة الذروة. يخترق أوسط الصدر تمامًا. ينبثق الدم ممتزجًا بأهه يعقبها أنين. يحل الصمت تمامًا. يترك السكين في موضعه، ويرحل عن المدينة قبل أن يفطن أحد إليه، ولا إلى ما فعل. ما يحدث تكرر كظاهرة. يغيب الدافع. لا يبقى إلا التطلع لفعل الإحساس بالذات، الفرحة بما تؤديه. ربما ثار السؤال: لماذا؟ يغيب في الفعل وإلغاء المعنى. يحدث لأنه يريد أن يجرب ما امتلأ به ذهنه من تطلع إلى ذروة النشوة. الارتباك - في داخلها - قيّد أفكارها. لا تدري كيف تواجه ما لا تعرفه، ولا الخطوات التالية.

أدركت أنها تورطت فيما لا قبل لها على مواجهته، وأن ما تقدم عليه هو مخاطرة لا تعرف نتائجها.

تمنت لو أن الموقف الذي تعانیه انتهى. لو أنها وجدت نفسها في البيت، تغلق حجرتها عليها، تطل من النافذة، تقرأ روايات الجيب والمجلات، تستمع إلى الراديو، تُندن بينها وبين نفسها.

قتلها الارتباك والخوف. تملّكها خوفٌ من التورط. بدت المرئيات حولها كأطياف. فقدت الرغبة حتى في الكلام.

فكرت في أن تعود. تلفتت تبحث عن مخرج. مالت بجانب جسدها، تنهياً لمواجهة السلم. لكن نظرة المرأة القاسية جمدها في مكانها. خيلٌ إليها أن حدة نظرات المرأة تُتيح لها النفاذ إلى داخل نفسها، وقراءة ما يشغلها.

هَمَّتْ بأن تصرخ، تستغيث.  
فتحت المرأة الباب عن آخره، دفعتها، ودخلت وراءها.

واجه السعداوي شبانة بالصمت، شائعةٌ خطف جني لفتنة، وهي تميل إلى الوسعاية لماء صفيحة الماء من الحنفيه العمومية.

لم يصدق السعداوي ما همس به السّماك عراقي أبو سنة في أذنه، بأنه شاهد فتنة تركب عربة حنطور مع بحارَين يرطنان بالإنجليزية، في طريق الكورنيش، بالقرب من سيدي بشر.

وضع عراقي راحته على موضع صفة السعداوي على وجهه. أدرك قسوة ما قاله، وإن أراد أن يطمئن على فتنة. كان القهر قد رسم خطوطاً ودوائر على جبهة السعداوي، وحول عينيه وشفتيه. بدا أكبر من عمره الحقيقي بسنوات.

غلبه القهر. رأى فتنة — بعيني الشroud — تُسلم نفسها لأموج عالية، متتالية. كان يخرج في غبشة الفجر. يتجه إلى شاطئ الأنفوشي. يجلس في مواجهة البحر. يُطيل الانتظار والتحديق في الظلمة الشاحبة.

حين همس السعداوي إلى الست صبيحة بما يعانیه، تحدثت عن الجن الذي تلبس فتنة. دخل في شرايينها وعروقها. يُلمي عليها ما تقوله، أو تفعله. حرام أن تؤاخذ البنت بما لا حيلة لها فيه. رفضت فكرة زوجته أن تقيم لها الكودية سيسبان ليلة زار.

قال في أسي: فلتعد فتنة أولاً.

نصحت الست صبيحة بدوام الصلاة والدعاء وتلاوة آيات القرآن وذكر الله، طقوس تطرد كل الشرور، تخلّص الإنسان مما يعانیه.

أوقد الشموع على المقامات والأضرحة. تمسّح بها، وكنس ما حولها، ونذر النذور. نصحه جودة هلال بأن يزور سيدي المتولي، هو شيال الحمول، الذي لا يشق عليه أي حمل، مهما يكن ثقيلاً. زار — بمفرده — سيدي العدوي، في ضريحه بشارع صفر باشا. سره معطن في إعادة الغائبين. حكى معاناته لولي الله. تمنى عليه أن يعيد فتنة إلى نفسها، وأهلها. زار مقام سيدي الطرطوشي في شارع الباب الأخضر. نذر على نفسه عهداً، إن عادت البنت، أن يرش عتبة أبي العباس بالحناء، وأن يكنس الميدان، وما يحيط به من شوارع وحوار وأزقة، لا يوقفه إلا البحر.

قال له الشيخ جميل أبو نار إمام أبي العباس: اكتفِ بكنس الجامع. هذا هو مهر

الحوار العين!



لجأ السعداوي إلى كل مَنْ يعرف طريقةً يستعيد بها ابنته. حتّ حمدي درويش ضباطه ومخبريه على كشف حقيقة ما حدث. ظل السعداوي على سؤاله، فقال البكباشي دون أن يرفع عينه عن «المقطم»: ابحث عنها على الكورنيش!

فتحت غجرية — لم يكن قد التقى بنعمات — المنديل. أومأت بما يعني قرب الفرج. مارس شحاتة عبد الكريم أعمال السحر. صنع له عملاً لعودة الغائب. أتى لسيسيان بما طلبه — لفك الكرب — أهل العوالم السفلية. قيلت أسماء بشر وأماكن، دون أن يجد إجابة عن السؤال: أين اختفت فتنة؟

هل اجتذب الإنجليز ابنته للحياة في معسكراتهم؟ هل أخطأ باقتصار تردده على أولياء الله؟ هل تعيش فتنة في معسكرات الإنجليز برأس التين، أو الميناء، أو مصطفى باشا؟

عبارة «قف» تمنعه من مجرد تأمل ما وراء الكردونات. أعين الجنود تقتحمه بالأسئلة والتوجس والشك. مَنْ يسأل؟ وكيف يعرف إن كانت فتنة قد اختارت الحياة في معسكر للإنجليز؟!

**انظر: جودة هلال، حمدي درويش، خليل الفحام، رافع عبيد، عبد الستار، عليّة ع شماوي، سيسبان، شحاتة عبد الكريم، صبيحة الداخني، نعمات.**



## قبر عبد الودود

صعد إلى الجزيرة الصخرية، تسلَّقها. حدَّته شحاتة عبد الكريم عن الفعل السحري لخيط الدم المتسرب من الصخرة، في أفق الأنفوشي.  
توقف حيث أشارت الأيدي. حاول تبين خيط الدم المتسرب من الصخرة. يعينه في الفعل السحري لاستعادة ما فقده.

لم يشاهد أثرًا لدم. أرجعه إلى خداع النظر.

عاود الصعود إلى قمة الجزيرة. يرنو إلى بحري: البيوت والمآذن والنخيل والشوارع المتقاطعة والساحات والميادين والحدائق وقصر رأس التين. يتلفت ناحية الجوانب الثلاثة الأخرى. الفراغ — ما عدا تناثر قوارب صغيرة — يحيط به إلى نهاية الأفق.  
لو أن عروس البحر أحبَّته. توافق أن يظل على الساحل، لا تصحبه إلى الأعماق. يأمرها، فتلبِّي ما يطلبه، مطالبه، تطلع له من قلب المياه. يعلو صوتها: ماذا تطلب؟ أو: شبيك ليبيك، أو أنا خادمك!

يتوسل، فترضى أن تُعيد إليه ملامحه. الجن دينهم الإسلام كما البشر ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

ما أرهق تصويره أن جسم عروس البحر ينتهي بذيل سمكة. كيف تعشق البشر إذن، وتُضاجعهم؟

انطلق في اتجاه الشاطئ.

سار — في موازاته — على طريق الكورنيش، رنا إلى الأفق والبلاسات والقوارب الصغيرة، تأمل صيادي الجرافة والطَّرَاحة والسنارة والجالسين على الكورنيش الحجري، والكراسي ذات المظلات، والمارة، وزحام الطريق.

بدا الأفق — أمامه — لا متناهيًا، يصل إلى أبعد مما يراه. لا توقعات، ولا بشر، ولا مدن. لا أي شيء غير ما يعرفه، ويحيا فيه، ويقف على شاطئه.  
لم يلحظ الأمر في البداية، ولا أعاد الالتفات إلى المرآة. لكن ما يشبه غلالة الصدف غطت صلعة الرأس، وأعلى الجبهة. امتدت إلى قرب الأذنين.  
أعاد النظر، لعل ما رآه بتأثير النوم، أو أنه يحلم!  
فرك عينيه، وحدق. ظلت الملامح الغريبة على ثباتها.  
شهق بالخوف.

زاد خوفه لما جرى بطرف إصبعه على رأسه. بدت الغلالة صلبة، كأنها أصداف حقيقية. لا يدري متى ولا كيف تكوّنت؟ وهل هي مؤشر لمرض غامض؟ وهل يصل التغيّر في ملامح الوجه إلى بقية الجسد؟ هل يضر العنق، فيأخذ هيئة عنق السلحفاة، وتُغطي الدرفة الصلبة ظهره، وتضعف ساقيه، فيزحف كالتّرسة، ولا يقوى على الحركة إذا انقلب على ظهره؟

ما زاد من قلقه أنه كان يصحو على ركوب التّرسة كتّفه. يزيح — بتلقائية — ما توهم أنه قدما الترسة، أو رأسها، من فوق عنقه أو كتفه. يحلم، لعله كابوس — قبل الصحو — أنه حاول طرد التصاق الترسة بالتقافز، أو الجري، أو اللف حول النفس.  
قال عمران الخولي فيما يُشبه الدعابة: أنت تدفع ثمن حرصك على كوب الترسة!  
أهمل الدعابة في قول الخولي.

هل يكون كوب الترسة — كل صباح — هو السبب فيما جرى؟ وهل تمتد الأصداف إلى بقية جسده، إن ظل على عادته اليومية؟

كان الحاج جودة هلال قد نصحه بارتشاف دم الترسة. يعالج ما يعانيه من فقر الدم، ويمنع أمراضًا كثيرة. بدّل موعد تردده على الحلقة.  
لم يعد يقتصر على الأحد — إجازته الأسبوعية — غير طريقه من البيت في شارع فهمي الناضوري، إلى قهوة الزردوني.

يعرف من المعلم بدوي الحريري موعد ركوب البحر، والعودة منه. يميل إلى الحلقة. يقف مع المحيطين بعربة اليد، حتى يخترق اللمبة رجلان يحملان الترسة من ساقها الخلفيتين، فلا تعض الأيدي. يضعانها على ظهرها، يدركان أنها — بهذا الوضع — لن تقوى على الحركة. سخونة الدم المنبثق من موضع حز العنق، تتصاعد بالبخار. تمتد الأيدي لماء الأكواب، قبل أن يفقد الدم سخونته، يتخثر ويصعب ارتشافه. يلاحقه البائع بالهتاف: مرة واحدة!

يرتشف كوب الترسة، ثم يعود إلى جلسة القهوة.  
قال خليفة كاسب: ما جرى لك انتقام للترسة.

قال قنبر: ما ذنبي؟

— حرصك الغريب — كل صباح — على شرب دمها.

— هل كان ينتهي ذبحها لو أنني لم أشرب الدم!؟

واتجه إلى الرئيس خلف زيدان: ألا ترى عشرات الأكواب تحت ثقوب عربة الترسة؟!  
استطرد في لهجة متصعبة: الكوب الوحيد الذي أتناوله ... هل هو سبب اختفاء الترسة؟

قال خليفة كاسب: إذا رفض الناس شراء لحمها وشرب دمها، فلن تحاول البلانسات صيدها!

تحدث قنبر عن الأسباب الأخرى لانقراض الترسة: التوسع العشوائي بالقرب من الشواطئ، قتل أجنة الترسة بالعبث في الرمال، السير بالدراجات والموتوسيكلات وعربات اليد، وضع المراكب فوق مساحة الشاطئ، الأصوات والأضواء التي تضلل الترسة، فلا تنزل إلى البحر.

قال في تأكيد: أنت تتهم من نزل البحر بأنه لوثه!

حدّق الرئيس بدوي الحريري في ظهر يد قنبر: الحمد لله، ما حدث في الوجه وحده.

قال قنبر: كل موضع في الجسد يمكن مداراته إلا الوجه.

ثم في لهجة تقطر حزناً: هل أضع قناعاً؟!

— إذا كان ما حدث قد اقتصر على الوجه، فإن الشفاء ممكن.

نزل البحر، بنصيحة من شحاتة عبد الكريم. مضى حتى بلغت المياه عنقه. تعثّرت قدمه في الحصى والأعشاب. أدرك أنه على حافة الغميّق. توقف، وغطس برأسه في الماء. كرر المحاولة بلا عد. توقف بألم في العنق.

في اليوم التالي، عاود السير داخل المياه حتى بداية الغميّق. كرر ما فعله في اليوم السابق.

كرر المحاولة في الأيام التالية. طالعه وجهُ الموج بتغير ملامحه. هي ملامح الترسة، لم يطرأ عليها تحوّل.

شغله الأمر في أثناء تمدده على السرير: هل يجري عليه ما يجري على الترسة؟  
يعرف أن الترسة — إذا قلبت على ظهرها — تُعاني انعدام الحركة. لا تستطيع القيام، ولا تحريك أقدامها، ولا تقدر على التلفّت. تبدو نائمة، مسكينة، بلا حول.

حاول القيام من تعمد النوم على الظهر. يعروه الخوف من أن يظل في موضعه، لا يستطيع الحركة.

نصحه شحاتة عبد الكريم أن يرتشف ما يساوي كوباً من خيط الدم المنحدر من صخرة الأنفوشي. يستبدلها بدم الترسة. لا يعالج تحور الملامح، وإن أوقفه. تثبت الملامح على ما هي عليه.

للترسة درعها. لو غطى الدرع صدره، يستطيع أن يُداريه بصديري الصيادين، أو بقميص. ربما يضع جلباباً بطول جسده. ما أزعه أن التشابه في ملامح الوجه: العينين المستديرتين، المتهبتين، الأنف المتكور، العنق النحيل، المتغضن، المتداخل التجاعيد.

صحبته سويلم أبو العلا في قاربه، قبل أن يغطس قرص الشمس — بكامله — وراء الأفق، الموعد الذي حدده شحاتة عبد الكريم. تسلق الصخرة حتى موضع الثقب الذي يتساقط منه الدم. فتح فمه على آخره، وتلقى القطرات، تحمّل السخونة في الفم والحجرة. تراجع بالخدر، سرى في ذراعيه. عاد إلى القارب وهو يلوك الدم في فمه، لا يعبأ بتساقط القطرات على ثيابه.

هون عليه الشيخ عبد الستار ما حدث، لا يأذن الله بشر ولا ضر إلا على سبيل الاختبار، أو الابتلاء.

عرف أنه يواجه خطراً مجهولاً، لا يعرف طبيعته، ولا مصدره، ولا مداه. قنع بما قسم الله له. صبر على البلاء. اعتبره أزمة طارئة تزول بتوقفه عن ارتشاف دم الترسة. أدرك أن ما يُعانيه بتأثيرات يحملها دم الترسة، ولا يعرفها.

أبدى غريب أبو النجا شكّه في أن يكون الدم الذي ارتشفه قنبر من جني تقمص هيئة الترسة. بعد حزّ عنقه فوق عربة اليد، لم أجزاءه المقطعة. عاد إلى هيئته الحقيقية، وإلى حيث يسكن في البحر، لكن التأثيرات التي أحدثتها دماؤه في سحنة قنبر ظلت على حالها.

ما زاد في ألم قنبر، أنه بدأ يخاف من نفسه، من الملامح التي تتبدل وتتحوّر. لم يعد يطيق الليل والظلمة. يحرص أن يضيء النور حتى لا يواجه ما يغيب عنه تصوره. وعود نفسه أن يحلق زقنه دون أن ينظر في المرآة.

أضافت النظرات المتطلعة، المتسائلة، المتحيرة، المستغربة، إلى إحساسه بالألم. ماذا ترون؟ هل تمتد سكاكينكم، فتجزّ عنقي، وترشف دمي؟!

تمنى العيش في جزيرة بعيدة، لا يرى أحداً، ولا يراه أحد. يتقوّت مما يهبه له الله من رزق السماء والبحر والأرض.

اسمه الحقيقي قدري عبد الودود. قَدِمَ إلى الإسكندرية من رشيد وهو في الثامنة عشرة من عمره. أقام عند خالة له في شارع السيالة. أمضى أيامًا في التعرف على الحي، والتردد على الدائرة الجمركية للبحث عن عمل. تَوَسَّطَ له جودة هلال عند بدوي الحريري. ألحقه شيئًا في شونة الغلال بستاني. ثم ضمَّه الحريري إلى أطقم بلانساته، وأركبه البحر.

لَمَّا طال ابتعاده عن البحر، زاره المعلم بدوي الحريري. لم يجد في ظروفه ما يصدُّه عن الرحلة القادمة.

اطمأن إلى غياب التحديق في عيني الحريري.

مضى — بهمَّ تدبير الوجبة التالية — إلى مرسى القوارب بالميناء الشرقية. أبحر البلانس إلى ما بعد السلوم. أهمل قنبر — بانقضاء الوقت — ما إذا كان الرجال قد فطنوا إلى الملامح الغريبة في وجهه.

صحا الرجال — فجر اليوم الخامس — على صيحة قنبر عبد الودود. عمَّقَ ظل المارد الهائل من ظلمة الأمواج الساكنة.

الروايات متعددة عن مارد يطالع السفن خارج البوغاز، طويل القامة، أعلى من صاري البلانس. يأذن للسفينة بالمرور، أو يهوي عليها بقبضة يده، فيغرقها. ربما ابتلع السفينة. سواء كانت «بلانس» أو قاربًا صغيرًا، كأنها لم تكن. يمتلك من القوة ما لا يمتلكه البشر. لا تستطيع الضربات — مهما أجادت التصويب، أو بلغته من القوة — أن تهزَّ وقفته العملاقة، أو تصيبه بالأذى. تلتقي من حوله التيارات، وتتشابك. تُحدث ما يُشبه الدوامة الهائلة. تجتذب السفينة، تدور بها، حتى تبتلعها تمامًا. مَنْ يجد سفينته بين ساقى المارد، فإن نجاته في تلاوة آيات القرآن، والأدعية، والابتهالات، وفي رحمة الله، وشفاعة نبيه، وأوليائه الصالحين.

تصاعد المارد من قلب الماء. أطلق صيحات رهيبية، اهتزت لها الأمواج والريح والسحب. اتجه ناحية البلانس من نتوء صخري، متصاعد من المياه. ارتفعت صرخات ركاب البلانس واستغاثاتهم في مواجهة الخطر المحتوم. ألقي غالبية الركاب بأنفسهم في قلب الأمواج المتلاطمة، وحاولوا الاختفاء وراء الصدوع الصخرية البعيدة. لكن يد المارد الطويلة حطَّت على الأجساد، تقذفها في الفم المفتوح.

لم يُعد في البلانس مع قنبر إلا ستة صيادين، رضوا بالمصير المقسوم.

رفض قنبر أن يبتلعهم المارد في جوفه. أمر، فقذف الرجال المتبقون بكل ما على البلانس من صواري وقلاع ومعدات وأخشاب. اتسعت مساحة الفوضى، فاطمأن المارد

إلى غرق البلانس. عاد إلى حيث يقيم في قلب الأمواج، ومضى البلانس — بركابه السبعة — ناحية الساحل.

أرجع الأسطى عمران الخولي ما حدث إلى بركة تراب المقام التي حصل عليها من مقام أبي العباس، وإن حرص أصحاب البلانسات — من يومها — على خروج قنبر عبد الودود في رحلات خارج الإسكندرية. يطمئن البحارة والصيادون للخروج معه. يرحلون إلى السواحل القريبة، والبعيدة، لا يشغلهم إن رحل البلانس إلى أعالي البحار.

وهو يميل من شارع السعارنة إلى شارع الميدان، أغمض قنبر عبد الودود عينيه بالتأثر، لتناهي صوت الرجل يهتف فيمن لم يره: تظن نفسك قنبر؟!

**انظر: جودة هلال، خليفة كاسب، شحاتة عبد الكريم، عبد الستار، عمران الخولي، غريب أبو النجا، المارد.**



## كامل أبو السعادات

مات الغواص كامل حسين أبو السعادات (٥٥ عاماً) في الثاني والعشرين من يونيو ١٩٨٤م، داخل سفينة الأبحاث الفرنسية «بون باستير».

كان صاري سفينة قيادة الأسطول الفرنسي «لوريان» آخر ما أعلن كامل أبو السعادات أنه عثر عليه. ما حدث — في اللحظة التالية — بدا غير مفهوم، وقاسياً. اندفع أبو السعادات من قلب الماء كانبثاق نافورة.

عصاه النطق والحركة. حاول الطبيب إفاقته مما تصوّر أنه إغماء مؤقت. الإغماء حالة طبية، اعتادها كلُّ الغطاسين بأجهزة الهواء، إذا غلبهم الإرهاق.

جرى لأبي السعادات ما كان يبدأ به دروسه لهواة الغطس. التنبُّه من الصعود فجأة، أو بسرعة. يتحدث عن ارتفاع الضغط، وانفجار المخ والشرابين، والوفاة الحتمية. صعد بالطريقة نفسها، فمات.

لم يرث المهنة عن أبيه، ولا بدأ في تعلّمها على النحو الصحيح إلا بعد أن علّم نفسه الغوص. لا يكتفي بالسباحة، لكنه يضع رأسه داخل الماء، ويكتم نفسه. يظل تحت الماء دقيقتين. يزيدها إلى ثلاث دقائق، ثم إلى أربع. ألف البقاء تحت الماء دقائق قد تبلغ الخمس، أو تزيد. زاد اتساع الوقت بزيادة محاولات الغطس. حين بدأ في تعلّم الغوص، كان قد ألف السباحة — تحت الماء — فترات طويلة.

أجاد حبس أنفاسه — بدون أجهزة — تحت الماء، دقائق متواصلة. يصعد إلى السطح في لحظة تطلّع طاقم البلانس ناحية موضع غوصه، في سكونه السادر.

عرف متعة العموم تحت المياه، والغطس إلى القاع. صار مولعاً بالغوص، يغوص في أوقات متقاربة، وإلى أبعد عمق يصل إليه. ليس لمجرد أن يصل إلى الأعماق. هو يغوص

للغوص، لرؤية ما في قاع البحر. يسلم عينيه لما يرى. تهمة المشاهدة، والتعرف على تضاريس البحر والمخلوقات التي تعيش في أعماقه: الأسماك المختلفة الأشكال والأحجام والألوان والقشريات والأعشاب والطحالب والقواقع والأصداف ونجوم البحر وقناذل البحر وزنابق البحر.

يصعد بما يصادفه، أو يكتفي بالفرجة.

علمه الغطس أن يتنفس — بانتظام — ليحصل على أكبر قدر من أوكسجين الأسطوانة المحمولة على ظهره. أن يجيد التحكم في الحركة، فيتأمل مخلوقات البحر دون أن يدفعها للفرار.

قلّت، أو غابت، الوسائل البدائية والتقليدية: البوصلة، السكين، الزعانف، النظارة، منظمّ الهواء، خيط الوصل بين الغواص واللنش المرافق، الصفارة البحرية.

تعددت أجهزة الغوص، وتطورت.

أجاد استعمال الأجهزة الحديثة — للاستشعار عن بُعد — في تحديد المواقع: فاحص الأعماق بواسطة الصدى، قياس المدى، كاشف المعادن، قياس المدى المطور، جهاز رصد وتحديد المواقع، المتصل بالأقمار الصناعية، أو بالأطباق في عمق البحر، المزود بالأضواء الكاشفة، ونوافذ الرؤية، وأذرع التحكم من داخل المركبة.

تكررت حالات نجاته من الغرق. يغوص، ويُنقذ نفسه، أو يُنقذه طاقم المركب. شيء ما يجذبه من قدمه، قوة خفية تجذبه إلى الأعماق، كأنه إسفنجة تشبعت بالماء، ينجذب إلى قاع البحر.

شعر — في المرة الأولى — بالخوف، وأنه في مواجهة خطر كبير، اقتحم الخوف أعماقه، خوف حقيقي، يفزعه بالغموض وعدم الفهم. لا يدري ما هو، ولا لماذا، وما تأثيراته المتوقعة؟

حاول أن يحرك كلّ جسده، رأسه، صدره، ذراعيه، ساقيه، لكي يطفو. حبس أنفاسه حتى لا يبتلع المياه، أو تدخل الملوحة أنفه.

جاهد للتلويع، ثم جذبته القوة الخفية ثانية، صعد وهبط. شعر بخدر غريب في ذراعيه، تهدلاً إلى جانبه، لا يستطيع تحريكهما. تحوّل جسده إلى أشلاء متناثرة، ثم فقد الإحساس تمامًا.

غاب الزمان والمكان. لم يعد سوى المطلق.

تلقت — بعد أن فتح عينيه — حوله. سطح المركب ونظرات القلق والمعدات والأمواج والأفق.

لم يكن الشعور بالخوف يعرف الطريقَ إلى قلبه. الرجل، الرجل، يواجه الخطر، ولا يخافه!

تعددت اكتشافات كامل أبي السعادات في أعماق البحر. أجمع علماء الآثار أنه مارس الغطس — بحثًا عن الآثار — أفضل ممن سبقوه، بدايةً من الفرنسي «جونديه» في ١٩١٢ م. هو أشهر من قام بأعمال الغطس والاستكشاف في ساحل البحر الأحمر، وفي مناطق الشعب المرجانية. ألف كيلومتر من تيران في الشمال إلى برنيس في الجنوب، ومن أول العقبة حتى جزر الأخوين. بدأ أبو السعادات الغوص للبحث عن الآثار الغارقة في ١٩٦٢ م. لم يُعد ينزل البحر للفرجة وحدها. هو يبحث، وينقب، ويقلب. يدخل المغارات والكهوف العشبية، لا يكتفي بالتطُّع إليها، ولا تأملها، ولا العوم وسط الأسماك والمخلوقات البحرية. أكثر من ٤٢ موقع غطس، في أعماقها هياكل سفن غارقة، وبقايا أثاث، ومعدات، وأسلحة، وسلاحف اتخذت السفن المهجورة سكنًا لها.

صادف في ساحل البحر الأبيض على منار الإسكندرية القديم، تمثال الرجل الروماني خلف قلعة قايتباي، أرصفة حجرية، تماثيل، توابيت حجرية، مجموعات من أواني البازلت، أجزاء من مسلات، عرشًا من الحجر، تماثيل، تيجان، قواعد، توابيت هائلة، أعمدة مكسورة، قوارير عطور، أدوات مائدة، أطباقًا فخارية، عملات من الذهب والفضة والبرونز، مجموعات من حروف الطباعة، جرائد هائلة، قطع فخار، سبائك من الذهب والرصاص، أوعية من البرونز، منطقة أثرية كاملة تحت مياه المينا الشرقية. بعد أن يتبين موقع الأثر، يعينه بالتحديد، يتركه لعمال الآثار، يربطون الأثر جيدًا، يسحبه الونش البحري إلى داخل البوغاز.

قال له حجازي أيوب: القارئ لتاريخ الإسكندرية يدرك أن معظم تاريخ المدينة في أعماق المينا الشرقية!

خليج المينا الشرقية يضم ٢١٤ موقعًا أثريًا. وضع له خريطة علمية، هي مدخل بوابة إلى اكتشافات أثرية، وحفائر لا نهاية لها: عند سفح قلعة قايتباي، المينا الشرقية، السلسلة والشاطبي، خليج أبو قير. اكتشف في أبي قير — بعد ذلك — حاجزًا بحريًا بطول ٢٥ مترًا، ومرافئ حجرية، وأرصفة حول جزيرة «نلسون»، طولها ثلاثمائة متر، وتمتد في كل الاتجاهات.

لما عثر — في قاع المينا الشرقية — على تمثال ضخم، من الجرانيت الأسود، الملكة بطلمية، في هيئة الإلهة إيزيس، هتف لحظة صعوده فوق الماء: يبدو أنني أعدتُ الزوجة إلى زوجها.

ونظر إلى نقطة بعيدة، غير محددة: منذ اكتشاف تمثال أوزوريس، ظل وحيداً ينتظر لقاء زوجته!

استطرد في لهجة متلكئة: تأخّر لقاء الزوجين (وعدّ على أصابعه) ٣٣ سنة! حدّد مناطق الحي الملكي في مناطق التومنيوم وإنترودوس ورأس لوكياس. حدّد المواقع القديمة. عاونه العلماء المصريون والفرنسيون في وضع خرائط أثرية، علمية، لها. اختفى هذا الجزء من المدينة الملكية تحت البحر، بتأثير سلسلة الزلازل، وموجات السيول التي أغرقت المنطقة المتاخمة للبوغاز، ودمرت المعابد والقصور.

ظل كامل يبحث، وينقبّ، ويكتشف الآثار المطمورة في قاع البحر. في المينا الشرقية، وعند السلسلة، وخلف قلعة قايتباي، وفي ساحلي المعمورة وأبي قير، والساحل الشمالي. استهواه التعبير: الإسكندرية أعظم المواني الغارقة. وجد الكثير من الآثار في أعماق المينا الشرقية: أجزاء من قصور بطلمية، جزيرة «إنترودوس»، بقايا قصر كليوباترة ذي الأعمدة الجرانيتية والرخام والموزاييك، الميناء الملكي، معبد إيزيس الصغير، سفينة البوغاز الملكية، قصر مارك أنطونيو، شعلات منارة الإسكندرية، معبد بوسيدون، هيكل الفلاسفة، تماثيل لأبي الهول.

عانى التلوث، من المجاري، والصرف الصحي، وأرهقته مصدات الأمواج. قال أبو حلاوة: كنا نستحم في المينا الشرقية، ونرى — بالعين المجردة — بقايا قصر كليوباترة.

وأشار ناحية البحر: حوّلت المحافظة مياه المجاري إلى الميناء الشرقية، فأغرقتها، ولم نعد نرى شيئاً!

قال خليفة كاسب: الغوص إذن لن يأتي بنتيجة. اقترح أن يُبنى سدٌّ حول المينا الشرقية. تُسحب من داخله المياه، فتظهر المدينة القديمة كلها.

وهو يخلص الآثار مما علق بها من أصداف وطحالب وأعشاب وأوساخ، تنبّه لسقوط جسم معدني صغير. التقطه، وقربه من عينيه.

عرف أنه خاتم مُطفاً للون. تفحصه. قرأ الحروف في الإطار الداخلي: ف. ف.

قال خليل الفحام: لعل الحرفين هما فاروق وفريدة. تزوجًا في سنة ١٩٣٨م. وشرد في الأفق: كيف سقط الخاتم في هذه المنطقة؟! واصل كامل الغوص حتى رأس الحكمة بمرسى مطروح. اكتشف فيها سفينةً رومانية غارقة، بداخلها كمياتٌ هائلة من أواني الأنفورا. أعد — بتوالي الغوص والاكتشافات — خريطةً كاملة للآثار المطمورة في مياه الإسكندرية. سُجّلت الاكتشافات — باسمه — في مراجع منظمة اليونسكو. درس الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية. تعلّم الكثير عن صناعة السفن، وتاريخ بناء السفينة التي غاص فيها، وتاريخ غرقها. يدرس — قبل الغوص — رسمَ بنائها الداخلي. يطمئن إلى المعدات، وما ينبغي فعله: بذلة الغطس، أسطوانة الهواء، حزام الأثقال، أنبوبة التنفس، ماسك الأنف، الحراب، السكين، كمية الهواء في البندقية. يُثبت النظارة فلا يتسرّب الماء، يحرك رجليه بالزعانف يتأكد من تثبيتها، يهزُّ البندقية، فيهتز حبل الحربة المتصل بها.

يعرف موقع الآثار من الزبد الساحب فوق المياه. هو نتيجة اصطدام الموج بما يغطس للبحث عنه. يتخلل طبقات الأمواج. يتمشّى — داخل السفينة الغارقة — بين الدهاليز والممرات والقمرات والظلمة. هذا هو العالم الذي أُلّفه: الأسماك — بكثرة أنواعها — والقواقع، والأصداف، والأعشاب، والطحالب، والصخور، والكهوف، والأخاديد، والجحور، والمغارات، والفتحات المظلمة، وبقايا السفن الغارقة، والحطام، والتاريخ، والآثار، والغموض، والسحر، والأسطورة.

كان يتردد على منطقة عمود السواري. يشاهد تمثال الآلهة إيزيس ذي الأطنان الخمسة والعشرين، والأمّار السبعة. هو الذي اكتشفه، ودل على موضعه. لما سأله خليل الفحام، إن كان قد شاهد قبر الإسكندر، أنكر أنه شاهد القبر — تحت المياه — أو ما يدل عليه. اطمأن إلى القراءات التي حددت القبر في منطقة النبي دانيال. الإسكندرية الحالية هي الطابق الثالث فوق إسكندريّتين سابقتين. أعماق البحر لا تمثل سوى طابق وحيد، آثاره متفرقة.

الخريطة التي وضعها — بعد أن شارك مبعوث اليونسكو أونر فروست في عمليات التنقيب عن آثار المينا الشرقية — أثبتت أن المنطقة هي الامتداد الطبيعي لمنطقة المنشآت الأثرية، المدفونة تحت الرمال.

أفادت من اكتشافاته وأبحاثه وتقاريره، معظم الهيئات الدولية للبحث تحت الماء.

غاص في ناحية أبي قير — بتكليف من شركة خاصة — لانتشال ما كانت تضمُّه باخرةٌ غارقة، تابعة للشركة. نزل أبو السعادات إلى موضع الباخرة الغارقة. صعودُه المفاجئُ كاد يفجّر شرايين دماغه. نسي ما يَعلمُه هو نفسه للغواصين الجدد، ولهواة الغوص. لم يتحدث عن رؤيته للمخلوق الغريب داخل الباخرة الغارقة. خشي البوح حتى لا يعاقبه الجنِّي (هكذا استقرت قناعته) إذا هبط ثانيةً في عمق البحر. عمل — في أيامه الأخيرة — على باخرة الأبحاث الفرنسية «بون باستير»، مهمتها البحث عن بقايا أسطول نابليون في أبي قير. تضم ١٢ عالمًا فرنسيًا تخصصوا في هندسة الكمبيوتر والآثار والغطس والمساجد وتنظيف عمق البحر. شاهد آثار الهزيمة الفرنسية أمام أسطول الإنجليز. لم يؤثّر توالي العقود في تذكر ما حدث، في نهايات القرن الثامن عشر. أسطول نيلسون يترصّد لأسطول نابليون. انطلقت قذائفه بلا توقّف حتى أسكت مدافع أسطول نابليون، وأغرقت مراكبه. آخر ما وصل إليه السفينة «لوريان»، غائرة في رمال أبي قير، وفوقها مدفعٌ وزنه حوالي سبعة أطنان، وطوله خمسة أمتار. لم تُعد مهنة الغوص لصيد الإسفنج على ازدهارها القديم. قلّت أعداد غواصي الإسفنج، بعد أن حلّت البدائل الصناعية محلّ الإسفنج الطبيعي. ظل غوصُ كامل أبو السعادات للبحث عن الآثار في أعماق البحر.

هل قُتل كامل أبو السعادات، أو أنه مات ميتة ربه؟ تُجمّع الروايات — أو تكاد — على أن الرجل قُتل في مؤامرة. هل لأنه عرف أكثر مما يجب؟ أو لأنه أصرّ أن تظل آثار الإسكندرية داخل المدينة؟ أثبت تقرير الطبيب الشرعي أن كامل أبو السعادات مات بإسفسكيا الغرق. رجح التقرير أن ما حدث كان للفرار من خطر واجهه أبو السعادات في أعماق البحر. كثرت مرات غوصه. جاوزت إمكانية العد. صادق ما تحت الماء من أعشاب وأصداف وأسماك وقواقع وطحالب. حتى المخلوقات العجيبة أُلّف رؤيتها، وأُلّف وجوده.

انظر: الإسكندر الأكبر، حجازي أيوب، خليل الفحام، خليفة كاسب، فاروق الأول.

## كرم حامد

هو ابن امرأة من الأنفوشي وجني بحر. جمع في عافيته بين خصائص أهل البر، وخصائص أهل البحر. يختلف عن أهل بحري، يفوقهم في القوة والشجاعة والذكاء وحسن التصرف. يرفض معنى الخوف، إذا أظهرت الشجاعة أمام ما يُخيفك، فلن يؤذيك.

عم سويلم أبو العلا غازل الشباك على شاطئ الأنفوشي، رأى — بعينه — ذات فجر، ما رواه لزوجته، واثمنها فلا تبوح به. نقلت المرأة ما رآه العجوز في الليلة نفسها. تناثرت الرواية من الأفواه، فعرفها الجميع، وإن لم يجرؤ أحد على مواجهته بما يعرفه: اعتادت المرأة نزول البحر في ساعات ما قبل الفجر. رآها جني اختار لإقامته مياه الساحل، داخل الأمواج وبين الصخور. استهواه جسدها الذي عرّته المياه خلل فستانها. تجسّد لها في صورة آدمي.

عانت تعثّر خطوتها في الرمال المبتلة. اخترقت ورش القزق لتبعد عن طريقه. طالعها قبل أن تميل إلى شارع الكورنيش.

حاولت التملص من تحت ذراعه، لكنه هبط بها إلى الأرض التي اختلطت فيها الرمال ونشارة الخشب والأوساخ.

عدل كتفها في مواجهته، وأقبل عليها. سقطاً معاً. منع براحته صراخها. انهارت مقاومتها بتواصل المضاجعة، كأنها استغرقت في غيبوبة.

قال سويلم أبو العلا إنه شاهد الجني يتحول — لحظات مضاجعته للمرأة — من هيئته الإنسانية إلى هيئة الجني.

ظلت المرأة في موضعها فترة طويلة، قبل أن تُفبق، وتستعيد ما حدث. بعد تسعة أشهر، عانت المرأة آلام الولادة بما لا تطيقه. نفضت الداية أم تركية يديها، وقالت في صوت متحشرج: هاتوا الطبيب!

كتمت أم كرم السرَّ في صدرها، لم تَبْحُ لإنسان بما جرى في داخل البحر. يعروها حزنٌ لأن صرخاتها لم ترتفع فتجتذب الناس، ولم تضمَّ ساقِيها بما يمنع اختراقها. لم تُعد تذهب ناحية البحر، وإن عانت حزنًا من انعدام رغبتها في زوجها. لا تعرف إن كان السبب هو الجنين الذي ينتسب إليها، وإلى أب غير زوجها، أب ليس من جنس البشر.

زادت معاناتها بربط الجن لزوجها، فهو لا يقربها. لن تعود إليه إلا إذا تركها الجن في حالها. هي تدري، وهو لا يدري. تعرف أن الجن يريد أن يظل هو وحده في جسدها، وفي بالها.

لاحظت سيسبان انكفاءها على الصمت وهزالها. أخفقت في التعرف على ما تُعانيه المرأة، كأنها اطمأنت إلى اقتراب الموت. يحزنها — ويُخيفها — أن الجنين الذي تحمله في بطنها ليس إنسيًّا. هي أمه، والجنِّي أبوه، تُعاني تصور الملامح، وكيفية حياته بين البشر. وحين لفظت آخر أنفاسها لحظة الولادة، فلأنها احتاجت إلى أضعاف قوة البشر. طلبت الأم — من بين لهاث التعب — أن يُلْقَى خلاص الوليد داخل البحر، بعيدًا، فلا تَصِل إليه يدُ إنس ولا جان.

علا الصوات من بيت حامد عبد الهادي. فطنت سيسبان إلى أن ما كانت تحدس وقوعه قد حدث، وإنا لله وإنا إليه راجعون. تسلل الجنِّي — في تكوين أثري — إلى حجرة كرم. تأمل الطفل في فراشه. واثته فكرة في أن يأخذه. يُسلمه إلى البحر، ترعاه جنيات، يربِّينه. أشفق مما لم يتبيَّن.

وضع على جبهة المولود قبلة، وانصرف. لولا أن سويلم أبو العلا شاهد ما حدث، كان السر سيظل حبيس صدر المرأة وجسدها حتى تلد.

لم يَعدُ السرُّ سرًّا، بعد أن روى الرجل ما شاهده لزوجته. لكن البوح اقتصر على الهمس لا يفتضح بالجهرارة. أدرك سويلم أبو العلا أن الطفل الذي اقترنت ولادته بمتاعب وظواهر غير خافية، هو ابن للجنِّي.

تابع سويلم ما حدث منذ بداياته: المخلوق المتقافز فوق الأمواج، كأنها شلال صغيرة. التحول إلى شبح، أو طيف، تحور إلى كائن إنساني لم يستطع تبين ملامحه. غابت في



ضبابية ما قبل طلوع الصبح، وفي ارتماء الكائن على المرأة الخارجة من الاستحمام، يُحيطها بعناقها. لم يمكنها من أن تتملص، أو تصرخ، أو تستغيث. شلَّ حركتها، وكتم صوتها. لم يرفع جسده إلا بعد أن أطفأ شهوته. عاود التفاضز فوق التلال الصغيرة. تحوّل إلى هيئة الشبح أو الطيف، ثم إلى المخلوق الذي يختلف عن البشر في تكوينه الجسدي، وملامحه.

قالت سيسبان إن أم كرم لم تكن تستحمُّ في البحر، ولا تقف على شاطئه. إذا كانت قد حملت من جنّي، فلأنه — هذا هو الأقرب للتصديق — زارها في النوم. ما ألق سيسبان — في حكاية أبي العلا — أن الصيادين لن يطمئنوا إلى سلسالهم. كرم ابن الجني بداية، ذرية من الجان، لها معتقداتها، وتقاليدها المغايرة، وتصرفاتها التي قد تؤذي.

رفض سعيد العدوي ما تبادلته الناس، نقلًا عن رواية سويلم أبو العلا. قال في لهجة رافضة: هل الجن حقيقة؟! قال سويلم أبو العلا: مَنْ يؤمن بما جاء في القرآن يجب أن يؤمن بوجود الجن. ثم في نبرة تأكيد: الجن مذكور في القرآن.

قال الله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. وقال أولياء الجن من كفار الإنس: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾. الجن لا يتزوج الإنسان. العشق وارد، يعشق الجن إنسية، وتعشق الجنية إنسانًا، لا ينتج عن ذلك زواج، ولا فض بكاره، ولا إنجاب. عشق الجن للإنس وارد، لكنه يظل من طرف واحد، عشق بلا أمل ولا غاية، لا يمكن أن يصبح زواجًا، لأنه لا يمكن أن يُثمر ذرية.

الجن أصلٌ جامع للشيطان والعفريت والمارد المسلم من الجان. تسمية جان جن تعني كلُّ هؤلاء. سُمي الجن لتخفّيه وعدم ظهوره. رجَّح الشيخ مجاهد كريشة أن يكون الجني الذي رآه سويلم أبو العلا من الجن المؤمنين، يدخلون الجنة، ويثابون كما يثاب الإنس.

قال الشيخ عبد الستار إن النوع الإنسي من الإنجاب يحدث في حالة زواج إنسي بجنية، والعكس غير صحيح. خلق الله الآدمي من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار.

تحفّظ الشيخ رافع عبيد — دون أن يظهر اختلافه — على فتوى الشيخ عبد الستار بعدم جواز العلاقة الجسدية بين الجن والإنس، لاختلاف الجنس. الجن له القدرة على الزواج من الإنس، له القدرة على المضاجعة، وإنجاب البنين.

ذكَرَ جلساء دكان جودة هلال بقول الرسول إن أحدَ أبوي بلقيس كان جنياً. أضاف حجازي أيوب قول الجاحظ إن التناكح والتلاحق قد يقع بين الإنس والجن. في القرآن ﴿لَمْ يَطْمِئُنُّوا مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جَانٌّ﴾. لو أن الجن لم يكن في فطرته، ولا تكوينه الجسدي، ما يفتض الأدميات، لما قال الله تعالى — في كتابه — هذا القول. وقال الشيخ مدين إنه من الصحيح، والمتاح، مجامعة رجل من الجن، وإنسية من البشر، والعكس صحيح، لا صلة للأمر بما قيل إن الجن من النار، والإنس من الطين. الإنس ليس من الطين حقيقة، والجن ليس من النار بالفعل.

لاحظَ النسوة من الجيران نموَّ كرم بما يختلف عن الأطفال في مثل سنّه. رأينه يهبط من حضن جدته — في الشهر الثاني — إلى الأرض. رأينه — في الشهر الرابع وما أعقبه — يتأمل ما حوله بالاكشاف والدهشة، وينطق كلمات يسهل فهمها، وينهض من حبهه دقائق قبل أن تستقيم خطواته في نهاية عامه الأول.

رعت الجدة تطورات أيامه بالرقى والأدعية.

بدا حرصها على ألا تقع الأعين عليه، وإن لم تستطع أن تغلق باب البيت الخارجي على حوش واسع، تُحيط به، وفي الطابقيين العلويين، حجرات، تسكنها أسر لها أطفال كثيرون.

كان حامد عبد الهادي — أبوه الذي يحمل اسمه — فريشاً في حلقة السمك. ما يحصل عليه في المزاد يطرحه على الفرشة. ينتهي يومه إذا انتهى من البيع. بعد أن شبَّ كرم، ترك له أبوه أمرَ فرشته في الحلقة. يدخل المزاد، ويقف للبيع على الفرشة.

وهب الله كرم قوة تتجاوز قوة البشر، فلا يُخيفه أيُّ شيء، ولا يخشى الموت. قدراته في الجلاء البصري تُتيح له رؤية القوارب الصغيرة في خط الأفق، ومتابعة أسراب الطير في انطلاقها بعيداً عن الساحل. ينزل البحر — عارياً — في عز الشتاء، يعوم بسرعة لا يلحقه فيها أحد، يطول غوصه تحت المياه لمسافات طويلة، يدخل مباريات المصارعة، لا يترك الخصم حتى يُلقيه على الأرض مغموساً في رمل الشاطئ، يتسلق — كالوطواط — جدران قلعة قايتباي، يتق في قدرته على التصدي لكل المخلوقات، حتى تلك التي تُروى

عنها الحكايات العجيبة. قوته الجسدية وحسن تصرفه، يكفلان له القيام بما يعدُّ من الخوارق. تعدَّد نقله لصخور الشاطئ — بمفرده — من مواضعها. إذا انغرس قارب في الرمال — وكان كرم قريباً منه — دفع القارب بيديه إلى داخل البحر. يعتزُّ بأنه ركب البحر من رأس التين إلى أبو قير، على جذع شجرة. اكتفى بذراعيه مجدافين يدفعان القارب. دخل شبان في منافسات معه. مَنْ تخذله قوته، يستغيث بالقارب المرافق، للعودة. يتوالى انسحاب المنافسين — يخلو المدى — في كل الجوانب، إلا من كرم حامد، وحده. ينادي على القارب، يطلب العودة.

رُوي أنه أوقف، براحة يده — لإثبات القوة — اندفاعاً لنش، استقله سامي بهاء الدين. وقف في طريق الاندفاع، حتى اصطدم للنش باليد الممدودة. انتثر بهاء الدين من شدة الصدمة، بعيداً عن القارب الذي علا، ثم انقلب على ظهره.

يدين له غريب أبو النجا بفضل إنقاذ أصغر أبنائه سميح. تسلل الولد إلى لنش أبيه، في وقفته على مرسى المينا الشرقية. أدار الموتور، فانطلق اللنش في مساحة دائرية. لم يكن الولد يُجيد القيادة. لم يكن يعرف الخطوة التالية لإدارة اللنش. صرخ، وتنبَّه الواقفون على المرسى، وصرخوا. كرم وحده هو الذي قفز في البحر. سبَّح بقوة، حتى اعترض اتجاه اللنش في الدائرة. قفز داخله، وأبطأ سيره، حتى أوقفه تماماً.

ما كاد الولد سميح يطمئن إلى جلسته فوق «البنز»، حتى جذب اللجام. اندفع الحصان بأخر قوته. لم يعرف الولد كيف يتصرف، ماذا يقول، أو يفعل، ليُوقفه؟ لأن الناس بالجدران، وداخل الدكاكين والبيوت، وألقوا بأنفسهم على رمال الأنفوشي. كان كرم جالساً أمام دكان الحاج جودة هلال لحظة اندفاع الحصان ناحية السراي. اندفع وراءه حتى لحقه، قبل أن يدخل الحديقة الواسعة.

أضاف الناس ما حدث إلى أفعال كرم حامد التي لا يقوى عليها سواه. قالت له علية عشاوي: لو أن البكباشي حمدي درويش حرَّضك على عراك الفتوات، لقضيت عليهم بلا معركة!

عرف قوته، وعرفها الفتوات. حرص الفتوات على تجنُّبه، والدخول في كلام، أو معركة، معه. أهمل صداقتهم، وابتعد الفتوات — من ناحيتهم — عن ملاقاته، والدخول في مواجهات معه. رفض حتى أن يحمل مطواة صغيرة لمواجهة أي هجوم محتمل عليه من صبيان الفتوات.

كان يرى نفسه في سيرة عنتره التي يرويها الشاعر على قهوة الزردوني:

سَلِي يَا عِبِلَ قَوْمِكَ عَنْ فَعَالِي      وَمَنْ حَضَرَ الْوَقِيْعَةَ وَالطَّرَادَا  
وَرَدْتُ الْحَرْبَ وَالْأَبْطَالَ حَوْلِي      تَهَزُّ أَكْفُهَا السُّمْرَ الصُّعَادَا  
وَحَضْتُ بِمُهْجَتِي بَحْرَ الْمَنَايَا      وَنَارُ الْحَرْبِ تَتَقَدُّ اتِّقَادًا  
وَعَدْتُ مَخْضَبًا بِدَمِ الْأَعَادِي      وَكَرْبُ الرِّكْضِ قَدْ خَضِبَ الْجَوَادَا

لم يكن في ملامحه ما يبيِّن بانتسابه إلى الجن. هي كلامح البشر، وإن التمعت عيناه اللوزيتان الواسعتان بوميض، واتسع صدره المغطى بالشعر، واصطبغت بشرته السمراء بلون نحاسي.

أحاط وسطه بحزام جلدي، ذي إبريم فضي.

لم تُحدِّثه جدته، ولا أحدٌ من القريبيين، عن قوته الخفية الخارقة، لكنه كان على يقين من هذه القوة، تتملكه، تسيطر على تصرفاته، تُسانده في مواجهة الأخطار، وإن لم يلحظ في نفسه ما يتحدث عنه الناس من اختلاف. حتى قول شوقي أبو سليمان — في لحظة غضب: يا ابن الجن! فسَّره كرم بأنه لفظة إعجاب من رجل في سن أبيه ومكانته. أهمل مؤاخذه ماهر الصاوي له أنه يتقاعس عن التصدي للفتوات. قوته الجسدية تكفل له ردَّ الشر، لكنه يأخذ جانبًا، لا شأن له بمعارك الفتوات ولا تحرشاتهم، ولا ما يفرضونه على الناس من إتاوات.

قال: إذا عملت بنصيحتك ... بماذا سأختلف عن الفتوات؟!

— تمنعهم من الفتوة.

وأطلق ضحكة قصيرة: فأصبح أنا الفتوة!

قال له عبد الله أبو رواش مداعبًا: أيكما أقوى: أنت أم محمود فياض؟

قال كرم حامد: قوة فياض حققت له بطولة. أنا أحمد الله على رزق البحر!

كان ذا طبيعة صامته، ولا يميل إلى التواصل. لم يحاول أن يرتبط بصداقات، أو يُنشئ علاقات مع أحد. وكان قليل المشاركة في المناقشات، ويُهمل الكثير من الأسئلة التي تُوجه إليه، أو يكتفي بهزة رأس، أو إيماءة بالعين، أو بكلمات مدغمة.

وعت طفولته على أب يعرفه. الأب الحقيقي رآه عم سويلم وهو يحتضن المرأة، ويودع

كرم أحشاءها.

انتظرتَه نعمات — ذات صباح شتوي — في انحناءة الطريق من ميدان أبي العباس إلى الدحديرة خلف الجامع.  
أشارت إلى الغلق على الأرض: ساعدني.  
رفع الغلق. وضعه على رأسها.  
حرصت على التلامس. لفحت أنفاسها وجهه. همست بلهجة محرضة: لا أحب المعاكسة!

قال كرم وهو ينفض يديه مبتعدًا: لماذا تظنين أنني أعاكسك؟!  
تحوّل — بما بلغها عنه — إلى فضول. الأحاديث لا تنتهي عن القوة التي ليست من البشر. الرياح والنوات والأعاصير والرعود والأمطار الهائلة. تابعت في شوارع بحري، في جلسته على قهوة الزردوني، داخل حلقة السمك، تُهيئه لركوب البحر. لجأت إلى ما تُتقنه من غمزة العين، وتعبيرات اليد، والكلمات الموحية.  
ظل كرم على هدوئه. لم يصدر عنه ردُّ فعل ما، كأنه لا يرى ما يلفت النظر. غاظها إخفاق التصور أنها على معرفة بالرجال. لجأت إلى شحاتة عبد الكريم، فيجعل من أفعال السحر ما يستميل به كرم. طلب الرجل أن تكنس شعرات من أرضية دكان جودة هلال، بعد أن يخلق كرم. يأخذ منها للتعويزة حتى يميل كرم إليها.  
ثم صارحها جودة — في نفاذ حيلة — أن أفعاله. رغم حرصها على الخير. عجزت عن التمكن من كرم.

عزّت نعمات نفسها بما استمعت إليه من عليّة عشماوي، إن الرجل القوي البدن ليس فحلًا بالضرورة، والعكس صحيح.  
أشارت — وهي تكتم ضحكتها — إلى الكراديسي. تُدرك أن رواد قهوة الزردوني يعرفون طلوعه — قرب الفجر — إلى شقتها.  
إذا هاج البحر — في غير أوقات النوة — وارتفعت الأمواج، فسّر الناس ما حدث بأن «كرم» يضاجع زوجته. الشقة في الطابق الأول من البيت رقم سبعة، بشارع ابن الصباغ. ألفت الناس اهتزازات البيوت، وإن ظلوا على خوفهم من انهيارها: تلاقيه كرم. يعرفون أنه — في تلك اللحظة — يضاجع زوجته.

البيوت في السيادة من طابقين أو ثلاثة، الأسقف خشبية متعددة المستويات، حتى يتماسك المبنى. تُعاني القدم، ونشع الجدران. يسقط البيت. تتداعى البيوت المتلاصقة. تتحول الأنقاض إلى خرابة، تُلقى فيها الزباله، وتستتر قعدات الحشيش والعلاقات

الجنسية. تتحول الخرابة — بتأثير شكاوى البيوت القريبة — إلى أرض خلاء، تُقيم فيها فرق الكرة مبارياتها.

المسافة قريبة من شاطئ البحر، بعيدة من أفقه البعيد. تلاحم تأوهات كرم بصراخ المرأة يصل إلى شاطئ البحر. ربما امتد إلى الداخل. يتحرك البحر الحصرية، تستيقظ الأمواج من غفوتها، تتور، تتلاعب بالبلانسات والقوارب، تعلو، ويتوالى المد والجزر بما يُدرك أهل بحري معناه، لتوالي حدوثة وتوقيته.

شهقت سيسبان بعدم تصديق: من المستحيل تصور أن المرأة التي يخترقها زلزال كرم من جنس البشر.

التقت به في زحام شارع الميدان.

قالت وهي تُربت صدره: خذ امرأتك إلى بعيد، حتى لا تنهدَّ البيوت فوق رؤوسنا!

رمقها كرم بنظرة استياء، وواصل سيره.

لم تكن المرأة تشكو لحظات مراجعة كرم لها. لم تكن تتحدث عما يجري في حجرة نومها من أصله، ولا تدلق الماء أمام البيت — صباح المضاجعة — للتباهي. علمها كرم أن أسرار الليل هي ملك لليل وحده، وملكهما. من العيب أن يعرف بها ثالث.

كست الحمرة وجه المرأة، وظلت ساكنة، حين سألتها عليه عشماوي: كل بحري يشعر بما يحدث ... هل تتحملين الرجل؟!

اجتذبت ملامح صفاء بنت بائعة الخضر في تقاطع رأس التين والميدان. كأنها تنتمي إلى دنيا أخرى، غير الدنيا التي تتحرك من حولها.

أشاحت المرأة بيدها: مَنْ يقوى عليك؟!

لم يناقش المرأة، ولا حاول إقناعها، أو استمالة الفتاة. مضى ناحية المينا الشرقية. رآها جالسة على الكورنيش الحجري، تتأمل جذب الجرافة. اختارت موضعاً يبتعد عن لمة الواقفين لمشاهدة عملية الصيد، منذ إلقاء الشباك، وانطلاق البالنس بها في دائرة داخل البحر، وسحب الجرافة بما حملته من صيد إلى مساحة الرمال الصغيرة، أسفل مصدات الأسمنت.

رنا إلى ملامحها الساكنة: تركت شعرها منسدلاً، فتطاير على عنقها وكتفَيها. لها عينان واسعتان، صريحتان، وبشرة موردة، وأنف أقنى صغير. لم يؤثر الرغب الناعم على صفاء بشرتها. أضافت الغمازتان إلى عذوبة ملامحها. ترتدي جلباباً قطنياً بلون السماء، عليه نقوش كثيرة لزهور متعددة الألوان.

احتواه قبولها.

قال: تعالي!

مضى، بتوقُّع أنها ستتبعه. لم يسأل عن اسمها، ولا ماذا تعمل، ولا لماذا هي في جلستها المنفردة على الكورنيش؟ سارت وراءه بالفعل.

اتجه إلى الناحية المقابلة. مال من شارع التتويج إلى ميدان أبي العباس. جلسا على الدكة الخشبية، داخل كشك مأذون شياخة السيالة. الستارة القماش تبين عن خلو الميدان ساعة القيلولة. أشعة الشمس دارت فوق الجدران. اتجهت إلى الناحية المقابلة. النسومات تأتي من ناحية البحر هادئة، تبقى على حصيرة الموج، تلسع أوراق النخيل، فتصدر عنها أصوات كالوسوسة. تسبح في الجو روائحُ البخور والمعسل والتمباك، وثمة متصوفة ومتسولون تمددوا لصق جدار أبي العباس، وحنطور — أوسط الميدان — دسَّ حصانه خطمه في مخللة العلف. يُعمق السكونَ صرخةً طائرَ تنناهى من موضع قريب.

قال كرم دون أن يلتفت ناحية الفتاة: أريد أن تزوجنا.

قال المأذون: والشهود؟

في نفاذ حيلة: تصرّف.

لم تكن من بحري، ولا رآها أحد من أبناء السيالة، قبل أن يخترق بها كرم الشوارع الضيقة، المتشابكة، ويدفع باب البيت رقم ٨ بشارع سيدي نصر الدين. تعددت الروايات حول أصل الزوجة. تهاومت بالتخمينات، وإن لم يبلغ الأمر حد الجهارة.

روى شحاتة عبد الكريم أنه شاهد كرم وزوجته في صحراء المتراس — قبل أشهر من زواجهما — يحملان أكياسًا وحقائب جلدية. وقال جودة هلال إن أول تعرف كرم إلى زوجته لما اجتذبه دعواتها، وهي تطوف حول مقام السلطان. وقال غريب أبو النجا إن كرم سافر إلى مدينة قريية — لعلها رشيد — بمفرده. لم يتكلم عن وجهته، ثم عاد تتبعه المرأة. صحبها إلى مأذون السيالة، التماسًا لبركة السلطان، ثم صحبته إلى البيت. وقالت عليية عشماوي إن المرأة بلا أصل ولا فصل، وإن كرم استهواه جمالها. عقد عليها دون أن يدفع مهرًا ولا صداقًا. وقال عمران الخولي إنه من الأصوب سؤال الشيخ حماد الغزالي مأذون أبي العباس، عمًا إذا كان قد عقد على كرم والمرأة، أم أنه يعاشرها في الحرام. وقالت سيسبان: إن المرأة ليست إنسية، لكنها تنتسب إلى دنيا الجان، فلا يستطيع كرم الزواج إلا منها.

اكتفى الناس بما قاله كرم لأبيه، ونقله أبوه عنه: هذه زوجتي.  
تعددت عمليات الصيد بالديناميت. طفت الأسماك الميتة بالألوف، فوق مياه المينا الشرقية. قلَّت أعداد السمك، انقرضت منه أنواع كثيرة.  
ألقي الصيادون الجرافات والطراحات. طالت قعداتهم — في انتظار جذبة السنارة — على المصدات الأسمنتية. كأن البحر قد خلا من الأسماك تمامًا. ليس إلا الأعشاب والطحالب والأوساخ.

استعاد الصيادون تحذيرات المعلم غريب أبي النجا من خطورة وسائل الصيد الحديثة: السم والألغام والغزل الضيق الشَّباك. غاب المثل: احيني النهاردة وموتني بكره. لماذا لا نحيا أوقات الحياة، ونموت عندما يأتي أوان الموت؟  
غادر كرم البيت قبل أن يؤذن للفجر، اللحظات التي تعمق فيها ظلمة الليل. تلمس طريقه على المكعبات الحجرية، حتى لامست قدماه الماء. خاض في الموج الساكن. غطَّت المياه جسده إلى قرب صدره.

شَلَّح جلابه، وأحاطت راحته بقضيبه. رافقت الفعل تأوهات مكتومة، فلا تلفت الانتباه. حتى الأمواج تظل في سكونها، وتصمت طيور البحر عن صراخها. يثق أن ما تحققه الرجفة سيعيد الأسماك إلى مياه المينا الشرقية.

تكررت حوادث تحطيم المارد — في مدخل البوغاز — للبلانسات الكبيرة، وابتلاعه الدناجل واللنشات واللواتس والفلوكات والصيادين. نزل كرم حامد من البلانس «أنيس الجليس» بالقرب من موضع المارد. توالى غوصه في البحر بقدرة — لا يمتلكها سواه — على البقاء داخل الأمواج.

حين رأى كرم المارد مشغولاً بقضم لنش تساقط ركابه في قلب البحر. سبح ناحيته دون أن يُحدث صوتاً.

لم يشغله الشعر الكثيف حول ساقه، ولا ارتفاع الساق بعلو مئذنة. ضغط بكل أسنانه، بأخر ما في أسنانه من قوة، حتى اقتطع من لحم ساق المارد ما تعثَّر به في وقفته، وسقط. لحقه الرجال بلنشاتهم الصغيرة، السريعة. ألقوا بشعلات النيران في فم المارد المفتوح على الصراخ. سرت النيران في جوف المارد، تصاعدت من جوفه، وغطَّت جسده، حتى تفحم تمامًا.

وضعت عروس البحر عينها على كرم حامد.



تكررت محاولاتها لاجتذابه. لجأت إلى ما تعرفه من حيل. اخترعت حيلًا جديدة. حتى خيط الدم المتسرب من جسدها، تركته في موضعه على الصخرة. يراه كرم، فيدرك الأذى الذي لحق بمن أحبته، وكانت تملك أذيته.

لما عانت اليأس من أن تُخضع كرم لإرادتها، وتنزل به إلى دنياها، أثارت الأمواج كما لم يحدث من قبل. جاوز الأمر حدَّ العاصفة. علَّت الأمواج كالجبال. بدا كرم حامد في فلوكة الطرّاحة خارج البوغاز بلا حول.

فطنت جنّية البحر إلى أن كرم أفلت — بإشفاقها عليه — في المرات السابقة. لم يرتفع صوتها بأغنيات الجذب والغواية، ولا سلّطت نظراتها عليه بما يشلُّ إرادته، ولا أحكمت قرصة البحر بما يجعله كالمريد بين يدي قطبه، كالميت بين يدي غاسله.

شدّت الأغنيات الداعية، وأجادت رمقه بنظراتها، وزادت من القرصة، بحيث سرى الخدر في جسده. بدا كالمنوم في هبوطه — وراءها — إلى الأعماق السحرية، لا يتلفت، ولا يسأل، ولا يُبدي مشاعر من أي نوع.

عاد إلى نفسه، في دنيا أخرى لم يكن شاهدها.

ما حدث يتكرر في الإسكندرية. النوة تختلف عما اعتاده الناس من نوات، لها مواعيدها، ويعرفون تأثيراتها.

سمّيت نوة الكرم. تأتي في موعد اختفاء كرم حامد.

يثق المعلم بدوي الحريري أن النوة من فعل كرم حامد. لا شأن لها بجنية البحر. لم يصرفه العز الذي يحياه في الأعماق، عن الحنين إلى بحري. تعكس الأمواج تأثيرات مشابهة لما كان يحدث — في ليالٍ يتذكرونها — قبل أن يختفي كرم.

**انظر: جني البحر، بدوي الحريري، رافع عبيد، سيسبان، شحاتة عبد الكريم، عبد الستار، عروس البحر، عليّة ع شماوي، غريب أبو النجا، المارد، نعمات.**



## المارد

اختلاف المارد عن بقية مخلوقات العالم السفلي، في أن الجن الذكر هو جن، والجن القرين — الذي يشارك الناس حياتهم — هو عامر. فإذا ظهر للناس في شكل ما، فهو روح. أما إذا مال إلى الأذى وأفعال الشر فهو شيطان، ومن زاد على ذلك فهو مارد.

يقول ابن منظور في تفسير كلمة «مارد» «هو العاتي الشديد». وتقول الموسوعة: «الغول أو المارد حيوان خرافي، اعتقد فيه العرب الجاهلون، وهو عندهم من الخوارق. ورُوي أن بعض الأدميين تزوّج من إناث الغيلان. ومما يشير إلى وجود علاقة بين هذا الحيوان الخرافي وبين الأساطير والديانات القديمة، ما يُروى عن علاقته ببعض الظواهر الطبيعية كالبرق والرعد. والمشهور أن الغول يهلك بضربة واحدة من السيف، فإذا ضرب الثانية عاش...»

يسمّيه أهل بحري الغول، وهو شر أنواع الجن. يُقدّم على أفعال الأذى والقتل، والتهام ما يقوى على التهامه.

سمّاه المتعلمون من أمثال خليل الفحام وحجازي أيوب وخليفة كاسب، العملاق، وسماه المشايخ وشيوخ الحلقة وقباطنة البلانسات، المارد، وهو الغول في تسمية بقية أهل بحري. سماه جودة هلال رجل البحر. وجد في تسميات المارد والغول والعملاق ما يُثير الخوف.

صار المارد هاجسًا لأهل بحري. يُقلقهم ترامي صوته، ويتابعون ما يُروى عن ترصده للسفن التي تغادر البوغاز، أو تدخل منه.

إذا اقترب البلانس من منطقة ما بعد البوغاز، صعد صياد إلى أعلى البلانس، يحاول أن يتبين ما إذا كان للمارد أثر.

الضباب يتكثف خارج المنطقة. يُضفي على المرئيات شحوبًا، فلا تبين عن ملامحها ولا قسماتها. تترامى صفاير البواخر التي تتأهب للإقلاع، أو لدخول الميناء. يبطئُ البلانس من انطلاقه، أو يتوقف تمامًا. لا يعاود الانطلاق بسرعة، إلا إذا هتف الصياد من أعلى الصاري: ألسطة.

تترامى رائحته إلى مسافة بعيدة، يتشممها الصيادون والبحارة، يحاولون تبيين موضعه. يهجر البحارة سفنهم، ويترك الصيادون شباكهم في قلب المياه. لا يحاولون جذبها. يبتعدون عن المكان. حين يميزون صوت المارد في تراميه من موضع قريب. من يجازف بالمرور دون أن يضع المارد في باله. يجازف بحياته، وحياة كل من معه.

يحدسون — من توالي صيحات المارد — ما إذا كانت النوة تواجه سفينة، أو شخصًا. فرض مخافته إلى ما بعد الإسكندرية بمسافة، إلى حيث تُطل موانئ ومدن بعيدة. هل له عائلة؟ هل له زوجة أو زوجات؟ هل له أبناء أو أحفاد؟ هل يحيا بمفرده، أو يتصل بمن يعيشون بالقرب منه، أو في أماكن بعيدة؟

قال غريب أبو النجا إن المارد ليس وحشًا بحريًا، لكنه من الجن، يمتلك خصائصها، وقدرتها على الأذى بالإيماء دون فعل جسدي. تلاوة آية الكرسي والفاتحة والصمدية، تكفل تقييد الجن في موضعه، وإيقاف أذاه.

تعددت الحكايات حول رؤية المارد.

قال السعداوي شبانة: إنه يُشبه الإنسان تمامًا.

قال غريب أبو النجا: هو إنسان مضروب في أربعة أو خمسة.

أخفق الجميع في تبيين تكوينه الجسدي، وما إذا كان في هيئة البشر، أم في هيئة مخلوق ينتمي إلى البحر؟

قال الغواص عبد الصمد كسبة إن للمارد هيئة آدمية، وإن اختلفت سحنته عن سحن البشر. تتقاذف كرات النار من فمه المفتوح، يرافقها دخان كثيف يغطي ملامحه، وما حوله.

وقال الصياد صادق أبو المعز إنه لمح نظرة المارد. لا تبين عن اتجاه معين، كأنه يحيط كل شيء بنظرته التي لا تثبت.

لم يحدق فيه غريب أبو النجا جيدًا، وإن لاحظ — من هيئته — أنه لا يمكن أن يكون سمكة. هو مخلوق ينتمي إلى البحر، لكنه ليس من الأسماك، يتصاعد من قلب دخان، اختلط فيه السواد بالبياض. أنفه ينفث اللهب. صدره يتغطى بالشعر الكثيف. أصابع يديه وقدميه متصلة بغشاء جلدي، كذلك الذي يصل يدي وقدمي الإوزة. لصوته

صخب النوة في عزها، أو كأنه الرعد المنذر بسقوط المطر. إذا أطلق صيحة، اهتزت لها السفن البعيدة، كأنها اصطدمت بعاصفة. قد يلجأ من يؤذيه صوته إلى وضع إصبعيه في أذنيه.

روى السعداوي شبانة أن المارد حين يريد أن يأكل سمكاً غير نيئ، يمد يده إلى الأعماق، ويخرج بسمكة هائلة. يعلو بها في مواجهة الشمس حتى تشويها، فيأكلها. ربما فعل الأمر نفسه إذا التقطت يده بشراً من فوق الأمواج، أو من داخل سفينة عابرة. ثم وهو يعبر بيديه، إنه شاهد المارد يتلع سفينة — متوسطة الحجم — بركابها. هل قامته — كما روى بدوي الحريري — بارتفاع ثلاثة طوابق من بناية قديمة؟ هل يخرج الدخان من فمه ومنخاريه وعينيّه وأذنيه ودبره، وتنفسه أشبه بالشخير؟ هل حدقة العين الوحيدة في منتصف جبهته قطعة جمر؟ هل يقوى فكاه على ابتلاع قارب صغير؟ هل يغطي الشعر جسده، وتطول أطراف يديه وقدميه، في هيئة المخالب التي تمزق الأجساد أشلاء؟

ترأت لضياء خير الله صورة المارد في فيلم السينما: هل هو مثل كينج كونج؟

قال قنبر عبد الودود: لا تشبّه الخيال بالحقيقة. مارد البحر حقيقة!

قال غريب أبو النجا إن الموت هو مصير من يراه المارد. من لا يُفلح في المرور من بين ساقيه، تلتقطه يده، أو تدوسه قدمه، أو يشل حركته بنظراته النارية. يأكله — في النهاية — يقضمه، يمضغه، يلتهمه.

ربما حمل الشخص، ورفع يده إلى آخر ما يستطيع، ثم يتركه، فيغوص — بردة الفعل — في أعماق البحر، أو يتكسر على الصخور المتناثرة.

للمارد موضعه — الذي لا يبتعد عنه كثيراً — بالقرب من البوغاز. عينه الوحيدة تحرق من تسلط نظراتها عليه. رؤيته تعني الموت. لا يُفلت من تقع عليه عينه. في شعر جسده ما يُشبه المغناطيس، يجتذب المراكب والبشر. حتى السفن العابرة إن أطال التحديق فيها، اشتعلت بالنيران مرة واحدة، لا تترك فرصة لمحاولة إطفائها. يصطاد السفن العابرة، يحطم السفن الكبيرة، أو يقضمها. يبتلع البلانسات الصغيرة والدناجل واللانشات والفلايك. من ينوي الإمساك بهم، لا يستطيعون الابتعاد عنه، ولا الإفلات من قبضته. الخطوة الواحدة من قدميه تساوي مئات الخطوات التي يقطعها البشر. إذا وطأت قدمه مركباً، تطايرت أجزاؤه على هيئة قطع صغيرة، تناثرت في مساحات من المياه.

المياه — حين يقف — لا تعلق على ركبتيه، كأنه عمود هائل، أسود، ينبثق من قلب البحر إلى أعلى الجو. يبدو البحارة والصيادون تحت ظله الهائل أشبه بالأصابع الصغيرة،

الظل كأنه ستارة داكنة، تبدو المرئيات وراءها شاحبة. يضع أصبع قدمه على طرف الباخرة. تتقطط، وتميل على جنبها. تقتحمها المياه، فتملؤها تمامًا. تبدأ في الغوص داخل الأعماق.

لم تُعد السفن — كبيرها وصغيرها — تأمن السير في منطقة البوغاز. إنَّما لمح المارد سفينة، فإن الدمار مصيرها، يلحقها بأنفاسه المشابهة للريح العاصفة، تقلب السفينة، وتغرق من فيها. رُوي الكثير عن النوات التي أحدثها المارد لاجتذاب السفن البعيدة، حتى يُتاح له من الزمن ما يصل به إليها. لم يكن يكتفي بالاعتراض، ولا التخويف، لكنه كان يُضيف إلى طعامه من مخلوقات البحر. كل ما تحمله السفن التي يُغرقها.

قال سويلم أبو العلا إن صوت الأئين أو النواح الذي يترامى بالقرب من موضع وجود المارد، هو أرواح القتلى الذين صرعهم، أو التهمهم. تظل في الموضع، تستغيث بمن يتحدى المارد، يطرده، أو يقضي عليه. تظل في نواحها حتى يأتي من ينتقم لها. رُوي أن حياة المارد في منطقة البوغاز هي بأمر من جنية البحر، كبيرة الجنيات، لها بهاؤها وحسنها الدائم. لا ينقضي بكثرة الإنجاب، ولا توالي السنين، كأنها شربت ماء الخلود، فتظل في عمر الشباب.

زاد غضبها بضربة الخنجر التي قذفها بها كرم حامد. اتجهت بعدائها إلى ناس بحري. اختارت للمارد موضعه خارج البوغاز. ينال بأذاه من تميزهم من أهل بحري. لإيماءة فعله صوتٌ يعرفه. يترك ما لا تحرّضه على التهامه.

هذه المساحة من البحر مملكته. هو الملك والرعية، لا يخضع إلا لما تأمره به جنية البحر. هي سيدة كل البحار. ما تأمر به يلبيها كل مخلوقات الأعماق.

قَدِم المارد — بأمر من الجنية — من أعماق البحار البعيدة. وقفته وتحركه ونومه في المدخل المفضي إلى مدن الأعماق. تنشق الأمواج الساكنة عن جسم عملاق يتصاعد في الفضاء كنافورة، يرفع الأمواج معه، تعلو، وتهبط، كالسيل. يلتقط البلانسات والدناجل واللوتسات والفلايك التي يشك فيمن يستقلها، وما يُضمّره.

إذا التقطت عينه الوحيدة في منتصف الجبهة، نظرة شخص، اجتذبتة تمامًا. عراه صمتٌ أو زهول. لا يملك التحول عن موضعه، سواء كان في قارب بمفرده، أو وسط جماعة. من المستحيل أن يقاوم، أو يبذل أيَّ جهد للفرار، كأنه نائم، أو أصابه إغماء. قد يلتقط الرجل بين سبّابته وإبهامه، يقربه من عينيه، يتأمله، يتشمّمه بمنخاريه. ثم يقذف به إلى فمه.

مضى الصياد الحسيني زهران بقاربه ناحية البوغان، أطال التوقف والتلفت في المنطقة التي قالت الروايات إن المارد اختارها.  
تحدث الحكايات عن القمقم الذي خرج منه المارد. هل المارد البوغان قمقمه الذي يعود إليه، فتُغلق عليه السدادة؟  
انشقت المياه.

خرجت منها يدٌ غير آدمية، لها أظافر كالمخالب، تصاعد الجسد المتصل باليد. ساقاه — حين وقف — كساقَي شجرتين متجاورتين، شعره الكث، الطويل، يجرُّه على الأرض، جسده مغطى بالأعشاب والطحالب. أصابع يديه مخالب حيوان، صوته كالرعد، التماخُ عينيه كوميض البرق، أنفاسه كالريح العاصفة.  
التقطه المارد من فوق القارب. نقله من يد إلى أخرى. وضعه على رأسه. قذف به في الهواء، واستعاده. ظل يلعب به، يلعبه، حتى أدركه الملل، أو أنه أشفق على الحسيني فأطلقه. لم يصدق أنه حصل على حياته، وهو يحرك المدافين — في اتجاه الشاطئ — بأخر ما عنده.

حذّر بدوي الحريري من أن المارد له وليفة. إن التقى بها، وضاجعها، أنجبا العشرات من المردة. يستوطنون المياه المحيطة بالإسكندرية. يبتلعون البشر والشوارع والأبنية والمدن. شدد الحريري على ضرورة قتل المارد بوسيلة ما، أو إبعاده إلى خارج البوغان، فلا يعود. اكتفى أهل بحري — من تحذير الحريري — بهز رءوسهم.  
يعرفون أن المارد مثل الموت، لا سبيل إلى الفرار منه.  
حاول الصيادون والبحارة أن يتصدوا له. حذّره الحريري من أن الخواص السحرية التي يمتلكها المارد، تمنع اختراق الرصاص جسده، أو احتراقه بالنار. يؤدي ولا يؤدي. يقتل، ويلتهم، ومن الصعب أن تلامسه يدٌ بشرٌ.  
حين وجّهوا قذائفهم ناحيته، تمكّ الغضب المارد، تطوّحت يداه وقدماه. علّت صيحاته المرعبة، المخيفة، كأنها قصف الرعد، أو سقوط حجارة من فوق جبل، أو انبثاق بركان في أعماق البحر، تحوّل إلى ما يُشبه شجرة الجزورينا العالية. تختلط الملامح في أوقات الغروب والظلمة. نغت اللهب والدخان الأبيض من فمه وفتحتي أنفه. حرّك الأمواج من حوله في دوامات متلاحقة، ابتلعت المراكب القريبة من المكان.  
وضع شحاتة عبد الكريم عملاً يلامس جسد المارد، فيسقط كطلل. لم تجد الفكرة من ينفذها، فظلت كالأمنية.

أعد الأبحر لقتل المارد. يتسلق ظهره، ويضربه — بخنجر مسموم — في عنقه، أو كتفه، ضربات نافذة، متوالية.

أطال التحدث في التفصيلات، وما ينبغي فعله، حتى لا ينتبه المارد، فتحدث الكارثة. وهو في القارب — قبل أن يبلغ البوغاز — عدل الأبحر عما اعتزمه، وعاد إلى المرسى. أعاد شحاة عبد الكريم القول: ليس في الدنيا سلاح يمكن أن يقتل المارد. به سحر يمنع عنه الموت.

قال غريب أبو النجا: لكن كل كائن حي لا بد أن يموت! — ما أعرفه أن مخلوقات العوالم السفلية لا تموت. المارد من هذه العوالم. لم يُعد الكثير من راكبي البلائسات واللنشات والقوارب يمرون أمام المنطقة خارج البوغاز، أو يقتربون منها. يتجنبون الموضع الذي يعيش فيه. فرض الخوف نفسه بتعدد الروايات، عما يلحقه المارد من الأذى بالعابرين، أو تسبقهم التحذيرات بأن يبتعدوا عن المنطقة.

قالت علية عشاوي إن كرم حامد هو الشخص الوحيد الذي يمتلك من الشجاعة والمكر ما يواجه به المارد. قد لا يقتله، لكنه يستطيع — بجيئه التي لا تنفذ — أن يُبعده عن منطقة ما بعد البوغاز. يُتيح للسفن أن تغادر الإسكندرية، وتعود إليها، دون أن تخشى خطر الموت.

انظر: حجازي أيوب، خليل الفحام، شحاة عبد الكريم، عروس البحر، علية عشاوي، غريب أبو النجا، قنبر عبد الودود، كرم حامد.



## ماهر الصاوي

ميدان المساجد، تحيط به أهم جوامع الإسكندرية: أبي العباس، ياقوت العرش، نصر الدين، البوصيري.

يشغى الميدان معظم أيام السنة، بموالد الأولياء وحلقات الذكر والجلوات وليالي رمضان وخيام التواشيح ورواة السير الشعبية والأعلام والبيارق وألعاب المراجيح والقوة والنشان والزحام.

في شارع السعارنة المفضي إلى شارع الميدان وُلد ماهر الصاوي. تعلّم في كُتّاب رافع عبيد. ثم تعلّم من الشيخ صالح السمنودي — قارئ أبي العباس — خصائص فن التجويد والترتيل والإلقاء والتنغيم. لاحظ الشيخ صوته الواسع، وأوتاره المرنة، ونطقه السليم الواضح. تمكّن — بحفظ القرآن وإجادة ترتيله — من روح اللحن العربي. أتاحت القصائد الدينية تعمقه في أسرار الروح العربية الموسيقية.

الأصول الصحيحة للمقامات العربية، السبكا والصبا والراست والبياتي والحجاز والحسيني والعشاق وغيرها، تقوم عليها تلاوات القرآن، يمكنه أن يُفيد منها — فيما بعد — في الإنشاد الديني والابتهالات. يدلُّه على السماع المشايخ: أحمد ندا، محمود القيسوني، حسين الصواف، حنفي برعي، على محمود، إسماعيل سكر، البربري. يستعيد إنشاد القصائد والموشحات والمدائح. يُجيد المحاكاة في الصوت والأداء، لا يفوته حتى ما يبدو عفويًّا في الإشارات والتلميحات والإيماءات. يساعده أدائه، على تعلّم التنوع الهائل في الموسيقى والإيقاعات، وفي التحولات المقامية، وفي دقة التوقيت والمخارج والتنقيح والوضوح.

تقوى — بالتواشيح — على الطي والوصال. يُبرز التشديدات، يطمئن الغنّات، ومدارة الحركات، ومراعاة المد والقصر والترقيق والتفخيم.

من الله ربي أرى كل خير  
على خاطري كل صعب يهون  
وما دامت الناس تحت الثرى  
فمن أنا في الناس أو من أكون

كان أداء سلامة حجازي لأذان الفجر — من مؤذنة البوصيري — يطير نومه. يُنصت — وهو مستلق على السرير — إلى الأذان بصوت الشيخ. يتسلل إلى داخله بخدر غريب، لا يفهمه، وإنما يجعله صاحياً إلى الصباح. يشرد في مخارج الألفاظ، وطريقة الأداء، والموسيقى التي يستنيم إليها.

هزّ كتفيه — بعفوية — لقول أبيه: هل يؤذّن الشيخ سلامة أو يغني؟

يستروح الصوت الجميل. يرقق قلبه، يحلّق به في سماوات لا نهائية. وجد في الشيخ سلامة معلماً يأخذ الغناء عنه، أصوله وقواعده ومقاماته. تبع الشيخ إلى كل مكان أنشد فيه. حفظ ألقانه، وطريقة أدائه. أنصت إلى ملاحظات الشيخ ونصائحه.

لكثرة الجوامع والمساجد والزوايا، وما يتصل بها من الأضرحة والمقامات والسرادات والخيام، فقد ألفت رؤية الموالد وحفلات الذكر وأكشاك الختان، والاستماع إلى المنشدين الدينيين، ورواة السير الشعبية والفقهاء والصيطة والمدّاحين والموالدية، ومرددي الموالم. درس الإيقاع والضروب والأوزان، وحفظ الكثير من القصائد ومنظومات الابتهالات والتواشيح والأدوار والبخارف والسماعيات والطاقاطيق، وحفظ ما تيسر له قراءته وسماعه من قصص الأنبياء والصحابة وأولياء الله.

لم يعرف أي نوع من التعليم المنظم لفن الموسيقى. كانت الإسكندرية بلا معهد للموسيقى، أو مدارس للموسيقى. صار عليه أن يعلم نفسه بنفسه.

اقتصرت — في البداية — على الإنشاد الديني. السحريات والفجريات والتسابيح في الثلث الأخير من الليل، التغنّي بالمدائح النبوية والابتهالات والتكبير والموالد، القصائد التي تدعو إلى طاعة الله، وتتحدث عن الاقتداء بأخلاق الرسول، ويوم اللقاء. يحاكي المنشدين في رواياتهم لسير الهلائين وسيف بن ذي يزن وعنزة وبيبرس. أنشد القصص الدينية: زين العابدين، الملك الظالم، سالم وسالمة، عبد الله الصابر، الملك الظالم، فتح الشام، الغلام، هجرة الرسول، إسلام بلال، سيدنا يوسف، الكريم والبخيل، زكريا ويس، نهاية الصابرين، المبروكة، الزوجة الصابرة، عابدين وعبد الله، كامل وكمال، سامي وسامية، رضا، الملك والهجين.

تردد على قهوة الفنانيين بشارع إسماعيل صبري. استمع إلى الشاعر الشعبي في قهوة الزردوني، وإلى الإنشاد الديني والتواشيح والمواويل في ميدان أبي العباس. حفظ نداءات الباعة، وأغنيات الأفراح وحفلات الختان، وتعيد المآتم، وإنشاد الصوفية، والمواويل الحمر.

حين استمع إلى صوت سيد درويش — للمرة الأولى — على أسطوانة فونوغراف، لم يُخفِ دهشته. أجش، جاف، يخلو من القدرة على التطريب. صوت المغنية بدارة يُشعره برغبة في البكاء. يهزه الشجن في صوت بدارة، دون أن يُعطي انتباهه للكلمات أو اللحن. عاش في القديم، تدوق طربه. عرف أسماء الأوزان الموسيقية، والفرق بين الصبا والسيكا والبياتي والنهاوند والعراق والحجاز كار. تعلّم الإحكام وحسن التخريج.

تأثر بمشهد محمد عبد الوهاب في فيلم «الوردة البيضاء»، وهو يتابع — بعين الكاميرا — صور عبده الحامولي وسلامة حجازي وسيد درويش. أطل عبد الوهاب النظر إلى الصور المعلقة على الجدار، ثم قال لنفسه، للمشاهد، إنه يعتزم اتخاذ الغناء مهنة.

غادر ماهر السينما وقد اتخذ القرار نفسه: ولدت مغنيًا، ولن أكون غير هذا. يقينه أنه سيصبح — ذات يوم — مغنيًا له شأن. تصل موهبته إلى مدن لا تعرفه. لا يقتصر غناؤه للصيادين والفواعلية وأرباب الحرف والصناعات، كما كان عليه حال سيد درويش، ولا يظل في دور «الصهجي» الذي يؤدي المواويل والأغنيات الشعبية، ولا يكتفي في حفلاته على بحري وما حوله، مثلما كان عليه سلامة حجازي قبل أن يرحل إلى العاصمة. يغني على مسارح القاهرة، ومدن الوجه البحري والصعيد، ومدن الشام. تمنى أن يجعل من سلامة حجازي معلمًا له، يأخذ الغناء عنه. هو يحتاج إلى من يأخذ بيده، يعلمه، ويصقل موهبته. من حقّه على سلامة حجازي أن يساعده.

انتقل — بدافع في نفسه — من الإنشاد الديني إلى إنشاد الذكر السلطاني. بدأ بأداء الأغنيات والمواويل القصيرة. حفظها عن المطربين المعروفين، أو مطربي المناسبات الدينية. يقتصر الإيقاع على الطبول والدفوف والكاسات.

إذا سمع أغنية أعجبتّه، حفظها بكلماتها وألحانها. حفظ الأدوار القديمة: يا طالع السعد، العفو يا سيد الملاح، محمد لابس سيفه. يُهمل ضرورة أدائها بالألات النحاسية والخشبية وغناء التخت. لا يعرف من أسماء المقامات الموسيقية إلا «الراست»، و«البياتي»، و«السيكاه». ربما اكتفى بالدندنة.

عرف الطريق إلى سرادقات الموالد والمسيرى وحمامة العطار. يغني مواويل الصبر وأدهم الشرقاوي والطير وحسن ونعيمة وشفيقة ومطولي وعزيزة ويونس، ومربعات ابن عروس.

اعتاد التردد على العواد نحنوح السروجي في قهوة الفنانين بشارع إسماعيل صبري، يعزف أمامه الألحان، فيأخذها عنه. فاجأه بالأحان لم يكن قد قدّمها لسواه من قبل. عن البحر والصيد والرزق والموت والمقدر والمقسوم. هو وحده يغنيها.

ربما شارك صيادي الجرافة عملهم، وسط تألف صوتي ذي إيقاع. الأغنيات المتصلة بالعمل: ركوب البحر، إلقاء الشباك، سحب الجرافة، فرز محصول السمك على الشاطئ. أجاد العزف على العود، والنقر على الطبله والطار والرق، وحذق فنون الغناء. يكرر المقاطع، يميل إلى الحرية في المد والتقصير، يُظهر قدراته في التحويلات والانتقالات المقامية. ينتقل من مقام إلى مقام آخر. يطابق بين نبرات الصوت وحركات المعنى. يمدُّ في الصوت ويُرجع فيه، يرفعه ويخفضه، يطرده ويقطعه، يُسرّع به ويُببطئ. ينعكس أداؤه إعجابًا في الملامح والآهات.

أزعجه ما رواه الشيخ همام أبو السرور، إمام جامع البوصيري، عن الإمام الشافعي من تشبيهه للغناء بالباطل والمحال، وقوله إن من استكثر منه فهو سفيه تُردُّ شهادته. قال شوقي أبو سليمان: إذا كنت تخشى عدم قبول شهادتك، فلا أحد يطلبها بالغناء أو بدونه.

– لماذا؟

وهو يضحك: الشهادة تُطلب من الناس المحترمين!  
فترت همته بموت الشيخ سلامة حجازي. اقتصر غناؤه للبحر وللصيادين.

صيد العصاري

يا سمك بني

يُعجبني صيدك

يا سمك بني

وجودك نادر

صيادك شاطر

بياعك ماهر

يا سمك بني

حين أنشد — منفردًا — للمرة الأولى في سرادق بالساحة المقابلة لدكان جودة هلال،  
عُنِيَ بأن يمضيَ بأدائه إلى سكك غير مسبوقه. لم يتقيد بطريقة الأداء التي حفظها. غنَّى  
في الحب والهجر والوصال وكيد العزَّال والقسمة والنصيب.  
استبدل بالبطانة عزف الفرقة الموسيقية.  
غمزته السعادة لما طلب الحضور إعادةَ ما غنَّاه. أضاف — مع إعادته — تجويدًا  
يحرص عليه.

عَبَّر عن رأيه في عائلة هنو، قباطنة بحر، يقضي أبنائها معظمَ أيامهم بعيدين عن  
الإسكندرية. ارتجل:

إن حزنوا يغنُّوا ... وإن غابوا يهنُّوا

عُنِيَ بتعلم الغناء الحديث، إلى جانب القديم. حتى المونولوجات حاول أن يعرف  
— بإنصات متأمل — لماذا يحبها الناس؟ حفظ مونولوجات حسن فائق وعقيلة راتب  
وحسين المليجي وثرثيا حلمي والجيزاوي وطاقم المسيري وحمامة العطار. لكنه ظل على  
حبِّه لأسلوب السلطنة، والزخرفة اللحنية، والضغط على القفلات. وكان — في أحيان كثيرة  
— يميل إلى الارتجال، ومحاولة الابتكار في النغمات. أجاد ارتجال المواويل والليالي.  
تبلورت أمنياته في أن يكون له تخت خاص، يقدم فيه ألحانه وصوته.  
عاب عليه الحاج جودة هلال إدمان الجوزة. ميزةُ صوته بحة تسري فيه، لا بد  
سيضيعها الدخان.

قرأ له عم حجازي فصولًا من كتب، تتحدث عن زرياب وإسحاق الموصلي وابن  
جامع.

قال عم حجازي: الفن يطلب الموهبة أولاً، ثم تأتي الدراسة. وهو ما أحاول أن أدلِّك  
عليه!

لم يُعَد يستريح من سهرات الأفراح ليلة واحدة. امتدت ليلاليه إلى خارج بحري،  
وأحيانًا إلى خارج الإسكندرية. أحب الناس الطرب في أغنياته:

يا بنات إسكندرية	مشيكم ع البحر غية
يلبسوا الكشمير بتللي	والشفايف سكرية
يا بنات جوه المدينة	عندكم أشياء ثمينة

## أهل البحر

يلبسوا الشاهي بلولي والقلادة ع النهذ زينة  
يا ملاح خافوا من الله وارحموا العاشق الله  
حبكم مكتوب من الله قدرة المولى عليه

حين علا صوت ماهر بالغناء:

لعمل له حجاب ... على ورق الخيار  
يسهره بالليل ... ويجننه بالنهار

عاب عليه الشيخ جميل أبو نار أن الكلام حافل بالإشارات والإيحاءات الشهبانية.  
صار من أولاد الليالي، يغني في الصهبات والسرادات وحفلات عقد القران والزفاف  
والختان.

رُوي أنه كان يساعد — بغناؤه — على اجتذاب الأسماك إلى داخل شبكة الجرافة.  
يخدرها جمال الصوت، لا تحاول حتى أن تفر من ثقب الشبكة الواسعة.  
سمع الملك فاروق بجمال صوته. استدعاه للغناء — ذات أمسية صيف — في سراي  
رأس التين. مدّ ماهر صوته، ورجّع فيه، وهو يغنى:

انت اللي شرفت الفنان ورعيت فنه  
رديت له عزه بعد ما كان محروم منه

بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو، بدّل ماهر الصاوي نوعية أغنياته. غنى: ما خلاص اتعدلت،  
إيدك في إيدي يا عم، شموا النسيم في كوم أوشيم، الاتحاد والنظام والعمل. لم يقتصر  
غناؤه لها على المناسبات السياسية، وإنما ردها في الموالد والسرادات وحفلات الزفاف.  
حتى حفلات الختان، أنشد فيها أغنيات الثورة.  
أدرك ماهر الصاوي تسجيلات الكاسيت. لجأ إلى مؤلفين وملحنين، يضعون له  
أغنيات خاصة. ترك لشركة التسجيلات اختيار ما يُشكل ألبوماً.

حين ظهر المغني الجديد خيرى حكيم — للمرة الأولى — في حفل زفاف بالحجاري،  
أغفل ماهر الصاوي ما تردد أمامه عن عذوبة صوت خيرى حكيم، وإعجاب الجمهور  
به، واستعادتهم أداءه. ظن الأمر سحابة صيف عابرة. ثم أدرك خطورة منافسه بإحيائه

لحفلات متوالية في بحري وأحياء الإسكندرية، عقد القران والزفاف والختان والوفاء بالندور.

رفض أن يتردد على حفلات خيري حكيم. أهمل ما عرفه من أنه يحفظ السلم الموسيقي، وتكوين درجاته، وأن استخداماته جاوزت مقام راست ومقام سيكاه. يلجأ إلى استخدامات جديدة تجتذب اهتمام الجمهور وإعجابه. يغني على آلات لم يفكر فيها الصاوي، ولم يكن يعرفها: التشيللو والأورج والبنجز وغيرها. يجدد في الألحان. يبذل الأشكال الموسيقية التقليدية. يغيّر في طرق الأداء، وفي الأساليب. أضاف آلات موسيقية لم يستخدمها الصاوي ولا غيره من المغنين الفردين، أو المنضمين لفرق العوالم.

ظل ماهر الصاوي يعتمد في طريقة أدائه على ما توارثته الأغنية العربية من ميل إلى التّطريب والترديد والليالي وتطويل الحروف المتحركة واللازمات الموسيقية. رفض أن تجرّفه تيارات التجديد والاقْتباس. أهمل ما لا ينسجم مع جمال صوته، ولا يتّسع لقوته ومرونته. عاب على ملحنى الفترة أنهم يخلطون بين العناصر الموسيقية، وأساليب التعبير الموسيقي، يُهملون عنصر الإيقاع، غياب وحدة التكوين الفني والتعبيري عن ألحانهم، فتفقد خصائص الموسيقى العربية.

قال: التجديد يستلزم هدم القديم!

فشل متعهد الحفلات الحاج صديق أحمد في أن يتعاقد له على حفلات يشارك فيها. اعتذر بالفرص القليلة أمام الموالم والألحان القديمة. لجأ إلى جاد أبي العز صبي الأبحر فتوة رأس التين. كان قد مضى زمن على اعتزال الفتوة ... جعله مطيبتاً، يرافقه إلى الأفراح وحفلات الختان. يعلو صوته بالآهات، وطلب الإعادة. قد يتصدى لاعتداءات البلطجية على الحفل.

لاحظ ماهر الصاوي نحنحة — حشرجة أحياناً — تتتاب صوته وهو يغني، أو وهو يتكلم، ربما فاجأته في الصباح عند تهيئته للاستيقاظ.

لم يعد تنفّسه يعينه على أداء المواويل، أو المقاطع الطويلة من الأغنيات. يقطع الموالم، أو الجملة الغنائية عدة مرات، ليلتقط أنفاسه.

عدّد له الحاج جودة هلال فوائد شرب الزنجبيل، بأنه يفيد الأحبال الصوتية، إلى جانب هضم الطعام، وتليين البطن، وطرّد الغازات.

شخّص الطبيب مرضه بارتخاء في الأحبال الصوتية. طالبه بالأّ يتحدث كثيراً، حتى لا يفقد صوته تماماً.

أهل البحر

ظل صوته يخذه، وخذلته ذاكرته أكثر من مرة. يشير إلى الفرقة بأصابعه — من وراء ظهره — فتلقه بإعادة العزف.

انظر: أحمد المسيري، البوصيري، جودة هلال، حجازي أيوب، حمامة العطار، سلامة حجازي، فاروق الأول.



## محمد كاظم ميلاني

الإسكندرية في عام ١٩٠٢م.

مضى عشرون عامًا على الاحتلال الإنجليزي لمصر. القوات الإنجليزية في معسكراتها أعلى مرتفع كوم الدكة، وفي الميناء الغربية، ومصطفى باشا. البلاد بلا أحزاب، والوزارة برئاسة مصطفى فهمي باشا. وباء الكوليرا يجتاح المدن والقرى المصرية. أرصفة المواني تستقبل — كل يوم — عشرات العمال الأجانب، فرارًا من الاضطهاد العثماني في دول الشام وأرمينيا واليونان، وبحثًا عن المغامرة والثراء، وفرص العمل الغائبة في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، وغيرها من بلاد أوروبا. الرواية تُنشر في باب الطرائف. غالبية الأدباء ينظرون إلى القصة بعين الرفض. الفنون التشكيلية — قبل أن تنشأ التسمية — عيب، أو حرام. تسمية الفنون التشكيلية غير موجودة في حياتنا. المناقشات دائرة حول فتوى الإمام محمد عبده بأن وُضِع التماثيل في الميادين العامة ليس حرامًا، المقصود هو تمثال محمد علي باشا، يمتطي صهوة جواده، في الميدان المسمّى باسمه. ارتقت الألحان والأصوات المطربة، وزاد الإقبال على سماع الموسيقى والغناء. واعتاد الكثير من الأسر مشاهدة العروض المسرحية، وحضور حفلات الرقص الأوروبي، وقدمت أول عروض سينمائية على مسرح الهمبرا. البيوت المطلّة على البحر تُعاني مدّ الأمواج، لا يصدها حواجز من أي نوع. تواصل تشييد البيوت على النسق الأوروبي. الشوارع الرئيسة مرصوفة بمسططيلات البازلت. أُلِف الناس القطار والبخار. السيارة تحل — بالتدريج — محل الجواد. بدأ خط الترام بين محطة الرمل ومنطقة بولكلي في استخدام الكهرباء. أول إنشائه في ١٨٦٣م بمركبات تجرّها الخيول، تحوّل — بعد أشهر — إلى استخدام البخار. شركة لبيون تزوّد البيوت بالكهرباء. المياه النقية تصل إلى أحياء وسط البلد. الحنفية العمومية تعددت في الساحات الخالية. الرجال والنساء يستبدلون بالجلابيب والملاءات اللف والعباءات واليشمك واللبدّة

والطربوش والفستان. سلامة حجازي يرفع الأذان من مؤذنة البوصيري. الرواة يقرءون السير الشعبية على المقاهي، وفي الخلاء. الأدبائية يرتجلون القصائد الشعرية والزجلية. المناقشات لا تنتهي في حلقات السياسة والأدب داخل المقاهي المحيطة بجامع أبي العباس. الأندنية والمتعلمون يتابعون خطب مصطفى كامل في تياترو الهمبرا، غالبية الأحاديث عن الأزمنة وفسادها، والساعة وأشراتها. معظم الصحف تطبع في المدينة، ٨٢ جريدة ومجلة من مجموع ٣٤٤ دورية في مصر كلها، تتحدث عن مئات الآلاف من المصريين الذين يسهرون الليالي في موالد الأسياد والأولياء، وعن إعراض الكثير من الشبان عن الزواج لسهولة ممارسة البغاء، وعن المرأة المتحدثة، الغارقة في زينتها، السابحة في أهوائها، التي ترتدي الملابس الفارهة، وتتنزّه في الحدائق، وتشاهد المسارح. تعيب على ما تشهده البلاد من مساوئ التمدن: التحرر من التقاليد والآداب، مجارة الأوروبيين، التمتع بالذات، كثرة السهر والسمر في الحانات والمراقص والملاهي، مغازلة الشبان للفتيات بصوت مسموع، إقبال طلبة المدارس على التدخين. قعدت السمر — داخل البيوت، وفوق الأسطح — تناقش ما أثاره كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة». في ١٩٠٠م أصدر قاسم أمين كتاب «تحرير المرأة». وتولّت نشره دار الترقّي للطبع والنشر. على الرغم من أن عدد نسخ الطبعة الأولى لم يزد عن ألف، فقد ظلت في المكتبات عدة أعوام قبل أن تنفذ.

حدد قاسم أمين دعائمّي التحرير الحقيقي للمرأة بأنهما: التعليم ونزع الحجاب. وذهب إلى أن «تربية النساء أهم من تربية الرجال في الهيئة الاجتماعية»؛ لأنه يجب أن يكنَّ عظيمات وفاضلات ليكون الرجال عظماء وفضلاء؛ لأن «الرجال يكونون كما تريد النساء». وقال: «لست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل في التعليم، فذلك غير ضروري، وإنما أطلب الآن، ولا أتردد في الطلب، أن توجد هذه المساواة في التعليم الابتدائي على الأقل، وأن يُعتنى بتعليمهن إلى هذا الحد، مثل ما يُعتنى بتعليم البنين». وفند قاسم أمين ما كان مستقرّاً من ادعاءات بأن الإسلام فرض الحجاب على المرأة، وأكّد أن القرآن والسنة أباحا تغطية المرأة لكل جسمها، ما عدا وجهها وكفيها. وأفاض في شرح عيوب الحجاب، وأنه يُضعف الصحة، ويمنع المرأة من تلقي العلم، بل إنه قد يمنع الخطيب من رؤية خطيبته، فيكثر الطلاق: «إن المرأة التي تحافظ على شرفها وعفتها، وتصون نفسها عمّا يوجب العار وهي مطلقة غير محجوبة، لها من الفضل والأجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة، فإن عفة هذه قهرية. أما عفة الأخرى فهي اختيارية، والفرق كبير بينهما، ولا

أدري كيف نفتخر بعبء نساءنا، ونحن نعتقد أنهم مصونات بقوة الحراس، واستحكام الأقفال، وارتفاع الجدران؟!»

طالب قاسم أمين أن يتم ما دعا إليه بالتدرج وليس بالطفرة. لم يدعُ إلى رفع الحجاب بصورة مطلقة، لكنه نادى بما أسماه «الحجاب الشرعي» «ربما يتوهم ناظر أنني أرى الآن رفع الحجاب بالمرّة، لكن الحقيقة غير ذلك، فإنني لا أزال أَدافع عن الحجاب، وأعتبره أصلًا من أصول الآداب التي يلزم التمسك بها. غير أنني أطلب أن يكون منطبقًا على ما جاء في الشريعة الإسلامية هو الحجاب الشرعي، وهو الذي أدعو إليه، كشف المرأة وجْهها وكفَّيها. ونحن لا نريد أكثر من ذلك.» وأكد الكاتب أن الإسلام لا يشكّل عبئًا في طريق حصول المرأة على حقوقها «ولو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد، لكانت المرأة المسلمة اليوم في مقدمة نساء الأرض»، بعكس الديانة المسيحية — مثلًا — التي لم تضع — في رأي قاسم أمين — نظامًا يكفل حرية المرأة، ويبيّن حقوقها. أما السبب الحقيقي في تأخر وضع المرأة في المجتمعات المسلمة، فمبعثه النظم المستبدة سياسيًا واجتماعيًا، وتأثيرها على الدين.

في ذلك العام، أصدر محمد كاظم ميلاني رواية «السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين». أراد — كما قال في تقديمه للرواية — أن يناقش دعوة قاسم أمين، وما لقيته من ردود أفعال.

قدم الراوي/الكاتب نفسه بأنه وُلد من أب إيراني وأم مصرية، فضلًا عن انتساب الأم إلى ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب. قبل أن يتم المرحلة الابتدائية (١٣٠٥ هجرية) ألزمه والده العمل في الدكان الذي يملكه بسوق الطباخين، الموازي لشارع الميدان. يصفه الكاتب بأنه أهم مركز تجاري للبضائع الشرقية: الأبسطة والشيلان وغيرها.

أنشئت سوق شارع الميدان في أواسط القرن التاسع عشر. صورته — قبل ذلك — مجرد بنايات قليلة، تعلو دكاكين صغيرة، متناثرة، وحركة المرور متناثبة.

كانت سوق الطباخين واحدة من الأسواق المتقاطعة، والمتوازية، مع شارع الميدان، ثم أُزيلت نتيجة عمليات الهدم والبناء، أو استبدلت بها تسميات أخرى، نتيجة غياب جِرَف، ونشوء جِرَف أخرى، مثل سوق المغاربة، وسوق الترك.

فضّل الكاتب — بعد فترة — أن يتخذ لنفسه دكانًا ملاصقًا لدكان الأب، جلب إليه أنواعًا من الخردوات والأحجار الأصلية والتقليد والأصناف الإسلامية والإفريقية، وعُنِيَ بلوازم النساء الحديثة.

إذا كانت الظروف قد أجبرت الصبي كاظم على أن يهجر الدراسة، فإنه — على حد تعبيره — لم يترك المطالعة «ولا أن، وما كنت أسمع عن جمعية إلا وانضمت إليها، ولا عن طغمة إلا أنالها، ولا عن جريدة إلا طالعتها، ولا مجموعة إلا ذاكرتها.» وثابر الراوي/الكاتب على القراءة في اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية «لم أترك فيها المطالعة عند الفراغ من الأشغال، ولا طلب الراحة من الأيام والليالي.» قرأ كل ما صادفته يداه في مكتبة أبيه: مروج الذهب، الأغاني، العقد الفريد، الكامل، المحاسن والأضداد، المفضليات، ديوان الحماسة. وقرأ قصص حمزة البهلوان والأميرة ذات الهمة وعلي الزبيق المصري ووقائعه مع دليلة المحتالة وابتنتها زينب النصابة.

ظل الراوي/الكاتب في عمله، إلى اللحظة التي أمسك فيها القلم، وبدأ في كتابة روايته. ذات صباح، دخلت الدكان فتاة «كأنها حور الجنان»، تغزل الراوي في جمالها بأبيات من الشعر. كان يتبعها خادم وخادمة «حسب عادة أكابر السيدات» إذا خرجن لقضاء مهمة في الذهاب والعودة. وحين تكلمت لتطلب ما تريد أضاعت بعذوبة لفظها حواسه «ما سمعت بأفصح وأرق منه كلامًا، مهما اجتهد الأصمعي أو أبو تمام.»

ظهرت الفتاة في حياته ومضت كأنها حلم، وتحولت — في اللحظة التالية — إلى شاغل له في الصحو والنام. أخذت عليه حياته، فهو لا يفكر إلا فيها. أمضى الشاب أيامه التالية متنقلًا بين الأسواق والدكاكين، يمني النفس بلقاء فتاته، حتى تصوّر أنها ليست حقيقة، وأنها لم تكن من البشر، أو أنها ملك من السماء. وبعد أن أوشك على اليأس من لقاءها، لزم دكان جواهرجي في ممر بشارع الضبطية. جعله موضعًا يراقب منه حركة الطريق، لعله يلتقي بفتاته.

لمَّا أخفق الشاب في العثور على فتاته في مدينة الإسكندرية، أزمع أن يترك المدينة إلى القاهرة، ربما قدّمت المحبوبة منها لقضاء إجازة الصيف. وأقام في العاصمة ضيقًا على صديق له هو «عارف»، يقضي طيلة النهار في البحث عن محبوبته، ويتعرف — في الوقت نفسه — على مشاهد وتصرفات لا تُهملها ملاحظاته.

روى الشاب لصديقه عارف حكايته منذ زارت الفتاة دكانه، واختفائها كأنها لم تكن.

عرض عارف على الراوي أن يصحبه إلى بعض الأماكن التي قد تتردد عليها فتاته للتسوق أو للنزهة.

كانت تلك فرصة للراوي كي يشاهد ويتأمل ويُبدي الملاحظات، بل ويُعلن انتقاده للعديد من الظواهر السلبيهة. رجّح عارف أن تكون الفتاة «من وجوه المصريات»؛ فزيارتها

إلى الإسكندرية لقضاء إجازة الصيف. واقترح عارف على صديقه أن يلزم نقطة في شارع الموسكي الموصل للسكة الجديدة، أمام محل الخواجة سمعان، والذي تتردد عليه أعدادٌ كبيرة من النساء لشراء احتياجاتهن.

لزم الراوي الموضوع الذي حدده صديقه، لم يتركه من الصباح إلى المساء، ثم صحبه عارف إلى الأزبكية للقاء بعض الأصدقاء.

طرق محمد كاظم باب حجرة الشيخ سلامة حجازي في كواليس مسرح إسكندر فرح: ألا يعد التشخيص حراماً؟ ... وهل يوافق الشرع على وقوف المرأة فوق خشبة المسرح؟

قال سلامة حجازي: حتى الغناء لم أمارسه إلا بعد أن استفتيت العلماء!

– الغناء يختلف. التشخيص حرام، وسفور المرأة أمام الغرباء حرام؛ طالبت ملاحظات الراوي على ما شاهده من تسابق «في مضمار الملهي وسوء المنقلب». واتجهت الجماعة – بعد ذلك – إلى أحد المسارح «مارستان من الصراخ والضحك والشخر والنخر والهديان».

في صباح أحد الأيام، ذهب الراوي إلى الموقع الذي حدّده له عارف في ناصية الممر. طالعت مواكب ما يسمّى بمولد الفار. وهي مواكب تمرُّ من شارع محمد علي إلى مسجد السيدة نفيسة، تنمّة للاحتفالات بمولد حفيده الرسول.

ينتقد الراوي الزحام والتصاق الأجساد وحركات البغي والضلال والصخب والصرخ ... إلخ. ويتساءل: «أترضى السيدة الطاهرة – في يوم احتفال مولدها – بهذه الأفعال الشنيعة؟ ... كلا! وألف كلا! ... فما هي وجدها إلا غاضبون يتبرءون من هذه الأمور الفظيعة فندمت لرؤيتي هذا الموكب، وهذا الفجور، ورجعت أسفاً على حالنا وتقهقر الأمور. فلماذا ضعفت عقائدنا وقمنا نقلد الأجانب؟ ولماذا تركنا الفضائل واتبعنا المصائب؟ وكلما رأينا في الغربي عادةً قبيحة تمسكنا بها وتجنّبنا المليحة؟» إلخ.

ثم يعيب الراوي اختلاط اللغة، وما يحدثه من اختلاط الطباع. ويتأمل أحوال علماء الدين الذين ضاع احترامهم – على حد تعبيره – بين الناس، وأصبح لا همّ لهم إلا الكسب والتداخل مع الأمراء والأعيان لحضور الولائم والأفراح.

يصحب كاظم صديقه عارف إلى عرض مسرحية هملت التي قدّمتها جوقة إسكندر فرح، وقام ببطولتها «الشيخ سلامة حجازي الصييت الشهير».

يدين الراوي الحضارة الغربية التي حاول البعض من الذكور والإناث تقليدها؛ فمن «شروط حضور التمثيل وسُننه المتبعة، أن تكون صدور السيدات عارية، ونهوهن بارزة غير ممتنعة»، «وكل فرد يشير لمن يغازلها وتغازله».

يتسلل طيف الحبيبة إلى نوم الراوي فيحلم بها. ظهرت الحبيبة كسحابة رقيقة، أو كملك. وانتفضت، فإذا هي المحبوبة المفارقة. سألتها الوصال، فأرجأت كل شيء إلى حينه. وصحا من نومه. وينصح عارف صديقه — إشفافًا لما آلت إليه أحواله — أن يزورا حلوان «فاصرف عنك هذه الأحزان، وهيا معي سوية لنرى مدينة حلوان». وتصادف عيناه الخادم الحبشي الذي رافق الحبيبة حين زارته في الدكان. وعرف منه أن أسرة الفتاة تقضي الشتاء في حلوان. كانت مشتى! وتقضي الصيف في الإسكندرية. وأخبره الخادم باسمها «وحيدة»، وهي وحيدة أبويها. عانت — لفترة — من مرض يهدد حياتها، ومن ثم كان تنقلها بين الإسكندرية وحلوان. وتوسل كاظم بتجارته للحصول على موعد من وحيدة ليعرض عليها ما قد ترغب في شرائه. اقتنى من السوق بضائع جميلة حدس أنها ستروق لفتاته، واتجه إلى الدار التي وصفها له الخادم الحبشي. دخل قاعة الاستقبال، وبعد تناول القهوة طلبته السيدة للداخل. كانت رجلاه كأنهما شعلة القنديل في هبات الهواء، أو كأنه مريض فارق الفراش، تغلّب عليه الضعف فلا تحمله ساقاه من التخاذل. التقى — أخيرًا — بحبيبة عمره. تُفاجئته الحبيبة بأنها أميل إلى ممارسة الحرية بموافقة والديها «وقد صرّحا لي أن أستعمل التفرنج وأسير على هواي، وأخرج بغير مئزر وحجاب حسب مشتهاي، بخلاف ما يجب على نوات الحجاب من فرائض العفاف، والتمسك بفضيلة التمتع من مخالطة الرجال والاستخفاف، والشاهد على قولي هذا طلبي مقابلتك هنا بتمام الحرية، مع عدم جوازها عند أغلب المسلمين المتمسكين بالقواعد الأصلية. فما هذا الذنب وهذا التعود مسئوليتهما عليّ، بل الذنب كل الذنب على والديّ، لأنهما أباحا لي هذا التصرف وعوداني متابعته، بعدما استصوبا رأي فلان المنادي برفع الحجاب (قاسم أمين!) ولزوم مخالطة الإناث بالرجال». ويتساءل الراوي — بينه وبين نفسه: كيف تبدأ الفتاة بإظهار حبّها له قبل أن يُبَادئها هو بذلك؟

لما رأت الذهول تملكه، قالت: «لا تستغرب حالتي؛ لأنني أرى الصدق دائمًا يجب. وما خروجي لهذا الحد إلا من الصداقة، فلا أرغب في التملُّق ولا لي بها علاقة، فما أشعر بشيء في الضمير إلا وأظهرته، وما أرى من واجب إلا واستعملته. وهذه من بعض محاسن الحرية التي تعودتها، وعن والديّ الشفيقيين أخذتها».

كانت الفتاة إذن تنفذ ما يطلبه الأبوان دون أن تقتنع هي بذلك، سارت في تلك الطريق «إلى الآن بغير إرادة، ولكن نفسي مستقيمة؛ ولذلك تراني عند الخروج أتستر فوق العادة. ولو أردت الخروج عارياً لما منعتي أحد، بل كان والدي يسرُّ سروراً ما له أمد!»  
حرّض الأب ابنته على ما سماه كاظم ميلاني بالانحلال. هي تلتقي بضيوف أبيها، وتجالسهم، وتصادق الشاب الذي يستهويها، وتميل لتصرفات ربما أراد كاظم ميلاني — من تجسيدها — أن يصور التطبيقات السلبية لدعوة قاسم أمين، لو أن ذلك ما حدث! وفي المقابل، فقد وافق الشاب — أعماه الحب! — على أن الفتاة عنوان الفضيلة — هذا هو تعبيره! — والكمال من بعض شيمتها.

صارحت الفتاة بأنه لم يحاول وحده العودة للقائها بعد أن زارته في دكانه بالإسكندرية؛ فقد تقلبت بعدها «على فراش الأمراض والسقام» ... «ولا تظن أن يوم حضوري بحانوتك كان أول مرة، بل من قبلها كنت أزورك خفية، وعلى اختفائي كنت مصرة. ولما تغلب علي الغرام عند مبارحتي الإسكندرية تظاهرت كما حصل لأتمكن من مكالمتك طويلاً، وأستميك أو أصادف الفشل، فرأيت بعض التأثير على محياك الباهر من أول مكالمة، فأملت خيراً من البدء للخاتمة.»

أقسم الحبيبان على «دوام المحبة والعهد». وقبل يدها، وقبلت جبينه؛ لأن «قبلة الغرام لا تكون إلا بهذه الكيفية». ودعته إلى تناول الغداء معها. ولما أبدى إشفاقه من أن يصل والدها وهو في البيت طمأنته بأن أباه ليس له عليها طائل!  
التقى الشاب — في الليلة نفسها — بوالد وحيدة «اسمه محمد بك، وكنيته لا تفيد». ولبى الشاب دعوة الرجل لزيارته في البيت الذي كان قد التقى فيه بفتاته، قبل ساعات قليلة. ودار حوار، تناول قضايا دينية واجتماعية، وثار آراء وملاحظات.

عندما بدت مشكلات الإسلام مختلطة ومتشابكة، فإن الراوي/الكاتب يُشير إلى الإيرانيين الشيعة، وما يتميزون به من الاتحاد الذي ردوا به الأجنبي عن التدخل في أموره، ومنعه من السيطرة عليها. ويهبنا الكاتب — من خلال حديثه إلى محاوره — ملامح من حياة الشيعة الاثني عشرية، وصولاً إلى أن اتحاد الإيرانيين وتمسكهم بالدين، دفع عنهم نفوذ الأجنبي، وحلّص الوطن المسكين.

بعد أن غادر الأصدقاء بيت محمد بك، أصرَّ الرجل على أن يستضيف الراوي. ودخلت وحيدة الحجرة، وجلست «بقرب والدها أمامي وجهاً لوجه بكل حرية، وأخذت تُسارقني النظر وتشير بإشارات معنوية. وكان والدها يُطنب في هذه الأثناء على من جوّز رفع

الحجاب، ويقول: نعم الرأي رأيي، فقد نطق بالصواب. وناقش الشاب نفسه — بالطبع — في تلك الحرية التي تتمتع بها الفتاة بتأييد — أو بتحريض — من أبيها»  
تعددت زيارات الشاب إلى بيت المحبوبة، وتعددت كذلك لقاءاتهما خارج البيت، وأقامت أسرة محمد بك — الأب والأم والابنة — في بيت الشاب، بدعوة منه، «وصارت العائلتان ببعضهما مولعة، ولكن والدتي لم تستحسن خطة تبرُّج وحيدة، وتأسفت كثيراً على تمسُّكها بالبدعة الجديدة، وشاورتني باستقباحها لهذه البدعة الفاسدة، وأظهرت عدم جواز تأهلي بها إن بقيت على هذه القاعدة، فوعدتُها بأني مهما كنت مغرماً مفتوناً، فلا أقبلها حليلاً ولو نُقت لبعادها المنون.» مع ذلك، فقد تواصلت ليالي «المسامرة والمصاحبة والمزح والسرور والملاعبة». أما النهار، فقد شغله الراوي للبحث في عقيدة أهل الشيعة.  
حاول الكاتب أن يجعل معلوماته وآراءه نبض مساجلات بينه وبين «العقلاء والفضلاء» الذين أحاطوا به من كلِّ فجٍّ لمناقشته حسابات الدخل والخرج، لكن المساجلات تحولت إلى ما يُشبه الدراسة المطولة، التي تناقش ما يبدو من أوجه الاتفاق والاختلاف، وأنه «لا فرق ولا اختلاف في الأساس، وما سمعناه وما أشيع عن هذه الطائفة هو محض اختلاف ومساس».

ثم يعود الراوي إلى سيرة الحبيبة، التقى بها مصادفةً في أحد المتنزهات، لا تعلق فيه غير ألحان الموسيقى والرقصات، ويزدحم بالشبان والفتيات اللائي يرتدين اليشمك للتحلية، والحجاب الذي ليس فيه إلا الاسم.

يقف الراوي وصديق له على حافة بحيرة صناعية داخل المتنزه، يشاهدان «الصارخ والصارخة، والضاحك والباكية، بعين الاستغراب والحيرة. وبينما أنا وصاحبي نتندم على هؤلاء النسوة اللاتي خلعن الحياء، لركوبهن مع الرجال كي يتعلقن بهن ... ترى الواحدة تترامى على الثاني، والثانية تتظاهر بحركاتها للأخر فيعاني، وما أدراك ما يعاني.»

يلمح الراوي بين كل هؤلاء حبيبته وحيدة: «لا كان التقليد ولا كناً لزمانه، ولا كان اليوم الذي يصرح فيه المجتمع باختلاط شبانه. من التي أراها، وكنت أقسم بذيلها الطاهر (نسي مصارحته لأنه كان مغرماً بالفتاة، فلن يقبلها حليلاً ولو ذاق لبعادها المنون!) وكيف بالاختلاط أصبحت كالعواهر، خرجت تتسند على ذراع أحد الفتیان، كأنه من الأقارب أو من الخصيان.»

واجه الشاب الفتاة بأنه قد أحلَّها من «كل رباط ووثاق بيننا، فلا عهد ولا اتفاق بعد هذا يجمعنا». وبعث كاظم رسالةً إلى محمد بك، أشار فيها إلى «أن الله ضرب على نساء



المسلمين حجاباً مستوراً، فخرقه أحدُ الناس — يقصد قاسم أمين — جهلاً، فأوسعتم الخرق، باتِّباعكم إياه ظلماً وفجوراً، فالمرأةُ مرآةُ خدرها وبيتها، ولا تصلح لزوجها وبنيتها، إن جاوزت بابها وسترها».

اختتم الراوي/الكاتب رسالته بسحب يده لعدم توافق المشرب «وليس في مذهبي هذا مما يستغرب. يجب على المسلم أن يتعصب لدينه وعرضه، ولا يتساهل فيهما لميله وغرضه.»

قرأ حجازي أيوب روايةً «السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين». قال إنها صدرت عن معنى أخلاقي، ينتصر للصواب، ويدين الخطأ. العين ناقدة، ترى، وتتأمل، وتصدر الحكم. محمد كاظم ميلاني يدين اختلاط النساء بالرجال، والتعرُّي في حمامات السباحة، وشرب الخمر، ولعب القمار، وغيرها من المظاهر التي أتاح له البحث عن فتاته أن يتعرف إليها. دعوة قاسم أمين في تحرير المرأة والمرأة الجديدة تبين عن ملامح مؤكدة في الحرية التي أتاحها الأبوان لابنتهما، وكما تقول، فإنهما أباحا لها «هذا التصرف، وعود إلى متابعتة، بعدما استصوبا رأيي فلان المناادي برفع الحجاب — تقصد قاسم أمين — ولزوم مخالطة الإناث بالرجال، وشرح فضيلته.

سأل حجازي أيوب: لماذا قاسم أمين؟

قال محمد كاظم: هل ضاقت به الكتابة، فلم يجد إلا ما دعاه تحرير المرأة؟  
— ليس قاسم أمين أول من كتب في ذلك الموضوع. نساء كثيرات كتبن عن وضع المرأة، وضرورة تحررها ومساواتها بالرجل، وكل ما كتبه قاسم أمين في كتابه! حدثه عن عائشة التيمورية وهند نوفل وزينب فواز ولبيبة هاشم وملك حفني ناصف.

قال محمد كاظم ميلاني في لهجة باترة: من حق المرأة أن تدافع عن بنات جنسها، تلك ليست مهمة الرجل!»

انظر: حجازي أيوب، سلامة حجازي.



## محمود بيرم التونسي<sup>١</sup>

محمود بيرم التونسي. وُلد في شارع البوريني بالسيالة في ٤ مارس ١٨٩٣م. كان جده قد هاجر من تونس إلى مصر، في منتصف القرن التاسع عشر، بعد خلافه مع أعمامه. لم يحدّد التاريخ، وإن قالت روايات إنه عام ١٨٤٠م. استقرّ في الإسكندرية، وأنشأ مصنعاً للحرير بشارع الميدان.

كان محمود ولدًا وحيدًا، وكانت له أخت وحيدة. حفظ القرآن في كتّاب الشيخ جاد الله، القريب من زاوية خطاب، وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة والحساب. يخرج من الكتّاب — ظهر كل يوم — إلى المصنع. يقضي غالبية اليوم، يُطالعه الزحام، وتلاقي رفع الأذان، ورواة السير الشعبية في المقهى المواجه، والنداءات، والصيحات، والشنائم، والجبب والجلابيب، والبدل، والملاءات اللف.

لم تؤكّد الروايات إن كان بيرم قد التحق بمدرسة الرشاد الابتدائية بعد أن ترك الكتّاب، أمضى سنوات في المعهد الديني، في دراسة غير منتظمة. لم يحمل — على حدّ تعبيره — سوى شهادة «لا إله إلا الله».

مات أبوه قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره. حاول بيرم أن يلحق ظروفه، ما تبقى من ميراثه عن أبيه.

عُنِيَ بأن يُدير المصنع الذي ورثه، لكن سنّه الباكرة، وغلبة الفنان على الإداري في طبعه، عجّلت بإفلاس المصنع.

---

<sup>١</sup> الرسالة منقولة من كتاب محمد التابعي «مصر ما قبل الثورة».

تزوجت أمه — نجيبة بنت عبد الخالق، من الإسكندرية — برجل من بحري.  
عمل — لفترة — في دكان زوج أمه لصنع سروج الجمال. ثم عمل في دكان بقالة  
بالسيالة.

حاول تعليم نفسه بنفسه، وقرأ كل ما صادفه من الصحف والكتب، وتردّد على  
موالِد الأُولياء، وحلقات الذكر، وليالي الإنشاد، والتسابيح، والسير الشعبية. طالت جولاته  
في شوارع بحري وحواريه وأزقته، وعلى شاطئ الأنفوشي، وفي حلقة السمك، وداخل المينا  
الغربية.

اختزن الكثير من سير الراوي الشعبي على مقاهي بحري، وغناء الصيادين وهم  
يُلقون الشباك ويسحبونها، وحفلات عقد القران والزفاف والختان والموالِد والمناسبات  
الدينية وقرءات دكان البقالة، ودرّوس إمام أبي العباس، ومناقشاته في معهد المسافر خانة.  
ربما استكمل مناقشات المعهد الديني في قهوة بلبل بالسيالة، وقهوة صالح أبو الشهود  
(المهدي اللبان فيما بعد) المجاورة لجامع سيدي علي تمران.

عرف الطريق إلى قهوة مخيمخ، بالقرب من جامع أبي العباس. يجلس فيها الفقهاء  
والقرءاء، غالبيتهم من المكفوفين. تتداخل في مناقشاتهم متابعات لألحان سيد درويش،  
وأغنياته.

حين عاد إلى الدكان بعد غيبة طويلة، طالبه البقال أن يعود من حيث أتى.

أقدم على التجارة في سوق المغاربة.

كادت تتكرر مأساة خسارة المصنع، لولا تدخل زوج أمه. اشترى له — من بقية  
الميراث — بيتاً يعيش من إيراده.

تُوفيت أمه في عام ١٩١٠م، فانتَهت صلته بزواج الأم. حاول أن يجاوز وضعه  
الجديد، القلق. فتح — بما ورثه عن أبيه — دكان بقالة في السيالة.

أولى زوجاته ابنة عطار في شارع الميدان. أنجبت له ولدًا وبنّتًا. بعد وفاتها تزوّج  
ثانية، أنجبت له بنتًا. وكانت حاملاً عند تغيّبه عن مصر.

من أساتذته — وإن لم يلتق به — عبد الله النديم. حاكاه في فن الزجل، وعُني  
بأدواته، واستخدم اللغة العامية بما يُشكل خصوصيةً لفنه.

لجأ إلى السخرية متنفسًا عما يغيظه من أوضاع المجتمع. نشر قصائده الأولى في  
صحف الإسكندرية ما بين عامي ١٩١٦م و١٩١٨م.

ربطت بينه وبين سيد درويش صداقة. يتجه بيرم إلى كوم الدكة، ويتجه سيد إلى بحري. قد يلتقيان في مقهى بوسط البلد، أو بار كوستي بشارع أنسطاسي. تتصل أحاديثهما، لا تكاد تتجاوز سيرة الفن.

ألف بيرم للمسرح الغنائي رواية «شهرزاد»، لحنها سيد درويش، ولاقت أغنياتها نجاحًا لافتًا، وكتب في الثلاثينيات رواية «ليلة من ألف ليلة». ثم كتب مسرحيات أخرى للمسرح الغنائي، وأفلامًا للسينما ولأم كلثوم وعبد الوهاب، بالإضافة إلى الشعر والزجل والأغنية وحوارات المسلسلات الإذاعية والمقالات.

تلقَّ بيرم ما تناقلته الشائعات عن أحوال السلطانة نازلي أول أيام زواجها من السلطان فؤاد. سجَّل ما استمع إليه في أزجال. رُدَّدها الناس في الشوارع والأسواق، وعلى المقاهي، وعند الخروج من الأسواق. رُويت حكايات كثيرة عن نازلي صبري، عائلتها، جدها الأول، خطفها، حبسها، هروبها. اختلطت الحكايات بأحداث ثورة ١٩١٩م.

رفضت إدارة المطبوعات — في أثناء الثورة — أن توافق لبيرم على إصدار جريدة من تمويله وتحريره. أصدر — دون ترخيص — «المسلة ... لا جريدة ولا مجلة»، هاجم فيها الاحتلال والسلطان والأسرة المالكة. كتب أزجالاً عناوينها «القرع الملوكي» و«البامية السلطاني»، وغيرها.

قال بيرم: قيل الكثير عن شجاعة طنطا، ووطنية دمنهور وأسيوط ومدن مصر الأخرى. لم أكن من هواة تحطيم المصابيح، أو إشعال النار في عربات الترام. لا أحب أن أموت برصاصة طائشة. أردت أن أشارك في الثورة. أصدرت «المسلة ... لا جريدة ولا مجلة». شغلني ما أكتبه فيها. قررت أن أسلك طريقة فتوات بحري عندما يقررون «تقويض» حفل. يحطمون الكلوبات، أو يدمرون الموتور. يحل الظلام، ويتوقف المصنع عن العمل. الموتور الذي تصورته هو السلطان فؤاد.

كتب بيرم في رسالة إلى محمد التابعي: «طلبت إليَّ أن أحدثك عن ثورة عام ١٩١٩م. كانت — يا ولدي — ثورة من النوع الذي لا يُبقي ولا يدُر، وقد تركها الإنجليز تتأجج وتتآكل، إلى أن يخمد أوارها، ثم يعالجوها بالطرق الناعمة. أيقن الشعب أن أمانيه الوطنية أصبحت في يديه. وقال الإنجليز: نعم، وها هو سلطانكم المستقل وبرلمانكم، وما عليكم إلا إرسال السفراء والقناصل إلى كافة نواحي العالم. وكانت جريدة «المقطم» — لسان القائد الإنجليزي — بدأت تتحدث من الأمير أحمد فؤاد الذي سوف يُسند إليه منصب خطير في

الدولة المصرية. وتساءل الناس عن الأمير فؤاد، لأن رجال ذلك البيت وأميراته لم يكونوا يومئذٍ موضوعًا تخوض فيه الصحف إلا بقدر معلوم. فقال القائلون: آه، أحمد فؤاد المقامر الذي لا ترحب به أندية القمار لأنه مفلس، ولا يُسدد ديون القمار ... أحمد فؤاد الذي يركب الحنطور ولا يدفع للحوذي أجرته ... أحمد فؤاد الذي يفتح منازل أصدقائه ليلاً ويطلب الطعام!»

وذات يوم، مرَّ موكب عظمة السلطان أحمد فؤاد من شارع رأس التين، وقد جلس في مركبته التي تجرُّها ستة من الجياد، وفي شمائل زينة القرون الوسطى. فلما مضى الموكب أخذ الشعب السكندري يقول: عامل زي قبانية مينا البصل ... ده أصله شيخ زامة ... شنباته زي شنكل الجزائر.

أدرك العارفون أن الحركة الوطنية قد تحولت إلى زفة، عريستها السلطان أحمد فؤاد، وموائدها كراسي البرلمان ووظائف السلك السياسي. ثم أذاعت جريدة «المقطم» عزم السلطان الزواج، ودقت طبول العرس بين ضجيج المعارك القائمة بين البوليس بقيادة ضباطه الإنجليز، وبين جماعات الشعب في كل عاصمة وقرية، وأخذ الناس يتحدثون عن العروس نازلي صبري، وأسرتها، وجدها الأول، وكيف خُطفت، وكيف حُبست، وكيف هربت، واختلطت أحاديث الناس عن زواج السلطان، بأحاديثهم عن بطولة البلاد التي قامت فيها الثورة.

ما أشجع طنطا، وما أعظم وطنية دمنهور، والله درُّ أسيوط ومدن الصعيد. ولم أسمع من يقول: لله در الأنفوشي، وهو مسقط رأسي في حي رأس التين، وفيه يعيش منذ خمسة آلاف عام أرذل أنواع البشر، كما قال علماء الشعوب. ولم أكن من هواة تحطيم المصابيح، أو إشعال النار في الترام، لأنني لا أحب أن أموت «فطيس» برصاصة عسكري، لكنني أردت أن أشارك في الثورة، وطبقت فرخ الورق «جاير الجاير» على ثمانية أوجه، وسميته «المسلة». ولما كان بدون رخصة، كتبت في الرأس «المسلة ... لا جريدة ولا مجلة». ولكن ماذا أكتب في «المسلة» وأنا لا أعرف شيئاً في الدساتير، أو في السياسة؟!

سلكت طريقة فتوات الأنفوشي عندما يقررون هدم العرس. يكفي أن تحطم الكلوب، أو تضع لغماً تحت الموتور الذي يدير المصنع، لكي يُمسي العرس في ظلام دامس، ويتعطل المصنع كُله عن العمل. والموتور هو السلطان أحمد فؤاد، والمناسبة حاضرة، وهي قصة نازلي، وما يقال عنها، وعن ظروف زواجه بها. من هنا، كانت افتتاحية «المسلة»، وهي على وزن أغنية سورية جاءت حديثاً إلى مصر، وانتشرت فيها، ومطلعها: مرمر زماني ...

يا زمني مرمر ... قلبي تولع في هواك يا الاسمر. ولها نغمة عذبة، مرسلّة، فلم تحنّج  
الثورة، البامية السلطاني، إلى ملحن أو موسيقار. وها هي الأنشودة:

البنت ماشيه من زمان تتمخطر  
والغفلة زارع في الديوان قرع أخضر  
يا راكب الفيتون وقلبك حامي  
اسبق على القبه وطير قدامي  
تلقى العروسه شبه محمل شامي  
وجوزها يشبه في الشوارب عنتر  
كان لما ينزل بالجاكتة الكاكي  
والسته خيل والقمشجي الملاكي  
يسمع قولتها أوف آه يا وراكي  
والعافية هبله والجعد مشطر  
وحط زهر الفل فوقها وفوقك  
وهات لها الشبشب يكون على ذوقك  
ونزل النونو القديم من طوقك  
يطلع في طوعك لا الولد يتكبر  
العطفة من قبل النظام مفتوحة  
والوزة من قبل الفرخ مدبوحة  
والديك بيدن والهانم مسطوحة  
ولما جاء الأمر الكريم بالدخلة  
قلنا اسكتوا وخلوا البنات تتستر

تلك كانت ظروف الزجل الذي كتبه بيرم التونسي في أحمد فؤاد ونازلي. البنت — في  
الزجل — هي نازلي. الغفلة هو السلطان فؤاد. ثمة النونو والوزة وغيرها من المفردات  
المحملة بالإشارات والتلميحات.

صدر قرار من السراي بنفي بيرم خارج مصر.  
أمر حمدي درويش ضباطه. ألقوا القبض على الناشط السياسي محمود بيرم التونسي.  
وضعه ٢١ أكتوبر ١٩١٩ م على ظهر سفينة في طريقها إلى فرنسا.

عاد بريم إلى مصر ١١ فبراير ١٩٢٠م. دامت عودته الأولى إلى مصر ستة أشهر. يقول في ذكرياته: «... ذلك أنني بعد أن نُفيت من مصر سنة ١٩١٩م، تمكنت من العودة إليها خفية، حيث قابلت الشيخ سيد درويش في القاهرة، وأقمت معه، وألّفت له رواية «شهرزاد». وكادت السلطات أن تنسى أمر ترحيلي من مصر، إلى أن نبّههم إلى ذلك حضرات زملاء.»

هل كانت الوشاية هي السبب في ترحيله ثانية، أو أن الزجل الذي كتبه في هجاء الملك فؤاد بعد ولادة ابنه فاروق، هو الذي دفع به داخل الباخرة المتجهة إلى فرنسا؟

البامية في البستان تهز القرون  
وجنبها القرع الملوكي اللطيف  
والديدبان يرمح يجيب الزبون  
وربة الجارية تجيب الرغيف  
شوف الميراث حصّل ولاد البطون  
ودخل الأعراب فاميلية علي  
يا باديشاه دانت ابنك ظهر  
ربك يبارك لك في عمر الغلام  
نزل يلعلط تحت برج القمر  
يا خسارة بس الشهر كان مش تمام

رُوي أن البكباشي حمدي درويش فسّر معاني الكلمات. البستان هو القصر الذي كان يقيم فيه السلطان فؤاد. فاميلية على بمعنى أسرة محمد علي. باديشاه تعني بالفارسية سلطان. الشهر الخطأ بمعنى أن الابن وُلد قبل تسعة أشهر من الزواج. طلب السلطان فؤاد من السفير الفرنسي أن يُبعد التونسي ذا الحماية الفرنسية عن مصر. كانت تونس خاضعةً للاحتلال الفرنسي. في ٢٥ أغسطس ١٩٢٠م أُعيد التونسي إلى بلاده.

نفى شوقي أبو سليمان أن يكون له دور في إرشاد السلطات المسئولة عنه، لكن البوليس أفلح في الوصول إليه، وأعادته السلطات إلى المنفى. كل أصدقائه كانوا في وداعه على رصيف الميناء، ما عدا سيد درويش. بعث إليه برسالة يعيب فيها على سيد درويش تقاعسه عن وداعه. فاجأته صحف القاهرة — وهو في المنفى — بنبا وفاة سيد درويش.



كتب بيرم:

كنت باكتب لك عتاب	من غيابك يوم وداعي
أنتظر منك جواب	وانت لي مخلص وداعي
واللقا يوم الميعاد	شفت اسمك في المناعي
غيببت حظي القبور	لما حظى كان وجودك
والتجلي والسرور	وانمحي ميعاد صعودك
المصور في الفؤاد	وانت يا سيد و«عودك»
... ..	... ..
كان مرادي أكون فداك	أنا إن سالت دموعك
أفتكر أوقات هواك	ولا هبّت نار ضلوعي
لما اشوف نارك رماد	وافتكر ساعة رجوعي

ظل بيرم التونسي في المنفى نحو عشرين عاماً. عاش البطالة والرفض العنصري. عمل في مصنع للبسكويت، ومديراً للعلاقات العامة في مؤسسة للخردوات ولعب الأطفال، وعاملاً في مكتبة هاشيت، وغاسلاً للأطباق في مطعم مصري بالحي اللاتيني. عانى الحنين والشوق إلى القسمات الشاحبة والبحر والبلانسات والشباك والشوق إلى الملامح التي لم تترك رؤاه: شايف من تحت البرقع ... أهدابها مرعرين ... والفم المحمودية ... والرأس هيه التين.

تنقل بين المدن. عمل فيما لا تؤهله له قدراته، بمقابل لا يضمن الوجبة التالية. لقب التونسي أتاح له استقراراً في أعوامه التونسية. ثم أبعدته السياسة في ظروف لا تختلف عمّا عاناه في مصر. لم يستطع العمل في الصحافة التونسية، كما لم يستطع الكتابة في صحف مصر.

كتب في رسالة إلى الحاج جودة هلال: «أتكلم في تونس بالعربية، وكنت أتكلم في الإسكندرية باللغة نفسها، لكنني أشتاق للإسكندرية، هي الميلاد والنشأة. يشغلني السؤال: هل هذا هو معنى الوطن؟»

هاجر بيرم إلى فرنسا. عمل شيئاً في معامل تقطير الخمور. واصل إرسال أزجاله إلى الصحف المصرية. ثم عاد — بالحنين — ١٩٢٢م إلى تونس. ظل يعاني، حتى صدر قانون فرنسي في ١٩٣٢م، بترحيل العمال الأجانب إلى بلادهم.

عَمِلَ محرراً في جريدة «الزمان» التونسية، ثم أصدر مجلة «الشباب» التي هاجم فيها سياسة فرنسا في المغرب العربي. أمر الحاكم الفرنسي بإبعاده إلى سوريا، وظل — لمدة عامين — ينتقل في بلاد الشام، حتى قررت السلطات الفرنسية إعادته إلى فرنسا. غادر تونس في ١٧ أبريل ١٩٣٧م، على ظهر باخرة اتجهت به إلى منفى غير محدد. رابع يوم أذاعت إدارة الأمن العام بالقاهرة بياناً عن وصول المدعو بيرم التونسي — مخالفاً للقانون — إلى مصر. دعت إلى إبلاغ البوليس عن مكان وجوده، بينما طالبت «الأهرام» بعفو ملكي.

السؤال عن معنى الوطن، هو الذي أملى على بيرم التونسي أن ينزل — متخفياً — من الباخرة المتجهة إلى فرنسا ١٩٣٨م. قفز من الباخرة، وهو في طريقه من الشام إلى فرنسا.

هادن الملك فاروق في أزجاله. هاجم — في الوقت نفسه — مظاهر الفساد والانحلال، وتواصلت حياته في مصر — مستفيداً من أمر لرئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي — بتجاهل وجود بيرم في مصر.

روى المعلم بدوي الحريري عن الأعوام التي أعقبت عودة بيرم من المنفى. كان مصاباً بالربو، المرض نفسه الذي أصيب به — فيما بعد — حجازي أيوب صاحب المكتبة الحجازية. زاد جو الإسكندرية من تأثير المرض. تعددت نوبات المرض حتى بعد أن استقر في القاهرة.

أقام في البيت رقم ٦ بحارة حلاوة، المتفرعة من شارع ابن بريقع. من طابقين، أشبه بنقطة تتصل ببقية شوارع بحري. يمضي إلى اليسار ناحية ميدان المساجد وشارع السيالة وجوامع أبي العباس وياقوت العرش ونصر الدين. يميل إلى شارع الأباصيري، أو التتويج، أو يتجه ناحية الميناء الشرقية. قد ينحرف ناحية اليمين إلى شارع الحجاري، ومنه إلى شارع رأس التين، أو الموازيني، ثم إلى شارع الميدان والشوارع المحيطة حتى المنشية.

كانت الكتابة والتأليف — في رواية الرئيس الحريري — شاغلَ بيرم. كتب الزجل والموال والمقامة والحوارات العامية. يُطيل الوقوف على شاطئ الأنفوشي، يتأمل حركة البيع والشراء في حلقة السمك، يستريح إلى ظل شجرة في حديقة سراي رأس التين، يستند إلى عمود في صحن أبي العباس، يخلو إلى قلمه وأوراقه على مائدة في أحد المقاهي. لمح الحريري يخوض زحام الموالد، يتأمل الباعة ومفردات نداءاتهم، يتابع — باهتمام — شدَّ حبال الجرافة كأن الأمر يخصه.

منذ ١٩٤٩م انتظم عمل بيرم في الصحافة القاهرية. بدأ في «أخبار اليوم»، ثم انتقل إلى «المصري» ١٩٥٢م، وفي ١٩٥٥م شارك في تحرير الجمهورية. ومُنح الجنسية المصرية في ١٩٥٤م.

اختار مكاناً لكتابة إبداعه — في أعوام حياته الأخيرة — قهوة في شارع السد بالسيدة زينب. ربما لأنها كانت تُذكِّره بقهاوي بحري. وحين تفاقم مرضه بالربو انتقل في ١٩٦١م — سعياً للشفاء — من بيته في شارع النواوي، بالقرب من جامع السيدة زينب، إلى بنسيون في حلوان، لكن ظروفه الصحية ظلت على حالها. وجد في فترة علاجه فرصةً لكتابة ذكرياته. روى ما يُعرف وما لا يُعرف. استعاد صور الأنفوشي والسيالة ورأس التين والبحر والغزل والصيادين والحلقة والأولياء وبنات بحري.

واصل الإبداع، حتى غادر الحياة في الخامس من يناير ١٩٦١م. صُلي على جثمانه في جامع السيدة زينب. دُفن في المقابر القريبة من الجامع. إكرام الميت دفنه، وكلها أرض الله، لا فرق بين مقابر السيدة زينب ومقابر العامود. عرف أصحاب الدكاكين في شارع السد قَدْرَه. أعضاءوا — وقت الجنازة — أنوار دكاكينهم، تحيةً للميت.

في نهايات أيامه، التقى به حجازي أيوب، وهو يمشي — بخطوات متباطئة — بالقرب من دار القضاء العالي.

سأله حجازي أيوب عن سيناريوهات الأفلام، والأغاني، والفوازير.

قال بيرم: أصارحك أنني لست راضياً عن ذلك كلّه، لكن ماذا أكتب غيره؟  
وتنهَّد: أنا تعبت!

قال حجازي أيوب: لولا المشكلة التي أوقع فيها بيرم نفسه، ربما كان سيظل في بحري، لا يتركه إلى مكان آخر.

انظر: بدوي الحريري، جودة هلال، حجازي أيوب، حمدي درويش، رافع عبيد، سيد درويش، شوقي أبو سليمان، عبد الله النديم، فاروق الأول.



## محمود سعيد

هو الأب الحقيقي لفن التصوير المصري الحديث. عبّر عن الشخصية المصرية في فن التصوير، وعبّر عنها محمود مختار في فن النحت.

وُلد بالإسكندرية في الثامن من أبريل عام ١٨٩٧م. كان بيت أبيه — محمد سعيد باشا رئيس وزراء مصر أعوام الحرب العالمية الأولى — مجاورًا لجامع أبي العباس. درس في كلية فيكتوريا ومدارس الجزويت، ثم في المدرسة السعيدية بالقاهرة، واستكمل تعليمه الثانوي في مدرسة العباسية بالإسكندرية. نال البكالوريا عام ١٩٢٥م. حصل على ليسانس الحقوق الفرنسية عام ١٩٢٥م. عبّن في ١٩٢٩م مساعدًا للنياحة بالمحاكم المختلطة بالمنصورة.

لا يذكر متى أمسك بالفرشاة — للمرة الأولى — وحاول الرسم. علّم نفسه الفن. تلقّى دروسًا أولية — هو والمصور محمد ناجي — في مراسم فنانيين إيطاليين هواة، كانوا — مطلع القرن العشرين — يقيمون في الإسكندرية. اعتمدا على موهبتهما بأكثر مما اعتمدا على المهارة الأكاديمية وأساليب الاحتراف. اقتصرت المناهج الدراسية في مدرسة الفنون الجميلة على تخريج فنانيين يجيدون الرسم الواقعي والتسجيلي، يرتبط بالفن الأوروبي، ويحاكيه. أبانت موهبته عن ذاتها في مرحلة مبكرة.

صقل موهبته الفنية بالدراسة الحرة، إلى جانب اشتغاله بالعمل القانوني فترة طويلة من حياته. عمق من صقل موهبته كوزموباليتنية المدينة، والمراسم المتعددة للفنانين الأجانب، وأسفاره خارج البلاد، وزيارته للمتاحف والمعارض العالمية.

لم يكن الفن التشكيلي — في صباه — من المهن المعتبرة. كانت عائلته تراه مضيّعًا وقتَه فيما لا يُجدي. المحامي يسمّى السفية، الصحفي يسمّى الجورنالجي، الفنان اسمه الأرست. معظم الأفندية يرتدون الطرابيش، بينما يرتدي علماء الدين والأزهريون الجبب

والقفاطين، ويرتدي أبناء البلد الجلابيب البيضاء، والفلاحون الجلابيب الزرقاء. ترتدي بنات البلد الملاءات اللف والمنديل بأويه المزين بالترتر. تقتصر العبادة السوداء والحريرة واليشمك على الطبقة الوسطى وما فوقها. اكتسبت موهبته — فيما بعد — أبعادها. صارت أسلوبًا للفنان، يتجاوز التسجيل إلى الإضمار والإيحاء والرمز.

كان همُّه الفن. أسقط المعاني التي تمثّل دوافع للأخرين: الشهرة والمظهيرية والعائد المادي. جعل فنّه رسالةً ورؤية. استوحى الفنون الفرعونية والقبطية والإسلامية والغربية، ضفّرها في نسيج متشابك الخيوط، متناغم التكوينات.

مال إلى ارتياد معارض الربيع الأولى بالقاهرة، ومعارض الفنانين الأجانب بالإسكندرية، ينتمون إلى جنسيات مختلفة، ويتجهون بمعارضهم إلى الجاليات التي ينتسبون لجنسياتها.

لم يقتصر على زيارة معارض الفن التشكيلي. حرص على سماع الموسيقى الشرقية والغربية. وكان يحرص على مشاهدة عروض الفرق الأجنبية في دار الأوبرا: حلاق إشبيلية وشمشون ودليلة لسان صانس، ومفستوفيليس لبويتو، وتوسكا ومدام بترفلاي لبوتشيني، وتانهويزر لفاجنر.

سافر عام ١٩١٩م إلى باريس — بضغط من أبيه — للحصول على ليسانس الحقوق. لم يكن جاوز التاسعة عشرة، لكنه زواج بين الدراسة الأكاديمية وزيارة المعارض والمتاحف. وسافر في زيارات متقطعة للدراسة الشخصية في متاحف إيطاليا وإسبانيا وهولندا.

رائحة بحر الإسكندرية لا تُزائل أنفه، بعيدًا عن المدينة. اختلاط اليود والملح والأعشاب والطحالب، وما يتداخل معها مما يصعب تبيّنه.

توزّعت حياته — بعد العودة إلى مصر — بين وظيفته في القضاء، وإبداعه الفني. حاول أن يُضيف إلى موهبته، بزيارة المعارض والمتاحف والكنائس في هولندا وبلجيكا وسويسرا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا. يسافر إليها في أوقات إجازاته من عمله الوظيفي.

ظل على حرصه في زيارة باريس. يزور المعارض والمتاحف، يُطالع الدوريات الفنية، يطلّع على كتب تاريخ الفن. تردّد على الأوبرا وحفلات الموسيقى ومسرح الكوميدي فرانسيز والأوديون ومتحف اللوفر (صار — بتوالي تردده على اللوفر — على معرفة بالبهو الكبير والقاعات والأجنحة والممرات ومواضع اللوحات والتماثيل، حتى حجرات موظفي المتحف عرف أماكنها) والفيوكولومبيه والأتيليه وقاعة الموسيقى الكبرى في ليل.

يقضي — يوماً في الأقل كل أسبوع — في مشاهدة حفلات موريس شيفالييه، وسماع الموسيقى السيمفونية في قاعات جافو وإيرار وبليل، وكونسرفتوار باريس وكولون وباولو ولاموريه. حفظ وجدانه سيمفونيات بيتهوفن وشوبان وبرامز وهايدن وموزار وشوبرت ومندلسون، وكونشرتات موزار وبيتهوفن وشوبان وبرامز ومندلسون، ورباعيات بيتهوفن وهايدن وموزار. استمع إلى الموسيقى الدينية في كنيسة السوربون. ربما أغمض عينيه. أعمل ذهنه في تأليف تراكيب هارمونية وتحويرها. الانتقال من مقام إلى مقام، الددنة، الصفير. لا يلتفت إلى النظرات التي قد تلاحظ انغماسه في لحظات الموسيقى.

وصفه عبد اللطيف النشار بأنه شاعر، يكتب قصائده بالريشة واللون. أطال دراسة أعمال فناني الغرب. استوعبها تماماً. حاول أن يفرز ما هضمه في لوحات تعبر عن الكيان المستقل.

أحب الإسكندرية: البحر والصيادين والشمس وزرقة السماء والسحب، وألق ضوء القمر على الأمواج والسحب والمد والجزر والمراكب والأشعة والصخور والأفق والظلمة الساكنة والظل والضوء والنسائم الهادئة وهبوب الريح والنوات. تشرّب المدينة في داخله. الناس والطبيعة والبيئة والأحياء الشعبية والأسواق وباعة العرقسوس وحلقات الذكر والموالد والزار والمعتقدات والعادات والتقاليد. حتى المرثيات الساكنة يشعر أنه يحبها. عبّر — بالريشة والألوان — عن الرؤى والملاحم والقسمات. نطقت لوحاته بالعفوية. لم يحاول التقليد ولا المحاكاة. ما يريد وجدانه أن يعبر عنه، جرّت به ريشته على اللوحة. صنع لغته التشكيلية الخاصة. أفاد من الأساليب الأوروبية، ضفرها بأسلوبه الخاص، تربطه بالوجدان المصري وشائج مهمة، واضحة. أسرته فكرة الفن القومي، الطابع المصري المستقل عن الأشكال الأوروبية، الممتد — بجذوره — في أعماق البيئته. رفض أن يكون النموذج الأوروبي هو المثل الوحيد الذي ينبغي أن يُحتدَى، التعبير عن البيئة المصرية، الشخصية المصرية. تفرد الفن المصري بقدر اختلاف لغته عن أية لغة فنية أخرى، وتقديم إضافات جديدة في استخدام اللون والظل وطرق التعبير. لجأ إلى تقابل الخطوط الرأسية والأفقية، الأضواء البراقة والظلال الداكنة، البنائية الهندسية ذات التكوين المحدد، الهارموني الموسيقي المتكامل العناصر والمفردات، المسحة الصوفية بإيمائها إلى المجهول، الإبحار في عوالم بلا آفاق.

مال إلى الطلاقة المتحررة في التعبير. استبدل بالفرشاة سكين الباليت. خلق لنفسه واقعاً فنياً خاصاً، له أبعاده الاجتماعية والجمالية. عكست لوحاته رؤاه للشخصية

المصرية، فهمه لها، وتعبيره عنها. التواصل مع التراث بالأخذ منه، والاختلاف عنه، التعبير عن البيئة واللحظة المعاشة.

تعددت الأبعاد في حياته، الجنس، العبادة، الموت. محاور تلتقي من حولها رؤيته للعالم، وللحياة التي يعيشها. في لوحاته، كل ما ينتمي إلى العالم الذي يعيش فيه: الرجال، النساء، الأطفال، بنات بحري، المدينة، الأسرة، الصلاة، الدراويش، الزار، الباعة، الحمير، الجاموس، الجياد، القطط، الأسماك، المراكبية، الصيادون، الصيد العجيب.

عُنِيَ بالبعد الثالث، وقواعد المنظور، عكس ما يطلبه الفن الإسلامي من التجريد الزخرفي. أجاد استخدام الألوان الداكنة، وانعكاسات الضوء والظلال.

عَبَّرَ في تكوينات أشبه بأعمال النحت المصري القديم، وبإبراز العمق النفسي للشخصيات، إلى جانب دقة الملامح، وما يُشبهه الروح الصوفي المضمخ بأريج البخور.

لم يكن يميل إلى التعبير عن أفكاره وآرائه في الفن، بالكتابة. اكتفى بأن يكون الفن وسيلته الوحيدة للتعبير، يعكس رؤيته للبيئات التي يحبها. يستعيد الملامح والقسمات والجزئيات والتفاصيل. هذا الخليط من الأسرار والقلق والمخاوف والرغبات والأحزان والغضب والتطلعات والتصرفات التي بلا معنى.

ربما اختار الأرض الخلاء بين ميدان إبراهيم الأول وشارع جودة، نظراته موزعة بين صفوف البيوت القزمة المتساندة، والشوارع الضيقة، الطافحة بالطين والعطن كالمزاريب. يفضل الساحة الترابية قبالة صخرة الأنفوشي.

إلى اليمين قصر الملك، ومقابر البطالمة، وانحناءة الطريق إلى نهاية خط الترام، ومستشفى رأس التين. إلى اليسار امتدادات الطريق إلى الأنفوشي، والسيالة، وميدان المساجد، حتى المنشية، فتفرعات الشوارع إلى أحياء المدينة.

يحمل له الخادم الحامل الخشبي والباليتة والحقيبة الجلدية، بها الفرشاة وقلم الرصاص وسكين المعجون والألوان الزيتية وألوان الجواش والأوراق.

يتنقل — في الساحة الترابية — بين البيوت المطلة على ساحل الأنفوشي وشاطئ البحر. يلحظ تبدلات الطبيعة بتوالي الأيام، تحول أوراق الشجر ما بين الخضرة والصفرة فالسقوط، السكون، والهباج، ورذاذ الأمواج، والطحالب، والأعشاب، وتراكم السحب، وتداخلها، وتيارات الهواء، وهبوب الرياح، والنوات، والحصيرة، والتقلب، والتتمرد، والثورة، والفنار، وأضواء السفن البعيدة، وقوارب الصيادين.



يلو له التطلع إلى الصخرة الساكنة. صعودها في قلب المياه، يحرك في داخله مشاعر يشغله التعبير عنها. تصل أسراب النورس المسافة بين الشاطئ والصخرة في أسراب متلاحقة. يُمسك الفرشاة، يغمسها في الألوان، يحركها على اللوحة، يرسم عوالم يصنعها امتزاج الواقع والخيال ولمسة الفن. طالت حواراته مع الطبيعة الساكنة، ليست خرساء، لكنها تنبض بالحياة. تنعكس في لوحاته أصداء ما ألفه من سماع الأذان، وتلاوة القرآن، ونداءات الباعة، وصياح الأطفال وهم يلعبون.

استهوته الحكايات عن الصخرة، ما جرى بين عروس البحر وكرم حامد، خيط الدم المتسرب من الصخرة، إخفاق حمدي درويش في تدميرها، جلوس الشبان والفتيات إليها، يحتمون بها، يتسامرون، يتأملون آفاق البحر. لا يشغلهم انعكاس حرارة الشمس، ولا حكايات عروس البحر مع الذين تجذبهم إلى الأعماق بالهوى، فيعودون محملين بالخيرات، أو تجذبهم بالعداء، فلا يعودون.

كان قد أنصت إلى تعدد الحكايات عن عروس البحر، جنية البحر. لم يكن رآها من قبل، ولا كَوْن لها — في مخيلته — صورة محددة. تبدلت الصورة باختلاف الحكايات، ترسم كل حكاية لجنية البحر ما يلغي الصورة الواحدة، الواضحة.

اختلف — في فنه — حتى عن أبناء جيله: يوسف كامل، محمد ناجي، راغب عياد، أحمد صبري. جاوز فنه مجرد الحرفية في الأداء واللون والظل والعمق ولمسة الفرشاة. أعماله تعبير عن الشخصية المصرية، هويتها المجتمعية والثقافية. لم يكن يملُّ السير في الأحياء القديمة.

خترق الميادين والشوارع والحواري والأزقة. يتأمل البناءات المتهاكة والمقاهي والدكاكين والباعة الجائلين وباحات المساجد والجالسات أمام البيوت والمطلات من النوافذ وألعاب الأولاد: السيجة، عنكب يا عنكب، أولها إسكندرني.

اختار للوحاته أسماء تظهر انتماءه إلى البيئة الشعبية: الشوايف، الذكر، الصيادون في رشيد، الصيد العجيب، المدينة، الصلاة، العائلة، بنات بحري.

كرر مفردات البيئة. أعاد صياغتها في أشكال وتكوينات شكلية. أضاف للمسة المعاصرة إلى الفنون القديمة. لم يفصل بين العناصر المختلفة، في إيقاعات سحرية. ينفذ الغبار عن اللوحات بنفسه، يلامسها بالمنفضة فلا يخدشها. يرفض أن يترك الأمر للخدم. لأن عبد الهادي الجزار استوحى لوحته «أدهم» من السيرك الشعبي، فقد حرص محمود سعيد على اقتنائها. أحب المصرية في تكويناتها، وإفادتها من الثقافات والأساليب الفنية، المحلية والغربية. تمازج الفرعونية والإفريقية. الرؤى والألوان والظلال.

عاب على أبناء طبقته أن المظهيرية تغلب على اهتمامهم بالفنون. هي ليست للتذوق، ولا للتثقف، ولا حتى للاستمتاع، لكنها للمناسبات الاجتماعية التي يلتقون فيها حول شيء ما، لا يعنيهم الفن، وإنما تعنيهم المناسبة. يجلسون، يخوضون في أحاديث تبدأ ولا تنتهي.

— محمود سعيد.

راجع حرس قصر رأس التين اسمه في دفتر التشريفات. ثم أذنوا له بالدخول. ست سنوات، أو سبع، لم يدخل القصر. لا يعرف متى ينزل فيه الملك فاروق أشهر الصيف، ومتى ينزل في قصر المنتزه. باعث الاستدعاء شغله عن كل ما حوله. الأسوار العالية، والخضرة، والنافورات، والساحة الرخامية، تحيط بها أشجار صغيرة متلاصقة، والأبنية المتداخلة بين الأبيض والبني.

مضى وراء التشريفاتي ذي البذلة السوداء المزينة بالقصب، إلى باب مغلق، على جانبيه حارسان يرتديان زيًا ملونًا بالأحمر والأزرق، وموشى بالذهب، ويضعان الطربوش فوق الرأس.

فتح التشريفاتي الباب، وقال: ضيف صاحب الجلالة!

هل إغفال اسمه مقصود، أو أن الخادم نسي الاسم؟ أو أن هذا هو ما يطلبه البروتوكول؟

هزَّ الملك رأسه بإيماءة ترحيب، في جلسته وراء المكتب.

اختلفت ملامحه عمَّا يتذكره من آخر لقاءاتهما، اختلفت حتى عن الصور التي تُنشر له في الصحف. أقرب إلى البدانة، أضفى عليه شاربته المنسدل على شفته مظهرَ القسوة، وإن بدت عيناه ساجيتين.

تحدَّث الملك عن حبه للفن. تردَّد في أوروبا على معارض، حضر حفلات موسيقية، شاهد عروضًا سينمائية ومسرحية.

علا صوته فجأة: أحب كذلك اللوحات الفنية.

واصطنع ابتسامة متوددة: لوحاتك تعجبني.

ربت صدره: تقدير يُسعدني.

قال الملك: لم تُعدَّ معظم لوحاتك — كما كانت — في مستوى مكانتك.

لاحظ أن الملك يكثر — في أثناء حديثه — من الالتفات ناحية الرجال المتناثرين حوله،

كأنه يسألهم: هل أبديت الملاحظة الواجبة؟ هل قلت السؤال المناسب؟

تصوّر أنه سيلتقي بالملك منفردًا. لاحظ الرجال المتناثرين في مساحة المكتب. من التقى بهم داخل القصر، وفي حفلات الأسرة المالكة، وثمة من رأى صورهم في الصحف: كريم ثابت، إلياس أندراوس، إدجار جلاذ، إسماعيل شيرين، يوسف رشاد، أنطون بولي، حلمي حسين، محمد حسن.

قال الملك: أنت الآن ترسم نساء يرتدين الملاءات اللف.

همس: لوحة بنات بحري؟

ثم وهو يحاذر أن يتسرب الانفعال إلى صوته: هذه لوحة قديمة. هل رسم بنات بحري لأنه أحبّ الحي، أم لأنه أراد أن يُخلده؟ أم لأن المشهد ظل عالقًا في وجدانه، حتى نقله من الذاكرة إلى المساحة البيضاء؟ أحب الملاءة اللف، ومنديل العياقة فوق الحاجبين، والبرقع، والقصبه المذهبة، والقبقاب، والخلخال ذي الوسوسة.

قال الملك: لوحات أخرى كثيرة.

واتجه إلى الواقفين حوله بنظرة متسائلة: الفتاة ذات الحلي؟

أوحّت له الفتاة — بمجرد رؤيته لها — بالخلو إلى القماش والاستاند والفرش والألوان: الشعر الأكثر، أو الأسود المفروق من أوسط الرأس، الملامح الأقرب إلى الزنجية: العينان المكحولتان الواسعتان، الشفتان الممتلئتان، الحسيتان، الأنف الطويل، الحاجبان الكثيفان كقوسين. القرط المتدلي من أذنيها، والحلي حول عنقها وساعديها، والجسد الأقرب إلى الامتلاء. بنت البلد تجمع بين الإنسانية والحيوانية، الصفار الروحي والاشتعال الجنسي، الروح الباسم والحزن القاتم. وعاء كبير، تغلي فيه المتناقضات، وتتصارع الأضداد.

رَفَّت ابتسامهُ سخرية على شفّتي الملك: لن أفاجا بزواجك من امرأة ترتدي الملاءة اللف، أو تتعرّى بالثمن ... ذلك ما فعله أحمد تيمور باشا.

وكسا صوته بجدية: أنت خال الملكة ... فأنت عضو في الأسرة المالكة.

ورمقه بنظرة متسائلة: ألم يعد في العائلة المالكة من تستحق ريشتك؟

لم تكن الفتاة ذات الحلي الوحيدة التي جرّت فيها ريشته بالبعد الحسي. ثمة فائتات بحري، ذات العيون الخضراء، ذات القرط اللؤلؤي، ذات الجداول الذهبية، راقصة وتخت، أعلى الوسائد، بدرية، موديل، القط الأبيض، راقصة، السابحات، حاملة القلة، عروس البحر، فتاة على الكرسي، على الأريكة الخضراء.

وهو يغالب استياءه: ليست المسألة فيمن يستحق. هذا فن.

وقف فاروق دلالة انتهاء المقابلة.

في ١٩٤٧م حسم محمود سعيد الصراع في داخله بين حب الفن وممارسة القانون: أعطيت عائلتي والمجتمع خمسة وعشرين عاماً في وظائف القضاء.

وفي لهجة واثقة: أظن أنه يجب أن أمضي ما تبقى من العمر في مزاوله الفن. أعلن تخليّيه عن وظيفته بالقضاء، وتفرّغه للفن تماماً.

أشفق على نفسه من الوظيفة، لا تُتيح له الإنتاج كما يريد. خشي أن يُصيبَ فرشاته الصدأ. رفض أن يصبح مثل فناني يوم الأحد الأوروبيين، لا يجدون وقتاً لفنهم إلا أيام العطلات وأوقات الفراغ. قال: كانت ألواني، وكان الضوء عندي داخلياً، أشعر به بداخلي، ويحاول الخروج. كان عندي شعور طويلة مدة اشتغالي بالمحاكم أني أرسف في أغلال. وكنت أريد الانطلاق من هذه الأغلال إلى دنيا الحرية.

تحرّر من أسر الوظيفة، تفرّغ للإبداع وحده. ما يريده هو الرسم، والرسم، والرسم. تُرادفه قراءات وتأملات وخبرات شخصية وخبرات للآخرين. جعل من بيته في جنالكيس مرسماً، يقضي فيه معظم وقته. يقرأ، ويتأمل، ويرسم. تتحرك فرشاته على اللوحة بطلاقة تعبيرية، أبعادها الخطوط والألوان والظلال والخطوط الحادة والمستقيمت والزوايا والكثافة والضخامة والعمق والقوة والثقل.

إذا توقّف — لفترة تطول أو تقصر — فلمراجعة النفس، وإعادة التأمل.

لم يحدّ الفن في حياته مجرداً استمتاع، وشغل أوقات الفراغ. ربط نفسه بالفن. سيطر على أدوات التعبير. يتغلغل إلى ما وراء أسطح الأشياء، يتلمس الأعماق والجوهر. يتجاوز سقوط الضوء فوق الأجسام من مصدر خارجي: نافذة، كوة صغيرة، انفراجة باب، مصباح. جعل الضوء ينبع من داخل الأجسام كأنها تتلقى الضوء، تمتصه، تنتشع به، ثم تُفرزه في تكوينات اللوحة، الظل والنور ودرجات الألوان.

نسب حسين بيكار فنّ محمود سعيد إلى المدرسة الباطنية، تختزن النور في أعماقها، وتتركه يشعّ من مسام عناصر اللوحة، وينضح فوق السطح كما ينضح الماء من مسام أنية من فخار.

واحتضن محمود سعيد بنظرة إعجاب: لوحاتك تُقنعنا بضرورة الغوص في أعماق البيئة لاستخراج ما تبطن من عصارات الأصالة، وانتزاع المضمون من طيات تربتنا العريقة.

ثمّ وهو يُعيد النظر إلى اللوحة أمامه: كما أرى، فأنت فنان متأمل بطبيعتك، صوفي النزعة، ترفض الضوء المباشر، تُخاطبنا بلهجة شعبية أصيلة من وراء ظلمة داكنة، كأنها

أستار الزمن، ينبثق من ورائها نور غامض متلألئ في غير ابتذال، يصدر من الداخل، ويشعُّ في الخارج، يختلج، وينبض، ويرتعش في صمت وقور.  
أحب في الشخصية الإنسانية تناقضها، تباين أفكارها وتصرفاتها، تلاقي الخير والشر، البراءة والدنس، القديس والشيطان، في داخلها. لكن البعد الديني يبين في لوحات: الصلاة، صلاة الجمعة، حلقة الذكر، القارئ، الدراويش، زيارة القبور، ما بعد الدفن.

حين بدأ رحيل الأجانب من مصر، أظهر محمود سعيد إشفاقه من أن يحملوا معهم مجموعات اللوحات لفنانين مصريين وعالميين. هذه ثروة قومية، يجب أن تظل في مصر. ثم عرف أن لوحات له، ولسيف وانلي وأدهم وانلي ومحمد ناجي وراغب عياد، ولوحات أصلية لفان جوخ ورامبرانت وسيزان وروبنز، حملها المهاجرون من الأرستقراطية اليونانية إلى بلادهم.

توفي في نفس يوم مولده في ١٩٦٤م.  
عاش سبعة وستين عامًا، مارس — في معظمها — الفن التشكيلي. وكان أول فنان تشكيلي يحصل على جائزة الدولة التقديرية في أول أعوامها ١٩٦٠م.  
وافقت أسرته على أن يتحوَّل قصره في جناكليس إلى متحف باسمه.  
لم تستطع اللجنة — التي ترأسها حسين بيكار — أن تتسلم القصر في الموعد المحدد. اكتفى أفرادها — مؤقتًا — بتأمل البناية القديمة الطراز. منعهم من تفقد حجرات الطابق العلوي، كلب ضخم اقتناه محمود سعيد في أعوامه الأخيرة، وأنس لصحبته.

انظر: حسين بيكار، عبد اللطيف النشار، عروس البحر، فاروق الأول، كرم حامد.



## محمود فياض

يا قوة الله!

أطلق الصيحةَ البطل المصري سيد نصير، وهو يرفع الثقل ١٩٢٨م. رفع، خطف، نظر. فاز ببطولة العالم. كرّر الصيحة البطل المصري خضر التوني ١٩٣٦م. رفع، خطف، نظر. فاز ببطولة العالم. هتف محمود فياض: يا قوة الله! ١٩٤٩م. رفع، خطف، نظر. فاز ببطولة العالم.

كان محمود فياض يعرف أن الرفع هو المشكلة التي ينبغي أن يتدبرها. ليست مشكلته هو بالتحديد، لكنها مشكلة كلِّ الربّاعين، سواء من المصريين أم الأجانب. يحقق الربّاع أرقامًا مدهشة. يصعد المنصة لرفع الثقل فيحقق. تضع أرقام الخطف والنظر. يراعي فلا يتجه بالثقل إلى الخلف، لا يستطيع حفظ توازنه فيسقط الثقل. لا يكفي رفع الثقل. لا بد من إبقاء الرفع فوق الكتفين، أو فوق الرأس، ثوانٍ تؤكّد ثبات حمل الثقل. يظل الثقل في موضعه حتى يُعطي الحكام إشارة إنزاله.

في السنة نفسها، فاز إبراهيم شمس، بالميدالية الذهبية، وفاز عطية محمد محمود بالميدالية الفضية.

وُلد في ١٩٢٥م.

كان قد صدر تصريح فبراير ١٩٢٤م، لكن ظلت بصمات السيطرة الاستعمارية واضحة في المناهج الوزارية الدراسية. كان من بين الكتب المقررة لتدريس التاريخ بالمدارس الثانوية كتابٌ يقول إن مصر — منذ ١٨٨٢م — قد دخلت في طور جديد، وهو الاسترشاد بدولة أوروبية عظمى في السير في سبيل تهديئة أحوالها، وتنظيم إدارتها، وأن «إنجلترا لم تقصد بقاءها بمصر أمداً طويلاً، بل كانت — على العكس من ذلك — عازمةً

على الجلاء عنها، بعد أن ترسّخ قدمُ الإصلاح فيها، وتخرج من الأزمة التي كانت سبباً في نزول الجيش البريطاني الديار المصرية، غير أنه حدثت أمور ومشاكل عاقت تقدُّم مصر على الوجه الذي تريده إنجلترا، فاضطرت للبقاء فيها إلى اليوم». وضمت الحكومة الجامعة المصرية إليها، وأضافت إليها الكليات القائمة من قبل، فضلاً عن إنشاء كلية للعلوم، وبدأ إنشاء كورنيش الإسكندرية من رأس التين إلى المنتزه، وتواصلت احتفالات أبناء مدن القناة ضد اللنبي، يصنعون — ليلة شم النسيم — دميةً يرمزون بها لكل شيء يكرهونه، مثلما كرهوا اللنبي من قبل، ويشعلون النار فيها، واكتملت مدينة بور فؤاد، وانتشرت بين الشباب موضة رباط الرقبة الأخضر المزدان بالهلال والنجوم، وأصبحت عادة كبار الموظفين أن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس الأجنبية. وكان من بين جيل أصحاب الابتدائية رجالٌ مفتولو الشوارب. ثم تجاوز الزمن الابتدائية، وأصبحت البكالوريا هي المناسبة، وتألّفت لجنة لإصلاح الأزهر، وأصبحت غالبية الأسر المصرية توافق، بل تلحُّ أحياناً، على تعليم الفتاة، وإن ترددت في مسألة توظيفها، وبدأت المرأة في التخلي عن النقاب، ثم عن الحجاب، انطلاقاً من تخلي المجتمع عن الكثير من القيود التي تُكبّل انطلاقه، وأصبح «الأفندي» مطمئناً لغالبية الفتيات المصريات، وفتيات الأسر المتوسطة بخاصة، يحلمن بالزي الإفرنجي والطربوش الأحمر فوق الرأس، والمنشأة، والوظيفة المضمونة، والمرتب الثابت، والهيبة التي تلازم صاحبها أينما حلّ. أصبحت الوظيفة «الميري» هي مطمح كل الفتيات، وغنّت المطربة سكيمة حسن — تعبيراً عن مطلب الفتاة المصرية آنذاك — «الأفندي يا نينة أنا حبيته، حيّاني بوردة وحييته». وأعلن الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية استنكاره لتلاوة القرآن في الراديو: «وأي استهانة بكلام الله القويم واستخفاف بشأنه، أشنع من نقل ألفاظه الشريفة وآياته المقدسة، بآلات لا تُدار إلا للطرب بالأناشيد الغرامية والمداعبات الفكاهية واللهو»، وتخرّجت في جامعة لندن أول طبيبة مصرية، هي خديجة حفني ناصف، شقيقة باحثة البادية، وسافرت سعاد فريد وفردوس حلباوي إلى لندن — على نفقة الدولة — لمتابعة تحصيلهما العلمي هناك، وأنشئ الاتحاد المصري للصناعات، من بعض الاقتصاديين المصريين مثل طلعت حرب وإسماعيل صدقي. وكان نادياً أهلياً والمختلط — الزمالك فيما بعد — هما نادياً القمة في كرة القدم، وانشغل الناس بأحاديث كرة القدم، وأسماء حسين حجازي وسيد أباطة ومحمود حودة، وبالمباريات الشهيرة مثل مباريات منتخب القاهرة مع الفرق الأجنبية، وأنشئت شركة مصر للتمثيل والسينما، وصدر كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق.



معظم الروايات التي حصلت عليها عن طفولة محمود فياض ونشأته، شفاهية، يغيب عنها التوثيق، والترتيب الزمني للأحداث. ما زاد من صعوبة مهمني تباين الروايات، فلا حقيقة مؤكدة.

لم يتفق تعدد الروايات حول الظروف الأسرية لمحمود فياض، كثرت الحكايات، تضاربت الأرقام والوقائع، اختلفت الروايات، لكنها أجمعت على طفولة فياض ونشأته في بحري.

راجعت اختلاف الروايات.

حاولت التوصل إلى ما يقرب من الحقيقة. ترددت على نسبة الشاي خلف زاوية جميعي، وعلى حلواني الطيبين، وكان صانع الطرابيش المقابل، وأندية الاتحاد السكندري والأولمبي والترام. راجعت أرشيف مكتبة البلدية، وصحف «البصير» و«السفير» و«العهد الجديد» و«الاتحاد المصري». جلست إلى رياضيين من زملائه وأصدقائه. اختلفت كل رواية مع الروايات الأخرى، أو نفتها تمامًا.

فضّلت أن أجاوز ما عانى الشحوب، فأسجّل ما أكده تلاقي الروايات.

حين بدأ محمود فياض في ممارسة لعبة رفع الأثقال ١٩٤٠م لم يكن قد بلغ السادسة عشرة.

كان قد مضى عام على بدء الحرب العالمية الثانية. القيود مفروضة على الإضاءة، وصفارات الإنذار تقتحم ليل المدينة، والكشافات تلحس السماء في بحثها عن طائرات الألمان، والأخبار تتوالى عن انتصارات الألمان في الصحراء الغربية، وجنود الإمبراطورية البريطانية يزاحمون الأهالي في شوارع الإسكندرية، وكوم بكير، وبارات شارع اللبان، والكازينوهات المطلة على طريق الكورنيش، ورجال حمدي درويش يطبقون قانون الطوارئ — على الناس — بقسوة بالغة. وعانى أحمد المسيري انصراف أفراد فرقته إلى الكازينوهات المطلة على الكورنيش، وافتتحت عليه عشاوي شققاً عدة في منطقة الرمل، بأسماء رجال خاضعين لسطوتها. وكان من أشهر الرقصات الحديثة «الرابسا» و«تشيكا بوم تشيك»، ورقصات البرازيلية كارمن ميرندا، وظل جيل الآباء على حبه لرقصة «الفالس».

بعد عامين، فاز محمود فياض ببطولة مصر والإسكندرية. وفي ١٩٤٦م فاز بالميدالية الذهبية في بطولة العالم بباريس. ثم فاز في ١٩٤٨م بذهبية أولمبياد لندن.

في العام التالي، حصل على ذهبية بطولة العالم بلاهاي. ثم فاز في العام التالي بذهبية بطولة العالم بباريس.

تحامل محمود فياض على نفسه، وهو يتهبأ للنزول في محطة مصر. ظل — منذ عامه السادس عشر — يعاني آلام الانزلاق الغضروفي، وظل يحصد البطولات. رفض أن ينزل في محطة سيدي جابر، ليَسهل على أهل بحري لقاءه. اختلط الزحام والأعلام والزينات والفرق الموسيقية والورود ونبثارات الملح والكلاكسات والهتافات والزغاريد ودقات الدفوف والطبول والمزمار البلدي ورقصات سيد حلال عليه وأغنيات ماهر الصاوي وتوزيع الشربات على مقاهي المينا الشرقية والسيالة والأنفوشي ورأس التين.

رَفَع الأثقال — للمرة الأولى — في النسبة الزجاجية الصغيرة، على ناحية تقاطع شارعي جميعي والشوربجي. تحتل معظم مساحة الطريق الضيق. إلى جانبها أثقال الحديد بأرقامها المتصاعدة. يأكلون ساندوتشات الفول والفلافل والجبنة البيضاء والزيتون. يشربون الشاي على الدكة الخشبية المجاورة للعربة، يغسلون أيديهم ببيكربونات المغنسيوم الجاف. ثم يتناوبون رفع الأثقال. يُضيفون إلى الثقل، ينقصون منه. يبدأ محمود فياض بما يثق أنه أقرب إلى قدرته على حمله. يُفلح، فيزيد الثقل. أسخف شيء أن تنتهي المحاولات الثلاث بالفشل.

أجاد فياض رفع الأرقام المرتفعة، فسعى للانضمام إلى النادي الأولمبي. أَلِف المشوار اليومي — بعد خروجه من العمل — بين بحري والنادي الأولمبي، بجوار وأبور المياه.

تعلم كيف يسيطر على جسده، على عضلاته وحركاته. يعرف ما إذا كان الوزن مناسباً أم لا، وكيف يُجيد كل رفعة فلا يخلط بين أداء الرفعات. مارس ألعاب الجمباز، وحمل الأثقال الخفيفة، والجري. ربما أدى مباراة في تنس الطاولة داخل نادي الأنفوشي الرياضي. دكان مستطيل، واسع المساحة، يُطل على شارع قصر رأس التين. كان يحرص على الوزن، والإقلال من الدهن والزيت، ويكثر من شرب الماء، ويُجري قياس الضغط والسكر، وتحليل الكوليسترول. وبنصيحة من الحاج الطيبين، كان يداوم على شرب الزعتر المحلّى بالعسل لتقوية القلب.

اعتذر محمود فياض لخليل الفحام عن عدم الجلوس على قهوة فاروق. تأمل عبارة «قتل الوقت»، رفضها.

وهو يزفر: نحن لا نستطيع أن نقتل الوقت. الوقت هو الذي يقتلنا. ننتهي، ويبقى الوقت!

رفض الأخذ والعطاء في عرض أحمد المسيري، أن يبدل جلسته أمام دكان الطيبين. إذا جلس أمام باب السرادق، فسيجتذب الكثيرين ممن عرفوا فوزه ببطولة العالم. يدخلون السرادق بشعور الثقة، أن رفع محمود فياض الأتقال فقرة في البرنامج. — هل أتحول من بطولة العالم إلى بطولة تياترو المسيري؟! — ظلت ابتسامة أحمد المسيري: مجرد جلسة للدعاية. أنت لن ترفع كوب الشاي لتشربه!

رفض تلميح المسيري بأنه سيتقاضى مقابلًا للجلسة الصامتة. مشواره — كل صباح — بين السلسلة وقلعة قايتباي. يشم رائحة البحر: ملوحة الماء واليود والطحالب والأعشاب والقواقع والأصداف. يتأمل البلانسات والفلايك واللنشات والصخور وألق الشمس على وجه البحر والصواري والأشترعة. تناثر صيادو السنارة — في مواضع متقاربة — على صخور الشاطئ. الأمواج العالية تضرب مكعبات الصخور، أسفل الكورنيش الحجري. تغمر الشاطئ وهي تهدر. يرتفع الرذاذ، ينهمر إلى ما بعد وسط الطريق. قد ترتطم بجدران البنايات المقابلة. يمضي — في أوقات الصحو — داخل مرسى المينا الشرقية، ترسو على جانبيه لنشات وقوارب وفلوكات كبيرة وصغيرة، تتضاعف بالصور التي تعكسها المياه بتحريك الأمواج، وهي تمضي نحو الشاطئ.

تباعدت هرولته — كل صباح — ما بين السلسلة والقلعة. اكتفى بالسير المتمهل في المسافة نفسها. ثم اختار الجلوس أمام دكان الطيبين الحلواني. يرتدي بنطلونًا، وفانلة بكُمّين قصيرين، يكشفان عضلاته. تمتد جلسته ساعتين، أو ثلاثًا، ثم يعود إلى البيت. يسير — في صباحات متباعدة — بين السلسلة والقلعة، لا ينظر إلى الأمام كما كان الحال في الأيام الفائتة، يتأمل الأفق والبلانسات وصيادي الجرافة والطراحة والواقفين بالبوص فوق المصدات الأسمنتية وطيور البحر.

إذا كان الجو شتويًا، زاد من مدة المشي. يُعطي عضلاته فرصة الاستجابة للتمرينات. اقتحمته الآلام فجأة.

أحسّ بتخدير وتنميل، وشعور بالحرقة في أعلى الساق. زال الألم، وعاد. تكرر، واشتد في الفخذ والساق وظهر القدم.

قام من كرسيه للسلام.

شعر أنه لا يستطيع الوقوف، وأنه يوشك على التهاوي. ثم زالت الآلام، كأنها لم تكن. عادت السخونة متمازجةً في ساقه بالخشية من ملامسة أي شيء لموضع الألم. إذا حاول القيام من كرسيه، عاودته الآلام حادة، قاسية. زادت الآلام في ظهره وساقه اليمنى. تقتصر على فترة الصباح، وتشحب بمرور وقت النهار. تشتد ليلاً، ولا تهدأ بالحركة. تنزل بطول الساق من الخلف.

أدرك أنه يعاني روماتزمًا.

زار الصيدلية ذات البابين على ناصية شارع إسماعيل صبري والتتويج. اشترى مراهم وكريمات وأدوية لعلاج آلام العنق والظهر وعرق النسا والتهاب الأعصاب وآلام العمود الفقري.

نصحه الصيدلي بحبوب، يجرعها في أثناء الوجبات حتى لا تؤذي المعدة.

أطال التحمل حتى استقرت الآلام في جسده تمامًا، لا تُغادره في أي وقت. تعلق بمحاولة التحرك. مرّت عظام ظهره وساقه. يشعر أنها مثل النار الملتهبة، تسري ما بين نهاية العمود الفقري وأطراف القدم.

حاول أن يدفع ساقه، يحركها. لم يجد استجابة. أعاد ما فعل، فكرر فشله. أدرك أنه لم يعد يستطيع ثني ركبته.

طمأنه الحاج محمد الطيبين بأن الألم مبعثه تيارات الهواء.

قال الطبيب: هذه الآلام عارضة، وليست مرضًا.

— هل هو عارض بلا سبب؟

— الأسباب كثيرة ... علينا أن نعرفها لنبدأ في علاجها!

ومسح — بتلقائية — على ظهره: مهم أن نعرف أن حوال ٨٠٪ من آلام أسفل الظهر

يصعب الوصول إلى سبب واضح لها.

بحلقت عيناه: هل أظل أعاني بلا سبب؟!

— قد نعرف السبب لو أننا لجأنا إلى الأشعة.

زار مستشفى المواساة.

لاحظ الطبيب ارتفاع درجة الحرارة، يصحبها التهابُ الساق واحمرارها. شخّص

الطبيب الحالة بأنها حمرة متكررة.

أجرى محمود فياض فحوصاً وتحليلات وأشعة.  
لماً تأمل الطبيب صور الأشعة، تحدّث عن تقدّم السن، ما يُحدثه من تبدلات في  
العمود الفقري، نتوءات تضغط على الأعصاب، فتُسبب آلام الظهر.  
رفع الطبيب ملامح متسائلة: كما أرى ... أنت في مرحلة الشباب.  
- رياضتي رفع الأثقال.

هزّ الطبيب رأسه: هذا هو السبب إذن!  
ناقش الطبيب في تسمية المرض: عرق النساء؟  
ألا تعني التسمية اقتصاره على النساء؟  
نطق الطبيب التسمية الصحيحة: النون بالفتحة.  
لما أقبل على الصلاة، لم يمكّنه ظهره من الركوع ولا السجود. بدأ كلوح من الخشب،  
لا يقوى على ثنيه لأية حركة صلاة. امتد الألم، كأنه النار المشتعلة، بلغت أطراف أصابعه.  
أثّر المرض على قدمه. يتأوّه لمجرد ملامسة الأرض. يستعين بمن معه، أو يراهم  
بالقرب منه. يسند راحته على كتفه، يُعيّنه على السير دون أن يطأ الأرض بالقدم الملتهية.  
قال الحاج الطيبين: هناك أطباء مشهورون وأطباء شطار.  
أضاف في لهجة محرّضة: ابحث عن الطبيب الشاطر.

طالبه الطبيب بالأّ يطيل الوقوف على قدميه، فلا تشد عضلات الفخذين والساقين،  
وتهتاج الأعصاب. نصحه بأن يحافظ على صحته بتمرينات المشي، المشي بتمهّل، حتى لا  
تسترخي العضلات، وتتراكم الدهون، ويزيد الوزن.

قال: هل المرض نتيجة عدم الحركة بعد الاعتزال؟  
- لمرضك سبب وحيد، هو تأثير رفع الأثقال على العمود الفقري وأعصاب الساقين.  
- وإمكانية الشفاء؟

- قوية! ... لكنك تحتاج إلى علاج دوائي وطبيعي.  
رأى فيما يرى النائم، مارداً هائل الجثة، كثيف الشعر، له مخالب وأنياب، كذلك  
الذي تدور حكايات راكبي البحر عنه.

التفّ المكان بضباية أخفت تضاريسه، وإن بدا المراد كأنه يهّم بالتهامه.  
همّ محمود فياض بالتراجع، بالفرار من أمام المراد ... لكن الثقل في ساقه ثبّت قدمه  
بالأرض. حاول تحريك الساق، فأخفق.

انحنى المراد.

أدرك فياض أنه يُحيط عنقه بيديه، ليخنقه، لكنه احتواه في صدره، وطار به في الظلمة.

صحا فياض على صراخ استغاثة، لم يدر إن جاء في الحلم، أم أنه صراخ حقيقي؟! عرض عليه الحاج الطيبين أن يصحبه إلى جودة هلال، أو يأتي بالرجل إليه. لا يكاد يلامس موضع الألم بيده، حتى تعود إليه العافية، كأنه لا يُعاني مرضاً ما. تتحرك ساقه، ويقف على قدميه، ويجري كما خيل الملك.

رفض محمود فياض الفكرة. المرض محنة، خص الله علاج الأطباء برفعها. وشرد في الفراغ: الله هو الشافي في كل الأحوال.

كانت البنت الصغيرة تعبر الشارع من الناحية المقابلة.

ارتبكت — بلا سبب — في منتصف المسافة.

انتفض في جلسته. تحامل على نفسه، وجذب الفتاة، رفعها، واحتضنها في صدره.

عرف من الأب، صانع الطرابيش، في الدكان المقابل، أنها ابنته.

ألف عبورَ البنت للشارع. لا تتحرك من حافة الرصيف، قبل أن يطمئن لها، وهو

يقف على الحافة المقابلة، فتجري. يجتذبها إلى صدره. يجلسها على كرسيٍّ مجاور.

يحرص — في جلسته — على أن يحرك ساقيه، يطويهما، ويمدُّهما، في توالٍ، ليزول

الخدر، ويجري الدم في العروق.

هو في حاجة إلى حب هذه البنت الصغيرة، مثلما هي في حاجة إلى حبه.

أحدث ظهورها تغييراً في حياته، يُدرکه في حرصه على القعود أمام دكان الطيبين.

يده تستند على الدرايزين، واليد الأخرى تستند على العصا. يمضي — بخطوات متثاقلة

— إلى الدكان. تغيب، فيستعيد وجهها في خياله. يتأمل الشعر الأسود الناعم، عقصته في

ضفيرتين ملونتين، وألقته على جانبي كتفها، العينين الحوراوين، الأنف الدقيق، الشفتين

الرقیقتين، الفستان الأبيض، المطرز الحواشي بالدانتيل الحمراء.

تلين ملامحه، يشرد في كلام، أخذ ورد، أسئلة وأجوبة.

ملأت البنت عليه حياته. يترك لها نفسه. تُسلي عنه بعض ما يجد في داخله.

لم يعد يتصور أنها تبتعد عنه، أو تُفارقه. تعلق بها بما فاق تصوره هو نفسه،

كأنه — رغم أبوته لأبناء — أبوها، وكأنها ابنته. يلفُّه إحساسٌ بالسعادة عندما تطلب منه

شيئاً ما، أو تقبل ما يعطيه لها.

قال له الحاج الطيبين: أعرف مشاعرك، الأبوة إحساس.

قالت: هل أنت صاحب الدكان؟

- أنا ضيف على الحاج الطيبين.

- ألا تعمل؟

- كنت أعمل، لكن رفع الحديد أتعبني.

- لماذا ترفع الحديد؟

- رياضة.

- مثل الكرة؟

- أوماً برأسه.

قالت: هل الرياضة تؤذي؟

- إذا لم نُحسن أداءها.

- هل ستظل طول العمر بلا عمل؟

- حتى يذهب المرض.

- متى يذهب المرض؟

- بعد أن يُعالجني الأطباء.

قالت البنت: أين كنت؟

طالت أيام بقائه في البيت. لا ينزل إلا للتردد على المستشفى، أو على الأطباء. يتحامل على نفسه. يعود إلى الجلسة التي يحبها أمام دكان الطيبين. دقائق، ثم تصرخ الآلام في ظهره وساقه. يطلب من يساعده في العودة إلى البيت.

أغضبه عمود كتبه عبد اللطيف النشار، طالب فيه بعلاج فياض على نفقة الدولة. وصفه النشار بأنه واحد من العظماء الستة الذين سَطَرُوا تاريخ مصر العالمي والأولمبي بحروف من ذهب: سيد نصير، خضر التوني، أنور مصباح، إبراهيم شمس، إبراهيم مصطفى، ومحمود فياض. قال النشار إنهم ملوك الحديد في العالم. وقال إن الأبطال الأولمبيين السكندريين لهم البصمة الكبرى في تاريخ مصر الرياضي. وقال إن فياض هو آخر الأبطال الأولمبيين الذهبيين.

هل شكوت له؟ هل شكوت لأحد؟

سمع عن الكلمات، وإن لم يقرأها. لم يكن قد سمع باسم الجريدة، واعتذر بائع الصحف في محطة ترام التتويج بأنه لا يعرفها.

قال: هل أذهب إليه حيث يكون لأوْبُخه؟

قال الحاج الطيبين في نبرة تهوين: أراد الرجل الخيرا!

داهمته — في نومه — رؤى وخيالات وأحلام وكوابيس، لا يفهمها، ولا يستطيع تفسيرها. النفق — بلا نهاية — يجتذبه في ظلمته، الفيل الهائل يسقط بجناحيه فوقه، يضغط بقدميه على صدره، كأنه يخنقه، الطيور السوداء تصمُّ أذنيه بصراخها، أذرع الأخطبوط تحيط بجسده، يحاول التملص، يرفع كتفيه ويهبط بهما، لكن الأذرع تُواصل اعتصارها، قطرات الدم المتساقطة على وجهه من السقف، لا يعرف مصدرها، ولا كيف يتقي سخونتها.

ملأه الشعور بالمرارة والخيبة والحنق.

أزمع الرحيل عن بحري، عن الإسكندرية كلها.

روى محمود فياض للحاج محمد الطيبين حلماً رآه في نومه:

وقف على باب الحجرة شيخ نوراني الوجه والتكوين والملابس.

قال: طال مرضك. يجب أن تُشفى.

قال محمود فياض في تذلل: ساعدني!

أخرج الشيخ من سيالة قفطانه مرهماً، غمس فيه إصبعه، ومسح موضع الألم.

لحق الشيخ بالسؤال، وهو يخترق باب الحجرة المغلق: مَنْ شيخي؟

قال الشيخ: أنت لا تزورني في قلعة قايتباي ... لكنني أحبك لحب ولي الله علي تمران.

أدرك محمود فياض أن زائرته هو ولي الله الأنفوشي. ضريحه في القلعة، وضريح علي

تمران في الجامع القريب.

حرَّك ساقه — عند استيقاظه — يطمئن إلى شفاؤها. لفَّه الانبساط عندما انحنى،

ولمس أصابع قدمه. تحرَّكت ساقه بما يثني بقرب الشفاء، وإن ظل في حاجة إلى عصا

يتوكأ عليها.

قال الحاج محمد الطيبين: ثق في بركات الأنفوشي.

وفي لهجة متأثرة: الحالة صعبة، ولن تبرأ في يوم وليلة.

وربت كتفه في ودٍّ: نحن نعيش بفضل بركات أولياء الله.

انظر: أحمد المسيري، الأنفوشي، جودة هلال، خليل الفحام، عبد اللطيف النشار.



## مكية الحريري

ترامى صوتُ ارتطام ما، في داخل حديقة رأس التين. أذهلته عافيتها وهي تهوي بالبلطة على شجرة التين الهائلة.

بدت في حوالي الخامسة والعشرين. خلا وجهها من الزينة، ما عدا الكحل الذي ظلَّت به عينيها. ربطت شعرها الأسود الطويل بربطة شعر ذهبية. ترتدي بلوزة بيضاء من الحرير، يبين من تحتها قميصُ أسود اللون، وجونلة تويد ذات مربعات ملونة صغيرة، ودسَّت قدميها في حذاء ذي سيور مذهبة. سرت في جسده نشوة، لم يشعر بها، ولا جربها من قبل. تمنى أن تطول اللحظة، أو تمضي بلا نهاية.

رمقته بنظرة زاجرة، فابتلع عرض مساعدته لها فيما تفعل. تابعها. تأمل شعرها المصفور وراء كتفيها، تأوَّد جسدها، خطواتها الطفلة، ساقها الملفوفتين العاجيتين، عقبيها الورديتين من خلال سيور الحذاء. قدِم طاهر شومان إلى الموضع نفسه في اليوم التالي، والأيام التالية. يكتفي بالملاحظة والإعجاب في داخله.

فاجأته — ذات ظهر — بالقول وهي تدفع ناحيته بكتلة خشبية: خذ عني! تلفت طاهر حوله كأنما ليتأكد من أنها تقصده بكلامها. كانت الحديقة خالية إلا من طلبة يذاكرون تحت الأشجار البعيدة، الشمس تتوسط السماء. البيوت ذات النوافذ الطويلة، والأسقف العالية، أكلت واجهاتها الرطوبة ومياه الرشح. على الشاطئ نورد دار حول نفسه، ثم مال نحو الموج. التقط سمكة. علا بها في اتجاه الأفق. أعادت القول وهي تلامس كتلة الخشب بصدرة: خذ عني!

لم يدخل بدوي الحريري مع طاهر شومان في تفصيلات مادية. اكتفى بأن اشترط عليه ألا يُهينَ ابنته، ولا يتزوج عليها، ولا تطول مدة ركوبه البحر بما يُحزنها. أثبتت مكية — في عقد زواجها — ألا تُطيعَ زوجها إلا فيما يُقره عقلها وقلبها، وأنها تكون طالقاً في حالة ركوب زوجها البحر، وغيابه في رحلات الصيد أكثر من عشرة أيام متوالية، إلا إذا سبقت التبريرات قدومه، وأن تُعدّ مطلقة إذا اقترن الزوج بأخرى. أذن لها أبوها — المعلم بدوي الحريري — أن تخرج مع أم طاهر إلى منطقة وسط البلد: العطارين والمنشية وسوق راتب وشارع توفيق وشارع شريف والنبي دانيال وغيرها. تشتري ما يحتاجه بيتها قبل الزفاف. دفع لماهر الصاوي فوق المطلوب لإحياء حفل الزفاف. تعاقد مع سيد حلال عليه ليتقدم الموكب في جولته أمام أبي العباس. وجّه الدعوات لأصدقائه ومعارفه داخل بحري وخارجه. تحصّن بالجرأة، فاستأذن في مقابلة أم البحرية.

زايه الحرج بابتسامتها الهادئة: هل هي ابنتك الوحيدة؟

— لي ولدان وثلاث بنات ... مكية هي الصغرى.

أعادت ترديد الاسم: مكية! ... اسم جميل!

ثم وهي تتجه ناحية السلم: إذا لم أكن خارج مصر، فتوقع مشاركتي في حفل زفاف ... ما اسمها؟ مكية ... حفل زفاف مكية.

كان عفريت الخرابة قد رأى مكية في شارع الميدان. تحوّل إلى قط أتاح له أن يتأمل جمالها الذي يفوق ما يملكه الجان والبشر. وضعها في رأسه. تابعها على شاطئ البحر، ومن تحت الأرض.

رأت — في وقفها مع طاهر على الكورنيش — تراقص سمكات فوق الصخور الصغيرة المدبية، أمام شاطئ كليوباترة. رافق هتافها إشارة إلى موضع الصخور. نفى طاهر شومان أنه رأى ما رأيته. الأمواج ترتطم بالصخور، تُغطيها، تتخطاها إلى المصدات الأسمنتية، أسفل الكورنيش. تتصاعد نثارات الرذاذ. يغطي الوجه إحساس البرودة.

أخفى العفريت نفسه إلا عن عينيها، هما اللتان تريانه، وتلحظان متابعته لها، وتحوّر أشكاله بما يُثير اهتمامها.

اعتادت نزول الأنفوشي في الصباح الباكر، ما بين بداية انحسار الظلمة، وبداية طلوع النهار. تغطس — لا تخلع ثوبها — بالقرب من الشاطئ، إلى ما فوق ركبتيها، تُكرر الغطس. تسير خطوات بامتداد الساحل، وتعود. لاحظت تحرك الجوال الملقى على هيكل بلانس في ورش القزق. حدّقت.

تحول الجوال إلى هيئة إنسان، هيئة رجل يرتدي زيّ الصيادين: السروال الملتصق من أسفل الساقين، الفانلة السوداء ذات الرقبة، الصديري المقلّم بأزراره الكثيرة، الطاقية البيضاء.

تحرك في موضعه. كأنه يتثاءب ويتمطى، كأنه يُعد نفسه للصحو من النوم. قبل أن تجري لحقها صوته: لا تخافي! أبطأت خطواتها، والتفتت.

في حوالي الثلاثين. وجهه قمحيّ مستطيل. له عيان سوداوان عميقتا النظرة. بريقهما يُربك من يتطلّع إليه. يرتدي بدلة كحلية، وكرافتة حمراء، ويضع على عينيه نظارة شمسية. يبين في جيب الجاكتة العلوي منديل أحمر، ووضع في إصبعه فصاً من العقيق الأخضر، وتدلت من ساعده ساعة ذهبية، وأمسك بإصبعيه مبسم سيجارة. شيء ما في عينيه، أخافها. حولت نظرتها إلى الناحية المقابلة، تحاول مداراة ارتباكها. أسقط اليأس.

تمنى أن تمنحه نظرة في متابعته لها. لو أنها قذفته بكلمة قارصة، أو عبارة ساخرة، أو غمزة استهزاء.

ظل يلاحقها، حيث يتاح له الحركة بعيداً عن البيت المهجور. ارتدت ملاءة أمها. أسدلت البرقع على وجهها، كي لا يُفلح في تعقبها. تشمّم رائحتها، ففطن إلى ما فعلت. شكّل نفسه في الهيئة التي رأتها فيه، وظل يتابعها.

— من أنت؟

— أعرفك ولا تعرفيني ... أنا من بحري.

في لهفة الخوف: ابن من؟ بيت من؟ من أنت؟

— مكية بنت شيخ الصيادين بدوي الحريري.

ثم في لهجة متوسلة: أحبك. أطلب موافقتك على زواجي بك.

اكتفت بتكرار السؤال: من أنت؟ من أنت؟

اتجهت بنظرها إلى الطريقِ وصفَّ البيوتِ المقابلة.  
لما تشمَّ رائحتها. امتدَّت يداها دون أن تلاحظ مكية، ولا طاهر الذي يرافقها. صرخت  
مكية بأخر ما عندها، وهي تهبط في هوة الابتلاع. اجتذبتها العفريت إلى داخل الأرض،  
وأعاد سدَّ فجوة الطريق.

ما أثار القلق — وربما الخوف — في النفوس، أن مكية اختطفت في عز النهار. لم  
تجد الفرصة للاستغاثة بطاهر شومان إلى جانبها، ولا بالمارة وراكبي السيارات والواقفين  
أمام البيوت وداخل المحال. كأن الأرض اجتذبتَّها، ابتلعتها.

رفض خليل الفحم تصديق أن عروس البحر اختطفت مكية. حياة عروس البحر  
في قلب الأمواج، لا تتركها إلى ما بعد الشاطئ. لا روايات عن عرائس بحر اختطفن  
النساء. ما يُروى عن تسلل عروس البحر من بقايا بنايات الإسكندرية القديمة يصعب  
تصوره. حتى نسبة خطف مكية لسلطان البحار، تؤكد الكتب القديمة أن مخلوقات البحر  
منها الأسماك الهائلة والحيتان والدلافين والجان، والمردة، وعرائس البحر بوجوه البشر،  
وأجساد الدلافين. لا حديث عن سلطان للبحر.

رجَّح الرجل أن الموضوع من بقايا الإسكندرية القديمة في شارع النبي دانيال قد  
انهار. شكَّل فجوة واسعة، احتضنت المرأة، ابتلعتها، ثم التأمَت الفجوة. تماماً، كما يحدث  
في تشققات الأرض بفعل الزلازل والبراكين.

رَوَت نعمات أنها شاهدت حميدو شومة يقتحم الفتاة بكلمات غزل، في أول الطريق  
إلى الموازيني، وأن الفتاة تأبَّت عليه، ومالت ناحية شارع ابن وكيع. نفى جودة هلال أن  
يكون حميدو شومة وراء خطف مكية.

قال: حميدو شومة فتوة. أما الآخرون فبلطجية!

قال خليفة كاسب: ما الفرق؟

— الفتوة يدافع عن الغلابة. البلطجي يبتزُّهم!

روى ما شاهده بنفسه: طرد أحد صبيانه لأنه تعرَّض لامرأة في الحجاري. ما كان  
الرجل ليفعل ذلك لولا انتسابه إلى حميدو.

أكد عمران الخولي — نقلاً عن خادم في قصر رأس التين — أن مكية الحريري صارت  
واحدةً من النساء اللاتي يستمتع بهن الملك فاروق. رآها من سيارته، وأعطى أوصافها.  
توصَّل إليها رجال حمدي درويش، ودبروا حادثَّة اختفائها.

ثمة من رآها — مكية — تسبح في المينا الشرقية. هي مكية بنت المعلم بدوي الحريري. تحوّل شعرها إلى زعانف، وأنفها الصغير إلى خيشوم سمكة، وغاب البريق في العينين، فصارتا كعيني السمكة.

قالت سيسبان — كودية الزار — إن البنت لم تُفاجئها الجذبة المختطفة. رآها عفريت الخرابة منذ سنوات، فاستهوته.

تشكّكت في رجل يقف على ناصية شارع سراي محسن باشا. جاوَزته بخطوات مهولة. فاجأها الرجل بالوقوف على باب بيت، على بُعد أمتار. جرّت بالخوف. تَلَفَّت وراءها، ثم واصلت طريقها.

وهي تميل إلى شارع الكناني، طالعها الرجل متربّعًا على السور المحيط بأطلال مدرسة البوصيري الأولية.

أدركت أن الرجل ليس من البشر — هو عفريت أو جني — لعله عفريت الخرابة الذي تتناوله الحكايات.

تحوّل العفريت في أكثر من هيئة، حتى راق لها في صورة الشاب الوسيم. استجابت — بعد طول ممانعة — لمغازلته. تواعداً على الزواج. فاجأهما إصرارُ أهلها على تزويجه بمن لا تحبه. بدا اختطافها وسيلةً وحيدة لاجتذابها إلى عالمه.

قال بدوي الحريري: من يُغيبه البحر نقف على الشاطئ نترقب عودته.

ثم وهو يرسم التصعّب على ملامحه: ماذا نفعل لترقب الغائب في البر؟!

تقافزت الأسئلة: أين اختفت مكية؟ هل اختطفها أهل العوالم السفلية؟ هل ابتلعها بقايا المدينة القديمة؟ هل قُتلت في ظروف قاسية، وألقيت في البحر، طعامًا للأسماك؟.

أبدى جودة هلال توجّسه من أن يكون رجال الملك هم الذين خطفوا مكية. أودعوها — ضمن مئات المحظيات — داخل أسوار القصر.

قال بدوي الحريري: أن يختطفها الجن أفضل عندي من أن يسجنها فاروق في قصره.

وشرد في الفراغ: لا حيلة لنا أمام الجن ... أما الملك.

ثم وهو يُظهر التأثر: يقال إنه يقتل المخطوفة بعد أن يؤذي عفتها.

جاءه في المنام رجلٌ شحبت ملامحه، فلم يستطع تبيّنّها تمامًا. طمأنه بأن مكية لم تغرق في البحر، ولا تحت الأرض. قال إنها لا تنعى في حياتها — حيث تُقيم — همًّا. وقال

إن أباهما إذا لم يكن يراها في موضع اختفائها، فإنها تراه في الموضع نفسه، وتطمئن عليه. زيارته للحريري لكي يطمئن هو أيضًا على ابنته.

حين أدرك اليأس بدوي الحريري من عودة مكة، اعتبرها كأنها لم تكن، كأنه لم يُنجبها، ولا عاشت في حياته. تعرّض بكلمات الشيخ جميل أبو نار المواسية. ما يعطيه لنا الله من حقه أن يستردّه، لا اعتراض على مشيئته.

قال الشيخ: كل حي يموت، ما عدا بركات أولياء الله، فإنها متجددة. يظل طيف مكة يُطالعه — في فترات متباعدة: عبارة، تلويحة يد، سؤال، إيماء، يُعاني التأثير ساعات، أو أيامًا، ثم يعود إلى مألوف حياته. يُعزّي نفسه بأن ما تعرّضت له مكة قدرٌ من الله، امتحان منه، عليه أن يتحمّله بصبر المؤمن المبتلى. أظهرت سيسبان إشفاقها على مصير مكة الحريري. فاجأها الشاب الوسيم بانتسابه إلى عالم الجن. لن تعود إلى دنيا البشر بدون زار يُخلّصها من العفريت ودنيا الجن. كان العفريت قد وعدها بإعادتها إلى طاهر شومان. هو ليس الشاب الوسيم الذي استهوها. طالبتها بالانتظار حتى يُعيدها بهدايا، تساعد في زواجها من طاهر. ما لم تفتن إليه كودية الزار أن طعنة الموت فاجأت عفريت الخرابة في لحظة تحوّلها إلى هيئة إنسان.

مات في صورة البشر — وإن ظل جنياً — قبل أن يحمّلها الهدايا، ويُعيدها إلى ذويها. ظلت مكة في العالم السفلي.

انظر: بدوي الحريري، حمدي درويش، حميدو شومة، خليل الفحام، سيسبان، عفريت الخرابة، فاروق الأول.

## نجم أبو العيش

كان أول ظهور نجم أبو العيش في قلب الميدان الصغير، بين قضبان الترام المتجه إلى بحري، وإلى ميدان التحرير. بدا هزياً، ومصفرَّ الوجه. في حوالي الخامسة والثلاثين، بشرته لَوَّحتها الشمس. عيناه قلقتان لا تكادان تستقران على شيء. يداه طويلتان بما لا يتناسب مع ضآلة جسده. يُكثر من الحركات والإيماءات والتعبير بلامح الوجه واليدين، وتفاحة آدم تصعد وتهبط في رقبته النحيلة. يضع على صدره صديريَّة من الخيش، قصَّ طرفيها تحت الكتفين، فبدت مثل الفوطة. وغطَّى أسفل جسده بما يُشبه الوزار الذي يرتديه الهنود. وكانت قدماه حافيتين.

بدا منفردًا وسط الزحام.

الترام والسيارات والدراجات والكارو والحنطور وعربات اليد والمارة. على الجوانب الأربعة مبنى المحكمة، تحيط به الأسوار الحديدية. الدرجات الرخامية تُفضي إلى تمثال الجندي المجهول. من الناحية المقابلة المبنى القديم فوق المقهى الذي احتل — بأبوابه المفتوحة — زاوية الميدان. يفصل بينها وصفُّ بنايات الممتدة إلى ميدان محمد علي، وبين جامعة سنجور ذات الزجاج الفيومي، حديقة مستطيلة، تتناثر فيها الكبائن الخشبية، من تحتها مقاعد تتجه إلى الجهات الأربع.

كان يتجه بذراعين مفتوحتين ناحية المحكمة، كأنه يريد احتضانها. ربما اتجه بنظرة جانبية إلى تمثال الجندي المجهول، خلَّت ساحته الرخامية إلا من الجنديين اللذين حملتا السلاح على كتفيهما، وراحا يتباعدان ويتقاربان في خطوات رتيبة. كأنه يُدير حركة المرور في هذه الرقعة الصغيرة من ميدان المنشية.

تابع الناس إشاراته وعباراته التي لا تحمل معنىً محددًا. كأنه تقمص مشاعر شرطي المرور، في وقفته وسط مفترق الطرق.

من أين جاء؟ هل هو من الإسكندرية، أو من خارجها؟ وإلى أين يتجه بعد أن يُنهي وقفته الطويلة؟

شيخ الحارة شوقي أبو سليمان قال إنه يعرفه.  
اسمه نجم أبو العيش. من شارع الكواكبي، المفضي إلى السيالة.  
وعت مداركه على الخوف من الماء. يُضايقه سقوط المطر، يُثيره. يمنعه من السير، أو حتى مجرد الوقوف في الطريق. تضغط أمه عليه لكي يدخل الحمام. تضع أذُنُها على الباب المغلق، تتأكد من صوت اندلاق الماء من الدش. يفتح الدش بالفعل. لا يقف تحته، وإنما يكتفي بمد أطراف أصابعه. يجري بالبلل على وجهه وشعر رأسه. تُدرك أمه — من المساحات التي لم يبلغها الماء في رأسه ووجهه وذراعيه وساقيه — أن كراهيته للماء عقدة في حياته لا تعرف أسبابها. يُطيل الوقوف تحت تندات الكازينوهات والداكاكين، أو في مداخل البيوت، حتى تصمت الأمطار تمامًا. يقف على شاطئ البحر، ولا يحاول النزول في مياهه. لم يُعد يستحم أو يغتسل، أو يمد يديه في الماء لأي سبب. تحوّل الأمر إلى ما يُشبه العداء بينه وبين الماء. يرفض أن يضعه على جسده. أهمل نظافته تمامًا، وأهمل ملابسه، وأهمل حلاقة شعره. اكتفى بجلابية النوم المقلّمة، تهرّت، وغاب لونها. طال شعر رأسه، وذقنه، وأظافره. اصطبغ كل ما فيه بلون التراب.  
مات أبوه وأمه.

رفضت أخته أن يُقيم معها لأنه لا يستحم، لا يريد أن يستحم. يُغلق باب الحمام. يظل في داخله وقتًا طويلًا. صوت انسياب الماء يتناهى عبر الباب المغلق. تتصور أخته أنه يقف تحت الدش، لكنه يكتفي بمسح رأسه ووجهه بالماء، لتتصور أنه يستحم.  
تملّكه عناد، فهو لا يغيّر ملابسه، ولا يأكل مما تطبخه أخته، ولا يدخل الحمام.  
نزل إلى الطريق. يتجول في الشوارع بلا هدف في البداية، ثم تخلّق المعنى بطرح الأسئلة عن المارة والسيارات والزعيق والصراخ والنداءات.  
قرر عدم العودة إلى البيت. ينام في المساجد، وفي الحدائق، ولصق الجدران، وعلى الأرصفة.

ألف الشوارع والمارة والسيارات واللافتات وأعمدة النور والأشجار وإشارات المرور، والمطلين من الشرفات والنوافذ، والواقفين على الأرصفة، والجالسين على المقاهي.  
لم يكن يلتفت إلى ما حوله.

يعبر الطريق إلى الرصيف الثاني. نظراته تتجه إلى الأمام. لا يعطي انتباهه لما حوله من زحام وصياح ونداءات. لا يشغله انطلاق السيارات. يعبر المسافة بين رصيفي الشارع



في بطء متعمد، لا يلتفت، ولا يبدو عليه ارتباك لسرعة سيارة مقتربة، أو لصيحة مار تحذره من السير وسط الطريق.

يدور في الشوارع. يعلو صوته — وسط الزحام — بالنداءات والتحذيرات والشتائم. لا يلتفت إلى النظرات المصوبة نحوه.

بدا على ملامحه اهتمام حقيقي، وحرص على المتابعة. شغله ما يحدث: لماذا تنظيم المرور؟ ولماذا يتكرر؟ وهل ينبغي أن يقتصر على العساكر المتناثرين في ميادين بحري، والميادين القريبة؟ أو أنهم ينظمون المرور في ميادين أخرى، بعيدة؟ رفض أن يدعى العاهة، أو يمدّ يده بالتسول. حتى الأيدي التي امتدت إليه — بظن التسول — ردّها في غضب.

عرف أن الطريق هو مجال حرّيته. هو الإطار الذي يتحرك فيه بحرية. يرفض كل القواعد والقوانين، يكره الأسوار، والإشارات الحمراء والصفراء والخضراء. القواعد تسرق إرادته، حرّيته. يرفض يد الشرطي التي تسمح بالمرور أو تمنعه، ويرفض النظر إلى ما قد يمثل قيّدًا على تأملاته وأفكاره.

ما أيسر أن تنتهك القانون وأنت خلف عجلة القيادة. تُغافل الشرطي، فتتخطى الإشارة، أو تجري بأكثر من المسموح، أو تقف في الممنوع.

لم يعد يكتفي بالوقوف، وتحريك يديه ليسمح بالمرور ويمنعه. حرص أن يحدق في وجوه المارة، وفي الجالسين داخل السيارات، كأنه يبحث عن شيء محدد، أو ملامح محددة. لا يأبه بالنظرات المتطلعة، والمتسائلة، من الواقفين على الأرصفة، وعلى أبواب الدكاكين، والمطلين من النوافذ، لا يأبه حتى بالتعليقات المتناثرة.

إذا بدا سيره في الشوارع بلا هدف، فهو ليس كذلك. هدفه التنظيم، وإعادة كل شيء إلى ما كان عليه، إلى حاله. يحذّر من الفوضى والزحام بلا سبب، وعدم الفهم.

حين يختار قائد السيارة كسر قواعد المرور، فقد اختار الفوضى، والفوضى تستحق المؤاخظة. إذا تسببت الفوضى في القتل فهي جريمة إن فانتت عن البشر، فلن تُفلتها السماء. تبدّلت أحواله تمامًا.

لم يعد يهتم بأمر نفسه، ولا بما حوله. يجوس الشوارع بلا معنى مفهوم. لا يُعير ما حوله التفاتة، ولا يعبأ بالنظرات المتسائلة، أو المندهشة.

يغيظه أن سائقي السيارات يتجاهلون الإشارات الضوئية، وإشارات شرطي المرور. يتصرفون كما يحلو لهم. يتخطون مفرق الطريق قبل أن يُضيء اللون الأخضر. فوضى مرورية صاخبة، خانقة.

انصرف إلى دنياه الجديدة، فلا يعود إلى وقفته في الميدان. لم يستبدل ثيابه وهو يشير إلى السيارات بالوقوف والحركة. المطلوب ليس مجرد التنبُّه لإشارات المرور، واتباع قوانينه، وإنما التنبُّه إلى السائقين الذين يتجاهلون الإشارات. أنت تحترم قواعد المرور، لكنَّ الآخرين يُهملونها، يخترقونها. يتركون للآخرين أن يتنبَّهوا لأخطائهم، يتفادون تلك الأخطاء. ينتقلون — ببساطة — من حارة مرورية إلى أخرى، يحولون — بالوقفة الخطأ — دون انطلاق السيارة الواقفة لصف الرصيف.

قال: الحرية يجب أن تصبح مثل الإسكندرية ... لكل الناس!  
قال عم رفاعي غلاب خادم أبي العباس إنه يقسّم وقته بين مواعيد الصلاة، يؤديها في الجامع، وبين الوقوف في الميدان بقية اليوم. ينظّم — افترّ فمُ الخادم عن ابتسامه فاهمة — حركة المرور. إذا صلى العشاء هبط الدرجات المفضية إلى شارع السيادة، فتبتلعه الظلمة.

ظل على تنقل وقفته في مفترق الشوارع سنوات طويلة. يستطيع أن يفرّق بين قيادة سائق وآخر. السائق المتهور يلمحه من بعيد. يصعب أن يحدد مدى سرعته، لكن ملامحه، وطريقة الإمساك بعجلة القيادة، وتلفّت نظراته ... ذلك كله يدفع نجم أبو العيش إلى ترك المرور مناسباً من ناحيته، حتى لا تحدث كارثة.

تعدّد وجوده في أكثر من مكان، في وقت واحد.  
يخترق زحام الشوارع والأرصفة، والنظرات المتسائلة. يغيظه السير العكسي، وكسر الإشارة الحمراء، والوقوف في أماكن عبور المشاة، واستخدام آلة التنبيه بلا سبب. يغيظه حتى مخالفة المشاة لقواعد المرور.

لم يعد الأمر — في رأيه — زحاماً. خرج كلُّ شيء عن حدود المألوف. أثاره وقوف السيارات في الشوارع، وعلى الأرصفة، والوقوف في الممنوع، والوقوف صف ثان. لا يوجد موضع بلا سيارات، تلاصقت فلا تترك انفراجةً ينفذ منها المارة، وتلغي السير والوقوف والعبور إلى الرصيف المواجه والفرجة والتأمل. اختفت الشوارع والأرصفة. بدت البيوت معلقة في الهواء. الناس في فوضى. لا بد من إعادة النظر، والتنظيم.

أثاره توقّف حركة المرور أمام سيارة إسعاف، علّت سرينتها، دون أن يُتاح لها مواصلة السير.

صاح، صرخ، أشار إلى المارة وسائقي السيارات. لكز شَرطيّ المرور بقبضته، لينبّهه إلى ما ينبغي عمله.

ردَّ الشرطيُّ بلكمة أسالت الدم من أنفه. أمضى ما تبقي من النهار، والليل بطوله، داخل تخشبية قسم المنشية.

اقتيد — ثانيةً — إلى القسم لأنه شوّه ملصقًا في الناصية بين شارع محمد كريم وميدان المنشية.

هذه الملصقات الضخمة، بها نساء جميلات وبضائع جميلة. إنها تتجه نحو قائدي السيارات. واضعو الملصقات يحاولون اجتذاب السائقين، لا يشغلهم أن النظر إليها يعني إهمال النظر إلى الطريق، وارتكاب الأخطاء.

اجتذب المشهد خليل الفحام.

في المدينة آخرون، في مفارق طرق أخرى. الرجل — كما يرى — جزء من ظاهرة تنتقل بين ميادين الإسكندرية.

ألقي السلام.

اكتفى بنظرة متسائلة، وظل ساكتًا.

قال لمجرد أن يتحدث إليه: وظيفتك متعبة!

هزَّ رأسه بالنفي: لا وظيفة لي!

— ألا تُنظم المرور؟

— أنظّمه من نفسي.

عاود القول: لا وظيفة لي!

عرف أن الرجل أوكل إلى نفسه مهمة إرشاد المارة إلى مكان عبور المشاة.

حمل نجم أبو العيش — ذات صباح — قلمًا ودفترًا صغيرًا، وانشغل في تسجيل أرقام السيارات.

سأله خليل الفحام: لماذا؟

— يخالفون المرور.

— هذه مهمة رجل المرور.

— أفعل ما يُمليه ضميري.

شتمه شرطيُّ المرور. لكمه في صدره.

ما فعله أنه عرض على الشرطي أن يجلس على المقهى القريب. يشرب كوب شاي، أو فنجان قهوة. وجد الشرطي في العرض ما يستحق الشتم والضرب. أضاف تهديده بالأبصار — ثانيةً — في مفرق الطريق.

قال الفحام: تصرف بلا معنى.

— لا يهم. أفعل ما أراه صوابًا!

قال إنه يودع أرقام السيارات المخالفة صناديق نذور الأولياء، يحاسبون المخطئ، إن لم يكن في الدنيا، ففي السماء.

بدا شارع الفلكي ضيقًا بامتداد صفوف السيارات المتلاصقة، إلا من مساحة تكفي بالكاد لعبور سيارة واحدة.

أزمع أن يصبح الشارعُ كلهً للمارة، السير فيه لهم وحدهم، لا تمشي فيه المركبات من أي نوع.

أذهله أن السيارات في صفية زغلول تسير في اتجاه واحد. بالكاد يكفي الشارع لاتجاه واحد. مَنْ أراد التجاوز، واجه سيارات الاتجاه المضاد. تباطأت الحركة، حتى توقفت تمامًا.

حتى لا يعوقه الزحام، أو إشارات المرور، قرر أن ينتقل بين الشرفات والأسطح. لا يطير فهو لا يملك كرامات الأولياء. ينتقل — بحرص — بين شرفة وأخرى. يتسلق عمودًا، أو ماسورة مياه، أو ماسورة صرف صحي، لتعينه على التنقل.

خلع حذاه — دسه في إبطه — قفز إلى سيارة واقفة. واصل القفز فوق صف السيارات على جانب الطريق. أهمل النظرات المتابعة، المتسائلة والمندهشة. هبط في ناصية التقاء شارعَي سعد زغلول والفلكي.

لما ظل الشارع على زحامه، طالع حركة المرور في شرفة الطابق الأول من البناية رقم ٢ على ناصيتي صفية زغلول والنبي دانيال، فاجأ الجميع بصعوده إلى الشرفة. مال — بأعلى كتفه — يحذر من الزحام بلا سبب، ويلوِّح بيديه أمام السيارات القادمة من صفية زغلول. يُطالبها بالبطء، أو التوقف، فتسهل الحركة.

تقاطعت الشوارع في ذهنه. سيطرت على تفكيره، لا تتركه. الذهن كأنه مفترق طرق تشقّه عشرات الشوارع. الشوارع نفسها التي تشقُّ الإسكندرية.

لم تُعد الشوارع تُطاق. الزحام يخنق. الأشجار — على جانبي الطريق — أجساد مجتثة الرءوس، الشوارع كالعروق التي تحمل دمًا فاسدًا.

أسند كَفَّيه على البنايات المتقابلة بعرض الشارع. يجد لذةً في دفع السيارات الواقفة إلى جانب الرصيف، من الأمام ومن الخلف.  
واصل الضغط بآخر قوته لتتباعد البنايات، ويتسع الشارع. يتبدل عمًا كان عليه من ضيق، مثلما هو الحال في معظم شوارع الإسكندرية.  
قفز فوق بولدوز أمام سينما ركس. ضمن أعمال سفلتة الأرض في الميدان الصغير. أدار المفتاح، وضغط على الدواسة، وانطلق.  
أطاح بكل ما أمامه.  
تمنى — ليقلاً الزحام — أن تنكمش البنايات، وتتسع مساحات الشوارع. أزال السيارات، والبضائع فوق الأرصفة، وأعمدة الإنارة والتليفون.

لم يسأل خليل الفحام عن الرجل، وإن حدس — من النظرات التي اتجه بها الجرسون مشالي ناحيته — أن لديه ما يقوله.

قال لنظرة الفحام القلقة، المتسائلة: نجم أبو العيش.

— ما له.

— مات.

— لماذا؟

تنبّه لخطأ السؤال: كيف؟

— صدمته سيارة.

ووشى صوته بتأثر: صدم نفسه في سيارة.

— انتحر؟!

هزّ رأسه دلالة التأكيد:

شاهد مشالي ما حدث منذ بدايته.

كانت حركة المرور في صورتها الطبيعية. الصخب وزحام الناس والعربات والسيارات. وقف في قلب الميدان، يرفع يديه ويخفضهما، يتحول بجسده ناحية السيارات التي يأذن بمرورها. لا يلتفت إلى عسكري المرور، ولا النظرات التي لم يسبق لها التعرف إليه، ولا إهمال معظم السائقين إشارات.

بدا من انطلاق السيارة بميل، أنه تجاوز وقفته.

في لحظة أعد نفسه لها من قبل، اندفع — دون توقع — إلى نهر الشارع. عجز عن التراجع، أو مواصلة التقدم نحو الرصيف المقابل، أو حتى الصراخ بالاستغاثة.

مال بانحناءة نحو السيارة المندفعة. صرَّت العجلات في محاولة إيقاف السيارة. امتزج الاندفاع المتباطئ بتحذيرات المارة وصياحهم. دفعته السيارة تحتها. سارت به حتى توقفت.

لم يتأوّه، ولم يصرخ. ليس ثمة إلا صوت فرملة السيارة، وارتطامها بجسده. آخر رؤية مشالي له، كان يقف وسط الميدان.

بدت حركاته غير مفهومة. وعيناه زائغتين، ولا يلتفت إلى حركة الطريق. أطلقت السيارات أبواقها تستحثه على ترك موضعه في الميدان. تداخلت الدراجات والموتوسيكلات والسيارات الملاكي والتاكسي وعربات النقل والحنطور واليد وأصوات الراديوهات والكلاكسات والنداءات والصيحات والشتائم.

مسح ما حوله بنظرة شاردة، دون أن يتحرك.

قال مشالي: أنت تقف وسط الشارع.

رفع كتفيه: هذا شارع الحكومة!

أدرك مشالي حزنَ نجم أبو العيش لأنه فقد سلطته على الشارع. لم يعد المارة ولا السائقون يلتفتون إليه، ولا إلى محاولاته لتنظيم المرور. واجه الصفعات، والارتطام بمقدمة السيارات التي تُهدئ من سرعتها — فجأةً — كي تتفاداه. علّت تحذيراته مصحوبة بشتائم للزحام والكلاكسات والأصوات المرتفعة.

انظر: خليل الفحام، شوقي أبو سليمان.

## نعمات

توشوش المرأة القوقع، وتُعيده إلى نعمات.  
تقذف به نعمات على الرمال كما يُقذف نرد الطاولة. تُتمتم بكلمات مدغمة، كأنها  
تتلو آياتٍ من القرآن، أو تدعو، أو تبتهل.  
يثق الناس في قدرتها على ضرب الرمل، والمندل، وضرب الودع، وطرق الحصى،  
وقراءة الطالع في النجوم، وفنجان القهوة، والكف، وقراءة أوراق الكوتشينة وكف اليد.  
قدرة التنبؤ بالغيب تمكّن صاحبها من التعرف على الأحداث التي لا يراها أحد، سواء  
في الزمان أو في المكان.

تكشف الأسرار والخفايا، وتقرأ الأفكار. تُضيف بغمزات العين وتعبيرات اليدين  
وتأوّد البدن إلى إقناع محدّثها بأنها تُجيد قراءة الفنجان والكف والودع. تستطيع منها  
أن تتنبأ بحظوظ الناس، والمصير الذي قُدّر لهم. تُطيل التحديق في قاع الفنجان، وفي  
بقايا القهوة على حافظته. تتحدث عن أخبار الغيب وقراءة المستقبل. حياة الإنسان، ماضيه  
وحاضره ومستقبله، على راحة يده.

قد تسكت عن كشف الغيب إن اتصل بالماضي، تتنبأ بالمستقبل وحده. الخطوط  
والتعرجات تَنبئ بما يدفع المرء إلى إعادة التفكير فيما جرى، وما يتوقعه. قد تُعيد بعض  
التعبيرات التي اعتادت قولها لكل مَنْ يلجأ إلى نبوءاتها: قدامك سكة سفر، احذر عدوّاً  
قريباً، الثلاثاء يوم سعد.

ربما ألقت تنبؤاتها في صورة ألغاز تطلب الحل: حاذر من السمك الرعاش، فلدغته  
قاتلة. يأوي الشيخ الكبير إلى بيته الساكن قبل أن ينتهي العام. لن تجد الترسة مَنْ يأكل  
لحمها. لا خوف من سحب الصيف. السماء الصافية تُغيم ويهطل المطر. ليس نزول  
المطر شرّاً كله. كومة الحطب تحتها رماد يُشعل النيران في موعدها. نصيحتي للنملة أن  
تخزّن الحَبَّ في بيتها.

تُحسن التعرف — من خلال نظرتها المتأملّة — على ما قد تُخفيه النفس، ولا تُعلنه. نُسب إليها قدرة على التنبؤ بجنس الجنين، وموت الأهل والمعارف، والأحداث المتوقعة. عرف الناس منها بعضَ أحوال ماضيهم، وبعض تنبؤات مستقبلهم. اعتقد الكثير من أهل بحري في صدق روايتها لأحداث الماضي، وتنبؤاتها في وقائع كثيرة. تُضيف نعمات إلى قولها «أبين زين»، عبارة «أدق وأطاهر». لا يحتاج ختان الأنثى إلا موسى وحفنة بُن ولفة شاش. تُفسح المرأة — من نساء البيت — ما بين ساقَي البنت. مرات قليلة، أبدت عجزها أمام استمرار النزيف. تركت للحاج جودة هلال إنقاذ البنت.

العجر — في معجم أوكسفورد للغة الإنجليزية — من أصول هندية. ظهورها — لأول مرة — في بداية القرن السادس عشر في إنجلترا. وكان يظن أنهم قَدِموا من مصر. ووصف المعجم بشرتهم بأنها داكنة، مُشربة بصفرة، وشعر أسود. يُطلق الرجال لحاهم وشواربهم. حتى شعر الرأس قد يكتفون بتصفيره في كعكة أشبه بما تفعله النساء. نساءهم يدلون الأقراط المستديرة من آذانهم. أهم أشغالهم الحدادة، وتبييض النحاس، وإصلاح الكوالين، وصناعة المفاتيح والأحذية والسلال والغرابيل والأقفاص، ودق حوافر الخيل، وكبي البهائم، والختان، ودق الوشم، والحلاقة تحت الأشجار، وعلى الجسور، وداخل البيوت. ربما ارتزقوا من تجارة الخيل — يسرقونها — ورواية الحكايات المسلية. يمارسون السحر، وفتح المندل، وقراءة الكف والودع والفنجان، وضرب الرمل، ويجعلون من شعر الحيوان تعاويذ لعلاج الأمراض، ودرء الحسد، ومغالبة النحس. عُرفوا بأعمال الحواة والشعوذة وترويض الحيوان.

أصدرت الحكومة البريطانية قانوناً للطرق العامة في ١٩٥٩م، حدّد العجر بأنهم أشخاص اعتادوا حياة الترحال، أيّاً كان عرقهم أو أصلهم، سواء تنقلوا في الشوارع والأسواق، أو عملوا في السيرك. ثم حذف القانون الإنجليزي عبارة «عجري» من قانون الطرق العامة، لأنها صفة عنصرية.

ألغى القانون تسمية العجري، لكن التسمية ظلت قائمة. اشتهروا بخفة اليد، وأعمال «الهبامة». رُوِيَ أنهم يسرقون كلّ ما تصل إليه أيديهم: الطعام، المال، الأشياء المنزلية، النفائس الصغيرة. ورُوِيَ أنهم يبيعون أولادهم، ويستبدلونهم، ويمارسون طقوس الجنس الجماعي، ولا يؤدون شعائر الدين.



من الصعب أن نَسِمَ نعمات زيدان — رحمة الله — وفق ما ذكرته المراجع المختلفة، بأنها عجرية، أو تنتسب إلى فئات العجر. هي لا تعرف اللغة الخاصة، السيم الذي يتكلم بمفرداته العجر، وبَشَرَتها أميل إلى البياض، وعيناها بلون الخضرة، وشعرها أصفر ناعم ينسدل إلى ما بعد الكتفين.

لعل تسمية العجرية لأنها عاشت طفولتها في صحراء المكس، اقتصر عملُ أبيها على بيع المخدرات، أمضت أمها معه أقل من ثلاث سنوات، ثم فرّت مع عشيق لها. ظلت نعمات معظم سِنِي طفولتها في خيمة بأطراف الصحراء، تنقّلت بين المدن في عربات نقل، حملت ما تسلّمته من أبيها إلى المشترين، رحلت — وعادت — مع أسرتها — فرارًا من مطاردة البوليس — إلى العديد من المدن.

ضاقت بإهمال الأب، ومعاملة زوجاته. ثلاث منهن طُلّقن، فلم يُعد مع الأب سوى زوجة واحدة، وأبناء كثيرين.

لم تتحدث عن أهلها: من أين؟ ... عاداتهم وتقاليدهم، ونظرتهم إلى أهل الإسكندرية، وإن عزلوا أنفسهم عن بقية أحياء المدينة، وجعلتهم في موضع الشك كثرة الأسفار والترحال، وما يدينون به من عادات وتقاليد.

للشعر أوطانهم التي يعيشون فيها، وينتمون إليها. للطيور أعشاشها، للسباع والذئبة عرائنها، للذئب أوجارها، للثعالب مأويها، للفران جورها، للزواحف شقوقها. لكل الحيوانات والطيور ومخلوقات البحر أوطانها. وطن النبات هو الأرض التي ينمو فيها. لم يشغل أهل نعمات تسمية الوطن، ولا تأملوا معناها. الأرض باتساعها هي الوطن، دون انتماء إلى موضع بالذات. الترحال يُلقى وراءه بالتسمية والمعنى والحنين والانتماء. الصلة بينهم وبين مساحة الأرض التي يعيشون فيها، يستوطنونها، لفترات تقصر أو تطول. لا شأن لهم بالبحر، ولا الشوارع، ولا المساجد، ولا البيوت. الخيمة — حيث تدق أوتادها — هي الوطن حتى يأتي أوان الرحيل. يفكُّ الخيمة، يرتحل من الموضع الذي أقامها فيه إلى موضع آخر. تظل هي وطنه.

يرتحلون دائمًا، يتنقلون باستمرار، يلتمسون المأوى، والأعمال التي تُعينهم على ظروف الحياة. حتى مولدهم، ووفاتهم، يجري في أثناء الترحال. تختلط أماكن الميلاد، ولا يعينهم أين يموتون، ولا الأرض التي تضمُّ أجسادهم.

اللحظة وحدها تشغلهم، لا صلة لها بما قبل ولا بعد. يعيشون يومًا بيوم، لا علاقات جيرة، ولا صداقة، ولا انتماء خارج الجماعة. لا عقود زواج، ولا قسائم طلاق، ولا حتى مأذون يتم — على يديه — الزواج والطلاق.

يمارسون عزف الموسيقى، والغناء، والرقص، وعلم الفراسة، وقراءة الطالع، والختان، وصنع السلال، والضرب على الطبول والدفوف، وألعاب الحواة، والاحتيال، والتسوّل ونقل الشائعات. فهمهم للشرف ضبابي، أو غائب. حتى طقوس الدين لا يؤدونها، لا يعرفونها. تحدّثت روايات عن عصابات من العجر، تنزل — متسلّلة، أو مقتحمةً — إلى أحياء الإسكندرية. يمارسون العنف، يسرقون، يدخلون في معارك مع فتوات الأحياء، يدخلون أماكن إقامتهم إلى أماكن أخرى، تحسّباً لردود الأفعال.

دارت — وهي صغيرة — مع ابن عم لها، في الشوارع والميادين، وعلى المقاهي. تُمسك بجلبابه، ويمسك بيديه مقود قرد، وطار، ينقر عليه ليجتذب اهتمام الوقوف والمارة. كانت تصنع من الأصداف والقواقع عقوداً وأساورَ وأقراطاً ومشابك، تبيعها للنسوة الجالسات على أبواب البيوت.

أدركت جمال جسدها وملامحها، من النظرات، وعبارات الإعجاب، والغزل، ومحاولات التحرش.

تعدّدت محاولات اجتذابها، وإغوائها، لكنها لم تُفصح عن ميل لأحد، حرصت أن تُبقي الودَّ بينها وبين الجميع، توزّع ابتسامتها، تُظهر الاستجابة للإيماءة والدعابة والنكتة. بدت نظرات الرجال متشابهة، أو أنها نظرة واحدة. تتفحصها، تُعريها، تبحث عما تطلبه. يثق كلُّ منهم أنه هو وحده في حياتها. قد يتسلّون في جلسات المقاهي بسيرة نعمات، يُضيفون إليها، يجعلون أنفسهم أطرافاً في مواقف، نعمات طرفها المقابل. عيناها، اتساعهما، خضرتهما الصافية، أقوى أسلحتها في التأثير على مَنْ تريد استمالته. تُدرك أن الجنس هو العلاقة التي تربط بينهم وبينها، الإثارة، الرغبة، الشهوة، الملامسة. اتهمت بأنها أفسدت رجالاً كثيرين على زوجاتهم.

أظهرت غضبها لقول خليل الفحام: هل أصل العجر من مصر؟

— ما شأنني بهذا السؤال؟!

— ألسنتُ عجريّة؟

— في العراك إن أردت، لكنني من الإسكندرية.

تردّدها على الدائرة الجمركية، وما حولها، والكلام مع البحارة الأجانب والسائحين، أتاح لها التحدث بالعديد من اللغات. تستطيع أن تأخذ وتُعطي، وإن لم تعرف القراءة والكتابة، لا باللغة العربية، ولا بغيرها من اللغات. تمازح الجميع، تتبدل ملامحها — في اللحظة نفسها — بين الابتسام والغضب.

حين تعالَى — من ورائها — فحيحُ شوقي أبي سليمان، استدارت، وواجهته.

صرخ الرجل، وسقط على الأرض. حرص — فيما بعد — أن يبتعد عن طريقها. أحبها الصياد علاء حسونة.

بعد أن غيَّبته النوة — أو أن عروس البحر — في رواية غريب أبو النجا. هي التي اختطفته. رفضت أن تعود إلى صحراء المتراس. ظلت في حجرتها داخل حوش بيت الأسطى عمران الخولي. تخرج — كل صباح — إلى البيوت والمقاهي والكورنيش. تُنفق على نفسها مما تعلَّمته قبل أن تهجر أهلها.

صادقت مدني الحوشي صبي حميدو شومة. دفعها لإعالته. تسرق له الطعام من دكاكين شارع الميدان، والسجاير والأشياء الصغيرة من البيوت التي تتردد عليها. ربما تغافل سيدة تقرأ طالعها، تسرق من رسغها ساعة، أو إسورة ذهبية.

دعاها التاجر ربحان عسكر إلى شقة تعلو وكالته في شارع سوق السمك القديم. تبين — بعد انصرافها — غياب بيجامة وغيارات داخلية. سحب صبيانه إلى بحري. أجبر الحوشي على نزع البيجامة، وكل ما عليه. تركه عارياً.

استوقفت محمود سعيد في سيره — أمام خادمه — ناحية الوسعاية المقابلة لساحل الأنفوشي: لماذا لا ترسمني كما تفعل مع غيري؟

كان مشغولاً باسكتش لوحة «الصيد العجيب». تأمل ما تشغى به الحلقة في ساعات الصباح الأولى: البيع والشراء والفصال وطبالي السمك والنداءات والمياه الراكدة ورائحة الزفارة.

أردفت في لهجة تدل: تراني قبيحة؟

اصطبغ وجه محمود سعيد بالحمرة، وهمس بما لم يتدبره، ولا التقطته أذناها. أشاح عنها، وواصل السير.

قال لها عمران الخولي: زرته في بيته بجناكليس. يرسم اثنتين هاجر وحميدة.

— لماذا ليست نعمات؟

— لا يرسم غيرهما.

أضاف مستدركاً: لوحات قليلة، رسم فيها نساء من أسرته وخدمه!

لم تكن تحب النزول إلى البحر.

قد تجلس بجوار ملابس النساء في لحظات نزولهن البحر قبل أن يتأكد الصباح. تحرس الملابس، وتطمئن إلى غياب النظرات المتلصصة. ترفض من يعرض اصطحابها في

قارب. تبتعد عن تداخل لسان الموج ورمال الشاطئ. تسير على الرمال الدافئة. تكتفي بنفض قدميها، قبل أن تدسَّهما في الشبشب البلاستيك.

عرف عنها قدرتها على استمالة الرجال، وسلبهم أحوالهم. تدين للممارسة بما يُرضي الرجل، ما يُثير شهوته. تعلّمت أن جسدها هو بضاعتها، تُتيح التمتع به لمن يُمنَّه. تلجأ إلى الكلمات الداعية والإيماءات والإشارات والنظرات، وكل ما يجتذب شبكية الرجل. تفعل ما تعجز عن فعله نساء الحي.

حياة الانطلاق، والتنقل بين المواضيع، أتاحت لها أن تعرف ما لا يعرفه حتى الرجال. تُجيد الملاطفة والعناق والفحيح. تُفاجئ مَنْ توافق على عناقه بما لم يدر بباله، ويُنسيه نفسه.

هزّت كتفها بالرفض، حين دعّتها عليه عشاوي إلى بيتها.

طفحت لهجة عليه بالسخرية: هل تفضّلين قصر الملك؟

– أحبُّ أن أختار الرجل الذي أنام في سريرته.

– وهل ستجدين مَنْ يختارك؟

تنمرت ملامحها: لست خادمة رجال!

– هل تظنين نفسك السفيرة عزيزة؟!

قالت وهي تندفع في طريقها: أنت السفيرة عزيزة!

تعدّد الرجال في حياتها. مَنْ حاولوا استمالتها، أو مغازلتها، أو تحرشوا بها. طبيعتها المزاجية تدفعها إلى الرفض. ربما التقت بمن سبق التقاؤه بها، فلا تعرفه. يحاول تذكيرها. تُغمض عينيها، أو تقطب جبهتها، تظهر التذکر، أو تُشيع بيدها دلالة اليأس.

محمود فياض هو الذي مالت إليه، وسعت لمعرفته.

رأته – لأول مرة – أمام دكان الطيبين. الجلسة الهادئة، المسترخية، الكتفين

العريضتين، الشعر الأسود الغزير يُطل من فتحة القميص، العينين الساهمتين لا تتبين إلى أين تتجه نظراتهما.

أكثرت من التردد على الدكان. أعطت وأخذت مع الحاج محمد الطيبين. أطالت

نظراتها نحو محمود فياض. عيناها تنطقان بالغواية. تأمل رد الفعل الذي تريده.

كان عراقي أبو سنة أول مَنْ التقط نظرة المعلم بدوي الحريري للعجربة نعمات. ترددها على الحلقة قليل. معظم شرواتها من الفرشات أمام البناية.

قصدت الحريري في شروة مرجان. لم تَطُل مساومتها له، وإن بدا الحريري كأنه يشاهد المرأة للمرة الأولى.

حدَج الأنوثة في جسدها بنظرة متفحصة: القامة الطويلة، المدملجة، الشعر الأصفر المنسدل على الكتفين، العينين الخضراوين، الأنف الأَقْنَى، الخزوم بقرط ذهبي مستدير، الشفتين المكتنزتين، لا تخلوان من شهوانية، الوشم ذي الخطوط الخضراء، المتوازية، من الشفة العليا إلى نهاية الذقن، تفصيلات ما تحت العباءة السوداء، الاستدارات، والتكويرات، والإيماءات المحرّضة، الخلالين الملتقّين حول ساقها، يصدر عن احتكاكهما صوتٌ لا يُحدثه الخخال المفرد.

التقطت اختلاس نظراته لجسدها.

أبطأت من خطواتها، حرصت على التأود، والتثني، وترقيق الصوت، والتحدث بميوعة وغنج.

أخذ الحريري من المرأة، وأعطى. ترك لها فنجان القهوة، تقرأ التقاطعات والتشابكات في داخله، وعلى حافته. وجد الصدق فيما روتّه عن ماضيه، وفي اقتراب توقعاتها بما يعيشه، ويأمله.

حين مضت ناحية باب الحلقة، زاد من تحريك مشاعره رنين الخخال في ساقَيْها. عرف الناس أن كثرة تردّد نعمات على بيت الحريري لإجادتها قراءة الفنجان ووشوشة الودع وضرب الرمل.

ملكّت عليه أفكاره ومشاعره ورغباته. يصحو على تصوّر قسماتها، وإيماءاتها، وكلماتها المحرّضة. صارت — في حياته اليومية — هي البدء والمنتهى.

تأملت نفسها وهي تُمسّد نهديها. استدارت ناحية الباب. قالت: أريد الحمام. أشارت إلى جسدها، وهي تغالب الارتباك.

قال: لماذا؟

— يجب أن أستحم.

أعاد تأمّلها.

بدا — في كل جزء من جسدها — ما يحرك الشهوة. أحس بالنيران تشتعل.

قال في لهفة: أريدك هكذا. تحممي بعد أن نقضي وقتاً.

اجتذب ذراعها في عفوية قاسية. استعاد هدوءه في اللحظة التالية. همس بالرغبة في

أن تظل كما هي. يُثيره الطين الملتصق بالبشرة ورائحة العرق.

اقتحمت به ما لم يتصور مجرد رؤيته، أو الوقوف على حوافه من الكهوف والأحراش والغابات.

عراه — في لحظات التوقّد — ما يُشبه الجنون. تقبّل الإثارة والقسوة. لا رفض، ولا تدمر، ولا تقزز. ما أقدمت على فعله تقبّله. كتم صوته عن التآلم، استعذب خمسها له بأظافرها، وعضّات أسنانها المغروسة في كتفه.

أغمض عينيه على التوقع، وإن لم يتوقع فعلاً محدداً. هي تملك ما لا يعرفه، ولا يتصوره، وإن استغرقتة نشوة مطلقة.

أحدث زواج بدوي الحريري من نعمات صخباً في بحري، أعلى مما تُحدثه مضاجعة كرم حامد لزوجته في أمواج الأنفوشي.

مَنْ سَرَبَ الخَيْر؟

غابت الإجابة المحددة، لكن الناس تناقلوا الخبر. همسوا به، دُهبوا، تندرُوا، خَمَّنُوا التوقعات.

أغمض الحريري عينيه، وأظهر التأثير: تعلمت من نعمات أن المضاجعة الحلال لا لذة فيها.

قال جودة هلال: لكنك تزوجتها.

— شرطي لزواجها أن نواصل ما كنا فيه.

وبصوته المفعم بالتأثر: اسمي بدوي، لكنني لست السيد البدوي، والمرأة ليست فاطمة بنت بري!

وواجه نظرة جودة هلال: أنا رجل عادي، أردت المرأة فاقتنيتها بالحلال!

ثم وهو يُشيع بيده: أليس الزواج أرحم من كبيرة الزنا؟!

أهمل همسات بأن زواجه بها لم يمنعها من إقامة علاقات أخرى، جانبية، وعابرة. زواج نعمات بالحريري أكّد ما ذكرته المراجع أن معدل أربع زيجات كل مائة مع غير الغجر، يُفضي إلى نسبة تبلغ سبعين في المائة لغجر بهم دماء غير غجرية، وأن ثلاث زيجات كل مائة، تُصل بالنسبة إلى ثلاثين في المائة.

انظر: بدوي الحريري، حميدو فارس، شوقي أبو سليمان، عليّة ع شماوي، فاروق الأول، محمود سعيد، محمود فياض.

## ياقوت العرش

أعلى المقامات في القرب من الله، هو مقام الرسل. ثم مقام النبوة، وبه مقامان، مقام نبوة الرسالة، ومقام نبوة النبوة. تندرج النبوة تحت الرسالة اندراج النجم تحت أشعة الشمس. ثم مقام الصديقين، فمقام الشهداء، فمقامات الصالحين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

ياقوت بن عبد الله الحبشي العرش من صفوة الأولياء الصالحين. خَلَفَ — ولا يزال الكثير من البركات والمكاشفات وغريب العجائب.

وُلِدَ ببلاد الحبشة، ثم قَدِمَ إلى مصر. فرَغَ نفسه للتلمذة على أبي العباس، والإفادة من علمه. أخذ عن القطب وتأدَّب، وقام على خدمته. أحبَّه أبو العباس، وقربَّه، جعله من خواص مريديه وتلاميذه. تأكيدًا لمحبة السلطان، زوَّجه من ابنته مهجة، حفيدة الإمام أبي الحسن الشاذلي.

أعلن حاكم الإسكندرية ضيقه؛ فهو يمر على أبي العباس بين أصحابه. يقف الأصحاب احترامًا، ويظل المرسي في جلسته. زاد من ضيق الحاكم أن أبا العباس كان يقف إذا مرَّ عليه أحد خدمه.

قال الحاكم: كيف تقف لخدمك، ولا تقف لي؟

لم يردَّ أبو العباس، وطلب الخادم.

قال الأصحاب: إنه يجمع فتات الخبز الذي أكله الآكلون.

قال أبو العباس: ليأت، ومعه فتات الخبز في يده.

وطلب أبو العباس من الخادم أن يفتح يده التي تقبض على فتات الخبز.  
فتحها الخادم، فهتف الحاكم في عجب: يا قوت!  
وسمّي الخادم «ياقوت».

وحين شكا بعض مريدي أبي العباس وتلامذته من أن «ياقوت» يصلي الفرائض قبل  
أن يؤذّن حسب التوقيت المحلي لثغر الإسكندرية، كان السلطان يعلم أن خادمه يسمع  
الأذان من السماء.

قال أبو العباس لياقوت: انخرط معنا يا ياقوت، وصلّ في جماعتنا.  
سُمي بذلك ياقوت العرش.

لازم ياقوت أبا العباس في روحاته وغدواته، لا يكاد يتركه ليلاً أو نهاراً، إلا إذا أسلم  
القطب رأسه للنوم. إن لم يكن ياقوت نائماً، يظل بالقرب من موضع نوم السلطان حتى  
يستيقظ، فيكون أول من تقع عليه عيناه.

جعل نفسه في خدمة قطب الإسكندرية. يتلقّى عنه أوامره وإرشاداته. يُبلغها إلى  
مريديه في المساجد والزوايا والساحات. يتابع خطوات التنفيذ.  
خرج عن الحياة المادية إلى حياة روحية، قوامها العناية بأمر الدين، والمراعاة الصادقة  
لأحكام الشريعة.

أمعن في الحياة الروحية. زهد في الدنيا. عُني بتصفية القلب عن شوب النفس. تقشّف  
في العيش، قلّل من المأكّل والمشرب والملبس. صفت نفسه، وصقلت مرآة قلبه، عرف العلوم  
الظاهرة والباطنة، ظهرت له مكاشفات وأحوال.

اطمأن — بينه وبين نفسه — إلى أنه لم يصدر عن حبه للذات العليّة عن خوف من  
النار، ولا عن طمع في الجنة، وشوق إليه، إنما أقبل على الله لذاته. لازم مجاهدات النفس.  
سار في طريق التصوف والورع والزهادة. استغرق في حب الله تعالى.

أفاد ياقوت العرش من علم أبي العباس ونصائحه.

قال: «كنت أتعبّد في مسجد خارج الإسكندرية، فبقيت فيه مواصلاً أياماً، فأصابني  
الجوع. دخلت الإسكندرية قاصداً الشيخ. وجدت في طريقي درهماً، فأردت أن أشتري به  
خبزاً وإداماً. رأيت في السوق زبيباً طيباً — كنت أعلم أنه يحبُّه لأنه من بلاد الأندلس،  
وهو كثير في بلاده — اشتريت بالدرهم منه، وأثرته على نفسي...»



قصدت إلى الشيخ، فوجدته جالساً في القلعة لأنه كان يسكنها بعد القطب الشاذلي. وضعت الزبيب بين يديه، وأردت أن أقوم. قال لي سيدي المرسي: اجلس. جلست، وإذا برجل وصل إليه بمائدة فيها كبش سمين مشوي، ورقاق طيب. قال لي الشيخ: هذا فتوحك، لما أثرتني على نفسك وأنت جائع، فكل. أكلت وحدي، حتى امتلأت. أمر الشيخ للفقراء بأكل ما تبقى، وقال لي: ارفع الزبيب وتصدّق به، فإننا لا تباح لنا اللقطة.

قدّم رجل لسيدي ياقوت طعاماً لم تسترح له نفسه. قال في نفسه: هذا طعام حرام. ورفض أن يتناوله. لمّا دخل عليّ المرسي، ابتدره بالقول: ومن جهل بعض المريدين أن يُقدّم له طعام، فيرى عليه ظلمة، فيقول: هذا حرام. واتجه ناحية ياقوت العرش بنظرة مشفقة: يا مسكين، ما يساوي ورعك بسوء ظنك بصاحبك المسلم؟! ... هلاً قلت: هذا طعام لم يُردني الله به؟ أكّد أبو العباس محبته لياقوت العرش، بتزويجه ابنته مهجة. جاوز كل الصفات إلى صفة النسب، بالإضافة إلي تخلّقه بالدين.

قال أبو العباس لياقوت العرش: ليس الشأن أن تسلك كل يوم ألفاً من العوام، بل أن تسلك فقيهاً واحداً في مائة عام. وأثنى عليه كثيراً، وأشار إليه بالولاية التامة.

صار لياقوت العرش استقلاله في الولاية والقطبية والكرامات. عرف عنه تنبُّؤه بالغيب في الحال والاستقبال، واطلاعه على ما في السرائر، وإحساسه بالأحداث في الأماكن البعيدة، ورؤيته لنعيم الجنة، ومشاهدة فيض أنوار الذات الإلهية، وكشف ما في ملكوت السموات. صار من أرباب القلوب، والأحوال، والدوائر الكبرى. لم تكن عيناه تملّان التطلّع إلي السماء. يشاهد — بقلبه — ما لا يراه الناس من الأسرار والأقدار والعجائب. يرى الأماكن البعيدة من وراء الحجب. يكشف مريديه بما في

صدورهم. يتصرف بإلهام يُشبه الوحي. يفاجئ زوّاره بما تناولوه من طعام، وما فعلوه حيث كانوا. يبين عما تصمت عنه ألسنتهم. يكشف عن حال الموتى، ويسمع كلامهم عن الماضي والمستقبل. يخضع الجن لطاعته دون تعازيم، ولا طلسمات ولا إقسام. يطير في الهواء. يمشي على الموج. يُنفق من الغيب. إذا أراد الحج، أو زيارة البيت الحرام، طارت به السجادة التي يجلس عليها إلى حيث يشغله الذهاب، ثم عاد إلى موضعه.

رُوي أن من حضور دروسه العلمية ملائكة وجان.

أقبل عليه الكثير من المريدين.

يرى اسم المريد — الذي يأخذ عليه العهد — مكتوبًا في اللوح المحفوظ.

امتدت بركاته إلى مريديه وتلامذته، فهو يأذن ببركات تخص الأولياء، وأرباب

الكرامات والأحوال.

وجّه تلميذه علي البدوي الشاذلي — مرات كثيرة — لتحقيق منافع في أسفار من

الإسكندرية إلى بلاد الأندلس، في مدى نهار واحد، دون أن تطوى له الأرض.

كان غريب أبو النجا يزور مقام سيدي ياقوت — قبل كل رحلة صيد — يستأذن ولي الله في السفر. يأتي صوت الولي من داخل القبر: توكل على الله!

وقع الشيخ شمس الدين محمد بن اللبان الأسعدي في حق الغوث الكبير والقطب الشهير سيدي أحمد البدوي، البحر الذي لا يدرك له قرار، منقذ الأسرى من بلاد الإفرنج، مغيث الناس من قطاع الطريق، أحد أركان الولاية الذين اجتمعت الأمة على اعتقادهم ومحبتهم. كان ابن اللبان قاضيًا للقضاة بدمشق. استحضره السلطان، فامتثل للأمر، وحضر. في مصر استقبله قاضي القضاة ورحب به. بات ابن اللبان ليلة وصوله بالجامع، حيث أمّ الناس في صلاة العشاء. بعد الصلاة خرج ابن اللبان وقاضي القضاة يتمشيان. صادفًا رجلًا من أتباع السيد أحمد البدوي يذكر الله تعالى، ويقول بصوت مرتفع: السلام عليك يا رسول الله، والسلام عليك يا أحمد يا بدوي.

عجب ابن اللبان لما سمع. التفت إلى قاضي القضاة متسائلًا عن ذلك الذي أشرك

السيد البدوي مع رسول الله في السلام. قال: هذا الرجل يستحق التعزير البليغ!

حاول قاضي القضاة أن يلتمس العذر للرجل. قال لابن اللبان: لعل حب شيخه قد

غلب عليه باعتقاده في شيخه.

لكن ابن اللبان أصرَّ على تعزيره وتأديبه.  
رأى الشيخ ابن اللبان — في منامه تلك الليلة — كأن سقف الجامع قد انشق، ونزل منه رجلان، جلس أحدهما عند رأسه، وجلس الثاني عند قدميه.  
قال الرجل الأول للثاني: اسلبه الإيمان!  
ردَّ عليه الرجل الثاني: لا، بل نسلبه العلم والقرآن، ونُبقي عليه الإيمان، فإنه وقع في حق سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه تعالى.  
ثم أمسكه الرجلان، كلُّ من ناحية، وهزَّاه هزًّا شديدًا «فطمس الله — سبحانه — على قلبه، وانتزع العلم والقرآن من صدره».  
قام ابن اللبان من نومه فزعًا. استعاد ما يحفظه من آيات القرآن ومسائل الدين. تبين أنه لم يعد يذكر آية قرآنية، ولا مسألة من مسائل الدين. ولما أُذِّن لصلاة الفجر، اعتذر الشيخ عن إمامة المصلين. ظنوا أنه يريد دخول الحمام، فصلُّوا، وانصرفوا.  
روى الشيخ ابن اللبان لقاضي القضاة ما جرى له أثناء الليل، نتيجة قوله في مرید السيد أحمد البدوي. عرض عليه قاضي القضاة أن يعتذر عما قال للفقراء الأحمديَّة، ربما رفع السيد البدوي غضبه عنه.  
ذهب ابن اللبان إلى الفقراء الأحمديَّة في زاويتهم، فاعتذروا جميعًا بأنهم لا يقدرُونَ أن يدخلوا في أمره.  
تذلَّ ابن اللبان، واستعطف، وبذل الرجوات، وبكى.  
قال له فقير أحمدي: هل تتوب إلى الله تعالى؟  
قال ابن اللبان: نعم، ولا أعود لمثلها!  
— إن كان ولا بد، فسافرْ إلى الإسكندرية، والتقِ بسيدي ياقوت العرش، تجد الفرج على يديه بإذن الله.  
سافر ابن اللبان — يصحبه قاضي القضاة — إلى سيدي ياقوت العرش. لم يكادا يدخلان زاوية سيدي ياقوت، حتى ابتدر وليُّ الله ابنَ اللبان بالقول: يا شمس الدين! ما الذي أوقعك في مثل هذه الورطة العظيمة؟!  
أدرك أن ولي الله يُعري دخائله، ويكشف أسرارَه، وما يُضمَره من نيات.  
اعتذر ابن اللبان عن عدم التوضُّؤ والصلاة، بأنه نسى القرآن، فلا يستطيع الصلاة وهو لا يذكر إلا بالبسملة.

أمره ياقوت العرش أن يشتغل بالذكر والتوحيد. وظل ابن اللبان على تلك الحال ثلاث ليال، حتى رأى نورًا، فاستبشر خيرًا.  
في الليلة الرابعة، رأى الشيخ رسول الله ﷺ جالسًا على كرسي عالٍ من النور، والأنبياء من حوله جلوس على كراسٍ، والسيد أحمد البدوي بين يدي النبي.  
اتجه الرسول بكلامه إلى السيد البدوي: يا أحمد! لأجلنا طيب خاطرِكَ على محمد بن اللبان.

ثم التفت إلى ابن اللبان بقوله: أما علمت أن من أولياء الله تعالى مَنْ تحت جناحي الأيمن، ومنهم مَنْ تحت جناحي الأيسر، وأحمد البدوي تحت جناحي الأيمن.  
قال ياقوت العرش لأحمد البدوي: أنت أبو الفتيان ... رُدَّ على هذا المسكين رأسماله.  
قال البدوي: بشرط التوبة.

قال ياقوت العرش لابن اللبان: يا محمد! أبشر، فقد قضيت حاجتك. سُقَّت على السيد أحمد البدوي جميع الأولياء، فلم يقبل، فسُقَّت عليه سيد الأولين والآخِرِينَ ﷺ — رأيت ذلك بعينيك — فسافر في الحال إلى طندتا. طفَّ حول صندوق سيدي أحمد البدوي، أقم عنده ثلاثة أيام، فإن حاجتك قد قضيت إن شاء الله.

أقام ابن اللبان في مقام السيد البدوي ثلاثة أيام، يطوف، ويتضرع، ويبكي، وينام — حين يغلبه النوم — تحت قدمي البدوي. ثم قال له السيد في المنام: لا تُعَدِّ لمثلها، فوالله لولا جدي رسول الله ﷺ، لسلبتكَ الإيمان!

ووضع يده على صدر ابن اللبان. رُدَّ عليه حفظه للقرآن، وعلمه.  
زاد اعتقاد ابن اللبان في ياقوت العرش — من يومها — ولزم مجلسه. قدَّمه في المسائل على غيره من أولياء الله، لا يزور وليًّا من أهل العصر إلا بإذنه وموافقته، ولا يسمع من سواه، ولا يعرض ما يواجهه من مسائل ومشكلات إلا عليه. جعل التصرُّف كلَّه لسيدي ياقوت العرش، هو الذي يقضي ويفصل.

زوَّجه سيدي ياقوت ابنته، فلما أدركه الأجل، دفن تحت رجليها بالقرافة.  
الوساطة نفسها بذلها ياقوت العرش، حين هاجم رجل سلطان الإسكندرية المرسي أبو العباس، بقول جارح، وهو يُلقِي درسه داخل الجامع.  
قال السلطان: اخرج يا ممقوت!

أخرج مريدو القطب الرجل. سلبه المرسي — قبل أن يبلغ الباب — ما كان يحفظه من القرآن والعلم. سار في الطرقات دون غاية. دلَّه الناس على ياقوت العرش، صفيًّا

السلطان وتلميذه وزوج ابنته. تشفع ياقوت العرش عند المرسي. سامح أبو العباس الرجل، وإن تركه على حاله من السلب، حتى مات.

علا في مجلسه الزعيق والتشويش. طلب من مرديه أن يُعطوا المجلس توقيره. عاود ولي الله تحذيره من الهرج. ظل حسونة التابعي على ارتفاع صوته. عاب عليه ولي الله الكذب في الأقوال والأفعال والأحوال. عاب عليه ضعف اليقين ورقة الديانة، وارتفاع الصوت بما قد يشرد بالمجلس عن طريق الله.

اكتفى سيدي ياقوت العرش بالشروذ في الفراغ، وإن انعكس الاستياء واضحاً في ملامحه.

لم يكد حسونة التابعي يمضي خطوات، حتى تأوه، وأسلم الشلل جسده إلى الأرض. التفّ المريدون حول الرجل. أخفقوا في تحريكه. كان ساكناً تماماً إلا من عينين اتجهتا بالاستغاثة إلى عيني ولي الله.

داخل ولي الله إشفاقاً. عفا عن التابعي بإيماءة ذقن. وقال ياقوت العرش لشيخ الصيادين إدريس بركة، حين التقيا في طريق البحر: كن دائماً، ولا تكن مديناً.

ثم في نبرة محدّرة: قبل صباح غد تترك دنياك، فلا تبدأ آخرتك وأنت على دين! واختلط الصّوات من بيت إدريس بركة، مع رفع أذان الفجر من جوامع بحري.

لم يترك مؤلفات. وكان قوام شهرته، خلقه، وما حصّله من علم. عرف عنه التبجر في العلم، والورع، وخشية الله، والتواضع لعباده. وكان يقينه — الذي لا يني يردده: نحن لا نملك لأنفسنا، ولا لأحد، نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ذلك كله مستور في الكتاب، لا يصل إليه علم بشري.

فني عن هوى النفس وما تدعو إليه، وعن سائر الأمور الخلقية. فني عن الأخلاق الذميمة كالحسد والكبر والغيبة والنميمة والكراهة وغيرها. أشفق على فقراء، دعا لهم فصاروا أغنياء.

كان يؤثر الإشارة على العبارة، والتلميح بدلاً من التصريح. يسكت عن الحديث، ويشرد، يعروه ما يُشبهه الدهول. يدرك مريدوه أنه يُصغي إلى وحي إلهي. إذا جلس قاموا على رأسه، وإذا سار مشوا في ركابه، وإذا لزم الخلوّة، أو مضى إلى النوم، ظلّوا على باب حجرته، لا يتركونه حتى يأذن، فيفتح الباب. يبدو كالطيف النوراني، لا يقوى مريدوه على النظر إليه لشدة ضيائه.

أكثر من الخروج لطلب الخلوة والرياضة الروحية. يمشي فتظللّه غمامة من وهج الشمس.

قدم المجاهدة. أسقط الصفات المذمومة. تخلّى كلية عن شواغل الدنيا. اكتفى بالله تعالى. ظهر على يديه الكثير من خوارق الكرامات. يكشف الغيب، وما في الضمائر، يعلم بالعديد من الحوادث قبل أن تنشأ، يسمع الهوائف من الهواء، يتنبأ بالأخبار، يهرول على وجه الماء، كما يهرول الإنسان على الأرض، يطوي الأرض دون أن يبرح موضعه، يشاهد الكعبة وهو في موضعه، يستغرق في نور معرفة الله تعالى.

قُدِّر لياقوت العرش أن يصبح من خواص مريدي سلطان الإسكندرية، لازم خدمته، لا يغادره إلا لضرورة، صحبه في لزومه المسجد، وجولاته في الأسواق. أخذ عنه، وتأدّب بأدابه، وعرف إشاراته، حتى مات في ١٣٣٢م/٧٣٢هـ. دفن في جامع الحالي القريب من جامع أستاذه المرسي أبي العباس.

سأله أحد المريدين: لماذا أوصيت أن يقام مسجدك في هذا المكان؟  
قال ياقوت العرش: لأكون بالقرب من شيخي المرسي أبي العباس.  
وأشار إلى ما حوله: ولأن هذا الحي سيضم - في قادم السنين - مساجد الكثير من أولياء الله وأضرحتهم ومقاماتهم.

هذا ما تحقق - فيما بعد - في حي بحري.  
لما تهدّم الجامع، جدّده المعلم أحمد الداخني، شيخ طائفة البنائين بالإسكندرية في ١٨٦٣م، ووقف عليه أوقافاً. ثم أُعيد بناؤه، بعد أن تهدّم للمرة الثانية في تسعينيات القرن العشرين بتأثير أعمال بناء ابتلعت ما حول الجامع، وجامع أبي العباس، ومقامات الأولياء الاثني عشر.

أيقن الناس أنه امترك الأسباب. عرفوا أنه يتصرف - بعد موته - تصرّف الأحياء. صاروا يلجئون إلى شفاعته في عودة غائب اختطفه البحر، أو ترك بحري فلم يعد، شفاء مريض عجز الأطباء عن مداوته، قضاء حاجة سدّت إليها كل المنافذ. يأتيه الناس من مدن بعيدة، يستفتونه فيما يعرض لهم من المسائل.

كان يُخرج للناس فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، ويُخرج لهم ما لم يروه، ولا تذوقوه، من ألوان الفاكهة.

## ياقوت العرش

احتفال مولده ليلة واحدة كل سنة في رمضان. يحرص مريدوه وزوّار مقامه على شراء رضائه بتقدمات الصدقات والندور، وإقامة مولد يشغى بحلقات الذكر، وقراءة الأوراد، ودلائل الخيرات، والمدائح النبوية.  
مَن استغاث بولي الله، لا يقدر أحدٌ أن يناله بمكروه.

انظر: أبو العباس، غريب أبو النجا. اقرأ روايتنا «ياقوت العرش».

